المجلة الجديدة

يولية ١٩٣٦

الثمن ٣ قروش

اقرأ في هذا العدد

الرسام محمود سعيد

٣٢ صفحة من ورق الكوشيه
بها ٣٢ رسما له

كتاب قصة الملك الحائر

أو

حياة الشاعر شيلي

غير المقالات وسير الحوادث الخ

مطبعة المجلة الجديدة

المجلة الجديدة

الثمن ٣ قروش

يولية ١٩٣٦

اقرأ في هذا العدد

الرسام محمود سعيد

٣٢ صفحة من ورق الكوشيه بها ٣٢ رسماً له

كتاب قصة الملك الحائر

أو

حياة الشاعر شيلي

غير المقالات وسير الحوادث الخ

مطبعة المجلة الجديدة

فهرست

١ — الاشتراك فى المجلة الجديدة الشهرية في مصر والسودان لمدة عام هو ٤٠ قرشا و ٢٠ قرشا لستة أشهر وفى الخارج ٥٥ قرشا فى العام

٢ — الاشتراك فى المجلة الجديدة الاسبوعية فى مصر والسودان هو ٢٥ قرشا فى العام و ١٣ قرشا لستة أشهر وفي الخارج ٥٠ قرشا فى العام و ٢٥ قرشا لستة اشهر

٣ ـ الاشتراك فى المجلة الجديدة (الشهرية والاسبوعية) فى مصر والسودان هو ٦٠ قرشا فى العام و ٣٠ قرشا لستة أشهر . وفى الخارج مائة قرش فى العام و ٥٠ قرشا لستة أشهر

تصدر المجلة الجديدة ١٢ عددا سنويا

وتهدى الى قرائها كتابين كبيرين

١٢ شارع نوبار (مكتب بريد الدواوين بمصر)

الهديتان

استبطأ بعض المشتركين ارسال الهديتين المقررتين لسنة ١٩٣٦ . ونحن نعد بارسالهما قبل نهاية شهر أكتوبر القادم . وانما تأخرنا الى هذا الوقت لـكى نختار أحسن ما يمكن اهداؤه



محمود سعيد   رسام مصري

صاحبها ومحررها
سلامه موسى
المجلد السادس

المجلة الجديدة

العدد السابع
من
السنة الخامسة

يولية سنة ١٩٣٦

سير الحوادث

لا يمكن الا أن نعتقد على الرغم من كل شيء ان المفاوضات لعقد المعاهدة بيننا وبين بريطانيا تسير سيرا حسنا . وذلك لاننا نحن والانجليز نرغب اشد الرغبة في عقدها . فان موسوليني بنكثه للمعاهدات وبالروح الامبراطوري الذي يسود ذهنه واذهان الفاشيين الايطاليين وبالعظموت الاستعماري الذي يملكهم جميعا قد أوضح لنا أننا لانستطيع أن نعيش بجواره وهو يحتل طرابلس



السر ميلز لامبسون

الا اذا استندنا الى قوة دولة كبيرة تؤمننا من غارة مفاجئة كما فعل فى الحبشة . ولو كنا مستقلين لنا جيش واسطول لطلبنا هذه المعاهدة والححنا فى عقدها مع بريطانيا

ويبدو من طوالع الاحوال أن الانجليز سيطلبون ابقاء محطة الماظه للطائرات ثم احتلال الجيش البريطاني للضفة الشرقية لقناة السويس واحتلاله ايضا للحدود الغربية لمصر مع تهيئة ميناء الاسكندرية أو غيرها لكى تتسع لايواء البوارج

وهذه الطلبات تعد كبيرة . ولكن الخطر الذى يلوح به موسولينى من غزوه لبلادنا وضمها للامبراطوريه الرومانية الجديدة أكبر . وقد جرب التجربة الاولى فى الحبشة وعرف أن اوربا لاتغامر فى حرب من أجل استقلال دولة افريقية . وهو مستعد لان يغامر فى تجربة ثانية لغزو مصر اذا وثق بان الانجليز لن يدفعوا عنا عدوانه . وقد تغلغل الى الآن فى بعض اوساطنا واستخدم اموال دولته لتحقيق غايات نجح فيها نجاحا يذكر

النجاشي والعصبة

قصد النجاشى بعد أن ترك بلاده للفوضى أمام العدو الى فلسطين ثم غادرها الى لندن وهو الان فى جنيف يقول للعصبة ان ايطاليا لم تستول الا على نصف أو ثلث الحبشة وان فى اقاليمها الغربية جيشا حبشيا لايزال قادرا على المقاومة . وقد يكون هذا الكلام صحيحا بل يرجح انه صحيح ولكن الملك الذى يغادر بلاده ويفر من الجيش الغازى كما فعل النجاشى يجب أن يعرف أن العالم المتمدن لايمكنه أن ينظر اليه بعين العطف السابق حين كان فى المعمعة يجاهد للاستقلال ورد العدو

وقد خسرت الحبشة جزءا كبيرا من قضيتها عند ما خابت الجزاءات التى وقعتها عصبة الامم على ايطاليا فى اجبارها على وقف الحرب . ولكن خسارتها الآن اكبر بفرار هذا الامبراطور وقد الغيت الجزاءات . وبات من المحال جلاء ايطاليا عن الحبشة . وليست هناك قيمة عملية لانكار فرنسا او بريطانيا لهذا الاحتلال . ويمكن العصبة أن تصل الى تسوية مع ايطاليا على ابقاء شبح الاستقلال الحبشى بصيغة ما فى الاعتراف باحتلالها . ولكنا نشك حتى فى قبول ايطاليا لمثل هذا الطلب الذى كان يعقل لو كان الامبراطور لايزال مع جيشه المزعوم فى غرب الحبشة

ونحن نثبت بلا خجل ان الحبشة تنتفع باحتلال دولة اوربية لها تنقلها من القرون الوسطى الى القرن العشرين . ولكن ايطاليا آخر دولة تستطيع ذلك . فان موسولينى يحاول رد بلاده إلى القرون الوسطى ويكافح الديمقراطية ومبادىء الحرية الحديثة فى أوربا فليس هو رسول الحضارة

الذى يمكن أن يعتمد عليه فى مثل هذه المهمة . ولكن التيار العام الذى ينقل اوربا من اليمين الى اليسار سوف يكتسح ايطاليا ويقضى على الفاشية المظلمة . وعندئذ تنتفع الحبشة حتى بالاحتلال الايطالي

أما مستقبل العصبة فقد بات هو الآخر فى خطر . فان موسولينى قد اثبت لاوربا انه يستطيع ان يوقع المعاهدات ثم يخالفها وان عهد العصبة حبر على ورق . وعندنا أن العصبة لا يمكنها ان تؤدى رسالتها مالم تدخلها الولايات المتحدة . ولو كانت هذه الدولة عضوا فيها وقت النكث الايطالى لاتفقت مع بريطانيا على محاربة ايطاليا فى البحر المتوسط ووقف عدوانها عن الحبشة . ومن الصعب الآن ان يتكهن الانسان عن مستقبل العصبة . وربما تحتاج اوربا الي حرب اخرى قبل التسليم بمبادىء العصبة

النمسا والموكيه

قصة النمسا فى السنين السبع عشرة الماضية هى مأساة مؤلمة تدل على النزق والحقد اللذين اجتمعا فى رؤوس الساسة الذين وقعوا معاهدة فرساى . وقد كان ساسة الحلفاء حاقدين حانقين على جميع الدول التى اشتركت مع المانيا فى الحرب الكبرى فبعثهم هذا الحقد على النزق والمجانة بالمستقبل فكانت النتيجة تمزيق امبراطورية النمسا والمجر وضم بعض اقاليمها الى تشكوسلوفاكيا ورمانيا وبوغوسلافيا دون نظر إلى العواقب الخطيرة التي تترتب على هذا التمزيق . والآن وبعد ١٧ سنة من هذا التمزيق نجد :

١ — ان هنغاريا ترفض أن تكون جمهورية ولا تزال تسمي نفسها مملكة وان لم يكن عليها ملك لانها تريد الملوكية التى حرمتها منها معاهدة فرساى

٢ — ان النمسا لا تزال تطلب أسرة هابسبورج وتأبى أن تكون جمهورية

٣ — ان الاقليات التى كانت جزءا متمما لامبراطورية النمسا والمجر قبل الحرب أصبحت كل منها شوكة تثير المشاكل للدول الثلاث المحيطة وهى رومانيا ويوغوسلافيا وتشكوسلوفاكيا

٣ — ان النمسا قطعت عنها مواردها الزراعية كما قطعت عنها مواردها الخارجية بانتزاع أقاليمها التى على البحر المتوسط

هذه هي بعض النتائج التى تعانيها أوربا الوسطى من معاهدة فرساى . وقد عمت الفاقة جميع النمسويين وأصبحت عاصمتهم فينا التى كانت عروس أوربا قبل الحرب يخيم عليها البؤس . فقد كانت عاصمة أمبراطورية كبيرة تبلغ نحو ٢٣ مليونا فأصبحت على ضخامة مبانيها وسعة رقعتها عاصمة أمة فقيرة لا يزيد سكانها على خمسة ملايين أو ستة . ولذلك فان أصحاب المبانى انخفض دخلهم لأن

معظم السكان هجروا المدينة وكثر العطل ففشت الافكار الثورية وقوى الحزب الشيوعي ووقعت مصادمات عنيفة بين الحكومة وبين الشعب لهذا السبب أقربها إلى الذكرة ذلك الاصطدام الذي وقع بين دولفوس وبين الشيوعيين وقد انتهى بهدم دور العمال جميعها بالمدافع . ثم عاد العمال فانتقموا لأنفسهم بقتل دولفوس

وجميع الاضطرابات السياسية التي وقعت بعد ذلك هي نتيجة الفاقة العظيمة التي يعانيها السكان فان هذه الفاقة جعلت عدداً كبيرا من السكان يعتنق الشيوعية كما جعلت عدداً آخر يعتنق الفاشية أو يطلب الانضمام إلى ألمانيا . وآخر أطوار هذه السلسلة هو شوشنيج الذي يحاول الآن رد أسرة هابسبورج إلى العرش اعتقادا بأن هذه الاسرة يمكنها أن تحفظ استقلال النمسا من مطامع ألمانيا من الشمال ومطامع ايطاليا من الجنوب . وقد عرف النمسويون انه لا يمكنهم في ظروفهم الجديدة أن يحموا أنفسهم من احدى الغارتين

فلسطين والصهيونية

لاتزال فلسطين فى جهادها لوقف الحركة الصهيونية . ولكن الانسان يشك فى قيمة هذا الجهاد ازاء الرأى العام الاوربي الذى يوافق على الانتداب وعلى الهجرة الصهيونية . وقد استطاعت ايطاليا أن تضرب بوعودها وعهودها عرض الحائط لأن لها قوة أيدتها فى النكث والغدر . ولكن ليس عند الفلسطينيين قوة لالغاء الانتداب

وكان يمكن الفلسطينيين أن ينتفعوا بالحركة الصناعية العظيمة التى يقوم بها اليهود فى مستعمراتهم وينشئوا المصانع الحديثة . ولكنهم لم ينتفعوا . مع انهم لو كانوا قد فعلوا ذلك لاستطاعوا أن يثبتوا أمام الهجرة الصهيونية ويردوها على أعقابها . ولكن مادام الفلسطينيون يمارسون الزراعة البدائية فى حين يمارس اليهود الزراعة الدقيقة الفنية والصناعة الآلية الحديثة فان الفوز محقق لليهود وليس بعيداً أن تنتهي الاضطرابات الحاضرة بتقسيم فلسطين بين اليهود والعرب . وهذا هو أسوأ مصير للعرب بل لنا أيضا وقد سبق ان قلنا ان الحركة الصهيونية هى حركة رجعية تناقض روح العصر . وهي كذلك من حيث الدعوة إلى الوطنية الحادة فى وقت يجب أن تسود فيه العالمية. ومن حيث احياء اللغة العبرية . ولكن اليهود بالحركة الصناعية التى أفشوها فى مستعمراتهم ومدنهم ليسوا رجعيين بل مجددين . وهذا التجديد هو الذى يكسبهم قوة ستقرر لهم الفوز فى النهاية إذا

استمر العرب على الزراعة البدائية التي يمارسونها . فان تاريخ العصر الحديث يدل على أن الامم الصناعية لا يمكنها أن تنهزم أمام الامم الزراعية . فليفهم هذا العرب

فرنسا والاصلاح

أصبح الاصلاح يعني في أوربا سن الشرائع الاشتراكية التي يراد لها التسوية الاقتصادية وقد سارع المسيو بلوم رئيس الوزارة في فرنسا إلى رفع فرنسا إلى مستوى بريطانيا وألمانيا بل هو قد فاقهما من بعض النواحي الاصلاحية . فقد حد أسبوع العمل بأربعين ساعة . وعين أجازة سنوية لكل عامل قدرها ١٥ يوما مأجورة كأيام العمل وهو يهيئ الآن مشروع لتقرير معاشات للشيخوخة على نحو ما يجري في بريطانيا وألمانيا . وعن قريب ستمتلك الحكومة مصانع الذخائر والاسلحة كما انها ستنظم بنك فرنسا بحيث يكون خاضعا للحكومة . وهي تدرس مشروعا لاصلاح الصحافة المرتشية في فرنسا وهي أسوأ صحافة في العالم

وقد عرف اخواننا السوريون واللبنانيون شيئا من بر الاشتراكية باعلان استقلالهم في هذه الوزارة الجديدة . وعن قريب تعقد معاهدتان بين فرنسا وبين سوريا ولبنان يعترف فيهما باستقلال هذين القطرين

وفي أوربا الغربية الآن أربع حكومات اشتراكية

روزفلت والانتخابات

بعد بضعة أشهر تجرى الانتخابات لرياسة الولايات المتحدة . وقد رشح الرئيس روزفلت لان يعاد انتخابه عن الديمقراطيين . ولا ينتظر للمرشح الجمهوري أي نجاح

وفي الخامس عشر من هذا الشهر وزع الرئيس روزفلت ٣٨٠ مليون جنيه على الجنود السابقين الذين اشتركوا في الحرب الكبرى . وبعض هؤلاء الجنود لم يترك معسكرات التمرين في الولايات المتحدة . ولكن العبرة في هذا التوزيع ليست هي الاستحقاق بل التوسل الى ايصال النقود الى الجمهور حتى يمكنه أن يستهلك البضائع والمعروضة حتى يمكن المصانع أن تعود الى العمل وعقدة العصر الحاضر هي الاستهلاك فان العالم المتمدن ينتج مقدار كبيرا جدا من البضائع في حين يعجز الجمهور عن استهلاكها . وفي الولايات المتحدة دعايات مختلفة يراد بها توزيع النقود بالمجان أو مايقرب من المجان على الناس . ومشروع الدكتور تونسند في منح كل من يبلغ الستين من العمر مرتبا شهريا قدره ٤٠ جنيها بحيث يتعهد بألا يعمل والا يدخر هذا المبلغ يجد قبولا وترويجا والرئيس روزفلت حين يتعلل بخدمة الجنود القدماء لمنحهم ٣٨٠ مليون جنيه انما ينفذ فكرة الدكتور تونسند بطريق آخر . وقل مثل ذلك في معاشات الشيخوخة وتأمين العمال من العطل والمرض الخ

أسبوعان في برلين

للاستاذ أحمد زكي بدوى

منذ ثلاثة أعوام وضعت لنفسى برنامجا لزيارة أوربا على أن أرى أهم عواصمها خلال سنوات ثلاث . وابتدأت حينذاك بشرق أوربا وفى العام التالى حظيت بزيارة أواسط أوربا وكان هذا الصيف خاتمة البرنامج الموضوع فقد وفقت إلى رؤية غرب أوربا ، وكانت برلين آخر مارأيت ولكنها فى الواقع حازت اعجابى فكانت أول مايستحق أن أكتب عنه

تركت باريس فى مساء ١٧ مايو الماضى فوصلت برلين بعد ثمانى عشرة ساعة بعد أن اخترقت البلجيك ومررت بلياج وكولونيا ودوسلدورف ودورتموند وبرنزديك وبجدبرج ، ويقع هذا الطريق فى سهول ألمانيا الشمالية لذلك لم يقع نظرى فيه إلا على الأراضى المكسوة بالخضرة والحقول المزروعة بالقمح والشوفان

تعتبر برلين بحق رابعة مدن العالم بعد لندن وتوكيو ونيويورك ، يسترعى انتباه زائرها ضخامة مبانيها وسعة شوارعها وفوق ذلك نظافتها التامة ودقة النظام فى جميع نواحيها

إذا ترك زائر برلين القطار بمحطة « ريخ سبورت فيلد » وهى أول محطة تقع فى غرب برلين فان أول مايقابله هو ميدان أدولف هتلر ويرى جنوب هذا الميدان برج برلين على نمط برج ايفل ولكنه أصغر قليلا ، يبلغ ارتفاعه ١٢٠ متر وبجانبه محطة الاذاعة اللاسلكية الالمانية ، ثم يقابله غربا أكبر شوارع برلين وله أسماء مختلفة فى كل منطقة منه يبدأ باسم شارع قيصر ثم شارع بسمارك ويبلغ اتساعه نحو مائتى قدم . وعند ابتداء الجزء المسمى شارلو تنبرج يشاهد على الجانبين التير جارتن وهى أكبر حدائق برلين تكثر فيها الاشجار حتى يخيل للسائر أنه يسير فى غابة هذبت مسالكها ثم يتصل بشارلو تنبرج السيجزاليه وقد أقيمت على جانبيه تماثيل ملوك ألمانيا فى عصورها المختلفة مما يجعله حقيقاً بان يدعى الطريق الملكى وينتهى هذا المتنزه بميدان الملوك العظيم ويشرف عليه الريخستاج وأمامه تمثال لبسمارك ويواجهه وسط الميدان عامود النصر . وقد أقيم تذكارا للنصر فى حرب السبعين لذلك أصر الحلفاء على هدمه فى معاهدة فرساى ، لكن الالمان رفضوا ذلك فى اباء وإذا استمر الزائر سائراً فى شارلو تنبرج فانه لايلبث أن تقابله بوابة براند برج وهى رمز برلين شيدت على نمط اغريقى ضخم تتوجها عربة تجرها أربعة جياد . وقد كان الانتهاء من تشييدها سنة ١٨٨٩

لتحكى قوس النصر بباريس ويبتدىء انتردن لندن عقب هذه البوابة ويقطعه وهلم شتراس وفردريك شتراس وهذه الشوارع الثلاثة أكثر شوارع برلين نشاطا وحركة ثم ينتهى انتردن لندن بميدان القيصر فرانس جوزيف وتقع به أضخم مبانى برلين من قصور ملكية ومتاحف ومعارض فنية فيه الجامعة والاوبرا وكتدرائية هدريج والدوم وقصر الامبراطور وليم الاول والزوج هاوس وقصر الكرون برنس وقبر الجندي المجهول . ويتصل بيمين هذا الميدان شارع أدبرفال فاذا سار فيه الزائر جنوبا فانه يتقابل بشارع ليبزجر ويعد من أكثر شوارع برلين حركة تقع به وزارة الطيران ووزارة بروسيا ومحلات فرتهيم وهى أكبر محلات الدنيا . وينتهى هذا الشارع بميدان بوتسدام وهو مركز الحركة فى برلين يتصل به غربا تيرجارتن شتراس حتى يصل إلى كنيسة الامبراطور غليوم وعلى يمينها حديقة حيوانات برلين المشهورة وفى شمالها شارع كورفرشتن دام وبه أجمل محلات برلين وأعظم ملاهيها

ومن الملاهى المشهوره فى هذا الحى الفمينا وهو محل للرقص على كل مائدة من موائده تليفون ولكل مائدة نمرة فاذا أراد الزائر التحدث إلى أي شخص على أية مائدة طلب نمرته وتحدث اليه وطلب منه ان كان يرغب فى الرقص أو لا يرغب وقد يتابع الحديث ماشاء مادام محدثه على استعداد لمتابعته ، وهناك أيضا صناديق للبريد إذا لم يرغب الانسان فى استعمال التليفون فما عليه إلا كتابة مايريد فى خطابات خاصة موضوعة على كل مائدة ثم يدون نمرة المائدة التى يريد ارسال الخطاب اليها على الظرف ويضع الخطابات فى أحد صناديق البريد الموضوعة بالقاعة ويقوم الجارسون بين حين وآخر يأخذ هذه الخطابات ويسلمها إلى أربابها ولا تمر برهة حتى يأتى بالرد لمرسل الخطاب

ولبرلين ضواح جميلة منها مطار تمبلهوف وهو أكبر وأنظم مطار فى أوربا لا تمر ساعة حتى تهبط وتصعد منه عشرات الطيارات إلى جميع أنحاء أوربا وقد أخبرنى بعض الاصدقاء الذين اعتادوا السفر بالطيارات أن طيارات شركة اللوفت هانزا وهى شركة الطيران الالمانية تفوق جميع الطيارات الأخرى فى النظام والراحة

وضاحية بوتسدام هى أجمل ضواحى برلين تبعد نحو ساعة عن المدينة وبها ثلاثة قصور ملكية قصر فردريك الاكبر وقصر سان سوس وقصر أورانجرى وتقع بجوار القصر الثانى الطاحون الهوائية التاريخية التى كانت لفقير أبى أن يبيعها لفردريك رغم توعده إياه مخافة أن تشوه من منظر قصوره لكن الرجل رفض ذلك قائلا إن فى برلين قضاة وأنصفه القضاء من الامبراطور فبقيت الطاحون باذن صاحبها أثرا قوميا ناطقا بقداسة العدالة

ومن أروع ضواحى برلين فانسى وهى بحيرة تتفرع من مجرى هافل تحيطها الغابات من الجانبين وبها شاطىء رملى تنمو فيه بعض الاشجار ومقام عليه مؤسسة عظيمة لزوار الشاطىء بها غرف

خاصة للمستحمين ومحلات مختلفة لما يحتاجونه من ادوات وطعام ، ولشد ما أعجبنى هناك أخلاق المستحمين الرياضية فلا الفتاة تحضر لتظهر جمالها ولا الشاب يأتى ليعاكس النساء ، يجمع الزائرين غرض واحد هو الانتفاع بالشمس والماء والهواء

ومن ضواحى برلين التى لها شأن عظيم اليوم القرية الأولمبية وتبعد نحو ثلاث أرباع الساعة عن برلين وهى جزء صغير من قرية دوبورتز وتحيط بها غابات كثيرة من الصنوبر وتحوى القرية نحو ١٥٠ بيت صغير يسع كل بيت نحو ٢٦ رجلا وكلها مجهزة بالتليفونات التى تتصل بالقرية وبرلين وبها أيضا جهازات للراديو

وبالقرية عدة مبانى منها بناء يسع أكثر من ٥٠ مطبخا خصص كل مطبخ لدولة من الدول المشتركة ليطهى فيه مايوافق رجال هذه الدول ، ومنتدى يجلس فيه سكان القرية ليتناولوا القهوة أو البيرة ، ومحل للمشروبات المتنوعة ، أماكن للهو والغناء فى الهواء الطلق وسينمات وكاباريهات ومستوصف ومكتب استعلامات وحوانيت مختلفة وسيكون كل سكان هذه القرية من الرجال . ولن يسمح لسيدة واحدة بالنزول فى هذه القرية بأي حال من الاحوال

ليس هذا الوصف الموجز لبرلين بذى أهمية كبيرة للقارىء ولكن مايهم القارىء هو الشعب الالمانى نفسه . طبيعته وأخلاقه لأن الحضارة هى نتيجة هذين العاملين وليس هناك شك فى عظم الفائدة التى يجنيها المرء إذا مادرس أخلاق أمة وتوصل إلى معرفة عاداتها . صحيح أن الأخلاق هى نتيجة الجنس والمناخ والتاريخ والظروف الاجتماعية المختلفة هادئة كانت أو عنيفة ، وانه من المستحيل نقل حضارة أمة برمتها إلى أمة أخرى ، ولكن من الميسور نقل كثير من الصفات الاخلاقية التى يسهل الاقتداء بها

كثيرا مايقال ان الالمانى غليظ فاتر كالانجليزى ولكن هذا القول بعيد عن الحقيقة لأن الغلظة والفتور إن كانا يظهران فان ظهورهما سطحى وطفيف . والالمانى على العموم بعيد عن الغلظة والبرود وهو ينفرد بالمرح بل إن شعوره وانفعاله شديدان ، ولو أن هذه الصفات توجد بدرجات مختلفة بالنسبة لكل اقليم بالمانيا

قد يكون الالمان على شيء من التكبر ولكنهم أناس مخلصون لطفاء ، وهم كافة متفوقون فى الصناعة وماهرون فى الفنون الأخرى مما قد يدفعهم للظهور ، ولكنهم بجانب ذلك يمتازون بالظرف والجاذبية . واذا حاول الانسان التعرف بالالمان فانهم غالبا يحوزون إعجابه بمرحهم الخالص الذي يحقر بجانبه مانراه عند كثير من الناس من الادب المتصنع لأنهم محبون للألفة مضيافون كرماء ، مستعدون لمعاونة الغريب وتسليته

ويمتاز الالمان بحبهم للهو ، الموسيقى هويتهم ، وقد أبديت يوما لأحد الالمان اندهاشى بكثرة

مسارح برلين فاجابنى على الفور بانه من النادر أن تخلو مدينة بالمانيا مهما صغرت من جمعية موسيقية أو ناد لدراسة الموسيقى الراقية وتنظيم الحفلات الموسيقية ومما يشرف الرأي العام فى هذه المدن أن مصاريف المجالس المحلية الباهظة تنفق على المسارح وقاعات الموسيقى كما تنفق على معارض الصور أو المتاحف

ويحب الالمان الطبيعة ويتأثرون بالمناظر الطبيعية إلى حد عظيم ، لذلك كانوا اشد الشعوب غراما بالسياحة والترويح عن النفس ، ويندر أن تجد واحدا أو واحدة لم تفارق بلدها فى نزهة الى بلد آخر ، وقد أخبرنى بعض الأصدقاء أن كثيرا من الفتيات الفقيرات يقترن على أنفسهن ويقتصدن من أجرهن البسيط ليتيسر لهن السفر فى الاجازة فان لم تف مواردهن الشخصية لجأن الى الجمعيات الدينية أو الخيرية لمدهن بالمساعدة

وقلما يبقى انسان فى المدينة يوم الأحد فان أغلب السكان يخرجون جماعات الى الضواحى حيث يمضون النهار بين الرياضة واللهو

ويميل الالمان كثيرا للصحة والرياضة ، وتؤلف اليوم الجمعيات الرياضية فى كل مكان فى المدارس والمصانع بين التلاميذ والعمال وفى الريف والمدن ومن الاغنياء والفقراء على السواء

والمانيا هى التى أحدثت فى العالم المتمدن العرى ، وقد منع هتلر هذه الحركة احتشاما وحياء ولكنها لاتزال تجرى فى أماكن مستورة . وقد أصبحت الصحة الشرط الاسامى للزواج واستعمل الخصاء لمنع التناسل بين ذوى النقص الجسمى أو العقلى لتحسين السلالة الالمانيه

والمرأة الالمانية جميلة جدا تبدو عليها مظاهر الصحة والقوة ولذلك فهى أميل إلى السمن منها إلى النحافة ، لاتكثر المساحيق ولا الاصباغ ، ولا تلبس الملابس المبهرجة ، وتكره الروائح العطرية ولا تستعمل غير ماء الكولونيا

ويشتهر الشعب الالمانى برقى الحياة العائلية القائمة على النظام والاقتصاد والتدبير والنظام وذلك لأن الالمان كانوا دائما معرضين لأحوال من الفقر عنيفة قاسية دفعتهم للتدبير والمعرفة الانتفاع بالقليل . وليس هناك شعب يعادل الشعب الالمانى فى حبه للنظام والنظافة وكذا لاتفوقهم أمة فى العناية بالاطفال وعلى الخصوص فى الطبقات العاملة ، ان هذه الميزات كانت ولا شك سببا فى رقى الشعب الالمانى وتقدم الحياة القومية

مهمة المجلة الجديدة

للأستاذ عزمي الدويرى

ترجع صلتى الشخصية بالكاتب المفكر الأستاذ سلامة موسى إلى ما قبل سبع سنوات . وقد توطدت بيننا صداقة حميمة مكنتنى من أن أعرف ميوله وعاداته وأطواره الذهنية . وقد يكون من أبرز صفاته بعده كل البعد عن الزهو . فهو رجل مطبوع على الاحتجاز . يحب الانطواء على نفسه. ويرغب دائما فى أن يجتر خواطره فى هدوء عجيب بعيدا عن جلبة الأدباء وزحمتهم وخصوماتهم السخيفة التى لا تغنى النفس . ولعله الأديب الوحيد فى مصر الذى لا يعرف الأندية العامة أو مجالس الأدباء . وقد حدثته فى ذلك مرة فقال لى : « إما أن أصرف وقتى فى مجالسة الادباء وغيرهم للتنكيت والمنادمة . واما أن أصرفه فى التفكير والاطلاع . فأيهما تختار لى » . ولعله أيضا الكاتب الوحيد الذى لا يحب الطنطنة باسمه فى الصحف والاندية . وهو بمزاجه أبعد الناس عن التفكير فى أن يجمع حواليه طائفة من المعجبين الذين يهتفون له كلما كتب مقالا أو نشر كتابا كما يفعل غيره من الادباء . فهو يمقت هذا التهريج أشد المقت . ذلك إنه معنى بالفكرة دون سواها . وقد قال لى مرة ان همومه العامة تشغله أكثر من همومه الخاصة . وقد لمست صدق هذا القول بنفسى فى كثير من المواقف . ومما يدل على شدة عنايته بالفكرة دون غيرها ورغبته فى خلق خمائر للتفكير الجديد انه فى السنوات القريبة الماضية كتب أكثر من مائة مقالة بدون توقيع فى وجوب العناية بترقية الفلاح المصرى وتشجيع المصنوعات المصرية



الاستاذ عزمي الدويري

قلت فى أول هذه الكلمة ان الاستاذ سلامة موسى أبعد الناس عن الزهو . فهو دائما يرفض أن ينشر فى مجلته ما يرسله اليه الأدباء والقراء من رسائل الاعجاب والمديح . فلما فاتحته فى أمر هذه المقالة رفض أن ينشر لى شيئا من هذا القبيل قائلا . « انك قد تنساق — بحكم الصداقة —

إلى التطرف فى المدح وهذا مالا أحبه » فقلت له : « لا تظن أنى سأمدحك . فأنا لن أكتب إلا ما أعتقده حقاً . مقرراً ما وقفت عليه بنفسى فلا تحجر على حريتى وأنت أول المدافعين عن حرية الفكر » فسكت على مضض وانتزعت منه الرضاء بنشر هذه الكلمة التى لم أعد الحقيقة فى حرف منها

وبعد فأرجو القارىء بل أرجو الاستاذ سلامة نفسه أن يسمح لى أن أسجل هنا رأيى فيه فى صراحة تامة غير متأثر بموجبات الصداقة . ورأيى هو أن سلامة موسى أنفع كاتب ظهر فى مصر فى العصر الحديث . فهو فى الواقع الكاتب الوحيد الذي دأب فى السنين العشرين الماضية فى أن يخلق خمائر جديدة للتفكير بين الشباب المثقفين . ولا يفتح القارىء كتابا من كتبه العشرين إلا وجد فيه بذرة أو بذورا لفكرة جديدة أو لحركة من حركات النهوض والتجديد فى مصر . وليس هنا مقام الافاضة والتفصيل ويكفى أن أقرر أن سلامة موسى أول من وجه الافكار إلى أكثر الحركات التجديدية فى هذا العصر الحديث فهو يكاد يكون الرائد الأول فى كل شىء . فهو رائد فى الاشتراكية والسيكولوجية ونظرية التطور وهو أول من دعا إلى تحديد النسل واصطناع الحضارة الحديثة . حضارة القرن العشرين التى تقوم على الصناعة والعلم . والابتعاد عن الحضارة الشرقية حضارة الزراعة والادب . وهو أيضا أول من دعا إلى وجوب تشجيع الصانع المصري والتاجر المصرى . ولا شك ان كثيرين من القراء يذكرون جمعية المصرى للمصرى التى ألفها فى سنة ١٩٣١ والتى هى الاصل لجميع الحركات الاقتصادية التى قام بها الشبان فى هذه السنوات الاخيرة . كمشروع القرش وعيد الوطن الاقتصادى . وهو أول من نادي بوجوب ترقية الفلاح المصرى واصلاح القرية ثم هو لا ينى عن الدعوة إلى وجوب مساواة المرأة بالرجل فى جميع الحقوق والتكاليف . وأما مكافحته للاستبداد والمستبدين ومناوأته للأتوقراطية والظلم فهى معروفة مشهورة . وقد جر عليه هذا مصائب كثيرة إذ عطلت مجلاته فى سنة ١٩٣١ ولكنه صمد أمام الاستبداد وعند ما أفرج عن المجلة الجديدة فى سنة ١٩٣٣ كانت قد ظهرت مجلات وصحف أخري لاتتوخى مصلحة الشباب ولا مصلحة الامة بل سلكت خطة التهريج فى الاخلاق وملأت صفحاتها بالسفالات الجنسية والقصص السخيفة الداعرة التى تستهوى صغار العقول من الفتيات والفتيان . وقصارى القول ان غاية تلك الصحف الساقطة هى التجارة والربح عن طريق تسميم عقول الشباب بسفالات وقبائح أقل مايقال فيها انها أشد أذى من سموم المخدرات . ولو كان الامر بيدى لطاردت أصحاب تلك الصحف كما يطارد رسل باشا تجار المخدرات . وهذه الصحف تزحم السوق وتسد الطريق أمام المجلات الجدية التى تتوخى خدمة الامة وعلى رأسها المجلة الجديدة التى تضطلع بمهمة سامية هى نشر الثقافة العلمية والدعوة إلى التجديد فى الحياة والادب والى حرية الفكر والتسامح والديمقراطية واعتناق الحضارة

الغربية وكراهة الصوفية والدعوة الى ترقية الفلاح والمرأة المصرية والاستقلال الاقتصادى وحماية المصنوعات المصرية وتحديد النسل فضلا عما تنشره من مقالات مدروسة فى السيكولوجية الحديثة ونظرية التطور والاشتراكية والمصرلوجية . وصفوة القول ان المجلة الجديدة هى مجلة التجديد فى كل شىء فهى المجلة المستقبلية الوحيدة فى مصر إذ أنها تحمل لواء اليسار للثقافة وتدأب دائما فى محاربة الظلم والظلام والجمود والجامدين . ولا تكف عن تسفيه الرجعيين والسلفيين الذين يعيشون فى القرن العشرين بعقول القرون الوسطى

هذا وأرغب قبل أن أنتهى من هذه المقالة فى أن أقول كلمة أو كلمتين اخريين عن صاحب هذه المجلة العجيبة . فهو نفسه رجل عجيب حقاً . فهو لا يعرف من أنواع التسلية شيئا على الاطلاق ولم يلمس فى حياته الطاولة ولا الدومينو ولا ورق اللعب ولا أى شىء من هذه الاشياء التى يتسلى بها الناس عادة . فاذا أراد أن يسلى نفسه انتقل من قراءة نيتشه مثلا إلى قراءة درامة لبرنارد شو أو قصة للكاتبة فيكى بوم . وقد كتب مرة هذه العبارة « أعتقد أن الانسان يعيش ليقرأ ويقرأ ليعيش . وقد أكون مخطئا فى ذلك . ولكن هذا هو اعتقادى الشخصى » ويحضرنى فى هذا المقام ما كتبه الدكتور طه حسين عن سلامة موسى منذ سنوات فقال ما مؤداه « ان الاستاذ سلامة هو أكثر الناس قراءة فى مصر وهو أحسنهم ذوقا فى الاستفادة مما يقرأ . وهو لا يريد أن يستفيد وحده ولكنه يريد أن يفيد الناس أيضا . تقرأه فكأنك تقرأ كاتبا انجليزيا سهلا محببا إلى النفس وهو يكتب فى موضوعات مختلفة أشد الاختلاف متباينة أشد التباين إذ يتنقل من العلم إلى الفلسفة إلى الأدب فى سهولة ويسر كما يتنقل الرجل فى داره من غرفة إلى أخرى فى غير كلفة ولا عناد »

وفى الحق انى ما دخلت على الأستاذ سلامة موسى إلا وجدته قارئا أو مفكرا . ويمكننا أن نصفه بأنه موسوعى الثقافة . فقد درس البيولوجية والسيكولوجية والمصرلوجية . والاشتراكية وفلسفة الحكم . والتاريخ والفلسفة والأدب وخاصة الادب الانجليزى . والفن . والاقتصاديات الحديثة فضلا عن تتبعه لجميع الحركات الفكرية والتطورات الثقافية والسياسية فى جميع أنحاء العالم . فهو مثلا يعرف الشىء الكثير عن نهضة الصين والصناعة فى اليابان ومشروعات روزفلت الاقتصادية والتجديد فى تركيا وكفاح غاندى للانجليز وما تقوم به الحكومات الفاشية فى ايطاليا وألمانيا الخ

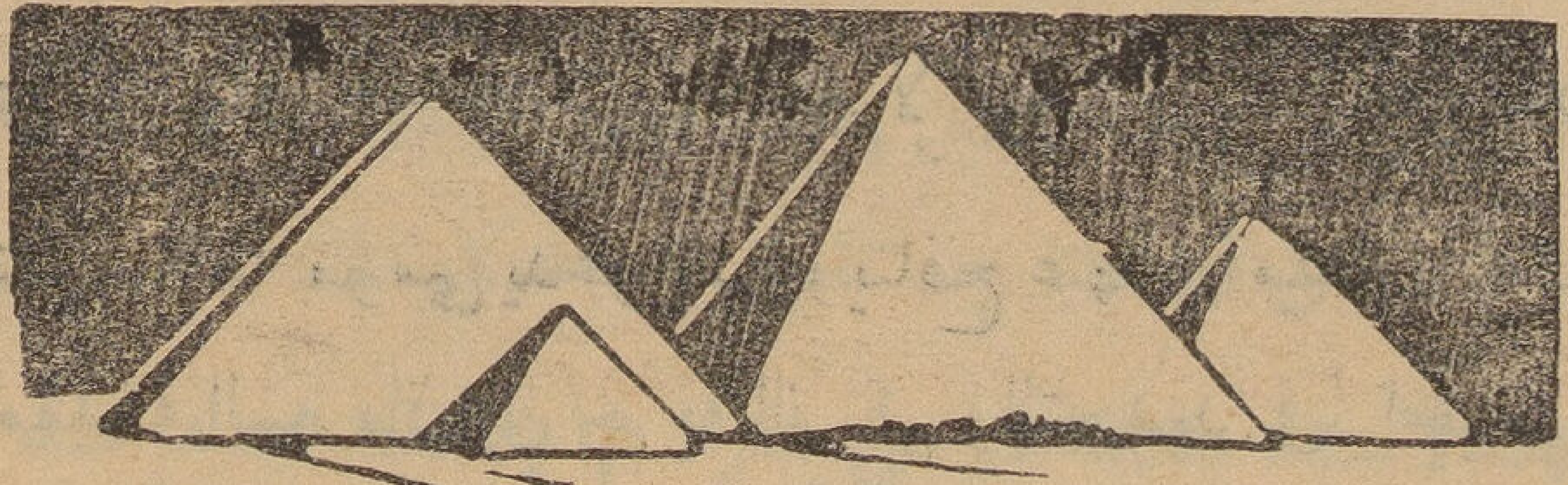
وهناك خلة بارزة يكاد الأستاذ سلامة موسى يتفرد بها إذ قلما تجدها عند غيره من الادباء الشرقيين . أعنى النزاهة الذهنية الخالصة التى تدفعه دائماً أبداً إلى العناية بالفكرة وحدها والثبات على مبادىء التجديد والحرية الفكرية التى اعتنقها فى أول شبابه . فبينما ترى غيره من الادباء قد

جرفهم تيار الرجعية الذي طغى على البلاد فى هذه السنوات الاخيرة فخنعوا وانجروا وراحوا يؤلفون الكتب فى موضوعات رجعية تملقا للجماهير أو للرجعيين والمستبدين تجد الاستاذ سلامة لا يكف عن الدعوة إلى وجوب تأليف جبهة يسار تدعو إلى ثقافة اليسار أى إلى التجديد فى الحياة والادب . وتراه يؤلف كتابا عن العالم بعد ثلاثين سنة بينما يؤلف غيره من كبار الادباء كتبا فى موضوعات تتصل بالتصوف والغيبيات وعقائد القرون الوسطى . ويخيل الىّ ان هم غيره من الادباء منصرف إلى النجاح المادى وا كتساب عطف الجماهير واعجابهم أما همه هو فموجه إلى النجاح فى التنوير ونشر الثقافة ومحاربة الجهل والمرض والفقر بين سواد الامة من الفلاحين والعمال غير مبال بسخط الجماهير أو رضاها ، وهو قد تخطر له الفكرة الفذة فيعمل على نشرها أو تنفيذها دون أن يفكر مطلقا فيما قد يعود عليه من ورائها من اعجاب العامة أو تقدير الخاصة . مثال ذلك انه أول من عمل على تأليف المجمع المصرى للثقافة العلمية وقد ظل عضوا عاملا فيه نحو عام وألقى فى مؤتمره السنوى الاول محاضرة منيرة عن « الاحلام وطبيعة التفكير » ولكنه لم يلبث قليلا حتى طرد من المجمع طردا باشارة من الطغاة المستبدين الذين يخافونه ويعدونه خطرا على المجتمع المصرى !! فقد اشترط أولئك الطغاة على أعضاء المجمع المصرى للثقافة العلمية أن يطردوا سلامة موسى منه وإلا حرم المجمع من الاعانة الحكومية المقررة له

ويكفى أن أسرد للقارىء مؤلفات سلامة موسى ليعرف انه أوسع الكتاب ثقافة وأنفعهم وأكثرهم عناية بتنوير الاذهان ومحاربة الجهل والاستبداد . وهى نحو عشرين بين صغير وكبير وهاك أسماؤها : —

الاشتراكية . مقدمة السوبرمان . نشوء فكرة الله . مختارات سلامة موسى . نظرية التطور العقل الباطن . أحلام الفلاسفة . اليوم والغد . أشهر قصص الحب التاريخية . الفنون وأشهر الرسامين . الحرية وأبطالها فى التاريخ . فى الحياة والادب . تحديد النسل . التجديد فى الادب الانجليزى . غاندى . مصر أصل الحضارة . النهضة الاوربية . السيكولوجية فى حياتنا اليومية . العالم بعد ٣٠ سنة وقد كتب مقدمة السبرمان فى سنة ١٩١٠ وهو فى حدود العشرين من عمره ومن الغريب أن القارىء يجد فى هذا الكتيب الذى لا تتجاوز صفحاته الثلاثين جميع المبادىء والآراء التى ظل الاستاذ سلامة موسى يدعو اليها وينافح عنها فى مدى السنين الخمس والعشرين الماضية فهو يدعو فى مقدمة السبرمان إلى حرية الفكر والتجديد فى الحياة واصطناع الحضارة وترقية الفلاح ومساواة المرأة بالرجل ونقل الامة من طور الزراعة إلى طور الصناعة إلى غير ذلك من الآراء الجديدة التى أرصد حياته كلها لنشرها بين الشباب المصريين . ثم ان سلامة موسى فى

أول عهده بالكتابة كان معنياً أشد العناية بالفكرة دون الاسلوب بينما غيره من كبار الكتاب والادباء بدأ بالعناية بالاسلوب والانشاء دون أن تكون لكتاباته غاية معينة يرمى اليها فكتبوا موضوعات هى أقرب إلى موضوعات الانشاء المدرسى منها إلى أى شىء آخر وما زال كثير من أدبائنا ونقادنا يقيسون قدرة الكاتب بأسلوبه وبراعته على التلاعب بالالفاظ البهلوانيه . وإذا كان معظم الادباء فى الشرق يعنون بتسلية الكاتب والوقوف منه موقف النديم المهرج فان الاستاذ سلامه موسى لايعنى إلا بتنوير القارىء وتثقيفه والوقوف منه موقف المعلم والمرشد والمهذب وقد ظل كذلك من بدء اشتغاله بالكتابة إلى اليوم وهذا واضح فى كتبه وفى مجلة المستقبل التى أصدرها ١٩١٤ وفى مقالاته فى غيرها من المجلات وفى المجلة الجديدة الشهريه والاسبوعية ويخيل إلىّ ان سلامه موسى ما هو إلا فكرة حيه متحركة أو هو خميرة لافكار كثيرة نامية لا تتوقف عن الانتشار والتأصل فى أذهان المصريين . فليعرف ذلك شبابنا المثقفون وليقبلوا على قراءة آثار أساتذة الفكر فى مجلته الجديدة فهى ليست الا جامعة متنقلة تحمل اليهم ألوان الثقافة والعلم



محمود سعيد

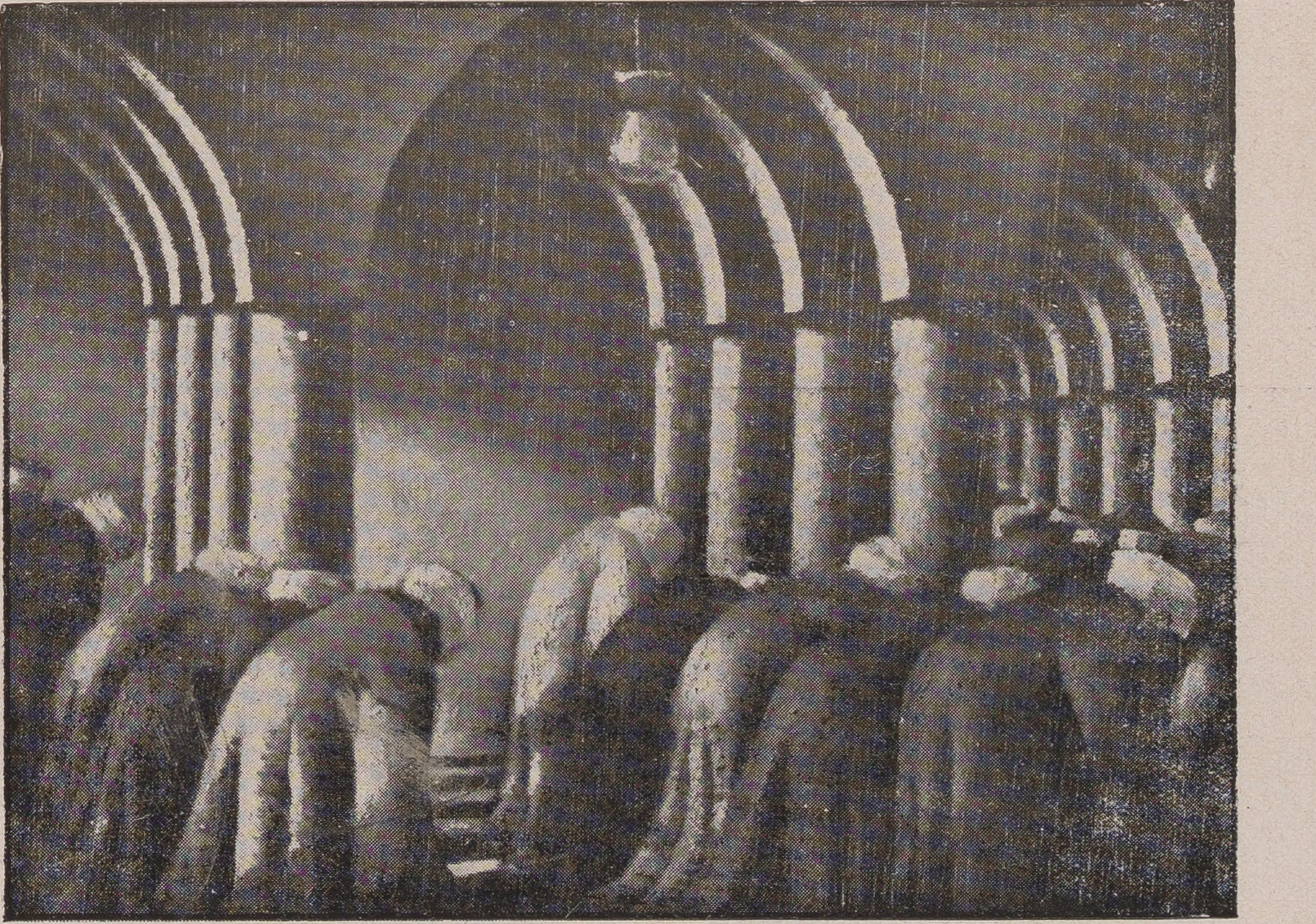
فى العالم ناس يصطفيهم الله بنفحات إلهامه ويختصهم بنعمة من ايحائه يعبرون الدنيا فيخلفون نوراً ساطعاً أشبه مايكون بما تخلفه النيّران من النور فى الافق ، أولئك يعبّدون الطريق للناس



المرأة ذات الشعر الذهبى (لمحمود سعيد)

ليترسموا خطاهم على هدى من ذلك النور . ومحمود سعيد أحد أولئك الافذاذ الذين وهبهم الله عبقرية فياحة عبّدت له سبيل الفن الوعرة ويسّرت له تبليغ الرسالة ليصل بالفن الى المثل الاعلى

محمود سعيد مصور مسلم مصرى اعترف له بالنبوغ فنانو الشرق والغرب ، له أسلوب قوى يمتاز عن اسلوب غيره من الفنانين ، واعتقد يقينا أن سعيداً لو لم يُنشّأ فى بيئة اسلامية تنفر آدابها وتقاليدها من « التصوير الدينى » لكان أدق من برع فى هذا النوع من التصوير ولتمكن فى سهولة ويسر أن يبتدع صورا للأنبياء والخلفاء وغيرهم من جلّة رجال الدين فى وقار سام وجلال روحانى قد يتعذر على غيره من المصورين بلوغه ، وسر ذلك أن الجلال نفسه كامن فى ريشة سعيد



صلاة الجمعة (لمحمود سعيد)

فى عام ١٩٠٥ كان يجتمع فى صباح أيام الآحاد جماعة من الشبان المولعين بالرسم والتصوير فى محل المصور الشهير « زانيبرى » الذى كان يقطن إذ ذاك فوق استوديو « البان » المصور الفوتوغرافى بالاسكندرية ليتوفروا على الرسم تحت اشراف الاستاذ « زانيبرى »

وكان من بين هؤلاء القاضى « هيربروس » والمصور « سباستى » وشريف صبرى ومحمود

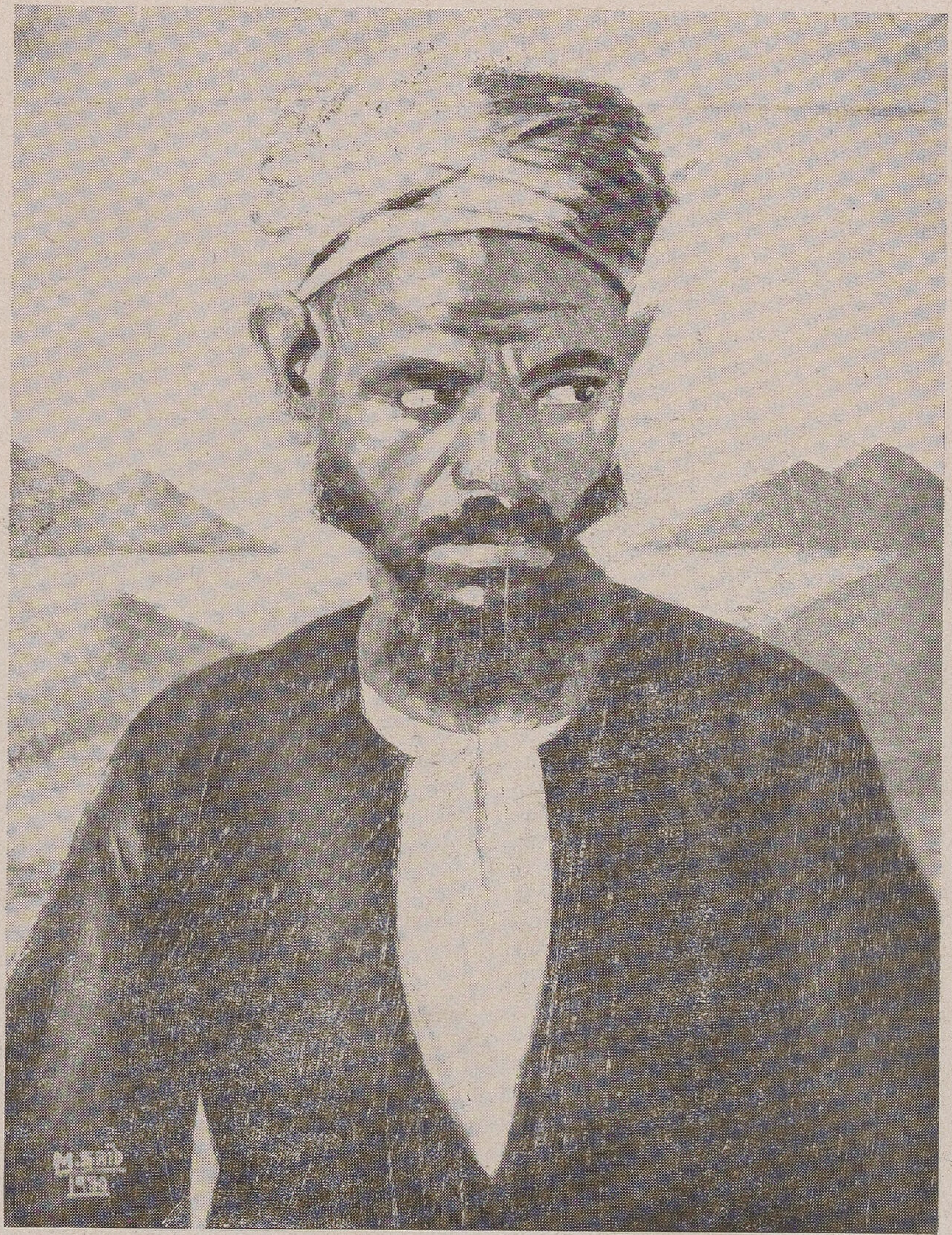
سعيد وغيرهم . ولـكن قضت الظروف أن يغلق الأستاذ « زانبييرى » أبواب محله بعـد ثلاث سنوات من ذاك التاريخ ، و كان ذلك داعية لتفريق عقد هؤلاء الهواة وتشتيت شملهم

وإنه لمن المعترف به بيننا أن محمود سعيد كان الهـاوى الوحيد الذى احتذى حذو أستاذنا « زانبييرى » وحاكاه فى طريقة رسمه محاكاة دقيقة الى درجة لاأستطيع معها المبالغة فى تقديرها خشية أن يترتب على ذلك معنى التقليل من شخصيته والاستخفاف بمقدرته الفنية

وقد استمر « سعيد » بعد ذلك يعمل ويجهد متأثراً بطبعه وبالمحيط الذى نشأ فيه وبالمدارس



صورة شيخ بربوط (لمحمود سعيد)



صورة خفير القرية (لمحمود سعيد)

التى كان يأخذ عنها ... إذ كان ينتهز فرصة سفره إلى الخارج ليزور المتاحف الفنية ويختلط بكبار المصورين فى مختلف البلاد الاجنبية ، وقد كان هذا من الاسباب التى مهدت السبيل إذ ذاك لبعض النقاد أن يرجعوا باللوم على « سعيد » على أن فنه قد تأثر تأثراً واضحاً بفن الايطاليين الاولين

وأعود مرة أخرى فأقول : من ذا الذى يستطيع أن يفخر بأنه قوة جديدة لاعلاقة لها

بالماضى وأنه لم يتأثر بعوامل خارجية مدى تربيته الفنية ؟ فما عقل الانسان إلا ملتقى آراء غيره ومكان امتزاج أفكارهم . ومن هنا بلغ به الغرور يوما أن يدعى استنباط شىء جديد لايمت بصلة إلى شىء سبقه ؟



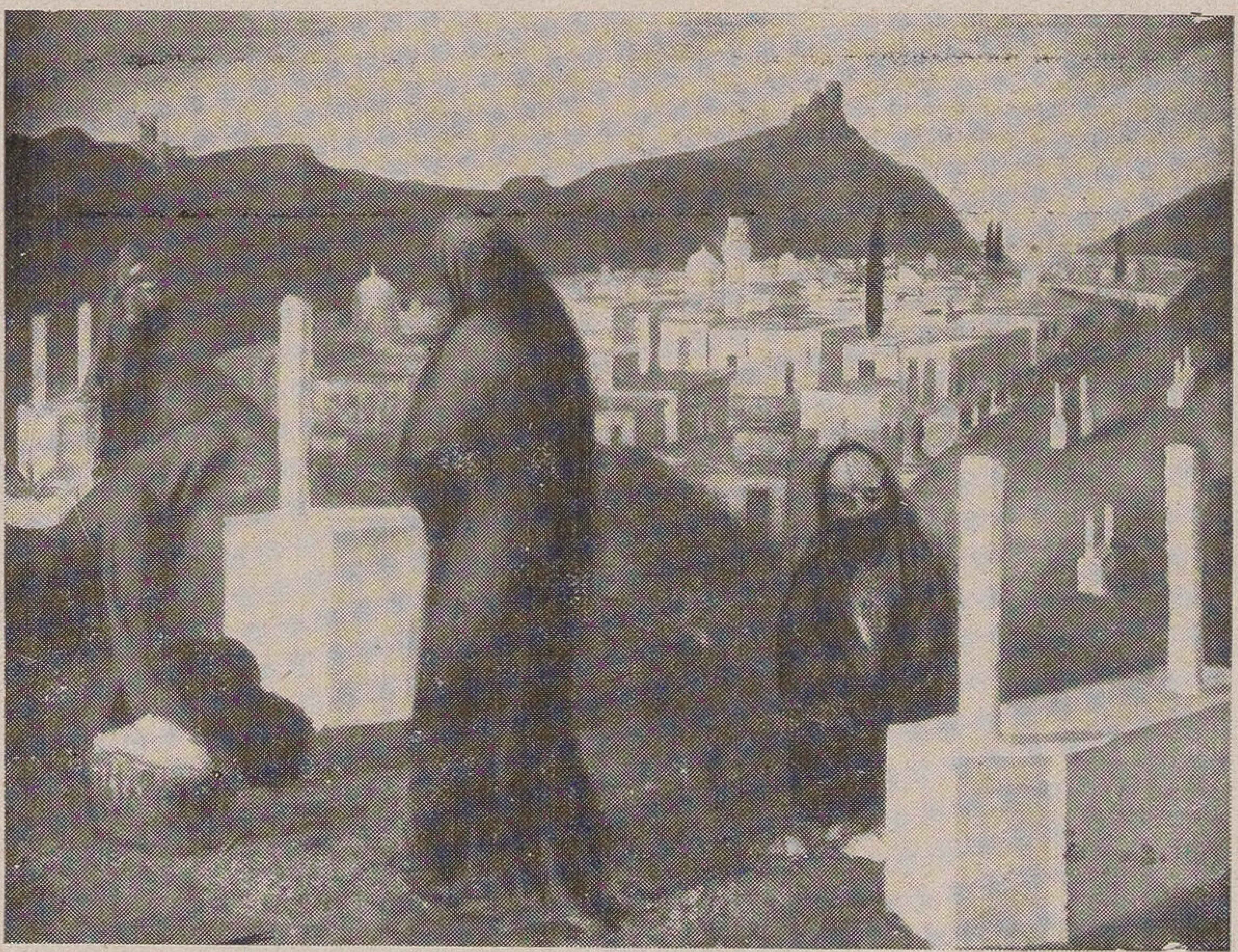
صورة المصور انجلو بولو (لمحمود سعيد)

دارت عجلة الزمن وأصبح « سعيد » أبرز مصور مصرى عرفته البلاد ، وإذا كان إعجابى بفنه عظيما فذلك راجع إلى أنه المصور الوحيد الذى كان فى مكنته أن يصل إلى المثل الاعلى فى رأيى والذى استطاع أن يبرز الفكرة التى كانت تدور فى عقلى وتجيش فى صدرى وتملأ نفسى عن هذا الفن

إن « سعيداً » مصور مصرى بأدق ما فى هذه الكلمة من معنى ، وليس فنه مصريا لأنه احتذى فى طريقة رسمه طريقة القدماء ، ولا لأنه سجل على لوحاته مناظر مصرية معروفة ، ولا لأنه أبرز عليها مناظر حريم القصور فى العصر الماضى أو مناظر القوافل تسير فى الصحراء ، ولا لاننا نجد على لوحاته منظر البياضات الحريرية المطرزة المزركشة الحواشى وهي ملقاة على المقاعد المصفوفة داخل أحد القصور الشرقية القديمة ... حقا لم يرسم « سعيد » يوما منظراً من مناظر الموسكى ، ولم يفكر فى إطلاق ريشته لتطبع منظر أحد بائعى البخور فى خان الخليلى مثلا أو الاهرام وقت الغروب ، ولم يحاول أن ينمق رسمه على الطريقة الفرعونية ليجعل الرائى لصوره يفكر فى مصر وأنه فى مصر حقا . كل ذلك لم يحاوله « سعيد »

لم يكن فنه كما قلنا مصريا لاشتماله على المناظر أو المناسبات المحلية التى تمت لمصر بسبب وإنما كان فنه مصريا بما تستلهمه روحه من لون السماء والنهر وما ينبعث منهما من حرارة وقوة ، وبما يشع على قلبه من ذبالك الضياء الذائب فى أعماق النهر والسماء . وهاتان الخاصتان هما وحدهما اللتان تمكن « سعيد » من تسجيلهما فى جو لوحاته المرهوب

فاذا ما أبرز لك « سعيد » على لوحة نهراً أو سماء أشعرك بأن هذا النهر وهذه السماء هما فى



مناظر قبور باكوس برمل الاسكندرية (لمحمود سعيد)

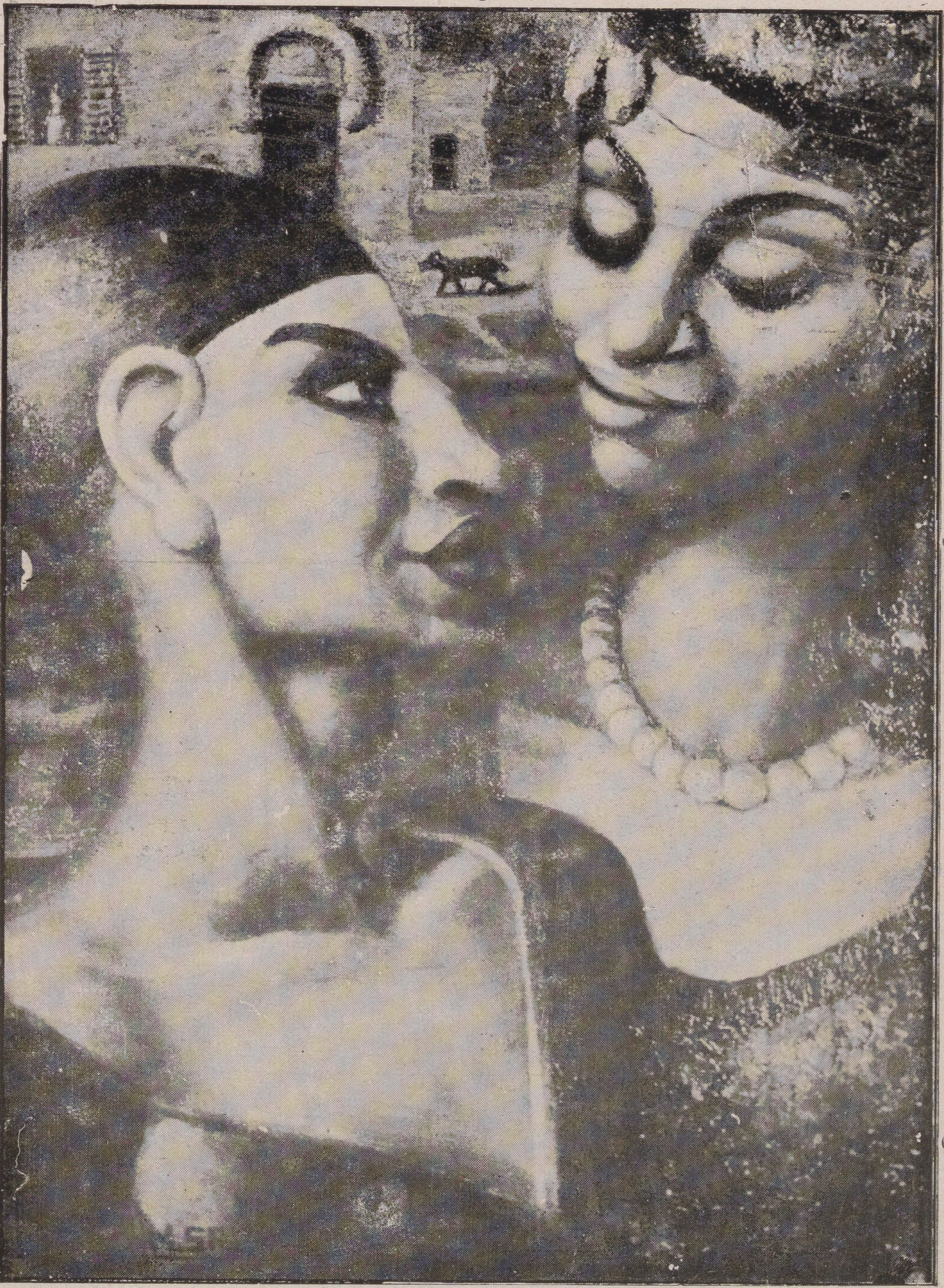
مصر حقا دون أن يلجأ إلى إضافة منظر شيخ معمم أو غادة محجبة ليسجل للمنظر طابعه المحلى

إن تصوير « سعيد » يستمد مصريته من صفاء الجو وشفافية الالوان ، ومن عظمة الكائنات السليمة التى لايحجبها عن العين غبار أو ضباب ومن ذلك اللون الخمرى — الذى يستمد خمريته من



صورة الدكتور جواد حماده (لمحمود سعيد)

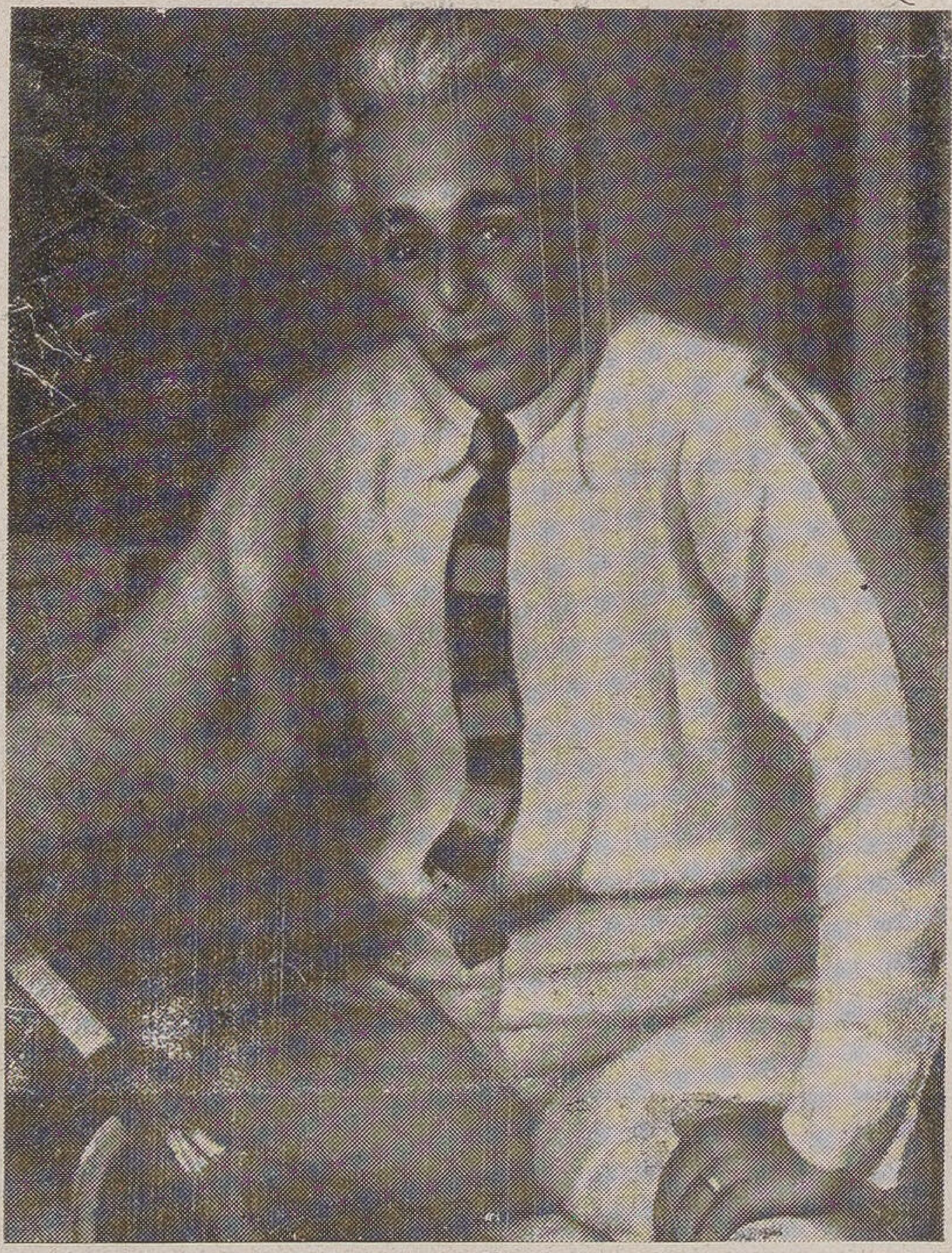
الطمى — ذلك اللون الذى ينعكس على العين من ضياء قطع الارض الصغيرة المغمورة بالمياه ، ومن ارتعاش أشعة النور الفسفورية ، ومن تلك الاشعة الوضاءة المقرونة بتلك الالوان القاتمة التى نعثر عليها دائما فى حوارى مصر المكسوة أرضها بطبقة من الطين



الدعوة الى سفر (لمحمود سعيد)

إن هذه الالوان هى عينها التى تعلو وجوه النساء الوطنيات اللائى يتصدى « سعيد » لرسمهن وهى نفس الالوان التى تتمثل فى تجاعيد شعورهن وعلى أهداب أذرعتهن

تنبعث من جميع لوحات « سعيد » عظمة ووقار كبيران ، وإنه ليتمثل لك هذا الوقار وتلك



صورة المسيو نيكولا ييدس (لمحمود سيعد)

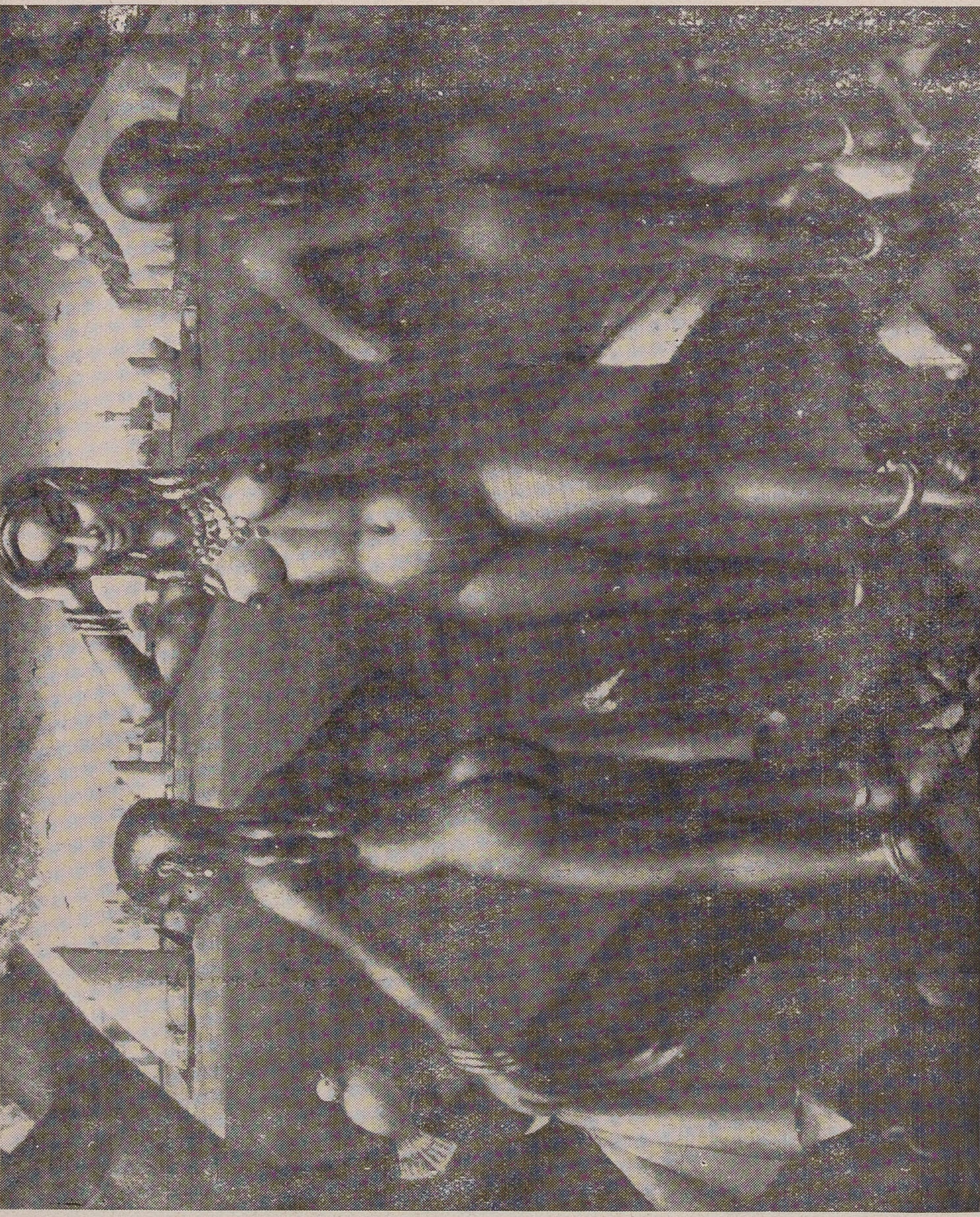
العظمة فى صورة هؤلاء العذارى اللواتى تفيض الشهوة من هيكلهن ، وفى صورة ابنته الطفلة أيضا فكأن جميع نماذجه تكتم فى صدرها خواطر رصينة تحدرت عليها من أجيال عديدة سبقت . ان جميع صوره مفعمة بوقار شامل وروح مؤثرة ، وكأن تلحظ فيها أن واحدة منها لاتجرؤ على أن تتحرك لها شفة أو يهتز لها طرف سواء شارفتك بنعومة نظرتها أو بحدة امعانها

هذه الصور كلها تستبقى حيويتها على طريقة التماثيل ، ولما روعي فى رسمها طريقة صنع التماثيل كان لابد أن تشغل حيزاً فى الفراغ ، على أنها ترتقب فى صبر أن يسمع صدى أسرارها المكتومة يوما

أضحى « سعيد » مصوراً نموذجيا دقيقا وظلت صوره مصبوبة فى قوالب الفن النموذجى الذى يئس المصورون من الوصول اليه أو اللحاق به ، ذلك لأنه من أول عهده بالتصوير قد حافظ على مبالغته فى دقة الرسم كما يحافظ العابد على عبادته ، بينما باقى المصورين مذبذبين ، فتارة يتمسكون بالقواعد القديمة وتارة يتمشون مع بعض النظريات الفنية الحديثة وأخص بالذكر نظرية الرسم



(لمحمود سعيد)



فتيات على شاطىء البحر (لمحمود سعيد)

التأثري أعنى الرسم فى الهواء الطلق بعيدا عن الغرف المعدة لذلك تحت ضوء صناعى معين . والواقع أنه لم يكن من السهل الهين على مصور حديث أن لا يتأثر بوجهه نظر أصحاب تلك النظرية . فالمصور « كلودمانيه » وجماعة من المصورين الماهرين الذين كانوا مغرمين بانعكاس الألوان المختلفة على الأجسام كانوا يؤكدون أن أشعة النور على الأجسام فى الهواء الطلق يضعف حدودها ويجدّ

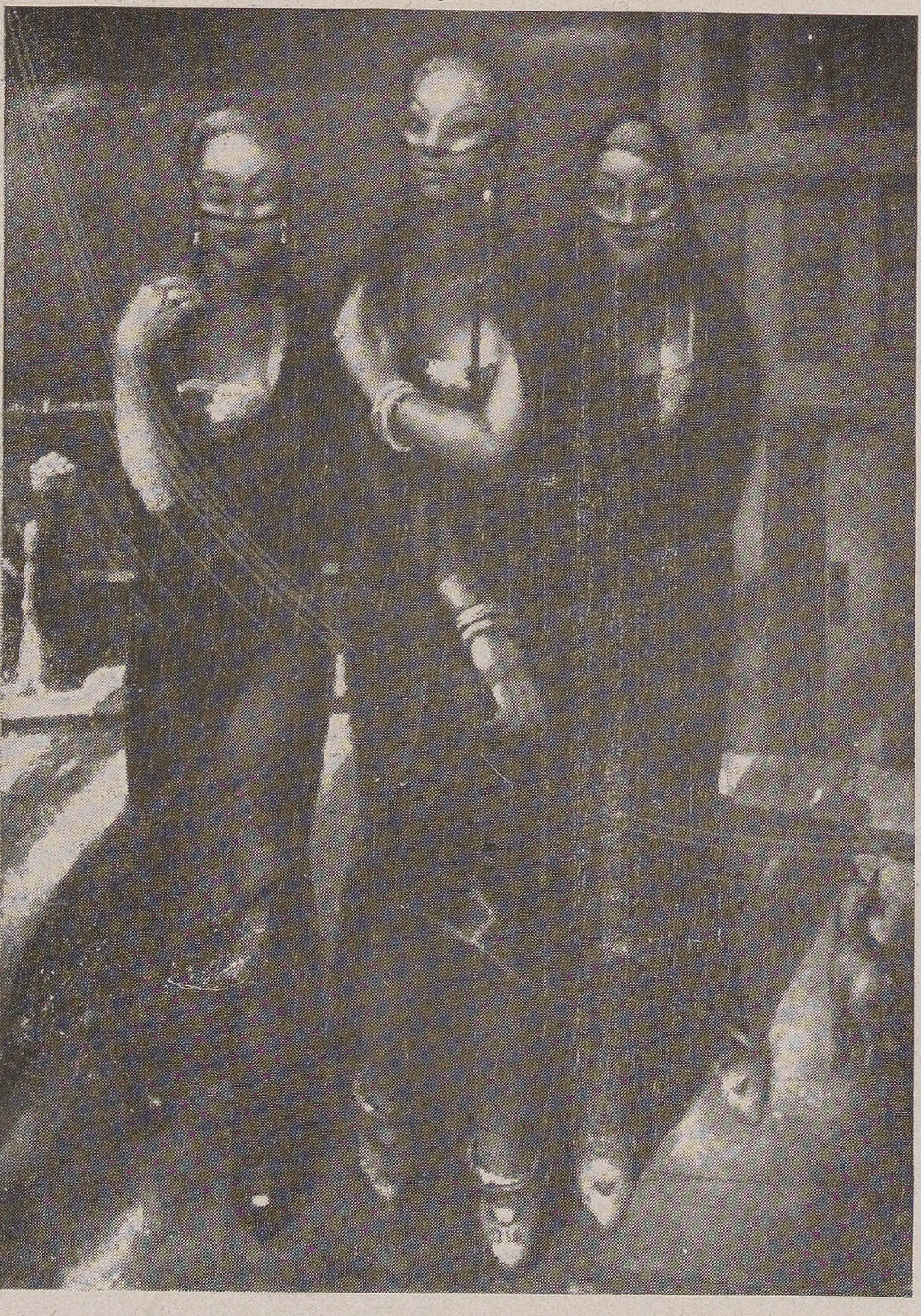
من أحجادها بينما تنسلك اليها هـذه الاشعة فى ضوء مهتز مختلط فلا تبين حدود الاجسام واضحة جلية وبهذا لا يتم للاجسام حدودها الطبيعيـة ولونها الحقيقى مادام يكفى لتغيير حدودها ولونها مجرد شعاع ينعكس عليها من اعتراض شجرة أو مرور سحابة



الراحة (لمحمود سعيد)

هذه النظرية لها روعتها ولها جاذبيتها وبخاصة عند الذين يلمسون صعوبة الرسم الدقيق والذين يدركون جميع الصعوبات التى يتعرض لها المصور النموذجى عند ما يشرع ليرسم رسما يحاكى الاصل

ولكن مما يفخر به أن سعيدا لم يهمل المحافظة على دقة الرسم بالرغم مما أسفرت عنه هذه النظرية من بحوث جديدة فى ماهية الألوان ، لأن قلبه كان مفعما بالاطمئنان ونفسه كانت عامرة بذياك الشعور الذى كان يوحى اليه دائما بأن مفعول هذه النظرية إنما هو مفعول وقتى ولن يؤثر قط فى كيان الفن الحقيقى ولن يزعزع أساسه بالرغم مما أدخل عليها من تعديلات وتحسينات وقتية أيضا . هذه الثقة التى كانت تملأ قلب سعيد هى من الصفات الضرورية لكل مصور ولا غنى عنها



بعض أوانس حى الانفوشى بالاسكندرية (لمحمود سعيد)

لشكل واضح لعمل فني ، وليس ينصب معنى هذا القول على أن صور سعيد كانت شبيهة بالصور الفوتوغرافية الملونة لما يراعى فيها من دقة النسب . وانه لا يفوتنا أن نثبت أن الصفة الممتازة التى تتميز بها صورة فنية هي مايلهمه فيها المصور من حياة ومايطبعه عليها من خلق خفي ينطق بطبيعة صاحبها

لم يكن سعيد كغيره من كثير من المصورين الذين يبرزون بدا آتهم في التصوير في جساره وجرأة لا ينقذهم منها إلا مرور الايام والخبرة . حقاً لم يكن سعيد من هذا الصنف من المصورين فانه لم يظهر الجسارة أو الجرأة فى فنه إلا بعد حياة مدرسية طويلة ، وكانت أولى لوحاته كما قلنا تدل على دقته التامة فى التصوير وأن طريقة فنها طريقة نموذجية



ذات العيون الخضراء (لمحمود سعيد)

لا يذكر هواة المعارض عند ذكر اسم « محمود سعيد » إلا مجموعة من الصور ذات الالوان القاتمة الثقيلة الوطأة ويشعرون بذلك الانقباض الذى ملأ صدورهم عند وقوفهم لاول مرة أمام بعض الصور التى يلوح أن « سعيدا » سن فيها الاشخاص من طين محروق أو حفرها فى خشب قديم

ولم يذكر أحد سوي أصدقاء المصور ، الذين لازموه من أول عهده بالتصوير ، غير انه كان فى فترة من الزمن كأغلب شباب المصورين ، مصورا مرحا يملأ صوره ألوان بهيجة زاهية وذلك لما تركته نظريته « الرسم التأثرى » فى نفسه من حساسية وميل إلى ألوان ناطقة ملء العين ملء النفس

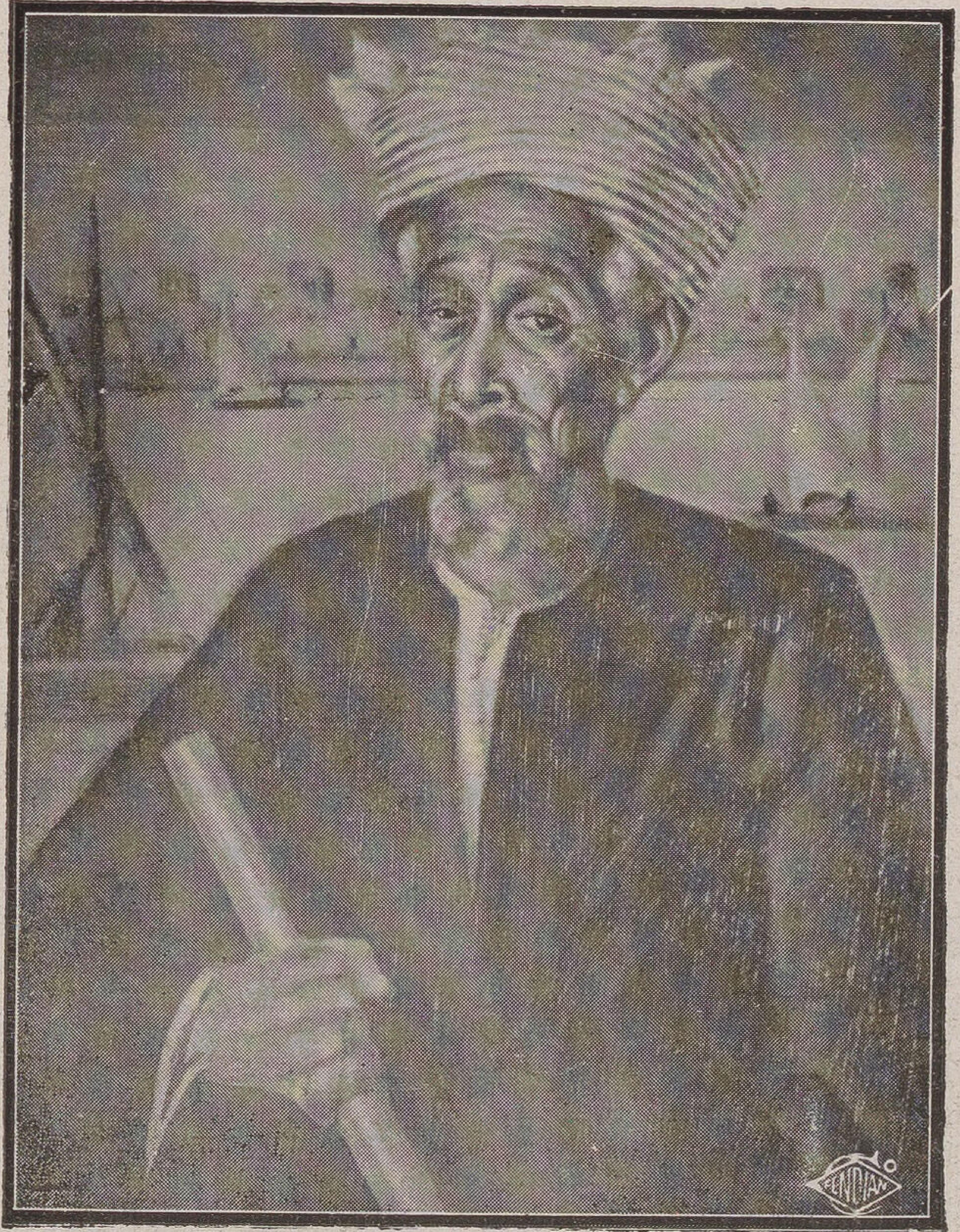


صورة آنسه بالاسكندرية (لمحمود سعيد)

كان « سعيد » فى ذلك العصر يرسم مناظر مختلفة وصور أشخاص فى الحدائق أو تحت الخمائل أو بين شجيرات الورد الاحمر التى تتناثر منها الاسلاك الوردية الذهبية وقت الاصيل . ذلك الوقت الذى يشهده الشعراء والمصورون ليطلقوا أعنة خيالهم فى منظر الشمس وهي تنزع إلي المغيب وتلك السهولة التى كان فى مقدوره أن يبرز بواسطتها الشبه على حقيقته كانت وحدها تكفى

لان تقتل فيه كل مواهبه الفنية شأن كثير من المصورين الذين يتنكبون طريق البحث والاطلاع اكتفاء بما لاقت منتجاتهم من الاقبال لدى الجمهور

فكنت ترى فى صوره دقة ورصانة فى تسجيل جميع التفاصيل حتى انك لتلمح التجاعيد

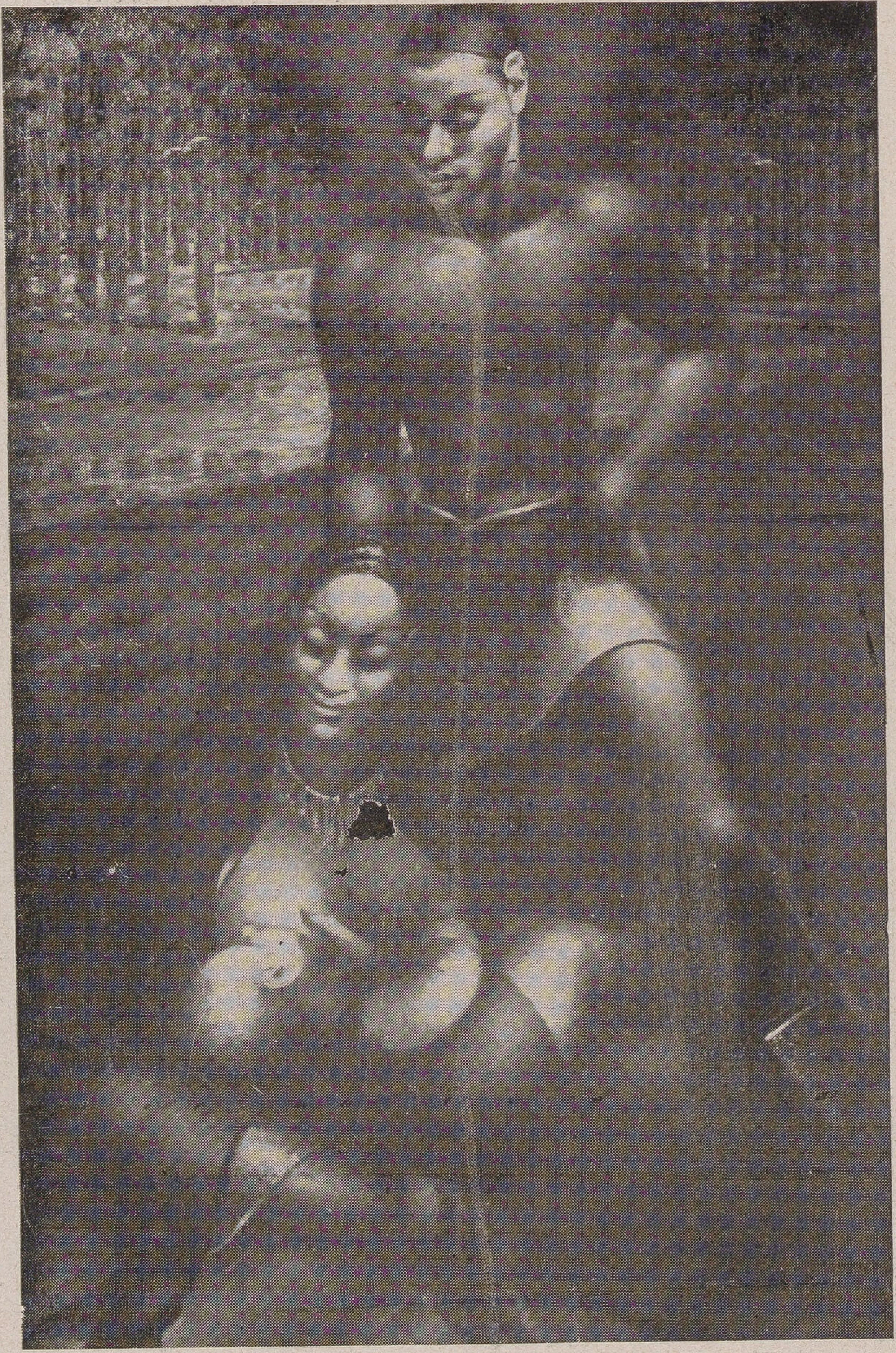


صورة الحاج على البواب (لمحمود سعيد)

الدقيقة التى تعلو أصابع اليد والتي تكسو الجبهة وتحف العين ، ولم يفته أيضا ذلك الاثر الطفيف الذى يتركه جرى الموسى على العارضين

ومن أجمل هذا النوع من التصوير صورة « الحاج على » البواب التى راعى فيها بالذات ، علاوة على ما ذكرنا ، شيئا جديدا وروعة خفية لم يسبق له معالجتهما فى صوره من قبل ، وهما الشيئان اللذان يفعمان جو صوره بتوازن خاص وبرنين موسيقى لايدرك سببهما إلا كل من أدام إنعام النظر فيها ، فقد عالج « سعيد » فى هذه الصورة مسألة الظلال بطريقة جديدة بعينها تعجب

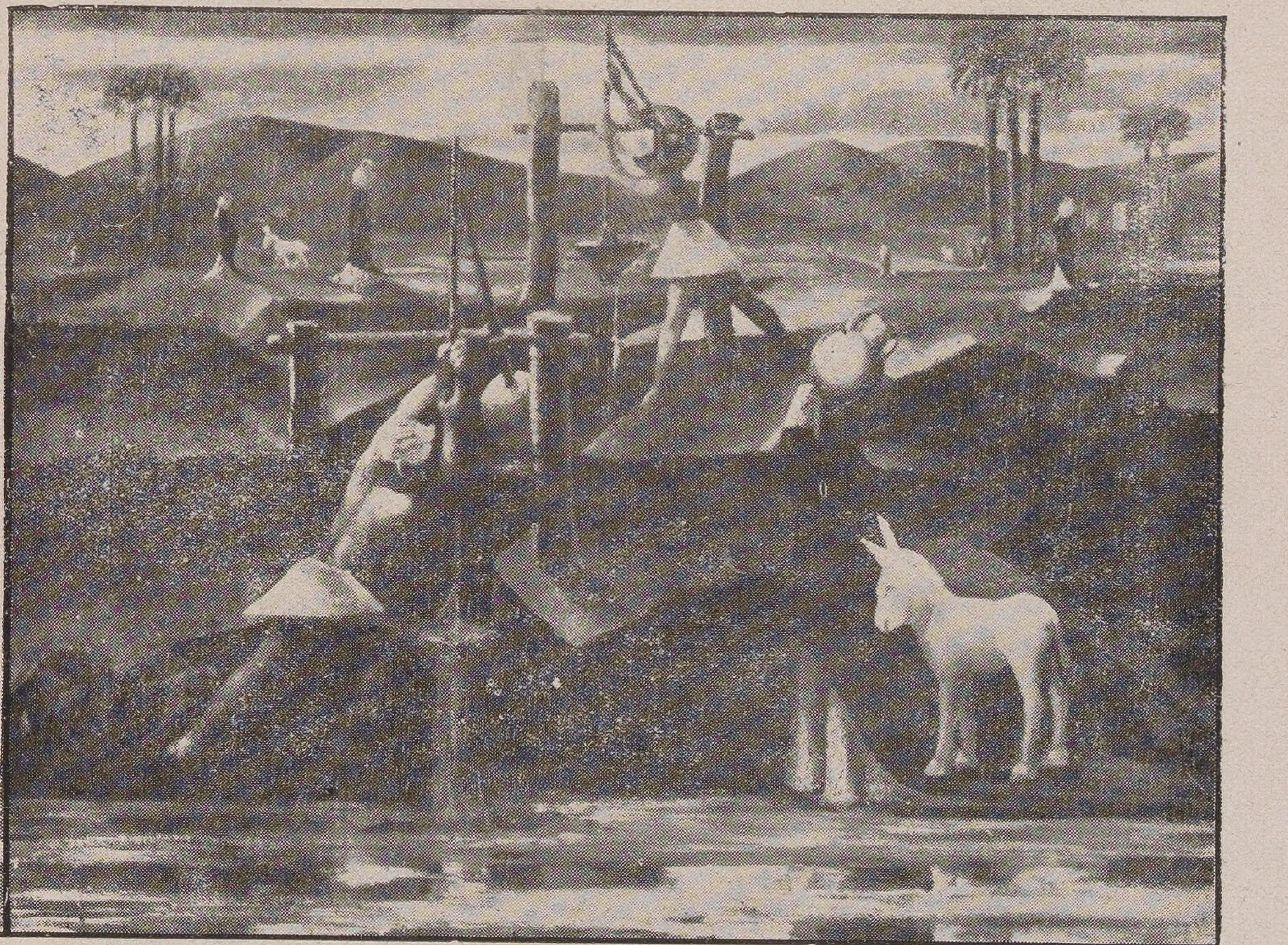
الرائى دون أن يلم بالسبب ، ولكن الواقع أن هناك سببا فنيا يرجع إلى أن المنظر الذى خلف الحاج على يجلى عن صورة نهر يسير فيه قارب ذو شراعين صغيرين وأنه اتخذ من شكل الشراع صورة مكررة ورددها بتصرف فى ظلال الصورة جميعها ، فتجد فى فتحة صديريته وفى أكمام ردائه



صورة العائلة (لمحمود سعيد)

وفى أطراف عمامته ما يذكرك بشكل الشراع ، كما انك إذا دققت النظر تجد هذه المعالجة بيّنة واضحة على وجهه أيضا ، فكأنما هو موسيقى يرجّع نغمة حلوة فى انحاء اللحن وهذه هى الروعة التى تعطى للصورة ذلك التوازن وذلك السحر اللذين يغرق فيهما الرائى اعجابا وافتنانا . لم تتميز صور « سعيد » باتقان الرسم الذي استطاع أن يطبع عليه اللون المصرى فحسب ، بل الواقع أن فنه يمتاز من فن غيره بأسباب عديدة يعز تفصيلها جملة إلا فى كتاب يخصص فى تحليل منتجاته والكلام عن تطورات فنه فى مراحله المختلفة سواء أكانت هذه المنتجات صورا لاشخاص أو لمناظر برية أو بحرية أو لأشياء جامدة وهى ماتسمى بالطبيعة الجامدة

واننا لنجتزىء فى هذا البحث بالقول بأن « سعيداً » قد برع فى عملية التأليف أعني اختيار



الشادوف (لمحمود سعيد)

المنظر وطريقة تصويره على اللوحة فى اتزان وانسجام، وهذا التأليف هو مايسمونه « Composition »
كما يجدر بنا أن ندون مقدرته فى وضع الالوان بقيمتها الحقيقية ، وهذه هي الميزة التى تظهر قيمة الفنان النابغ من المصور العادى



خادمة الست الكبيرة (لمحمود سعيد)

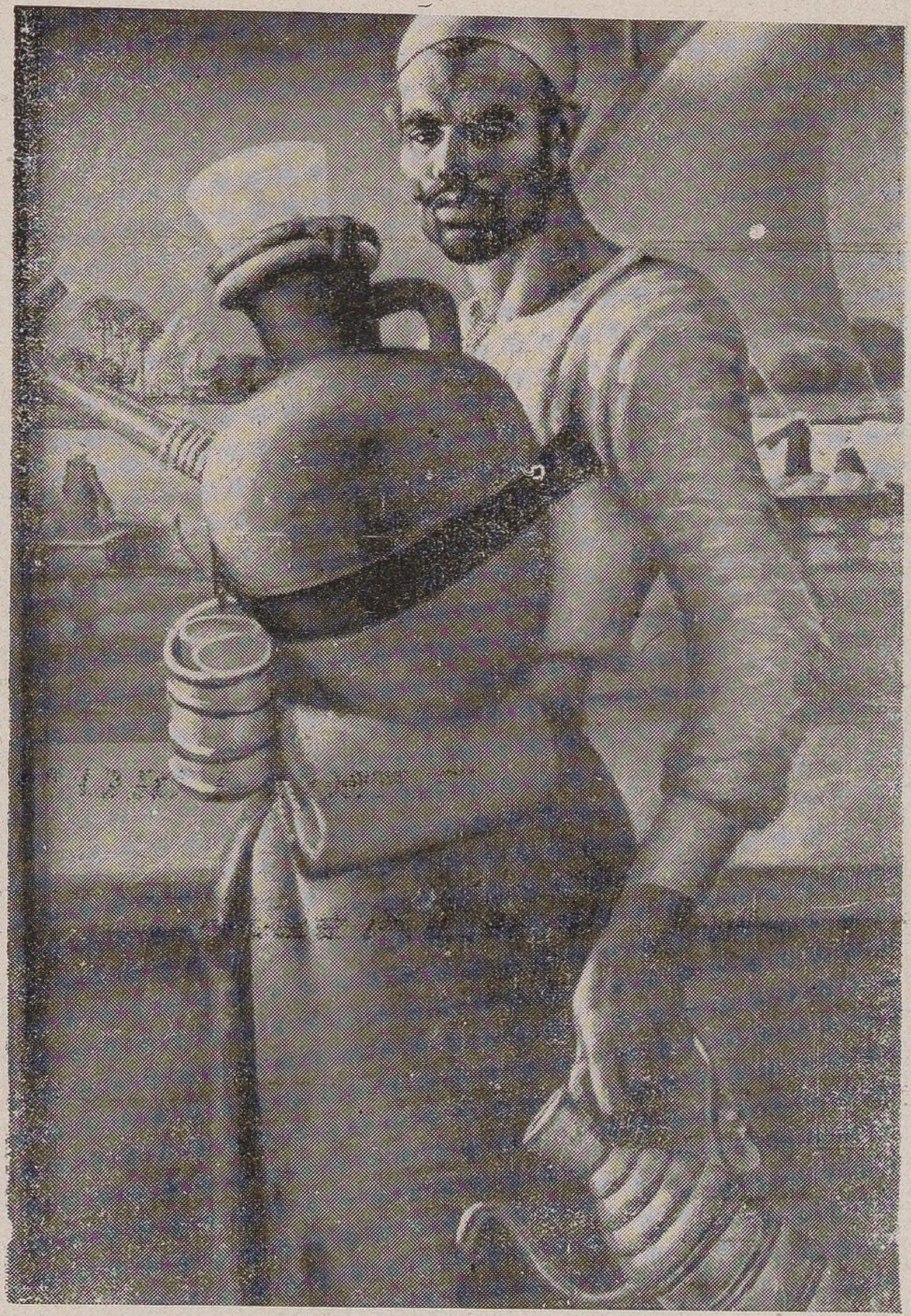
قف أمام أية صورة تصادفك فى حانوت أو متحف للصور ولتكن صورة حديقة رسمت مثلا فى وقت الظهيرة تظللها أشجار يمرح تحتها أطفال حول نافورة مياه . أنعم النظر فى أجزائها المختلفة تر كأنما ينبعث من الارض حرارة طبيعية ، وتر الاشجار كأنما علاها لون هادىء يعبر عن رسمها وقت الغسق ، والظلام باهتة كأنها تستخلص سكينتها من نور الصباح

فالمصور الماهر هو الذى يتجنب ذلك التباين فى قوة الضوء والذى يستطيع أن يحافظ على قوة

واحدة للضوء فى جميع أجزاء الصورة الواحدة وهذا مالا يتمكن من أدائه بتلك الدقة إلا القليل النادر من المصورين

ان النظريات الحديثة التى ألم بها « سعيد » في الزمن الماضى لم تترك فى نفسه أثرا واضحا كما تركت فى نفوس غيره ، والواقع ان نظرية الرسم التكعيبي لم تبق فى عقله إلا بعض المؤثرات التى ما كانت لتستطيع أن تحيد به عن الطريق الذى اختطه لنفسه وسلك منهجه وبخاصة ماكان له صلة بالتوازن وبأحجام الاجسام التى لها حيز في الفراغ

والذي يبين ذلك جليا صورة تلك الخادم التي تحمل صينية عليها قلتان ويرجع التوازن فى هذه الصورة الى أنها تكاد تشغل فراغ شكل هندسى (شكل معين)



بائع العرقسوس (لمحمود سعيد)

مرت الايام وأصبح « سعيد » لا يرسم إلا ايرضى نفسه وبعض أصدقائه فكان يشتغل بالفن للفن حتى إن بعض المعجبين من النقاد الاجانب قالوا انه « مصور المصورين »

إلا أن سعيدا لم يسلم من نقد بعض النقاد الذين توجهوا اليه باللوم لعدم تغيير أسلوبه . ولكن كيف يستطيع مصور ذو شخصية كادت أن تصل الى المثل الاعلى أن يتلوّن فى شعوره وطريقة

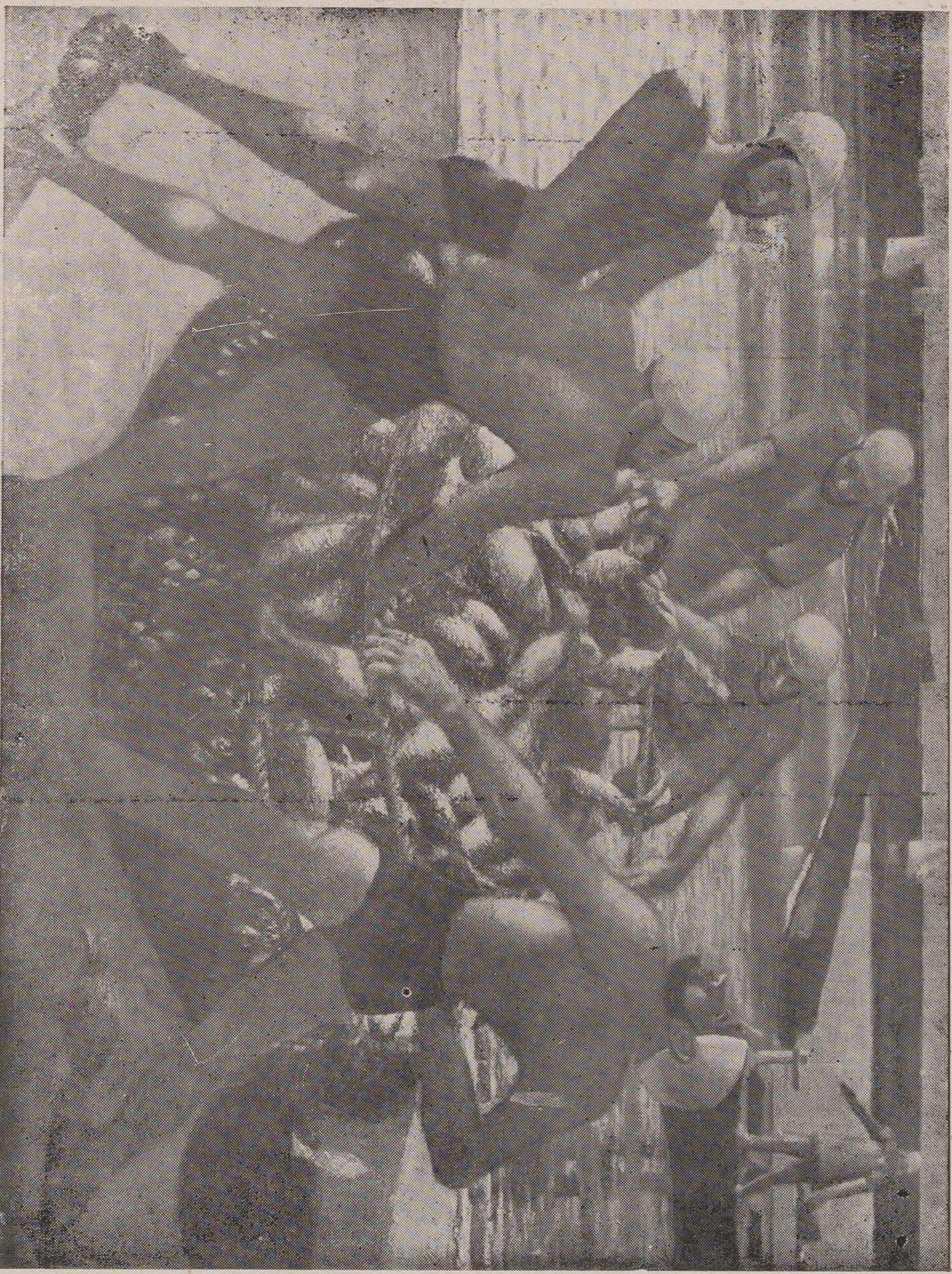


دولة يوسف باشا وهبه (لمحمود سعيد)

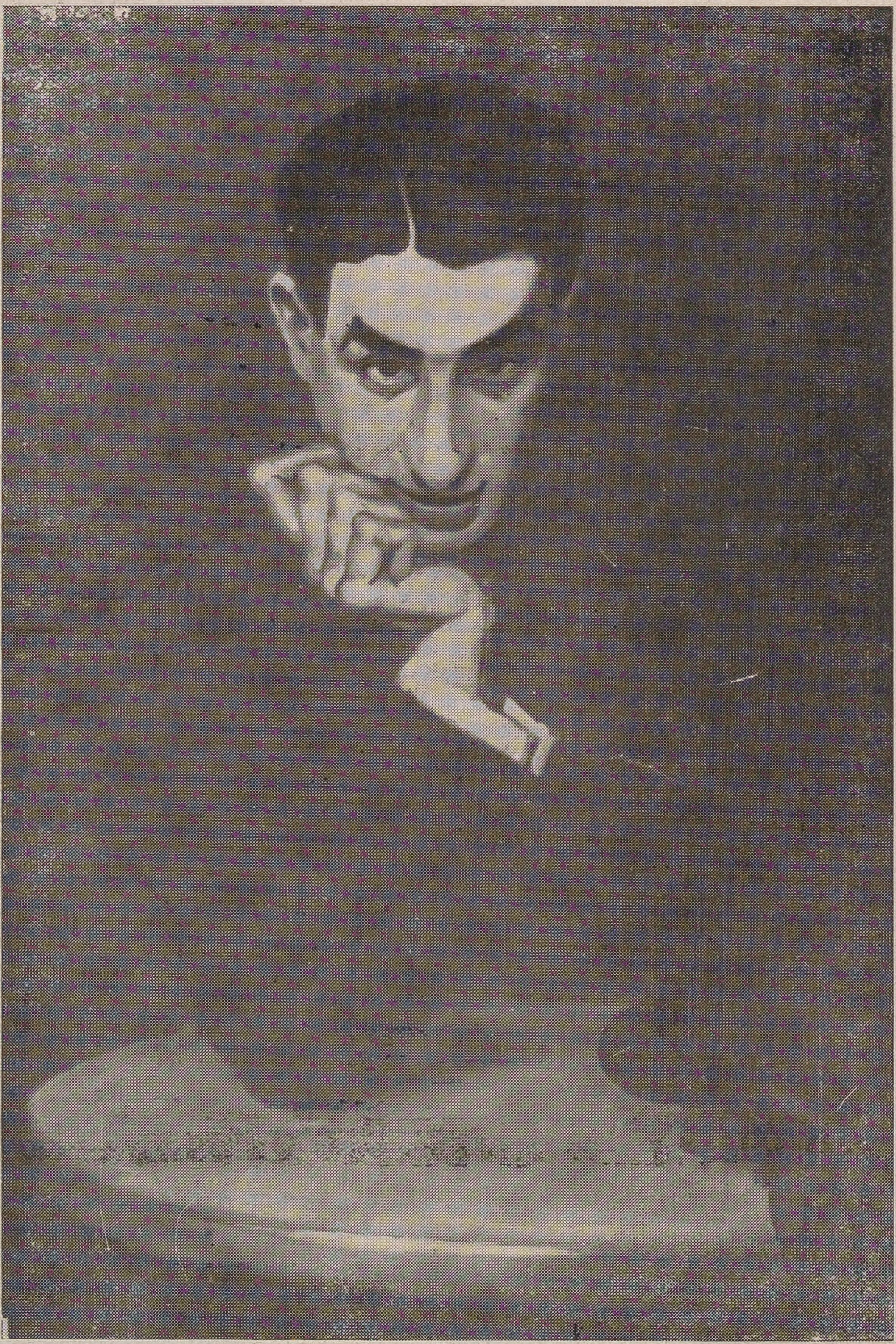
تعبيره فى تصويره ؟؟ وهل لعقل أن يتصور أن شجرة تفاح مثلا تثمر شيئا غير التفاح ؟؟ غير أن النقاد اعترضوا على ذلك فقالوا « نحن نريد التفاح حقا ولكنا نريده متعدد الالوان مختلف المذاق» وفات هؤلاء أيضا أن شجرة تفاح بعينها لاتثمر إلا نوعا من التفاح بعينه ، أما مانشهده من اختلاف ألوان التفاح ومذاقه فلا يكون الا من أشجار متباينة

لم يتأثر « سعيد » بنقد النقاد واستمر يرسم طوع غريزته ووحي فنه ، ولم يرسم حسب طريقته ليقال انه مخالف لغيره بل لأنه كان يرضى الجانب الفنى الذي يتمشى وشخصيته القوية

وقد هز بذلك كما قلنا نفوس المصورين بصوره التى انتهج فيها منهجه الخاص وإلهام روحه اللذين أكسباه إعجاب النقاد من أجانب ووطنيين . ومن دواعى الغبطة والاستبشار أن أصبح كثير من شباب المصورين المصريين يعترفون لزعامة « سعيد » ويهتفون بها ويتوّجون بفنه هامة الفن . ومن



صيادو الاسماك (محمود سعيد)



صورة الرسام جورج خوري (لمحمود سعيد)

بين هؤلاء الأستاذ الفنان سند بسطا المحامي الذى ارتقى بفن «سعيد» الى العلاء فى مقال له نشرته جريدة الاهرام عام ١٩٣٣ نقتطف منه مايلى : « . . . واذا تكلمت عن الفنانين المصريين فانما أبدأ بزعيم النهضة فى هذا المعرض وهو الاستاذ « محمود سعيد » اننى لم أحظ بمعرفته ولكننى شديد الاعجاب بفنه ويشاركنى فى هذا الاعجاب أصدقائى من الفنانين الاجانب ، ففنه دائم التطور

والتقدم بل أعتقد أنه أقوى مصورينا . يعجبني فيه قوة الابتكار وبعد صوره عن الابتذال والتقليد فهو قدير في إظهار نفسية من يصورهم وما احتوت عليه نفوسهم من طباع وشهوات الخ »

والواقع أن صور « سعيد » ليست من الصور التي تحتاج الى شرح ودفاع إذ أنها مليئة بحياة تكفي للدفاع عن نفسها ، وبينا يجذب فنه نفوس البعض بتلك القوة الخفية وذلك السحر الذي يسيل منه إذا بنا نرى عين هذه الصور بعيدة عن مس أوتار قلوب البعض الآخر

في فن «سعيد» شيء خفي آخر يستوقف النظر كذلك الخماء الذي يتميز به فن المصور الاسباني Greco ذلك الفن الذي لا وسط لتذوقه فاما أن تحبه وتغرق في حبه واما أن تبغضه وتمعن في بغضه ولكننا نحب فن « سعيد » كما نحب لون النيل الذي يعجز الوصاف عن وصفه لاشتماله على خليط من ألوان الطمى وأشعة الشمس وصفاء السماء ، وبهذه الالوان القليلة يعتبر « سعيد » من أمهر المصورين لأنه استطاع أن يجعل هذه الالوان نفسها تهتف في صوره بنغمات شجية تمس القلب وإن شئت فقل انها نغمات حزينة تحاكي وقع أقدام محبوبة في اذن واله بعد أن ودعته الوداع الاخير



(لمحمود سعيد)

إن عجينة الالوان التي يرسم بها « سعيد » هي عجينة حارة كأن عليها طبقة من الصدأ كتلك التي تعلو التماثيل التي تهزأ بالسنين والاجيال . ونحب أيضاً فن سعيد لاشتماله على روح شهواني خفي فتري في معظم لوحاته ذلك الشيء الذي لا يمكن وصفه والذي يضغط على القلب فيجعلنا نذكر لذاذات الحياة حتى أمام تصويره لصور المقابر التي يشيع في جوها حزن كشعور المحب حين



(لمحمود سعيد)

يستروح شذا عطر يذكره بأويقات هناءة مضت وتنبعث منه نغمات تزحف ببطء على الروح كأنها قبلة قاتلة

ولقد أبدع أيضا فى تصوير تلك القسوة التى تزين عيون بعض العذارى حين يضطرم جسمهن بشهوات غامرة لاتشبع . ولن أنسى صورة تلك المرأة التى كانت فى جمالها أشبه ماتكون بغزال شارد فأذكر ملامحها والسخرية تبدو على شفتيها والاشجار من حولها تبكى والسماء فى صفائها



(لمحمود سعيد)

ينحدر منها لعاب الشمس كنقط الطل المترقرقة فوق الازهار فى الصباح . وكان لهذا التصوير أريج أخضر يتضوع منه عبير أوراق ندية . .

أنظر الى تلك الغادة التى تسدد الينا سهام اللحظ ولاترى صعوبة فى جرح قلوبنا بتلك النظرات المعطرة بالقسوة والدهاء ، أنظر الى لحظها الساخر فى حنانه المدل بسواد انسانه وما أشبه سواده بحظ المصور ، أنظر الى إهابها الناعم المزرى برونق الزهر ، أنظر الى يديها والى ذلك الخاتم الذى لايزيد بنانها جمالا ، أنظر الى أظافرها الوردية كأكمام الورد فى الصباح ، أنظر الى كل ذلك ونبئنى اذا كان فى مقدور مصور أن يبرز مثل هذه الصوره لو لم يكن قلبه مفعما بالعاطفة الجامحة ولو لم يعبد تلك الغادة التى تهجم نظراتها على روحه بغرام ينسى آلام الحياة

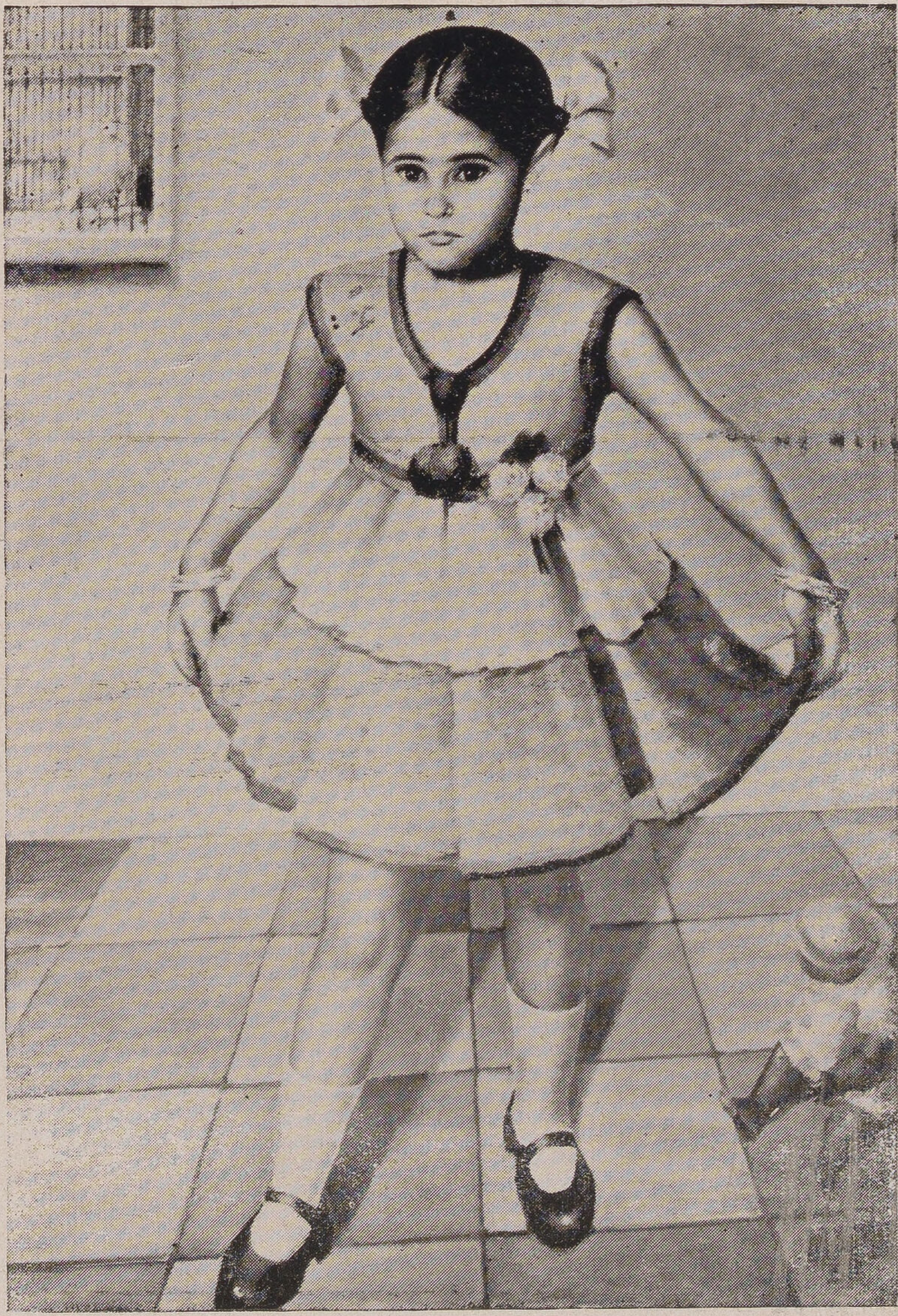


الزهرة السوداء (لمحمود سعيد)

كما أني أذكر صورة تلك « الزنجية » وما يحوطها من شهوة وإغراء ، أذكرها وهي تنظر الينا وسآمتها تئن كأريج زهرة تذبل ببطء فى هواء حجرة يسبح فيها صمت الوحشة ، فنرى أنهـا تشعر أن حياتها تذهب هباء كتلاشى الأمواج على الشاطيء ، هذا الشاطيء الذى كان يذهب اليه المصور ليغسل ذكرى عهود غابرة

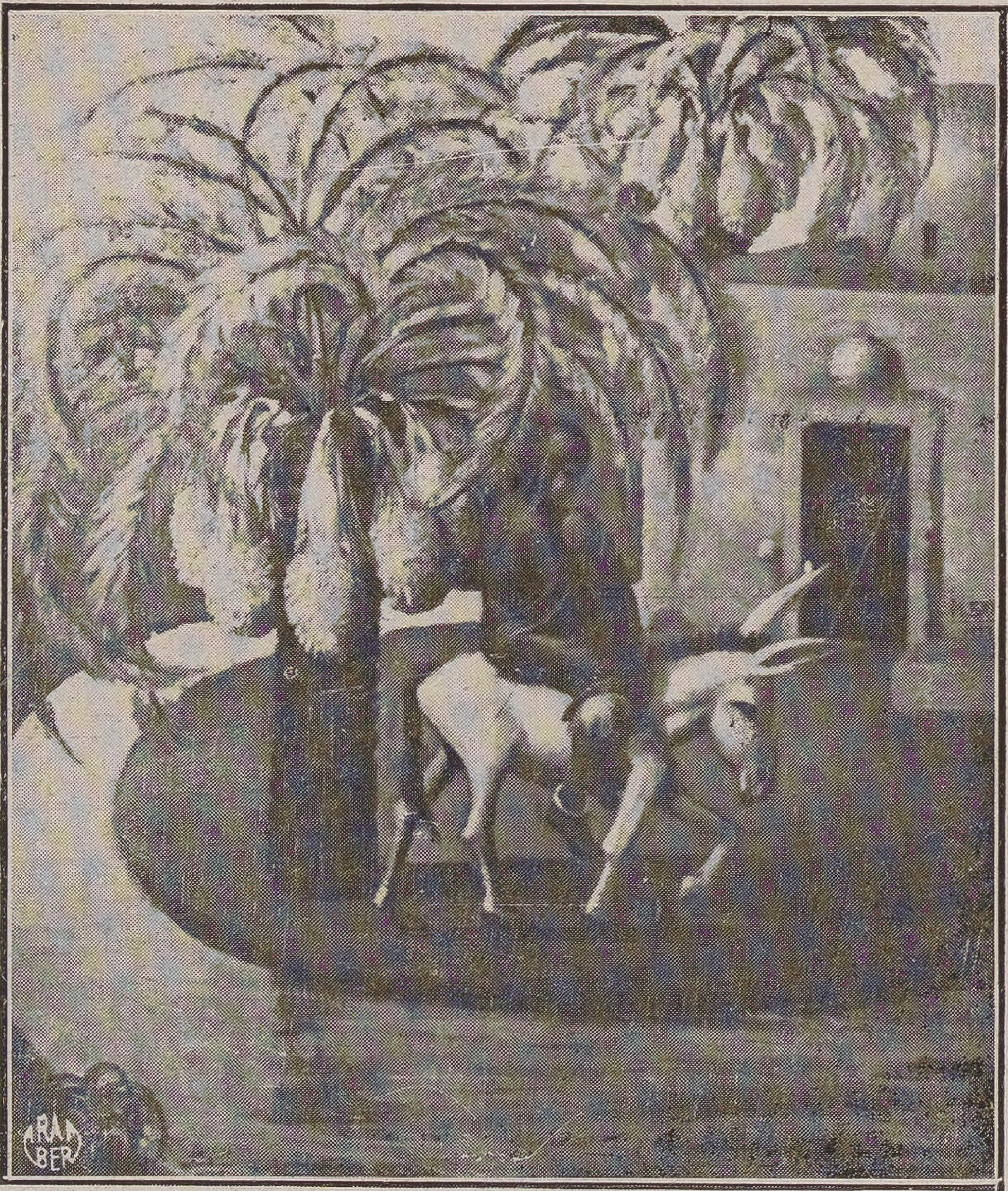
كما أني أذكر صورة تلك الخادم (هاجر) وهي جالسة على الارض تفكر فى حياتهـا التعسة

فتحس أنها أتعس حالا من حسناء ذهب بجمالها تشويه الشيخوخة ودمامة الهرم ، فيخيل الينا أنها كلما وقفت أمام المرآة ورأت غضون وجهها وهزال ثديها المتدليين على ثنايا جسمها العديدة سقطت الحسرة فى قلبها وتنفست البرحاء على نضره مضت ، وغض إهاب جف وتشقق



(لمحمود سعيد)

ومما يجدر تسجيله أيضا أن هـذه « القوة الـكاريكاتورية » التى نجدها فى لوحاته الاخيرة نجدها أحيانا فى لوحاته القديمة أيام كان يشع فى صوره النور الذهبى والنسيم المنتشر والالوان الزاهية ، فـكان « سعيد » يسجل فى ملامح الشخص الذى يرسمه شيئا من أخلاقه ويطبع عليها ذلك الطابع الذى يخلده الزمن فى المستقبل



(لمحمود سعيد)

صورني « سعيد » عام ١٩٠٤ صورة كانت مثار ضحكنا وهزئنا فـكانت فى نظرنا العابث كأنها صورة المحكوم عليه بالاعدام وحول عينيه تلك الهالات السوداء . وعلى فمه تلك التجاعيد التي تتركها الايام القاسية على سيمائنا ، وكثيرا ما هزأنا بسعيد فى ذلك العهد من أجل هذه الصورة ومن أجل صور أخري تشابهها



صورة هاجر (لمحمود سعيد)

ولكن من المدهش حقا أن هذه الصورة الغريبة أصبحت تشبهني الآن تمام الشبه وأصبح الامر لايحتمل الضحك بل مما يدعو إلى الاعجاب والتقدير

وإنني لأعترف اليوم فى احترام وتبجيل بأن « سعيدا » لم يشوه الوجوه اذ ذاك جزافا أو أنه



صورة المصور محمود سعيد (لمحمود سعيد)

ما كان فى استطاعته إتقان رسمها اتقانا تاما ، وانما كان يقصد الى ذلك عمدا كأنه كان يحاول أن يسجل الملامح التى سيكشف عنها مرور الزمن المخبوءة اليوم تحت نضارة الشباب فقط



(لمحمود سعيد)

تأملات

للأستاذ بشري الضبع

الانسان كشخصية :

هذه تأملات فى الفنون والحياة ليس لى غاية منها سوى أن أثير أذهان هؤلاء الذين يعيشون على هامش الحياة ، الذين فقدوا أنفسهم فى المنزل الشهوى والعمل الآلى والفراغ العاقر ، فى الجنث والخمر ، فى ورق اللعب والنرد والدومينو ، فى النارجيلة ودور السينما ومحال اللهو . ليقفوا معى وقفة قصيرة ، ليتأملوا أنفسهم ، أين هم ، ماقيمتهم فى المجتمع وإلى أية غاية يسعون فى هذه الحياة ! فاذا عرفوا أنهم فقاقيع تعوم ، وإذا عرفوا أنهم أوراق تتحرك فى اتجاه الريح ، وتنبهوا إلى معنى الوجود الحق ، سعوا معى كما أسعى ، إلى تحقيق الشخصية . وفهموا معى ان معنى الوجود الاسمى هو أن ندرك لباب الحياة الصميم : هو أن نعيش « شخصيات »

فصاحب الشخصية يرتب عواطفه ، ينظمها بحيث تتفق وتنسجم والغاية العليا التى يسعى اليها فالمهنة التى يمتهنها والكتب التى يقرأها والعلاقات الجنسية التى ينشئها والاستجابات الشعورية التى تنبعث منه أمام مواقف الحياة المختلفة ، كل هذه الاشياء تكون كلا منسجما ، ينم عن شخصية متحدة ، عن وحدة متسقة تسير فى صعيد واحد نحو غاية معينة . أما صاحب الشخصية المفككة المبعثرة الذى يستجيب للحياة استجابات مضطربة مختلفة لا تربطها خاصة مميزة ، تجمعها وتوحدها فهو يعيش كالحيوان ويسير كبندول الساعة

الموسيقى والحب الانسانى :

قد يكون غريبا أن يفلسف الانسان فى الموسيقى فى هذا العصر الذي لا يعرف غير السرعة والكم والمنفعة . وبالرغم من أن هناك حملة واسعة النطاق يقوم بها جمهرة من الكتاب والعلماء البارزين ترمى إلى توجيه نظر الناس إلى الناحية الكيفية والمثلية من الحياة حتى يكون احساسهم بها نابضا حياً وعميقا ، رغم هذا كله كثرة الناس مازالت تحس الحياة هذا الاحساس الفارغ

وتنظر إلى الفنون عامة وإلى الموسيقى العالية بوجه خاص نظرة عابرة لا فهم فيها . ولسنا نعيب السرعة والكم والمنفعة وانما نقصد إلى القول بأن هذه الاشياء وحدها ليست كل الحياة وان الحياة لا تكتسب شخصية أو قيمة إلا اذا أضفنا اليها عمق الاحساس . ويمكننا بعبارة وجيزة أن نقول ان العصر الحاضر غنى بعض الغنى فى الجسد فقير معدم فى النفس

غير أن هناك بوادر تبشر بأن هذا النظر إلى الحياة بدأ ينتشر بين أوجه النشاط المختلفة فى الحياة الاجتماعية كنتيجة ناجحة لجهود رجال الفكر الحر . ومن هذه البوادر الطبيعية انقاص ساعات العمل إلى أربعين ساعة فى الاسبوع لتوفير الوقت الكافى للعمال حتى يحسوا بالحياة فى عمق وامتلاء وحتى يشعروا انهم كائنات انسانية لها نفس ولها جسد . وهو اتجاه نحو تحقيق هذا الحلم الذهبى الذى بدأ يحلم به الانسان منذ فجر التاريخ فى ربوع النيل حين عرف عناء العمل وأحس بثقل الحياة وتكلم عنه هسيود وأوفيد فى تفصيل ووضوح . وما هو هذا الحلم ؟ أليس هو اكتمال الراحة الجسدية وسعة الروح وامتلاؤها وتوفير مايثير النفس والحواس ويحركهما فيعيش الانسان وكأنه يحيى فى كل يوم حياة جديدة ولا يكون كنغمة طويلة ساكنة رتيبة . ان الانسان خلق ليحيى لا ليعمل وانه ليعمل حتى يوفر لنفسه أسباب الحياة لا ليشقى وينصب

واذا تكلمت عن الموسيقى فانى لا أعنى هذه الموسيقى المريضة التي نسمعها من محطة الاذاعة العربية والتي لا تخرج عن كونها صيحات قذرة توحي بضآلة النفس وبالتهافت العصبى ، موسيقى لا تحمل الينا إلا احساسا بالحياة لا يمكن بأى حال من الاحوال أن يصطنعه أو يستشعره انسان سليم الاعصاب . فالموسيقى كالحلم تصور نظر صاحبها نحو الحياة وتثير فى نفسه مشاعر وعواطف تتفق وهذا النظر ، ثم تنقل هذا النظر الخاص محملا بهذه العواطف والمشاعر إلى جمهرة السامعين ولا يمكن لانسان يتناول الحياة ويقرؤها بنفس مريضة وذهن فارغ أن يبعث فينا ما يفتح النفس ويكسبها ما يمكن أن نتجاوز فنسميه بالبصر الآلهى . تلك حالة أقرب إلي حالة الجماد منها إلى الحياة والكائنات الحية يمتاز بعضها على البعض بسعة أفقها وحريتها . ووجود النفس الفنانة الطليقة فى الحياة من حين لحين يدل على نية فى الطبيعة ترمى الى الوصول بالنفس الانسانية إلى أبعد حدود الحرية والشمول . فالحياة كما هي فى نظر فاليرى وهكسلى وغيرهما هى غاية الوجود . والعصر الذهبى هو الذى يحقق الحياة فى أوسع معانيها : اذ تشبع الحواس وتمتلىء الروح . وبعبارة أخرى هو الذى يتحقق فيه الفهم الاعلى للطبيعة البشرية ومن ثم الحب الانساني العام

لا يؤمن « فرويد » بشيء ثم يعجب به الا اذا فهمه وحلله الى عناصره الاولى وعرف دقائقه ولهذا فهو لا يؤمن بالموسيقي . ولا عجب فهو لا يؤمن بالبصيرة اذ يقول ان مكانها العقل الباطن وما ينتجه العقل الباطن انما هو أحوال وخيالات تتلاشى أمام العلم الذى ينتجه العقل بالملاحظة المنظمة والتجربة . فهل هذا صحيح ! وهل النية معدومة فى الطبيعة ، تسير على غير هدي بلا غاية ولا قصد . وهل الدافع الحى الذى يقول به « برجسون » والنفس العليا البنائية التى يقول بها « يونج » لا وجود لهما ! وهل هذه القيم الانسانية الرفيعة هراء من وحى البصيرة الخادعة ! !

لا يمكن للانسان أن يجزم جزما قاطعا . ولكن هناك شيئا لا يمكن أن ننكره . وهو ان الانسان ليس مجرد فسيولوجيا وانما هو مزاج من الجسد والروح . له مطالب روحية وحاجات نفسية . والعلم وحده لا يمكنه أن يمد الانسان بمطالبه الروحية وحاجاته الانسانية العالية . وأهم هذه الحاجات هو هذا الحب الانسانى الذى يضم الناس كلهم ويوحد صفوفهم ويؤلف بين أفئدتهم . وليس هنالك شيء فى الفنون كلها يخدم هذه الحاجة كما تخدمها الموسيقي . انها رسول الحياة الاعلى الذى تعهد اليه برسالتها الى الناس . وما رسالتها ! وما تكون . تكون رسالة الحياة ان لم يكن هذا الحب الانسانى العام ! !

كنت استمع أمس إلي قطعة موسيقية لبيتهوفن . أخذت انصت وأنصت كأنما كنت استمع إلى وحى أخاذ . خيل لي أنى أشرف على آفاق جديدة ، وانبعث فى نفسى نغم خفيف غير متميز القسمات ينبض فى خفيفا غامضا ولكنه ممتع قوى أخذ يرتفع بي ويحلق فوق آفاق شاسعة وبدا لى هاتف من أعماق سحيقة يوحى الى : انه همس الوجود

الحياة اذا عاشها الانسان عيشة عالية نوع من اللحن . والمبدأ اذا كان نبيلا وخالصا نوع من اللحن . الشعور لحن خالد . والله نفسه أو نية الطبيعة لحن ازلى مقدس . فى كل قلب انسانى خصب لحن خفى . هذا اللحن الذى اذكره هو موسيقى كامنة كائنة بالقوة . أما الموسيقى فهى لحن ظاهر ملموس كائن بالفعل

ووظيفة الفنان أن يلحظ هذا اللحن الخفى . أن يعيش فى قلب كل مخلوق ، فى صميم الوجود ويحيل هذا اللحن الخفى الى موسيقى متدفقة حية . انها الشعلة الخالدة التى تجتمع حولها الانسانية كلها وتتفاهم الحاسة الاستاتيكية :

ذهبت منذ أسبوعين الى حديقة غناء قضيت فيها ساعة اشبعت فيها نفسى الظمأى من جمال

الشكل والمعنى والحس . وفى هذا الجمال الطلق الذى خيل الى انى اراه فى الزهر واحسه واسمعه فى شبه نغم خفيف غامض ، شعرت انى اقترب شيئا فشيئا من نفس الوجود . ثم دفعنى هذا الجمال الى التأمل فى هذه الحاسة الاستاتيكية التى يسميها بعض الكتاب بالحاسة الفنية او الذوق الفنى وهذه التسمية خاطئة لان الحاسة الاستاتيكية اعم واشمل . اخذت اتأمل فى مكانة هذه الحاسة من حياة الانسان الشعورية . وانى اذكر انى قلت فى غير هذا المكان ان من دلائل رقى الامة يقظة الاحساس الاستاتيكى فيها . ومظاهر هذه اليقظة اقامة المعارض والمباريات والمحافل المختلفة التى يبدو فيها الجمال على اختلاف اشكاله فى أبهى مظاهره . ولكن هناك نفرا من الكتاب منعهم تعليمهم — ولا أقول ثقافتهم — المحدود من ادراك خطورة هذه الحاسة فى حياة الانسان الشعورية . وبالرغم من أن الجمال الانساني يعتبر النموذج الاعلى لكل جمال فقد قال احد هؤلاء الكتاب حين انتخبت الآنسة شرلوت واصف ملكة للجمال فى العام الماضى ، انها تاجرة ورقيقة وان اقامة مباراة الجمال فسق وانحطاط . وقال آخر ، ان تكريم الجمال نوع من التشبيب وانه بعيد من روح التصوف والعفاف . وليس هذا بعجيب . ذلك لان علم هذا النفر من الكتاب المحدود والذى ظنوه كل شيء لم يرتفع بهم أو يخفف من طبيعتهم الكثيفة او كثير فى انفسهم هذه الحاسة الاستاتيكية التى تتميز بتجردها عن الرغبة المجنونة والاعياء والصراع النفسى والقلق والخيبة ذلك لانها تذوق ذهنى خالص هادىء مستمر للجمال لايصحبه شىء من هذه العواطف التي تتصل بالجسد الصميم . فلا عجب اذا نظروا الى مباريات الجمال هذا النظر الفطري الفج لانهم كما يستخلص من كلامهم لم يحاولوا فى حياتهم أن يستنبتوا فى انفسهم هذا الذوق الفنى الخالص وما كانوا ليروا فى الجمال الا باعث رغبة مجنونة او أعياء او قلق أو صراع نفسى أو خيبة

ولهذا فقد خشوا على الناس ماوجدوه فى انفسهم باعث شفقة ورثاء . ونسوا انهم كأدباء موكلون بتكييف نظر الجمهور وتثقيفه واستزراع العواطف النبيلة فى نفسه . واقامة مباريات الجمال انما هو جهد من الجهود التى تبذل فى سبيل هذه الغاية العليا من الصقل والتصفية . وهؤلاء الكتاب المتزمتون اذا نظروا إلى الجمال ، الانساني والفنى ، هذا النظر وكشفوا للجمور عن هذه الحاسة النبيلة ودفعوه الى رؤية الجمال من هذه الناحية الخالصة كان هذا خيراً من أن يثيروا فى نفسه الشك ويؤكدوا فى اعصابه هذه الاستجابات التي لاتزال تكمن فى كياننا والتى تذكرنا من حين لآخر بنشأتنا الحيوانية الاولي

ان أكبر مهمة يجب ان يضطلع بها الادباء في مصر هى أن يكشفوا للشعب عن مواطن الجمال فى الفن والحياة ويقووا فى نفسه هذه الحاسة الاستاتيكية

سيكلوجية التعصب

للتعصب بواعث دفينة لا تبدو للعين المجردة . وهذه البواعث الظاهرة والتي يظنها كثرة الناس البواعث الحقيقية انما هى بواعث شكلية لا تتصل بالصميم . لماذا يكره «م» «ب» لأن «ب» يدين بدين غير دينه ! ؟ وهو لهذا يمقته ويضطهده ويطارده فى مرافق الحياة المختلفة اترانا نجد دينا مهما بلغت به نشوة الحماسة والعصبية يحرض اتباعه باضطهاد وكراهية من لا يدينون بهذا الدين ؟ كل الشواهد تدفعنا الي انكار هذا الرأى . فليس هناك دين إلا وهو يحض الناس على العبادة والتقوى والحب الانساني العام ومعاملة الناس بالحسنى والرفق مهما اختلفوا في نزعاتهم الدينية . ولسنا نرى دينا إلا ويقول ان دين المرء انما هو شيء يتصل اتصالا مباشرا بحاجاته الباطنية الشخصية وليس لانسان ان يناوشه فيه أو يتعرض له بسوء أو بعداء . وأن اختلاف الاديان لا يمس في واقع الامر صميم الايمان العام بالله فى كل البشر وانما هو اختلاف كاختلاف الآراء الاجتماعية والمذاهب الفلسفية والنزعات الفكرية . فاذا كان الامر كذلك فما هي البواعث الحقيقية التى تدفع «م» إلي كراهيه «ب» ؟ لا شيء الا لانه يخالفه في الدين . هنا تسعفنا نظرية « فرويد » في العقل الباطن بالتفسير الصحيح . فـ « م » يكره « ب » ويضطهده لا لأن هذا يخالفه في العقيدة الدينية وانما لأن «م» يجد فى اختلاف الدين تعلة ومخرجا للتنفيس عن ميوله المكبوته . انه يريد أن يضطهد ويقسو ويشبع فى نفسه ميله الباطنى الى الكبرياء والسيادة والسلطان . فمن يضطهد ؟ وعلى من يظهر سيادته وسلطانه ؟ انه يتخذ من اختلاف الدين علالة يزيل بها عن كاهله هذه الاعباء الثقيلة من الميول المكبوته ولهذا نجد التعصب عند العامة والدهماء اشد وأقوى منه عند المثقفين والمتعلمين . وان بدا ميل الى التعصب فى بعض من يخيل الى الناس انهم من المتعلمين للالقاب العلمية التى يحملونها فهؤلاء في الواقع اميون النفس جهلة . ذلك لان العلم شيء والثقافة شيء آخر فالمتعلم قد يعرف شيئا من الاقتصاد والجغرافيا والقانون ولكنه رغم هذا هو فى الصميم حيوان لم يثقف الثقافة الحقيقية التى تمكنه من اقتلاع عقيدة الغابة وميول الغابة من نفسه

فالتعصب ليس من طبيعة الدين وانما هو كامن فى صدر الانسان ، مركب نفسى منشؤه الميول المكبوتة . فاذا رأى انسان انه يكره آخر ووجد أن باعث هذا الكره اختلاف الدين فليبحث عن ميوله المكبوته لانها باعث هذا الكره الوهمي

استرحام

للدكتور ابراهيم ناجى

أنا أهواك وان لم تقض لى يوما ديونك
لا أبالى خنتنى أم غير البعـد يمينك
أيها الطائر عنى طرت عمن لم يخونك
كلما عدت ترى القيد وتلقـانى سجينك
فاسأل الايام هل قد ضنت الأيام دونك
كم محانى السقم والهجر ولم أمح ظنونك
صاح جرحى بك صد ق أيها الرامى طعينك
عند ما استرحمت كفيك وقبلـت عيـونك

الافكار النباتية

للاستاذ أمين الريحانى

حبذا الشمس والخيال . حبذا هواء الحقيقة والذوق السليم . فقد شحبت وجوه الادب من أنوار الشمع ، ومصابيح الزيت ، ومن الدخان والروائح التى تنتشر من صفحات اللغة . وقد أمسى هذا الأدب فى أشد حاجة إلى نور الشمس ، إلى هواء الحقول ، إلى سواقى الجبال

لنخرج من الـكتب إلى الحياة ، ومن التحذلق إلى البساطة . لنخرج من القوالب القاسية الصدئة إلى التفكير الحر . لنخرج من الصناعة إلى الفن ومن التنميق إلى التحقيق ومن اللغو إلى المنطق

اي أسيادى جهابذة اللغة ، لو اتجهتم بانظاركم الشريفة إلى الفـكر والمنطق مرة واحـدة كل عشر مرات تتنزهون فى حدائق النقد اللغوي ، فتعنون بما اختل واعتل فى التفـكير وصيغه ، وفى الحقائق واشكالها ، لقلت الأفـكار النباتية فى آدابنا العصرية

وليس فى الأفـكار النباتية كلها أسخف وأقبح من فـكر تلفه وتمده وتوثقه وتشده بالاستعارات التى لاحقيقة فيها ولاذوق ولابلاغة ولاجمال . هى الاستعارات القلقشندية تزعج الافكار وتبلبلها بل تعذبها وتقتلها

كيف ننتقد الشاعر شوقي

بقلم الأستاذ خليل السكاكيني

لا يسعنا ونحن نعجب بشوقي ، ونفخر به . الا أن نعلن حزننا العظيم أنه لم يخل في حياته من تعنت المنتقدين وتطاولهم عليه ووقيعتهم فيه ، واني لاخشى بل أتألم بل أحزن الحزن كله أن يكون قد مات مكسور الخاطر

للانتقاد شروط لست الآن في معرض الكلام عنها باسهاب اهمها :

(١) ان ننتقد شعر الشاعر لنعرف هل أحسن أم أساء ، لا نفسه لنعرف هل هو طويل أم قصير ، هل هو عالي النسب ام وضيعه ؟

(٢) أن يكون غرضنا من الانتقاد التفتيش عن المحاسن لنظهرها لا لنخفيها ، والتفتيش عن المساوىء لنتجنبها لا لننتقص صاحبها

(٣) ان نرجع في الانتقاد الي أصول عامة مسلم بها لا الي شهوات وحزازات في النفوس . كأن الانتقاد وارد من ناحية هذه الاصول العامة المسلم بها لا من ناحية المنتقد ، وكأنه منصب على الشعر نفسه لا على الشاعر المنتقد ، لا دخل للمنتقد ولا للمنتقد في كون هذا القول حسناً وهذا القول رديئا ، وانتم إذا رجعتم الى صنع المنتقدين وجدتم انهم لم يراعوا هذه الشروط كثيراً

ثم مات الرجل وكفى الله المؤمنين القتال ، وفي الموت تذهب الاحقاد . فما لنا رأينا أن جنازته فاترة ؟ فلم يشيعه الى مقره الاخير الا نفر قليل من ذويه وأصدقائه ومريديه ؟ لو كان صانع مسامير أو تاجر قطن لكانت جنازته اروع ، وما هذه الحفلات التى أقاموها له إلا مصنوعة من قبيل ثم التدارك ، بل هي أشبه أن تكون استغلالا لا احتفالا

ومع ذلك فهو ان قيس بغيره من الشعراء كان محظوظاً . فهذا بشار بن برد سلّ لسانه من قفاه وهذا طرفة بن العبد ، وهذا المتنبي ، وهذا الطغرائي ، وهذا ابن المقفع وهؤلاء غيرهم من شعراء وأدباء لقوا في حياتهم ما لقوا ثم ماتوا قتلا

كان شوقى محظوظا لما نراه ونسمعه من اجماع العالم العربى على استعظام المصاب فيه، واقامته الحفلات فى كل مكان تلو الحفلات لبكائه ورثائه، مما لم يسبق له مثيل فى تاريخ الشعر والعرب.

فهذا امرؤ القيس الشاعر العظيم الذى قال:

ولو اننى أسعى لادنى معيشة   كفانى، ولم اطلب، قليل من المال
ولكننى اسعى لمجد مؤثل   وقد يدرك المجد المؤثل امثالى

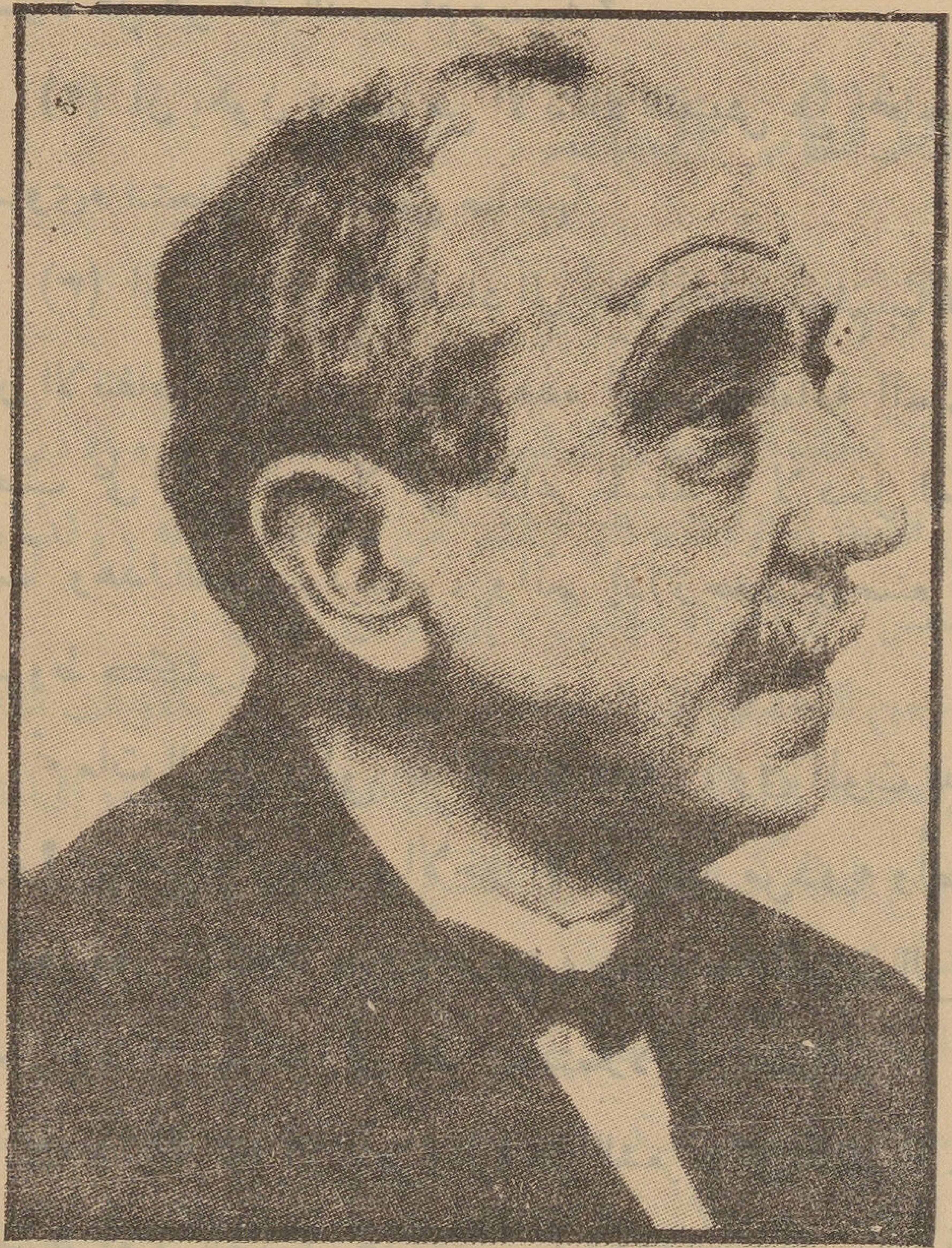
والذى قال:

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه   وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك اننا   نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

مات هذا الشاعر ولم نسمع وقد مرت الاجيال تلو الاجيال ان احداً رثاه

وهذا المتنبى الذي شغل الناس وملأ الدنيا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر، مات ولم يرثه إلا شاعران بقطعتين لا قصيدتين

هذا أبو تمام وهذا البحترى وهؤلاء فحول الشعر كثر، ماتوا ولم نسمع أن احدا رثاهم، إلا ابا العلاء المعرى فقد قيل انه اجتمع على قبره فى اليوم الاربعين من وفاته عدد كبير من الشعراء



الشاعر شوقى

إذا استعظمنا المصاب فى شوقي فلاننا أعجبنا بشعره، وتلذذنا به، ولاننا فقدناه على حين أننا أحوج ما نكون اليه

وليس شيء أدل على عظمة الشاعر من أن يعجب الناس به، ومن ان يستعظموا المصاب فيه، ومن أن يفقدوه وهم أحوج ما يكونون اليه

إذا أعجبت الامة بشاعر فلا يجوز لاحد أن ينكر عليها إعجابها به ، او أن يسألها لماذا اعجبت به ، فقد تقول اعجبت به والسلام

لست الآن فى موقف البكاء على شوقى واستعظام المصاب فيه ، ولكن هى كلمة فى شعره ، وقد الزمت نفسى مراعاة شروط النقد ، منها ما ذكرته سابقا ، ومنها ان أكون حرا لا اشايع احدا ولا اتملق رأى أحد

قبل أن ندرس شاعرا ونحلله ، وقبل أن نقول هذا حسن وهذا ردىء يجب أن نعرف ما الشعر ؟

الكلام قسمان شعر ونثر ، وما من امة من ادنى الامم الى اعلاها ، من أول عهدها بالحياة الى ان انقرضت ، اذا كانت من الامم المنقرضة ، او الى اليوم اذا كانت من الامم الحية ، الا وكلامها شعر ونثر . فما الشعر ؟

كنت فى مجلس فقال احدهم :

اجدّ لنا طيب المكان وحسنه　　منى فتمنينا فكنت الامانيا

فقال آخر : هذا هو الشعر

فقال آخر : ما الشعر ؟

فقال آخر : هو ما يثير الشعور

فقال آخر : لو لطمتك، فأثرت شعورك فهل تحسب اللطمة شعرا ؟

فقال . نعم ، واجيبك بقصيدة مثلها فى وزنها وقافيتها

فقال آخر : ان اللطم ليس شعرا ولكنه يوحى الشعر

فقال : كيف ؟ فقال : لو لطمتنى مثلا لاجبتك بقصيدة قلت فيها : « لو ذات سوار لطمتنى »

لتعريف الشعر طريقتان ايجابية وسلبية . الايجابية أن نقول انه كذا وكذا ، والسلبية ان نقول انه ليس كذا وكذا . وهذا يقال له المعرف الجامع المانع اي الذى يجمع المحدود ويمنع غيره من الدخول فيه . وقد جمع المتنبى الطريقتين فى تعريف المجد فقال :

فلا تحسبن المجد زقاً وقينة　　فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

قد اختلف الناس فى الطريقة الاولى ، ولا يتسع الوقت لان نناقش آراءهم فنثبت وننفى ، ولكن لنأخذ الشعر نفسه ولنستخرج تعريفه منه

اذا اخذنا الشعر وجدنا أولا ان الشعر موزون . خذوا الشعر العربى من اقدمه الى احدثه

يجدوه موزونا . ومن العجب أن يحسن اولئك الشعراء القدماء المعريقون فى البداوة و بينهم اللصوص اقامة الوزن فى كل ماقالوه مع مافى أوزانهم من صعوبة ودقة ، وقد يكون الفرق بين الوزن والآخر طفيفاً جدا لا يكاد يشعر به أو يؤبه له

ثم وجدنا ثانيا أن الشعر مقفى ، كأن القافية جزء من الوزن ، وللقافية شروط : اهمها أن تكون مستقرة فى موضعها كأن البيت بنى عليها لا مجلوبة قلقة لا تربطها بالبيت رابطة ، وان لا تتكرر اللفظة الواحدة فى كل بيتين أو ثلاثة . وهنا لابد لى أن اقول أن اللغة العربية موزونة مقفاة فهى اطوع اللغات للوزن والقافية ، فما من لفظة الا وجدت لها اخوات كثيرات من وزنها وقافيتها

ثم وجدنا ثالثا أنه شوق وشكوى وعتاب وفرح وحزن وغضب وحماسة ، اى انه استعمل للتعبير عن العواطف القوية أو للتأثير فيها ، حتى يصح ان نقول أن الشعر يدور حول الحب والحرب والموت

ثم وجدنا رابعا أن للشعر أسلوبا خاصا به يتميز باشياء كثيرة ، اهمها :

اولا الخيال . اذا قلت « طلع الصباح » فتلك حقيقة ولكن اذا قلت « بسم الصباح » فقد تخيلت للصباح وجهاً يبتسم ، إذا قلت « اشرقت الشمس » فتلك حقيقة ولكن اذا قلت « اطلت الغزالة » فقد تخيلت الشمس فتاة حسناء اطلت من شرفة قصرها لامن وراء الجبال الجرداء .

إذا قلت « حادثت فلانا » فتلك حقيقة ولكن إذا قلت « تجاذبنا اطراف الحديث » فقد تخيلت الحديث بينكما ملاءة تتجاذبان اطرافها يشد فتمد ويمد فتشد ، الى غير ذلك

ثانياً التلميح والاجمال لا التصريح والتفصيل

قد نجد فى الشعر فلسفة او دينا أو علماً أو تاريخا أو سياسة ، ولكنك لا تستطيع ان تأخذ الفلسفة أوالدين أو العلم أو التاريخ أوالسياسة من الشعر ، فالشعر تلميح واجمال لاتصريح وتفصيل

فاذا قلنا ما الشعر ؟ فهو وزن وقافية وعاطفة واسلوب . هذه هي الطريقة الايجابية

واذا أردنا أن نعرف الشعر على الطريقة السلبية قلنا أن الشعر ليس فلسفة ولا علماً ولا ديناً ولا تاريخاً سياسة ولا

اذا عرفنا ما الشعر يجب علينا أن نعرف ما اثره ؟

للشعراء حسنات وسيئات ، لهم فضل عظيم على اللغة لانهم تنافسوا فى اختيار الالفاظ والتراكيب

ووضع كل منها فى موضعه ، فما استعملوه عاش وما اهملوه مات ، ولكن لهم بازاء ذلك تجوزات اقتضاها الوزن ، بل ارتكبوا اغلاطاً لم تلبث ان شاعت على الالسنة . من تجوزات الشعراء انهم يقدمون حيث يجب التأخير ، ويؤخرون حيث يجب التقديم ، ومنها انهم قد يضطرون الى اللفظ المهجور أو القليل الاستعمال

لهم فضل فى اذاعة المثل العليا من شجاعة وكرم ووفاء وعفاف وحب الوطن ، فكانوا رسل حياة وعلماء أخلاق وأساتذة تربية ، ولذلك اذا ارادت امة أن تحيا فلا غنى لها عن الشعر فهو الذى يغذى أرواحها وعواطفها ، ولكن لهم ازاء ذلك سيئات فمنهم شعراء كانوا دعاة رجعية وسماسرة سوء

ثم ان الشعراء أنواع : منهم من يسبق الحوادث ومنهم من يعايشها ومنهم من يأتى بعدها

منهم المقلد ومنهم المبتكر

منهم الواقعى الذى يقول ليس فى الامكان أبدع مما كان ، ومنهم الواجبى الذى يقول هذا هو الواقع ولكنه ليس هو الواجب

منهم من يعنى باللفظ ومنهم من يعنى بالمعنى ، ومنهم من يعنى باللفظ والمعنى معاً

منهم الغنائى ، ومنهم القصصى ، ومنهم التمثيلى ، ومنهم التهذيبى

منهم الشخصى ، ومنهم الوطنى ، ومنهم العالمى

منهم من يصور عصره ، ومنهم من يصور الماضى ، ومنهم من يصور المستقبل

منهم المتفائل ، ومنهم المتشائم

منهم من يصور الواقع ، ومنهم من يعلله ، ومنهم من ينتقده

منهم من يحب الفن لاجل الفن ، ومنهم من يحب الفن لفائدته

منهم المتزلف الى رؤساء زمانه ، ومنهم الثائر عليهم ، الى غير ذلك

فاذا أردنا أن ندرس شوقي . فلابد لنا أن نعرف صناعته وموضوعه واثره فى اللغة والاخلاق ومن أي نوع من الشعراء هو

ما صناعته ؟ هل احسن اقامة أوزانه وأحكام قوافية ، واستعمال الفاظه وتراكيبه ؟ هل فى شعره خيال وعاطفة ؟ هل يلمح ويجمل ام يصرح ويفصل ؟

ما موضوعه ؟ ادينى ؟ وماذا يفهم من الدين ؟ ايفهم من الدين ان نقوي وننتقم ونغتنى ونملك

ونتمتع ، ام يفهم منه ان نرقى ونكرم ونعف ونعفو ونضحى ونحسن ؟

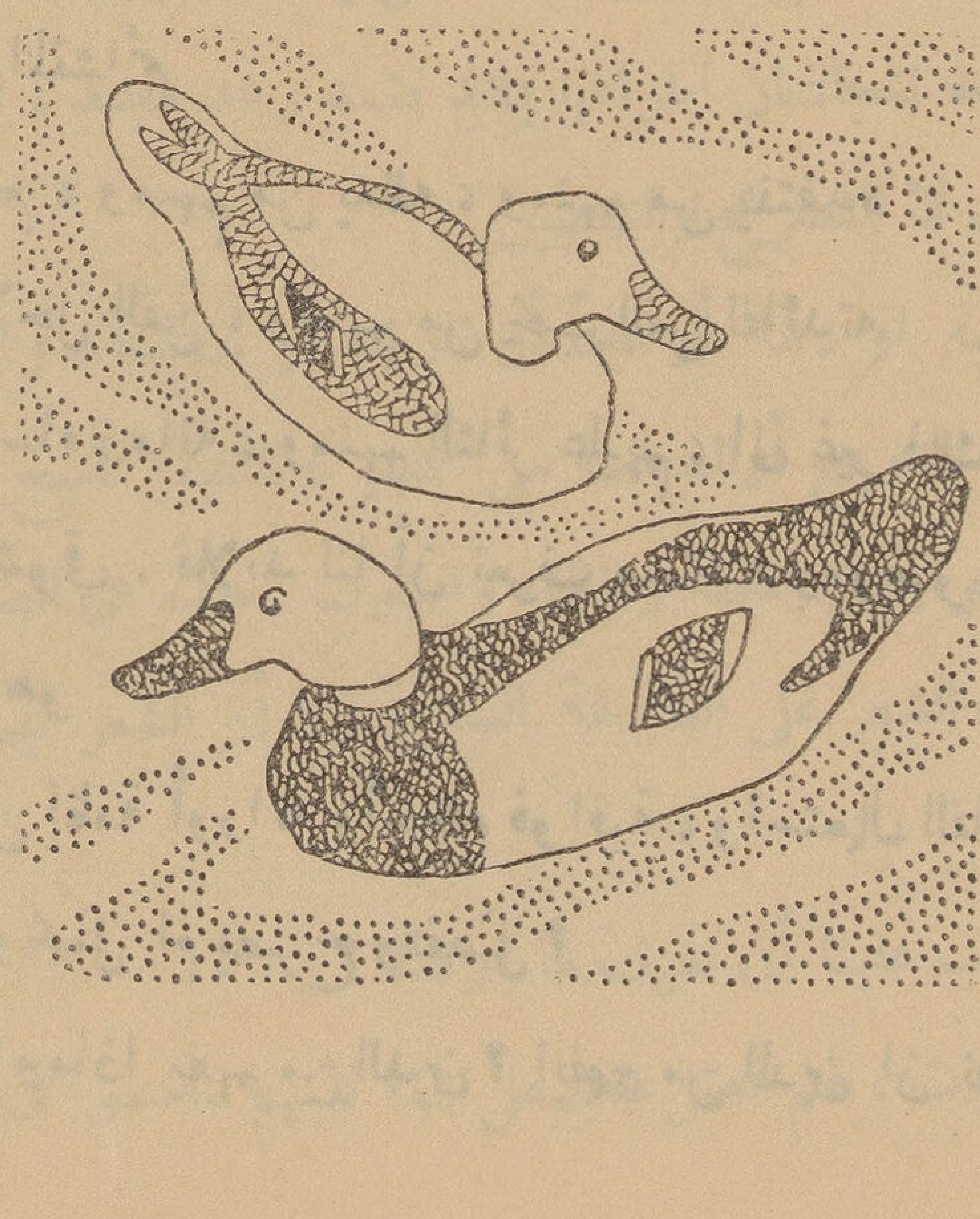
أسياسى ؟ هل يدعو إلى الدستور ، الي الجمهورية ، الي الملكية المطلقة ، الي الملكية المقيدة ، الى الاشتراكية ، الى الفوضى ؟

أأجتماعي ؟ ماذا كان رأيه فى المرأة ؟ هل اعتبرها دون الرجل ام مساوية له ، ام متفوقة عليه

ماذا كان رأيه فى حالة العمال ؟ هل خاطبهم كواحد منهم ، ام كارستوقراطى ؟ فقال لهم « اتقنوا أعمالكم ، اجتهدوا ، كونوا أمناء شرفاء » ام قال لهم « ايها العمال لا عمل بلا اجرة ، ولا اجرة بلا عمل ، اذا عملت بلا أجرة فان كان ذلك من تلقاء نفسك لخدمة الانسانية فهو تطوع ، وان كان لامر آمر فهو سخرة ، واذا اخذت اجرا بلا عمل فانت سارق

«أيها العمال الحد الادني من الاجر الكفاية ، وما فوقه فاستحقاق »

أي هؤلاء كان شوقى ؟



الدين والعلم

بقلم البرت ايذشتين

وترجمة رمسيس شحاته

إذا كنا نريد أن نتتبع وأن نفهم حق الفهم التطورات الفكرية المختلفة التى مرت بها الانسانية فواجب علينا أن لا يغيب عن بالنا أبدا أن كل ماقام به الانسان وكل ما ابتدعه أو تخيله لم يكن إلا لاشباع حاجة أو رغبة فى نفسه وتخفيفا لم يسببه الشعور بهذه الحاجة من احزان وآلام . وذلك لأن العواطف والآمال هى فى الواقع المحرك الاساسى والاصل فى كل ماقامت به الانسانية من مجهودات وكل ما توصلت اليه من ابتداع مهما كانت تظهر لنا هذه المجهودات أو ذلك الابتداع بمظهر النبل والسمو . واذا كان الامر كذلك فانه يحق لنا ان نتساءل عما عساها أن تكون تلك الحاجة أو تلك العواطف التى قادت الانسان إلى الفكرة الدينية وإلى العقيدة بمعناها الاعم ؟ اننا لو تأملنا قليلا هذا السؤال لايصعب علينا أن نجد عندمهد الفكرة والحياة الدينيتين مختلف العواطف ومتباينها . فلدى الانسان البدائى كان الخوف قبل أى شىء آخر هو الباعث للافكار الدينية . الخوف بمختلف انواعه وأشكاله . الخوف من الجوع أو من الوحوش المفترسة أو من المرض أو من الموت . ولما كانت الافكار السائدة فى ذلك الدرك المنحط من العلاقه بين السبب والمسبب مجهولة ومختزلة أشد الاختزال لم تجد النفس البشرية منفذا إلا أن تفرض وجود كائنات على مثالنا تقريبا لها مطلق السلطة على ما نخشاه وما نخافه من الحوادث اشد الخوف . وكان من الطبيعى عندئذ أن ينشأ الاعتقاد أنه من السهل أن نجتذب رضاء هذه الكائنات عنا بأن نقوم بأعمال معينة أو أن نقدم لها مختلف الذبائح والقرابين مجتنبين بذلك مكروه الحوادث والصعاب . وبهذه الذبائح يجب أن تهدأ تلك الكائنات وأن نجتذب رضاءها عنا حسب العقيدة التى انتقلت من جيل إلى جيل ومن زمن الى زمن

أنا أسمى هذه الديانة كما يتضح من المعنى السابق ديانة الرعب . وهذه الديانة إن لم تكن قد خلقت خلقا فقد نبتت وتأصلت بتكوين طبقة خاصة من الكهنه كانت هى الواسطة بين تلك الكائنات المهيبة وعامة البشر . ومن هنا نشأت سيادة هذه الطبقة وتسيطرها . وغالبا ما كان

الحاكم أو الرئيس الذى يستند على عوامل كثيرة أو طبقات معينة ممتازة من شعبه يجمع الى سيادته الدنيوية المراسيم الكهنوتية وذلك كى يثبت حكمه ويدعمه . وهكذا نشأ تبادل المصالح والمنافع بين رجال السلطة السياسية ورجال السلطة الكهنوتية

وإلى ماتقدم هنـاك مصدر آخر للدين وهو العواطف الاجتماعية . إن الآب والام وكذلك رؤساء المجتمعات البشرية المختلفه عرضة للموت فى أى لحظة تاركين عيالهم دون عائل أو رئيس ومن ذلك نشأ الميل الشديد والرغبة الواضحة الملحة فى السند والمدبر مما أدى إلى تكوين وتقديس الفكرة الاجتماعية والاخلاقية . والله فى هذه الديانة هو إله المحبة أو العناية وهو الذى يحمى البشر ويسيرهم بكافتهم ويعاقبهم . انه الله الذى أحب وذلك حسب تقدم الانسان حياة العشيرة ثم حياة الانسانية عامه . هو الذى يحب الحياة نفسها وهو المعزى فى الآلام والمصاعب أو الآمال التى خابت والميول التى لم تشبع هو حامى نفوس المساكين وأرواح الضعفاء . هذه هى صورة الله فى تلك الديانة الجديدة من الوجهه الاخلاقية والاجتماعية

ونستطيع أن نرى بجلاء فى كتب اليهود المقدسة تحول ديانة الهلع والرعب الى ديانة الاخلاق التى تممت واكملت فى العهد الجديد أيضا . وكل ديانات الشعوب المتمدينة خصوصا الشرقيه منها ديانات اخلاقية ومع أن الانتقال من الرعب إلى ديانه الاخلاق تقدم هائل فى حياة الشعوب والبشرية عامة فانه يجب علينا أن نحذر من الاعتقاد بان ديانات الشعوب البدائيه لم تكن إلا من نوع ديانة الرعب بينما ديانات الشعوب المتمدنه ليست إلا ديانة اخلاق . فكلاهما خليط من الديانتين مع تفوق ظاهر فى الديانة الاخلاقية بين الشعوب المرتقية من حيث الحياة الاجتماعية

وبين كل هذه الديانات على حد سواء نقطة مشتركة هى بشرية الله أو بعبارة أصح مثالية الله بالبشر . وليس هناك من يستطيع أن يصل من طريق هذه الديانات إلى فهم لله ارقى وأعلى من ذلك إلا شخصيات قليلة غنية وفيرة القوة عظيمة النبل والسمو الفكرى . ولكن فى كل من هذه الديانات شكل ثابت من الحياة الدينية ولو أنه نادر فى معناه الخالص وهو ما أسميه التدين الكونى . انه من الصعب جدا على الشخص العادى الذى لم يحسه من قبل أن يدرك ماهية هذا التدين الكونى ومعناه لأنه ليس فى بشرية الله مايمكن أن يماثله

إن المرء كثيرا مايحس فى قرارة نفسه إذا ما جد به التفكير فى شئون الحياة أن غايات البشرية وآمالها ليست إلا عبثا . وعلى عكس ذلك مايراه فى الطبيعة أو فى عالم الفكر من علو وسمو والانتظام متناهى الحد

واعتقد ان الانسان يسعى مجدا منذ فجر حياته الدينية كما فى مزامير داود مثلا لأن يقترب ولو

قليلا وأن يعترف ولو عن بعد إلى ذلك التدين الكونى . وهذا التدين يظهر بشكل أقوي وأظهر فى الديانه البوذية كما علمتنا إياها كتابات شهو بنهور الجديدة بكل اعجاب وتقدير

ولقد كان لكل العبقريات الدينية فى كل الازمان نصيب وافر من هذا التدين الكونى الذى لايعرف العقيدة أو الإله يصور بصورة انسان . ولما لم يكن من الممكن أن توجد معابد تقوم تعاليمها الاساسية على التدين الكونى كان العدد الاكبر من بين اولئك الذين تشيعوا وتدينوا بهذا التدين السامى من الهراطقة الذين عدهم معاصروهم من الكفرة أو كما حدث غالبا من الاولياء والقديسين وعلى هذا الاعتبار نجد شخصيات كديمو قراطيس وفرانسوا وأسيس وسبينوزا تقف جنبا إلى جنب وعلى قدم المساواة

ولكن كيف يمكن أن ينتقل التدين الكونى من شخص إلى شخص مادام لايؤدي إلي فكرة محدودة عن الله أو الى نظرية ما؟ يظهر لى أن العمل الاساسى والدور المهم لكل من العلم والفن هو أن يوقظ وأن يحفظ الشعور الذى يؤدى إلى هذا التدين فى اولئك الذين يمكن ان يحسوه

وعلى هذا النحو نصل إلي فهم جديد للعلاقة بين العلم والدين وتكوين فكرة عنهما يختلفان اختلافا جوهريا عن الفهم العادى والفكرة السائدة . اننا كثيرا مانلجأ إلى تصوير العلم والدين كضدين لاسبيل إلى التوفيق بينهما وهذا يستند إلى أسباب معقولة فالانسان الذى يؤمن بكل عقله بالقوانين الطبيعية التى تتقيد بها كل الحوادث لايستطيع أن يسلم بتاتا بتدخيل أى كائن ما فى سير هذه الحوادث مالم يشك شكا قويا فى صحة تلك القوانين وعلى ذلك ليس لديانة الرعب او لديانة الاخلاق، أى محل فى عقله أو أى سبيل إلى قلبه

وبالنسبة له نجد أن فكرة إله يعاقب ويكافىء شىء لايستطاع إدراكه أو تصديقه لأن الانسان يأتى مايأتيه من الاعمال حسب قوانين خارجية وداخلية مما لاطاقة له حيالها . وعلى ذلك فهو لايجب أن يكون مسئولا عن حركاته . ولقد اتهموا العلم بانه يهدم الاخلاق وينقضها من الاساس ولا شك أن ذلك خطأ فاحش . إن السلوك الاخلاقى للانسان يجب أن يستند فعلا الى تبادل المحبة والعواطف الطيبة مع الآخرين وإلى التربية والعلاقات الاجتماعية دون أن نلجأ فى ذلك الى مبدأ دينى ، ونشد مايكون داعيا للشفقة والخجل معا لو أن الانسان كان مضطرا إلى ضبط سلوكه وتحسين معاملته مع الآخرين خوفا من العذاب أو رجاء الثواب بعد الموت

ومن هنا نري أن المعابد قد قاومت العلم عن خطأ فى كل زمن كما تعقبت رسله وأهله . ولكنى اعتقد من ناحية أخرى أن التدين الكونى هو اقوى وأنبل مايمكن أن يؤدينا اليه البحث العلمى . ان من يستطيع أن يقيس وأن يقدر المجهودات الجبارة وخصوصا تلك التضحية المتناهية التى بدونها

ما كان ممكنا تحقيق كل ما حققناه من تقدم وابتداع علمى فتح أمامنا أبوابا ومسالك جديدة إلى قلب الحقيقة هو وحده الذي يستطيع أن يقدر وأن يدرك مدى قوة تلك العاطفة التى هيأت بمفردها عملا عظيما كهذا ليس بينه وبين الحياة العملية صلة ما . أى حب وأى شوق عميق لمعرفة بناء الكون ورؤية ولو شعاع ضئيل واهى مما يتجلى فى نظامه العجيب من روعة وجلال تملكا نيوتن وكبلر حتى جعلهما يستطيعان بعد عمل مضن وجهد شاق منعزل متواصل دام سنينا طويلة يكشفان عن النظام السماوى . أما ذلك الذى لا يعرف البحث العلمى إلا عن طريق نتائجه العلية فانه لا يستطيع مهما تكبد نفسه من المشاق أن يكون فكره صحيحة عن الحالة الروحية لاولئك الذين استطاعوا رغم شكوك معاصريهم ومقاومتهم أن يوضحوا السبيل وأن يمهدوا الطريق لتلاميذهم الذين انتشروا بعد امتلائهم من تعاليمهم فى مشارق الارض ومغاربها وفى كل بقاع العالم على تتابع الاجيال . ولا يستطيع أن يصور لنفسه بصورة حية ناطقة تلك العوامل التى تدفع اولئك الرجال محببة اليهم الكفاح على مرارته وتعطى لهم القوة الكافية لاستمرار السعى وراء غايتهم رغم الفشل المتوالى والخيبة المتكررة إلا من وهب حياته لأغراض كهذه . وفى اعتقادى أن ذلك الكاتب الذى قال انه فى عصرنا الحالي عصر المادية الصريحة نري أن العلماء الجديين هم وحدهم اعمق الناس تقى وتدينا ، كان على حق فيما قال

« طبق الاصل »

شيلي

أو

قصة الملك الحائر

تأليف

نظمي خليل

مطبعة المجلة الجديدة



شیلی

الإهـداء

تحيـة للعقل الراجح والذكاء النافذ

والخلق الرضى والوفاء الخالص

أهدى كتابى إلى صديقى العزيز

عبد الحميد عبد الغنى

مقدمة

قالوا مالك وشعراء الغرب أخرجت بالأمس بيرون واليوم تتأهب لشيلى . ألا توفر هذا الجهد على شعراء العرب ؟ قلت كنت أريد هذا وأكثر من هذا لو كان الامر بيدى فهناك أشياء تصرفنى عن أدبنا اليوم إلى أدب غريب عنا .

والواقع أن الحب الشخصى هو الذى أغرى بي أول الامر فدفعنى فى هذا الطريق الذى أود أن أتقدم فيه حتى نهايته . هذا الحب الشخصى الذي تملكنى هو وليد تلك الثقافة الجامعية التى صبغت تفكيرى بالصبغة الغربية

ثم استبد بي هذا الحب فدفعنى العام الفائت الى اظهار بعض جوانبه فى بيرون وها هو ذا اليوم يلح على فى الكشف عن جوانبه الاخري فى شيلى . ولست أدرى أيرضى بهذا القدر أم سيأتينى غدا يطالبنى بنصيبه فى « كيتس » ولست أدرى كذلك ماذا يكون موقفى معه وان كنت أعتقد أن الكاتب الذاتي Subjectiue يكتب للذته الشخصية أولا ثم للقراء بعد ذلك

والشىء الثانى هو أنى أريد بهذا النوع من التأليف أن أنحو بالأدب العربي نحوا جديدا فى فن النقد وهو الربط بين الشعر وخلجات الشاعر النفسية وانى اعتقد أن هذا النوع مفيد لادبنا وإن لم يتناول أدباء شرقيين فقد يكون ممهدا لقيام فن النقد الادبى المرتكز على القواعد والاصول ودرس ظواهر التفاعل بين الشاعر وبيئته . فاذا شاع بيننا هذا النوع من التأليف أمكننا أن نهجم على أدبائنا الاقدمين والحديثين ندرسهم فى ضوء هذا الاسلوب الجديد من الكتابة بتطبيق نظريات السيكلوجية الحديثة عليهم وتفهم آثار التجاوب بين الشاعر وبيئته ومعالجة حياة الشاعر نفسه فى شبه قصة خيالية

أما لماذا كتبت عن شيلى فهو لانه ثاني ثلاثة اتخذوا لهم اسلوبا خاصا فى الشعر فثاروا على القديم وضاقوا بالمجتمع وتبرموا بالحياة وإن اختلف الثلاثة فى فهم الطبيعة . فقد رأى بيرون فى جبال الالب رمزاً للطبيعة المدمرة والقوة البرية . أما شيلى فقد رأى فيها « مسكن القوة الخفية للاشياء التى تحكم الفكر » وهذا يناقض شعار كيتس الذى ينادى « هيا إلى حياة الحس بدلا من حياة الفكر » وكما اختلف هؤلاء الشعراء فى فهم الطبيعة كذلك اختلفوا فى فهم الحرية . ففى شيلى

نجد روح الحرية تتمشى فى كل كتاباته . لا فى الدين فقط ولكنها تفصح عن نفسها فى الجمهورية وفى التحرر التام من العرف الشائع فى الاخلاق والادب

أما الحرية عند بيرون فهى ليست الحرية الشاعرية التى سمعنا عنها كثيرا ولكنها الحرية الفردية التى ترى فى كل عقبة حاجزا وفي كل قانون ادعاء . أما كيتس فقد نشد الحرية فى الفن

لقد قيل إن عالم شيلى بعيد عن عالمنا فهو « كملك جميل عديم التأثير يضرب بجناحيه النورانيين عبثا فى الفضاء وشعره كالوردة المتفتحة فيه اللون والرائحة ، يميل إلى ضوء القمر ويلتهم الشمس إلا أنه يعوزه الرسوخ فى عالم البشر » وإني أرى هذا الرأى فان المواد التى نسج منها خيوط شعره معنوية دقيقة لاتدرك أو تلمس وعندما يتحدث عن منظر طبيعي يلوح لنا أن الارض الصلدة قد ذابت وتحللت وأننا أصبحنا أمام عالم من السحاب أو فيض من ضوء القمر

لم يعرف شيلى هـذا العالم بل عرف عالما تخيله هو عالم « قبرته » عالم كله جمال وحسن . لذلك جاء شعره حاويا لـكل أنواع قوس قزح وموسيقى الانغام الخفية فاننا نشعر عندما نفرغ من قراءة آراء جدون النثرية فى تلك اللغة البعيدة كل البعد عن العاطفة ونهرع إلى تفسير شيلى الشعرى نشعر أن اتصال الاول بالثـاني كاتصال بركة راكدة بضباب قوس قزح بعد أن تحولت اليه فان حماسة شيلى القوية قد بخرت هذا النثر الفلسفى الطينى وحولته إلي أثير هوائى لايمـكن إدراكه ثم صبغته بأزهى الالوان

أجل إن تحرير الشعوب لايأتى بالخطب والـكلام ولـكنه يأتي كما يقول بيرون مخاطبا اليونانيين « ألا فلتعلموا أن من يريد الاستقلال عليه أن يطعن الطعنة بيمينه فيتم له النصر المبـين — أو تظنون أن الروس أو الفرنسيين يوصلونكم إلى ماتشتهون . لا . حقا إنهم قد يوقعون بعدوكم ولـكن ليس من أجلـكم يقدمون الضحايا » ولـكن شيلى مع هذا يحمل رسالة كبيرة سامية — فتحرير المرأة وهو موضوع خطير لايزال يشغل خواطرنا إلى اليوم — كان الفـكرة الاساسية « لثورة الاسلام » ورسالة الحب والجمال ومستقبل الانسانية كل هذه تجعلنا نعترف بذلك المجهود العظيم الذى ناء تحته قلب ذلك الشاعر الشاب لاسيما إذا قدرنا ذلك الثمن الغالى الذى دفع فى تحقيق هذه الاماني من طرد وتشريد . ثم نفى وغرق واحراق ! !

نظمى خليل

شيلي

« انسل إلينا فتى في خفة وحياء كأنه عذراء . وبسط يدين طويلتين نحيلتين . فتفرست في ذلك الوجه الأنوثي الجميل فعرفت أنه شيلي . أيعقل أن ينقلب هذا الفتي الجميل الذى لم تنبت فى ذقنه شعرة بعد ماردا جبارا يصارع العالم : فتعلن عليه الكنيسة سيف الحرمان ويجرده ذلك الوزير العبوس من حقوقه المدنية ثم يحرم عطف أقرب الناس اليه . وهو والده إنى لاأستطيع أن أصدق هذا . إن هذه خدعة !! » وكأن تريلوني لم يرد أن يصدق أن هذه الطلعة الذهنية المشرقة وهذا الجمال الذكى وهذه العيون الكستنائية الشاعرة وهذا الشعر الفاحم المتموج وهذه القسمات التى تفيض رقة وعذوبة وبالجملة هذا الملك الطاهر ينقلب ماردا مخيفا وأن هذا الفتى الجميل تكمن فيه روح ثائرة على الظلم والاستبداد . وما دري أن شيلي ان هو إلا روح هبطت من السماء إلى عالم الارض برسالة الحب والجمال . وفى سبيل هذه الرسالة أفنى شبابه وقواه . فثار على الماضى وجفاه وأمل فى المستقبل وتمناه . فى المستقبل شاد آماله وفى المستقبل نشد أفراحه ، وفى المستقبل كان ينظر إلي عصره الذهبي السعيد !!

* * *

ثلاثون عاما (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢) قضاها شيلى تحت سماء أوربا بين انجلترا وإيطاليا ينشد الشعر ويتغنى به فأشجي العالم فترة من الزمان ثم هبت العاصفة فحطمت أوتار القيثارة فلم يعد الصوت يسمع ولم يعد الطائر يصدح

* * *

كان شيلي باكورة طيبة لزواج بين سيد غريب الطباع من أسياد « سسكس » وبين سيدة ذكية القلب من كرائم الاسر ، لم يكن هذا السيد « تيموذى » انجليزى الاصل بل كان امريكى الاب نزح والده إلى انجلترا حيث اتخذ الطب مهنته وإن لم يكن فى الاصل طبيبا ، ولكنه كان مجدود الحظ فنال شهرة عظيمة وجمع ثروة طائلة واستطاع أن يصاهر اعرق الاسر الانجليزية ، ثم مات فى الرابعة والسبعين تاركا لابنه « تيموذي » مالا ولقبا

ورث « تيموذي » عن والده « بيشى » المال واللقب ولكنه لم يرث عنه شيئا من صفاته وخلقه ، فنشأ غريب الاطوار ضيق العقل وإن لم يكن سيء الخلق فاسد الرأى ، كان مهيئا لأن

يكون كل شيء إلا أن يكون أبا لشيلى ، وكيف يتفق هذا الاب المحافظ مع هذا الابن الثائر الى أبعد حدود الثورة ، الناقم الى أبعد حدود النقمة على العرف والتقاليد ؟ يالسخرية القدر تلك التى تجعل هذا الرجل الجامد والدا لهذا الشاعر الثائر ! !

ولكننا لانسرف فى لوم هذا الوالد كثيرا فهكذا ولد وهكذا وجد العرف والتقاليد ، وكان الخروج عليها ضربا من الجنون ، وأكبر الظن لو أن شيلى خفف من حدة ثورته أو استعمل شيئا من الكياسة والملاينة لأمن كثيرا من شر ذلك النزاع العنيد والخصومة المستعرة

إن لوم الاب ضرب من التعسف ، كما أن لوم الابن فيه كثير من الجهل بطبائع الشاعر ونزعات الشباب

فلنلم - إن كان لابد من اللوم - الطبيعة الظالمة التى أسرفت فى رجعية سيد « سسكس » وتمادت فيما منحته لشاعر المستقبل من آراء جديدة لم يكن عصره قد تهيأ لها

* * *

رأى الطلبة فيما بينهم صبيا مهضم الجسم ضامر العود طويل القامة مرهف القد ذا يدين رخصتين يخطر فى سيره كأنه غزال أو أجمل أو كأنه فتاة فى الرابعة عشرة من العمر ، فظنوا أنهم لن يجدوا عناء فى تذليل هذا الصبى ولكنهم سرعان ما أدركوا أن ضربات اللكم والتهديد قد زادته تمردا وعصيانا وان العيون الحالمه الجميلة قد ترمى بوقد الشرر ، وان الصوت الناعم الرزين قد يدوى كقصف الرعد

كانوا اذا ماعثروا بذلك الصبى يقرأ الشعر على شاطىء النهر صاحوا بأعلى أصواتهم شيلى ! ! فيجفل منهم كأنه غزال برى طلع عليه الصيادون فينسل بين المروج والحشائش ولكنهم لايكفون عن مطاردته فيصيح أحدهم شيلى !! ثم يتبعه الثانى فى صوت أعلى شيلى !! ثم تتجاوب الاصوات وتختلط الاصداء ، ثم يدنون منه فيشد بعضهم معطفه ويقرصه آخرون ثم تأتى جماعة ثالثة فتختطف كتبه التى يتأبطها ثم تركلها بأقدامها ثم تسدد اليه الاصابع حتى تكاد تثلم عينيه . بينما الاصوات شيلى !! شيلى !! شيلى !! تمزق أعصابه

فاذا ما أدرك أولئك الثقلاء ما يريدون من اثارة الصبى تركوه كالقصبة المرضوضة لاتقوى على الثبات ، فيلتقط شيلى كتبه الملوثة ثم يجول وسط المراعى القريبة من نهر التيمس شارد اللب

حتي يصـل الى الشاطيء فينبطح على الحشائش يرقب نهر وينصت الى موسيقي مياهـه الجارية فتسكب فى روحه العزاء والنسيان

ينظر ذلك الثائر الصغير إلى حصون « وندسور » وأبنية « إيتن » فيري فيها رمزا للدنيـا الثابتة البغيضة فينصرف عنها الى تلك الاشجار الباسقة التى تلقى ظلالها على النهر ، فيطمئن الى هذا الصمت وهذا الهدوء ، صمت الظلال وهدوء النهر ! !

* * *

« كنت أفكر دائما ياصديقي فى الاعمال العظيمة عندما بدأت تلك السحب التي تلف العالم منذ بدئه تسير ، إني لأذكر تماما تلك الساعة التى أقضت مضجعى لاول مرة ، كان هذا فى فجر ليلة من ليالى مايو عندما جست خلال المروج الخضراء وبكيت ولـكنى لم أعرف لماذا ، حتي سمعت تلك الاصوات التي انبعثت من حجرة المدرسة القريبه ، وا أسفاه إن هذه لم تكن الا صدى لعالم البؤس والشقاء ، انها النزاع ذو الصوت الاجش والصرير العالى للاعداء والمستبدين، ثم ضممت يدى الى صدري ونظرت حولى ولـكن لم يـكن هناك انسان يسخر من تلك الدموع التى تهمي على خدى فى هذه البقعة المشمسة ، فلم أخجل أن اقول « سأكون عاقلا حكيما ، عادلا وحرا ، أنيسا وديعـا ، ان كانت فى تلك القوة لانى سئمت أن اري أولئك الانانيين والجبابرة يتحكمون فى غير ردع أو زجر ثم حبست دموعى وسكن قلبى ورجعت الي وداعتى وجلدى ، ومن تلك اللحظه أصبحت تحت تأثير الفـكر المتسلط القوى أجمع المعرفه من مناجم الحـكمه المحرمة ولـكنى لم ابغ يوما ان اتعلم شيئا مما يعرفه الجبابرة او يعلمونه فقد نسجت درعا لروحى من ذلك المستودع الخفى قبل أن تتقدم لمحاربة البشر ، وبذلك قويت فى نفسى تلك القوة وزاد في الامل حتى تسلط على عقلى شعور العزلة وشعور الظمأ الذى أشقي به الآن ! ! »

هكذا كان الطفل شيلى وهكذا ستجد الرجل شيلى لم يغير من طباعه شيئا محبا طاهرا حساسا بعيدا عن أعمال رفاقه الوضيعة الخشنة يسعى دائماً أبدا وراء نموذج خاص للكمال يستوحى الهاماته من الطبيعة ومن روحه فى وحدته وهكذا مضى شيلى على مسرح الحياة يحدوه ذلك الحلم الرائع الذى رفعه إلى مكانة سامية فوق عالم البشر ! يجب أن نترسم فى حياته الاولى هذا الطموح الذهنى النافر هذا الاهمال الشديد الذى كان احدى خصائص عبقريته التى قادته الى أن يحلق فى أسمي السـموات متخطيا حقائق الحياة الانسانية ؟

تقول « مسز شيلي » « كان مصدر جميع مسراته وأعماله فى أيامه الاولى طبيعة مخاطرة ثائرة لاتعرف نظما ولا قوانين ، فقد كان يسر لان يظهر قواه كرجل لا كولد وعلى هذا جازف بقوي الرجل وعقل الطفل وحقق بعض تجارب لم يستطع أي واحد من زملائه أن يفكر فيها فنمو عقله السريع لم يسمح له أن يخلط أعماله بأعمال الصغار وكراهيته الطبيعية منعته من أن يصيخ الى قوانين أو واجبات ولكنه كان دائما يعمل ومع أن محاولاته قد حكم عليها بالطيش والتسرع إلا أن أفكاره كانت تصبو دائما الى عظائم الامور التى شغلت أذهان كبار العصر ، ومع أن دراساته لم تكن طبقاً لتعاليم المدرسة إلا أنها لم تكن أقل فائدة مما وجهت اليه ، » كان هذا الطموح والتحليق فى السموات العلى مصدر ضعفه وقوته فى الفن كرجل حديث العهد بالحياة ! !

* * *

كانت لشيلي تلميذات يبثهن آراءه ، وكان أحب أولئك التلميذات اليه أخته الكبرى اليزابث وابنة عمه هاريت جروف . فكان يقودهما الى مدافن الكنيسة حيث يجد فى صمت القبور هدوءا وسحرا وأمانا من اضطهاد والده له . فيجلس بينهما فى ظل الكنيسة القديمة ويأخذ فى شرح كل ما يتصل بالسماء والارض فى لغة دافقة قوية بينما العيون العاشقة تلتهم كل كلمة تخرج من شفتيه الرقيقتين المقوستين !

أما الصورة التى رسمها لنفسه عن العالم فقد كانت بسيطة . فعلي أحد وجهيها تصور الرذيلة أى الملوك والقسس والاغنياء — وعلى الآخر تصور الفضيله وممثلوها الفلاسفة والبؤساء والمعوزون هنا يرى الدين فى خدمة الظلم ، وهناك يرى (جدون) و « عدله السياسي »

ولكن شيلي لم يحدث تلميذيه الجميلتين بهذا فقط بل حدثهما حديثا طويلا فى موضوع يرتاحان كثيرا الى التحدث فيه . هذا الموضوع هو الحب . الحب كما يفهمه هو . الحب الحر الطليق « ان قوانين الانسان تدعى أنها تنظم عواطفنا الطبيعية . ان هذا الشيء باطل !

فعند ماتلمح العين مخلوقا جميلا يتلظى القلب بلهيب الحب كيف يستطيع الانسان أن يقرر أنه يجب أن يحب أو لا يحب . ولكن جوهر الحب هو الحرية . والحرية تذبل فى القيود وتختنق فى جو النظم والقوانين فهى تصارع دائما الطاعة والحقد والخوف . وهي تحتاج دائما الى الثقة التامة المطلقة . . . ان الزواج سجن » ! ان الشك فى الزواج قد لايغرى الفتيات اللواتى لم يدخلن بعد حياتهن الجديدة ولكن فلسفة الهرطقة والالحاد قد تجدمنهن آذاناصاغية وقلوبا واعية ...القيود ؟

قالت هاريت — . . . انها لاشك . . . . ولـكن ماذا لوكانت خفيفة

ان القيود الخفيفة عديمة النفع والاثر وهل يضيق انسان بقيود قد اختارها لنفسه ؟ !

والدين ؟

فاستعان شيلي « بهولباخ » زيادة على جدون . « اذا كان الله عادلا فـكيف نستطيع أن نصدق انه سيعاقب المخلوقات التى خلقها هو نفسه ضعيفة ؟ واذا كان سلطانه فوق كل سلطان فـكيف يمكن أن نسيء اليه أو نقاومه ؟

واذا كان عاقلا فـكيف يغضب علي أولئك المناكيد الذين ترك لهم الحرية فأصبحوا لا يعقلون ؟

والعرف ؟

وماذا يهم العرف فى تلك اللحظة القصيرة التى نسميها القرن التاسع عشر بالنسبة للأبدية الهائلة ؟

فانحازت اليزابث الى جانب أخيها . أما هاريت فما كانت تستطيع الوقوف أمام « نصف الاله » ذى القميص المفتوح الذى يظهر نحراً رقيقا كنحور الغانيات والشعر المتموج كأنه أسلاك الحرير المتسوج والملامح الجـذابة التى تفيض عذوبة وطهراً والعيون الجميـلة البراقة التي تتوهج ذكاء وعبقرية والصوت الرقيق الناعم الذى ينفذ الى القلوب . . . فتأوهت ثم غيرت مجرى الحديث ثم يعودون الي البيت وقد أخذت نسمات الربيع تداعب سنابل القمح فتتمايل صوب القمر . . . حتى اذا ما اقترب من المدينة ذكره الشفق الحزين بقرب عودته الى حجرته القـاتمة فى ايتن . ولـكن احساسه بالدفء الذى ينبعث من قلب ابنـة عمه يملؤه ايمانا وعزما . فيوطن النفس على أداء رسالته ! !

* * *

جلس شيلي ذات يوم من أيام اكسفورد بجانب تلميذ يكبره سنا وقبل أن ينتهى العشاء كان الشابان قد خاضا فى حديث طويل .

قال شيلي « إن الادب الالمانى أفضل الآداب . »

فابتسم « هوج » وقال « ولـكن حاجة هذا الادب إلى الطبيعة جعلته هزيلا ضعيفا » ! أي الآداب الحديثة تستطيع أن تقرنها به ؟

فأجاب هوج « الطلياني »

فأثار هذا ثورة شيلي وانبرى يدافع عن الادب الالمانى . وقد نسى الشابان نفسيهما حتى ان الخدم كانوا قد انهوا من تنظيف الموائد ولم يفطنا الى ذلك .

وأخيرا قال هوج هل تسمح فتصعد معى الى غرفتى نكمل حديثنا .

فقبل شيلي هذه الدعوة فى شغف إذ كان كلفاً بالنقاش متحمسا للأدب الالمانى ولـكنه ما كاد يخطو مع صديقه حتى نسى موضوع الحديث . وبينما هوج يشعل مصباحه قال له ضيفه أنه لا يستطيع أن يستأنف معه هذا الحديث لانه يجهل الادب الطليانى كما أن صاحبه يجهل الادب الالمانى وأنه لم يتحدث معه إلا من أجل الحديث فقط .

فابتسم هوج ومضى فى وضع أكواب الشاى والبسكوت على المائدة ثم استأنف شيلي الـكلام فقال :

« كل الآداب عبث ضائع . وما دراسة اللغات القديمة والحديثة إلا دراسة ألفاظ وأسماء لاشياء . . .

ما أعقلنا لو تدبرنا الاشياء نفسها !!

فسأله هوج كيف يكون هذا ؟

فأجاب شيلي « خلال العلوم الطبيعية لا سيما الـكيمائية . »

ثم رفع صوته وأخذ يتحدث فى حماس وقوة تفوقان دفاعه عن الالمانية ـ عن التحليلات الـكيماوية علي ضوء المستكشفات الحديثة فى الطبيعة والـكهرباء .

وإذ كان هوج لا يميل الى مثل هذه الموضوعات فقد انصرف إلي التأمل فى صديقه الجديد .

ثم دقت ساعة الـكلية اثنتين . فنهض شيلي . وبالرغم من الحاح صديقه عليه بالبقاء ذهب إلى فراشه . . .

ياله من مخلوق عجيب شاذ !! قال هذا وهو ذاهب الى فراشه . فضائل الفتاة وطهارة العذراء التى لم تبرح قط حضن أمها . وبالرغم من ذلك قوة لا تقهر وروح قديس ممتزجة بأفكار الثائرين !!

إنه لمخلوق غريب جدير بالتفكير فيه !!

أما مقدار التأثر الذى هز خياله وأثار مشاعره بسبب هذه الصداقة الاولى فنجده فى تلك المقتطفات التى حفظها لصديقه والتى تلقى الضوء على تلك المشاعر القوية فى تقدم الحب غالبا فى

الطبائع الحساسة إذ يقول « أذكر أنى عرفت صديقا فى المدرسة ولكنى لا أستطيع أن أعيد الي ذهنى ذلك الوقت وان كنت أظن أن هذا كان فى سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، كان الباعث لهذه المشاعر القوية صبيا يقرب من عمرى ذا أخلاق كريمة . شجاعا . رقيقا . ويظهر أن عناصر الشعور الانساني قد امتزجت فيه منذ ولادته . كانت فى أخلاقه رقة وبساطة . أما جاذبيته فانى لم أفهم مصدرها . . كانت نغمات صوته عذبة تأسر القلوب حتى أن كل كلمة كانت تنفذ فى صميم قلبى والدموع تهطل من عينى دون أن أحس بها . »

لم يكن هذا الزميل هوج يشبه شيلى فى المزاج والمشرب بل كان دائما يسير على الارض لا كشيلى يرفرف فى السماء بأجنحة الملائكة تشده أوتاو الموسيقى السماوية . لم يكن هوج كثير الاهتمام بالاخلاق بل كان مثالا لرجل الدنيا : مرحا طروبا ماكرا . سار فى الحياة كما يسير الرجل العملى . ووصل الى ذروة المجد فى عالم المحاماة مبقيا على آراء الكنيسة . ولكن بالرغم من هذا الاختلاف العظيم بين الصديقين فقد أدرك هوج لاول لحظة عظمة شيلى وحفظ لنا سجلا رائعا لأيامهما الاولي اذ كتب فصولا طوالا عن حياة صديقه فى اكسفورد فيها من المتعة والجمال مالا نجده فى أحسن القصص براعة وتصويرا . وأظن أنه ليس هناك من تناول حياة صديق وأبرزها فى مثل هذه الصوورة الرائعة المحبوبة المرحة التى تعلوها ظلال رقيقة خفيفة لتلك الايام الحلوة اللذيذة التى قضاها فى صحبة قوية خالصة مع صديقه . ولست أشك فى أن هذا الكتاب مثال يحتذى لكل من يكتب سيرة صديق . فليس هناك فيمن كتب عن شيلى من يفضل أو يدنو من هوج الذى لا يمكن محاكاته فى براعة الاسلوب ودقة التحليل اذ يقول

« كان مجموعة نقائض . كان وجهه نحيلا شاحبا . ولكن عضلاته كانت قوية . كان طويلا ولكنه كان ينحنى كثيرا حتى يلوح قصيرا . كانت ملابسه ثمينه على طراز العصر ولكنها كانت كثيرة الثنيات متروكة من غير تنظيف . كانت اشاراته حادة قوية أحيانا ولكنها كانت فى الغالب رقيقة جميلة . وكان وجهه رقيقا كوجه الانثى فى حمرته وبياضه ولكنه يميل الي السمرة من أثر شمس الخريف ـ اذ كان قد امضى ذلك الفصل فى الصيد ـ أما رأسه فقد كانت صغيرة جدا . وان ظهرت كبيرة لما كان يعلوها من الشعر الطويل الغزير الذى كان كثيرا ما يمر يده بين جدائله فيلوح فى هذا المنظر خشنا غريبا فى نوباته العصبية أو فى حالات غضبه أو انشغاله بمسائل الفكر الدقيقه . لم يكن دقيق قسمات الوجه اللهم إلا فمه . الا أن التأثير العام لوجهه كان قويا أخاذا .

فكانت هذه القسمات تشع حياة ونارا وحماسة وذكاء

لم أر فى حياتي من يدانيه أو يشبهه لم يكن شرحه للاخلاق أقل جمالا من آرائه العلميه فقد كانت فيه رقة ونعومة وشعور دينى عميق وان بدا لنا هذا غريبا »

أما أخلاقه وعاداته فقد كان مزيجا من الخفة والجمود مزيجا من الجمال والقبح . كان أحيانا يعثر بقدمه وهو ذاهب الى حجرة الرسم أو يتعثر وهو يسير فوق بقعة خضراء لينة أو يكبو وهو يصعد سلم منزل فخم أنيق أو يمشى على يديه ورجلاه الى أعلا . وأحيانا ينسل بين الجموع الحاشدة دون أن يصدم أحدا أو يمس انسانا ويسير فى أشد الطرق التواء وتشعبا بمهارة لا تخطىء أبداً . أو يمشى فى طريق وعر فى غير مشقة أو جهد

والآن انظر الى هذين الصديقين وهما يخطران فى هذه البقاع فى تراخ وكسل يقطعان ردهة المدرسة جيئه وذهوبا أو يجولان في بقعة خلويه نضرة . وقد ارتبطت قلوبهما برباط الصداقه القوية التي أوحي بها العمر المتقارب ! !

* * *

ها قد جاء عيد الميلاد وها هو ذا يعود الي تلميذتيه ! ! « الكل يهاجمنى من أجل آرائى . لقد أعلنوا علي الحرب واتهموني بالمروق . ستهب على العاصفة ولكنى سأصمد لها . كما لو كانت تهب على الصخر . سأسخر طربا من تلك الهبات الشبيهة بهبات المنفاخ . . . لقد حاولت أن أنير ذهن والدى فقد استمع الى وقتاً . وقد آمن بالساحرات والاشباح والاساطير . ولكنى عند ما أتيت لاقرر صدق ما اتفقنا عليه انفلت منى واسكتنى بهذا القول الغريب « اني اعتقد لاني أعتقد » وأمي تعتقد انى مضلل واني اريد أن اجعل من شقيقاتى الصغار ملهاة شيطانيه . انه لشىء مضحك

وبينما كان شيلى فى طريقه الى (فيلدبليس) كانت الفتاتان الصغيرتان اليزابث وهاريت فى نقاش عنيف . . .

اليزابث : كيف تفضلين تلك السعادة المادية المؤقته على سعادة الحياة مع أغرب رجل ؟

هاريت : انك تجعلين من أخيك انسانا غريبا ، ولكن كيف يمكننى أن اطمئن الى انه كما تصورين ؟ لقد عشنا فى الريف ولا نعرف شيئا عن الحياة بعد . ان والدينا ـ حتى والدك عضو البرلمان ـ يستهجنان أفكاره ومع ذلك فدعينى أتساهل معك وأقرر أنه عبقرى .

فبأى حق ارتبط به فى علاقة أعرف أنها ستبوء بالفشل عند ما يتبين الفارق العظيم بيني و بين ذلك المخلوق الذى صوره له خياله . إنى فتاة عادية كسائر الفتيات

لقد تسامى بى . وسيكون عجبه شديداً عند ما ينتهى الى حقيقتى ! ! فلما جاء شيلى أوضحت له اليزابث حقيقة الموقف فخرج يبحث عن هاريت فوجدها قلبا باردا وعاطفة خامدة

لم تسأل شيلى لأن يبرر عمله بل كل ما قالته له إنها تريد أن يتركها وحيدة ثم لامته من أجل شكوكه الشائعة فاحتج شيلى غاضبا « انه لمن الاجرام ألا يسمح لى أن أفصح عن آرائى التى وصلت اليها بعد محاورات منطقية عنيفة . وكيف تقف آرائى الدينية فى طريقى كأخ أو صديق أو عاشق؟!»

فأجابته هاريت فى اقتضاب وجمود « لك أن تفكر كما تشاء إنى لا أكترث بما يشغلك ولكن لا تسألنى أن أجعل حظى يقترن بحظك ! ! »

لقد كانت هذه المرة الأولى التى يلقى فيها شيلى إعراضا من النساء . فذهب وجنون الغيظ يكاد يقتله وانسل بين الغابات النائية غير شاعر بالثلوج الجارفة حتى وصل إلى مدافن الكنيسة موضع حبه الاول

وفى الساعة الثانية بعد منتصف الليل وصل إلي منزله فارتمى على فراشه وأمامه مسدس محشو بالرصاص وبجانبه أحماض مختلفة . ولكن تفكيره فى حزن اليزابث إذ تراه جثة هامدة حال بينه وبين قتل نفسه . . . وفى اليوم التالي أرسل إلى هوج هذا الكتاب

« أقسم — واذا حنثت فى يمينى فلتعصف بي الابدية — أقسم أني لن أصفح عن التعصب ! إنه الهدف الوحيد الذى أسمح لنفسى أن تفوق اليه سهام انتقامها . سأكرس كل لحظة من حياتى لسحق هذا التعصب فهو أشد أعداء المجتمع . وهو الذى يعيز على التسرع فى الحكم الذي يقتلع جذور صلاتنا بأحب الناس الينا . . . أوه ! كم كنت أُود أن أكون المنتقم ! إذن لكنت أسحق هذا اللعين وأودى به فى موطنه الجحيم ولا أسمح له أن يرفع رأسه ثانية وأقيم صرح التسامح التام للأبد . . . انى أرجو أن أفصح عن هذا الشعور الظامىء شعراً فسترى مقدار تألمى !

لم تعد لى ! إنها تكرهنى لاني شاك كما كانت تفعل من قبل ! يا له من تعصب ذميم ! واذا ما تغاضيت عن هذا فانى أدعو غضب السماء — ان كان للسماء غضب — أن يعصف بي بعيدا !!

سامحنى . اني أخشى أن يكون فى عاطفة الحب أنانية فانى لا أستطيع أن أمنع نفسى من هذا الشعور كما لو كانت روحى تعصف بي ولكنى لا أشعر انها أنانية . سأشعر بالآخرين . أما عن

نفسى فكم أود أن ألفظ نفسى فى ذلك الصراع ! نعم فقد يكون فيه خلاصى ! وهل الانتحار خطأ ! لقد نمت الليلة الماضية وبجانبى مسدس محشو بالرصاص وبعض السموم ولكنى لم أجربها ان لم يكن من أجل أختى، فمن أجلك أنت »

وأخيرا تزوجت هاريت . « لقد أضعتها للأبد لقد تزوجت ! تزوجت من قطعة أرضية . ستفقد احساسها عما قليل . ستفقد كل شىء . دعنا لا نتحدث عنها ثانية . . »

واذ فشل شيلى فى حبه الاول أراد أن يربط بين قلبى اليزابث وهوج لكى يرى السعادة ترفرف — بعد أن حرم منها — على غيره . فعمل على اتصالهما بالرسائل ثم عزم على دعوة هوج الى (فيلدبليس) ولكن الشيخ المحافظ لم يأخذ برأى العبقرى الثائر ! !

وهكذا كان فشله مزدوجا ومصابه مضاعفا ! !

* * *

كان الحب أساس طبيعته . هذا الحب الذى بدأ أولا شعوراً عاديا ثم صداقة ثم هوى جارفا ثم نورا يشع كعبادة أو تقديس لكل رفاقه . ان كلمتى العطف وحب الناس لا تكفيان لتحديد أو فهم شعور شيلى الغريب هذا الشعور الحاد الملتهب — شعور الغيرية الذى قاده فى كل أدوار حياته لان يجد أقوى اللذات فى أفراح أصدقائه وألهب خياله برؤى وأحلام عن الانسانية كاملة وأفعم أيامه القصيرة بأعمال تفيض حبا وعطفا وخيرا

بدأ هذا الشعور أول مابدأ مع صديقه الجامعي هوج فارتبطت قلوبهما وائتلفت أرواحهما — بالرغم من الفارق العظيم بين طباعهما — حتى أصبحت حياة الواحد رهنا بحياة الآخر يشفقان من البعد وان لم يساورهما أن سيقطع مابينهما

كانا يجولان فى اقليم اكسفورد الجميل ثم يعودان فيشربان الشاى ويتناولان عشاءهما اذ كانا لا يرضيان بعشاء الكلية — ثم يأويان الى غرفة شيلى التى كانت دائما مسرحا لخواطرهما لقد كانت تلك الغرفة صورة صادقة للفوضى . فمن الاجهزة الكيماوية المتراكم بعضها فوق بعض الى الكتب والآلات الكهربائية والمخطوطات المتناثرة التى لم تنجز بعد والاثاث الذى تآكل من الاحماض . كانت الاسلحة الجميلة تستعمل فى فتح الصناديق الخشبية . والكتب الثمينة تستخدم فى مساعدة المصابيح والبواتق اذ كان فى وقت تهوره يلتقط كل ما تصل اليه يده مادام يقوم بالغرض المطلوب فى تلك اللحظة

هنا فى تلك الغرفة كان الصديقان يتحدثان ويقرآن حتى ساعة متأخرة من الليل . كانا يدرسان فى ذلك الوقت كتابات لوك وهيوم والكتاب الفرنسيين . وفى هذه المدة بدأت آراء شيلى الميتافيزيقية تبرز وتقوى . فقد قرأ المنطق وتمكن منه ومارس كثيرا من المناقشات والشروح

لم يغفل شيلي عن لب الموضوع ولم يرضخ أبدا لمحاجة شخصية

كان يتبع المحاورة كسقراط لاينظر الى النتيجة أبداً

كان افلاطون من بين المؤلفين المحبوبين اليه ولكن شيلى يخبرنا انه لم يصل الي هذا الفيلسوف الا عن طريق الترجمة ولم يستطع أن يقرأ آثاره فى لغتها الاصلية الا أخيرا . وان كانت آراء الشاعر قد تأثرت بها كثيرا من قبل

والحقيقة أن شيلى كان قد وصل فى ذلك الوقت الى نتائج مادية ولكنه بقى فى قرارة نفسه وفى كل أدوار حياته مثاليا

وعلى ذلك فقد استرعاه المزج بين الحكمة والشعر فى افلاطون فأثارت تعاليم « أنانيزيا » فى ذهنه الحالم سلسلة من الافكار والحوادث الماضية والمستقبلة : تلك التعاليم التى يحتاج اليها ذهن الشاب فى حياته الاولى والتى تملك عليه ناصية خياله . فكان يقف ويحدق فى رغبة وشوق فى الاطفال ويتساءل فى حيرة ودهشة اذا كانت أرواحهم الحديثة الحس لم تمتلىء بالحكمة المدخرة فى الحياة السابقة

وهب شيلي ذاكرة مدهشة وسرعة غريبة فى القراءة فكان يقرأ السبعة أو الثمانية أسطر فى لمحة واحدة مستخلصا المعنى من الكلمات الرئيسية ، لذلك كانت السرعة الغريبة وعدم العناية من بين خصائص ذهنه . والى هذا يجب أن نعزو سرعة خياله المتطاير بل قناعته فى الغالب بما هو دون المتقن أو الجيد في الاعمال الفنية

كان يرى والكتاب فى يده دائما . يقرأ فى كل وقت على الطعام أو فى الفراش . فى جولاته : ليس فقط فى الاقاليم الهادئة أو الطرق المنعزلة أو فى اكسفورد أو فى الممرات العامة . ولكن فى أشد شوارع لندن ازدحاما وحركة .

قال هوج يصف لنا بعض عاداته :

« كان يكره الرياضة ولم يكن عمل البرلمان الانجليزى يسترعى انتباهه . لا يقرأ الصحف الا قليلا . شديد الميل للمسائل السياسية ولكنه لم يطق تعقبها فى الصحف اليومية بل كان اهتمامه

بالنظريات أكثر من اهتمامه بالمنازعات الحزبية وكثيرا ما أظهر ضيقه وتبرمه من الشروح وجرأة عظيمة فى الاعتماد على ذكائه الخاص . لقد كانت هذه احدى مواطن الضعف فيه كما كانت احدى مواطن القوة ايضا .

وكثيراً ما أظهر عدم اكتراثه بالحياة البرلمانية ولم يفكر قط فى أن يزج بنفسه بين الاعضاء . ثم يستأنف هوج الكلام فيقول « كنت أستطيع أن أواصل عملى فى المساء . أما صديقى الصغير الجم النشاط فقد كان يستولى عليه نعاس قاهر . كان ينام من الساعة الثانية الى الرابعة نوما عميقا أقرب الى أن يكون سباتا . كان يستلقى على السجادة وكثيرا ما استلقى علي بساط قرب المدفأة كالقط معرضا رأسه الصغير الى حرارة النار المشتعلة حتى أننى كنت أعجب كيف يستطيع الصبر عليها . فكنت أضع حاجزا بينه وبين النار ولكن هذه الحيلة لم تكن تنجح إذ كان يتقلب وهو نائم ويدور حتى يصل الى مكانه الاول حيث تكون النار قد ازدادت اشتعالا . أما كسله فقد كان عميقا ثقيلا ولكنه كان يمضى فى حديث متقطع وهو نائم وفى الساعة السادسة يجذب نفسه بعيدا ثم يغرص فى حديث جدى ويمضى فى سبات عميق حتى الثامنة إذ يهب فجأة ويدلك عينيه بقوة ويمر أصابعه فى خفة بين جدائل شعره الطويل ثم يبدأ معى حوارا حادا عنيفا ثم يلقى أشعارا له ولغيره فى قوة ونشاط وسرعة .

كانت تأملاته عاصفة جامحة كتأملات شاب فى الحادية والعشرين ولكن الشوق الملح والرغبة القوية لاستجماع المعرفة وحب البشر الملتهب والاحسان الذى لا حد له . كل هذه جعلت تأملاته أقرب الى تأملات الانبياء منها إلى تأملات الشعراء .

لم أر شخصا جديرا بالاعجاب والاجلال مثله . لقدسعدت بصحبة كثيرين من أفاضل الرجال ولكنى مع احترامي لكل من صاحبت أعترف أن شيلى كان الشخص الوحيد الذى وجدته فى غير حاجة إلي الرقة التامة البريئة . كان حبه للمسائل الذهنية عنيفا وقوة ذكائه وعبقريته السامية بارزة ساطعة كذلك كان طهر حياته وقداستها .

لقد وجدت فيه شيئين راسخين : حبه القوى العنيف للحرية . الحرية المعنوية . الحرية التى كانت فى الجمهوريات القديمة لا الحرية التى يكفلها الدستور الانجليزى الذى لم يعرف عنه إلا قليلا ولم يكترث به . أما الشيء الثاني فهو حبه العنيف أيضا للتسامح التام الشامل والآراء الحرة الطليقة لاسيما فى الدين . وهذا هو الذى جعله يشعر أخيرا بكراهية عظيمة عميقة لكل أنواع

الظلم والاضطهاد» !!

إذا قال هذا شخص يخالف طبعه طبع الشاعر كل المخالفة فماذا يقول الشخص القريب منه. ان اللغة لا تسعفه فى تصوير هذا العبقري الساحر !!

ولـكن يجب أن نعترف ـ على الرغم منا ـ أن شيلى وان كان رقيقا حقا، ساميا حقا إلا أن هذه الفضـائل قد مزقها الشذوذ الذى كان يقرب من الجنون والذى قعد به لان يقف بجانب أعاظم رجال عصره.

لقد كانت لديه صفات طيبة حقا ولـكن فى اسراف. قد يـكون الرجل صادقا وقد يكون متسامحا ومحبا للحرية أيضا ولـكن الاسراف فى هذه الفضائل هو الذى دفعه إلي أعمال وأقوال أثارت عليه المجتمع الانجليزى بل الجمعية البشرية التى تصدي لاصلاحها !!

* * *

ضرورة الالحاد ياله من اسم غريب !! بهذا تعجب مستر ووكر

مستر مندى! مستر سلتر! ما هذا؟

حقا ياسيدي إننا لم نقرأ الرسالة بعد

ضرورة الالحاد!! ان العنوان نفسه كاف للدلالة على فحواها

تماما ياسيدى تماما. لقد جاءتنا حديثا ولم نتنبه اليها الا الآن.

الآن!! خير لك أيها السيد أن تنتزع هذه النسخ من (الفترينات) حالا وأن تلقى بها بعيدا كما تقدم النسخ الاخرى طعاما للنيران.

لم يكن لمستر ووكر ـ طبعا ـ اى حق فى هذا التحذير.

ولكن اصحاب المـكتبة عرفوا أنه سيبلغ امر هذه الرسالة الى ادارة الجامعة وانهم سيجدون مكتبتهم محاصرة بعد قليل.

لذلك أطاعوا امره باسمين وارسلوا فى طلب الشاب شيلى عله يسمح بالتحدث معه قليلا فى شأن هذه الرسالة

انا لنأسف يامستر شيلى كل الاسف.. فاننا يمكننا ان ننسى أنفسنا. لقد أصر مستر ووكر على هذا ولفائدتك الخاصه... الفائدة الخاصة!! انها آخر شيء يفكر فيه شيلى. بذلك أجاب أصحاب المكتبة فى صوت مؤثر قوى مؤكدا لهم حقه فى التفكير كما يشاء وحرية إيصال أفكاره

الى العالم . ثم قال فى نشوة الظافر المنتصر لقد فعلت اكثر من القاء شبا كى فى أعين من يسمون عصافير اكسفورد فقد ارسلت نسخة الى كل اسقف وكل عضو فى البرلمان والي كل استاذ فى الجامعه

لم تمض أيام قلائل حتى كان أحد خدم الجامعة واقفا بباب هوج يحمل طلب العميد لمستر شيلى وضرورة الاسراع الى مقابلته . فذهب معه شيلى وهناك وجد العميد والاساتذة وبعض المدعوين الذين جاؤا ليروا ذلك الشاب الغريب الذى يجرؤ أن يقول « لا العقل ولا الشهادة قادران على اثبات وجود الله وان الالهام الشخصى لم يعد كافيا لان يثبت هذا »

قدم له العميد نسخة من كتاب « ضرورة الالحاد » وسأله اذا كان هو مؤلف هذا الكتاب، واذ أنه كان يتكلم فى لهجة جافة مهينة لم يجب شيلى بشىء هل أنت مؤلف هذه الرسالة ؟ نعم أو لا ؟

اذا استطعت أن تثبت أنها لى فأقم الدليل إذ ليس من العدالة ولا من القانون أن تسألنى بهذه الطريقه . ان مثل هذه الاشياء لا تكون الا فى محاكم التفتيش ولا توجه الى رجال أحرار فى بلد حر !!

أتريد أن تنكر أنها من عملك ؟

انى أمتنع عن الاجابة .

اذن فأنت طريد وعليك أن تغادر الكلية فى الصباح الباكر ثم سلم اليه أحد الاساتذة خطابا عليه خاتم الكلية فيه قرار الفصل

انطلق شيلى الى صديقه هوج وهناك ارتمى على السجادة وهو يرتجف ويقول « طرد !! فصل لقد كان العقاب فظيعا فقد أوقف دراسته وحرمه من دخول أية جامعة أخرى وسلبه الحياة الهادئة التى طالما استمتع بها . وفوق هذا فقد جر عليه سخط والده الشديد .

كان على الصديق أن يغضب من أجل صديقه وكان عليه أن يحتج وان كان فى هذا الاحتجاج طرده وهذا ما فعله هوج . فاندفع فى وفاء الشباب وكرمه وفى حرارة الاخلاص للصداقة وقوته وأرسل خطابا الي العميد أبدى فيه حزنه ودهشته لتلك المعاملة التى عومل بها صديقه شيلى ثم انتظر الجواب .

أى جواب كان ينتظر ؟ انه يريد جوابا واحدا . كلمة واحدة تجيز له الخروج من ذلك السجن ليلحق بصديقه الذى فلت منه منذ ساعة .

كان المجلس لا يزال منعقداً . وفى لحظة قصيرة كان هوج ماثلا أمامه . لم تطل المناقشة . فكلاهما كان واقفا على النتيجة .

هل كتبت هذا ؟ ـ ثم ألقى اليه بخطابه الذى كان قد أرسله منذ لحظة

نعم

وهذا ؟ ـ وهو يقدم اليه رسالة الالحاد

فانبرى هوج فى بلاغة فائقة يدلل على بطلان الاتهام وتسفيهه وعلى الظلم الذى لحق بشيلى بطرده لانه رفض أن يجيب . . .

فصاح العميد غاضبا . كفى هذا !! إنك طريد أيضا .

وكان الغضب قد وصل بالعميد الى أن يهدد بفصل كل طالب فى الكلية .

ثم أخذ هوج قرار الفصل وانصرف .

وفى نفس اليوم علق على باب الكلية اعلان وعليه امضاء العميد وخاتم الكلية يشير الى أن توماس جفرسن هوج وبرسى بيش شيلى قد فصلا من الكلية لرفضهما أن يجيبا عن أسئلة معينة وجهت اليهما . . .

وفى صبيحة اليوم التالي كان الشابان فى طريقهما الي لندن .

* * *

وفى شارع بولنده حطا رحليهما انتظارا لاوامر والديهما . « هنا سنحط رحلنا ونستأنف أيام اكسفورد من جديد . وهنا سنعيد قراءتنا بجانب المدفأة . وهنا سنجدد طوافنا ورحلاتنا البهيجة هنا سنعيش للابد »

كل شيء مبهج جميل فالبيت يشرف على مزرعة للكروم والجو منعش قوى والعصافير فوق الاغصان تشقشق وتغرد . لا يقلقهما الا جواب مستر شيلى ومستر هوج . أما مستر شيلي فقد كتب الي ابنه يقول

« مع اني أشعر كأب أنى مساهم فى هذه النكبات التى اوجدتها افكارك الاجرامية واعمالك الطائشة الا انه يجب ان تعرف ان علي واجبا اؤديه نحو أخلاق ونحو اخيك الصغير وشقيقاتك . وفوق هذا فان مشاعرى كمسيحى تستلزم منى خلقا ثابتا رزينا فان كنت تريد منى حماية وعونا فعليك ان تعمل

اولا : ان تأتي حالا الى فيلد بليس وان تقطع كل صلة لك بهوج .

ثانيا : ان تضع نفسك تحت رقابة ذلك الرجل الذى سأعينه لك وان تعمل بتعاليمه وارشاداته فان لم تقبـل هذين الشرطين فان شيلى سيترك ابنه عرضة لـكل انواع البؤس التى ستقوده اليها هذه الافـكار الشيطانية .

فأرسل اليه شيلى الخطاب التالي

والدى العزيز !

بما انك قد انلتنى هذا الشرف باعطائى فرصة أصدر فيها رأيا ثابتا أسير عليه فى المستقبل فاني أشعر أن واجبى ـ وان كان هذا يؤلمنى جد الالم ـ شعور الواجب الى اخلاقك الشخصية والى أسرتك ومشاعرك كمسيحى اقرر هنا أنى أرفض الموافقة على الاقتراحين اللذين وردا فى خطابك وأقرر أيضا أن مثل هذا الرفض سيكون جوابا لمثل هذه الطلبات ... ومع شكرى العظيم لعطفك

لازلت ابنك المحب المطيع برسى بيش شيلى

أما مستر هوج فقد أرسـل إلى ابنه يدعوه اليه ثم بعث به إلى أحد المحامين يتلقى عليه القانون فى « يورك » فاضطر هوج إلى السفر تاركا شيلى فى شارع بولندة كثعلب وسط عنا قيد العنب

* * *

ولـكن هذا الومض الخاطف من السعادة مالبث أن خبا وهذه الايام الحلوة السعيدة أصبحت حلما باهتا من احلام الماضى البعيد . فقد ترك شيلي فى لندن بدون صديق . بدون عمل . بدون نقود . يقتله اليأس ويحز فيه الالم . يحاول أن يسرق قلبه بعيدا عن تلك الصورة المؤلمة بالـكتابة « لقد أحببت مخلوقا ولـكن هذا المخلوق لم يكن هي كما كانت . وبما أن الحب يتصل بالعقل لا بالجسد فهى لم تعد تعيش ... يجب على أن أمجـد الدود الذى يصير اليه الجسم الميت فى الاقبية الرطبـة المظلمة ! » ليس من السهل أن نتصور تلك الحالة النفسية الغريبة التى كان فيها شيلي إذ ذاك . فان ترك هاريت له وانفصالها منه كان أعمل فى نفسه من الف طرد وطرد . فبقيت ذكري هاريت تطوف فى خياله لم تبارحه أبدا

وإنه مما لاشك فيه أن هذا كان من اكبر اسباب تعاسة زواجه بهاريت وستبروك عقب هذا فان جرح القطيعة لم يـكن قد اندمل بعد . فـكان اسم هاريت وستبروك وملامحها تذكره دائما

بهاريت جروف . ولسنا نعرف يقينا أى هاريت كان يعنى شيلى فى اهدائه الملكة ماب اذ يقول

« هاريت ! اليك أهدى!

لقد كنت عقلى الاصفى وكنت الموحى بانشودتى

إن هذه ا. زهار البرية أزهارك وان كنت قد جمعتها أنا فلتضمى الى صدرك ميثاق حبى

ولتعرفى ـ مع أن الزمن يتغير والسنين تدور ـ ان كل زهرة ترنو اليك ! !

* * *

« يجب أن تهرب معى وتلقى نفسها تحت حمايتى »

بهذا كتب شيلى إلى صديقه هوج يخبره بعزمه على الفرار بتلك الفتاة الرقيقة الحلوة هاريت وستبروك التى كانت تحمل اليه ما تدخره شقيقته اليزابث من مصروفها فى أيام بؤسه وتشريده ... كانت هذه الفتاة ابنة لصاحب فندق متوسط الحال مالبثت ان أحبته . أما شيلى الذى لم يظهر فى يوم ما أنه يحبها فقد جاراها فى ذلك الطريق الذى أدى به لا الى الحب العنيف بل الى العبادة المقدسة ولكنه لم ينغمس فى حب حسى مشتت . وكلما تقدم به الزمن ظهر انه وان كان جديرا بعاطفه الحب راغبا فى شعور النساء اللواتى يملن الى عقله وقلبه فان مجرد فتنة الوجه الجميل أو سحر الجبين المشرق الوضاء لم يلهب حواسه

ولكن هوج نصحه ألا يهرب بها قبل أن يتزوجها . لقد كان هوج عارفا مقدار كراهية شيلى للزواج ولكنه جاء له بأدمغ الحجج ليثنيه عن عزمه اذ يقول « إذا لم تتزوجها فمن الذي يشقى ؟ أنت أم هى ؟ طبعا هى وحدها . فهي التى يقع عليها لوم العالم . هى التى يجب أن تضحى بسمعتها وسلامتها فهل يحق لك أن تطلب منها هذا ؟

ولما كانت الانانية أولى الرذائل التى احتقرها شيلى وثار ضدها كان لهذا الدفاع أثره المطلوب ولكنه شعر فى قرارة نفسه أن الزواج أيضا عمل فاضح مشين ولا تزال فصول الزواج التى قرأها فى « العدل السياسى » عالقة بذهنه . ولكن هامسا همس فى أذنه « ان جدون العظيم نفسه قد تزوج مرتين » فكتب الى هوج يقول « انه من العبث أن نتخذ مثالا واحدا لتجديد صور المجتمع حتى يأتي الزمن بالتغير التام الذى لايصبح فيه المصلح نفسه معرضا لأى انتقاد »

وفى اليوم الثاني كانت عربة بريد أدنبره تحمل ذينك الحبيبين اللذين لم يبلغا من العمر مجتمعين الخامسة والثلاثين .

« إنه لعمل الارادة لاعمل العاطفة »

بهذا كان يتحدث الفارس الصغير الى نفسه وهو جالس أمام عصفوره الجميل

دهش أهل ادنبره لهذين الملكين الطاهرين اللذين نزلا خطأ إلى الارض ولم يستطيعوا حبس دموع الفرح والغبطة لرؤيتهما !

وفى منتصف الليل سمع شيلى طرقا بالباب فاسرع اليه وفتحه فرأى صاحب المنزل ومعه بعض أصدقائه . فقال له وهو فى حالة سكر ثقيلة « ان من عادتنا فى ليالى الافراح أن نأتى فى منتصف الليل ونغسل العروس بالويسكى »

فصاح شيلى فى وجهه وهو يمسك مسدسين في يديه

« تقدم خطوة أخرى وأنا اطيح برأسك »

فتراجع الرجل مذعوراً أمام ذلك الشاب الجرىء وانصرف اتباعه وهم يتمنون له ليلة سعيدة هانئة

وهكذا وجد شيلى وهاريت نفسيهما زوجا وزوجة حرين وحيدين فى مدينة كبيرة تموج بآلاف الرجال والنساء أحدا

وهكذا نظر كل منهما إلى صاحبه نظرة الزهو والفخر والاعجاب

* * *

وأخيرا اصطلح على والده وعاد الى اليزابث

ولكن هاله منها ذلك التغير العظيم . لقد كانت أكثر حبا ومرحا من قبل ولكنها اصبحت اكثر استهتارا . ذكرها شيلى بمواقفها الاولى التى كانت ظامئة فيها الى المعرفة ولكن وأسفاه لقد نسيت كل شىء إلا الرقص والمتع والحديث الفارغ . تعيش الآن للاشىء إلا المجتمع

ولما هم أن يقرأ لها خطابات هوج كما اعتاد هذا من قبل انصرف تفكيرها إلى الزواج وهو أبغض الاشياء الى شيلى . لقد نسيت ما قرأه لها فى الموضوع . نسيت آراء جدون السامية !

قال شيلى « ان الزواج ثقيل مكروه . اني أضيق به وأكاد أمرض كلما فكرت فى ذلك القيد الثقيل . اثقل قيد صنعه الانسان ليغل به الارواح الملتهبة . ان الشك والحب الطليق لازمان لبعضهما كالدين والزواج . اما الشرفاء فليسوا في حاجة الى هذه القوانين

ارجوك يا اليزابث - من اجل السماء - ان تعيدى النظر فى موضوع الزواج وتسألي نفسك

اذا كان هناك انسان محتشم وقور يرضى أن يجعل فتاته التي يحبها تقبل هذا الامتهان!

أظنك تريدني أن أزوج من صديقك هوج؟

نعم ولكن ليس بوساطة قسيس ولا تبعا لقوانين الانسان بل فى حرية كاملة. وليكن الحب فقط هو القسيس الاسمى

فأجابته هاريت فى ازدراء. «أهذه هى نصيحة الاخ النبيلة؟»

كان من العبث أن يؤمل شيلى فى اصلاح من لا يمكن اصلاحه «لماذا اخدع نفسى؟ لقد ضاعت وأصبحت نهبا للعرف والمجتمع انها لا تنطق إلا هذرا وسخفا. إن ماتريده منى هو - كأخ عادى - يجب أن أمثل دورى — كثعلب ماكر — أصطاد لها الازواج

حسنا! إنى أرفض! إني أرفض!

« • »

فى صباح يوم من أيام الاحاد سمع شيلى الباب يطرق فأطل برأسه من النافذة فرأى هوج واقفا فى الشارع وفى يده حقيبة

« لقد تقابلنا ثانية ولن نفترق بعد الآن »

قال شيلى هذا وهو يضمه إلى صدره

يجب أن نعد لك سريرا حالا.. ثم دخلت عليه هاريت فذهل هو لهذا الجمال الخصب وهذا الشباب النضر وهذه الانوثة الناضجة وهذا الجسد العبقرى.. إنها لفتنة متنقلة!

آلاف الاشياء تتدافع فى رأس كل واحد. وآلاف الاسئلة يتهافت كل واحد ان يلقيها دون أن ينتظر جوابا

يالها من ساعة نسى فيها كل واحد نفسه ولم يعد يذكر الا صديقه!!

ها قد رجع الثلاثة من جولتهم القصيرة ثملين ولكن لماذا؟ أجمال المدينة أم لمجىء الحبيب؟

هرع الثلاثة الى المدفأة. شيلى يكتب رسائله. بينما هاريت تقرأ بصوت عذب رقيق كأنها تغنى أنشودة العودة وهوج شاخص اليها بعينين ثابتتين يقرأ فى وجهها غير ماتقرأه هي فى كتابها!

كانت ليال صافية جميلة!

وأخيرا عاد هوج إلى يورك يحمل جسما بدون قلب

« • »

أعوز شيلي المال فخف إلى خاله يطلب منه الوساطة بينه وبين والده تاركا عصفوره الوديع فى حمى العقاب الجارح فى يورك

إنه لموقف شهى غريب !

أنست هاريت الساذجة إلى هوج الماكر . إذ كان لبقا فى الكلام لاذع النكتة حاضر البديهة كان يكيل لها المدح فى ادنبره . وفى ساعات انفرادهما فى يورك . يعجب بكل شىء تعمله يعجب بفساتينها . وبالطريقة التى ترتب بها شعرها . يصغى الى حديثها ويعجب بصوتها أما شيلى فقد كان كالمدرس لها . يحدثها بكل ماتريد ، يصحح لها غلطاتها ويرشدها إلى الصواب ! ثم أخذ القرب يفعل فعله فى العاطفة والهوى

لا . لا . ان هذه لرغبة مخيفة !

إن زوجة أعز أصدقائى لن تكون هدفا للمطاردة وصيدا لسهامي !

ولكن الشخص الذكى يعرف كيف يستخدم هذا الذكاء فى خدمة أمانيه !

وهل ألام أنا ؟ إذا كان بيش هو الذى القى بها بين ذراعى ؟؟

ياله من عمل جنوني أن يجلس ويكتب الرسائل الطوال عن الفضيلة وهو يملك معبودا . هاريت إنها لفتاكة الجمال

عندما تخطو فى الشارع يهرع أشد الناس زهدا الي النوافذ يتطلعون إلى جمال مشيتها

وهل يحبها حقا ؟ إنه يظهر لها بعض شعور الامتهان وله بعض العذر فى هذا . فان هاريت . . ماذا ؟ ... ابنة أحد أفراد الشعب لا تستطيع الوقوف الى جانبه

لقد كان معجبا بشيلى ، معجبا بشجاعته الادبية وصراحته وأمانته . ولكن هذا الاعجاب الشديد قد تلاشى أمام ذلك الشوق العنيف والرغبة الملحة

ففى أول يوم من غياب شيلي أخذ هوج هاريت وسارا معا على شاطىء التيمس ثم حدق فى عينيها وتمتم بآلاف الاشياء السخيفة

أما هى فقد تحدثت عن زوجها الذى ترقب عودته لأنه سيصحب معه أختها اليزا

ان اليزا جميلة جدا كما سترى . فشعرها في غاية الروعة . أسود فاحم لامع مصقول . شديدة الذكاء وهى التى قادتنى في أهم دروب حياتي . وهل فى حياة الطفلة دروب ومخاطرات؟

فانبرت هاريت تتحدث عن استشهادها في المدرسة وعن العقبات التى وقفت فى طريق زواجها

ثم غاصت في تفكير عميق .. غاصت فى ماضيها القريب .. ثم .. مارأيك في الانتحار ؟ ألم تفكر فيه !

أبداً .. وأرجو أن تكونى كذلك

أوه . نعم مرات كثيرة .. حتى فى المدرسة فقد كنت أهب من نومى وأطل من النافذة وأقول « وداعا » أيها القمر ! وداعا ايتها النجوم ! وداعا فتياتى النائمات ! ثم أعود إلى فراشى واستسلم للنوم . ثم أخذا فى السير وازداد حديث الود بينهما

ثم قفلا راجعين إلي المنزل .. وبعد أن تناولا الشاي أخذت هاريت تقرأ له . . ولكن أى كتاب تقرأه له هذا المساء ؟

لم يبق هناك موضوع

أسعدت مساء ياهوج !

أسعدت مساء ياهاريت ! ثم أخذ يردد في نفسه « وهل هي فاضلة حقا ؟ »

وفى اليوم التالى أفضى اليها بحبه

ثارت هاريت ثم أخذت تدافع عن نفسها كما تدافع فتاة في السادسة عشرة

تكلمت عن شيلى وعن الفضيلة .. ألا ترى أن عملك هذا مشين ؟

لقد أودعنى صديقك عندك فهل تخون من ائتمنك ؟

ولكنى واثقة من أنك ستشفى حالا .. أرجوك ألا تقول لى كلمة اخرى بعد الآن . لن اخبر برسى بشىء من هذا حتى لا أحزنه .

كان حديثها حادا

إن مناظر الحب هى أجمل المعارك للمرأة . اما الجنود فلهم الحرب لقد انتصرت هاريت ووعد هوج ان يقوم خلقه

ولما عاد هوج من عمله فى المساء رأى بجانب هاريت امرأة ضخمة الجثة بشعر فى لون الغراب ووجه شاحب كوجوه الموتى . مولية وجهها جانبا كأنها مهر شموس

هذه هي اليزيا لهوج . لقد اتت ، اليس هذا حنانا منها وكرما ؟

هذا هو هوج يااليزا ، صديقنا العظيم الذى طالما تحدث عنه برسى اليك » فأومأت اليه اليزا بانحناءة برأسها

اظن ان بيش قد احضرك معه

اوه . لا . قالت اليزا هذا ثم مضت إلى هاريت ولم تلتفت اليه . لم يعتد هوج مثل هذه المعامله هل هذه هي البزا ؟ إنها عادية بل إنها ثقيلة . لقد انتهى بها غزلى مع هاريت وان كان هذا قد يكون خيرا ، ثم قال في صوت عال عزيزتى هاريت الست عازمة على تناول الشاى هذا المساء

ثم التفت الى اليزا فى ادب وقال « انك لاتتناولين الشاى ؟ »

فأجابته اليزا . اوه : لا

وانت ياهاريت

ولا انا !

فانسل هو ج يعمل الشاى بنفسه وتشربه فى صمت . ومنذ ذلك الوقت لم يعد احد يطيق المنزل

* * *

عاد شيلى فى اليوم التالى والفشل حليفه . فقد رفض والده مقابلته إذ وجد فى زواجه جريمة لا تغتفر عاد الى يورك ضيق الصدر مضطرب الفكر معللا النفس فى أن يجد فى حضن الزوجه وكنف الصديق العزاء والسلوان ! ولكن وا أسفاه ! ! لقد خاب ظنه اذ وجد ضيقا وضجرا ونفوسا مغيظه حائرة ! فأليزا قابعة فى حجرتها تمشط شعرها طول اليوم . ولم يعد هوج وهاريت يضحكان ويمزحان حول الشاى . فاذا تحدث اليها أجابته فى كلفة وجمود

ان فى الجو شيئا غامضاً !

وأخيرا خلا بهاريت . « عزيزتي . اني لا أحب هذا الشموخ الذى تظهرينه نحو أعز أصدقائي لقد عنى بك أثناء غيابي

والآن ان وجود شقيقتك معك لايجعلك تهزين كتفك لمن أعده أخى وشقيقي

فتنهدت هاريت فى عمق وقالت فى نغمة ثقيلة ذات مغزى « انه نوع من الاصدقاء الظرفاء »

فدهش شيلى لهذا الجواب وأراد الايضاح

وأخيرا قصت عليه القصة

« لقد غازلنى مرتين . حدثنى فى الاولي أنه جن غراما بى فتظاهرت انه يمزح . . ثم هدأت من ثورته اللاهبة وعاطفته المشبوبة . ثم ظننت أن كل شيء قد انتهى وعزمت على ألا أفضى اليك بشيء من هذا . ولكنه جاءنى أمس وأفضى الى أنه لا يستطيع أن يحيا بدونى وانه سيقتل نفسه إن لم أنله ما يبغى »

فشعر شيلى أن دمه قد جمد وأن قلبه قد وقف

هوج ؟ هوج يعمل هذا ؟ ولكنك ألم تبينى له . . . . ؟

أوه . لقد قلت كل شيء استطعت أن أقوله . . . من انه صديق كاذب خائن لعهدك. ولكن ماذا يجدى كل هذا من شخص حديث العهد بالحب

فأجابنى « تحدثى عن الفضيلة الى شيلى صاحب الروح النقية والدم البارد ولكنى أحبك .

ثم قال . أى ضرر يلحق شيلى . : انه لن يحتاج الى معرفة هذا . لماذا لا تمنحينى حبك وتمنحيه ودك وعطفك ؟

وهل هو يفكر كثيرا فيك ؟

هل قال هذا ؟

نعم وكثيرا غيره . . . قال انك تخلط المنطق بأشياء غريبة عنه . وانك شرارة فى الآراء وقطعة من الجليد فى العواطف التى تحد الحياة وحدها . لقد قاومته قدر استطاعتى

فاستلقي شيلى على السجادة وسرعان ما توارت الدنيا أمام عينيه ولاحت سوداء دكناء . .

ثم عراه دوار شديد فأخذت رأسه تسبح فى بحار الفكر وجسمه يرتعد من البرد

أيحاول هوج اغواء زوجى منتهزا فرصة تركى اياها فى حماه . هوج الذى كنت أنظر فى وجهه فتبتسم لى الحياة . لن يكون هناك أشنع من هذا العمل . . . ومع ذلك فاني كلما ذكرت اكسفورد وفكرت فى صدقه ونبله

يجب أن أتحدث اليه . . يجب أن أسأله السبب

ثم قبل هاريت فى حنان ورفق ورجا صديقه ان يصحبه الى حقول يورك النائية !

لقد أحس هوج بما سيحدث فتأهب له

لم ينكر شيئا ؟ أيسر له أن ينكر أمام العالم بأسره . أمام ضميره . أمام القسس من أن ينكر أمام شيلى أغلي شيء فى حياته وأعز انسان لديه

« نعم هذا حق . لقد أحببت هاريت منذ رأيتها فى أدنبره وهل هذه غلطتى ؟ اني لا أستطيع الوقوف أمام جمال المرأة وهاريت رائعة الجمال . لقد أحببتها منذ أن رأيتها

ليس هذا بحب . انه الشهوة . غريزة الحيوان الوضيعة . وليست العاطفة السامية التى تميز الانسان عن الحيوان . الحب ؟ فكر قليلا ياهوج . . ان الحب معناه نسيان النفس والعمل على

إسعاد المحبوب . ولكنك حاولت هدم سعادة هاريت . . ان شعورك هذا ليس شعور الحب الصافى ولكنه شعور الانانية البغيضة

سمه ماتشاء . . فماذا تعني الكلمات ؟ فهو على أي حال هوى عنيف . حاولت أن أقهره ولكنني وجدته منيعا لايقهر ! !

ما من عاطفة لاتقاوم . ان ارادتنا دائما تنتصر

فلو انك فكرت فى ان هذا العمل قد زاد فى سنى وألقى فوق رأسى أضعاف ماتلقيه عشرون سنة من البؤس والشقاء . لقد جف قلبي . ثم هناك هاريت . ألا تظن ان هذا العمل قد سبب لها آلاما مبرحة ؟ !

كان هوج ممتقع اللون مطرقا الى الارض فى خجل وحزن لانه ان كان قد أحب هاريت فقد أحب شيلى أضعاف هذا الحب . فأخذ ضميره الراقد يهب . « ما من امرأة فى العالم تستحق تضحية صديق كهذا » ثم قال فى صوت عال « اني آسف جدا لما حدث . سأحاول ان أنسى .. فهل تحاول أن تنسي انت كذلك هاريت ؟ دعنا نستأنف حياتنا من جديد . لاتطل غضبك على لست غاضبا عليك . اني اكره جريمتك لا شخصك

أرجو أن تفكر فى هذا الخطأ الشنيع يوما ما بنفس الاستهجان والاستياء الذى عندى . وعند مايأتى ذلك اليوم . فانك لاتعود مسئولا عنه فان الرجل الذي يشعر بالندم ليس هو الرجل المذنب . ومن المؤكد اني لست الشخص الذى يؤنبك لانى أقدر الانسان لا لما كان ولكن لما يكون

شعر شيلي بالرضى وهو يدوس على غضبه ويدفن غيرته بعد أن رسم لهوج طريق الخلاص

ولكن النساء اقل تسامحا ! فعند ماعاد شيلى الى منزل هوج وأعلن صفحه عن صديقه صاحت اليزا ماذا ؟ أتعنى العيش مع هذا الشخص ؟ يا للسماء ! ! ماذا تكون اعصاب هاريت ؟

وفى اليوم الثانى عاد هوج الى منزله فوجده خاليا !

* * *

« ارجوك ان تكتب الى كثيرا . لقد قرأت خطابك الاخير كما لو كنت أقرأ روحك . لو انى فكرت ان افتراقنا سيطول لكنت شقيا تعساً نصف مجنون . لم أرتب فيك أنت . أنت شقيق روحى . انى لست الا صديقك . صديقك الآن اقوى واخلص مما كنت من قبل لان البؤس يزيدنا حبا لأولئك الذين نحبهم فأنت الآن وستكون ابدا صديقى العزيز ! »

كره شيلى عمل هوج ولكنه لم يكره هوج نفسه بل ربما حاول ان يكرهه فلم يطاوعه قلبه الذى لم يدنس بالكراهية والحقد

فوقف موزعا بين الكراهية والحب ، بين القطيعة والصداقة والحقيقة ان شيلى قد أحب هوج كثيرا وارتاب فيه كثيرا

ولكن حبه كان أقوى من ارتيابه بل قد يكون أقوي من حبه لزوجه نفسها . وهكذا مضى شيلي يتخبط بين الحب والشك لايكاد يعلن سخطه حتى يغمره شعور الحب فيعذر ويدافع

وليس أدل على فهم ذلك الموقف المتذبذب من هذه الفقرات التى أوردها فى « ثورة الاسلام » وفى غيرها . فالكلمات التى يقولها عن لسان المغتال الخيالى « قسما سأثأر لنفس .سأقتل زوجك وأغتصب اختك » ماهي الا صدى تلك الفكرة التي انبثقت فى خاطر شيلي وهي ان هوج كان يحاول اغتصاب هاريت . ثم يقول فى موضع آخر « يمكننا أن نقول الآن فى اطمئنان أن هذا الصديق كان كاذبا وانه كسائر الناس يسكب دموعا كاذبة من عينيه ! وأنه حاول أن يخون وينصب الشباك لذلك القلب الذى أدمي من أجله ! »

ولكنه يعود فى الفقرة التى تليها فيقول

« ولكني علمت فجأة أن هذه كانت هفوة الشباب الذى وجدت فيه روحى آمالها الاولى . ان السنة السوء قد لطخت اخلاصه وصدقه النقى . لقد رميته بالعار والظنون وهو برىء وكنت أنا المهووس » ان هاتين الفقرتين تصوران حقيقة المسألة أدق تصوير !!

***

فى مساء ليلة من ليالي الشتاء كان هوج غارقا فى كرسى عميق ملفوفا بعباءة سوداء وبجانبه ابريق الشاي الساخن فسمع الباب يقرع ومالبث أن فتح فى عنف اهتزت له الجدران .

كان هوج يفكر اذ ذاك فى ذلك الانسان ذى العينين اللامعتين والوجه الطويل والقامة المديدة المنحنية .

لو ان شيلى لا يزال صديقا لي لكنت أظنه هو . . !

كان انسان يصعد السلم فى خطى سريعة عرفها منذ زمن بعيد فوق سلم اكسفورد . . ما من انسان يصعد الدرج بهذه الطريقة الا شيلي !

ثم فتح الباب ووقف امامه شاب حاسر الرأس بقميص مفتوح وعيناه تشعان بريقا وذكاء كأنه

صورة لاحد الارواح السماوية قد جاء الى الارض خطأ !

« لقد عرفت عنى انك من محاميك ووصلت به الي هنا فى غير عناء

« ماذا حدث لك فى العام الفائت ؟ اني عائد الآن من ايرلنده فقد ذهبت اليها للدفاع عن الكاثوليك هناك . ثم عرجت على ويلز . انها بلاد جميلة . هاريت بخير . هل قرأت بركلى . اني أقرأ الآن هلفتيوس . انه عقل كبير ولكنه جاف ثقيل !

فنظر اليه هوج نظرة الاعجاب والحب والمزاح وقال

« ومن غير شيلي يستطيع أن يشرح هلفتيوس لصديق انفصل عنه فى حالة سيئة عاما كاملا ؟ »

واذ فاض الفرح بشيلى اخذ يخطو فى الحجرة جيئة وذهوبا ، يفتح مايجده من الكتب ويلقى اسئلة دون ان ينتظر جوابا . يريد ان يطمئن على صديقه العزيز وقد ظهر كانه قد نسى ان هذا الصديق قد اساء اليه يوما . كان شيلى يتحدث فى صوت عال مزق سكون الليل حتى ان الجيران اخذوا يقرعون على الجدران فى غضب معلنين هوج ان صوت زائره العالى الرفيع قد طرد النوم من اجفانهم .

لم يكترث شيلى بتهديد القوم بل مضى يتحدث عن اعماله فى ايرلنده وجهاده فى تحرير الكاثوليك ثم قال « ان جيرانك يضيقون بي ! انهم حيوانات اذ انهم لا يدركون ان الروح تشعر بكامل حريتها فى الليل »

فحاول هوج ان يستدرجه الى الخارج

« سأذهب ولكن على شرط واحد هو ان تأتي لتتناول معي طعام الغداء غداً . ان هاريت تنتظرك .

وفى اليوم الثانى فى الساعة السادسة كانت هاريت تستقبل هوج فى شوق وترحاب وهي تقول كانت قطيعة ولكنها لن تتكرر !

« * »

حدثنا تريلونى فقال

« اصطحبت شيلى فى زيارة اسرة اسكتلنديه على الرغم منه لانه كان يكره ان يقابل اناساغرباء . لم اذكر اسمه امام هذه الاسره . لم يكن هناك رجل واحد بل كان الكل نساء تناولن معهن الغداء . فلما زرتهن المرة الثانية أسقط فى ايديهن لغياب رفيقى فلما اخبرتهن انه شيلى

ضربت الام الجميلة يديها وصاحت شيلي ذلك الشاب ذو العينين اللامعتين ! ذلك المخلوق الرقيق الذكي ! اوه ! لماذا لم تذكر ذلك من قبل ؟

« لانه خاف ان ترتعن منه ! »

ترتاع ! لماذا ؟ انى اجثو استغفارا خوفا من ان اكون قد اسأت اليه ولو فى فكرى فان لم يكن هذا نقيا طيبا فليس فى العالم صدق او خير إن نظراته تذكرنى بطفلى المحبوب الوحيد الوديع الذي يفيض حبا وعذوبة . فقلت كذلك وصفت الحية التى اغوت حواء . فأجابت يالك من ثعبان ملعون ! ولكنى اعرف انك تحبه . لن يهدأ خاطرى حتى تأتى به الى هنا . ألا تذكرين يا اختى انى قلت ان وجه هذا الشاب تعلوه ظلال من الاهتمام والحزن . ياله من شاب مسكين !

اوه ! خبرنى من تكون زوجه ؟ اهي جديرة به ؟

يجب ان تعبده . كذلك كل من يعرفه

ليس هذا الاعجاب الذى فاض من قلب تلك السيدة الطيبة بشاعرنا العبقري بالشىء الغريب فهذا شأن كل من رآه . الكل يتغنى بهذه الانشودة والكل يضرب على هذا الوتر ! اما الزوجة السعيدة فقد كانت هاريت .

كانت هاريت انيسة وديعة اصابت من الثقافة العالية حظا وافرا . عذبة الصوت حلوة الانغام ولكنها كما قال شيلي فيما بعد « لم تكن قادرة على تذوق الشعر وتفهم الفلسفة وان كانت تظهر دائما ساذجة العقل طيبة القلب » ولكن هذه السذاجة لم تبق طويلا اذ عراها تغيير كبير وسرعان ماتردت فى الهاوية التى تردت فيها ابنة عمه من قبل . فقد الفت حياة الكسل الجسمى والعقلى ولم تعد تستذكر دروسها اللاتينية ولم تعد تبحث عن شيء الا زيارة محال الازياء والحلى . . .

اترضى هاريت بهذه السفاسف ؟ اتنزل الي عالم البشر وتحب مايحبه الناس ؟ ان هذا لكثير على شيلي ان يحتمله ! ان هذا لشىء مخيف ! !

ولكنها قد جاءت له بطفلة طفلة جميلة حلوة بعينين زرقاوين كعيني والدها . فأنسته هذه المولودة الصغيرة كل ضيق وكل الم . . .

ها هو ذا قد زاد العالم مخلوقا جديدا : يالها من أمنية عزيزة قد تحققت !

وها هو ذا يحمل طفلته الصغيرة بين ذراعيه يغنى لها أعذب الالحان ! فيالها من سعادة حالمة قد اظلته !

هاريت ! أرنى ثديك ولتطعميه (لنثى) الجائعة ؟

هكذا قال روسو

ولكن هاريت شاحت عنه بوجهها — بتحريض من اختها الماكرة — وقالت فلتستأجر لك مرضعة . إنى لا اقوى على الحمل والرضاع يالها من كلمة أصابت شيلى في الصميم ونفذت الى روسو فى قبره

« • »

ماذا انا ؟ إنى لست اكثر من حشرة تطلب الدفء فى اشعة الشمس وسرعان ما تأتى تلك السحابة المقبلة فتلقفنى فى ظلام الموت البارد إن اللذات كأزهار الخشخاش لا تكاد تلمس الزهرة حتى تسقط الاوراق او كقطعة الثلج تسقط فى النهر فتمكث بيضاء لحظة ثم تذوب للابد . .

لقد أصبح العيش معها أمراً مستحيلا

ان اليزا تحاسبنى حسابا عسيرا وهاريت تطلب منى ما هو فوق طاقتى لقد اصبح بيتى جحيما فأين الخلاص ؟

« ❊ »

كالصبح او كالنور قد ابصرتها تجثو كعصفور عراه البلل
على رمال البحر ترنو حزنا كزهرة رفّ عليها الطفل
تلقى على الصدر يديها رهبة وشعرها تحت السنا منسدل
وترقب الزورق من صخرتها كأنها حب جفاه الامل

اى وقار واى شعور ! قال هذا وقد سكرت اذناه بذلك الصوت العذب الحنون . صوت مارى جدون وهي تتحدث اليه فى حقوق الانسان وحرية الرأى وقد جلست بجانب قبر أمها فى مقبرة الكنيسة »

جمال زاده الحزن جلالا وذكاء زادته الدراسة ضراما !

وقف شيلى امام تلك التحفة الفنية الرائعة تتنازعه شتى الامانى

لقد تاق ان يلف الكتفين النحيلين بذراع الاخوة والحب

وان يجعل تلك العيون المستفهمة الحائرة تشع وهو يحملها الى عالمه السامى اللا محدود

لقد عرف انها تريده كما يريدها وان لم تتقابل العيون
ماذا يقول لها وهو متزوج ؟

حقا ان الزواج عرف ولكن العرف ثقيل لا يمكن التخلص منه ، عندما يقعد الانسان عن الحب يستطيع ان يكون حرا !

واخيرا عزم على ان يكشف لها عن دخيلة نفسه ، لقد اتت الساعة التي يجد فيها الانسان أحيانا فرحا مريرا في الكشف عن جراحه

واخيرا قص عليها قصته مع هاريت واختها اليزا ثم سمع منها الجواب « ان المرأة التى وهبها الله نعمة الزواج بشيلي ولا تستطيع أن تسعده لهي امرأة انانية عابثة »

* * *

اويت لجنة الحب اشم عبير رياه !
فاذ بالجنة امتلأت قبورا من ضحاياه ! !

ابى ! بربك اقبلني فقد اتيتك تائبة !

ماذا تعمل تلك الفتاة المسكينة بطفليها وقد تركها زوجها وضجر بها والدها وضاقت الدنيا فى عينيها

اجل ان شيلى لم يتركها بماله فقد كان يرسل اليها مايقرب من المائتى جنيه فى العام — ولكن ماذا تعمل هذه الفتاة الظامئة بالمال

انها تريد قلب حبيبها وزوجها ووالد طفليها ، وأنى لها هذا القلب الآن، لقد اسره ذلك الطائر الحزين الذى ينوح فوق ذلك القدس الطاهر فى « مقبرة الكنيسة »

فما عليها اذا الا ان تنتحر وقد يئست من الحياة بدون قلب وقاست من آلامها مالم تستطع له صبرا

لقد حاول شيلي ان يبرر موقفه فى كثير من الرسائل التى نشرها عن الحب والزواج فى « الملكة ماب » ولكن هذه الآراء ستظل — كما يقول لورد « الدن » خطرة على المجتمع وسيبقى هذا الانفصال الفجائى لطخة فى اخلاق الشاعر

قد يقال انها خانته وانها تردت فى هاوية الفساد العميقة ، وانها احبت ضابطا كانت تصحبه فى شوارع لندن فى غير خوف او حياء ، ولكن هذا لا يقلل من مسئولية شيلي فهو الذى ارسلها الى هذه الهاوية وهو الذى خانها قبل ان تخونه وهو الذى جرها الى جو من الافكار والمشاعر لم تكن معدة للعيش فيه فلو لم تكن له ولو لم تكن آراؤه قد أثرت فيها لكان من المحتمل ان تعيش هذه الفتاة عيشة سعيدة قانعة كما تعيش عامة النساء

أين هذا الموقف الذى وقفه شيلى من زوجه وابنته من موقف صديقه بيرون ؟ بيرون يحاول استرضاء زوجه والعودة الى كنفها أعواما طوالا ! ولكن زوجه تأبى عليه ذلك جزاء ما ارتكب من ذنب مزعوم وما أتى من جرم موهوم (١)

فيضطر بيرون إلى مغادرة بلاده ويهيم على وجهه فى أوربا « كظبى قد أوى إلى أحد الخلجان يعتكف على المياه » ثم يندمج فى الطبيعة وينسى فيها نفسه ولكنه لا يستطيع أن ينسى زوجه وابنته « كنت نصف مجنون بين التأمل فيما وراء الطبيعة والنظر الى الجبال والبحيرات والشعور بالحب الابدى والافكار التى لا يمكن الافصاح عنها ، ولكن ذكرى بؤسى وشقائى وذكرى طردي، وتشريدى وذكرى انفصالي من زوجى المحبوبة وابنتى العزيزة لم تتركنى لحظة ولم تغب عنى ساعة ؟ أما موسيقى الرعاة العذبة وصوت الهيارات الثلجية وأصداء الاصوات فى فى الغابات المتكاثفة وألوان السحب الجميلة لم تستطع أن تخفف لوعتى وشجونى وتستل من نفسى ألمها وحزنها بل لم تستطع أن تنسينى زوجى وابنتى »

أما شيلى فيترك زوجه وطفليه فى غير أسف أو ندم ، وعلام يأسف ولماذا يندم وقد وجد فى مارى المرأة المرتجاة

* * *

ويشاء الحظ العاثر إلا أن يفجع شيلى فى فتاة أخرى هى « فانى جدون » فقد قيل انها أحبت الشاعر حبا عظيما ملك عليها شعورها ولكنها كانت يائسة من حب الشاعر لها

فذهبت إلى أحد الفنادق وفى الصباح وجدت ميتة وبجانبها زجاجة السم وهذه الكلمات تخط يدها «طالما فكرت أن أفضل شيء أعمله هو ان أضع حداً لحياة مخلوقة كانت ولادتها تعسا . وحياتها سلسلة آلام لأولئك الذين تعبوا كثيرا ليسعدوها ، قد تتألمون عند سماعكم عن موتى ولكنكم سرعان ما تتناسون أن هذه المخلوقة قد عاشت»

كانت حياته مأساة ؟ فهو كأحد أبطال القصص الاغريقية الشاعرين الذين يستطيعون أن يخطئوا كثيرا وان يتألموا كثيراً ؟

ان الرواية لم تتم فصولا ! ! ..

* * *

لم تأت بعد الساعة الرابعة ! !

---

(١) أنظر بيرون للمؤلف صفحة ٦٨ — ٧٠

النجوم آخذة فى المغيب والمصابيح موشكة على الفناء ولم تطلع مارى بعد ؟

ها قد دقت الساعة الرابعة وها هى ماري تفتح الباب فى خفة وسكون وها هما فى أحد القوارب فى طريقهما الى « كاليه »

كان الطقس جميلا ونسمات الصبح تداعب شعرها الجميل ؟ ثم أخذت صخور « ألبيون » تتوارى أمام عيونهما شيئا فشيئا ثم غاب القمر وراء الافق وأخذ البرق يلقى أضواءه القوية على ذلك البحر الحالك الثائر

ثم جاء الصباح وهدأت العاصفة وأشرقت الشمس بأشعتها الحمراء العريضة فملأت قلبيهما دفئا ثم لاحت لهما سماء فرنسا سافرة جميلة . كانت ليلة شاقة مضنية قضتها مارى ورأسها على صدر حبيبها . وفى الساعة السادسة كانا فى طريقهما الى غابة بلونيا

لم يكن لديهما مال ولم يفكرا فيما يقتاتان به غدا ولكنهما كانا يفكران فى شىء واحد وهو أن كلا منهما قد وصل الى غايته

* * *

حدثنا تريتوتي فقال

« كنت في صيف عام ١٨١٩ فى « أوكي » وهي قرية صغيرة على شاطىء بحيرة جنيف فرأيت أذكى رجل عرفته فى تلك البلاد ، كان هذا الرجل بائع كتب قد نال حظا من الثقافة فى احدى الجامعات الالمانية وكان واقفا على أشهر المؤلفات التى ينشرها كبار كتاب ذلك العصر ، لم يكن ضيق المعرفة كما هو شأن أصحاب مهنته الذين يلمون بالفهارس وأعلام المؤلفين ولكنه كان طالب علم مجدا فأحب الادب أكثر مما أحب الكسب واذ كانت لوزان احدى الموانى الداخلية التى يلجأ اليها الغرباء من مختلف البلاد يجدون فيها مأوى صالحا لنفوسهم الثائرة وعزاء وبلسما لقلوبهم المحطمة فقد كانت رفوف ذلك الرجل مزدحمة بالمؤلفات فى شتى اللغات

رأيت صاحبى هذا جالسا يوما فى المكان الذى اعتاد أن يجلس فيه « جيبون » وهو يكتب « تداعى وسقوط الدولة الرومانية » فقال « اني أحاول الآن أن أشحذ قريحتى فى هذا الجو المنعش القوى الذى أرهف بصيرة ذلك المؤرخ العظيم حتى أسبر غوره البعيد ان شعراءكم الحديثين بيرون وسكوت ومور لا يكلفوننى مشقة أو جهداً فى استيعابهم، فانى أتمكن منهم وأنا أرتاض في هذا المكان ؟

ولكن وقع فى يدى اليوم كتاب جعلنى أقف وأحبس أنفاسى وأفكر ، هذا الكتاب هو الملكة « ماب » لشاعر صغير يدعى شيلى ، وإذ كنت أجهل هذا الاسم. سألته عنه فالقى الى الكتاب وقال. لاشك أنك واجد فيه شيئا ، فأنت تعرف المثل القائل «مامن إنسان يرجم شجرة لا تحمل فاكهة» فهنا ثورة جامحة وسخط شديد على رجال الدين ، فقلت أما انا فانى احب الفاكهة المحرمة ، مارأيك فيها . فأجابنى إني ارى أن الفاكهة فجة ولكنها مستحبة ، انها تحتاج الي معدة قوية لتهضمها ان الكاتب شديد التحمس وفيه روح الشاعر الحقيقية فهو يريد أن يعيد بناء المجتمع البشرى يقال انه لا يزال غلاما وأن هذه أول مؤلفاته . فاذا كان هذا صحيحا فاننا سوف نرى منه المعجزات »

أما الملكة «ماب» التى تحدث عنها ذلك الرجل فهى أول آثار شيلى الشعرية وهى مليئة بأفكار الشاعر الثورية فى الدين وفى الاجتماع. فيها أروع الدروس المأخوذة من جرائم الحكام واهوال الحروب والنزعات الدينية والتعصب الذميم . ثم تلمح فى آخر القصيدة ضوءا كضوء النبوة يكشف عن المستقبل المرتجى الذى يتوق اليه الشاعر

« * »

بين اشجار وندسور وشواطىء التيمس الفضية الجميلة كتب شيلى قصيدته المعروفة الستر Alastor تحت تأثير الخوف من الموت السريع والشعور بالخيبة وشقاء حياته الاولى . فالشاعر الذى امتلأ بالحب السامي يتتبع خياله فى هذا العالم مؤملا عبثا أن يروى ظمأ روحه الشديد ، راغبا عيشا فى تحقيق حبه .

هذه القصيدة جهاد متواصل للجمال السامي فى صورة أرضيه . هي مأساة المثالي الذى يبحث عن المثل العليا . يقول شيلى فى مقدمتها يمكن أن تعد هذه القصيدة رمزاً لموقف من ألذ مواقف العقل الانسانى . انها تمثل شابا صافى المشاعر ذا عقل مخاطر انقاد الى خياله فأذكى لهيبه وطهره بكل شيء جليل رائع . وبالتأمل العميق فى العلم . يصب من ينابيع الحكمة ولكنه لا يرتوى . ان روعة العالم الخارجي وجماله يغوصان فى خلايا فكره ثم يظهران فى اشكال مختلفة لا تنتهى وهو يرنو الى مطامعه فرحا هادئا قانعا ويصور لنفسه المخلوق الذى يحب ويتحدث متأملا فى اسمى مظاهر الطبيعه واكملها . وهذه الصورة التى تجسم خيالاته ترتبط بكل عجيب وحكيم وجميل حسب خيال الشاعر او الفيلسوف او العاشق . . .

ثم تثور قوى الشوق الملح فى وجه الشاعر وتطارده الى هلاك سريع فتطفىء أضواء العالم وتلفه فى ظلام دامس وفناء وعدم . ثم تقترب الارواح الدنيئة التى تتجاسر على الدنو من مكانها فيتألم لانه لا يوجد من يشاركها طبيعتها فهى قد ماتت ميتة ادبية . هى ارواح لأناس ليسوا اصحابا ولا محبين ولا آباء ولا مواطنين فى العالم ولا محسنين لاوطانهم

ان اولئك الذين لا يحبون اخوانهم من بنى البشر يقضون حياة غير مثمرة ويعدون لشيخوختهم الفانية قبرا تعسا . يموت الطيبون اولا . اما اولئك الذين قلوبهم جافة كتراب الصيف فيحترقون وهم يترددون فى الهاويه .

ثم يجول الشاعر بعيداً وفى وادى كشمير يرى حلما فى نومه « عذراء ملثمة جلست الى جانبه تتحدث فى انغام حزينة منخفضة كأن صوتها انشودته . ينصت اليها فى هدوء عميق ثم يتعقب ذلك الخيال الوهاج لذلك الحلم المحبوب ، ثم يبحر من شاطىء كشمير المنعزل وتدفعه المياه الى كهف مخيف فى القوزاق .

« ثم جاء المساء وترامت اشعة الشمس الغاربة فى اضوائها المختلفة على المساكن العالية . ثم اخذ يخطو فى تلك الفيافى البعيدة واخذ الشفق يصعد فى الشرق يلقى اضواءه القاتمة فتغمر اضواء النهار اللامعه .

ثم جاء الليل مرصعا بالنجوم . وفى منتصف الليل صعد القمر الى عرشه فلاحت صخور القوزاق العالية بقممها المغطاة بالثلوج تضىء بين النجوم كأنها ضوء الشمس وحولها الامواج والدوامات تصطخب فيسمع صداها فى الافق البعيد !

ثم يذهب الشاعر فى جولات عديدة وسط مناظر مختلفة يصفها فى سرعة وفى شعر غنائى سريع فيزور خرائب اثينا وصور وبعلبك واورشليم واطلال بابل والاهرام الخالدة ثم طيبة وممفيس ثم يموت . الشاب فى الستر قد غذى بخيال حزين واحلام وضاءة فضية . فكل منظر وكل صوت جاء من تلك الاراضى البعيدة الى قلبه بخير دوافعه واشواقه وروح الطبيعة التى ظهرت فى المملكة « ماب » قد اقتربت اكثر كأم لهذا العالم الذى لا يدرك عمقه فيفتتحها بقوله . أم العالم العميق الذى ليس له قرار ! تقبلى اغنيتى الحزينة ! لانى أحببتك وأحببتك، أنت وحدك !

لقد راقبت ظلالك وظلام خطواتك . وان قلبى لينظر الى أعماق اسرارك البعيدة !

ان هذه القصة فى حدتها وخيالها الرائع وألوانها البديعة ، وفى حزنها ، وقوة افصاحها وسهولة

تعبيرها تسمو إلى اسمى أنواع الشعر الرومانتيك

لقد كان شيلي « كمارلو » قد تملك عليه شعور بالرغبة الى المستحيل . أما روحه التي لاتشبع أبدا فهى تحلق فى أقاليم حيث لايستطيع أن يتبعها ،

***

لقد الفت منذ طفولتي الجبـال والبحيرات والغابات . ان الخطر الذى يقفز على حافة الهوى والوهاد الهيتى ورفيقى !

لقد تغلغلت فى ثلاجات الاب واقمت تحت عين الجبل الابيض وراقبت شروق الشمس وغروبها والنجوم تشع فوقها بينما كنت امخر عباب الأنهار المتحدرة والجبال العالية تشرف على من فوق .

لقد شاهدت المدن المـكتظة وراقبت مطامع الناس واشواقهم تهب وتنتشر ثم تغوص وتتلاشى فى جوعهم المتـكاثفة الغزيرة وأبصرت مصرح الخراب والنهب الذى تركه الظلم والاستبداد والحروب ورأيت المدن الآهلة والقري الجميلة الوادعة وقد أصبحت بيوتا متناثرة عادية يكتنفها الظلام وقد أوى الى اعتابها الخربة من تبقى من اهلها العراة الجماة ! »

بهذا التسامي بمناظر الطبيعة افتتح شيلى قصيدته الـكبرى ثورة الاسلام

اذا كانت الستر قد كشفت لنا جانبا واحدا لطبيعة شيلى وهو تقديسه للجمال السامي فان ثورة الاسلام تمثل الى مدى بعيد جدا مؤلفها . فـكل تجاربه الماضية وكل اشواقه — عقيدته الحماسية الحارة فى الصداقة ورأيه فى مساواة المرأة بالرجل وبحثه وراء الثورة بدون سفك دماء وثقته فى الفصاحة والعقل فى تحريك الشعوب وتعاليمه عن الحب الطليق وكراهيته للتعصب الدينى والاضطهاد ومناداته بالحياة النباتية كل هذه قد تركزت فى تلك الفقرات الملتهبة فى هذه القصة الرائعة فالبطل « ليون » هو نفسه شيلى فى صورة سامية — تلك الصورة التى تصورها عند ما جرد حملته للدفاع عن ايرلنده —

والبطلة « سينزنا » هي رفيقته التى كان يحلم بها دائما — المرأة المالـكة لـكل صفات الانوثة الا انها مستعدة لأن تشتعل بحماس الرجال والتى تستطيع ان تقوم بأعباء المشاكل فى ثبات الرجل

اما القصـة فهى ثورة شعب يطلب الحرية على صوت « شاب نبى شاعر » ثم يعقب هـذا الانتصار المؤقت للمطاب السامى ثم الهزيمة الاخيرة للقوة الطاغية واستشهاد البطل مع البطلة التي تسقط ضحية مختارة

فى هذه القصة يصب شيلى اسمى اشواقه لمستقبل الانسان ويفصح فى حدة جامحة وقوة شعرية عن مثله العليا للحياة الاجتماعية ويجد من تلك العادات والتقاليد التى تسود الخلق الانسانى. فقد كان السخط الشديد الذى ساد اوربا عقب موقعة واترلو لانتصار الرجعية واندحار الحرية سببا فى ايقاظ هذا الشعور وانتشار الثورات. وثورة الاسلام وهى القصة الخيالية الرائعة خير مفصح عن ذلك الشعور السائد

فالشوق للحرية والشوق للجمال قد امتزجا فى وفاق وإخـاء والحب — كما يقول شيلى فى المقدمة — ينتشر فى كل مكان كالقانون الوحيد الذى يتسلط على العالم الخلقى :

قال شيلي « لقد اخترت قصة العواطف الانسانية فى ابطالها العامة. والاشواق التى تضطرم فى قلب كل انسان »

فالقصيدة على هذا قصة تعليمية فهى صور متعاقبة تشرح تطور العقل الانسانى الذى يتوق وراء الـكمال ويكرس وجوده لحب البشر فهى توقظ الامل العام وتنير الطريق أمام البشر. وهى تعطيهم صورا حية لهدوء الوطنية الناجحة والتسامح التام والاحسان وحب الناس وتظهر لهم اوجه الرذيلة وتآمر الحـكام والقتل والغدر واستشهاد الوطنيين وانتصار القوة الطاغية ونتائج الظلم والحروب الاهلية والوباء والقحط

تثير هذه القصيدة فى القاريء ظمأ شديدا للـكمال وتبعث فيه لذة عقلية عميقـة فان عقيدة شيلى العظيمة فى عظمة القوة الروحية تغمر كل سطر. وهى تمتاز ايضا بقوة اسلوبها وغنى صورها وثروة لغتها وقوة تأثيرها رحدة عنصرها الغنائى والشوق الجامح والعاطفة المشبوبة

وفى هذه الاشعار العذبة الجميلة خير مثال لشعر هذه القصيدة العظيمة

كالصبح او كالنور قد ابصرتها	تجثو كعصفور عراه البلل
على رمال البحر ترنو حزنا	كزهرة رف عليهـا الطفل
تلقى على الصدر يديها رهبة	وشعرها تحت السنا منسدل
وترقب الزورق من صخرتها	كأنها حب جفاه الامل

***

وفى جنة المنفى التقى الشاعران

هناك فى تلك البقعة الشاعرية الجميلة ، ارض سويسرا الساحرة التقى بلبل انجلترا الغرد «شيلى» بسائح الابدية «بيرون» وهناك فى أرض غير أرض الوطن وتحت سماء غير سماء انجلترا تصافى الشاعران يقضيان نهارهما فى جولات نائية ويمضيان لياليهما فى أحاديث شهية

هناك فى تلك الاجواء الساحرة كتبا اروع اشعارهما التى كتبت لاسميهما الخلود (١)

كان تأثير بيرون فى شيلى عظيما فقد وجد فيه خير صديق نبيل فى تلك البلاد الغريبة كذلك كان تأثير شيلى فى بيرون فقد سما به وبأفكاره عن عالم الحسيات وأفاض عليه من أنوار فلسفته العميقة .. قال بيرون يصف شيلى بعد موته

« لقد كان اكثر الناس رقة وظرفا وانسا ، وأقلهم تكالبا على أمور الحياة ! كان يفيض رقة وذكاء نادرين لقد جعل لنفسه مثلا أعلى لكل ماهو سام نبيل وعمل لتحقيق هذا المثل السامى حتى آخر ايامه »

* * *

فى خرائب حمامات كراكلا وبين الدروب المزهرة وأشجار العطور العبقة التى تملأ الجو شذا وعطرا وتحت سماء رومة الزرقاء وفى صحبة الربيع الطلق وفى تلك الحياة الجديدة التي تذهل العقول وتسكر النفوس كتب شيلى درامته الخالدة « بروميثيوس الطليق »

بروميثيوس هو عقل انسان كالى هو بطل الانسانية كما ظنه شيلى و « جوف » هو صورة مجسمة للظلم والاستبداد الذى يحول دون الرقى الطليق — فالقصة نضال عنيف بين الخير والشر بين الحرية والاستبداد . بين الحب والبغض

هذان البطلان يمثلان نفس الفكرة التى أبرزها شيلى فى ثورة الاسلام ولكن بدلا من أن يمثلا على مسرح الحياة البشرية ينتقل النزاع الى عالم المعنويات مستعينا فى تحقيق هذا الشعر الميثالوجى يقاوم بروميثيوس « جوف » ويتحمل كل أنواع التعذيب الجسمى والمعنوى ثم يستجمع قوته ساعة يلقى فيها بجوف من السماء وسرعان ماتخف أعباء العالم ويطلع على الناس عهد جديد للسلام والحرية والنشاط العظيم

ويساهم العالم كله فى هذا الخلاص فلا يعود روح يشكو ألما أو يئن حزنا ولكنه ينشد أغانى الحب على أخته القمر

(١) انظر بيرون للمؤلف ٧٩ ــ ٨٥

ثم يتحد ثانيا فى رباط قوى مع حبيبته القديمة أسيا موطن ذلك الكمال الذى لايوصف والذي يبحث عنه الشاعر « حياة الحياة » وظل الجمال المستتر الذى يسكب الضوء والحب على العالم

وبعودة بروميثيوس الى اسيا يزف عقل الانسان إلى أحب اشواقه ويدخل العالم فى ظل حكم الحب الطليق الشامل . فآسيا التى تختفى فى الفصل الاول ولكنها تنتظر فى منفاها ترقب مصيرها هى الرفيق الحقيقى للروح البشرية . فهى أجمل فتاة للارض والمحيط فهى مثل افروديت تستيقظ فى بحر إيجه وفى وقت الثورات والاضطراب تسكن أحد الاودية فى الهند ـ فهى فكرة الجمال مجسدة ـ ظل نور الحياة الذى يسند العالم ويقومه ويشعله حبا . هى حلم « الستر » وهى الصورة المبثوثة للحب العميق المتمثل فى « أنشودة الجمال الذهنى » نور المجد الساطع الذى كان « ادونيس » جزءا منه ، ففى لحظة انتصارها تتوهج جمالا خاطفا حتى ان أختها القمر لاتستطيع رؤيتها ولكنها تشعر فقط بأثرها

أما العقيدة الاصلية لشيلى فهى ان العالم قد تغلغلت فيه تلك الروح وتنعشه ، تلك الروح التى يسميها أحيانا روح الطبيعة ولكنه غالبا ما يفهمها أنها أكثر من الحياة أى أنها تعطي الحياة حيويتها وأخيرا يفهمها أنها الحب والجمال

وقد ظن شيلى أن عبادة هذه الروح أوضمها حبا وعطفا أو الامتزاج بها هو الغرض الحقيقى للانسان . وعلى ذلك كان الاتحاد الاخير لبروميثيوس مع آسيا هو نهاية لمصير البشر

فالحب هو النظام الوحيد الذى تبينه شيلى . وقد اعتقد اننا لو استطعنا أن ننفذ إلي صميم الاشياء لو استطعنا أن نكون ما يجب أن نكون . سيصل العالم والانسان كلاهما إلي كمالهما فى الحب

***

أما الترجمة هنا فانها تنقل فكرة مشوهة عن معدن الثروة الموسيقية التى تسكر الآذان

لقد ساقنى للذكرى خاطري   فتمت على شفتى شاعر
وأودعت فى نغمى زفرتى   كطيف من الحلم الساحر
تناه الهوى عن نعيم الغناء   فعاش على ملثم طاهر !

***

أما « أنشودة الارواح » ففيها الوزن الموسيقى وجرس النغم ما يبارى كيتس وسبنسر وشكسبير

انزلوا ! انزلوا في ظلال الكرى

في كفاح الغيوم لا كفاح الثرى

حيث تسقي المنون خلدها للورى !

قال سيمو ندز

« إن العالم يتوهم أن الحدث الذى يموج فيه يدوى باصوات الارواح . وما تنشده هذه الارواح هو أنغام أصفي مما سمعته اذن بينما نصغي الى أنشودة قلبه أو الى ترنيمة العالم »

قال شيلى

« كما أن النساء يفضلن الاطفال الذين يسببن لهن تعبا كثيرا على غيرهم كذلك المؤلفون فلتون فضل « الفردوس المسترد » وبترارك فضل « أفريقا » وأنا أفضل « بروميثيوس »

* * *

حدثنا تريلونى عن شيلى فقال

« عندما اضطر أن يتخذ مسكنه فى أحد جوانب المدينة كان ينقاد بفطرته كل صباح كما تنقاد طيور الماء إلى بحيرة أو نهر أو شاطيء بحر ولا يجنح الى عشه الا فى الليل . حتى اذا ماسئم المكث هناك لجأ الى الاماكن المنعزلة النائية اذا كان ضجيج المدن وضوضاء الحياة يؤلمه ويضجره حتى المدن الصامتة المهجورة . مدن ايطاليا . ذات المعابد الفخمة والقصور المنيفة والرسوم الرائعة والتماثيل الناطقة لم تستهوه ولم تغوه على المكث فيها الا اذا كان بجوارها ماء أو غابة . وكان يجرى تحت قصره ببيزا نهر جميل يشق غابات الصنوبر المتكاثفة !

اصطحبت مرة مسز شيلى للبحث عن الشاعر فى أحد أيام الربيع البسام وما كدنا نسير ميلين أو ثلاثة أميال بين الكروم والمزارع فى اقليم « دوكال » المشهور . ونصل الى خميلة من شجر الاناناس حتى توقفت مسز شيلى عن السير وسمحت لى بالبحث عن زوجها

فسرت كالتائه الضال فى هذا المهمه القفز بين أشجار الاناناس وبرك الماء ثم جلست برهة وأشعلت لفافة . وهناك رأيت بصيصا من النور يشع بين الاشجار وهناك بجانب جزع احدى الشجيرات التى تدلت حتى كادت تلمس الماء جلس الشاعر ينظر فى المرآة الزرقاء تحتها غارقا فى حلمه الشعرى فلم ينتبه لقدومي . ثم جلست القرفصاء لئلا أقطع على الشاعر حلمه تحت الاشجار السامقة وفتحت كتبه وكان أحدها ديوان الشاعر المسرحى الاغريقى سفوكليس الذى كان يحبه ويعجب به وآخر

لشكسبير . ثم ناديته فأدار رأسه وأجاب فى صوت خفيف « هولو ! ادن منى ! » فقلت له « وهل هذه مطالعتك ؟ فأجاب نعم وهذه الاشجار كتبي فهى تحدثنى عن أباطيل الحياة وكبرياء الانسان! انك تجلس الآن على كرسى الوحى . أصغ الى الموسيقى الرهيبة فى قمة هذه الاشجار . ألا تسمع خرير البحر الحزين ؟ انه يهذي ويزأر ثم يدوى ويولول وفى العاصفة عندما تغوص السفينة يردد أنات البحارة اليائسين من النجاة . تلك الانات الاخيرة للانسان التعس !

هكذا عاش الشاعر العظيم . وهكذا كتب شعره الخالد تحت أشجار الزيتون وفى أودية ايطاليا الشاعرة أو هو سابح بزورقه الصغير فى تلك الخلجان والانهار التى تخترق الحدائق الغناء والحقول النضرة !

فى ذلك الوقت كان عقله قد نضج بعد أن علمته الحياة وصهره الالم فزادت عقيدته عمقـا ونضجت بالتجارب والدرس وأصبح أستاذا كـاملا للفن حتى جاء أخيرا بأبدع نتاج في الشعر الغنائى وأثمن الـكنوز في الآداب عامة

فقصائده القبرة والريح الغربية والنبات الحساس والسحابة « وأدونيس » « وانتصار الحياة» هي فيض والهام لذلك الفن العبقرى الاصيل : فريح الشتاء فى قصيدة الريح الغربية وهي تدوى فى الغابات تأخذ على الشاعر خياله وتصبح رمزا حيا للقوى الروحية التى تحيى من جديد حياة الشعوب الذابلة ! !

لم يصل صوت شيلى من قوة الافصاح عن مشاعره النفسية كما وصل هنا — فان هذه القصيدة لاتبعد أن تـكون أجود قصائده من حيث الوزن والتركيب والموسيقى . فهى تبارى وقد تفوق مهارة كيتس الفنية فى قصائده الآنية الاغريقية والخريف والبلبل

فى هذه القصيدة تتجلى صفتا شيلى كشاعر غنائى وهما يأس الانسان وشوق الانبياء !

وفى « السحابة » يترك شيلى آلهة الاغريق وفى سهولة رائعة يخلق لنفسه أسطورة غريبة . ليس هناك شىء غريب فى حياة السحاب . فـكل مظاهره المألوفة التي تتغير ولـكنها لاتموت قد ترجمت بمقدرة شعرية فائقة الى صور ناطقة

اما القبرة فهى شبيهة بسابقتيها فى السرعة والموسيقي ولـكنها تغايرهما فى الطبيعة . فالقبرة سامية كما ان السحابة خالدة ولـكن الشاعر بدلا من ان يجسمها يتطلع في شوق ملح « الى فرحها القوى الذى لم يعرف قط ثمالة الحب الحزينة »

أما أدونيس فهى غرة ليس فى تاج شعر الرثاء ولكنها جوهرة تتألق فى سماء الشعر العالمى . فتطور الفكرة والتأملات الفلسفية فى روح الميت قد اختفت وراء الفكرة الاصلية وهي الحزن والنحيب الذي يتمشى فى القصيدة

« انها قطعة من الفن السامى » كما قال عنها شيلى نفسه فان تسلطه التام على العواطف وقواه الشاعرية المنفعلة المتجسمة للتعبير الغنائى والتحليق بروحه السامية وتمكنه من اللغة — كل هذه لم تجتمع فى أية قصيدة كما اجتمعت فى هذه الذكرى العظيمة لشاعر من أكبر الشعراء .

تشبه هذه القصيده قصيدة « لسيداس » لملتون فى أنها رثاء لصديق شاعر ولكن عاطفة الحزن فى أدونيس أعظم منها فى ليسيداس

فموت « ادوارد كولنج » أتاح لملتون فرصة التأمل فى ذات المجد الذي لا يدانى — مجد الشهرة الشعرية — أما موت كيتس فقد شعر به شيلى لا كمصيبة للشعر ولكن كشىء فى الطبيعة الانسانية يفصح عنه الشعر فكأن روح الشعر هي التى تتحدث عن نفسها مرة فى حزن ومرة فى سخط من خلال شفتيه . .

ان ذلك الذى يدعوه إلى تصوير الآلهة والفصول والاحلام والامانى والعبادة التى يفيض بها حزنه لهى أكثر من الصنعة الادبية أو أمثلة الرثاء القديم . . فكل ما أحبه وكل مارسمه فى فكره من الاشكال والالوان وحواس الشم والعذوبة يدوى غاليا بندب أدونيس

فأدونيس لشيلى ليس كيتس ولكنه شاعر ونادبته هى الآلهة السماوية حتى ان أولئك الاشخاص الذين تمثلهم حول قبره بيرون ولى هنت ومور وشيلى نفسه لم يتمثلهم أصدقاء لكيتس الرجل ولكن كأصدقاء الشعر . . .

وفى تلك الحركة الاخيرة المنتصرة أفصح شيلى فى جلال وروعة أكثر مما أفصح ملتون أو أى شاعر آخر عن خلود الشعر . فالشاعر كالعاشق يستطيع أن يتخطي حدود الشخصية ويسلك طريق الخالدين !

* * *

ثم كتب شيلى قصيدته الرائعة التى قال عنها روستى إنها أجود قصيدة فى الادب الانجليزى كله من حيث المعالجة الشعرية للأشياء العادية . وان وصف شيلى لغروب الشمس فى البندقية ليقف بجانب أعظم ماجادت به قريحة ذلك المصور الانجليزى « ترنر » من لوحات الفن الخالدة

ومن الاقوال المشهورة فى تلك القصيدة قوله
ان أشقى الناس من قدر لهم أن يقولوا الشعر فهم يتعلمون فى ألم ما يعلمونه فى أغان ! »

* * *

للطبيعة عشت وللطبيعة أموت!

فى وسط المزارع والكروم وتحت سماء ايطاليا الجميلة وبين بحارها الدافئة لفظ شيلى آخر أنفاسه ففى ٨ يوليو سنه ١٨٢٢ ركب زورقه الصغير قاصدا بيزا لمقابلة لى هنت ومعه صديقه وليامز والصبى فيفيان فهبت العاصفة وتلبد الجو بالسحب وماج البحر وغاب الزورق فى الظلام وبعد عشرين دقيقة صفا الجو ثانية ولكن حارس المنارة رأى من خلال منظاره أن قارب شيلى قد اختفى !

وتبعا للقانون الايطالى أمر باحراق الجثة

ففى اليوم التالى وقف بيرون وحوله لى هنت والكابتن تريلونى يحدقون النظر فى الجثة تأكلها النيران أما بيرون فلم يحتمل رؤية ذلك المشهد الفاجع فألقى بنفسه فى اليم وانزوى لى هنت وراء عربته ووقف تريلوني ومعه ضابط الحكومه يقومان بمهمة الاحراق !

ثم لمح تريلوني وقد أوشكت الجثة كلها أن تحترق قلب شيلى لم تمسه النيران . ذلك القلب الكبير الذى تصدى لاصلاح المجتمع البشرى وقاسى فى سبيل الحق والحرية ما قاسى قد أبي ان يحترق فالتقطته من بين تلك النيران ووضع بقية الجثة في صندوق من الحديد دفن في مقبرة البروتستانت فى روما بين قبرى ابنه وليم وصديقه كيتس »

وهكذا صمت بلبل انجلترا عن التغريد

ووقف ملاك الشعر السامى عن التحليق فى سماء الحب والجمال ؟؟

5

كل قرش توفره دعامة لاستقلال بلادك

اقتصد........

وضع ماتقتصده فى

صندوق توفير

بنك مصر

فانه البنك الوحيد الذى يشجع التوفير

بمنح فوائد

اعلى من غيره

فضلا عن حسن المعاملة وسرعة الانجاز

المجلة الجديدة

سبتمبر ١٩٣٦

الثمن ٣ قروش

اقرأ فى هذا العدد

مطبعة المجلة الجديدة

فهرست

١ — الاشتراك فى المجلة الجديدة الشهرية في مصر والسودان لمدة عام هو ٤٠ قرشا و ٢٠ قرشا لستة أشهر وفى الخارج ٥٥ قرشا فى العام

٢ — الاشتراك فى المجلة الجديدة الاسبوعية فى مصر والسودان هو ٢٥ قرشا فى العام و ١٣ قرشا لستة أشهر وفي الخارج ٥٠ قرشا فى العام و ٢٥ قرشا لستة اشهر

٣ — الاشتراك فى المجلة الجديدة (الشهرية والاسبوعية) فى مصر والسودان هو ٦٠ قرشا فى العام و ٣٠ قرشا لستة أشهر . وفى الخارج مائة قرش فى العام و ٥٠ قرشا لستة أشهر

تصدر المجلة الجديدة ١٢ عددا سنويا

وتهدى الى قرائها كتابين كبيرين

١٢ شارع نوبار (مكتب بريد الدواوين بمصر)



المسيو ليون بلوم رئيس الوزارة الفرنسية . وهو أيضا زعيم الجبهة الشعبية التى ألفت لمكافحة الدعاية الفاشية فى فرنسا

الى المشتركين

أرسلنا كتاب الحياة الجديدة للاستاذ نقولا يوسف الي جميع المشتركين

المعاهدة السعيدة

فى يوم ٢٦ من الشهر الماضي وقعت المعاهدة بين مصر وبريطانيا . وبذلك نالت مصر استقلالها

والفضل في هذه المعاهدة للامة أولا ولرجال الوفد ثانيا وعلى رأسهم الزعيم العظيم والرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا هذا الرجل الذى يحق لكل مصري أن يفخر بزعامته وتضحيته وصبره وجلاده ومثابرته على الجهاد وثباته على الحق . فقد عاش مصطفى النحاس منذ أن نهضت الامة نهضتها سنة ١٩١٩ لمصر لا يبالى شخصه ولا مصلحته ولا يعرف الانانية ولا يفكر في غير الوطن

وقد حبانا الحظ بزعامة سعد الخالد فكان لنا منه زعيم يعين لنا الطريق ويحث المتواني ويبعث الهمم . فلما مات التفت الامة حول مصطفى الامين . مصطفى المصابر . مصطفى الذى رافق سعد وحمل منه رسالة الاستقلال يؤديها الينا ويعلمنا مبادئها ويهيب بنا كلما وغل واغل فى حريتنا الا نهن ولا نتضعضع

ولم نهن ولم نتضعضع . وسرنا وراءه جيشا مؤلفا من جميع أبناء الامة بل وبناتها وهو القائد الذى يقودنا في شجاعة وتضحية نحو الاستقلال . وقد نلنا الاستقلال

فالفخر لمصر والشكر لمصطفى النحاس ورجال الوفد الامناء

سلامة موسى

صاحبها ومحررها
سلامه موسى
المجلد السادس

المجلة الجديدة

العدد التاسع
من
السنة الخامسة

سبتمبر ١٩٣٦

سير الحوادث

تمت المعاهدة والحمد لله . ولكن واجباتنا بعد المعاهدة أكبر من واجباتنا قبلها . لاننا اذا كنا قد حققنا الاستقلال فاننا يجب أن نبحث عن الوسائل التى تكفل بقاءه . وليس بقاء الاستقلال فقط بل أيضا نحتاج الى أن يكفل بقاء الدستور والحرية . وقد اثبتت اختباراتنا فى السنين الخمس عشرة الماضية أن دعاة الاستبداد لايتورعون عن القتل وارتكاب جميع السفالات فى سبيل هدم الدستور والوثوب الي الحكم واستعباد الناس فى سبيل شهواتهم المجرمة

والروح الدستورى وان كان قويا فى الامة فانه لايزال يحتاج الى التنمية . والمستبدون وان كانوا قد صدموا فانهم يحتاجون الى زواجر فعالة . وقد ارجفوا بضرورة الانتخابات وايجاد احزاب جديدة لان مهمة الوفد فى زعمهم قد انتهت بالمعاهدة

ولكن هل هى انتهت حقيقة ؟ ان الاستقلال قد تم . ولكن الوفد مكلف أمام الامة بتبعة أخرى هى صيانة الحرية والمساواة والدستور من عيث المستبدين . وهو لذلك مكلف بان يبقى فى الحكم على الاقل عشر سنوات . وعندنا أن كل دعوة الي الاحزاب والانتخابات انما هى دعوة مستورة لهدم الدستور وللعودة الى حكم اسماعيل صدقى باشا واعوانه المستبدين

نكبة اسبانيا

لاتزال الحرب الاهلية قائمة فى أسبانيا . وقد كان الشهر الماضى فى مصلحة الثائرين أكثر مما كان فى مصلحة الحكومة . ولذلك تكافأت القوتان . فاذا لم تنهض الحكومة واذا لم تهن قوات الثائرين ، فان هزيمة الحكومة تكون ارجح من انتصارها

واذا انتصر الثائرون فان الحكومة الاسبانية تعود حكومة فاشية فيلغي البرلمان

ويحكم البلاد الجنرال فرانكو حكما ديكتاتوريا واذا انتصرت الحكومة فان العناصر المتطرفة فيها يشتد ساعدها وتحكم البلاد حكما شيوعيا اى انه فى كلتا الحالين سيلغي البرلمان وتفقد اوربا حكومة كانت الى هذا العام ديمقراطية

وقد اتفقت حكومات اوربا الكبرى على الحياد . ولكن هذا الحياد ينتفع به الثائرون اكثر مما ينتفع به الحكوميون . والموقف الحاضر يتلخص فى أن الحكومة تستولى على النصف الشرقى من اسبانيا أو على اكثر منه قليلا . وفى ايديها جميع الموانى المهمة والثائرون يستولون على أقل من النصف الغربى من اسبانيا . ولكن معهم مراكش الاسبانية كلها

انقلاب في اليونان

وثب الجنرال متكساس الى الحكم فى اليونان والغى البرلمان واعلن انه يريد توطيد حكومة فاشية فى اليونان . ويبدو من الاخبار الاخيرة ان الملك لم يعارض فى هذا الانقلاب . وكانت حجة الجنرال متكساس أن الشيوعيين يتحكمون فى البرلمان . وليس ذلك لان لهم أكثرية بل لان حزبهم يقف لزيادة الوزن فى أى حزب آخر

واذا جاز لجميع المستبدين أن يتعللوا بالشيوعيه لالغاء البرلمانات وهدم النظم الدستورية والديمقراطيه فرحمة الله على الحرية . واذا نجح الثائرون فى اسبانيا وتولوا الحكم فاننا عندئذ سنجد ثلاث حكومات فاشيه في البحر المتوسط هي اليونان وايطاليا واسبانيا

وتفشى الديكتاتورية الفاشية يغرى المستبدين عندنا بالوثوب على الحكم فلنحذرهم ولنهيىء الاسباب لحماية الدستور منهم

روسيا وألمانيا

كل شىء فى أوربا يسير من سىء الى أسوأ . فان الدول هناك تستعد للحرب كما لو كانت ستقع فى صباح الغد . وقد زادت ألمانيا جيشها فزادت روسيا جيشها أيضا . ويبدو لنا انه لابد من التصادم بين هاتين القوتين . واذا وقعت الحرب بينهما فانها ستكون حربا بين الفاشية والديمقراطية فى كافة أوربا

ويبدى المسيو ليون بلوم نشاطا عظيما فى جمع الدول الديمقراطية للوقوف فى وجه الدول الفاشية ولكنه على ماله من حظ كبير فى الذكاء والسياسة عاجز عن ايجاد كتلة أوربية ديمقراطيه

الريون والقطن

ان المصرى الذى يدرس الاحصاءات الزراعية والصناعية لا بد أن يصعق بالدهشة والألم عندما يعرف أن مصانع العالم أخرجت فى العام الماضى ١٫٠٨٨٫٠٠٠٫٠٠٠ رطل أى اكثر من ١١ مليون قنطار من أقمشة الريون المصنوعة من الخشب . فكأن هذه المادة التي كان يلعب بها الكيمائيون قبل أربعين سنة أصبحت تزاحم القطن فى العالم كله وتطارده . وهى توشك أن يبلغ انتاجها فى هذا العام ضعفى محصول القطن المصرى

واذا علمنا أن الانتاج فى الريون لم يكن فى العام الاسبق (١٩٣٤) سوى ٧٧٥٫١٢٠٫٠٠٠ رطل فان لزيادة من هذا المقدار الى مقدار العام الماضى تشبه الوثب ليس فيها تدرج أو تمهل . واذا استمر هذا الوثب من عام الى آخر فان الريون يمكنه أن يقهر القطن ويطرده من العالم طرداً قبل نحو عشر سنوات بل ربما طرده فى أقل من هذا الوقت . فان القطن لا يزيد فى العالم إلا زيادة طفيفة بل هو فى مصر وفى أقاليم أخرى يتناقص

وهذا الشعور بالقلق بل بالخوف الاكيد لمستقبل القطن أصبح يخامر جميع المشتغلين بالاقتصاديات الذين تتصل مصالح بلادهم ببقاء القطن . فقد يذكر القراء كيف أن أحد تجار القطن الهندى فى بومباى أعلن قبل أسابيع فى حديث له فى لفربول أن مستقبل القطن يدعو الى التشاؤم ، وأن الريون يطارده فى جميع الاقطار

هدية المشتركين

أهدت المجلة الجديدة الى مشتركيها كتاب الحياة الجديدة لمؤلفه الاستاذ نقولا يوسف الاديب المعروف . والكتاب يبلغ ٣٢٠ صفحة من قطع هذه المجلة . وهو تحفة فنية فى الادب والاجتماع وفن الحياة . والاستاذ نقولا يكتب باسلوب رقيق صريح فى موضوعات يرتفع اليها الذهن للاستماع السامى . ولسنا نشك فى أن قراءنا سيقدرون هذه الهدية قدرها وهى هدية لم تقدم مثلها أية مجلة أخرى فى تاريخ الصحافة فى مصر

اعتذار

نعتذر الى القراء عن هذا العدد الذى اضطررنا الى نقص صفحاته لاشتغال المطبعة بطبع كتاب الاستاذ نقولا يوسف

المعاهدة بين مصر و بريطانيا

١ — انتهى احتلال مصر عسكريا بواسطة قوات صاحب الجلالة الملك والامبراطور

٢ — يقوم من الآن فصاعدا بتمثيل صاحب الجلالة الملك والامبراطور لدى بلاط جلالة ملك مصر ويمثل صاحب الجلالة ملك مصر لدى بلاط سان جيمس سفراء معتمدون بالطرق المرعية

٣ — تنوى مصر أن تطلب الانضمام الي عضوية عصبة الأمم . وبما أن حكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة تعترف بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة فانها ستؤيد أي طلب تقدمه الحكومة المصرية لدخول عصبة الأمم بالشروط المنصوص عليها فى المادة الاولى من عهد العصبة

٤ — تعقد محالفة بين الطرفين المتعاقدين الغرض منها توطيد الصداقة والتفاهم الودى وحسن العلاقات بينهما

٥ — يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين بان لا يتخذ فى علاقاته مع البلاد الاجنبية موقفا يتعارض مع المحالفة وان لا يبرم معاهدات سياسية تتعارض مع أحكام المعاهدة الحالية

٦ — اذا افضى خلاف بين أحد الطرفين المتعاقدين ودولة أخرى الى حالة تنطوى على خطر قطع العلاقات مع تلك الدولة يتبادل الطرفان المتعاقدان الرأي لحل ذلك الخلاف بالوسائل السلمية طبقا لاحكام عهد عصبة الامم أو لاى تعهدات دولية أخرى تكون منطبقة على تلك الحالة

٧ — اذا اشتبك أحد الطرفين فى حرب بالرغم من أحكام المادة السادسة المتقدم ذكرها فان الطرف الآخر يقوم فى الحال بانجاده بصفته حليفا وذلك مع مراعاة احكام المادة العاشرة الاتى ذكرها وتقتصر معاونة صاحب الجلالة ملك مصر فى حالة الحرب أو خطر الحرب الداهم او قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها فى أن يقدم الى صاحب الجلالة الملك والامبراطور داخل حدود الاراضى المصرية مع مراعاة النظام المصرى للادارة والتشريع جميع التسهيلات والمساعدة التى فى وسعه بما فى ذلك استخدام موانئه ومطاراته وطرق المواصلات

وبناء على هذا فالحكومة المصرية هى التى لها أن تتخذ جميع الاجراءات الادارية والتشريعية بما فى ذلك إعلان الأحكام العرفية واقامة رقابة وافية على الأنباء لجعل هذه التسهيلات والمساعدة فعالة

٨ — بما أن قنال السويس الذى هو جزء لا يتجزأ من مصر هو فى نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات كما هو أيضاً طريق أساسى للمواصلات بين الاجزاء المختلفة للامبراطورية البريطانية فالى أن يحين الوقت الذي يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها ان يكفل بمفرده حرية الملاحة على القنال وسلامتها التامة يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن يضع فى الأراضى المصرية بجوار القنال بالمنطقة المحدودة فى ملحق

هذه المادة قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القنال . ويشمل ملحق هذه المادة تفاصيل الترتيبات الخاصة بتنفيذها. ولا يكون لوجود تلك القوات صفة الاحتلال بأى حال من الاحوال كما انه لا يخل بأي وجه من الوجوه بحقوق السيادة المصرية

ومن المتفق عليه انه اذا اختلف الطرفان المتعاقدان عند نهاية مدة العشرين السنة المحدودة فى المادة السادسة عشرة على مسألة ما إذا كان وجود القوات البريطانية لم يعد ضروريا لأن الجيش المصري أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القنال وسلامتها التامة فان هذا الخلاف يجوز عرضه على مجلس عصبة الأمم للفصل فيه طبقاً لأحكام عهد العصبة النافذ وقت توقيع هذه المعاهدة أو على أى شخص أو هيئة للفصل فيه طبقاً للاجراءات التى يتفق عليها الطرفان المتعاقدان

٩ — يحدد باتفاق خاص يبرم بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة ماتتمتع به من اعفاء وميزات فى المسائل القضائية والمالية قوات صاحب الجلالة الملك والامبراطور التى تكون موجودة بمصر طبقاً لأحكام هذه المعاهدة

١٠ — ليس فى أحكام هذه المادة مايمس أو مايقصد به أن يمس بأى حال من الاحوال الحقوق والالتزامات المترتبة أو التى تترتب لأحد الطرفين المتعاقدين أو عليه بمقتضى عهد عصبة الأمم أو ميثاق منع الحرب الموقع عليه بباريس فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٨

١١ - ١ - مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة فى المستقبل لتعديل اتفاقيتى ١٩ يناير و ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على ان ادارة السودان تستمر مستعدة من الاتفاقيتين المذكورتين ويواصل الحاكم العام بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى هاتين الاتفاقيتين والطرفان المتعاقدان متفقان على أن الغاية الاولى لادارتهما فى السودان يجب أن تكون رفاهية السودانيين

وليس فى نصوص هذه المادة أى مساس بمسألة السيادة على السودان

٢ - بناء على ذلك تبقى سلطة تعيين الموظفين فى السودان وترقيتهم مخولة للحاكم العام الذى يختار المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين عند التعيين فى الوظائف الجديدة التى لا يتوافر لها سودانيون أكفاء

٣ — يكون جنود بريطانيون وجنود مصريون تحت تصرف الحاكم العام للدفاع عن السودان فضلا عن الجنود السودانيين

٤ — تكون الهجرة المصرية الى السودان خالية من كل قيد إلا فيما يتعلق بالصحة والنظام العام

٥ — لا يكون هناك تمييز فى السودان بين الرعايا البريطانيين وبين الوطنيين المصريين فى شئون التجارة والمهاجرة أو فى الملكية

٦ — اتفق الطرفان المتعاقدان على الاحكام الواردة فى ملحق المادة فيما يتعلق بالطريقة التى تصير بها المعاهدات الدولية سارية فى السودان

١٢ — يعترف صاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن المسئولية عن أرواح الاجانب وأموالهم فى مصر هى من خصائص الحكومة المصرية دون سواها وهى التى تتولى تنفيذ واجباتها فى هذا الصدد

١٣ — يعترف صاحب الجلالة المليك والامبراطور بأن نظام الامتيازات القائم الآن لم يعد يلائم روح العصر ولا حالة مصر الحاضرة

ويرغب صاحب الجلالة ملك مصر فى الغاء هذا النظام دون ابطاء

وقد اتفق الطرفان المتعاقدان على الترتيبات الواردة بهذا الخصوص فى ملحق هذه المادة

١٤ — تلغى المعاهدة الحالية جميع الاتفاقات أو الوثائق القائمة التى يكون استمرار بقائها منافياً لاحكام هذه المعاهدة ويجب أن يعد باتفاق الطرفين إذا طلب أحدهما ذلك بيان بالاتفاقات والوثائق الملغاة وذلك فى مدى ستة أشهر من نفاذ هذه المعاهدة

١٥ — اتفق الطرفان المتعاقدان على أن أى خلاف ينشأ بينهما بصدد تطبيق الحالية أو تفسيرها ولا يتسنى لهما تسويته بالمفاوضات بينهما مباشرة يعالج بمقتضى أحكام عهد عصبة الامم

١٦ — يدخل الطرفان المتعاقدان فى مفاوضات بناء على طلب أي منهما فى أى وقت بعد انقضاء مدة عشرين سنة على تنفيذ هذه المعاهدة وذلك بقصد اعادة النظر بالاتفاق بينهما فى نصوص المعاهدة بما يلائم الظروف السائدة حينذاك .

فاذا لم يستطع الطرفان المتعاقدان الاتفاق على نصوص المعاهدة التى أعيد نظرها يحال الخلاف إلى مجلس عصبة الامم للفصل فيه طبقاً لاحكام عهد العصبة النافذ وقت توقيع هذه المعاهدة أو إلى أى شخص أو هيئة للفصل فيه طبقاً للاجراءات التى يتفق عليها الطرفان المتعاقدان

ومن المتفق عليه أن أي تفسير فى المعاهدة عند اعادة نظرها يكفل استمرار التحالف بين الطرفين المتعاقدين طبقا للمباديء التى تنطوي عليها المواد ٤ و٥ و٦ و٧

ومع ذلك ففي أي وقت بعد انقضاء مدة عشر سنوات على تنفيذ المعاهدة يمكن الدخول فى مفاوضات برضا الطرفين المتعاقدين بقصد اعادة النظر فيها كما سبق بيانه

١٧ — يصدق على المعاهدة الحالية ويتبادل التصديق عليها فى القاهره فى أقرب وقت ممكن ويبدأ تنفيذها من تاريخ تبادل التصديق عليها وعندئذ تسجل لدى السكرتير العام لعصبة الامم

واقرارا بما تقدم وقع المفوضون السابق ذكرهم على هذه المعاهدة ووضعوا اختامهم عليها

ولز يؤبن نفسه

طلبت احدي المجلات من المستر ولز أن يؤبن نفسه فكتب هذا التأبين التالي:

____

إن اسم هـ . ج . ولز الذى مات بالامس بالسكتة القلبية فى ملجأ بادنجتون قد لا يثير شيئاً من الذكريات فى نفوس الشبان من الجيل الحديث . ولكن أولئك الكهول الذين يستطيعون أن يرجعوا بذاكرتهم إلى حلقات السنين الاولى من القرن الحالى ، والذين ساهموا فى قراءة ثمرات المطابع المختلفة فى تلك الفترة ، قد يذكرون بعض عنوانات الكتب التى ألفها ولز . بل ربما استطاعوا أن يعثروا على مجلد أو مجلدين من مؤلفاته فى مكان مهجور على سطح منزل قديم



هـ . ج . ولز

لقد كان ولز حقاً من أخصب الكتاب المأجورين وأكثرهم انتاجا . وهو لم يؤلف الكتب بنفسه فقط . ولكن هناك دراسات نقدية بل مجلدات موجزة كتبت عنه . حتى لقد بلغ عدد الكتب المندرجة تحت اسمه فى فهرس ذلك الضريح الادبى الفخم — أعنى قاعة المطالعة بالمتحف البريطانى بلندن . التى لا يؤمها الآن أحد من القراء — نحو سمائة كتاب

وقبل خمس سنوات أذاعت محطة لندن دراسة شائقة عن ولز للآنسة فيلبس ليمون . ومنذ ذلك الوقت لم يحدث ما يمكن أن يغير رأيها فيه . فهى تصفه بأنه شيء بين رمز للتشاؤم ورائد للمستقبل

وقد كتب ولز سيرة حياته فى صراحة ووضوح وطبعها فى سنة ١٩٣٤ . ثم أضاف اليها ملحقا لم يطبع أبداً . غير أن الراغب فى الاستقصاء يمكنه أن يطلع عليه بين مجموعة المخطوطات المحفوظة فى المتحف البريطاني . وهذه الوثائق تدل على أن أصله من عامة الشعب وانه من حيث المكانة الاجتماعية يمكنه أن يتتبع أسماء أجداده حتى القرن الثامن عشر . فهو ينتسب إلي طبقة المزارعين

من الانجليز . وقد ولد فى سنة ١٨٦٦ وكان أبوه فى الأصل بستانيا ثم اشتغل بالتجارة فى حانوت صغير واحترف لعبة الكريكيت . وأما أمه فكانت ابنة فندقى . واشتغلت وصيفة قبل زواجها ثم مدبرة منزل بعد الزواج

ولعل أعظم مايثير الاهتمام من شئون ولز هو عدم تسليمه بالمكانه الاجتماعية التى يظهر أنه ولد فيها واصراره على أن يكون مراطنا حراً فى ذلك العالم الجديد الذى تكشفت عنه الحروب الطاحنة التى دارت بين القوميات المتطرفة فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

وكانت لدى ولز قدرة عجيبة على أن يتشمم المستقبل كما يتشمم الكلب الطريق . وكان ديموقراطيا حراً . بمعنى انه كان يطالب بحقه المطلق فى حرية التفكير وحرية النقد والبحث والارتياء . وكان اشتراكيا بعدائه الذي لاشك فيه لجميع ضروب الالتزام سواء أكان فرديا أم قوميا أم سلاليا

وكان ولز يزهى بمقارنة نفسه بروجر بيكون . فقد حاول أن يضع ترسيما شاملا لدائرة المعارف العالمية الراهنة بتأليفه « خلاصة التاريخ » وهو كتاب لايذكره أحد الآن و « عمل الانسان وثروته وسعادته » و « تشريح الخيبة » واشتراكه فى تأليف كتاب « علم الحياة » وما زالت تلك المحاولات منظوراً اليها بعين الاكبار والاجلال لما اتصفت به من جراءة التفكير وسمو الغاية. وذلك على الرغم من أن ما اضطر اليه ولز من العجلة والاختصار والاهوجة فى تلك الكتب يجعلها غير جديرة بأن تعد مساهمة جدية فى التثقيف العام

كتب ولز مقالات كثيرة جداً فى الشئون العامة . وكانت قصصه أكثر من مقالاته .فقد ألف كثيرا من القصص العلمية الخيالية التى فقدت ماكان لها من جدة وطرافة قبل زمن طويل بسبب تقدم العلوم وازدياد المعارف العامة . ثم أنه كتب روايات ليس فيها تلك الدقة فى وصف الظروف وسرد الحوادث التى لروايات معاصريه « جالزورثى » و «أرنولت بنت» وقيمتها التاريخية . فضلا عن خلو رواياته من تلك الصراحة الجريئة التى خلعت صفة الخلود على أمثال رواية « أشندن » للروائي « موجهام » وعلى كثير من روايات الكتاب الامريكيين الشبان الذين عاصروه

كان ولز قبل كل شىء من رجال الذهن .فى نفسه كراهة غريزية للتحمس والحدة والنعرات الوطنية والتحزب والتعصب وسيطرة العواطف على شئون الحياة . وهو عند مايعالج العاطفة فى مؤلفاته يكون معرضا لان يكتب فى غير نزاهة واخلاص

وكان اذا احتـد وثارت نفسه لا يعدو أن يغضب غضبا هادئا كلما وقعت عينه على أولئك المزهوين بصفاتهم الذهنية أو الخلقية

هل يعتبر ولز كاتبا فـكها ؟ لقد ثار الجدل حول هذه المسألة فى تلك المحاولات الاولى التى أريد بها أن يكون للفلم السينمائى معنى وقصد معين . وهو يقول انه لايطيق التنظيم فقد كان هو السبب الاول فى ضياع جهوده السينمائية . فان أولئك المنظمين الذين يقصون أجزاء الفلم الغير المرغوب فيها يقضون القضاء الاخير على البقية الضئيلة من الآراء التي يكون المخرج قد غفل عن القضاء عليها . ولـكن من يدرى . لعل المنظمين كانوا أعرف من ولز بما يتطلبه الفـلم من شروط النجاح

وقد جرح ولز جرحا بالغا فى عراك نشب مع بعض الغوغاء من الفاشيين على أثر نوبة مفاجئة من النقمة عليه فى سنة ١٩٣٨ ثم أخذت صحته تنحط بعد ذلك على أثر اعتقاله فى مركز المبعدين أيام الدكتاتورية السيوعية سنة ١٩٤٢

ومنذ ذلك الوقت فارقته تلك الحيوية التي كانت يوما ما زاخرة فياضة . فلم تعد له أى مشاركة فيما شاهدناه فى السنين العشر الماضية من نهضة رائعة قويه فى ميادين الفـكر والاجتماع وذلك على الرغم من أن تلك النهضه قد ترسمت خطاه الى حد كبير جدا . وهكذا أصبح ولز رجلا منسيـا بعد أن كان من رواد الفـكر المبرزين . وفى سنه ١٩٥٥ منحته الحـكومه معاشا صغيرا لـكى يتمكن من سد نفقاته الضرورية . وكان يقيم فى منزل صغير قريب من ريجنت بارك . وكثيرا ما كان يرى فى الحدائق المجاورة وقد تقوس ظهره وأصبح جسمه هزيلا ضئيلا مترهلا . وكان كثيرا مايرى فى الحدائق المجاورة قاعداً يتأمل فى تـكاسل تلك القوارب التي تسبح فى البحيرة والازهار القريبه ، او متنقلا هنا وهناك متكئاً على عصاً متعثراً فى مشيته البطيئة . وهو يسعل او يكلم نفسه قائلا « سيأتى اليوم الذى اكتب فيه كتابا ، كتابا بمعنى الـكلمه . » وقد احسنت الآنسه فيلبس ليمون عند ما قارنته بحيوان المرجان الذى يتفرع ويبنى الجزر بالصخر الذى تفرزه اجسامه . لقد كان ولز طالما اكثر منه فنانا . وذلك على الرغم من أنه اتخذ الاسلوب الادبى وسيلة للتعبير عن آرائه

ولا يكاد يكون لولز اى اثر الآن . ومع ذلك فلولاه هو وامثاله لما كان الصخر الذى تبنى عليه حضارتنا القائمة

الدورة الشهرية ونظرية التطور

للاستاذ رمسيس شحاته

لقد ترددت كثيراً فى كتابة هذه المقالة حتى كدت أقلع عن كتابتها نهائيا. ترددت فى أول الأمر من حيث الشكل. وكان هيكل الموضوع قد استقام لى من قبل. وقد كان ترددي فى الشكل مع اننى لا أقيم له اعتبارا كبيرا لأننى خشيت أن ينزل التبسيط والايضاح إلى حد الابتذال والمجانة

ثم ترددت بعد ذلك فى الموضوع أيضا لأننى خفت أن يبدو عديم الفائدة فى أعين القراء لو قصرت الكلام على الناحية العلمية مهملا ما عداها من النواحى الأخرى. وتبينت عندئذ أن الموضوع لابد وان يظهر كعروس ليس لها روح أو كصورة فنية اختلطت أجزاؤها ففقدت معناها. وزاد حيرتى وترددى أننى لم أجرؤ على معالجة الأمر من الناحية العملية فقط أو الافاضة فى الكلام عنها لأن ذلك يقودنا قسرا إلى مشكلة تحديد النسل وهى مشكلة شائكة كثيراً ما تحطمت عليها جهود الباحثين دون أن تنتج أثرا إلا اثارة نقاش عقيم وجدل أقرب ما يكون إلى السفسطة مما لا فائدة منه أو طائل تحته

وكادت كل هذه النوازع تثنينى عن عزمى وتقعدنى عن الكتابة لولا أن هناك دوافع قوية وأسبابا قوية لها من الأهمية فى نظري ما ليس لأى تلك النوازع وخصوصا وقد ظهر لى أن قليلا من الحكمة يمكننا من تجنب الزلل فى أغلب المواضع

أهم هذه الدوافع والأسباب هو ذلك الجهل السائد بين عامة الناس من هذه الناحية اذ لم أر وظيفة من الوظائف العضوية قد تخبط الناس فى فهمها وتقدير الغاية منها كالوظيفة العضوية التى سنتكلم عنها فيما يلى:

نزعم أن ذلك الفهم سهل ميسور فوق انه أداة قوية لحل كثير من المشكلات المعقدة التى كثيرا ما تحطمت عليها السعادة العائلية

وإلى ما تقدم فان موضوع تحديد النسل ولو أنه موضوع معقد ملتو قد خرج أو كاد يخرج نهائيا من حيز الموضوعات الاجتماعية الدينية إلى حيز الاختصاصات الفنية والمسائل العلمية. إنه وإن كان من الصعب أن يظفر منى القارىء برأى واضح فى جواز التحكم فى النسل أو عدمه وذلك لا لشىء إلا لأنى أربأ بنفسى عن أن أزجها فى ميدان كهذا أعتقد أشد الاعتقاد أن البحث فيه أمر

لاقيمة له ولا فائدة منه إذ هو يدخل فى حدود الأمور الشخصية البحتة،أقول ان الاحجام المتقدم لايمنعنى ان أقول بأن العلم يضع تحت أيدينا حقائق كثيرة جديرة بالتأمل وقمينة بتحقيق أكبر الفائدة . وهذه الحقائق هى التى نود أن نستعرضها فيما يلى ونحن نستعرضها كحقائق علمية رجاء أن نرى مايمكن أن يكون لها من تطبيق عملى فيما يلى . وطبيعى أن القاريء بعد ذلك حرفى الحكم على قيمة هذه التطبيقات وجواز استخدامها أو تحريمها فهذه مسألة لا نتعرض لها ولا نود أبدا أن نتعرض لها اعتقاداً منا أنها كما قدمنا أمر شخصى محض

* * *

وأبسط تعريف للمادة الشهرية هو التعريف الآتى : — « هى مجموعة الأعمال الفسيولوجية التى تتم فى الرحم لاعداده لحمل الجنين وهى تتكرر كل ثمانية وعشرين يوما أى كل شهر قمرى »

وهذا الاعداد ينحصر فى سقوط الغشاء المخاطى الرحمى كله أو بعض كمية من الدم وهى الناشئة عن النزف الذى يصحب تمزيق الغشاء الآنف الذكر. وليس تمزيق الغشاء المخاطى هو الغاية فليس هو إلا وسيلة كما سنرى ذلك فيما يلى لاعداد الرحم لحمل الجنين

نرى مما تقدم أن العوارض التى ترافق عملية الدورة الشهرية تنحصر فى تمزيق الغشاء المخاطى الرحمى ونزوله على مايصحب ذلك من نزف وآلام وقتية وليس هذا هو كل ما يحدث فهناك أعمال داخلية أخرى أكثر أهمية من هذه الظواهر العرضية

وربما تساءل القارىء لماذا يحتاج الرحم إلى عملية الاعداد هذه كل شهر قمري . وما هو السر فى عدم استعداد الرحم فى كل وقت وما هى أسباب ذلك . ونجيب على هذا بأن نقول ان الغاية الحقيقية من العادة الشهرية ليست فى الواقع تمزيق الغشاء المخاطى الرحمى انما انزال البويضة التى فيه وطردها الى الخارج وهى لم تعد قابلة للاخصاب وذلك لاخلاء محلها لاحلال بويضة أخري جديدة تكون قابلة لذلك. فعملية الاعداد اذن ليست الغاية منها انزال الغشاء المخاطى الرحمى، وان كان لذلك أهميته انما الغاية الكبرى هى طرد البويضة التى أصبحت غير قابلة للاخصاب واعداد الرحم لاستقبال بويضة أخرى رجاء اعداده لحمل الجنين إذا تم التلقيح ثم الاخصاب

نرى اذن ان المحرك الأول والدافع الاساسى للعادة الشهرية هو التغيرات التى تطرأ على البويضة اذا ماتت احتاج الجسم إلى التخلص منها واعداد المحل لبويضة أخرى حية . وحركة البويضات هذه هى فى الواقع السبب فيما يلاحظ من اشتداد فى العاطفة الجنسية فى أوقات العادة الشهرية . وما يصحب ذلك من تغيرات فى أجزاء الجسم الاخرى المتصلة عن قرب أو عن بعد بالاعضاء التناسلية وعلى ذلك فدورة البويضة هى المحرك الاساسى كما قدمنا فى كل ما تترتب منه الدورة الشهرية

ولقد بينت الابحاث الحديثة ان لهذه الدورة أطوارا معينة وانه من الممكن تقسيمها الى مدد متعاقبة لكل مدة منها طابع خاص

وتستغرق هذه الدورة ايضا مدة ثمانية وعشرين يوما كما قدمنا لأن الدورة الشهرية متوقفة أشد التوقف على دورة البويضة نفسها وهى خاضعة لها ومقيدة بها من حيث الوقت والظروف الاخرى ونعنى مما تقدم أن نزول البويضة من المبيض لا يتم الا فى فترات تفصل كل فترتين منهما ثمانية وعشرون يوما. فاذا كان نزول البويضة الاولى فى الاول من شهر قمرى تعاقب نزول البويضات الاخرى فى مثل هذا التاريخ من كل شهر قمرى . ويجب لنزول البويضة الى الرحم أن يكون هذا الاخير على استعداد لاستقبالها . وهو يستعد لهذا الاستقبال كما سبق أن وضحنا ذلك بطرد البويضة الموجودة فيه مع مايصحب ذلك من تمزيق الغشاء المخاطى الرحمى ونزوله مع النزف المسبب عنه

ونستنتج مما تقدم ان هناك دورتين فى الواقع لا دورة واحدة . الدورة الداخلية وهى دورة استعداد الرحم لاستقبال البويضة الاتية من المبيض . وواضح ان العلاقه بين الدورتين متينة جدا تجعلنا فى حل من ربطهما ببعض وجعلهما دورة واحدة . فالدورة الخارجية مبنية ومقيدة بالدورة الداخلية ومرتبطة بها أشد الارتباط . ومع هذا الارتباط الوثيق نلاحظ ان بين الدورتين تفاوتا فى الزمن وهذا فى الواقع طبيعى جدا اذ لابد من القيام بعمليات الاستعداد قبل قدوم الضيف وحلوله بدار الاستقبال . وقد وجد بالبحث أن هذا التفاوت فى الزمن يقرب من ستة عشر يوما فعلى ذلك نرى اننا نستطيع أن نوضح الدورة الشهرية على الصوره الآتية : —

« هب أن النزف وخروج البويضة الميتة وتكون هذا المجموع مانعبر عنه بالدورة الخارجية قد تم فى الاول من شهر قمرى فان نزول البويضة الجديدة وهى الضيف المنتظر إلى الرحم لايتم إلا بعد ١٦ يوما كاملا . وتظل هذه البويضة من الرحم المدة الباقيـة من الدورة الشهريه أى ١٢ يوما أخرى تطرد بعدها إلى خارج الرحم اذا لم يتم اخصابها . وتبدأ بذلك الدورة الشهرية الثانية فيتكرر حدوث النزف ونزول الغشاء المخاطى الرحمى وهلم جرا »

وعلى ذلك فحياة البويضة فى الرحم قصيرة جدا لاتتجاوز كما يرى القارىء الاثنى عشر يوما وليست هذه المدة كلها على قصرها مدة حياة ونشاط للبويضة إذ انها تفقد نشاطها وحياتها وقبولها للاخصاب قبل نزولها باسبوع

ويتضح إذن أن المدة التى تكون فيها البويضة قابلة للاخصاب أي محتفظة بحياتها ونشاطها لاتتعدى خمسة أيام . وبمراجعة التحديدات السابقة الذكر نرى أن الخمسة الايام هذه تقع فى الدورة شهرية بحيث تبدأ قبل انتهاء الدورة الخارجية أي نزول الغشاء المخاطى الرحمى باثنى عشر يوما وتنتهى قبل بدأ الدورة الخارجية التالية باسبوع

* * *

وقد ظلت الظواهر السابقة بدون تفسير ممكن إلى أن ظهرت نظرية التطور . فكان العلماء يكتفون من قبل بملاحظة انتظامها واعتباره كأمر واقع وكبقية الظواهر الحيوية الأخرى التى لم يكن سبيل إلى تفسيرها

وقد فسر لنا تقدم الأبحاث الغرض من هذه الدورة والغاية منها كما أوضح لنا الفترات المختلفة والأدوار المتعاقبة التى تحدث فى اثنائها. ولكن بقى أن نفسر السر فى انتظامها ولماذا يتعاقب حدوثها كل شهر قمرى . ومن الواقع نحن لانستطيع إلى الآن أن نقدم تفسيرا قاطعا لذلك وكل مانملكه هو تعليل وجيه على جانب كبير من الصحة ولكن ليس من سبيل إلى الجزم به فهو على ذلك تعليل اجتهادى لا أكثر ولا أقل

وقد هيأت نظرية التطور التعليل المتقدم . فحسب هذه النظرية تسلسل الأنسان عن نوع من القردة العليا والمفروض أن هذه القردة كانت تسكن الغابات وكانت ظروف الحياة والوجود فى تلك البيئة لاتسمح باختلاط الجنسين إلا فى الليالى المقمرة حيث كان يتم ذلك على صورة الغزو « وقد اوضح ويلز ذلك بجلاء فى قصته العصر الحجرى فى كتابه قصص الزمان والمكان » ولما كان القصد من عملية الدورة الشهرية هو اعداد الرحم وبالتالى الانثى لعملية تجديد النسل كان لابد لحدوث هذه العملية قبل كل ميعاد تتوقع فيه الانثى الاختلاط بالذكر . ولما كان الاختلاط يحدث فى فترات منتظمة معينة بحكم الضرورة انتظمت عملية الدورة الشهرية وتقيدت بذلك . ولابد أن الحالة قد ظلت على هذا المنوال مدة طويلة بحيث نشأ عن ذلك شيء يشبه التعود أولا ثم انتهى به الأمر ان أصبح طبيعة . وهكذا تمكنت الدورة الشهرية وتغلغل انتظامها فى الطبيعة البشرية حتى فقدت طابعها الأول كعادة تتحكم فيها الظروف واصبحت عملية حتمية يجب أن نتقيد بها

ويلاحظ القاريء أن التفسير الذى نقدمه للدورة الشهرية ليس كما سبق أن ذكرنا تفسيرا قاطعا انما هو الواقع تفسير اجتهادى ليس من الممكن اثباته بالبرهان القاطع فمن ادرانا أن الأمر كان على نحو ماصورنا فى تلك العصور الحجرية الأولى . ومن منا يستطيع أن يؤكد أن الحال كان على نحو ما أوردنا بين قبائل الأنسان البدائى ولو أننا نرجح ذلك ترجيحا كبيرا

ومهما يكن من أمر التفسير المتقدم فانه يضع ايدينا على حقيقة جوهرية جديرة بالتأمل وهى أن الأساس فى كل الدورة الشهرية هو محاولة ضمان حفظ النوع وتوالده وذلك بواسطة تحقيق عملية الاخصاب ونحن اذ نؤكد ذلك لانأتى بجديد فقد سبق أن أشرنا إلي أن النتيجة المباشرة للدورة الشهرية هى اعداد الرحم لاستقبال بويضة جديدة حية بعد طرد البويضة المائتة التى فيه ومن البديهى

أن الغايه من ذلك هو تسهيل عملية الاخصاب

* * *

ويقودنا ذكر الاخصاب إلى الكلام عن كيفية حدوثه والشروط الاساسية لذلك. وهذا الكلام وإن كان خارجا عن موضوع الدورة الشهرية نفسها فانه شديد الاتصال بها وثيق العلاقة على النحو الذى بيناه

والاخصاب هو الخطوة التى تلى التلقيح. وعملية التلقيح هذه تنحصر فى وضع الحيوانات المنوية بحيث تستطيع الوصول إلى البويضة. وتستطيع ذلك بفضل حركتها الذاتية فوق انزلاقها فى السائل البروستاتى الذى يلازمها ويقذف معها

أما عملية الاخصاب وتلى عملية التلقيح فتنحصر فى اندماج احد الحيوانات المنوية بالبويضة. وهذه هى الخطوة الأولى فى تكوين الجنين الذى يتحول بعد المرور فى الأطوار المختلفة التى مر بها الجنس البشرى إلى مخلوق على صورة والديه

وليس الاخصاب ممكنا مهما تعددت محاولاتنا أو مهما تعمد المتعمدون تغير الحقائق أو مهما خدعتنا الظواهر بغير اندماج حيوان منوي حى ببويضة حيه. ويحدث هذا الاندماج باقتراب الحيوان المنوى من البويضة أولا مدفوعا بحركته الذاتية ثم اختراقه الغشاء الخارجى المحيط بالبويضه ودخول رأسه بها ثم اندماج هذا الرأس اندماجا كليا بالبويضه بحيث لايكونان إلا كائنا واحدا ويسهل عملية الاندماج هذه مابين الحيوان المنوى والبويضة من تجاوب طبيعى فهما أشبه شيء بقطبي مغناطيس من حيث تجاذبهما إلى بعض

وبتمام عملية الاخصاب هذه يتعين تكوين الجنين وما ينشأ عن ذلك من عوارض مختلفة تطلق على مجموعها اسم الحمل. وبتحقيق عملية الحمل تتحقق الغاية من الدورة الشهرية ويلاحظ عندئذ اختفاؤها إلي أن يتم تكوين الجنين وولادته أى خروجه من الرحم وهذا الاختفاء الوقتى أمر طبيعى جدا فان حدوث الدورة الشهرية بعد اخصاب البويضه يترتب عليه طرد هذه البويضة المخصبة إلى خارج الرحم مما يسبب موت الجنين الأمر الذي يعرف بالاجهاض. وتكون إذن عملية الدورة الشهرية عملية لاطائل تحتها كساقية جحا دائمة الدوران

* * *

ويقودنا ماتقدم من الحقائق إلى التأمل قليلا فيما يمكن أن يكون لها من تطبيق وفى الأوجه المختلفة لاستعمالها. وأحب أن يتأكد للقارىء قبل الخوض فى غمار هذا الموضوع انى لاأعرض عليه رأيا فى جواز تحديد النسل والتحكم فيه أو عدمه انما استعرض أمامه حقائق علمية ثم مايمكن أن

يكون لها من تطبيق وهو حر بعد ذلك فى استعمال هذه التطبيقات أو اهمالها فالقصد الأساسى هو معرفتها والاحاطة بها علما

أول تطبيق عملى لما تقدم من الحقائق يتعلق بالمعلومات التى قدمتها لنا الأبحاث الحديثة عن العادة الشهريه نفسها وأدوارها . ومن هذه الابحاث نرى أن البويضه لاتكون مستعدة للاخصاب إلا فى فترة معينة وعلى ذلك يتضح أنه إذا كنا نريد تحقيق هذه العملية فعلينا اذن أن نراعى هذا القيد وأن نتحين أنسب الفرص لذلك . ولايضاح ماتقدم نقول أنه من حيث أن عملية الاخصاب لاتحدث إلا باتصال الحيوانات المنوية الحية بالبويضة الحية فالواجب علينا إذا كنا نطمع فى ذلك أن نحقق هذا الشرط. أما من حيث ضمان حياة وتمام نمو الحيوانات المنوية فهذا أمر لانستطيع التحكم فيه بأنفسنا ولكن القاعدة العامة بين الناس هى أن الحيوانات المنوية التى تقذف وقت التلقيح هى حيوانات منوية حية تامة النمو إلا إذا كان هناك من الدواعى المرضية مايغير ذلك وهذا مالا يتسع المجال لبحثه الآن . فاذا سلمنا أن الحيوان المنوى المقذوف حى كامل النمو . وجب علينا أن نتأكد أيضاً أن البويضة فى حالة مماثلة حتى يمكن أن تحدث عملية الاخصاب . وتوضح الحقائق التى ذكرناها فيما تقدم عن الدورة الشهرية هذه المسألة بجلاء فالبويضة لاتكون موجودة فى الرحم فى الستة عشر يوما التى تتبع الدورة الخارجية كما انها تموت قبل حدوث الدورة الخارجية الثانية باسبوع . أي أن مدة حياتها فى الرحم حيث يمكن إخصابها محصورة بين اليوم السادس عشر بعد الدورة الخارجية واليوم الواحد والعشرين بعد نفس الدورة الخارجية . وعلى ذلك يجب إذا كنا نريد تحقيق عملية الاخصاب أن نباشر عملية التلقيح بحيوانات منوية حية تامة فى هذه الفترة أي مابين اليوم السادس عشر واليوم الواحد والعشرين بعد الدورة الخارجية السابقة . ولكننا نضيف إلى ماتقدم ملاحظة لها أهميتها وهى أن الحيوانات المنوية الصحيحة تستطيع أن تعيش فى داخل الرحم مدة أقصاها خمسة أيام وهى على ذلك تستطيع الانتظار فى داخل الرحم طول هذه المدة حتى تنزل البويضه إلى الرحم مما يجعل التلقيح مخصباً فى مدة أطول أى فى الفترة بين اليوم الحادى عشر واليوم الواحد والعشرين التاليتين للدورة الخارجية السابقة .

نستخلص مما تقدم اننا إذا كنا نرغب فى النسل فعلينا أن نسعى إلى تحقيق عملية الاخصاب بمراعاة القيود المتقدمة وتنحصر فى أن التلقيح لايكون مخصباً إلا فى فترة معينة علينا أن نتقيد بها خوق مايجب أن نتقيد به من القيود الاخرى لضمان حياة وتمام نمو كل البويضة والحيوانات المنوية وأهم هذه الضمانات وإن كان من بينها مالا سبيل لنا إلى التحكم فيه هو الا نعمد إلى قتل أى الطرفين باستعمال المواد الكيماوية كالمطهرات مثلا وأشهرها أملاح الزئبق . كما يجب أن نتجنب منع اتصالهما

بوضع الحواجز والموانع فى طريقهما مما هو شائع من أدوات الكوتشوك وغيرها. وهناك احتياط آخر ويتعلق بالحيوانات المنوية فقد لوحظ أنها تفقد كثيراً من نشاطها فى الحركة واتجاه جذبها نحو البويضة إذا تعاطى الانسان من الكحول قدراً كافياً إذ تظهر الحيوانات المنوية عندئذ كأنها سكرى هى الأخرى.

فيما تقدم مجمل التطبيقات التى نستطيع تحقيقها فيما لو أردنا النسل وهى جديرة بأن تثبت مالها من قيمة

ولكن هب أيها القارىء انى من حزب اليسار وأن لى فى الحياة رأياً خاصاً. هب مثلا اننى لأمر ما لا أريد نسلا ولا أطمع فى ذرية صالحة أو غير صالحة أو أن لدى منها الكفاية وما يزيد.

أو هب انى متطير على نحو أبى العلاء المعرى زاهد فى هذه الحياة الدنيا راغب عن بهجتها شقى أتمنى على الله أن لا يزيد عدد الأشقياء واحداً. بل هب انى على أسوأ الفروض رجل شهوانى — لا قدر الله — أريد الحب للحب فقط فهل يستطيع الطب أن يسعفنى بعلاج لدائى؟

انبه القارىء مرة أخرى انى لا أتعرض الآن لسكوتى هذا من الناحية الدينية أو الاخلاقية أو الاجتماعيه بل ولا حتى من الناحية الفلسفية انما أعالج الموضوع من الوجهة الثقافية فقط لوجه العلم ولوجه الثقافة الفنية لا غير.

وأقول اننى إذا كنت من هذه الفئة فالطب يستطيع أسعافى اسعافا محققاً وله إلى ذلك أكثر من سبيل سنستعرضها فيما يلى:

أول مايتبادر إلى الذهن الخالى هو أن نترك الحبل على غاربه حتى إذا ماتحقق الاخصاب لجأنا الى عملية الاجهاض وهذه جناية أثيمة يعاقب القانون مرتكبيها أشد العقوبات حتى ولو كانوا من الأطباء إذ لا يجب أن يلجأ اليها إلا عند الضرورة القصوي لانقاذ حياة الأم مثلا. وفوق ماتقدم فعملية الاجهاض عملية لا تخلو من خطر محقق على حياة الأم مما قد يؤدى إلى موتها.

والاسعاف الذى يلى الاجهاض فى التبادر الى الذهن هو الامتناع بتاتاً ومقاطعة الحب كلية. وهذا تقشف لا مبرر له فى أغلب الأحيان فوق أنه جدير بأن يسبب من المشاكل الاجتماعية والاخلاقية أكبرها ويجدر بنا أن نلاحظ الحقيقة الآتية وهى أن الطبيعة قد ميزت الانسان وما يقرب منه من الحيوانات من فصائل القدرة التناسلية فجعلت الحب بينهم حراً لا تقيده قيود الزمن أو التناسل كما فى الحيوانات الاخري. فالجاموس والبقر مثلا لا يلجأ إلى الحب إلا فى فترة معينة من الزمن يكون الاخصاب فيها محققاً أما فى غير هذه الفترة فالحب مستحيل لأن غايته مقصورة على التناسل. ولكن الحب ممكن بالنسبة للنوع البشرى فى أى وقت وأى ظرف والغاية منه

ليست مقصورة على التناسل ولكنها تتعداها إلى غيرها من الغايات مما لا نريد الخوض فيه الآن. وهذه الحقيقة جديرة بالتأمل والتمعن لأن اهمالها كثيراً مايسبب لنا من المصاعب الشيء الكثير وان كنا لانتبين ذلك فى أغلب الأحيان.

أما العلاج الثالث فهو قتل أي الطرفين. إما الحيوانات المنوية وإما البويضات ووسائل ذلك متعددة منها التعقيم الجراحى أو التعقيم الطبي ولهذه العملية أخطار لاسبيل إلى إنكارها لان الغدد التناسلية تشترك فى عملية الدفاع عن الجسم ضد الميكروبات والحالات المرضية اشتراكا فعلياً وهى تساهم فى هذه العملية بسهم وافر ومن الجور إذن الالتجاء اليها رجاء ضمان كالذى نشده. ولكن للقتل وسيلة أخرى ليست عامة كالتعقيم ولكنها وقتية وهى استعمال المطهرات وذلك بأن نجعلها تعترض سير أى الطرفين أو نجعلها تصل اليه قبل وصول الطرف الآخر إليه. وأشهر هذه المطهرات هو مرهم الكالوميل وهو مرهم مستحضر من أملاح الزئبق ويستعمل كوقاية من الأمراض السرية فاذا وضع جزء من هذا المرهم فى طريق الحيوانات المنوية مثلا قتلتها باختلاطه بها قبل وصولها إلى البويضة. ومن الممكن إستعماله لقتل البويضة بدل الحيوانات المنوية على أن المبالغة فى استعمال هذه المطهرات قد يؤدي إلى ضرر محقق إذا أسيء استعمالها.

بقى بعد ذلك طريق آخر وهو منع الحيوانات المنوية من الوصول إلى البويضة ولهذا المنع طريقتان الأولى وهى أن نتحين الفرص التى لاتكون البويضة الحية فيها موجودة بالرحم مع مراعاة المدة التى يستطيع أن يعيشها الحيوان المنوى داخل الرحم وأقصاها خمسة أيام كما قدمنا فنجد أن هذه الفترة التى لايمكن أن يحدث فيها الاخصاب تحدث مرتين المرة الأولى فى الفترة التالية للدورة الخارجية مباشرة وتستمر أحد عشر يوماً تكون البويضة فيها لم تصل بعد إلى الرحم والمرة الثانية فى الفترة التى تسبق الدورة الخارجية مباشرة وتستمر أسبوعا وتكون البويضة فى أثنائها فى داخل الرحم ولكنها قد ماتت وفقدت قابليتها للاخصاب.

أما الطريقة الثانية للحيلولة بين الحيوان المنوى والبويضة فتتلخص فى وضع حاجز مادى يمنع إتصالها المباشر وذلك باستعمال أدوات المطاط مثلا أو وضع قطعة من القطن المعقم المشرب بمطهر خفيف على مقربة من عنق الرحم هذا إذا أمكن تحملها.

ولا شك أن أفضل الطرق للتحكم فى عملية الاخصاب وبالتالى التحكم فى النسل هما الطريقتين الاخيرتين وعلى الأخص طريقة تحيين فرصة غياب البويضة عن الرحم أو فرصة عدم قبولها للاخصاب لاسيما وأن هذه الفترات تناظر فترات نشاط جنسى واضح

الجنرال يعقوب واستقلال مصر

بقلم لجنة التاريخ القبطى

نبغ من المصريين فى القرن الثامن عشر رجل قبطى من سلالة الشعب المصري القديم استحق أن يخصص له التاريخ صفحة مجيدة من صفحاته وهو يعقوب يوحنا وقد لقب فيما بعد « بالمعلم » فصار « المعلم يعقوب » ثم « الجنرال يعقوب »

وبعدت شهرة المعلم يعقوب فى عهد احتلال الفرنسويين للديار المصرية (١٧٩٨ — ١٨٠١) فتحدث عنه مؤرخو الفرنسيين وورد ذكره فى المكاتبات الرسمية والوثائق المحفوظة فى وزارتى الحربية والخارجية بباريس وفى هاتين الوزارتين كل مايتعلق بالمعارك الحربية وأسماء القوادوالضباط والجنود . فهما مرجع صحيح الرواية

ومما يجعل سيرة المعلم يعقوب جديرة بالدرس أنه أول قبطى ألف جيشاً قبطياً بقيادته وكان رفيقاً للقائد « ديسيه » أحد قواد حملة نابوليون وشريكا له فى حملة الصعيد ، وهو كذلك أول رجل من غير الفرنسويين منحته حكومة الجمهورية الفرنسوية رتبة قائد.

يقول المؤرخ نقولا الترك وكان شاهد عيان فى تلك الحملة : « كان عند الجنرال ديسيه من الأقباط المشهورين يعقوب الصعيدى وهو رجل قوى الشكيمة مشهور بالفروسية والهمة العالية وهو الذى كان فى خدمة سليمان بك فلما آنس فيه الشجاعة وظهرت له قوته واستعداده قدمه إلى نابوليون وأطرى اخلاصه فقربه هذا اليه وأعجب ببسالته مما دعى يعقوب إلى تأليف فيلقه »

وأهم من هذا كله أنه أول مصرى وضع مشروعا لاستقلال مصر عن الدولة العلية وعن حكم المماليك إذ أرادها بلاداً حرة خالصة لأهلها ولكن المنية لم تمهله حتى ينال موافقة الدول على هذا الأستقلال

وقد عثر فى السنوات الأخيرة فى محفوظات وزارة الخارجية البريطانية على الوثائق التى تضمنت مشروع الجنرال فنشرها المسيو جورج دوان فى مقدمة كتابه « مصر المستقلة » وقد طبعت باللغة الفرنسوية فى سنة ١٩٢٤ ثم نشرها الأستاذان توفيق اسكاروس وميخائيل بشاره داود فى مجلة مصر الحديثة . وفى سنة ١٩٣٢ نقلها الأستاذ شفيق غربال فى مؤلفه باللغة العربية « الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس »

وقد نوهوا جميعاً بفضل الجنرال وأذاعوا للملأ عمله التاريخي ولهذا رأت لجنة التاريخ القبطى أن تجمع ماتفرق مما كتب عن الجنرال يعقوب وتستخلص زبدته وتزفها إلى القراء مثلا أعلى لحب الوطن والتفكير فى خلاصه وتحريره يحتذيه أبناء الوطن ويجدون فيه باعثاً على الفخار والشعور بالكرامة الوطنية . فان تاريخ الأمم التى فازت باستقلالها ليس فى الواقع سوى تاريخ فئة من أبنائها الصميمين البارزين كانوا أمثلة فى الشجاعة والاخلاص لبلادهم وهم الذين جاهدوا فى سبيلها وبنوا صرح مجدها ونسجوا ثوب عزها

الرأى الذى أجمع عليه المؤرخون هو أن يعقوب ولد فى مدينة ملوى من أعمال مديرية أسيوط فى سنة ١٧٤٥ ميلادية من أبوين قبطيين وهما يوحنا ومريم غزال ابنة توفيق غزال

وهذا الرأى يعززه أن اخوته وأخواته ولدوا فى ملوى وفيها ربى هو وتعلم العلوم الأولية وفيها تزوج امرأته الأولى واقتنى منزلا . ولما اجتازها الجيش الفرنسوى وهو يطارد مراد بك أراد يعقوب أن يعرج عليها لكى يحتفل فيها باكرام القائد ديسيه إلا أن هذا كان همه تعقب مراد بك فلم يشأ التوانى فى المسير

لم يكن بمصر فى ذلك العصر من معاهد التعليم سوي الكتاتيب القبطية يتلقى فيها أبناء القبط القراءة والكتابة وشيئاً من الحساب الابتدائى ويستظهرون المزامير والألحان الكنسية . فأدخل يعقوب كتاب بلدته حيث قضى سنيه الأولى كما يقضيها أترابه دون أن يمتاز عليهم أو على سائر اخوته بشىء ما

ولما كبر يعقوب لم يكتف بما تلقنه من المعارف الاولية فى الكتاب بل واصل الاجتهاد فى الدرس لذاته فأحرز قسطاً وافراً من اللغة العربية وأجاد كتابة الخط ووعى الأصول الحسابية . وكان القبط مشهورين باتقانها . والذى دفعه إلى ذلك ما طبع عليه من جد وطموح للارتقاء وبقوة عزيمته استطاع أن يحرز جانباً من الثقافة ازدادت به معلوماته فساعده ذلك على بلوغ المرتبة الرفيعة التى بلغها فيما بعد

* * *

وأتم يعقوب العقد الثانى من عمره فألحقه والده كاتباً عند قريب له من المشتغلين بجباية أموال أحد المماليك الذين كانوا يتقاسمون حكم البلاد فى ذلك العصر . وهنا بدأت مواهبه تظهر واكتسب كثيراً من المعلومات الادارية والحسابية ولما طرد على بك الكبير محمد باشا الحاكم العثمانى من القاهرة وولى حكم البلاد وقبض على زمام السلطة العليا فيها قرب اليه المماليك الآخرين بالانعام عليهم برتبة البكوية . واتفق فى أثناء ذلك أن التحق يعقوب بخدمة أحد هؤلاء وهو سليمان بك أغا الانكشايرة

وكان واسع الثروة كثير الممتلكات ولم يمض طويل وقت حتى آنس سليمان بك فى يعقوب الامانة والمقدرة فأولاه ثقته وأقامه مديراً عاماً لماليته

وقد كانت هذه الادارة تقتضى جباية الضرائب والرسوم الجمركية وايجارات الاراضى الزراعية . ويزيد تعقد هذه المهام اختلاف العملة وتعددها وتغير قيمتها من حين إلى حين فأكسبته خبرة واسعة مالية وادارية أعانته على تأدية المهام التى عهدت اليه فيها الحملة الفرنسوية لما قدمت الى مصر وإلى جانب ما تقدم أحرز يعقوب صفات عسكرية ممتازة من مرافقته للماليك وكانوا ذوي بأس ومعروفين بالفروسية والشجاعة وميالين إلى القتال وقلما كانت تنقطع حروبهم ومناوشاتهم . فنهم تعلم يعقوب ركوب الخيل وتدرب على الطعن بالسيف

وكانت مؤهلات يعقوب وكفاءته المالية والادارية على النحو الذى كان سائداً فى زمانه سبيلا إلى ثروة كبيرة جمعها فأصبح ذا ممتلكات وأموال وخدم وحشم ومستخدمين وأتباع فأضيف إلى اسمه لقب « المعلم » وهو لقب كان يعطى فى مصر فى القرون الوسطى للدلالة على الشرف والزعامة ويطلق على كل من يبرز فى علم أو صناعة أو يحرز أموالا وضياعاً

ولما كان يعقوب فى الخامسة والعشرين من العمر تزوج بامرأته الاولى « مختاره الطويل » وهى ابنة عمه وكان عمه رجلا ثريا ببلدة ملوى له تجارة واسعة وممتلكات كثيرة وقد رزق يعقوب من امرأته هذه ولداً مات طفلا وبعد قليل لحقت به أمه بطاعون ذهبت ضحيته

وبعد انقضاء اثنتى عشرة سنة من وفاة زوجته الأولى تزوج بامرأته الثانية وكانت فتاة سورية من حلب تدعى مريم نعمة الله البابوتجى . ولما قدم القاهرة فى سنة ١٧٩٢ بارك البطريرك الانبا يؤانس الثامن عشر - والمائة والسابع فى عدد البطاركة - هذا الزواج ولم يكن قد كتب به عقد جرياً على العادة المتبعة إلى ذلك الحين إذ كانت عقود الزواج شفوية بايجاب وقبول . إلا أن هذا الزواج سجل رسمياً فى فرنسا أمام قاضى المصالحات فى سنة ١٨١٨ بشهادة شقيقتى يعقوب وشهود آخرين من أصدقاء الأسرة لمناسبة إثبات وفاة يعقوب واحصاء تركته وورثته ومنهم زوجته الثانية هذه

وأتاح مجىء الفرنسويين الى أرض الفراعنة فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى للمعلم يعقوب الفرصة لاظهار مواهبه فأصبح عظيما من عظماء التاريخ وذاعت شهرته فى الديار المصرية وفى الاقطار المجاورة لها . فان الشريف حسن شريف مكة لقبه « بعظيم حملة ديسية فى الوجه القبلى » لما بلغه أنه أرسل جيشاً لتأييد مراد بك وطلب أن يستعد للقتال . كما أن المماليك طلبوا وساطته فى الصلح بينهم وبين ديسيه

هذا الرجل المقدام والفارس الشجاع ألقيت على عاتقه مهام لايستطيع غيره النهوض بأعبائها

ولكنه أداها على خير مايرام وبأفضل أسلوب ابتغاء الوصول الى تحرير بلاده من نير المماليك والترك

لما فتح بونابرت القاهرة واستقر به المقام قدم اليه جرجس الجوهرى - وكان عميد القبط إذ ذاك - أعيان أبناء طائفته وبينهم المعلم يعقوب . فعين منهم المعلمين سدرة الشماع وبانوب الجيزاوى وجرجس صرايعون وملطى ساروفيم ويوحنا الصولى رؤساء للمالية فى بعض المديريات

أما يعقوب فقد احتفظ به لما هو أهم من ذلك . فانه لما لجأ المماليك الى الصعيد فكر بونابابرت فى القضاء عليهم فجهز حملة بقيادة الجنرال ديسيه ولما كانت هذه الحملة بحاجة الى رجل أمين يجمع فى شخصه الصفات العسكرية والادارية وله خبرة تامة بالبلاد التى تجتازها الحملة والمام تام بكيفية جمع ما تحتاج اليه من مؤن وقع اختياره على المعلم يعقوب فعينه مديراً عاماً للحملة

وكان المعلم يعقوب عند حسن ظن بونابرت به فجهز للحملة المؤن والذخائر وأمن لها طرق المواصلات ورتب حركاتها وعين مواضع اقامتها ونظم الشؤون المالية والادارية على الوجه الاكمل وساعده على ذلك ما كان له فى نفوس أهل البلاد من منزلة رفيعة بدليل قول الضابط بليار « ان الشعب كان ينظر الى يعقوب كأنه السلطان الاعظم والقائد العام الذى احتل الصعيد »

وقد نهض يعقوب وحده باعباء تموين الحملة والجيوش المتفرقة على طول النيل وليس ذلك فقط بل نهض أيضا بادارة مالية الوجه القبلى كله من توزيع الضرائب وجبايتها والتوفيق بين الأوامر الادارية الجديدة التى كان يصدرها الجنرال ديسيه والأنظمة القديمة المألوفة فى البلاد

هذه المقدرة الفائقة جعلت للمعلم يعقوب كلمة مسموعة فى الشؤون الادارية والمالية . ومن أدلة ذلك أنه لما كان الجنرال بليار يتولى الاشراف على جباية الضرائب تأخر أهل قرية من قرى بنى سويف عن تسديدها فقبض على بعض من مشايخها رهينة عنده واتفق ان المعلم يعقوب وصل إلى بنى سويف آتيا من مديرية الفيوم بصحبة الجنرال ديسيه بعد اخضاعها وعلم بالأمر فاحتج بشدة على تصرف بليار ونصح باستعمال الأناة فى الجباية والكف عن ارهاق الاهلين واخلاء سبيل المشايخ المرتهنين . فأقره الفرنسويون وفى مقدمتهم ديسيه على رأيه وعملوا بنصيحته

وكان المعلم يعقوب عماد حملة الصعيد ودعامتها وقد ثبت ذلك مما حدث بعد عودته إلى القاهرة مع القائد ديسيه فان بليار الذى حل محل ديسيه فى قيادة الحملة كتب اليه باعادة المعلم يعقوب سريعا لأن الحملة بعد سفره لاقت صعابا جمة فى تدبير قوتها اليومى

ولا شك فى أن الأيام الكثيرة التى قضاها القائد ديسيه مع المعلم يعقوب إلى ذلك الحين هى التى يسرت له الوقوف على ماكان ليعقوب من مواهب فوطن عزمه على وضع خطة لحملة تسير حتى النوبة لاتمام اخضاع الوجه القبلى واحتلاله ونفذت هذه الخطة وأتمت الحملة مهمتها فبددت شمل

المماليك وعاد ديسيه إلى أسيوط واتخذها مركزا عاماً للقيادة ومعه المعلم يعقوب وكبار ضباطه

وحدث أن بونابرت غادر البلاد المصرية الي فرنسا بدعوة من حكومة الدير كتوار فسلم قيادة الجيش الى الجنرال كليبر وهذا تولى تنظيم المصالح اداريا ومالياً وحينئذ ذكر ديسيه المعلم يعقوب ووجوب الانتفاع بخبرته ومقدرته فأوحى بذلك إلى الجنرال كليبر فطلب منه الاشتراك معه فى هذا العمل ومعاونته فى تنفيذ مشروعاته فقبل ذلك ونهض بما عهد اليه فيه وجمع حوله مساعدين أحسن اختيارهم وجعل مكتبه فى منزل البارودي وأدار الامور إدارة حسنة بما خول له من سلطة واسعة وكانت اختصاصاته تشبه اختصاصات وزير المالية فى أيامنا هذه

وبعد انتصار كليبر فى معركة هليوبوليس « عين شمس » على الترك فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ واخماد ثورة القاهرة التى نشبت وقتئذ دخل الجنرال كليبر القاهرة ظافراً وفرض غرامة مقدارها ١٢ مليونا من الفرنكات على سكانها وعهد الي المعلم يعقوب فى جبايتها وخوله السلطة المطلقة لذلك فاستعمل الحكمة فى تحصيلها دون ارهاق الاهلين فى ذلك

وذكر الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى تاريخه أنه عهد الى يعقوب غير ماتقدم فى أعمال أخرى ادارية ومالية فكان يؤديها بسلطان مطلق

ولما أتمت حملة الوجه القبلى مهمتها باخضاع الصعيد بأكمله الى اصوان التمس ديسيه وهو عائد الى أسيوط وسيلة يتصل بها بجنوده المتفرقين فى البلاد على طول النيل اتصالا مستمراً وسريعا للمحافظة على الامن وكاشف المعلم يعقوب بذلك فوعد بالتفكير فى الامر ولما وصل الى اسنا خطر له أن ينظم فرقة من السعاة الهجانة تتولى البريد وكانت هذه هى الوسيلة الوحيدة السريعة فى ذلك الوقت. وفى خلال أسبوع قضاه فى إسنا دبر الرجال والهجن اللازمة ووزع الفرقة على المسافات فأعجب الجنرال ديسيه بالفكرة لانه جعله على اتصال دائم بجنوده فى الشمال والجنوب فكان يرسل الجرحى إلى القاهرة ويتزود منها بالميرة والذخيرة

***

فى سنة ١٧٨٦ أى قبل مجىء نابليون بمنتين وقبل حملة الصعيد بنحو اثنتى عشرة سنة كان يعقوب يشترك مع المماليك فى حروبهم وغزواتهم كما تقدمت الاشارة إلى ذلك ومما يذكر عنه أنه رافق مراد بك فى محاربته للترك وشهد الموقعة التى دارت رحاها بالقرب من المنشية من أعمال مديرية أسيوط وكان له نصيب من النصر الذي أحرزه مراد بك

ومما يدل على أن يعقوب تدرب على فهم الاصول والقواعد العسكرية انه عندما وصلت جنود حملة الصعيد إلى المنشية حيث دارت المعركة المشار اليها أخذ يصف للجنرال ديسيه وأركان حربه كيف انكسر الترك. ويقول فيفان دينون وكان بين المستمعين للقصة أن يعقوب وان لم يتكلم عن

نفسه فى الوصف الدقيق للموقعة فهم الجميع أنه كانت له يد فى هذه الموقعة وأثنوا عليه

ومن أعمال يعقوب الحربية مع الفرنسويين أنه كان ذات يوم سائراً فى طليعة الجيش الفرنسوى الذى يتجسس مكان العدو وكان ممتطيا جواداً مع الفرسان وقد علق فى رقبته على الطريقة العربية سيفاً مرصعاً ووضع أمامه على السرج بندقية وفى منطقته غدارتين واستمرت الطليعة سائرة إلى أن غابت عن أنظار الجيش وبلغت عين القوصية عند بلدة العتامنة من أعمال مديرية أسيوط وهناك وجدت الطليعة نفسها بغتة أمام جمع من الاعداء . فى هذا الظرف الدقيق لم يفقد يعقوب رباطة جأشه بل تقدم وانتضى سيفه وفعل أفراد حاشيته مثله وأخذوا والخطر محدق بهم يقاتلون عدوا يبلغ عشرة أمثالهم وما فتىء يعقوب يقاوم العدو ببسالة ويصمد له إلى أن وصل ديسيه إلى العتامنة على أثر علمه بأن خطراً يتهدد مقدمة جيشه فما رآه العدو حتى ولى الادبار ونجا يعقوب من الخطر فأسرع ديسيه اليه وهنأه ببسالته وأهدى اليه سيفا تذكاريا

وحسب يعقوب حساباً للطوارىء بعد ماشعر أن مصر محرومة من جيش وطنى يمكن الاعتماد عليه فى الملمات ففكر فى تأليف فرقة قبطية وطلب ذلك من الفرنسويين فرخصوا له بتأليفها فجمعها من شبان من أهل الصعيد عملوا فى الجيش الفرنسوى صناعا وعمالا وكانوا نحو ألفين ووكل أمر تدريبهم على الحركات العسكرية إلى ضباط انتقاهم كليبر لهذا الغرض فأظهروا براعة فى تعلم هذه الفنون

وضم يعقوب إلى الالفى شاب شبانا آخرين فتألف منهم الفيلق القبطى ولكن معظم هؤلاء الشبان عادوا بعد ذلك إلى قراهم ولم يبق منهم سوى ٧٠٠ او ٨٠٠ مقاتل تولى يعقوب قيادتهم وجهزهم بالسلاح والميرة من ماله الخاص . ولما توفى تولى القيادة بعده الكولونيل غبريال سيداروس ابن أخيه كما سيأتى بيانه وقد ترك لنا التاريخ شهادتين من رجال الحملة الفرنسوية تثبتان تأليف هذا الفيلق وما بذله يعقوب من المال فى هذا السبيل

* * *

فى أثناء معركة هليوبوليس « عين شمس » وهى التى دارت رحاها بين الجيش التركى بقيادة ناصف باشا والجيش الفرنسوى بقيادة كليبر العامة فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ دخل إلى القاهرة خلسة كثير من أفراد الجيش التركى وأخذوا يحرضون الأهلين على رفع راية العصيان واعلان الثورة فى وجه الفرنسويين فأثمرت دعوتهم ونشبت الثورة فعلا ودامت من ٢٧ مارس إلى ١٥ أبريل سنة ١٨٠٠ وكانت نار هذه الثورة توشك أن تلفح القبط بشواظها لولا أن يعقوب كان غنيا وشجاعاً فأحسن الدفاع عنهم وأنقذهم . إذ أظهر فى تلك الظروف العصيبة مقدرة عظيمة واستيقظت

فيه الروح الحربية فحصن منزله فى الدرب الواسع المجاور للميدان وثبت إلى النهاية أمام حصار شديد كان فيه خصمه اللدود حسن بك الجداوى واستهدف لكل خطر وهو على رأس عسكره يشجعهم بأقواله الحماسية وأعماله الباهرة

وكان حى القبط فى الأزبكية محصوراً بين القلعة التى أنشأها يعقوب بجوار الجامع الاحمر من جانب وقنطرة الدكة من جانب آخر . فهدم يعقوب بعض الدور التى فى آخر شارع القبيلة من جهة قنطرة الدكة وجعل منها حصناً ليكون الحى بين القلعة وهذا الحصن

وفى هذا الصدد قال المرحوم يعقوب بك نخله رفيله صاحب تاريخ الأمة القبطية فى ص ٢٩٤ ما يأتى : —

« قيل ان بعض الثائرين هجموا على جهة شارع القبيلة المعروف الآن بالسوق الكبير وسوق النصاري من نقطة كانت مهملة ودخلوا درب الجنينة وأغلقوا البوابة ووضعوا وراءها أحجاراً فأسرع يعقوب لانقاذ من بها بطريقة لم تخطر على البال وذلك بأن أخرج من معاصره « للزيت والسيرج » ومعاصر غيره التى بجهة الجامع الأحمر جميع فحول الجاموس وأوقفها أمام البوابة وحصرها بين قوتين من العسكر وأمر الجنود بأن يرشقوا أجسامها بأسنة الرماح فتزاحمت على البوابة فزحزحت الأحجار التى وراءها وانفتحت فدخلت الجنود وقبضوا على الثائرين »

وقال أيضاً فى ص ٢٨٩ . —

« هذه القلعة بناها يعقوب بجوار الجامع الأحمر وكانت كما مر القول الحصن الشرقى لحى القبط فى أثناء ثورة القاهرة » . وذكر هذه القلعة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فقال . « وبنى له (أى يعقوب) قلعة وسورها بسور عظيم وأبراج وباب كبير تحيط به بدنات عظام وكذلك بنى أبراجاً فى ظاهر الحارة جهة بركة الازبكية وفى جميع السور المحيط والأبراج طيقانا للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر الذي رممه الفرنساوية ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر اللازمين للوقوف ليلا ونهارا وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنسويه »

وقال المرحوم يعقوب بك نخله رفيله فى ص٢٨٩ « انه شاهد بعينه اثار هذه القلعة قبل هدمها فى أيام المرحوم اسماعيل باشا خديو مصر »

* * *

لما عين الجنرال مينو القائد العام المسيو استيف مديراً عاما لايرادات الدولة احتاج إلى خدمات المعلم يعقوب فجعله مستشاراً له . وفرضت ضرائب جديدة إلا أن الأموال التى جبيت من الأهلين لم تسد حاجة الجيش وما كان يجب انفاقه فى الوقت عينه من المال على المشروعات والأعمال العامة

فى بلاد القطر . فاضطر القائد مينو إلى أن يعقد قرضاً بمليون ونصف مليون من الفرنكات وفاوض المعلم يعقوب فى شأنه

فاتفق يعقوب مع أربعة من زملائه وهم المعلمون . جرجس الجوهرى وأنطون أبو طاقية وفلتاؤس وملطى على أن يقدم كل منهم ٣٠٠ ألف فرنك وقدموها فعلا على أن تخصم من الضرائب المطلوبة من المديريات الداخلة فى دائرة اختصاصهم الاداري وأعطاهم أستيف سندات بقيمتها على الخزانة الفرنسوية

وقد تقدمت الاشارة إلى أنه فى مساء اليوم الذى كان فيه يعقوب يخاطر بحياته وهو فى طليعة جيش الجنرال ديسيه عند بلدة العتامنه قدم اليه ديسيه سيفاً فخرياً وكان ذلك عند محطة بنى سند بحضور كبار قواده وضباطه وسائر الجيش ونقشت على السيف هذه العبارة « معركة عين القوصية » اعلاناً بفضل يعقوب فى هذه الموقعة فى يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٩٨ ولا يزال هذا السيف محفوظاً عند الباقين من أفراد أسرته

أهدى الجنرال بونابرت إلى يعقوب عباءة من الفرو وكانت عادة الشرقيين فى تكريم الاشخاص الممتازين اهداءهم كساوي تشريفية فجرى بونابرت على هذه العادة وكان يهدي العباآت باحتفال خاص ويعقوب هو أول من سلمه بونابرت بيده عباءة بعد جرجس الجوهرى،

ولما ألف يعقوب الفيلق القبطى سنحت للفرنسويين فرصة يظهرون فيها شكرهم له فرقاه الجنرال كليبر الى رتبة كولونل « اميرالاى » فى حفلة عسكرية فخمة أقيمت فى أوائل مايو سنة ١٨٠٠ وأمر بأن يكون له حرس شرفى يرافقه فى تنقلاته ويقف أمام داره وأعطيت له براءة هذه الرتبة فى ١٠ أغسطس سنة ١٨٠٠ ممهورة بامضاء القائد داماس رئيس أركان حرب جيش الشرق

وفى ٢٨ فبراير سنة ١٨٠١ دخل الاسطول الانجليزى مياه أبو قير وأنزل جيوشاً إلى البر فاضطر القائد مينو للرحيل عن القاهرة لدفع الخطر وأقام الجنرال بليار حاكما على القاهرة وزوده بالتعليمات التى يتبعها إذا زحف عليها الجيش التركى ثم دعا الكولونل يعقوب ورقاه إلى رتبة « جنرال » باسم الجمهورية الفرنسوية وألبسه شارتها الذهبية بنفسه حسب المتبع وذلك فى مارس سنة ١٨٠١ وسلمت اليه براءة هذه الرتبة فى ٢٦ ابريل من السنة عينها

* * *

قلنا ان يعقوب أحرز ثروة كبيرة وقد أشار فيفان دينون إلى ما كان ليعقوب من جاه وثروة فوصف احدى الحفلات التى أقامها للقائد ديسيه وضباطه وأركان حربه فقال : —

« حسب عادات البلاد كانت القاعات التى استقبلنا فيها مفروشة بالحصر والسجاد والارائك

وعلى جوانبها المساند وقدم لنا الخدم المـاء المثلج الممزوج بالروائح العطرية ثم الشبكات فالقهوة . وبعد نصف ساعة مد سماط كبير وصفت على جانبيه ثلاثة أنواع أو أربعة من الـكعك والفطير وصفت وسط السماط أصناف الفـاكهة والمربيات والألبان وكان معظمها لذيذ الطعم وذا رائحة زكية . وقد تذوقنا منها كلها حتى أتينا على ما فى المائدة فى دقائق . وبعد ساعتين وضع على السماط الخبز وطواجن الرز الدسم الممزوج باللبن وانصاف الخراف المشوية وأرباع العجول ورؤوس هذه الانعام مسلوقة وأكثر من ستين طبقـاً كدست عليها أصناف عدة أخرى من أنواع الخضر والفالوذج والفطائر والعسـل النقى

« وبعد غسل الأيدى تطيبنا بماء الورد ثم قدمت الشبكات والقهوة وحل محلنا على السماط فريق من أهل البلاد ثم أتى بعدهم غيرهم وبعد ذلك جاء دور الخدم والحشم حتى أتوا على آخره »

« وفى الواقع أن يعقوب كانت له حاشية كبيرة تضم أمناء أسرار وصيارفة ورؤساء خدم وحجاباً يحملون العصى ذات الايدي الـكروية من ذهب أو فضـة وقواصة يفسحون الطريق أمامه وغيرهم من الخدم الذين يؤدون الخدمات الصغيرة نخادم للشبك وآخر للركاب وثالث للمباخر الخ ويتراوح عددهم بين ثمانين ومئة وكان يملك الجياد والبغال التى تحمل الأثقال والجمال والسرج المطعمة بالمعادن الثمينـة وفى منزله كثير من النسـاء الخادمات اللاتى يقمن بالخدمات المنزليـة والجوارى السودانيات والحبشيات

« ويطول بنا الـكلام إذا وصفنا كل ما كان يحيط بالمعلم يعقوب من مظاهر الأبهة والمجد أما هو فقد ازداد علماً وارتفعت منزلته وكتب له القدر أن يصعد دائماً مدارج العلا وأن يثبت للعالم أن جل مراده هو تحقيق أمنيته الوحيدة فى خدمة الوطن ورفع شأنه »

* * *

لما عاد ديسيه إلى فرنسا بعد معاهدة العريش التحق بالجيش الذى كان يحارب فى النمسا وشهد موقعة مارنجو وهى التى انتصر فيها الجيش الفرنسوي ولـكنه قتل فيها فى ١٤ يونية سنة ١٨٠٠

ووصل خبر قتله إلى الجيش فى مصر بعد ذلك بثلاثة أشهر فأقيمت حفلة عسكرية لذكراه فى يوم ٢ نوفمـبر سنة ١٨٠٠ شهدها المعلم يعقوب بملابسه الرسمية محاطاً بحرسه الشرفى ورجال فرقته وكان أشد جميع القواد حزناً عليه

ولما علم أن الجيوش تـكتتب بالمال لاقامة تمثال لديسيه فى باريس كتب الى الجنرال مينو كتاباً باللغة الفرنسوية هذه ترجمته : —

« من يعقوب القائد العام للفيلق القبطى الى القائد العام مينو .

« فى هذا الوقت الرهيب الذى يشعر فيه كل امرىء بعظم خسارة الجمهورية بفقد ديسيه المقدام الذى بذل نفسه فى سهول مارنجو اسمحوا لى وأنا رفيق ديسيه فى أعماله بالصعيد بأن أنثر عن بعد الزهور على ضريحه وأسكب العبرات التى هى ترجمان الحزن الذى شملنى . ويعجز لسانى عن التعبير عنه وأنى لى أن أجد كلمات تكفى لاظهار مقدار التياعى

« ديسيه ! ديسيه ! انهم يقيمون لك أثراً فى فرنسا فيعقوب الذى كنت تحبه ويعزك كنفسه سيدفع ثلث نفقات ذلك الأثر بمفرده بالغة ما بلغت . وإذا بقى هذا الأثر شاهداً بأخبار الوقائع والحروب التى خضت غمارها لاسترجاع الصعيد من أيدى المماليك واخضاعه فسيعلم الخلف منه أن يعقوب القبطى حارب إلى جانبك واستحق اجلالك واعزازك وقد أخلص لك ووهبك فؤاده من زمن مضى » . .

المعلم يعقوب

وفى ٢١ مارس سنة ١٨٠١ دارت رحى معركة أبو قير بين الجيش الفرنسوى والانكليز كان النصر فيها حليف هؤلاء واتصلت قواتهم بالترك وزحفوا على القاهرة فسلمها بليار صلحاً وتم الاتفاق فى ٢٧ يونيه سنة ١٨٠١ على اخلاء الفرنسويين لمصر وكان من شروط هذا الاتفاق السماح لكل من يروم من سكان مصر بالخروج مع الجيوش الفرنسوية . وخرج فعلا كثيرون

أما الجنرال يعقوب فوطن النفس على مرافقة الجيش الفرنسوى وفى صبيحة يوم سفره دعا اليه زملاءه الاقدمين المعلمين جرجس الجوهرى وأنطون أبو طاقية وفلتاؤس وملطى وكاشفهم بعزمه على مغادرة القطر المصرى فسلموه سندات السلفة لكى يسعى فى فرنسا إلى استردادها

وفى ١٤ يوليه سنة ١٨٠١ خرج بليار من القاهرة على رأس ١٣٧٣٤ من الضباط والعساكر قاصداً الاسكندرية وبينما كان فى طريقه أرسل اليه قبطان باشا حسن قائد الجيش التركى كتاباً يرجو منه فيه بالحاح أن يقنع الجنرال يعقوب بالبقاء فى القطر المصرى للانتفاع بخدماته ولكن هذا لم يقبل

وقد خرج من القاهرة مع الفرنسويين عدد من الجنود القبط ولكن يظهر مما رواه الشيخ عبد الرحمن الجبرتى أن بعضاً منهم عادوا إلى القاهرة فوصلوا اليها فى ١٧ أغسطس سنة ١٨٠١

ونزلت جنود الحملة الفرنسوية الى البوارج الانكليزية لتقلها إلى فرنسا وآخر بارجة أبحرت من المياه المصرية هى البارجة « لاباس » وقد أقلت الجنرال بليار قائد الحملة وهيئة أركان حربه و ٣٥٠ جنديا وكان معهم الجنرال يعقوب ووالدته السيدة مريم غزال وقرينته مريم نعمة وكريمته واخوه حنين وابن أخيه غبريال سيداروس وأخوه وأقرباء آخرون وعدد كبير من الخدم

ونخص بالذكر من الاقرباء الذين رافقوه الياس بقطر صاحب القاموس الفرنسوى والعربى ويقال انه ابن أخى يعقوب

وكان من ركاب البارجة أيضا بعض من أعيان المصريين ومنهم لطفى غره وجورج عقيده الذى كان مديرا لجمارك القاهرة ونقولا السكاكينى وفرج خورى وشقيقه ميشيل ابنا شقيقة قرينة الجنرال يعقوب ويوسف جباره

فأبحرت هذه البارجة بهم فى ١٠ أغسطس سنة ١٨٠١ وبقى الجنرال يعقوب واقفا على ظهرها ينظر إلى الشواطىء المصرية إلى أن غابت عن عينيه

وقد كان يعقوب يؤمل أن يصل إلى فرنسا لاليعيش فيها ويقطع صلته ببلاده بل ليتقرب إلى الى حكومتها بما كان له من منزلة فى نفوس القابضين على أزمة شؤونها ثم ليتخذ من ذلك وسيلة الى خدمة وطنه بالمشروع الذى كان يشغل فكره ألا وهو استقلال مصر

ولكن الاقدار قطعت عليه أحلامه اللذيذة وسارت رياحها على غير ماتشتهى سفينة آماله فقضى فى البارجة يومين اثنين ثم أصيب بمرض فجائى لزم لأجله الفراش ولم يطل مرضه سوى أربعة أيام

وفى اليوم الخامس من الرحيل أدرك الجميع أن حالته تزداد خطورة كما شعر هو بدنوأجله فقابل الموت ببسالة وبقى متنبه العقل إلى آخر لحظة فأوصى بكريمته منه وودع والدته وأقاربه وطلب أن يرى الجنرال بليار ليكلمه فأسرع اليه ولما رآه وقف منتصبا ولكن قواه خارت فسقط على سريره فانحنى بليار ليعلم مايريد الافضاء به اليه فكانت آخر كلمة خرجت من بين شفتيه هى أن توضع جثته بجانب ديسيه فى مقبرة واحدة. وأسلم الروح وكانت الساعة السادسة والنصف من صباح يوم ١٦ أغسطس سنة ١٨٠١

ولما وصل نبأ وفاته إلى قومندان البارجة سجل فى يوميتها وفاته والموضع الذي كانت فيه البارجة وقت الوفاة « وهذه كانت الطريقة للاشتراك فى الحزن » ولقد دون فى اليومية أن البارجة كانت فى لحظة وفاة الجنرال يعقوب فى درجة العرض الشمالى ٤١ر٣٥ ودرجة الطول شرقى جرينويتش ٢٩

وجرت العادة بأن الركاب الذين تفاجئهم منيتهم فى عرض البحار حينما تكون السفن بعيدة عن الموانىء تلقى جثثهم فى البحر ولكن نظراً الى رفعة مقام الجنرال يعقوب لم تتبع هذه القاعدة فى أمر جثته ووجدوا وسيلة لحفظها من الفساد وهى غمرها فى دن من الخمر الى أن تصل البارجة الى ميناء مرسيليا لتدفن فيها. وقد لزم للسفينة نحو شهر من الزمن لتقطع المسافة من المكان الذي كانت

فيه عند الوفاة الى مرسيليا إذ انها لم تصل اليها إلا فى ١٧ سبتمبر سنة ١٨٠١

وبعد خمسة أيام سمح بنقل جثمان يعقوب من السفينة الى المحجر الصحى واتفق أن ذلك اليوم وهو ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٠١ كان عيدا من أعياد الجمهورية فشهد نقله أقارب يعقوب والقبط الذين رافقوه وعدد كبير من الركاب وتولى البحارة الانكليز بامر رئيسهم انزال الجثة

واعترافا بفضل رجال البارجة ومكافأة لهم على المتاعب التى تحملوها قدم شقيقه حنين حنا عند وصوله إلى مرسيليا لكل بحار هدية تعادل قيمتها ريالا

وبعد مابقيت الجثة فى المحجر الصحى نحو ٢٥ يوما احتفل بتشييعها احتفالا فخما أدت فيه عساكر جيش الحملة الفرنسوية التحية العسكرية وكذلك الفيلق القبطى ووصف ذلك شاهد عيان هو الطبجى لويس يوسف بريكار فى يوميته فقال : —

« فى يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٨٠١ خرجت من المحجر الصحى جيوش الجنرال روبين وفى نفس هذا اليوم كان الاحتفال بتشييع جنازة المعلم يعقوب قائد الفيالق المسيحية فى مصر وقد توفى فى أثناء عبور البحر »

ودفن يعقوب فى مقبرة كانت ملحقة بالكنيسة القديمة للقديس مارتان ثم نقلت جثته الى الجبانة الجديدة المعروفة بجبانة القديس شارل ثم نقلت فى سنة ١٨٦٥ الى جبانة القديس بطرس فى مدفن عائلته ودفنت بجبانة كريمته التى توفيت فى سنة ١٨١٢ وعمرها ١٩ سنة تحت ظل النخيل الذى غرسه احفاده حول نصب المقبرة لتعيد ذكري شاطىء النيل

« * »

ويظهر قدر يعقوب من شهادات العظماء والمؤرخين واليك بعضا منها : —

(١) كتاب من القائد العام بونابرت (نشر بصفحة ٢٤٨ من تاريخ نقولا الترك) قدر فيه شجاعة الجنرال يعقوب قدرها ووعده باعلاء مرتبته

(٢) كتاب فى ١٢ مارس سنة ١٨٠١ من الجنرال مينو يقول فيه : —

« لو لم يكن الامر بحاجة الى شىء آخر غير الشجاعة يايعقوب لاستصحبتك معى لانى واثق أنك من أشد المحاربين بأسا ولكنك تمتاز بصفات أخري أكثر نفعا من الشجاعة لذلك تركتك هنا لتسهر على مصلحة الجميع » . الى أن قال « وأرجو أن تبث شجاعتك ونشاطك فى القبط الذين تقودهم »

(٣) اقوال الذين كانوا فى جيش الشرق عن يعقوب . قال الجنرال بليار الذي اشترك فى حملة غزو اقليم طيبه : « يعقوب القبطى يلعب الآن دوراً عظيما فى البلاد فالأهلون ينظرون اليه

كالسلطان الكبير وقد كانت فرقتنا المكونة لجيش الوجه القبلى تنظر بعين الاحترام الى جيش المعلم يعقوب »

وقال فيفان دينون الملحق بحملة مصر والمرافق لقوة الجنرال ديسيه الى اصوان « المعلم يعقوب رجل ممتاز بمواهب عجيبة وهو مثال الامانة والاخلاص.. ويملك ثروة كبيرة كما ان له منزلة عالية فى البلاد وهو ينفق بسعة كعادة الشرقيين فى الكرم »

وكتب الجنرال مينو الى بونابرت كتابا فى ١٠ برومير للسنة التاسعة للجمهورية ما يأتى :

« إنى وجدت رجلا ذا دراية ومعرفة واسعة اسمه المعلم يعقوب وهو الذى يؤدى لنا خدمات باهرة ومنها تعزيز قوة الجيش بجنود اضافية من القبط لمساعدتنا »

وقال المسيو جورج ريجو أحد الكتاب الحديثين « ان كفاءة المعلم يعقوب المالية هى فوق كل مناقشة »

وقال الاستاذ محمد صبرى فى مؤلفه تاريخ مصر الحديث المطبوع فى سنة ١٩٢٦ ما ملخصه :

« ان يعقوب فى بداية الاحتلال الفرنسوى التحق بخدمة الفرنسويين الذين دخلوا مصر أصدقاء يحملون راية جديدة هى راية الحرية وبارح مصر على رأس وفد مصرى مؤلف من أعيان القبط وكانت فكرته الاساسية مخاطبة انكلترا فى امر استقلال مصر ولكن وفاته العاجلة فى الطريق قضت فجأة على مشروع مفاوضة دول أوربا فى ذلك الاستقلال »

« * »

وهنا نأتى الى أمجد صفحة فى تاريخ الجنرال يعقوب فانه فى اليومين اللذين أقامهما فى البارجة قبل مرضه اتصل بقائدها القومندان « جوزيف ادموندس » وأخذ يحدثه بما كان يجول فى نفسه عن مستقبل بلاده فلقى من القومندان إصغاء وإقبالا عليه واهتماما بحديثه لأنه عرف قدره وأدرك أنه زعيم قومه فوثق به يعقوب وكاشفه بما أعده من مشروعات لاستقلال مصر

وكان حديثه مع القومندان سريا لم يحضره سوى سكرتيره المدعو لاسكاريس ، ولما توفى يعقوب تولى لاسكاريس تدوين ذلك الحديث فى مذكرات قدمها الى القومندان أدموندس وبسط فيها مشروع الاستقلال ونوع الحكومة الوطنية التى تؤلف فى ظل هذا الاستقلال وطلب من القومندان أن يبلغها للحكومة الانكليزية كما أنه أرسل الى بونابرت القنصل الأول مذكرة بامضاء « نمر أفندى » بالنيابة عن الوفد المصرى ومذكرة ثالثة الى المسيو « تاليران » وزير الخارجية الفرنسوية طالباً منه أن يستقبل هذا الوفد ليبسط له شفوياً الغرض الذى يسعى اليه

وقد نفذ القومندان ادموندس ماطلب منه فأرسل كتابا الى اللورد الاول للبحرية الانكليزية

وأرفق به مذكرات لاسكاريس المشار اليه وبقيت هذه الوثائق محفوظة فى وزارة الخاجية الانكليزية الى أن عثر عليها من سنوات كما قدمنا

وقيض الله فى هذا العصر من كشف عن هذه الصحيفة المجيدة فى تاريخ الجنرال يعقوب إذ عثر الأستاذ شفيق غربال فى سجلات وزارتى الخارجية الانكليزية والفرنسوية على مايثبت أن يعقوب فى سنة ١٨٠١ لما تبع الجيش الفرنسوى الى فرنسا كان قصده تحقيق مشروع خطير هو الحصول على اعتراف الدول باستقلال مصر

وقد أشار الى هذه الوثائق فى مؤلفين له أحدهما باللغة الانكليزية وعنوانه « Question The Bëginning of the Egyptian » والثانى باللغة العربية وعنوانه «الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١ » وقد طبع فى سنة ١٩٣٢. كما أشار اليها غيره من قبل

وقال الأستاذ شفيق فى هذا الصدد مايأتى :

« بدأت بعد العثور على هذه الأوراق فى تكوين رأى آخر فى يعقوب وفى طبيعة علاقته بالفرنسيين . خدمات يعقوب للحكم الفرنسى من نوعين . خدمات من نوع ما كان يقوم به للفرنسيين جرجس الجوهرى وملطى وأبو طاقيه وغيرهم من كبار الاقباط أساسها السعى للنفع الشخصى من جهة والخلاص من جهة أخرى مما كانوا فيه من امتهان لا يرفعهم من حضيضة ماملكوه من مال وجاه ولايفارقهم مهما زادت حاجة الحكام اليهم . وخدمات من نوع آخر أساسها التمهيد لمستقبل البلاد السياسى بالتعضيد المؤقت للحكم الغربى

« ومن حقق النظر فى أحوال الشعوب الشرقية الخاضعة لحكم السلطان فى أثناء القرن التاسع عشر يجد أن الطوائف غير الاسلامية منها نظرت فى أول الامر للتدخل الغربى فى شئونها بالعين التى نظر بها يعقوب فى آخر القرن الثامن عشر . أول مافى تأييد يعقوب للتدخل الغربى تخليص وطنه من حكم لاهو عثمانى ولا مملوكى وانما هو مزيج من مساوىء الفوضى والعنف والاسراف ولاخير فيه للمحكومين ولا للحاكمين اذا اعتبرناهم دولة قائمة مستمرة . فرأى يعقوب أن نوعا من أنواع الحكم لايمكن أن يكون أسوأ مما خضعت له مصر قبل قدوم بونابرت . وثانى مافى تأييده للاحتلال انشاء قوة حربية مصرية « قبطية فى ذلك العهد » مدربة على النظم العسكرية الغربية — ونحن نسلم بان هذه القوة كانت أداة من ادوات تثبيت الاحتلال وبانه لولاهذا لماسمحت السلطات الفرنسية بانشائها وتسليحها وتدريبها - غير انه يلزمنا أن نذكر أيضا أن الدلائل كلها كانت تدل على ان هذا الاحتلال لن يدوم وأن القائد كليبر نفسه الذى اذن بانشاء القوة القبطية كان لايرى

البقاء فى مصر وانه لهذا حاول كما نعلم - الجلاء عنها بعد اتفاق العريش فى يناير سنة ١٨٠٠ ذلك الاتفاق الذي كان له بعض العذر فى نقضه . وسنبين فى موضع آخر أن بعض أصدقاء يعقوب من الفرنسيين اهتموا بمستقبل القوة الحربية القبطية أكثر مما اهتموا بحاضرها وانهم كانوا يحبون أن يروها على حال من البأس يجعلها العنصر المرجح فى مستقبل مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها

« كان وجود الفرقة القبطية إذن أول شرط أساسى يمكن رجلا من أفراد الامة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من أن يكون له أثر فى أحوال هذه الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فساداً على الرغم من أنه لا ينتمى لأهل السيف من المماليك والعثمانيين . وبغير هذه القوة يبقى المصريون حيث كانوا بالأمس : الصبر على مضض أو الالتجاء لوساطة المشايخ أو الهياج الشعبى الذي لا يؤدي لتغير جوهرى والذى يدفعون هم ثمنه دون سواهم - وهنا الفرق الاكبر بين يعقوب وعمر مكرم . يعقوب يرمى الى الاعتماد على القوة المدربة والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبي الذى تسهل اثارته ولا يسهل كبح جماحه والذى قد يصل سريعاً لتحقيق أغراض حاسمة ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسى الدائم المثمر . فكما أن العامة سريعة الهياج فى أوقات الخلل واضطراب الحكم فهى أيضاً سريعة القنوط خصوصاً إذا اصطدمت بجند مسلحين حتى ولو كان أولئك الجند من نوع ما كان فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر من ترك والبانيين وما ماثلهم

« وقد رأينا ما كان من أمر السيد عمر لما وجد أمامه محمد على خورشيد - هذا الفرق بين الأداة التى اختارها يعقوب وتلك التى اختارها السيد عمر ليس فى الواقع إلا مظهراً لفروق أعمق إذ ما حاجة هذا السيد نقيب الاشراف إلى جيش - والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان ولا يرمى إلى أبعد من أن يملى إرادته على القائمين بالامر فيها مدافعاً عن أفراد الرعية كلما زاد الفساد وهو بهذا يكفيه قيام أهل القاهرة واجتماع كلمة العلماء - أما يعقوب فله شأن آخر إذ أنه لا يريد عودة المماليك والعثمانيين وانما يعمل على أن تكون لفئة من المصريين يد فى تعزيز مصير البلاد بدلا من أن يبقى حظهم كما كان فى الحوادث الماضية مقصوراً على التفرج أو الاشتراك فى نهب المهزومين : ذكر الجبرتى فى حوادث المحرم سنة ١٢١٨ فى كلامه عن اشتباك الالبانيين باتراك الوالى العثمانى خسرو - ذلك الاشتباك الذى انتهى آخر الأمر بولاية محمد على ذكر ان الالبانيين كانوا يقولون للعامة من اهل القاهرة « نحن مع بعضنا وانتم رعية فلا علاقة لكم بنا أنتم رعية تخضعون لمن ينتصر منا . هذا كل مالكم »

« أراد يعقوب أن يكون الامر غير ذلك وعول على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة

مدربة على النظم الغربية فكان سباقا الى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك أو قل إلى ادراك ما أدركه محمد على بعد قليل من أن سر انتصار الغربيين فى جودة نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان » أه

وفى سنة ١٩٢٤ نشرت الجمعية الجغرافية الملكيه بعنوان « مصر المستقلة — مشروع سنة ١٨٠١ — وثائق لم تنشر قبلا وجدت فى محفوظات وزارة الخاجية فى لندن » (وهى الوثائق التى يقول الاستاذ شفيق غربال فى رسالته انه عثر عليها هو أيضا فى هذه المحفوظات) ـ مقدمة باللغة الفرنسوية بقلم المسيو جورج دوان نقتصر على نقل الفقرة الآتية منها وهذه ترجمتها :

« والذى نروم أن نذكره وننبه اليه هنا على ضوء الوثائق التى وجدت حديثا فى محفوظات وزارة الخارجية الانكليزية هو أن فكرة الاستقلال المصرى التى نشأت فى ظل حملة بونابرت كانت قد خطرت منذ فجر القرن التاسع عشر للمصريين فان واحدا منهم وهو المعلم يعقوب القبطى أعرب عنها بلسانهم الا أن موته قبل الأوان فى أغسطس سنة ١٨٠١ حال بينه وبين عرض هذه القضية والدفاع عنها أمام وزارات أوربا »

وثائق مشروع الاستقلال

من القبطان جوزيف آدمو ندس ربان السفينة الحربية بالاس

للأرل أوف سانت فنسنت اللورد الاول للبحرية الانجليزية

على ظهر السفينة بالاس

جزيرة منورقه فى ٤ اكتوبر ١٨٠١

سيدى

أبحت لنفسى أن أرسل لكم المذكرات المرفقة بكتابى هذا اعتقاداً منى بأنه قد يهم حكومة بلادى أن تعلم أن أشخاصا يسمون أنفسهم بالوفد المصرى يقيمون فى باريس فى الوقت الحاضر

كان ممن ركب فى مصر السفينة بالاس تحت إمرتى رجل قبطى ذو سمعة حسنة جداً وهو من زعماء طائفته وله فيها نفوذ كبير . وقد منحه الفرنسيون لقب جنرال لينالوا تأييده

هنيت بعض العناية بهذا المنفى السىء الحظ مما جعله يحادثنى فى شئون بلاده . وقد صرح لى بأنه يعتقد أن أى أنواع الحكم فى مصر أفضل من حكم الترك لها وأنه انضم للفرنسيين تلبية لباعث وطنى عله يخفف عن مواطنيه ماقاسوه وان الفرنسيين خدعوهم وان المصريين فى الوقت الحاضر

يحتقرونهم كما كانوا يحتقرون الترك وانه لم يفقد بعد آماله فى خدمة بلاده وأن ارتحاله لفرنسا قد يمكنه من هذا . وقال أيضا ان الفرنسيين جعلوه يعتقد أن دولتهم لها قوة السيطرة فى أوربا وأنه لم يعرف إلا قليلا عن قوة انجلترا البحرية ولكنه كان يعرف رغم هذا أنه بلا موافقة انجلترا فان رغبته فى قيام حكومة مستقلة فى مصر لن تتحقق . وأضاف صديقه لاسكاريس - وهكذا وصف نفسه - وكان يترجم أقواله لى أن الجنرال المعلم يعقوب يرأس وفداً فوضه أو عينه أعيان مصر لمفاوضة الدول الاوربية فى أمر استقلالها . وفى أثناء سفرنا مات الجنرال وقام الترجمان «لاسكاريس» بتحرير مذكرات أحاديثنا المرفقة بكتابى هذا . وقد أعرب لى الجنرال قبل موته عن رغبته فى أن أبلغ موضوع هذه الأحاديث لقائد القوات البريطانية الأعلى كى تعلم به الحكومة البريطانية بواسطته . وقد قرر لى المسيو لاسكاريس أن الوفد لم يزل باقيا وان المفوضين الآخرين على ظهر السفينة بالاس لايزالون أعضاء فيه . هذا وانى لم اتمكن من أن أتبين هل هو واحد من هؤلاء المفوضين أو أنه ليس الا سكرتيرا مترجما له . وأعتقد من كلامه أنه رجل خيالى . وأظنه بيد مونتى الاصل وسمعت أنه من أولئك الفرسان الذين تركوا جزيرة مالطة وتبعوا جيش بونابرت . وقد أعطيت ميثاق للمعلم يعقوب بأن أمتنع أنا والحكومة البريطانية من استعمال ما أبلغنا إياه استعمالا يؤذيهم . هذا ولما كان من المحتمل جداً ذهاب هذا الوفد الذى لايمكننى تقدير مدي مابيده من تفويض للاقامة فى باريس فقد رأيت وجوب تبليغكم هذه المذكرات والأحاديث مباشرة . إذ قد يمضى بعض الوقت قبل أن أجد فرصة لابلاغها أولا لرئيسى اللورد كيث . وأرجو أن تتنزلوا فتقروا مسلكى هذا

ولى الشرف . . . الخ

* * *

مذكرات مرفوعة للقبطان أدموندس لتذكره فى الوقت المناسب له برؤوس أهم الموضوعات التى تبادلناها فى احاديثنا السياسية على ظهر سفينته

— ١ —

الخطاب المرفق به هذه المذكرات موجه للورد النبيل . وقد يظهر لاول وهلة أنه ليس إلا رجاء بسيطا عاديا فى الاهتمام بنا معشر المصريين التعساء . ولكنه يجب أن يعتبره فى الحقيقة ملخص السياسة التى دارت بيننا على ظهر السفينة . هذا ولما كان الاسهاب فى شرح خطتنا فى الوقت الحاضر أمر أقل ما فيه الرعونة فان هذه المذكرات القصيرة المكتوبة على عجل قد تكفى على الاقل لتذكيرك باهم موضوعات أحاديثنا ، ومتى حان زمن ابلاغك إياها إما مباشرة لحكومتك أو للورد النبيل

(٣)

فالمصريون لوثوقهم بما انطوت عليه سجيتك يدعون لحسن فطنتك بعثه على الاهتمام بأمرهم . حتى يكون لنا مما يكتبه للوزارة البريطانية أو مما يقوم به عند عودته لانجلترا مسند نستند اليه لدي حكومته وليثق بأنه سينتصر لقضيـة فيها منافع لأمته . وأى قضية أليق منهـا بسعى لورد نبيل مثله !

— ٢ —

وأذا سلمنا بأن ماسيعرضه الوفد المصرى لدى الحـكومات الاوربية على تلك الحـكومات باسم المصريين الذين فوضوه قد يظهر قليل الاهمية أمام أعينها فلتعترف معنا على الأقل - أيها القبطان - ان الدول لن تعمل أبداً عملا أمجد وأنبل من أن تبدد بقرار سياسى واحد ظلمات الجهل والوحشية التى تـكاثفت على هذه البلاد الذائعة الصيت . تلك البلاد التى يمـكن القول عنها إجمالا انها كانت موضع قيام الحضارة التى نقلها اليونان عنها ومن اليونان وصلت الينا وإذا عجزت مصر بعد زوال عزها وازدهارها عن أن تثير شعوراً بعرفان صنيعها وما قدمته من خير فلتثر على الاقل عطف الدول الاوربية عليها حتى اذا ما كان ذلك وردوا اليها أمرها أمكنها أن ترضى جميع الدول التى تطمع فيها ولا تصاب بسبب ذلك أى واحدة منها فى مصالحها

— ٣ —

وقد يحل زمن ليس بالبعيد ترضى فيه الدولة البريطانية عن هذا الحل « للمسألة المصرية » . . : وفى هذه الاثناء قد تقترحه عليهـا الحـكومة الفرنسية . عندئذ يجب على الحـكومة الانجليزية أن تعلم ان الاقتراح نتيجة جهود الوفد المصرى فعليها إذن أن لا يريبها أمره .. فان المصريين... ولا نظن أن فرنسا تتقدم بهذا المشروع السياسى إلا على سبيل المجـاراة . والواقع أن تحقيقه ليس فى صالحها كما هو فى صالح انجلترا . ومما لاشك فيه أن حكومة الجمهورية الفرنسية لاتزال على ماكانت عليه من الرغبة فى تملك مصر

— ٤ —

تتداعى الامبراطورية العثمانية فى جميع أجزائها للانحلال ويهم الانجليز إذن قبل حدوث هذا أن يدبروا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الاستفادة من هذا الحادث المهم عند وقوعه وإذا تبين لهم استحالة استعمارهم مصر — كما استحال هذا على فرنسا — «فلهم عوضا عنه» خضوع مصر المستقلة لنفوذ انجلترا صاحبة التفوق فى البحار المحيطة بها . وليس من شك فى أن الاستقلال يعيد لمصر رخاءها . ولـكنها لن تـكون إلا دولة زراعية تستمد غناها من الحاصلات الوفيـرة التى تنتجها أرضها الخصبة ومن كونها المخرج والمدخل الوحيدين لتجارة افريقيه الوسطى . ولابد

من أن انجلترا بحكم مركزها فى الهند تهتم جداً بالمتاجرة مع مصر وما حولها من المناطق فتستفيد بذلك أكبر استفادة مما اختصت به مصر من المزايا

— ٥ —

وكان مراد بك يقول ـ وربما كان على حق فى قوله ـ ان كفار الغرب « كذلك سمى الأمم الأوربية » قد صاروا يعرفون مصر أكثر من اللازم وأن الكل يسعى لامتلاكها وأنها ستكون دائماً مثار اختلافهم . قد يقال أن انجلترا لا حاجة بها إلى ذلك الامتلاك إذ أن سيادتها البحرية تحتم أن تكون كل تجارة مصر فى يدها وأنها بذلك يكون لها ما تريد من نفوذ فى مصر . ولكن ماذا يكون من أمر هذا النفوذ إذا رجعت فرنسا كما كانت حليفة الباب العالى الطبيعية وأخذت الدولة العثمانية تجرى على سياسة إرضائها أكثر من ارضاء انجلترا ؟ ألا تمضى الدولة فى هذه الخطة فتغلق أبواب مرافئها فى وجه الانجليز ؟ أليس من الممكن أن يضغط الفرنسيون الترك براً فيحملوهم على الامعان فى عدائهم للانجليز وتحطيم تجارتهم فى أراضى الشرق الأدنى وفى البحر الأحمر ؟

— ٦ —

أما عما يختلج نفوس المصريين من عواطف نحو الفرنسيين فمبعثها ما اتبعه هؤلاء من طرق فى حكمهم فى أثناء احتلالهم البلاد . ولا حاجة بى للكلام فى هذا لأنى أعتقد أنك تتذكر بسهولة مادار بيننا من حديث فيه . كل شىء إذن يبرهن — الأسباب السابقة ، وما يشعر به المصريون نحو الانجليز بعد أن أمكن لهم تقديرهم حقاً — ان مصر المستقلة لا تستطيع إلا أن تكون موالية لانجلترا . فعلى هذه إذن أن تسمح سياسياً على الأقل باستقلالها هذا إذا لم تستطع تأييده بعد حدوثه وعلى هذه الخطة ما نتوقعه من حوادث فى المستقبل

— ٧ —

فرضنا أن حكومات الدول الأوربية سمحت باستقلال مصر . كيف يحكم المصريون أنفسهم ؟ وكيف يدافعون عن استقلالهم ؟

(١) لا يسمح لنا تعجلنا فى تحرير هذه المذكرات بتفصيل الخطة التى يفكر فيها الوفد المصرى لحكم البلاد ويكفى الآن أن نلاحظ أن المسألة هنا ليست مسألة انقلاب منشؤه استنارة الأمة واحتكاك آراء فلسفية بعضها ببعض . لا يقوم نظام الحكم الجديد على شىء من هذا . بل تضع قواعده الظروف القاهرة وتخضع له رعية مسالمة جاهلة لا يعرف أفرادها الآن ، أو يكادون لا يعرفون إلا عاطفتين خليقتين : المصلحة والخوف . فان أمكن الحكومة الجديدة « وليس هذا بالأمر العسير »

أن ترفه من عيش النـاس بعض الشيء وأن تزيد كسبهم قليلا فمن المحقق أنهـا تجد منهم نصراء متحمسين . أو ليس أى نظام أفضـل من الاستبداد التركى ؟ لتـكن إذن الحـكومة الجديدة عادلة حازمة وطنية كما كانت حكومة الشيخ همام العربى فى الصعيد «وقد حدثتك عن تاريخه» ولتثق عند ذلك بأنها ستحترم وتطاع وتحب

(٢) كيف يدافع المصريون عن اسـتقلالهم ؟ ماذا يصنعون لو اعتدت عليه دولة أوربية ؟ لا نتوقع حدوث شىء من هذا إلا بعد زمن طويل وعند ذلك يكون قد تم تنظيم الجيش الوطنى وجعله بحيث يستطيع رد الاعتداء . اما ان كان الاعتداء من جانب الترك أو المماليك فانا نعتقد أن الدول الأوربية تحظر عليهم مس استقلال مصر . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان المصريين يمكنهم أن يستخدموا جيشاً أجنبيا من ١٢٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ جندى وينفقوا عليه . ويكفى هذا الجيش الاجنبى لصد الترك عند حد الصحراء ولسحق المماليك فى مصر نفسها ويـكون هذا الجيش الأجنبي أيضاً نواة الجيش الوطنى . هذا ولما نعلمه من تأثير الذهب فى العثمانيين وأنهـم لا يعملون أي عمل إلا للحصول عليه فاننا نستطيع ردهم عن مصر ببذله لهم . وكان المماليك يستخدمون المال كلما رأوا سحب السياسة تتلبد فى القسطنطينية وتنذرهم بشر مستطير

وينبغى ألا يفوتنا أن نذكر أن المصريين منقسمون بين عدة طوائف وأن هذا الانقسام يتيح الوسائل لدفع هذه الطوائف بعضها ببعض فتتـكافأ بذلك قواها . وللوفد المصرى صـلات بهذه الطوائف على اختلافهـا ولا ينحاز لواحدة منها دون الاخرى . وهذه الصـلات مستورة وستظل مستورة تماماً عن الحـكومة التركية فى مصر ولابد من هذه الحيطة ازاء حكم مستبد يأخذ الناس بالشبهات . ولو عرف الترك حقيقة الامر لما ترددوا فى الفتك بأخوان الاستقلال عن آخرهم . والذين هجروا مصر مع الجيش الفرنسى من هؤلاء الأخوان قد تحدوا غضب الترك « وأمنوه » ولـكن اخواننا فى مصر حالهم غير هذه . هم تحت السـيف والعصا . فليس أمامهم إلا المواربة والظـهور بمظهر عبيد السلطان المخاصين

— ٨ —

سيبذل المصريون عامة ووفدهم لدي الحـكومات الأوربية « خاصة » كل ما يستطيعون من جهد لتخليص أنفسهم بشـكل ما من النير الذى يثقل حمله على بلادهم التعسة ولـكن إذا خاب سعيهم وشاء القدر أن يملك الترك هذه الأقاليم الجميلة الشهيرة وعرضها بذلك لتجدد الاغارات عليها وجاءت معاهدات الصـلح العام بين الدول على عكس ما يشتهون فأقل ما يرجوه المهاجرون المصريون من الدول المتعاهدة أن تدبر لهم ضمانا يقيهم على الأقل ، إذا عادوا لوطنهم شر انتقام الترك منهم

— ٩ —

هذا ولو أن الوفد المصري لدى الحكومات لن يعمل إلا فى تحقيق مشروع سياسى فيه نفع جميع الحكومات بما فيها الحكومة التركية « وليس تضميننا الحكومة التركية على غرابته من شطط القول فانا يمكننا البرهنة على صحته » فقد تعرض أحوال لابد فيها من المحافظة على سر المفاوضة لذلك فانا نرفق بهذا « شفراً » يستعمل فى مراسلاتنا عند الحاجة اليه

— ١٠ —

ويرى الوفد المصري حرصاً على تحقيق ما يصبو اليه من إبلاغ المفاوضة غايتها لزوم كتمان أمر ما فاتحناكم فيه من ممهدات لها وما قد تبلغونه للورد النبيل عن فرنسا وعن أى امرىء فى مقدوره عرقلتها . وذلك أن خطة الوفد أن يسعى فى أوربا كى تكون فرنسا البادئة بعرض المقترحات الاولى « الخاصة بالاستقلال » على انجلترا . وتكون انجلترا عندئذ قد اقتنعت « وهذا الاقتناع ثمرة أحاديثنا » معكم وسعى اللورد بما فى الاستقلال المقترح من مزايا سياسية فتؤيده . وبهذه الطريقة لا يتعرض الوفد المصرى لأن يرى الحكومة الانجليزية ترفض المشروع تحت باعث من نفور الأمتين إحداهما من الأخرى أو حذر دسيسة من دسائس الجمهورية (الفرنسيه) . .

— ١١ —

هذا وكى تسهل مراسلتنا ونحن فى فرنسا أو فى غيرها من البلاد يمكنك أيها القبطان أن ترسل ما تريد للسنيور الكونت أنطون كاسيس المقيم فى تريستا وهو يتولى إرسال الرسائل حيث يقيم الوفد ، على أن يوضع تحت عنوانه عنوانى . أما ما قد يرسل لى « من غيركم » من انجلترا فان وصولنا إلى باريس يذيع أمرنا فلا تصعب معرفة أين اقيم . وبهذا يسهل تسلمى ما قد تكتبه لى الحكومة « الانجليزية » ولكن تلزم الحيطة التامة فى هذا الأمر حتى لا تثار شكوك الحكومة الفرنسيه بالمرة . .

على ظهر السفينه بلاس فى ٢١ سبتمبر سنه ١٨٠١

من نمر أفندى بالنيابة عن الوفد المصرى للقنصل الأول بونابرت

إلى القنصل الأول للجمهورية الفرنسيه من الوفد المصرى الكثير الحب له : **محجر مارسيليا فى** أول فنديميير من السنه العاشرة « ٢٣ سبتمبر ١٨٠١ »

١٨ صفر سنة ١٢١٦

فى أيام العالم الأولى ، فى تلك العصور البعيدة المجهولة ، عندما كانت فرنسا **لا تختلف** كثيرا

عما صورته الطبيعة ولا يظهر منها للناظر إلا جليد وغابات ، كانت مصر الزاهية المتحضرة تلقى دروس العلم والعرفان على متشرعى الاغريق ثم دار الفلك دورته وشاء القدر أن يفد مصريو اليوم الحاضر أحفاد معلمى الحضارة بالأمس إلى فرنسا وهى تحت حكمك الخالد الذكر ليدرسوا نظم أمة يحبونها ويتعرفوا ما اهتدت اليه من وسائل لا عهد لغيرها من الأمم بها ، تلك الوسائل التى مكنت جمهورية ناشئة من صيانة ما كسبته فى ميدان الحرب بما استحدثته من نظم سياسية جديدة .. وكما أن صولون عند عودته لبلاده من مصر شرع للأغريق ، كذلك الوفد المصرى الذى فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك سيضع لمصر ما ترضاه لها من نظم عند ما يعود لها من فرنسا . يكون هذا أيها القنصل الأول إذ اتنزلت من أجل مجدك ولنفع الجمهورية السياسى فمددت يد المساعدة للمصريين البؤساء الذين حطمت فى الماضى أغلالهم والذين عادوا ينوءون بها من جديد وأحسنت استقبال وكلائهم فى باريس . وفى العاصمة سيكون استقبالنا حفلا شرقياً يجدد ذكرى فتح عظيم نلته ثم فقدته . ولا بد أنك تحس إحساساً شديداً بألم ما فقدت فأمر فى معاهدات الصلح العام أن تكون مصر مستقلة تعوض عليك خسارتك مائة مرة . هذه هى أمانينا وهذا ما أخذنا على أنفسنا ميثاقا به .

نمر أفندى

عن الوفد المصرى

«حاشية » أغا الانكشارية وعضو الوفد ، الذي عرفته أيام ان كنت فى القاهرة يرجو منى أن أعيد ذكر ما شرفته به من عطفك عليه » ن . ا

* * *

من نمر افندي لوزير الخارجية الفرنسية (تاليران)

(نفس التاريخ كالملحق السابق)

سينزل فى مرافىء الجمهورية الفرنسية عدد غير قليل من مهاجرين شرقيين تركوا بلادهم مع ذلك الجزء من جيش الشرق الذى تم جلاؤه عن مصر . والوفد المصرى بالرغم من أنه قد حرم من رئيسه الجنرال يعقوب الذي مات فى أثناء السفر يعلن كل ما يحس به من ولاء وحب للجمهورية الفرنسية ويرى من واجبه أن يلجأ اليك أيها الوزير لتتفضل وتضعه هو وهؤلاء المهاجرين فى كنفك وتقول له كما يقول بدوي الصحراء لضيفه « كن فى أرضك »

كان لويس الرابع عشر يعمل فى الظاهر لضم كنيسة الحبشة للكنيسة الرومانية ولكنه كان يسعى فى الواقع لمد نفوذه السياسى نحو أقاليم افريقية الوسطى الجذابة الخفية فبذل جهوداً كثيرة غير مثمرة ليعلم فى فرنسا شباناً من المصريين وعلى الأخص من القبط . فان بطريرك هؤلاء هو فى

الواقع بابا الاحباش . لم ينجح الملك فى سعيه هذا . واليوم نرى الجمهورية الفرنسية تحت حكم القنصل الأول تحقق دون عناء ماعجزت عن تحقيقه - اللهم الا الجزء الضئيل منه - الملكية الفرنسية المطلقة وقد بلغت منتهى القوة الاستبدادية . هذا والوفد المصرى النائب عن الأمة المصرية لدى الحكومة الفرنسية يمثل وحده كل مايجول فى نفوس مفوضيه الكثيرين من شعور بصالح الجماعة وما يملأ أفئدتهم من أمانى ومايملكون من اصالة تدبير ونفوذ وثروة ويعبر عما أجمعوا عليه من رغبتين : الأولى سحق القوة الغشوم التى تستبد بهم من جديد ، والثانية وضع أملهم فى فرنسا ، اعتقاداً منهم أن مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها تقضى عليها أن لا تخيب أملهم ، نتقدم اليك إذن أيها الوزير برأي : تكبدت فرنسا فى الشرق خسارة عظيمة لم لاتتخذ من هذا الوفد وسيلة لتعوض مافقدته ؟ إنك ان تفضلت فدعوت الوفد لباريس قبل توقيع الاتفاق التمهيدى مع انجلترا فانا نستطيع أن نؤكد لك أن فرنسا تحتفظ للأبد بنفوذها السياسى فى الشرق وتدرأ عنه ماقد يفقدها إياه زمناً طويلا من أثر الجلاء عن مصر وما آل اليه أمرها الآن وسعى الدول التى تخشى بحق علو كلمة فرنسا . بل نستطيع أن نؤكد اكثر من ذلك . نستطيع أن نؤكد أن فرنسا اذا أرادت يمكنها بواسطة أمة لن تكون الا موالية لها مد نفوذها نحو أواسط افريقية . وهكذا يتحول تركم مصر للانجليز من حادث نحس الى منبع مجد للقنصل الاول ورفاهية لأقاليم فرنسا الجنوبية

ولايرى الوفد المصرى فى الوقت الحاضر فائدة فى الاسهاب ، فهو يستطيع فى جلسة واحدة فى باريس أن يبين عن مقاصده مالايستطيع فى عشرين مذكرة سياسية . ونحن العرب نقدر فى الكلام على مانشاء وان كنا فى الكتابة لانبلغ إلا جهد المقل . هذا الى أننا غير غافلين عما توجبه علينا كثرة شواغلك السياسية من الاجمال فى الرسائل ونرجو التفضل بالرد على كتابنا هذا . وأن تسمح لنا ان تفضلت باستقبالنا فى باريس أن تقابلنا بزينا الشرقى . فالمسلمون منا يشق عليهم خلع زيهم ، وفضلا عن هذا فهذه الأزياء الشرقية قد تذكر القنصل الاول بفتوحه وراء البحار وترضى المستطلعين ممن لم يتبعوه للشرق

والوفد المصري يعلم أن وقت القنصل الاول الذى تصدر عن ادارته أمور الحكم حتى فى جزئياتها وتستظل الدولة فى ظله الظليل أثمن من أن يصرفه فى التفكه بقراءة مايرد اليه من الرسائل الخاصة ولكننا نرجو أن يقدر أن وفدنا جديد فى بابه وأنه يصل الى فرنسا فى ظروف خاصة وأن كتابنا له المرفق بهذا له ماله من أهمية فيتنزل لقسلمه منا ويتأمله بحكمته البعيدة الغور

المبادئ السياسية الحديثة

للاستاذ رمزى موير مدرس التاريخ الحديث بجامعة منشستر

تحكم الافكار الناس سواء أعرفوا هذه الحقيقة أم جهلوهـا ، وذلك ماجعلهم ينتسبون بحق للانسانية . وليس بين جميع أفكارهم ماهو أهم أو أقدر على اثارة عواطفهم من الافكار السياسية — أى افكارهم عن الكيفية التى يجب أن تدار بها مصالحهم المشتركة مثلا أو كيف تكون سلطات الدولة او من هو الذى يدير هذه السلطات ، وكيف ينتفعون بها

إن تصوراتنا السياسية موروثة من ناحية عن اسلافنا ، وهي مقيدة من ناحية أخرى بمركزنا فى العالم ، ولكنها دائمة التحول بتغير ظروف الحياة وبالمشاكل الجديدة التى تتركها هذه التغيرات ففى الازمنة العادية الهادئة يكون التغير تدريجيا بحيث لايلاحظ ، ولكن فى الازمنة السريعة التغير تسبب الافكار الجامدة قلقا يتمخض عن صراع قوى بين القديم والحديث وبالتالى اختلاف عظيم فى الافكار

يعيش الناس اليوم فى عصر فاق فى سرعة تغيره جميع العصور التاريخية المعروفة ، ولذا امتازت الافكار السياسية السائدة اليوم بعدم استقرارها وتغيرصورها ، ونشأ عن ذلك صراع شديد بين الافكار التى تتمسك بها وبين الآراء الحديثة التى اوجدها التطور الحديث ، ولذا ارتبكت أغلب الجماعات فلم تعد تدرى بأى المبادىء تؤمن وبأى الآمال تتعلق

وقبل أن نبحث المبادىء المختلفة التى تؤثر فى الوقت الحاضر على عقول الافراد يجدر بنا ان نلم بالمظاهر الرئيسة للعصر الحديث

ان اول مظاهر العصر الحديث هو التقدم العظيم للعلم خلال الجيلين الماضيين فقد وصل فيهما الانسان الى درجة عظيمة فى التغلب على القوى الطبيعية . والحق أن تغلب الانسان على الطبيعة حدث تدريجيا خلال قرون عديدة ، ولكن التقدم كان سريعا للغاية فى المدة الاخيرة وذلك لنمو الصفة الأممية التى يمتاز بها العالم ، فان كل اختراع حديث يصبح عقب انجازه

ملكا للنوع الانسانى كله او ملكا للقادرين على فهمه واستعماله ، فليس هناك اختراع يخفى سره زمنا طويلا

كان من نتائج القوة التى حصل عليها الانسان عن طريق العلم ، انه اصبح فى امكانه ان يزيل من على سطح الارض الفقر والعبودية اللذين كانا نصيب اغلبية الناس العظمى منذ فجر التاريخ . وهذه النتيجة العجيبة فى الاستطاعة الوصول اليها اذا امكننا الحصول على الموارد الطبيعية التى لاحصر لها لفائدة جميع الناس مقابل نتيجة عملهم . ولكن هذه القوة الجديدة التى أوجدها الانسان اصبحت تستخدم فى اغراض الهدم كما تستخدم فى اغراض الانتاج

وفى قدرة الذين فى يدهم هذه القوة هدم المدنية التى شيدت ببطء وبجهد عظيمين خلال العصور العديدة ، لأن الحرب اصبحت تحت الظروف الحديثة وبالاسلحة العصرية اشنع وافظع مما كانت بدرجة عظيمة . فاذا استخدمت هذه القوة الانسانية الجديدة الهادمة بدون تفكير ، لمحي النوع الانساني واصبحت اعمر المناطق قفرة ، ورجعت بقية البشرية التعسة الى البربرية

وثانى مظاهر العصر الراهن يرجع الى التغلب على مسألة المسافات بواسطة طرق المواصلات الحديثة التى بلغت حدا عظيما من السرعة حتى جعلت جميع سكان العالم يتصلون بعضهم ببعض بسهولة عظيمة لم يعهدوها من قبل . فساعد هذا الاتصال على تشابه كثير من النظم الاجتماعية فى انحاء العالم المختلفة ، وكذا تقدمت التجارة الاممية واصبحت جميع ممالك العالم تعتمد على بعضها البعض فى المعاملات التجارية فكل منها يحتاج لمنتجات الآخر مهما تنوعت موارده الاقتصادية

والمظهر الثالث هو نمو الديموقراطية ، ولا يقتصر معناها على نظام الحكم النيابي ، بل يتعداه الى الحياة الاجتماعية نفسها فقد اصبحت الديموقراطية مبدأ عاما يرى فى جميع مظاهر الحياة ، واعتنق الناس الفكرة على أنها حق ازلى . ويرجع الفضل فى ذلك الى انتشار المعرفة السريع بواسطة الصحافة واللاسلكى . وذهب الزمن الذى لم يكن يلتفت فيه الانسان الى شؤون الامم الاخرى ونما في الوقت نفسه الرأى العام الى حد بعيد

والمظهر الرابع هو ازدياد سلطة الحكومة حتى أصبح من المتعذر مقاومتها لأنها باتت تتسلط على الرأى العام عن طريق الصحافة والاذاعة . ولذلك فان كل حزب او جماعة يستطيع ادارة دفة الحكم ويسيء التصرف فى هذه الادارة فانه يؤذى مواطنيه كما يؤذى بقية العالم المتمدين . وهذا هو الطريق الذى سلكته الديكتاتوريات التي امتازت بها السنوات التي تلت الحرب العظمى . لذلك

فانه من الضرورى ان تخضع الحكومات للنقد القوى وللرقابة الشديدة

لاشك فى أن مثل هذه التغيرات العظيمة التى طرأت على حالة الانسان الاجتماعية تدفعه الى وضع افكاره عن صورة الدولة التى يرغب فيها وكيف يصل الى تحقيقها فى بودقة الاختبار وذلك مايجعل من العسير اعطاء فكرة واضحة عن الآراء التى يتبعها الناس اليوم

إن اقوى الافكار التى تؤثر فى الوقت الحاضر على عقول الافراد هي فكرة عصبة الامم التى كانت حلم الشعراء والفلاسفه فاصبحت الآن حقيقة واقعه لتوحيد مصالح الشعوب المختلفة والمحافظه على استقلال الدول الضعيفة

وهناك ثلاثة آراء عن عصبة الامم يعضد الرأى الاول انصار السلام التام الذين يريدون أن تكون سلطة العصبة على امم العالم المختلفه نافذة دون الالتجاء الى السلاح والفريق الثاني يحتم وجود قوة وراء قانون العصبة . والفريق الثالث ضعيف الثقة بالعصبة ويرى انها يجب أن تقتصر على تقريب وجهة النظر بين الدول المختلفه عن طريق المحادثات لاغير وعلى كل أمة أن تعتمد على قوتها الخاصة

وعلى العموم فان أغلب أنصار العالمية لايرون سبيلا لتحقيق السلام إلا إذا أصبحت التجارة حرة ، فيحصل جميع الناس على الفائض من محاصيل الامم المختلفة ، ويعتقدون بأن توزيع الاراضى وموارد الثروة فى العالم هو توزيع مجحف يجعل بعض الامم القليلة السكان الغنية تحظى بمساحات عظيمة من الاراضى بينما تحرم غيرها من الامم الفقيرة الكثيرة السكان من هذه الاراضى . الامر الذى يؤدى الى الحرب لامحالة ، إلا إذا أعيد توزيع هذه الاراضى على يد عصبة الأمم

تقول الفكرة القومية بأن للامة الحق فى التحرر من الرقابة الخارجية والعمل على تحقيق أغراضها . وكانت هذه الفكرة القومية على أشدها خلال القرن التاسع عشر . وكان انتصارها العظيم فى الحرب العظمى عندما أصبحت بعض الأمم المقيدة دولا مستقلة . وليس هناك أى تناقض جوهرى بين القومية والعالمية لأن النظام الدولى القوى الذى يعمل لحفظ السلام وتسوية المصالح المشتركة أحسن الوسائل لحفظ الاستقلال القومى

أدى نمو القوميات المختلفة إلى تسابق الدول الصغيرة فى التسليح وفى اقامة الحواجز الجمركية مما يهدد سلام العالم ورضاءه لقد انقص الاقتصاد القومي فى ممالك العالم المختلفة التجارة الدولية إلى ثلث ماكان عليه قبل الحرب وكان سبباً فى العسر والبطالة المشاهدين فى كل مكان . وحرمان

كثير من الشعوب من فائض محاصيل الشعوب الاخري

تتأثر اليوم أغلب الممالك بمبدأ الاقتصاد القومي . ويعتقد معظمها بأنه نوع من الحرب وأن في استطاعتها الاثراء علي حساب غيرها . غير أن هذا المبدأ يؤثر كثيراً على بعض الدول كاليابان وألمانيا وايطاليا فهى رغم كثرة سكانها تجد نفسها بدون ممتلكات خارجية بعيدة عن رضاء العالم من أثر الحواجز الجمركية التى تضعها غيرها من الممالك

كان من شأن الدول المحرومة السخرية بعصبة الامم والقول بأنها ماوجدت إلا للدفاع عن مصالح بعض الدول واستغلال الدول الضعيفة وعلى ذلك أخذت تجند شبانها وتحد من حرية الرأى فى سبيل الروح القومية حتى أصبح عملها نوعا من التعصب كما هو الحال فى ألمانيا وايطاليا

سيكون الصراع بين القومية والعالمية الذى أعقب الحرب العظمى أهم مشاكل الجيل الآتى وفى هذا الصراع تسير القومية فى طريقها بينما تكون العالمية منقسمة فى أغراضها لأن كل الامم التى تعضدها مازالت مشبعة بالشعور القومي الشديد خصوصاً فيما يتعلق بالناحية الاقتصادية . وقد يؤدى هذا الصراع إلى هدم الحضارة القائمه على التعاون الأممي

تتعدد المبادىء السياسية التى تمثلها المبادىء المختلفة ، ولكنها تنحصر جملة فى بضع مذاهب من السهل تمييزها

يوجد المحافظون فى كل مملكة تقريباً . وتمتاز آراؤهم بالاهمية التى يعلقونها على ما أصابته الانسانية من التقدم وكراهيتهم للمخاطرة بهذا التقدم عن طريق التجارب الثورية . وينضم تحت لواء المحافظين كل من يرضى بالاشياء كما هي ومن يخشي العالم الغريب الحديث الذى نعيش فيه . وأشد مايدافع عنه المحافظون الاحتفاظ بامتيازات الطبقات المختلفة . وفى الامم المتقدمة توجد المحافظة مشبعة بالديموقراطية وهي الفكرة السياسية التى سادت خلال القرن التاسع عشر ، ويشمل برنامج هذا الفريق حرية الفكر والرأي ونظام الحكم الديموقراطى

ويكون اخلاص المحافظين للديموقراطية على أشده عند ماتعمل الديموقراطية على رفع العناصر المحافظة فى الجماعة . وهذه هى الحال فى انجلترا وأمريكا وفرنسا، فان المحافظين يلهمهم اخلاص عميق للتقاليد والمظاهر الوطنية . ويميل المحافظون فى كل مكان للقومية . وهم لذلك أشد المعضدين للاقتصاد القومى

يخلص كثير من المحافظين للعالمية إذا رأوا أن التعاون الدولى يؤدى إلى الاحتفاظ بكل شىء

على ما هو عليه . بينما يقوم هذا الاخلاص فى الممالك الغنية لان العالمية تقضى باعادة توزيع الاراضى هناك نوع من المحافظة ظهر فى الممالك الغير الراضية هو الفاشية وكان نمو الاول فى ايطاليا . وروح الفاشية هى عصبية قوميه تجزم بسمو نوع معتنقيها وتبشرهم بمطالب كثيرة تتطلب سلوكا جديداً لتحقيق هذه المطالب

وترفض الفاشية كالمحافظة الافكار الحرة التى كانت سائدة خلال القرن التاسع عشر ولكنها فوق ذلك تحتقر الحرية وتمجد الخضوع المطلق للحكومة وترفض الديموقراطية فهى نوع من الاستبداد قائم على طرق من الرعب ، مما يؤدى إلى انعدام حرية الفكر والعمل . حيث يخضع كل شىء للحكومة حتى التجارة والدين

وطريقة الفاشية فى الحكم شبيهة بطرق لويس الرابع عشر وفردريك الاكبر . ويعد زعماء الفاشيه" كهؤلاء الطغاة بكل أنواع الخيرات رعاياهم ماعدا خيرات الحرية . ولكن من ينتفع بالنظام الفاشى هم الاغنياء والاقوياء . أما بقيه" الافراد فيقيدون بفكرة الخضوع للدولة كأنهم رهبان وقد أظهر المثل الاعلى الفاشى نوعا من الحماسة يشبه الحماسة الدينية خصوصاً بين الشبان . حتى أصبحت الفاشيه" عقيدة تقوم على العذاب وتحكم على كل من يخالف مبادئها بالموت

ان فكرة الديموقراطيه" التى لاقت نجاحا عظيما خلال القرن التاسع عشر تجد كثيراً من الاضطهاد فى الامم التي اعتنقت الفاشية والاشتراكية . وروح الديموقراطية هي الاعتقاد فى قداسة الشخصية الانسانية فهي تجد في الافكار الفردية الشجاعة والنشاط للذين هما مصدر التقدم البشرى . ولذا فانها تقول بأن من حق كل فرد وكل جماعة أن يكونوا أحراراً ليستخدموا قواهم الخاصة بطريقتهم الخاصة مادامت هذه الحرية لاتؤذى حرية الآخرين . وعلى ذلك فان واجب الحكومة التى تمثل الجماعة هو ضمان عدم تعدى القوى على حرية الضعيف ، وتهيئة الظروف التى تصل فيها الكفاءات الشخصية إلى أسمى رقيها . وهذه هى أهم وظائف الدولة . ويجب فى نفس الوقت أن يكون وجود الدولة لخدمة الفرد لاوجود الفرد لخدمتها . ولا يميل الديموقراطى الى أى تضخم فى سلطة الدولة لاتمس الحاجة اليه

ويكره الديموقراطى الاحتكارات سواء كانت لافراد او لهيئات تعمل باسم الحكومة . كما يؤمن بحرية الفرد وحرية الفكر والصحافة والمساواة امام القانون وحرية الاجتماع فى سبيل الاغراض المشروعة . ويكره تضخم الفروق في الثروة مما اتصفت به الجماعات الحديثة . ويعمل لاصلاح ذلك

بتوزيع الملكيات علي الافراد . ويميل الي توسيع دائرة التجارة الاممية حتى ينتشر فائض المحاصيل بين جميع سكان العالم

ويكره الديمقراطى جميع أنواع التقيد الفكرى ويتعلق بالطريقة الانتخابية التى تمثل تمثيلا عادلا جميع آراء الامة المختلفة . ويحاول جعل اجراءات الحكومة أكثر نشاطا كما يعتقد بالحرية تحت حماية القانون . ويأمل فى رؤية جميع الامم تحيا تحت قانون واحد وهو يعتبر لذلك من أكبر المعضدين للعالمية

وهناك نوع من الديمقراطية المبالغ فيها التى تعتقد بمبدأ حرية العمل والتى تقول بأن الحكومة يجب أن لا تتدخل فى أي أمر وعلى الخصوص فى المسائل الاقتصادية حتى فى مسألة حماية الضعيف من جور القوى ، وتأخذ هذه الديمقراطية شكل الفوضوية التى تقول بأن كل حكومة سيئة يجب الغاؤها . وأن الناس يكونون خيرين وسعداء إذا تركوا وشأنهم ولكن هذه النظرية التي بشر بها كثير من عظماء الرجال وعلى الخصوص تولستوى لاتجد اليوم قبولا

ويلى المحافظة اليوم فى القوة ، الاشتراكية وهي الاعتقاد فى أن سلطة الدولة يجب أن تستخدم لتحسين حالة الشعب وتشترك فى هذا الرأى مع الديموقراطية ، ولكنها تخالفها فى خوفها من أن نمو سلطة ووظائف الدولة يؤدى الى الاختلاف والظلم

واب العقيدة الاشتراكية هي أن كل العلل الاقتصادية فى الجماعة ترجع الي أن وسائل الانتاج والتوزيع يملكها ويديرها أفراد . ولذا فانها تستخدم للارباح الشخصية ، لا لفائدة الجمهور وتعتقد أن كل هذه الشرور تختفى اذا كانت الملكية والادارة فى يد الحكومة . وبعبارة أخرى ترمى الى تحويل الصناعة الى احتكار عظيم يديره موظفون من الشعب وتسنده سلطة الحكومة . ومن بين حججهم فى احتكار الدولة للصناعة ان العامل يكون أكثر حرية تحت هذا النظام

وهناك أشكال كثيرة للاشتراك فمن الاشتراكيين من لا يميل الى الثورة لقلب نظام الحكم ولكنهم يقولون بشراء الملكيات الفردية الموجودة بالتدريج أى يشترون الصناعة بالصناعة وهذه العملية لن تمحو توزيع الثروة الحالى على الوجه الاكمل

غير أن الاشتراكيين المتطرفين ينتقدون أتباعهم المعتدلين قائلين أنهم لايستطيعون توزيع الارباح المكتسبة بالطرق الديموقراطية من منافسة وامتناع . فيجيب الفريق المعتدل تحت هذا الضغط بأنه عندما يتولي السلطة الحكومة سيستخدمها على أحسن وجه

وتخلص الغالبية العظمى من الاشتراكيين لتقاليد الديموقراطية فيتعلقون بحرية الفكر والكلام والاجتماع وغيرها . ويميلون فى نفس الوقت الى العالمية . ولذا فان الاحزاب الاشتراكية فى كل ممالك العالم تعتبر أقوى معضد لعصبة الامم

ومع ذلك فان الاشتراكية تضطر الى السير نحو الروح الوطنية لانها تعمل على وضع النظام الصناعى للأمة تحت ادارة الحكومة . مما جعل كثيرا من الاشتراكيين فى حيرة فيما يتعلق بالرغبة فى حرية التجارة الدولية أى تعريض صناعات الدولة الحديثة للمنافسة الخارجية . والغاء المنافسة عنصر قوى فى عقيدة الاشتراكيين ولذلك نشأت التباسات عديدة وغوامض فى الاشتراكية الحديثة . ولكن فكرة استعمال كل سلطة الدولة لالغاء فروق الثروة واعطاء كل فرد فرصة متساوية ظلت عاملا قويا على اثارة حماسة الاشتراكيين العظيمة

والانتقال المنطقى للاشتراكية هو الشيوعية التى تعتنق نفس الافكار الرئيسة للاشتراكية غير أن الشيوعى يختلف عن الاشتراكى فى استعداده العظيم واستخدام وسائله القوية لوضع أفكاره موضع العمل لاصبر له على فكرة الثورة التدريجية يرى أن مجرى التاريخ ماهو الا صراع بين الطبقات ويعتقد أن الطبقة العاملة التي لاتملك شيئا يجب أن تملك الحكم عن طريق القوة . وتؤسس ديكتاتورية تعامل معارضيها بقسوة ويعتقد الشيوعى أيضا بالالغاء الكلى للملكية الفرديه وانتزاع الملكية بدون رأفة من بين أيدى أصحابها الحاليين

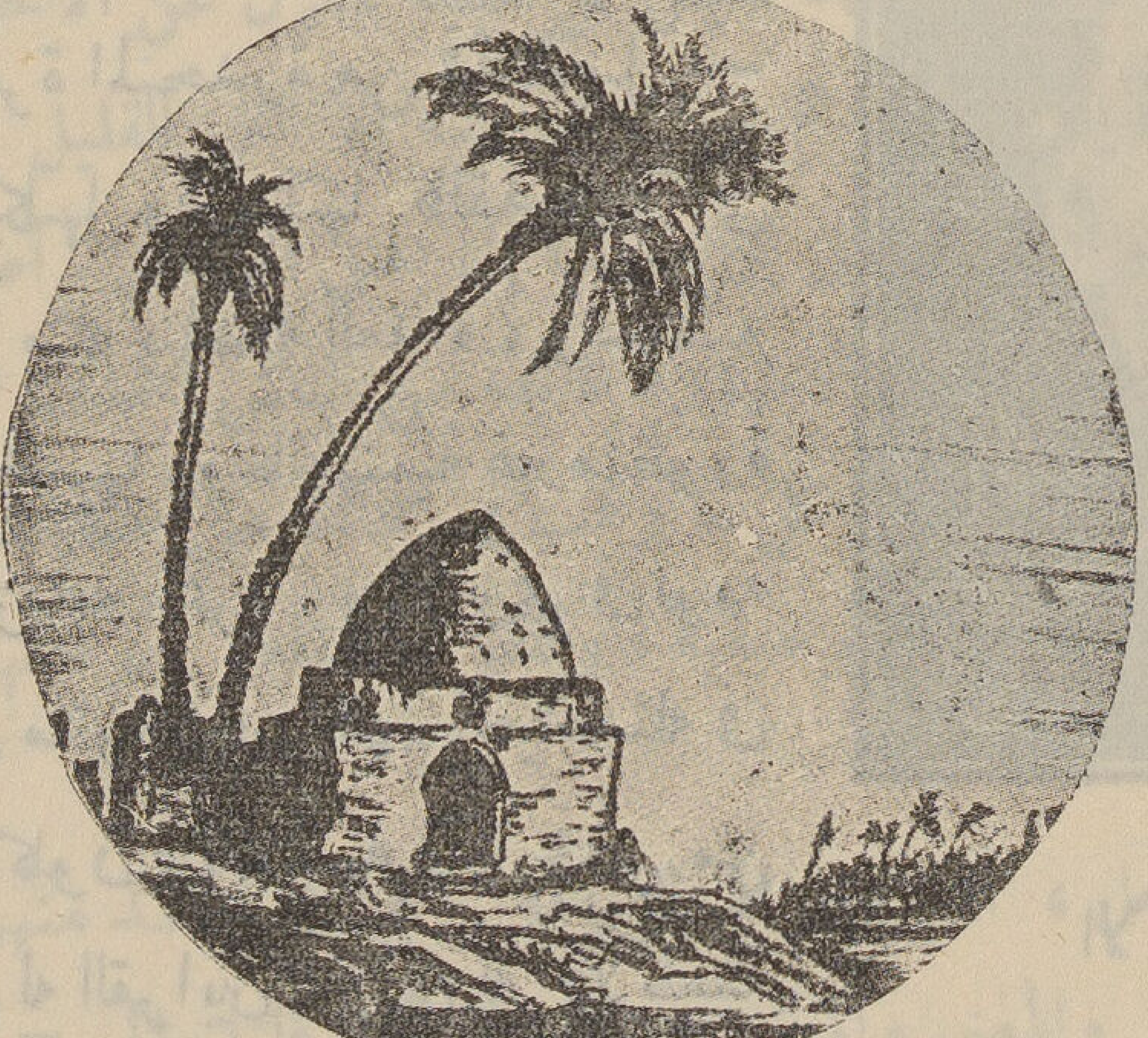
ثم يعمل الشيوعى على استخدام هذه الثروة تحت ادارة الحكومة العادلة لتوزيعها بالتساوى بين جميع الافراد . ولا يعتقد فى الحرية والديموقراطية ويرى كما يرى الفاشيون أنها نظم غيرصائبة ولذلك يضغط على العقائد المنافسه بما فيها الاديان بالقوة . ولا يسمح بحريه الفكر أو الكلام أو الاجتماع وأمامنا الآن مثال بارز للفاشية فى ايطاليا وألمانيا وللشيوعية فى روسيا

تشترك الفاشية والشيوعية فى وسائلهما فكلاهما يرغم الشعب بأكمله على الخضوع لنظمهما وقبول أفكار رؤسائهما . ويلح فى وجوب اعتماد الفرد المطلق على الحكومة ولكنهما يختلفان فى أغراضهما . يرغب الفاشى فى القوة الوطنيه ولذا فهو يعد بالرخاء المادى لاتباعه ويرغب الشيوعى فى وضع الجموع واسعادها ماديا . وقد أظهرت التجربه الشيوعية فى نواح عديدة فى روسيا نجاحا عظيما فى الهام اتباعها بحماسة دينية . ولكننا نتساءل هل هناك أى منافع مادية يعادلها الشعب مقابل التضحية بحريته التى هي أسمى مافى الحياة ؟

هذه هى أهم المبادىء السياسيه المنتشرة فى عصرنا الراهن وهناك أشكال أخرى قليلة الشأن ولكن لايسمح الفراغ بمناقشتها . ومن المتبع ترتيب هذه الافكار السياسيه من اليمين الي اليسار ، الفاشية فى أقصى اليمين ثم المحافظه ثم الديموقراطية ثم الاشتراكية فالشيوعية وليس من السهل ملاحظة منطق هذا الترتيب ولكن اذا نظمت هذه المبادىء وفقا لمالها من السلطه أو الحرية فان ترتيبها يجب أن يبتدىء بالفاشية فالشيوعية يمينا والمحافظة والاشتراكية فى الوسط والديموقراطية فى اليسار . واذا رتبت وفقا لما بها من الفكرة الدولية والوطنية فان الترتيب يكون بوضع الفاشية يمينا والمحافظة فى المنتصف والديموقراطية والاشتراكية يسارا مع الشيوعية التى تتبع نوعا من الفكرة الدولية خاصا بها

لا شك فى أن هناك بعض الفائدة فى كل هذه الافكار فان الانسانية لا بد مصيبه هذه الفائدة رغم اختلاطها . ولكن لا تأتى الفائدة الا اذا أبيحت المناقشة بحرية أما اذا قيدت فلن يتقدم الانسان فكريا

أحمد زكى بدوى



نشوء القصة وتطورها

للأستاذ محمود تيمور

قد قسمت بحثى إلى ثلاثة أقسام : الأول : نشوء القصة فى العالم ومظهرها فى العصر القديم . والثانى : القصة فى الأدب العربى القديم . والثالث : القصة المصرية فى العهد الحديث

كان الانسان الوحشى يعيش فى عالم كله ألغاز . وكان عقله بطبيعة الحال قاصراً عن ادراك كنهها. فالشمس التى كانت تشرق أمامه وتغرب فى روعة وعظمة وفى نظام عجيب . وتلك الريح العاصفة التى كانت تثور ثورتها الهوجاء فتهدم أكواخه وتقتلع زرعه وتأتى على حيوانه . وهذه الجبال الشاهقة ذات القمم البركانية التى تفيض بالحمم والنار ، وتزلزل بقوتها الخفية الدنيا وما عليها ، فتقتل وتحرق وتخرب فى قسوة عمياء . كل هذا وما ماثله وقف أمامه الانسان الأول وقفة الحيرة والرعب ، يتأمله طويلا ويسعى جهده لتفهمه . واهتدى أخيراً إلى حل قنع به واطمأن اليه ، فمنح لعالم الجماد روحا كروحه ، وتخيله على غرار نفسه . يعيش كما يعيش ويأكل ويشرب وينام . كان يرى فى الصخرة المنحدرة من قمة الجبل — التى خلعتها الزلازل من مكانها وأرسلتها كالقذيفة على كوخه فهدمته — آدميا مثله يناصبه العداء ، ويستطيع أن يهلكه . وهب الريح فحسبها روحا جهنمية غير منظورة قادرة على أن تنكل به وبزرعه وثمره . وكان يرى فى نومه أحلاما غريبة عن أشخاص ماتوا ، فتوهمهم أحياء مثله فى عالم آخر ، يعيشون ويأكلون ويتناسلون . فخشى من كان قويا مستبداً ، وقدم له القرابين ، وأتى له بالأطعمة وذبح له العبيد . ودفن معه النساء . كل ذلك تزلفا اليه وطلبا لرضاه . وهكذا رأينا خيال هذا الانسان الاول يشتغل ويخترع ، فيفرض الفروض ، ويفسر معضلات الحياة ، فكان هذا العمل هو أول خطوة خطاها فى سبيل انشاء الاساطير ، وما الاسطورة سوى قصة خرافية صاغها هذا الانسان البدائى حسب ما أوحاه له خياله الضعيف



الاستاذ محمود تيمور

وتطورت تلك الاساطير أو القصص الخرافية شيئا فشيئا ، فأخذت تخرج عن دائرتها ، فعالجت سير الابطال ووقائع الحروب . ولكن جو الخرافة كان دائما يسيطر عليها . وبدأ الناس يسمعون قصص الغول وصاحب اللحية الزرقاء وما شابههما . وما ذلك الغول إلا رمز للحيوان المخيف الذى ظل يفترس الانسان ويرعبه دهراً طويلا ، وهل كان صاحب اللحية الزرقاء — شارب الدماء السفاح — إلا رمزاً لأمراء الاقطاعات الذين كانوا يسومون الافراد أفظع أنواع العذاب ؟

وبالرغم مما حوته هذه القصص من السخافة والعيث ، فقد عبرت عن نفسية العهد الذى كتبت فيه . فهذه أمة مظلومة ترسف فى أغلال الاستعباد أرادت أن تفرج كربها ، وتعبر عن آمالها ومطامعها . فاخترعت بطلا وهميا نسجت من حياته قصة النصر

ولما كانت الحروب أكبر عامل من عوامل تنازع البقاء وبقاء الاصلح . وكانت حوادثها بطبيعة الحال تملأ فراغ حياة الافراد والأمم القديمة — جاءت بلاغتنا الأولى صفحة دامية مفعمة بالفظائع والاهوال ، ولكن وجدت بجانب ذلك بعض القصص التى تدعو إلى السلام والمحبة . صاغها نفر من عباد الله الصالحين ، هذا النفر الذى مج القتال وحياة الفزع والتشريد . وحن إلى حياة السكينة والطمأنينة والرحمة

وكان الانسان يعيش قديما — قبل اختراع وسائل المواصلات — عيشة عزلة واعتكاف . المدن يفصل بعضها عن بعض تلك المسافات الشاسعة ، والنظم الاجتماعية والسياسية تفرق بين طبقات الامة الواحدة ، ففى البلد الواحد تكاد تعيش كل طبقة بمعزل عن الاخري . فالاشراف فى معاقلهم والعامة فى أكواخهم ، لا يعرف أحدهم عن صاحبه إلا النزر القليل . وهكذا الحال بين الامم ، فما يجرى فى أحدها من حوادث لايصل إلى جارتها إلى بشق الانفس . أضف إلى ذلك أن وسائل التسلية كانت محدودة ، فنشأت بحكم الضرورة طائفة من الناس أخذت على عاتقها أن تسد تلك الثغرة ، فتقدم لافراد الشعب وأمرائه كل ما يرغب فى سماعه من حكايات وأخبار كانوا يصوغونها شعراً وينشدونها على نغمات الآلات الموسيقيه ، ويلقونها ممثلين حوادثها تمثيلا ، وذلك ليعظم وقعها فى القلوب

هؤلاء هم الشعراء الرحل ، أو الشعراء المرتزقة . كان الواحد منهم يجمع فى نفسه شخصية الشاعر والقصصى والملحن والمغنى والممثل ، ولا نغالى إذا قلنا والمهرج أيضا . ولم يكن همّ هذا الشاعر إلا إرضاء جمهوره على حساب الآخرين ، فهو اذا دخل قصر الأمير سرد له وقائع الأمراء فى بطولة وشهامة وكرم نادر المثال ، وهو إذا ظهر فى حلقة الشعب انبرى يروى له فضائح القصور وانهال على الامراء يغمرهم بسخريته اللاذعة ، ويلصق بهم من العيوب مايريد له هذا الشعب أن يلصق وكنا نرى فى مصر ـ منذ عهد قريب ـ هذا الصنف العجيب من الشعراء المهرجين ، كانوا

يروون وقائع أبى زيد والزناتى على الربابة فى قهوات سيدنا الحسين ، وبالأخص فى شهر رمضان . ولكن الفونوغراف أولا ثم الراديو أخيراً أجهزا عليهم ، فلم نعد نرى لهم أثراً

وكان هذا الفنان البدائى يأخذ الأغانى من أفواه الحفاظ ، فيزيد عليها ، أو يحذف منها ، أو ينسج على منوالها ، فهو لم يكن بالحافظ الأمين على هذا التراث الأدبى ، ولا هو أيضا بالمبتكر . وعلى توالى الزمن كانت تتجمع هذه الأغانى ، فيأخذها فنان عبقرى ، وينظمها نظما جديدا فى ملحمة قوية ، يتغنى فيها بتاريخ أمته ، محدثاً الناس عن أبطالها ، راوياً لهم حوادثها الرائعة . ومن ثم ظهرت الملاحم ، وهى كثيرة ، أشهرها الاليـاذة والأوذيسة المنسوبتان لابى الشعراء هوميروس الاغريقى ، والأنياد لشاعر الرومان فرجيل

ويكاد يكون لكل أمة عريقة فى الحضارة ملاحم من هذا الصنف . فللهند المهابهاراتا وللفرس الشاهنامه ، وللطليان كوميدية دانتى الالهية ، وللفرنسيين أغانى رولان

فالالياذة هى قصة الحرب التى دامت عشرين عاماً بين طروادة وممالك اليونان ، أثارها اختطاف باريس أحد أمراء طروادة لهيلانه زوجة ملك اسبارطة اليونانية . أتى فيها هوميروس بأوصاف دقيقة خلابة عن الوقائع التى نشبت بين الفريقين ، وما تخللها من بطولة وحب ووفاء وشهامة . كل ذلك فى خيال واسع ، وشاعرية فياضة . والمعروف أن الالياذة ليست عمل فرد واحد بل هى مجموعة قصص نظمت وجمعت بواسطة الشعراء الرحل ، نخلتها الأذهان التى كانت تتناقلها على ممر السنين ، فخرجت حثالتها ومكثت زبدتها ، وجاء هوميروس وكان من فئة هؤلاء الشعراء ، ولكنه امتاز عنهم بعبقريته الفذة ، فتناولها بالصقل والتهذيب والانشاء حتى أخرجها للناس درة من درر الأدب العالمى

أما الأوذيسه فهى متممة للالياذة ، ومنسوبة للمؤلف نفسه ، سرد فيها قصة يوليسيس وكيف ضل طريق البحر وهو عائد مع رجاله الى اليونان بعـد حرب طراودة . وقد ذكر بعض النقاد أن هذه القصة ليست من عمل هوميروس لأنها تختلف فى الاسلوب عن سابقتها الالياذة ، وأن الروح التى تسودها روح نسائية ، فبينما نرى الالياذة قد اكثرت من وصف المعارك الوحشية والمناظر القاسية ، نرى الاوذيسة وقد تجلى فيها عراك المرأة وحيلتها ودهاؤها . وأسلوبها عليه مسحة من اللين والمسالمة . ولكن بعضهم يقول ان الأوذيسة من عمل هوميروس ، غير أنه لم ينظمها إلا فى اخريات أيامه ، فجاءت صورة لذهن الشيخ الهادىء الذي يعمل فى هوادة وروية . بعكس الالياذة فقد كتبها وهو فى ريعان الشباب والفتوة ، وذهن الشباب قوي جرىء لا يعرف اللين والرحمة ، فجاءت مفعمة بأهوال الحروب وفظائع البطولة

والأنياد لشاعر الرومان فرجيل نحا فيها نحو هوميروس ، وجعل لحوادثها صلة بالالياذة وقد نظمها الشاعر تمجيداً لاسرة أغسطس قيصر امبراطور الرومان فى ذلك العهد . ومما تمتاز به هـذه

الملحمة عن سواها أن الآلهة قد لعبت فيها دوراً أكثر خطورة وأبعد أثراً مما لعبته فى الملاحم الاخرى والمهابهاراتا الهندية ، والشاهنامة الفارسية ملحمتان عظيمتان تحويان صفحات رائعة من تاريخ ملوك كل من الأمتين

أما كوميدية دانتى الآلهية ، فهى قصة حلم خيالى للشاعر ، وصف فيه زيارته للجحيم والمطهر والفردوس ، وما قابله فيها من أناس مشهورين فى التاريخ والأساطير ، روى قصصهم وذكر أسباب وجودهم فى هذه الأمكنة . والملحمة ملأى بأوصاف رائعة لأنواع العذاب ،وألوان السعادة والهناء فى العالم الاخر . كل ذلك فى أسلوب أخاذ ، ودقة فائقة فى رسم الشخصيات ، يكسو هذا نظم ساحر وخيال فياض . وكان الشاعر يحب فتاة تسمى « بياتريس » حباً لم نسمع بما يماثله فى قوته وغرابته ، فقد بدأ حبه لها وهى طفلة فى التاسعة من عمرها ، وقيل انه لم يرها إلا مرات قليلة ، وأنها جهلت حبه وقد تزوجت بياتريس ثم ماتت ، فكان لهذه الفاجعة الاليمة أثرها فى نفس الشاعر فكتب ملحمته تمجيدا لها ، تخلد بذلك اسمها على مر الأجيال . ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المقام التشابه فى الفكرة والموضوع بين كوميدية دانتى ورسالة الغفران للمعرى . ولا يبعد أن يكون الشاعر الايطالى قد تأثر من بعض النواحى برسالة المعرى ، فقد ازداد اتصال الغرب بالشرق على أثر الحروب الصليبية التى بدأت عام ١٠٩٩ ووفاة دانتى كانت عام ١٣٢١ م

أما أغانى رولان الفرنسية فهى قصة الحرب التى كانت ناشبة بين العرب والفرنسيين أيام فتح الاندلس. وبطلها رولان بطل خرافى من جنود شارلمان

هذا شأن الملاحم . اما القصص النثريه الكبرى فنذكر منها اثنتين ، الاولى : دون كيخوتى لسرفانتى الاسبانى « وفاته عام ١٦١٦ م » والديكاميرون أو الايام العشرة لبوكاتشيو الايطالى « توفى عام ١٣٧٤ م » . أما الاولى فهى تهكم بابطال الفروسية ، ولكنها فى الوقت نفسه قصة إنسانية عالمية ، تصف وصفا أخاذا هذه الشخصية المريضة المحببة ، شخصية الرجل الذى يعيش فى عالم من خياله ، يطلب العظمة والمجد ، ويبت فى الامور من فوره لا يطلب تسويفا ولا تأخيرا . وقد وضع بعض النقاد شخصية دون كيخوتى مع شخصية هملت لشاكسبير فى مستوى واحد . وان كانت كل من الشخصيتين على نقيض الاخرى . فهملت ذلك الأمير البارد الطبع المتردد المثقل بأحمال الثأر لا يخطو خطوة إلا بعد تفكير ممض وحساب معقد ، وربما رفع قدمه ثم أعادها حيث كانت . وقد قيل ان العالم يتكون من شخصيتين : هملت ودون كيخوتى ، كلاهما مريض ، الأول يمثل التردد والخوف ، والثانى يمثل الاقدام والتهور . فالعالم إذن وفق هذه النظرية مكون من مرضى - مرضى العقول ، أى مجانين ، وليس هذا غريبا ، فقد قال الشاعر العربى :

وكل الناس مجنون ولكن على قدر الهوى اختلف الجنون

أما الديكاميرون لبوكاتشيو ، فهى مجموعة من القصص الانتقادية اللاذعة ، كشف فيها صاحبها الستار عن فضائح عصره ، وأتى فى بعضها بأوصاف منافية للآداب . وقد تفوق فى أسلوبها على جميع كتاب عصره . واشتهر أمر هذا الكتاب شهرة كبيرة ، حتى قيل انه كان مصدر الهام لكثير من الكتاب أمثال شاكسبير وجوتا وشوسر ولسنغ

وكان ماركو بولو « الذى توفى سنة ١٣٢٤ م » قد رحل قبل ذلك الى آسيا ، ومكث فى بلاط كوبلا خان امبراطور المغول عشرين عاما عاد بعدها الى وطنه محملا بكنوز الشرق، وأخذ يروى لأهل وطنه البندقية رحلته العجيبة فى تلك البلاد النائية التى لم يكن يعرف عنها الناس شيئا مذكورا فى ذلك الوقت . وكانت هذه الرحلة خليطا من الحقيقة والخيال ، تفنن فى روايتها صاحبها تفننا جعل لها سحرا وتأثيرا على النفوس ، فأخذ المؤلفون يحذون حذوها فى كتابة قصصهم . ومن ثم انتشر هذا النوع الجديد الملىء بالاخطار والمحوط بالغرائب والأسرار

وكان العالم قد سار فى طريق الاكتشافات فظهر كولمبس وفاسكودي غاما وماجلان وغيرهم من مشاهير المكتشفين الذين خاطروا بأرواحهم فى سبيل تحقيق فكرتهم . وقامت الدول تتنافس فى البحر بأساطيلها وعلى رأسها المكتشفون والمستعمرون يسعون فى الحصول على الثروة من طريق التجارة أولا ثم الاستعمار ثانيا ، فقويت روح المخاطرة بين الناس ، ورأينا أثر ذلك كله فى ادب العصر . فقرأ الناس روبنسون كروزو لدانيل ديفو كتبها مؤلفها على أساس قصة وقعية لبحار يدعى سلكارك ، قضى أربع سنوات وحيداً فى جزيرة جوان فرناندز . وكتب سويفت رحلات جلفر الى بلاد الاقزام والى بلاد العمالقة . وهذان الكتابان أصدق صورة للعصر الذى كتبا فيه . وكيف كانت أخطار البحار واكتشاف البلاد المجهولة تشغل عقول الناس وتؤثر فى نفوسهم

ولما انتهت الحروب الصليبية ، كان الاتصال بين الغرب والشرق قد قوى واشتد ، وظهرت له نتائج بعيدة الخطر ، منها ماهو مادى اقتصادى ، ومنها ما هو عقلى أدبى . وقد ذكرنا فى موضع سابق احتمال تأثير دانتى فى كوميديته الالهية برسالة الغفران للمعرى

* * *

والآن وقد تحدثنا فى ايجاز عن نشوء القصة والقصص الغربى فى الادب القديم ، نريد أن نعرض صورة للقصص العربى

أول مايصدم الباحث فى الادب العربى هو تفاهة القصة ، وقلة ما كتب فيها ، وعدم عناية العربى بها ، ولهذا أسباب سنبسطها فى حينها

والقصة فى البلاغة العربية قسمان : قسم موضوع ، وقسم منقول ، أو بعبارة أخرى قصص مؤلفة ، وقصص مترجمة . ومن النوع الاول : قصص عنترة ، والأميرة ذات الهمة ، ومجنون ليلى ، وسيرة بنى هلال وما ماثلها ، ومن النوع الثانى : كتاب كليلة ودمنة ، وألف ليلة . ومعظم القصص الموضوعة لها أصل تاريخى ، فأشخاصها ابطال حرب او حب حقيقيون . وحوادثها الرئيسية التى بنيت عليها حوادث وقعت فى التاريخ ، ولكنها تغيرت بمرور الزمن عند ماتناقلتها الألسن بالرواية فكان الراوي يتناول القصة من مصدرها ويرويها للناس حسب هواه ، فكان راويا ومؤلفا فى الوقت نفسه ، ومعظم هذه القصص مجهولة المؤلف . أما التى تحمل اسم مؤلف معين فانتسابها اليه كانتساب بعض الملاحم القديمة لأصحابها . فالمؤلف لم يكن سوى جامع لأخبار هذه القصة وراويها بعد تنقيح وتعديل ، وكثيراً ما كانت تنسب هذه القصص لرواة مشهورين أمثال الاصمعى ترويجاً لها وإعلاء لقيمتها ، والاصمعى وغيره برىء منها

ومعظم القصص العربية الموضوعة عديمة القيمة لغة وموضوعا وتأليفاً ، فقد وضعت للتسلية فحسب ، وكتبت بأسلوب مهلهل يرضى العامة قبل الخاصة ، فقد دعت الحالة السياسية فى كثير من الاحيان ـ وخصوصا فى الازمنة المتأخرة ـ الى أن يفكر الامير أو السلطان فى شيء يلهى به شعبه ، ويحوله عن عمل يريد القيام به ، أو أمر يريد اخفاءه ويخشى انتقاد الشعب له فيكلف أحد الكتاب تأليف قصة مسلية ذات حوادث غريبة ، فيؤلفها ، أو بالاحرى يجمعها من مختلف الافواه أو الكتب ، ويصوغها صوغا جديداً بعد تهذيب وصقل يناسب المقام ، ثم يعرضها على الجمهور لتسرق من وقته وتحول من تفكيره . فيخلو الجو للامير . كما حدث ذلك عند ما أمر الخليفة العزيز بالله الفاطمى الشيخ يوسف بن اسماعيل بأن يضع للناس قصة يلهيهم بها عن التحدث بريبة حدثت فى بيت الخلافة كانوا قد لغطوا بها كثيراً ، فجمع الرجل أخبار عنترة ، وصاغها فى قالب قصصى ، ثم نسخها وجعل ينشرها على الناس أجزاء صغيرة فأفلح فى مهمته

وعلى الرغم مما فى هذه القصص من ضعف التأليف وخلط الحوادث ، وركاكة الاسلوب فقد نجحت الى حد ما فى تصوير المجتمع العربى فى العصر الجاهلى والاسلامى ـ المتقدم والمتأخر ـ ولو كان مؤلفوا هذه القصص قد أجادوا تأليفها وصياغتها وعنوا بتهذيبها لتكون أقرب الى الفن الصحيح مما هى عليه الآن ، ثم جمعت بعد ذلك فى سفر واحد لكان هذا السفر للاداب العربية بمثابة الالياذة

أما القصص المنقولة فمنها مانقل من الاصل فى أمانة ، ككليلة ودمنة ، ومنها مالحقه التغيير ـ اما بالاضافة أو الحذف والصقل والتهذيب حتى كاد يصبح غريبا عن أصله ـ كألف ليلة وليلة

والآن نريد أن نتحدث عن الأسباب التى دعت العرب لاهمال القصة ، وقد لخصناها فى النقط الآتية : —

أولا : قلة الأساطير . ويعود ذلك إلى تأثير البيئة والأقليم فى عقلية العربى

فلا يخفى أن للأقليم تأثيراً قوياً على من ينشأ ويعيش فيه . فصاحب البلاد الجبلية ذات الغابات المخيفه . والكهوف الرهيبة ، والأنهار العظيمة . وماتحويه من وحوش وجوارح ، يختلف مزاجه عن ساكن السهول المنبسطة ، حيث المعيشة هادئة والنفس مستريحة . والمرء الذى ينشأ فى ذلك الجو القاسى بزمهريره وثلوجه ورياحه ورعده وصواعقه ، يختلف اختلافا بيناً عن ذلك الذى يعيش فى جو سماؤه صافية وشمسه مشرقة . فالانسان إبن بيئته . فلا غرابة إذن اذا وجدنا العربى غير عميق فى تخيله ، وهو الذي استوطن الصحراء المجدبة ، وعاش عيشة بدوية لا يعرف له مسكناً إلا بيوتاً من الشعر ، ثروته ناقته أو عنزته ، دائم الارتحال يسعى وراء المرعى ، قنوع بالقليل ، لا تكتنفه غير الرمال الشاسعة . فلذلك نشأ قليل الأساطير . ومن ثم نشأ قليل القصص ؛ لاتصال الثانية بالاولى كما أسلفنا القول . وإذا كانت العبادات الأولى هى من نتاج الاساطير ، فهمنا كيف كانت ديانة العرب الاولى تافهة سطحية ، بالغة غاية السذاجة . فقد قيل أنهم احتاجوا إلى إله يعبدونه . فعثروا فى الشام على الصنم « هبل » فأخذوه وألّهوه . ومن أغرب ما يروي عن آلهة الجاهلية أن العربى كان يصنع إلهه من العجوة ، فاذا جاع أكله . فهل سمعنا بآله يمتهن هذه المهانة ، لولا انه قليل المهابة فى قلوب عباده ؟

وعلى عكس ذلك نجد التخيل عند الهندي قويا ، وهو الذىعاش فى بيئةرهيبة ، أنتجت له أساطير رائعة ، وديانات ذات فلسفة عميقة ، وآلهةجبارة بمعابد فخمة عظيمة

ثانياً — اعتزاز العربى بآدابه

إن العرب كانوا يعتزون بآدابهم ، ويفاخرون بها ، معتقدين أنها متفوقة على باقى الآداب الأخري . فلم يعتنوا بدرس تلك الآداب ، ولم يترجموا غير القليل منها ، بل انهم وجهوا اهتمامهم إلى ترجمة الكتب العلمية والفلسفيه من اليونانيه والفارسيه

وليس اعتزازهم بآدابهم وحده هو الذى منعهم من ترجمة روائع الكتب الأدبية من لأدب الفارسى واليونانى ، بل لأنهم وجدوا هذه الآداب تزخر بالأساطير ، أساطير الآلهة ، فلم يقربوها خشية أن يكون لها تأثير سىء على عقائد الناس . كذلك أهملوا كثيراً من الفنون الجميلة إذ وجدوا فيها ما يذكرهم بأصنام الجاهلية التى عمل الاسلام على محوها . ومن ثم لم نجد للتمثيل والتصوير والنحت أثراً يذكر فى الفنون والآداب العربية . أما الموسيقى ، وهى الفن الذي لم يكن

يخشى منه على العقيدة الدينية ، فقد رأيناه يتبوأ مكانة عالية فى أثناء ازدهار المدنية الاسلامية. فبعد أن كان فى الجاهلية نوعا من أنواع الحداء ، رأيناه فى الدولة العباسية فناً قائماً بذاته مصبوغاً بالصبغة العربية ، له أصول مقررة ومذاهب متعددة ، فضلا عن آلات الطرب العديدة التى برع فى استعمالها المغنون ، وجلها - إن لم يكن كلها - مأخوذ عن الفرس ، وحسبك أن تعرف أن كتاباً كبيراً من أعظم كتب الأدب العربى ألفه صاحبه عن « الأغانى » ذكر فيه الشعر الذى كان مادة للغناء ، وضبط الألحان التى كان يغنى بها هذا الشعر ، ولكن ظلت الموسيقى العربية بالرغم من ذلك كله بسيطة ساذجة كالنفس العربية لا تعبر عن مختلف خوالج النفس الانسانية ، وهذه السذاجة ظاهرة طبيعية نلمسها فى جميع الفنون الجميلة العربية ، يدلنا على ذلك فن العمارة الاسلامية ، فقد استمد أصولا أولا من الفنين البيزنطى والفارسى ، واستطاع فيما بعد أن يستقل بنفسه ، ويوجد له طابعاً خاصاً به . ولكنه ظل فناً بسيطا قوامه الزخرفة الهندسية

والآن نريد أن نتحدث عن أشهر القصص العربية ، ولنبدأ بالقصص الغرامية فى عصر بنى أمية :

تعتبر هذه القصص أحد أركان الفن القصصى العربى ، وهى - بالرغم مما فيها من خلط فى التاريخ ومغالاة فى الوصف ، ونقص فى التأليف - تحتوى شيئا من مقومات القصة الفنية

وأهم هذه القصص ثلاث : مجنون ليلى ، وجميل بثينه ، وقيس لبنى ، وأبطالها مذكورون فى التاريخ ، ولكن منهم من اختلف فيه كالمجنون « قيس بن الملوح » فقد اختلف المؤرخون فى شخصيته اختلافا كبيراً يدعونا إلى الشك فى وجوده ، أما جميل بن معمر - جميل بثينه - وقيس بن ذريح - قيس لبنى - فليس هناك ما يدعو الى الشك فى وجودهما وان كنا ننكر شخصيتيهما على المثل الذى رسمه لنا المؤلفون ، ويلاحظ أن هذه القصص الثلاث قد اشتقت من ينبوع واحد هو ينبوع البادية وعالجت موضوعا واحداً هو الحب العذرى ، فبطلها دائماً بدوى يعيش عيشة الفطرة ، ويتحلى بصفات كريمة منها الكرم والشمم والعفة والشهامة ، وكل هذه الصفات موطنها البادية . أما حبه فحب عفيف طاهر ، ملك قلبه وعقله ، محفوف بالمصاعب والتضحيات ، وتكاد تشترك القصص الثلاث فى الحوادث نفسها التى بنيت عليها القصة ، فهناك حب مبرح بين اثنين ، ثم ظروف قاهرة تحتم عليهما الفرقة ، ثم موت كموت الشهداء ، ولكن هناك بعض الاختلاف فى التفاصيل ، وخصوصا فى قصة قيس لبنى التى يمكننا أن نعتبرها أقرب القصص الثلاث الى الفن الصحيح ، فقد عالج فيها مؤلفها أو مؤلفوها موضوع الغيرة ، غيرة الأم من زوج ابنتها

أما ظهـور هذه القصص فى عصر واحـد ، وعلى النمـط الذى ذكرناه آنفا ، فيعود إلى ما يأتى : —

ينقسم سـكان الحجاز إلى قسمين : قسم يسـكن البادية ، وقسم يسـكن الحضر ، وقد نافس الحجازيون أمراء بنى أمية وحاربوهم ، وكادوا يقوضون ملـكهم ، ولـكن شاءت الأقدار أن يستتب الأمر فى النهاية لمعاوية وخلفائه ، فعاد أهل الحجـاز إلي موطنهم ، واستقروا فيـه ، واعتزلوا ـ مضطرين ـ حياة الـكفاح والسياسة ، فمن كان منهم من أهل البادية ، عاش عيشة السذاجة والفقر ، ولـكن قلبه كان عامراً بالايمان الصحيح ، ومتى اجتمع الفقر والايمان والفراغ نشأ الزهد والتصوف فرأينا موجة الصوفية تعم بادية الحجاز . وأخذ الشعراء منهم يعبرون عن احساسهم بأشعار غزلية كلها مثل عليا فى الطهر والعفاف والتضحية ، وأخذت تحاك حول هذا الشعر أنواع من القصص أبطالها مزيج من الحقيقة والخيال ، ومن ثم ظهرت قصة المجنون وماماثلها

ولا يمـكننا أن نغفل بجانب هذا النوع من قصص الحب العذرى نوعا آخر ـ ولـكنه أقل أهمية من سابقه ـ هو قصص الحب الخليع ، وامام هذا الفرع عمر بن أبي ربيعة الشاعر ، مبدع الأدب المـكشوف فى ذلك العصر . والسبب فى ظهوره يعود الى حياة الترف والغنى مجتمعة مع حياة البطالة الاضطرارية التى كان يحياها أهل الحضر من زعماء الحجازيين وأمرائهم ، وكان الأمويون فى ذلك يتبعون مع هؤلاء الزعماء سـياسة المال ، فـكانوا يغدقون عليهم العطايا ، ويقررون لهم المرتبات الضخمة . ولـكنهم كانوا بجانب ذلك يحرمون عليهم الاشتغال بالسياسة ، ويبعدونهم عن مناصب الدولة ، وكانت السبايا من الفارسيات والروميات والتركيات وما ماثلهن ، قد ملأن بيوت هؤلاء الأمراء الحضريين من سكان الحجاز على أثر الفتوحات العظيمة التى تمت فى سرعة تدعو الى الذهول فانتقل هؤلاء السبايا ـ وكان معظمهم من البيوتات الـكبيرة ـ الشىء الـكثير من مدنية الأمم المحـكومة ، فاجتمع عند أهل الحضر من الحجازيين الثراء والترف والمرأة مع البطالة الاضطرارية ، فنتج عن ذلك الاسراف فى اللهـو ، ومن ثم جاء الأدب المـكشوف صـورة لهذه البيئة الجديدة

ننتقل من ذلك الى نوع آخر من الادب القصصى ، يسمى قصص الحرب والبطولة ، أو قصص العوام . ومنها عنترة ، والزير سالم ، وبنى هلال ، والبطال «القصة المعروفة بالأميرة ذات الهمة» والبراق التى منها حرب البسوس ، وسيف بن ذى يزن وفيروز شاه ، وما ماثلها

وقد سميت بقصص الحرب والبطولة ، لانها تروي لنا بعض وقائع الحرب فى العهد الجاهلى وما يليه ، وتتحدث لنـا عن شخصيات اشتهرت بالبطولة فى الحروب كعنترة . أما تسميتها بقصص

العوام فلأنها اشتهرت بين العامة أكثر من انتشارها بين الخاصة . أو بالأحري لأنها كتبت للعامة

وهى قصص تعتمد فى هيكلها على حوادث التاريخ ، ولكنها مشحونة بالاغلاط التاريخية التى لا يقبلها العقل السليم . أما نشأة هذه القصص فهى نشأة طبيعية بحتة ، فان الناس فى كل أمة يحبون البطولة والحرب ، يروون وقائعها مفتخرين بما حازوه من نصر فيها ممجدين أبطالها . وكانت حياة العربى حياة نزاع وحرب فقبائله دائما فى شجار وأخبار بطولته يزخر بها تاريخه . ومن ثم أخذ الرواة يروون للناس هذه الحوادث التاريخية ثم يضيفون اليها من عندهم ما أرادوا . وأخذت القصص تحاك حول هذه الاخبار شيئا فشيئا الى أن انتهت الى الحالة التى هى عليها الآن

وأشهر هذه القصص عنترة ، وقد عنى بها الافرنج فصاغ منها أحدهم رواية قصصية بالفرنسية ، وهى طبعاً غير الرواية التمثيلية التى ألفها نظما بالفرنسية الأديب السورى شكرى غانم ومثلت على المسارح الفرنسية ونالت صيتاً بعيداً

وقصة عنترة العربية أرقى من أخواتها لغة وشعراً . تصور حياة العربى فى العهد الجاهلى وتروى لنا شيئا من حروبه وما امتاز فيها من أبطال . وتصف لنا شجاعته وكرمه وحبه ووفاءه وتضحيته والقصة من الوجهة التاريخية غير موثوق بها . ففيها كثير من الخلط والغلط ، وهى فوق ذلك مفككة الحوادث ، لارابطة تربط بعضها ببعض . ولكن نرى فيها بجانب ذلك بعض مواقف روائية رائعة . منها الموقف الذى يموت فيه عنترة بسهم مسموم . فعند مايشعر بدنو منيته ويخشى على جيشه الهزيمة يسرع الى جواده فيمتطيه ويعتمد على رمحه ثم يموت . ويراه العدو من بعيد وهو ممتط فرسه معتمد على رمحه فيظنه حياً يدير رحى القتال فيرهبه ولايجسر على الدنو منه

والآن ننتقل الى قسم آخر من القصص الموضوعة ، ونسميه بالقصص العلمية والفلسفية . وهو ليس قصصاً بالمعنى المعروف لأن النزعة العلمية تسوده . فالغرض الذي رمى اليه المؤلف فى كتابة هذه القصص هو عرض فكرته الفلسفية أو نظريته العلمية . ومن ثم كانت الصياغة القصصية فى المرتبة الثانية . وجميع هذه الكتب ألفت بلغة سليمة فمؤلفوها من العلماء ، وقد كتبوها للخاصة من الناس . وأشهر هذه القصص : قصة حى بن يقظان ، والانسان والحيوان ، والصادح والباغم ، ورسالة الغفران ، والمقامات

فحى بن يقظان — وهو لابن طفيل — أظهر فيه مؤلفه شخصية عجيبة هى أقرب الشخصيات الى « طرزان » فهو ابن الغابة وربيبها . عاش على الفطرة وأخذ العلم من الطبيعة . والطريف فى هذه القصة تلك النظريات العلمية التى وفق حى بن يقظان الى اكتشافها فى التشريح وغيره ولايستبعد

أن يكون ديفو مؤلف روبنسون كروزو قد تأثر بفكرة مؤلفنا العربى ، فنسج على طريقته فى وصف الحياة الفطرية

أما كتاب الانسان والحيوان فقد ألفه « اخوان الصفا » فى القرن الرابع عشر الهجرى ، وجعلوه ذيلا لرسائلهم المشهورة وهو يحوى مناظرات بين الحيوان والانسان وقد حذا فيه مؤلفوه حذو كليلة ودمنة فى وضع الحكمة على ألسنة الحيوان ولكنهم لم يقتصروا على الحكمة بل خاضوا فى العلوم الطبيعية وتكلموا عن مميزات الانسان والحيوان . والكتاب يمتاز بتلك الصبغة العلمية الواضحة . تلك الصبغة التى اشتهر بها الاخوان فى رسائلهم

أما كتاب الصادح والباغم فهو يماثل قصص لافونتين الفرنسى ، وقد قال عنه صاحب كشف الظنون « انه منظومة على أسلوب كليلة ودمنة فى ألفى بيت لابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٤ هجرية فيه قصائد وأراجيز » والظاهر أن كتاب كليلة ودمنة قد ترك أثراً بعيد المدى فى الأدب العربى ، فقد نقله كتاب كثيرون غير ابن المقفع . ونظمه عدة شعراء من بينهم ابن الهبارية نفسه فى كتاب سماه نتائج الفطنة فى كتاب كليلة ودمنة . ثم نحا نحوه فى كتابه الذي نحن الآن بصدده . وقد رأينا كيف أن اخوان الصفا قد ألفوا كتابهم الانسان والحيوان متأثرين بكليلة ودمنة . ثم جاء ابن عرب شاه المتوفى سنة ٩٠١ هجرية فألف كتابه فاكهة الخلفاء . نحا فيه أيضا نحو كليلة ودمنة فى كثير من قصصه . نذكر ذلك لنبين الى أى حد تأثرت قصصنا العربية الموضوعة التى عنيت بالحكمة والفلسفة والعلم بكتاب كليلة ودمنة ، وهو من الكتب المنقولة عن الأدب الهندى

والآن نريد أن نتحدث عن المقامات :

حينما اتسعت المملكة الاسلامية على أثر الفتوحات ، ودخلت فى الأمة العربية أجناس مختلفة أخذ الدخيل من الكلمات والاصطلاحات يغير على اللغة الفصحى ، فخاف جماعة اللغويين والنحاة أن يصيب اللغة الوهن والفساد . فقاموا ينبهون الناس الى الخطأ ويرشدونهم الى الصواب ، وبدأ الكتاب يحسون بضعفهم أمام هجمات اللغات العامية ، فحرصوا جهدهم أن يكتبوا صحيحا واندفعوا ينتقون الكلمات انتقاء ويتخيرون الأساليب تخيراً . وتمادوا فى ذلك كثيراً وقامت المنافسة بينهم كل كاتب يريد أن يتفوق على زميله فى الانشاء ، فاهتموا بالعرض دون الجوهر . ومن هنا شاعت المحسنات اللفظية ، وظهرت قواعد جديدة فى البلاغة تعتمد على التزويق والبرقشة أكثر من اعتمادها على الفكرة وغالى الكتاب فى السجع ، حتى أصبح كل مايكتبونه مسجوعا . وتعمقوا الألفاظ المهجورة والأساليب الغريبة ليؤثروا بها على القراء ويظهروا لهم مبلغ تضلعهم فى اللغة . فى ذلك الجو نشأت المقامات ، وهى شبه أقاصيص يتخذ لها المؤلف بطلا وهميا يروى على لسانه ماشاهده من حوادث وما سمعه من أخبار . والمقامة ليس لها أي قيمة قصصية ، وان كانت وضعت فى القالب

القصصي ، لانها خلت من أهم مميزات القصة وهو الحادثة أو العقدة . كذلك خلت من الشخصيات الروائية الممتازة وتحليل نفسياتها . ودرس أخلاقها . والغرض الذي رمى اليه مؤلف المقامة هو عرض الموعظة أو النكتة المستملحة والألغاز اللغوية والنحوية ، كل ذلك في لغة ألفاظها جزلة غريبة ، وأسلوب كله مسجع . وقد نشأ هذا الفن الجديد من اتصال العرب بالفرس ، وتأثرهم بحضارتهم التي شملت فيما شملته الآداب . وأول من برع في كتابة المقامات بديع الزمان الهمذاني « المتوفى سنة ٣٩٨ هـ » ثم اشتهر بعده الحريري « المتوفى سنة ٥١٦ هـ » ثم الزمخشري « المتوفى سنة ٥٣٨ هـ » . وانتشر هذا النوع انتشاراً كبيراً حتى كان لكتابنا العصريين أثر كبير فيه . فقد كتب الشيخ ناصيف اليازجي « المتوفى عام ١٨٧١ م » كتابه مجمع البحرين ، وهو مجموعة مقامات على نسق مقامات الحريري والهمذاني . وكتب احمد فارس الشدياق كتابه الفارياق وهو متأثر بجو المقامة تأثراً عظيما . وظهر في العصر المتأخر كتابا عيسى بن هشام لمحمد المويلحي وليالي سطيح لحافظ ابراهيم وهما على نمط المقامات ، ولكن الأول تفوق على سواه من الكتب المقامية ، إذ خرج فيه عن جو المقامة واقترب من القصة الفنية بما عالجه فيه من شخصيات وأوصاف وحوادث

أما رسالة الغفران للمعري . فلا يبعد أن يكون مؤلفها قد كتبها متأثراً بجو المقامة . فقد توفي المعري سنة ٤٤٩ هـ أي بعد وفاة الهمذاني باحدى وخمسين سنة . ورسالة الغفران تفضل المقامات بمميزات عدة ، ولعل ذلك عائد إلى أن المقامة قد تمكنت من فكر المعري واستقرت فيه ، ولكنه تمثلها وأخرجها صورة أخرى حية ناضجة . وفي الرسالة كثير من السجع ، والأشعار العويصة المعاني الغريبة الألفاظ ، وفيها نقد لشعراء الجاهلية والاسلام وأدبائهما وفيها ذكر للرواة والنحاة . وفيها أيضاً تصوير للمجتمع العربي في مختلف عصوره . والشيء الكثير من هذا هو من موضوعات المقامة ، ولكن المعري عالجها في طريقة مبتكرة . أما ما امتاز به في رسالته وتفوق به على المقامة تفوقاً محسوساً فذلك هو خياله الخصب الواسع من جهة ، وسخريته اللاذعة الخفية من جهة أخري . فأي خيال أكبر من ذلك الذي يصور لنا الجحيم والجنة وما فيهما من عذاب ونعيم تصويراً رائعاً يملك على القاريء لبه . أما سخريته في هذه الرسالة فقريبة الشبه بسخرية أناتول فرانس القصصي الفرنسي الشهير ، فكلاهما تهكم لاذع لايشعر به إلا من قرأ مابين السطور . ورسالة الغفران قصة تخيل فيها المعري ذهاب رجل إلى الجنة ورؤيته لجهنم ، وما شاهده فيهما من شعراء وأدباء ، وما جرى بينه وبينهم من محاورات في الأدب والشعر واللغة ، وما قابله في الجنة من أناس لم يكن ينتظر نزولهم بها فسألهم . بم غفر الله لهم ؟ فذكروا له فيما ذكروا أشعاراً قالوها فغفر الله لهم من أجلها ، وكانت جوازهم إلى دار النعيم ، لذلك سميت رسالة الغفران . وقد ذكرنا قبل تماثل الفكرة بين

رسالة المعرى وكوميدية دانتى الالهية ، واحتمال تأثر الأخيرة بالأولى ، كذلك يوجد تشابه بين موضوع المعرى وقصيدة ملتن الشاعر الانجليزى ، المسماة « بالفردوس المفقود » . وبهذه المناسبة نذكر أنه على أثر ازدياد صلة الغرب بالشرق تأثر الأدب الغربى بأدب العرب ، وخصوصاً بكتابى ألف ليلة وكليلة ودمنة . فأقاصيص هانس اندرسن الدنمركى . ورحلات جلفرلسويفت الانجليزى ، وسياحات جيل بلاس للوساج الفرنسى ، وكتاب الغابه لروديارد كبلنغ ، كلها تحمل شيئاً من روح القصة العربية

والآن وقد انتهينا من القصص العربية الموضوعة سنتحدث عن القصص العربية المترجمة . وأهمها اثنتان . ألف ليلة ، وكليلة ودمنة

أما كتاب ألف ليلة فيحتوى على ثلاث مجموعات مختلفة . المجموعة الأولى . كتاب ألف خرافة الفارسى المسمى « هزار أفسانه » ، وهو مجموعة قصص خرافية فارسية وهندية . وهذه المجموعة لحقها كثير من التغيير على يد النقلة والرواة ، فخرجت عن أصلها . والمجموعة الثانية . قصص كتبها على نمط القصص السابقة مؤلفون من العرب ، بعضهم من بغداد والآخرون من مصر . وقد اشترك بعض اليهود فى تأليف هذه المجموعة . والمجموعة الثالثة . ماجمعه أبو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء والكتاب ، من حكايات ونوادر للعرب والفرس والروم كانت تروى فى حفلات السمر والمنادمة

هذه المجموعات الثلاث قد انصهرت فى بوتقة الزمن ، وعلى يد النقلة والرواة ، حتى وصلت الينا فى كتاب واحد يكاد يكون له طابع واحد ، هو كتاب ألف ليلة . ولكن الناقد الخبير ، والباحث المدقق ، والمحلل اليقظ ، يستطيع أن يرجع كل قصة فى الكتاب إلى أصلها . ولدينا وسيلتان تعيناننا فى هذا العمل . هما . الاسلوب ، والخيال . فالقصص ذات الأسلوب العربى الفصيح تدلنا على أنها كتبت فى العصر الأول . حينما كانت اللغة خالية من شوائب العجمة . والقصص ذات الاسلوب الركيك ، تدلنا على العصر الذي كتبت فيه بعد ، فهناك الخيال الفارسى ، والخيال اليهودي ، والخيال العربى الصميم ، وهلم جرا . ويلاحظ أن القصص الاسلامية الصرفة خالية من الخرافة . وهذا يؤيد النظرية التى أوردناها فى أول حديثنا ، وهى أن الأمة العربية لم تكن أمة أساطير

والكتاب من الناحية القصصية يعتبر من كتب القصص العالمية . وقد ترجم إلى معظم اللغات الحية . وهو فخر الأدب القصصى العربى بلا مراء ، وأكثر قصصه مفعمة بالاخطار والأسرار ، مملوءة بالمشوقات ، لايشعر القارىء لها بملل . وشهرتها العالمية تعود إلى عاملين هامين ، هما . سعة الخيال وقوته ، وبراعة الوصف فى رسم الشخصيات والبيئة . فنحن نشعر ونحن نقرؤها أننا نعيش

حقاً فى تلك البيئه الشرقية الاسلامية ذات السحر العجيب ، نعاشر أهلها ونستمتع بأحلامها

أما كتاب كليلة ودمنة ، فقد ترجمه عن الفارسية الكاتب عبدالله بن المقفع فى أسلوب من أبلغ الاساليب ، والكتاب أصله هندى وضعه بيدبا الفيلسوف رغبة منه فى اصلاح الملك دبشليم العاهل المستبد ، وجعل أقاصيصه على ألسنة الطيور والحيوان ، لاعتقاد البراهمة القديم بتناسخ الارواح . ورمى فيه الى بث الموعظة والحكمة ، والحث على الفضيلة ، والتنفير من الرذيلة

* * *

بهذا نختم حديثنا عن القصة العربية فى العهد القديم ، وليس أمامنا إلا كلمة عن القصة المصرية فى العهد الحديث

ليس من السهل أن يتصدى الناقد لمعالجة هذا الموضوع ، فالحكم على الزمن القريب محفوف دائما بالريبة وان حسن فيه القصد ، إذ أن للبيئة التى نحيا فيها تأثيراً علينا يكاد يعمى بصائرنا عن إدراك الحقيقة . فالعهد الحديث يجب أن يترك لنقاد المستقبل يدرسونه فى تؤدة وروية ، وفى جو صالح يساعد على استجلاء الحقائق وتفهمها تفهما نزيها . ولكن هذا لايمنعنا من أن نلقى بكلمة عابرة فى هذا الموضوع ، نستكمل بها حديثنا ، فنقول

القصة المصرية لايزيد عمرها عن الثلاثين عاما أو الأربعين ، فهى إذاً مازالت طفلة تحبو ، وميراثها ميراث ضئيل ، لايعتد به اذا قارناه بتلك الثروة الضخمة التى ورثتها القصة الغربية الحديثة عن آدابها فى القرون الخالية . والقصة المصرية لها ثلاث مراحل ، أو ثلاثة عهود . العهد الاول . عهد خضوع القصة لنفوذ الادب العربى القديم . والثانى . العهد الذى حاولت فيه القصة التحرر من نفوذ الأدب العربى القديم والاتجاه نحو الأدب الغربى . والعهد الثالث : عهدنا الحاضر ، وهو عهد خضوع القصة للأدب الغربى

فالعهد الأول وقع فى أواخر عصر النهضة أو عصر إحياء اللغة العربية . وهو العصر الذي بدأه العاهلان العظيمان محمد على واسماعيل . وقد جاء هذا العصر بعد احقاب طويلة مظلمة عانت فيها اللغة ضعفا وهوانا بالغين . وقد ظهرت المطبعة فى مصر قبل محمد على بقليل على يد البعثة الفرنسية وقت الاحتلال الفرنسى . فكان لها شأن يذكر إبان عصر الاحياء ، فانتشرت بواسطتها أمهات الكتب القديمة التى تداولتها الأيدى وأقبلت عليها النفوس الظامئة فى شغف عظيم ، فكانت نتيجة ذلك أن ظهر أدب جديد ، أدب حى ، له كثير من مظاهر الاستقلال الذاتى . ولكنه كان مع ذلك خاضعا فى الحقيقة للنفوذ العربى القديم ، وأئمة هذا العصر هم البارودى والبكرى والمويلحى ومن شابههم وكان أخيرهم ـ المويلحى ـ أول من فكر فى القصة المصرية الحديثة ، فألف كتاب حديث عيسى ابن هشام . وبالرغم من تضلع المويلحى فى بعض اللغات الأوربية وقيامه ببعض السياحات الهامة

فى اوربا ، فقد ظلت ثقافته عربية صميمة ، ولكننا نظلم المويلحى ونظلم عصره إذا جردناها تجريداً تاما من النفوذ الغربى ، فقد عملت البعوث العلمية عملها فى تقريب الثقافة الأوربية الينا ، ولكن تأثر الأدب بها ظل ضعيفا . فلما أخذ المويلحى يؤلف كتابه ، وجه نفسه شطر المقامة فنسج على منوالها ، إلا أن كتابه بز المقامة وتفوق عليها بمراحل كبيرة ، وان ظل دائما فى روحه « مقاميا » . لم يعن المويلحى فى كتابه بالقصة كما يجب أن تكون ، فلم يجعل لها وحدة مستقلة مترابطة الحوادث ، لها عقدة يصوغ موضوعه عليها . بل اهتم بالجانب الاستعراضى، فأخذ يستعرض المناظر ، وينقد الأخلاق فى فكاهة مستحبة ، وأسلوب جذاب ، يفسده بعض الفساد قليل من السجع . ولعل أكبر معجزات هذا الكتاب أنه كان يعبر عن الذهنية المصرية فى ذلك العهد . ويعود هذا طبعا الى أن الشعور بالقومية المصرية كان قد بدأ يستيقظ . تجىء بعد ذلك المرحلة الثانية فى تطور القصة المصرية الحديثة ، وهى المرحلة التى بدأت فيها القصة بالخروج من الدائرة التى رسمها لها الأدب العربى القديم ، وكان ذلك على أثر ازدياد اتصالنا بثقافة أوربا ، وازدياد هذا الاتصال يعود الى امرين ، الأول · مركز مصر السياسى ، والثانى : ايماننا بحاجتنا الى المدنية الأوربية التى اعتبرناها مثلا للتقدم والنجاح ، وكان على اثر هذا الاتصال المتزايد أن أخذ بعض أدبائنا ممن أتموا دراستهم فى اوربا وتشبعوا بالأدب الغربى يحاول التحرر من سيطرة النفوذ العربى الصميم ، محتذيا فى ذلك الأدب الغربى . وكانت باكورة تلك الجهود ظهور رواية « زينب » للدكتور هيكل ، وهى أول قصه مصرية توافرت فيها عناصر القصه الفنية

والى هنا تنتهى المرحلة الثانية ، وتبدأ المرحلة الثالثة حينما أخذت موجة الغرب تطغى وتتزايد فرأى القاص المصرى لزاما عليه أن يدرس القصص الغربى ويتعمق فى درسه ، ليضمن لنفسه التفوق والنجاح فى فنه ، ولم يكن فى ذلك بمخطىء ، بل انه سار فى الطريق الطبيعى . فالقصة الغربية بلغت فى وقتنا هذا ارفع منزلة ، ووسع ميدانها أعمق الابحاث وأخطرها . واكتسب قصاصوها عن جدارة وحق أكبر الالقاب . فصارت بطبيعة الحال الهدف الذى نرمى اليه ، والمعين الذى نستقى منه . وعاشت القصة فى هذه البيئة لاتتنسم إلا نسيم أوربا . فاختنقت به وكادت تتنكر لمواطنيها ، وأصبحت فى شكلها كالاوربى الذى يأتى الى الشرق ليرتدى الجبه والقفطان والعمامة ويسير فى أروقة الأزهر ، وهو يعتقد انه انقلب الى شرقى صميم . ونسينا أن عملية الهضم وتمثيل الغذاء ذلك الغذاء الأوربى الدسم خلاصة القرون الماضية يتطلب أعواما وأعواما حتى يتحول الى دم صالح يجرى فى عروقنا ، دم مصري يغذى عقولنا . ومن ثم نستطيع التعبير فى عقلية مصرية خالصة ، فهل دنا هذا الوقت؟ لامراء فى أننا على عتبة هذا العصر الجديد

وحسبنا أن يظهر فينا مثل طه حسين بكتابه الأيام ، وتوفيق الحكيم بأهل الكهف وعودة الروح حتى نعلم أن القصة اليوم تجارى سائر النهضات الأخرى ، فأخذت تتخلص من النفوذ الاوربى . وتظهر لأبناء وطنها مستقلة تتبوأ مكانها فى الأدب العالمى

أنتون تشيكوف

للاستاذ حسن حبشى

ربما كان أنتون تشيكوف أبرز الادباء الروسيين فى القصة الصغيرة ، فقد ترك مجموعة ضخمة ، تقع فى ثلاثة عشر مجلدا ، مابين قصة أو رواية مسرحية ، تتراءى لك فى كلتيهما الحبكة الفنية ، وبراعة القصاص الماهر فى استكشاف الجوانب الدقيقة من الحياة الانسانية والاجتماعية المختلفة ، وتصويرها تصويرا جليا لايدع مجالا للشك فى نفس مطالعها بأنها واقعية، وأنه يشترك فيها بعواطفه واحساساته وخيالاته ، ولعل هذه البساطة المتناهية هى السر فى رواج أدب تشيكوف ، فهو أدب يرفع لك الستار عن نواح خفية ، من الطبيعة البشرية ، فيها متعة ولذة ، وفيها ألم وتعب ، وفيها فكاهة مريرة ، ودمعة تتخللها ابتسامة ، وعلى العموم فهى قصة الحياة اليومية التى ستظل حية ، مادامت العواطف الأنسانية باقية ، ولن تفنى هذه العاطفة ، كما أنها لن تخمد فى الجنس البشرى ، بل هى أبرز مميزاته وأوضح صفاته

لم يعمر تشيكوف فى الحياة طويلا ، ولكنه بالرغم من ذلك ترك ثروة أدبية ، هى مورد ضخم لمن يريد أن يعرف الحياة من الكتاب ، وهو اليوم يتمتع بالشهرة ميتا ، أكثر من تمتعه بها حيا ، وليست هذه الشهرة محلية فحسب ، بل هي عالمية ، فأنك تستطيع أن تقرأ عن تشيكوف فى لغة أى أمة ، وتستطيع أن تجد الدراسات عنه فى أى لسان ، وتستطيع فوق هذا وذلك أن تجلس الى من يسرد عليك الكثير الممتع من قصص تشيكوف ... ذلك تشيكوف الذى له الاثر الأكبر فى القصة ، وبالتالى فى النثر الروسى ، والذى يعده الكاتب « جانكولافرين » أول فنان وضع أسسا ثابتة ودعائم قوية للقصة الروسية » وبالرغم من محاولاته فى الدرامة Play فانها لاتعادل قصته الصغيرة من الناحية الفنية ، وما كتب هذه الروايات المسرحية « كمجموعة الاخوات الثلاث . وروايات أخرى » ألا ليكون له فى كل ضرب سهم ، ولكننا نعتقد أنها كانت محاولات غير ممكنة ! ويقول مستر وليام ليون فيلبس : ص ٢٣٥ « ان الدرامة الروسية ، لاتقارن بالقصة ، وأنى لم أقرأ رواية تمثيلية قوية البناء ، سوى رواية « المدير » اذأن معظم ما كتبوه فى هذه الناحية ،

لاتهضمه طبيعة الأجنبى ، بل تتركه باردا». ولـكن يقول مستر بارنج : «ان روايات تشيكوف التمثيلية تـكون ممتعة مجدية مبهجة لا للقارىء فقط بل فى تمثيلها على خشبة المسرح »

ولا شك أن مستر بارنج كان موفقا فى الاشارة الى هذه الناحية ، من أدب تشيكوف ، لأن لاختلاف الامزجه أثرا كبيرا ، فى تقبل أو فرض المعروض أمام الشخص ، ويستشهد صاحب كتاب « دراسات عن القصصيين الروس » أن مدام نازيموفا قالت : أن تشيكوف هو أحب القصصيين اليها وأقربهم الى نفسها ، أما رواياته التمثيلية فمن الصعب أن يقبل عليها جمهور الامريكيين مالم تجد الممثل البارع جدا

ومهما يـكن الامر فان ذلك لا يضير تشيكوف ، الذى خلف لعشاق الادب هذه الثروة القصصية الهائلة ، والتى جعلته من أكبر قواد الادب الروسى فى العالم المتمدين ، وقد مات فى المانيا وهو لم يجاوز الرابعة والاربعين من عمره ، الذى اشتغل كل لحظة فيه لأن يـكون زعيم القصة ، ولابد لنا أن نشير هنا ، الي أن تشيكوف فى صغره ، دخل كلية الطب فى جامعة موسكو ويقول هو عن ذلك : « ولست أذكر جيدا ، لماذا آثرت كلية الطب ؟ ولـكنى على كل حال ، لم آسف مطلقا على هذا الاختيار » وفي هذه المدة التى قضاها طالبا يتلقى العلم ابتدأ يكتب بوضع موضوعات للتسلية ، ولـكنه كرس حياته بعد ذلك ، لخدمة الادب الرفيع ، واستغل مواهبه في اخراج القصة الروسية الحديثة ، وقد كان لتعلمه الطب أثر كبير فى أدبه ، ذلك أنه كان يعمد الى مراقبة أخلاق المرضى وطبائعهم ، وتعرف ماعندهم من الشذوذ ، ولاشك أن مثل هذا العمل يوقف المرء على النفسية البشرية ، فى اطوارها المختلفة ، وظروفها المتباينة ، وكان هو يستخدم ذلك لتغذية موضوع قصصه ، ولذلك نرى التحليل السيكولوجى ، يغلب فى بعض ما كتبه وخاصة فى رواية «الاخوات الثلاث» وايفانوف ، واذ بلغ السابعة والعشرين من عمره أخرج للناس مجموعة تحوى ما نشره من القصص الفـكاهية ، ولـكن البعض أخذ يقرعه ويعاتبه معاتبـة شديدة ، ولذلك انصرف الى تصوير الاشجان ، وصبغ قصصه صبغة حزينه ، وان لم تبلغ فى قوتها من هذه الناحية ما بلغته قصص دستوفسكى ، او قل أن كلا منهما كانت له وجهة خاصه ، فبينما دستوفسكى يعمد الى تصوير الآلام فى صورة قوية ، اذا بتشيكوف ، يحوم حـول الموضوع وهـذا واضح فى قصة « الرهان »

وفى قصة « الشهرة » أيضاً مثال لهذه الناحية فى أدب تشيكوف فهو يرفع الستار لنا فيها عن

شاب يتقد ذكاء ، وقد جلس قبالته رجل تبدو عليه سيماء الجلال والمهابة فى إحدي عربات الدرجه الأولى بالسكة الحديدية ، ويأخذ الأول فى التحدث عن نفسه وأعماله الهندسية الجليلة ، ويندد بالناس لأنهم لم يذكروه بكلمة ، بينما ظلوا وظلت الصحف تلهج باسم ممثلة ، وتنثر الرياحين تحت قدميها وهكذا نالت شهرة فائقة على حين هو ظل مجهولا ، وتنتهي القصة بأن يعرف الشاب أن الجالس أمامه أستاذ وعالم فى جامعة ولكنه لم ينل شيئاً من الشهرة

وقصص تشيكوف تمتاز بميزة تعرف بها من قصص غيره ، ذلك أنها عقلية أكثر منها عاطفية ، فالعقل يتلقاها قبل أن تصل الى العاطفة ، وهي تبعثك على التفكير القوى والاحساس العميق معاً ، ويقول عنه تولستوى . « أن تشيكوف يشبه تماما جى دى موبوسان » غير أن مسترولیام فيلبس ينفى جانباً من هذه الفكرة ، إذ يقول . « أن تشيكوف يشبه موباسان ، فى أنه كتب كثيراً من القصص القصيرة »

وتستطيع حين قراءتك لقصصه أن تلمس الطبيعة والخلق الروسيين واضحين فى غير تعمل وذلك لتأثره العلمى ، الذى جعله يميل أحياناً ، للافصاح الساذج ، وبسط شخصية أبطاله ، وهذا واضح فى كثير من رواياته وقصصه ، كما يتضح ذلك فى قصته المسماة « « On theWay » » حيث يقول على لسان البطل « لقد أوجدت الطبيعة فى كل شخص روسى ، عقلا دائم التساؤل ، وميلا للتأمل ، ومقدرة خارقة فى الاعتقاد ، ولكن كل هذه سرعان ماتتحطم بدداً ، وتتلاشى فى التراب ، أزاء غفلتنا وتراخينا » ومن هذه العبارة نستطيع أن نعرف ماهية الطبيعة الروسية ، وقد كتب أحد النقاد عنه ، فقال . « لقد كان تشيكوف طبيباً ، ورجلا أفكاره عبث ، فانه يرى الأمراض حيث توجد وحيث لاتوجد ، ولذلك تدين قصصه إلى هذه الناحية ، بشىء كثير مما فيها من التصوير والتحليل » وقد نستطيع من روايته « الحارس رقم ٦ » أن نتعرف إلي الشخصية الروسية ، فهو يميط لنا اللثام عن مستشفى الامراض العقلية ، ويرينا كما يقول عنها مامماريك « أن بعض أجزاء من روسيا لم ترق خطوة واحدة ، ولم تزل كما وصفها لنا جوجول فى قصة « المدير » إذا كان ماجاء به تشيكوف حقاً » ذلك أن الحارس يعامل المرضى ، معاملة وحشية لا أثر فيها للرحمة ، أو العدل الانسانى ، الواجب عليه اتخاذه أزاء هؤلاء المنكوبين ، فتراهم يعيشون فى محيط من العذاب ، وبيئة من القذارة المموجة ، أما تشيكوف فيرى هؤلاء ، ويلحظهم بعين الطبيب المقدر عمله ، وما عليه من واجب نحوهم ، ويلمس الشقاء المخيم على المكان ، وتشمئز نفسه من ذلك كل الاشمئزاز

ولكنه لا يملك القوة الكافية أو النفوذ اللازم لتغيير أى شيء من النظم السائدة ، والطرق المتبعة ، وتراه أيضاً فى هذه القصة ، أو ترى بطله . يتعرف إلى مريض يتحدث اليه بضع ساعات ، ويعجب الطبيب بهذا المريض كل الاعجاب ، مما يدعو أصدقاءه لأن يعتقدوا أن بصاحبهم مسا من الجنون ، ويعاملونه معاملة كلها شفقة به ، ورثاء له ، وسخرية منه ، مما يكاد يخرج الرجل العاقل الرزين ، عن دائرة الحلم والعقل الى دائرة الجنون ، وتنتهى القصة ، أو توشك ، حين يدعوه أحد زملائه لزيارة المستشفى لاختبار حالة غريبة شاذة ، وحين يعبران الباب ، ويتوسطان الدار . يدفعون به إلى الحارس رقم ٦ ، ويرى أن أبواب الدار قد أوصدت دونه ، فلا يستطيع الخروج منها إلى الابد ، ويراهم قد هيئوا له فراشا ، ولكن كيف يتسنى له أن يعيش عيشة المجانين ، وهو الرجل الكامل العقل ؟ حينذاك يهيىء تشيكوف ، له سبل النجاة ، ولكن بالموت ؟ اذلا تكاد تمضى عليه أربعة وعشرون ساعة ، حتى يصير جثة هامدة لاحراك بها ، بعد أن يجتاز مرحلة وأزمة نفسية عميقة ، وفترة عقلية هائلة ، ومما يلاحظ هنا ، أن القصص الروسية بالاجمال ، تبرع كل البراعة ، فى وصف الموت ورهبته وجلاله :

وقد كان تشيكوف ، كما يقول فيلبس . « يميل بنوع خاص ، إلى خيال الاطفال وأظهارهم أعقل من آبائهم المدربين فى الحياة ، وذلك واضح فى بعض الاحيان ، كما فى قصته « فى المنزل » حيث يصور الأب ، وهو يؤنب ولده على رسمه الجندى أطول من البيت الذى يقوم بحراسته ، فيجيبه الولد بقوله « إذا طاوعتك يا أبي ورسمت الجندى ، أقصر من المنزل ، فلن تستطيع أن ترى عينيه » وهذا الالتفات بديع ، بل هو وثبة من وثبات الخيال الجرىء

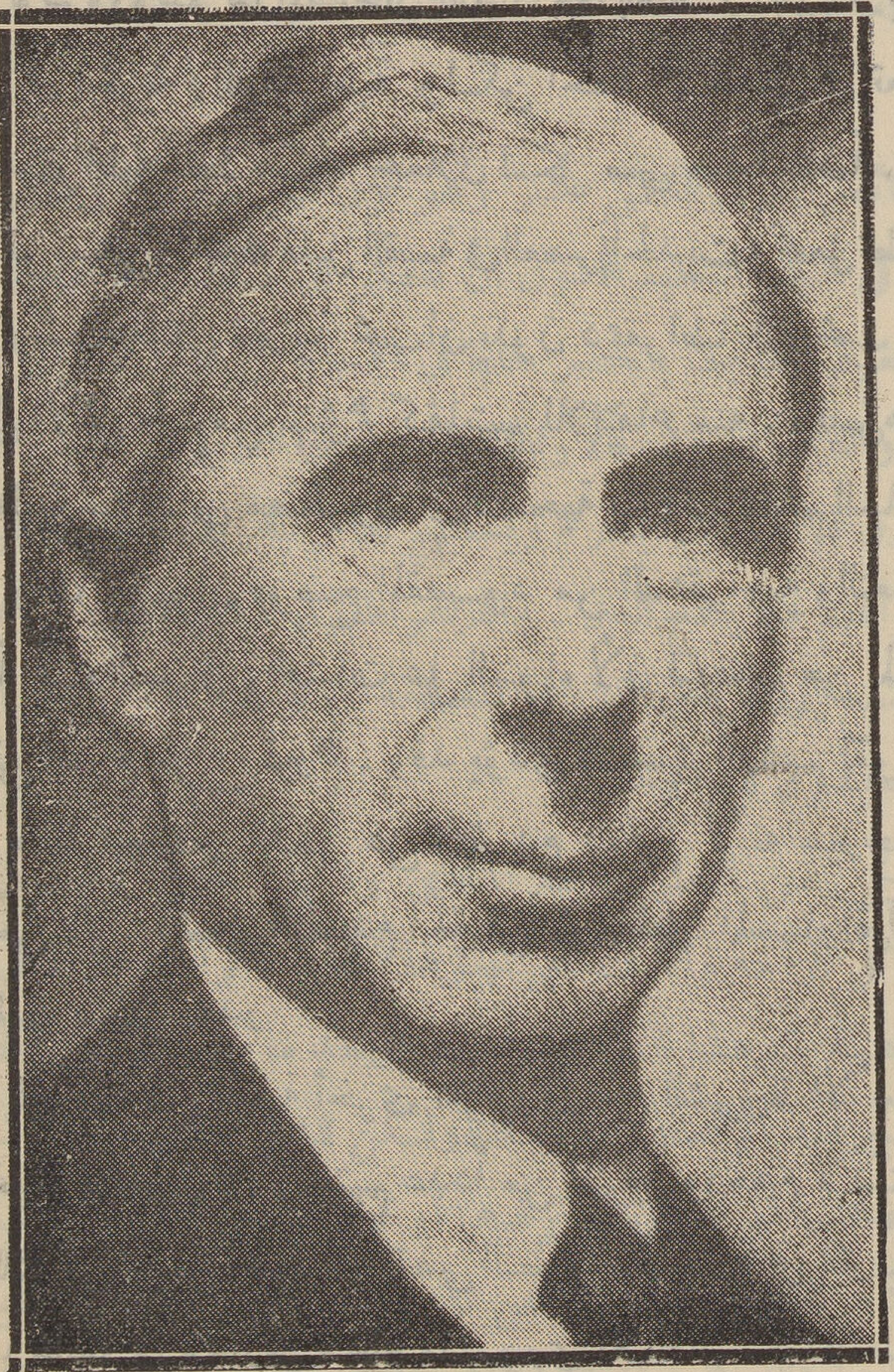
وفى قصة « الراهب الاسود » يصور لنا رجلا كثيراً ما يرى فى النوم شبح قسيس أسود يزوره على أجنحة الاثير ، ويظلان معا ، في محادثة تستغرق عدة ساعات طوال ، ويمده بطائفة من النظريات والآراء ، التى يحاول أن يتبعها زوجه وأبناؤه وأصدقاؤه ، فيحيك الشك فى نفوسهم بأن بصاحبهم لوثة فى عقله ، وبدلا من أن يحذروه من التمادى فى هذه الافكار ، يعمدون الى ماهو أسوأ نتيجة ، وأردأ عاقبة ، وذلك بأن يوهموه بأنه مريض ويضطروه لتناول الدواء ، وتنتهى حياته بمأساة مفجعة وتنفصل عنه زوجته ، أما هو فيموت

آراء فى التربية

لبرتراند رسل

تمهيـــــد

كثير من الاباء ينظرون الى النظم التعليمية القائمة فيرونها ملأى بالعيوب وهم لذلك يحجمون عن تعريض أبنائهم لمساوئها . وقد يفكر بعضهم فى تربية أبنائهم على يد مربيات أو معلمين فى المنزل ولكن لنظام التربية البيتية عيوباً كثيرة أهمها أنه يحرم الاطفال من الصحاب ويجعلهم يشعرون بالشذوذ عن المجموع . فيضطر الاباء إلى ارسال أبنائهم الى مدارس ملأى بالعيوب دون أن يكون لهم فى ذلك حيلة ، وقد يسهل يسار الاب مهمة اختيار المدرسة لأبنائه أما الطبقة العاملة فتنتظر الاصلاح وهو اصلاح يجب أن يكون نشطاً وشاملا ويجب أن يكون الهدف فيه خير الجماعة وخير الابناء على السواء



برتراند رسل

والتعليم الذى نقترحه لأبنائنا يجب أن يكون متوقفاً على المثل العليا التى نريدها للخلق الانسانى وعلى الدور الذى نأمل منهم أن يقوموا به فى خدمة المجتمع وهناك نظرتان مختلفتان الى الغرض من التعليم : الاولى تعده وسيلة لتلقين بعض معلومات وآراء خاصة والثانية تراه سبيلا الى تكوين التقدير الحر المستقل وقد جاءت كل من السيكولوجية والبيداغوجية الحديثة فاثرت فى النظم

التعليمية السائدة وخصوصاً فى الخمس السنين الأولى من العمر . اذ تبين أن لهذه الفترة من حياة كل انسان تأثيرا هاما عليه فى المستقبل لأن الخلق يتكيف فيها بما يصعب التحرر منه أو الاقلاع عنه فيما بعد

والباحث لموضوع التربية يجب أن يفرق بين تربية الخلق وتنمية المعلومات. فالمعلومات لازمة لممارسة كثير من الفضائل بنجاح . وسنبدأ أولا بتربية الخلق لأهميتها فى السنوات الأولى من الحياة ثم نبحث التربية الذهنية بعد ذلك : أغراضها وبرامجها وكل الفروض الممكنة فيها من رياض الاطفال إلى الدراسة الجامعية

(١) المثل العليا للتربية

١ — النظرية الحديثة فى التربية

لوك وروسو هما المصلحان اللذان قاما باصلاح نظم التربية قبل القرن التاسع عشر . وكلاهما كان نزع الى الحرية والديمقراطية ولكن الخطأ الأساسى فى تعاليمهما أنهما عنيا بتعليم أبناء الطبقة الارستقراطيه فقط فكانا يجعلان لكل صبى معلماً خاصاً . وقد يكون لهذا النظام بعض الحسنات ولكن مساوئه تجعله قليل القيمة فى العصر الحديث وتجعل تطبيقه مستحيلا

والنظام المثالي للتربية يجب أن يكون ديمقراطيا أي يجب أن يكون مفتوحا أمام الجميع على السواء أو على الأقل لجميع من تهيؤهم كفايتهم للانتفاع منه . وليس هذا سهل المنال فى الوقت الحاضر. ولذلك فالغالبية من الناس مضطرون الى التضحية بأبنائهم للنظم السائدة الآن

وهنا يجب أن نوضح المقصود من الديمقراطية والتعليم . فمن اكبر الخطأ أن نضع مستوى ثابتاً لجميع الصبيان والفتيات على السواء لأن لبعضهم من المقدرة والذكاء ما يؤهلهم للسير فى التعليم بخطى أسرع من غيرهم . وقد يؤدى التطبيق الغشيم لقواعد الديمقراطية الى الظن بعدم وجودها وفى هذا أكبر الخطر على التقدم العلمى لأنه سيرجع بالمستوى العام للتعليم القهقرى . فينبغى الا نضحى التقدم الحقيقى فى مقابل المساواة الآلية . وينبغى أن نعالج ديمقراطية التعليم بكل حذر

غير أننا من ناحية أخرى نعرف أن من الشروط الأساسية فى التعليم أن يكون عاما . وأبناء الأغنياء يجدون فى رعايتهم عدداً من المربين والخدم لايستطيع أي نظام اجتماعى أن يكفله للجميع ولذلك فمن حسن الحظ أن تقضى النظرية الحديثة فى التربية بجعل التعليم ديمقراطياً . ويري ذلك بصفة خاصة فى مدارس مدام منتسورى للاطفال . أما التعليم العالى فلا مفر من أن يعطى كل طالب فيه الفرصة التى تهيؤها له كفايته

وهناك نزعة أخرى فى التربية الحديثه تتصل بالديمقراطية أيضاً : هى التروع بالتعليم الى الفائدة والنفع دون الزينة واللهـو . والتعليم للهو يتصل بالارستقراطية . واذا نظرنا الى التعليم من هذه الناحية ظهرت لنا عقبة أخرى تقيمها المرأة فى دعوتها الى المساواة مع الرجل . . فانها فى غمار هذه الدعوة تريد أن تـكون برامج التعليم للفتيـات هى برامجه للصبيان ناسية أن ما « يفيد » الفتى قد لا يفيد الفتاة دائمـاً ومتجاهلة أن اى، نظام تعليمى سليم للفتاة لا يجوز أن يـكون خاليا من دروس عمليه فى الامومة

وهنا ينبغى أن نوضح المقصود من كلمه « الفائدة » . فالنشـاط المفيد هو ـ فى أوسع معانى هذه العبـارة ـ الذى يؤدى الى « نتائج » حسنة . و « النتائج » الحسنة تختلف باختلاف الحاجة اليها وطبقاً لوجهات النظر المتباينة . فبعض الناس يعدون العمل « مفيدا » إذا كان من «نتيجته» اشباع حاجات الجسم ورغائبـه . وهؤلاء مثلا يرون الدعوة الى الفلسـفة خطأ ينبغى تجنبه وقد يـكونون على صواب إذا نودى بالفلسفة فى زمن المجاعة لأن اشباع الجوع فى تلك اللحظات يكون ألزم من أى عمل آخر

أما التعليم للهـو فقد كان من خصائص القرن الثامن عشر وهو لون من ترف الارستقراطية ندرسه الآن كدور من أدوار التطور فى النظم التعليمية دون أن نفـكر فى اصطناعه لانفسنا

والمشكلة الهامة التى نواجهها فى التعليم الحديث ينحصر حلها فى الاجابة على هذا السؤال :

أولها . بين فريق الارستقراطيين والديمقراطيين . فالأولون يقولون ان التربية فى أبناء طبقتهم يجب أن تتجه نحو تعليمهم كيف يشغلون فراغهم فيما يسرهم ويسليهم أما تربية ابناء العـامة فيجب أن تتجه نحو تعليمهم كيف يشغلون فراغهم فيما ينفع الغير . والديمقراطيون لا يوافقون على هـذا الرأى ويقولون ان اتباعه يقسم المجتمع إلى فريقين ليس فى المصلحة أن يوجدا فيه . فريق الذين يعيشون للنفع والفائدة وفريق الذين يعيشون للهو والتسلية

وثانيهما . بين فريق الذين يرومون من التعليم النفع المادى وفريق الذين يرومون منه اللذة الذهنية . فالأولون يرون أن وسائل الراحة والترف التى تهيؤها الحضارة الراهنة للانسان ألزم له وأجدى عليه من مختلف اللذات الذهنية . وهذا الـكلام صحيح إلى حد ما ولـكنه ليس الحقيقة كلها . فقد لا يكون للخير المادي أثر كبير عند الانسان إذا اعتاده ولـكن للشر المادى مضاراً كثيرة وقد ينال بعضها من كفايته الذهنية . فالمجاعة أو المرض أو ترقبهما أو توقيهما من الأمور التى شغلت جزءاً كبيراً من جهد الانسان منذ أقدم العصور وصرفته عن تذوق السعادة أو التمتع بالحياة كما ينبغى . أما الآن فقد استطاعت هذه الحضارة الصناعية أن توفر للانسان — لأول مرة فى تاريخه —

قسطاً معقولا من الترف والسعادة . وأصبح فى مقدوره أن يكافح آفات المادة كالفقر والمرض وأن يحصل على القدر الكافى من الطعام وأن يجعل نسله فى الحدود التى يسمح بها انتاج الدنيا من الغلات. وكل هذه أمور لها قيمتها فى الحياة الانسانية فلا يصح أن نتجاهل النظام التعليمى الذى يدعو لها ويؤدي اليها . ومثل هذا النظام يجعل للعلوم التطبيقية المقام الأول وهذه العلوم — وهى الطبيعيات والفسيولوجيا والسيكولوجية — هى الأساس الذى سوف تقوم عليه الدنيا الجديدة . ولن يضير هذه الدنيا فى شيء أن تخلو من اللاتينية أو اليونانية أو من دانتى وشكسبير أو من باخ وموزار

ويقودنا هذا البحث إلى الاعتراض الثالث فى الموضوع وهو . هل صحيح أن المعلومات التى لاقيمة لها إلا فى ذاتها غير نافعة ؟ والجواب على هذا نعم . فالكثيرون من الناس قضوا جزءاً كبيراً من صباهم وشبابهم فى دراسة اللاتينية والاغريقية واشباههما من العلوم فهل يستطيع أحد أن يزعم أن هذه الدراسة كانت أكثر من مجهود ضائع عقيم . . . وهل يستطيع أحد أن يزعم أنها تجعل المرء أصدق نظراً إلى مختلف المسائل والمشاكل التى تعرض للحضارة الراهنة ؟ أما العلوم الطبيعية والرياضية فانها ليست عظيمة القيمة فى ذاتها وحسب ولكنها تمد أمام المرء آفاقا لاحصر لها للتأمل والفكر وهى محك الحقيقة فى عالم يفيض بالزيف والضلال . أضف إلي ذلك أن المعارف الانسانية يتسع مداها على الأيام والمشاكل البشرية تزداد تعقيداً كل حين فينبغى أن يكون من واجب كل جيل أن يصلح نظمه التعليمية حتى يستطيع أن يطابق بينها وبين مايستجد من أمور الدنيا ولن يتيسر له ذلك إلا إذا عمل على تبسيط الثقافة الأدبية فى النظم التعليمية حتى تترك مجالا كافياً للثقافة العلمية التى لايمكن أن تخلق الدنيا الجديدة أو تتقدم بدونها

ولسنا نقصد بهذا الغض من قيمة الثقافة الأدبية فان الالمام بشىء من الأدب الرفيع والوقوف على تاريخ الدنيا ودراسة الموسيقى والتصوير والمعمار كلها أمور لازمة لنضوج ملكة الخيال فى الانسان. وهذا الخيال لازم لانه السبيل إلى التقدم والرقى . فكل نهضة تبدأ خيالا ثم تصبح فكرة ثم تتم عملا . ولكن العلم أيضاً يستطيع أن يحفز الخيال فلا يجوز أن نغمطه حقه فى هذا السبيل . كما لايجوز أيضاً ان نغفل أثر الميل الشخصى فى هذه الناحية ولذلك فنحن نقترح أن تكون الثقافة الأدبية — فى غير حالات التخصص — مقصورة على جزء صغير من البرنامج فى السنوات الأولى من الحياة التعليمية. أما السنوات الأخيرة فالأفضل أن تكرس لدراسة العلوم الطبيعية والرياضية مالم يبد الشخص ميلا ظاهراً فى احدي النواحى الاخري

وقد اقتصر الحديث حتى الآن على بحث نوع المعارف التى ينبغى أن تعطى للتلاميذ ولكن لابد لاتمامه من بحث النواحى الاخرى التى تتناول طرائق التعليم والتربية الاخلاقية وهذه النواحي

لاشأن لها بالسياسة ولكنها تتصل بالسيكولوجية وعلم الآداب . وقد ظلت السيكولوجية إلى عهد قريب دراسة أكاديمية علمية لاشأن لها بالتطبيق العملى . ولكنها أصبحت الآن علماً على حظ وافر من الاهمية العملية وأصبحنا نرى من فروعها السيكولوجية الصناعية والسيكولوجية الاكلينيكية والسيكولوجية التعليمية . وليس بعيداً — بل أننا لنأمل — أن يمتد تأثير السيكولوجية حتى يتناول جميع نظمنا فى المستقبل القريب بالنفع والفائدة

وأول ماتناوله فى هذا البحث هو موضوع النظام . والفكرة القديمة عن النظام كانت سهلة اذ يكلف الطفل بعمل شىء يكرهه أو يمنع عن عمل شىء يحبه . فاذا خطر له ان يخالف الأوامر الصادرة اليه عرض نفسه للعقوبة الجسدية أو للحجز الانفرادي مع اعطائه الخبز والماء فقط

أما التربية الحديثة فانها تصل إلى النظام من سبل أخرى . وقد يخال للذين لم يدرسوا هذه الطرق انها لاتعرف النظام ولكن الواقع غير ذلك . ومن الامثلة الحسنة فى هذه الناحية المدارس التى تتبع طريقة مدام منتسورى . فهى تزرع فى أطفالها روح النظام دون أن تشعرهم بأى ضغط أو اكراه خارجى لانها تجعل القواعد التى تعطى لهم بمثابة قواعد اللعب فبذلك يتبعونها كوسيلة للتسلية والمرح . وقد كشفت هذه الطريقة أيضاً عن زيف الفكرة القديمة التى كانت تعد الطفل خالياً من الرغبة فى التعلم فينبغى إذن أن يكره عليه اكراها . وأبانت أن السبب فى هذه الحالة كان عجز القائمين بأمور التربية عن تفهم عقلية الاطفال وتقسيم البرامج الموضوعة إلى أقسام يستسيغها الطفل المتوسط. أما القواعد التى وضعتها مدام منتسورى للاطفال وطلبت اليهم اتباعها فتكاد تقتصر على مايأتى : لايجوز للطفل أن يتدخل فى شئون غيره ولا يجوز له أن يملك أكثر من لعبة واحدة فى الوقت الواحد . وهذه قواعد مفهومة ومعقولة ولا يعسر على أى طفل ان يتبعها وهو لايشعر بالاكراه الخارجى . وبذلك نرى أن هذا النظام — فضلا عن أنه يزرع فى نفس الطفل كثيراً من العادات الطيبة — فانه يشعره بضرورة مقاومة النزعات والاهواء الطارئة فى سبيل الوصول إلى هدف ثابت . وهذه فكرة عبقرية فى ذاتها ولكن تطبيقها لايحتاج إلى أكثر من المرانة مع شىء من الصبر والحنان

ومن الامور التى ساعدت على هذا التغيير فى النظم التعليمية زوال الاعتقاد التقليدي الذى ظل سائداً زماناً طويلا بأن الانسان يولد وهو محمل بالخطيئه نزاع إلى الشر والاثم . وقد كانت هذه الفكرة الزائفة من الاسباب التى ارتكن اليها الداعون إلى نظرية العقوبة البدنيه « الضرب والجلد » فى المدارس . وقد زالت من التعليم الآن ولكنها لاتزال متسلطة على النظرة إلى الجريمة والعقاب وفى الناحية المقابلة لهذه الفكرة نجد فكرة اخري أقل ضرراً فى آثارها وإن لم تكن خطأ فى

نشأتها تلك هى أن الطفل ميال إلى الخير بطبيعته وانه لايفسد إلا من محاكاة الرذيلة فيمن هم أكبر منه سناً . والمبتدع لهذه الفكرة هو روسو ولكن القارىء لكتابه «أميل» يرى أن تلميذه كان فى حاجة إلى كثير من المرانة الخلقية قبل أن أصبح النموذج للنظام الذي شاء أن يبتدعه. والحقيقة هى أن الطفل ليس ميالا إلى الخير أو الشر بطبيعته وكل تراثه حين يجىء إلى هذا العالم لايتعدى قليلا من الافعال المنعكسه وبعض الغرائز . وعلى هؤلاء وأولئك تؤثر البيئه فتتكون العادات التى قد تكون سليمه أو سقيمه بحسب الظروف التى يتعرض لها الطفل . أما الضرب والقصاص فليس — كما نعلم من السيكولوجيه الحديثه — الطريقه المثلى لتكوين الفضائل . وليس من العسير أن نجعل الطفل ذا الصحة الحسنة سعيداً وأغلب الأطفال يستطيعون التمتع بصحة حسنة إذا وجهت العناية المناسبة لأجسامهم وعقولهم . والسعادة فى الطفولة من الشروط الأساسية لتكوين الرجل السليم . ولن يكون للخمول الذى كان رجال التربيه القديمه يعدونه من المساوىء الخلقيه أثر إذا شعر الطفل بأن التربية هى معرفه شىء ينبغى أن يعرفه . أما إذا شعر أن المعارف التى تعطى له لاقيمة لها وكان مدرسوه طغاه قساة فمن الطبيعى أن ينصرف عن التعلم والافادة . فينبغى إذن أن تكون الرغبه الكامنه فى نفس كل طفل طبيعى هى القوة الحافزة له لطلب العلم ويجب أن نعد الاستعاضة بهذه القوة عن العقوبة البدنية من أفضل الخطوات الموفقه التى خطتها التربيه فى العصر الحديث

وهناك ظاهرة أخرى فى التربية الحديثة لها اثارها الهامة : هى توجيهها كثيرا من العناية للطفولة . وهذه الظاهرة تتفق مع نظرتنا الجديدة الى تدريب الخلق . فقد كانت الفكرة القديمة تقضى بان الفضائل تعتمد على الارادة وكان المفروض ان نفس الانسان تمتلىء برغبات الشر التى تكبحها قوة الارادة دون أن تقوى على انتزاعها . ولكننا نعلم الآن ان هذه الفكرة تنحرف عن الصواب كثيرا و نعلم ان الطفل يميل الى اكتساب حب زملائه وكباره وأن عنده نزعات يمكن ان تنمى فى ناحية الخير او الشر بحسب المؤثرات التى يتعرض لها . ثم انه فى سنه الرطبة يكون اسهل الى تكوين العادات . واصطناع العادات الطيبة يجعل ممارسة الفضيلة فى الغالب عملا آليا . اما النظرة القديمة الى الفضيلة التى كانت تقضى بترك الرغبات الشريرة ظافرة وتقنع بالارادة لكبح مظاهرها فقد ثبت انها قليلة الجدوى فى ضبط الخلق السىء لان الرغبات الشريرة كالنهر الذى اقيمت عليه السدود تلتمس منفذا لها فى ناحية غفلت عنها عين الارادة الساهرة . والرجل الذى كان يشعر فى شبابه بالرغبة فى قتل ابيه يلتمس التفريج عن هذه الرغبة فى المستقبل بجلد ابنه وهو يعتقد انه يعالج آثامه الخلقية . فكل نظرية تشجع القسوة أو تبررها يجب أن ننظر اليها بعين الحذر

ويجب أن نعدها انحرافا عن الحالة الطبيعية بسبب أو دافع خاص . والخلاصة أن ضبط الرغبات الشريرة بالارادة قد يكون لازما فى قليل من الأحيان ولكنه عقيم كطريق دائم لتكوين الفضيلة

وتؤدى بنا هذه الاعتبارات جميعا الى ميدان جديد هو ميدان التحليل النفسانى . ونحن من الذين يؤمنون بان التحليل النفسانى سيخلق طرائق جديدة لتدريب الخلق ولكننا نرى أن رجاله يغالون فى تقدير اثر الطفولة الأولى على حياة الانسان . وكثير منهم يعدون الآثار التى تطبع على الطفل فى السنوات الثلاث الاولى من حياته غير قابلة للتغيير وهذا غير صحيح كقاعدة عامة وان كان هناك مايبرره فى بعض الاحيان

والخلاصة أن تدريب الخلق يجب أن يبدأ منذ الولادة ولن يتيسر ذلك اذا بقيت الامهات على هذه الحال المؤسفة من الجهل . كما أن التعليم يمكن أن يبدأ فى سن مبكرة جدا اذا وضع فى صورة تشوق الطفل دون ان ترهقه

الغرض من التعليم

يختلف الغرض من التعليم باختلاف التقدير لاهمية العناصر التى يتكون منها الخلق الانسانى. ومن الحماقة والسخف ان يشاد نظام تعليمى فلا يحقق الغرض الذى اراده منه القائمون به وهانحن اولاء نلخص الاغراض التى كانت ترمى اليها النظم التعليمية فى المدارس المختلفة قبل أن ننتهى الى رأى فيما ينبغى أن يكون عليه الغرض من التعليم فى المستقبل

« ١ » فالمدرسة الصينية القديمة كانت تشبه مدرسة اثينا لانها كانت تكلف تلاميذها حفظ تعاليم كونفوشيوس عن ظهر قلب كما كانت شبيهتها تكلف تلاميذها حفظ هوميروس . ومدرسة اثينا كانت تقتضى من اتباعها شيئا من الاحترام والتبجيل لالهتها دون أن يقف ذلك حائلا بينهم وبين التفكير الحر وكذلك كان الصينيون يكلفون مراعاة بعض الطقوس الخاصة بعقيدتهم الدينية ولكن دون أن يطلب منهم الايمان بما تقتضيه تلك الطقوس . بل لقد كان يباح لهم مناقشة كل العقائد بمنتهى الحرية والهدوء . وهذا أمر مميز لحكماء اثينا وحكماء الصين على السواء ولكنه نادر الحدوث فى الحضارة المسيحية . وثمة غاية أخرى اتفق فيها الاثينيون والصينيون . تلك هى رغبتهم فى التمتع بالحياة ونظرتهم إلى هذا التمتع بعين يهذبها احساس رفيع بالجمال

غير أن هناك اختلافات واسعة بين الحضارتين ترجع إلى أن الاثينيين كانوا أهل عمل وجد ونشاط والصينيين كانوا اهل كسل وتراخ وخمول . وقد وجه الاغريقيون جهودهم الى مختلف العلوم والفنون فبرزوا فيها . وكانت الوطنية والسياسة منفذا للنشاط العملى عندهم فاذا تنكرت احدي

المدن لاحد المشتغلين بالسياسة من ابنائها جمع حوله عصابة من اتباعه ليهاجم مدينته . أما الصينى الذى تطرده عشيرته فانه يعتكف فى الجبال وينظم الشعر متغزلا فى محاسن الحياة الريفية ! ولعل هذا هو السبب فى أن الحضارة الاغريقية هى التى هدمت نفسها أما الحضارة الصينية فقد هدمها الغير فى الخارج

والتعليم الصينى يوحى بالجود ويهتم بالآداب فهو لذلك لايعرف التقدم ويخلو من النهضة العلمية . ولعل هذا أهم مايميز مذاهب الشك فان العلوم لايمكن أن تنتعش فى جو تشبع بروح الشك الادبى . والعلوم بطبيعتها تقتضى انتشار الديمقراطية أما الآداب فهى دائما من مميزات الارستقراطية ولذلك بقيت كل من الحضارتين الصينية والاغريقية مقصورة على فريق من الخاصة والمثقفين كما استندت كل منهما الى الرق . وهذه الأسباب كلها تدل على أن المدرسة الصينية التقليدية لاتطابق روح العصر الحديث ولذلك اهملها الجميع حتى ابناؤها

« ٢ » أما المدرسة اليابانية الحديثة فلعلها أشد الامثلة وضوحا على النزعة الحديثة التى تجعل مجد الوطن هو الغرض الأعلى من التعليم . والواقع أن التعليم فى اليابان يرمى الى غرضين معا : أولهما تربية روح الولاء للوطن فى نفس كل يابانى وذلك بتدريب أهوائه واخضاعها لحاجة الوطن حين يقوم الداعى اليها . والثانى استغلال كل المعارف التى يحصل عليها المواطن اليابانى لفائدة الوطن . وقد وفقت المدرسة اليابانية الى تحقيق هذين الغرضين من التعليم توفيقا عظيما ولكنها فى هذا السبيل أوجدت نوعين من الطغيان الدينى والطغيان الادبى وهذا الاخير يحتوى على الوطنية وتقديس الاباء وعبادة الميكادو وغير ذلك مما يجعل التقدم فى كثير من النواحى مستحيلا إلا إذا نشبت الثورة . وخطر هذه الثورة موجود وإن لم يكن قريبا

ومن هذا نرى أن المدرسه اليابانية الحديثة عيوبا تناقض عيوب المدرسة الصينية القديمة فبينما أحداهما توحى بالشك والخمول إذا بالاخري تبعث الجزم والنشاط . وكلا هذين الاتجاهين خاطىء لان المدرسة لايجوز أن تغرس الاذهان إلى الشك أو إلى اليقين ولكنها يجب أن تغرس فى نفوس تلاميذها الايمان بأن العلم يمكن أن يكتسب وان كان الطريق اليه محفوفا بالمصاعب والجهود أو بعبارة أخرى أن اكتساب العلم عسير وليس مستحيلا . ومن هنا اختلاف وجهة النظر فى المدرستين فالمدرسة اليابانية التى تغرس الجزم واليقين تنسى صعوبة العلم والمدرسة الصينية التى تزرع الشك والريب تنكر إمكان تحصيله . والخطأ فى كل من هذين الاتجاهين يؤدى إلى كوارث اجتماعية كبرى

« ٣ » أما مدارس الجزويت فقد وقع القائمون بها فى مثل الخطأ الذى وقع فيه اليابانيون وذلك باخضاعهم التعليم لمصلحة نظام آخر . هو الكنيسة الكاثوليكية . والواقع أن هذه المدارس

لا تعنى بنفع التلاميذ بقدر عنايتها باعدادهم ليكونوا أدوات نافعة فى خدمة الكنيسه والذين يستمعون الى وجهة نظر القائمين بهذه المدارس يلتمسون لهم العذر إلى حد ما لانهم كانوا يرمون إلى إنقاذ الناس من عذاب النار وهم لايعرفون وسيلة إلى ذلك — فيما يعتقدون — الا الكنيسة الكاثوليكية . أما الذين لايقبلون هذا الرأى فسيحكمون على التعليم الجزويتى بنتائجه وهذه النتائج هى نهضة الاصلاح وانهيار البروستانتية من فرنسا . وقد توسل دعاة الجزويت إلى هذه الغايات بان جعلوا الفن عاطفيا والتفكير سطحيا والآداب رخوة لينة ثم كان لا بد أن تقوم ثورة جائحة كالثورة الفرنسية لتكتسح المضار والشرور التى احدثوها

« ٤ » أما نظام الدكتور ارلوند الذي لايزال متبعا فى المدارس الانجليزية حتى اليوم فعيبه أنه نظام ارستقراطى . والغرض منه أن يعد تلاميذه لتبوّء المناصب الرفيعة فى مختلف أنحاء الامبراطورية . وهناك بعض صفات خاصة لابد من وجودها لبقاء الارستقراطية . وهذه الصفات يجب أن تغرس فى صاحبها منذ وقت الدراسة وهى توجب عليه أن يكون نشطا قليل التأثر بالعوامل الخارجية قوى الجسم صلب الرأى فى بعض الأمور ذا مستوى عال من الاستقامة وصواب التفكير شديد الايمان بانه يؤدي رسالة هامة فى الحياة . ولكنها فى مقابل هذا تضحى ببعض الصفات الاخرى كالتفوق الذهنى لانه قد يولد الشك والرحمة لانها قد تتداخل فى حكم الشعوب «المنحطة» وقد يكون من نتائج هذا التعليم فى دنيا لا تتغير الامور فيها كل يوم أن يقوم نظام فى الارستقراطية الثابتة له محاسن وعيوب النظام الاسبرطى القديم . ولكن الارستقراطية قد عفا زمانها الآن وأصبح للذكاء الشأن الاول فى حكم الشعوب كما أصبح الحاكم هو الرجل المخلص فى خدمة مواطنيه لا السيد المبجل الذي يدين الناس بالطاعة له والاعجاب به

« ٥ » أما المدارس الامريكية العامة فقد وفقت فى مهمتها توفيقا كبيرا . ذلك أنها استطاعت أن توجد التجانس بين عدد كبير من الناس كان يباعد بينهم النفور والاختلاف . وهذا عمل مجيد فى ذاته مفيد فى نتائجه ويستحق القائمون به كل شكر وتقدير . ولكن لأمريكا – كاليابان – وضعاً خاصا . واذا كانت ظروفها المحلية تكفل النجاح لنظام بعينه فليس معنى هذا أنه نظام ناجح فى غيرها من البلدان . وللحياة فى أمريكا محاسن ومساوىء فمن محاسنها : ارتفاع مستوى الثروة وبعدها عن خطر الحرب وخلوها من التقاليد الموروثة من العصور الوسطى . وقد كونت روح الهجرة الى أمريكا عاطفة قوية من الديموقراطية وساعدت على تقدم الصناعة . والطفل الذى يولد فى امريكا ينسى وطنه الاصلى ولايذكر إلا أنه أمريكى وهذا فضل المدرسة أولا وقبل كل شىء

ولسنا ننكر أن المستوى الذهنى فى أوربا الغربية والمستوى الفنى فى أوربا الشرقية أعلى منهما فى أمريكا . كما أن الخضوع للخرافات الدينية فى أوربا الغربية – باستثناء أسبانيا وبرتغال – أقل

منه فى أمريكا . وشعور الرجل الأوربى بالحرية الذاتية قوي . والمدرسة فى أمريكا لاتتطلب من تلاميذها الا أن يروا الروح القومية الامريكية فقط . فهى بذلك قد وقعت فى الخطأ الذي وقع فيه اليابانيون والجزويت من اعتبار التلاميذ وسيلة لغاية . فالمدرس يجب أن يحب تلاميذه أكثر من وطنه أو كنيسته وإلا لما عد مدرسا كاملا

والذين يؤمنون بان التلاميذ يجب أن يعدوا غاية فى أنفسهم لاوسيلة لغايه أخرى قد يسمعون من يقول أن أهمية الفرد كوسيلة تفوق كثيرا أهميته كغاية لان الفرد كغاية ينتهى بالموت اما ما ينتجه كوسيلة فيمضى مع الزمان الى غير نهاية وهذا الاعتراض صحيح ولكننا ننكر النتائج المستخلصة منه فاهمية الفرد كوسيلة قد تكون للخير أو للشر والقاعدة العامة أن الرجل الفاضل يقوم باعمال فاضلة والرجل السىء يقوم باعمال سيئة « ولهذه القاعدة بطبيعة الحال شواذ » . والاطفال يدركون بغرائزهم الفرق بين من يريدون لهم الخير مجردا لذواتهم وبين من يريدون أن يجعلوا منهم وسائل لغايات أخري . ولن تتيسر تربية الخلق والذكاء على وجه حر صحيح إذا كان المعلم يعوزه الحب لتلاميذه . والحب هنا يعنى أن يشعر المعلم بأن تلميذه غاية . ومثل هذا الحب يشبه حب الأباء لأبنائهم

غير أنه لايكفى أن يحب المعلم تلاميذه بل يجب أن يكون ذا تقدير سليم للكمال البشرى وليس يهم فى هذا البحث أن نفرق بين كمال الرجل وكمال المرأة وإن كانت المرأة التى سيوكل اليها أمر العناية بالأطفال يلزمها شيء من المرانة الخاصة

أما الصفات التى تكون مجتمعة أساس الخلق المثالى فهى الحيوية والشجاعة والحاسية والذكاء . وتستطيع المدارس أن تهذب هذه الصفات وأن تنميها فى نفوس تلاميذها إذا عرفت كيف تسلك الطريق القويم لتدريبهم فى مختلف النواحى الجسدية والعاطفية الذهنية المناسبة

أما الحيوية فانها صفة فسيولوجية أكثر منها صفة عقلية ووجودها يتوقف إلى حد كبير على اعتدال الصحة . وهى تهبط كلما تقدمت السن وتتلاشى فى الشيخوخة وتبلغ أوجها فى الأطفال قبيل التحاقهم بالمدرسة وتخلق فى صاحبها روح المرح بغض النظر عن أى مؤثر آخر وتزيد من سروره وتقلل من آلامه وتنعش فيه الاهتمام بكل مايدور حوله . فالانسان سريع إلى تركيز الاهتمام فى ذاته وفقد الاهتمام بما يراه أو يسمعه خارجا عنها . وهذا شر كبير فى نفسه لانه فى أهون صورة يولد الملل والسآمة وفى أخطرها يولد السوداء وفى أى الحالين يعوق المرء عن أن يكون عاملا نافعاً فى البيئة التى يعيش فيها . وللحيوية ميزة أخري هى انها تنمى القدرة على العمل الشاق . وتعصم صاحبها من الحسد لانها تملأ نفسه بالمرح والسعادة

أما الشجاعة فتتخذ لها مظاهر متعددة وجميعها معقدة . ومن هذه المظاهر مثلا عدم وجود الخوف ومنها أيضاً القدرة على ضبط الخوف . وفى الحالة الأولى يختلف الامر إذا كان الخوف معقولا عما إذا كان غير معقول وهكذا

وللخوف غير المعقول تأثير هام على الحياة العاطفية الغريزية فى الغالبية من الناس . وقد يخرج فى بعض الاحيان عن حدود الصحة — كما فى حالات جنون الاضطهاد ومركب القلق — ولكنه فى ادواره السهلة واسع الانتشار فيمن يعدون من الاصحاء . وقد يتخذ صورة شعور عام بخطر محدق ـ وهذا مانفضل أن نسميه القلق ـ أو قد ينحصر فى الخوف إلى درجة الرعب من أشياء خاصة ليست خطرة فى ذاتها كالفيران والعناكب . وكان الاعتقاد الى عهد قريب ان الخوف فى أغلب مظاهره غريزي ولكننا نعلم الآن أن أغلب مظاهر الخوف مكتسبة أما من التجربة أو من الايحاء والقليل منها ـ كالخوف من الصوت الداوى ـ هو الغريزي . ولكن الخوف مع ذلك سريع العدوى إلى حد كبير . وتنتقل عدواه الى الاطفال من كبارهم دون أن يلتفت هؤلاء إلى أنهم أفصحوا عن بعض مظاهره للصغار . فالجبن أو التهيب سرعان ماينتقل بواسطة الايحاء من الام أو المربية إلى الطفل . ومن الامور التى عادت بأشد الضرر على الابناء رغبة الرجل فى أشباع غروره وذلك بأن تبدو المرأة أمامه وجلة خائفة لان الخوف كان ينتقل إلى الابناء بالايحاء وكان من العسير بعد ذلك اعادتهم إلى الحالة الطبيعية

والسؤال الذى يعرض لنا الان فى هذا الصدد هو : هل يصح أن نقنع عند معالجة الخوف بكبته أو هل يجب أن نزيله وتقتلعه من أساسه ؟ والاجابة على هذا السؤال تعود بنا الى الماضى القريب : فقد كانت التقاليد الارستقراطية تقضى بالا يبدو على الرجل أى مظهر من مظاهر الخوف وكان مقياس الشجاعة عندها فى سلوك الرجل ألا يهرب من الحرب وأن يجيد كثيراً من الالعاب الرياضية وأن يحتفظ بالهدوء وضبط النفس فى الازمات المفاجئة كالحريق وغرق السفن والزلازل والا يبدو الشحوب والاصفرار على وجهه والا يرتعد أو تظهر عليه أى علاقة تنم عن الخوف . وكل هذه الامور على جانب كبير من الاهمية ولكنها لاتكفى لاننا نريد أن نرى الشجاعة فاشية عند جميع الشعوب وبين جميع الطبقات وفى جميع الافراد من الجنسين ، ولن يتيسر لنابلوغ هذه الغاية إذا كنا لانعالجها إلا بكبت الخوف لان هذا ينطوى على الاهتمام بالمظهر دون العناية بالعامل الأساسى . فعلاج الخوف علاجا قاطعاً يقتضى العمل على ازالته تماما لامن الاعمال الظاهرة بل من الشعور ولا من الشعور الواعى فقط بل من الشعور غير الواعى أيضاً

والسيكلوجية الحديثة تقضى بان الخوف والحدة عاطفتان متقاربتان والرجل الذى يسرع الى

الاحتداد لايمكن أن يكون ممتازاً فى شجاعته . كما أن القسوة التى تبدد فى قمع الحركات الاستقلالية والنزعات الاشتراكية ليست فى الواقع إلا دليلا على الجبن ويجب أن تقابل بمثل الاحتقار الذى تقابل به المظاهر الاخرى الاشد وضوحا فى هذه الرذيلة

ولابد للشجاعة الفردية من بضعة عوامل تتآزر على تكوينها وأهمها الثروة والحيوية ثم المرانة والمهارة فى تدبير الخلاص من المآزق الحرجة . أما الشجاعة فلابد أن تمتلىء نفس المتصف بها من هذين الخلقين : احترام الذات من ناحية والتجرد عن النظرة الذاتية فى تقدير الحياة من ناحية أخرى . والناس من ناحية احترام الذات فريقان : فريق يشعر شعوراً داخليا بنفسه وفريق يعيش كالمرآة التى تحاكى مايشعر به ويقوله الآخرون . والفريق الاخير لايمكن أن يعرف الشجاعة الحقيقية لانه يطلب اعجاب الناس ويحرص عليه خشية فقده

وقد كانت النظم القديمة تقضى بان يتعلم الاطفال الخضوع والاذعان بحجة أن الذى لم يتعلم كيف يطيع لن يعرف كيف يأمر وأما نحن فنقول بانه لايجوز أن يتعلم أحد أن يطيع أو يحاول أحد أن يأمر . ولسنا ندعو بهذا الى الفوضى ولكننا نرمى الى أن يكون سعينا الى الهدف الذى نقصده نتيجة لحاجة نشعر بها فى نفوسنا لا نتيجة لضغط خارجى . وبديهى أيضا أننا لا نحاول مطلقا أن نرغم الغير على اعتناق الآراء التى ندين بها

ونحن من هذا نرى أن الشجاعة الكاملة لايعرفها الا الرجل الذى يشعر بان ذاته ليست إلا جزءاً صغيرا من الكون ــ لاعن احتقار لها ولكن عن تقدير لسواها ــ وهذه الحالة بدورها لايمكن أن توجد إلا حيث تتحرر الغرائز وينشط الذكاء . وهذه هى الشجاعة الايجابية التى تعد من الاركان الهامة للخلق الكامل

الحساسية :

العامل الهام فى الحساسية هو الحنان . وللحنان الصادق شرطان أساسيان الاول أن يشعر المرء به حتى ولو لم تربطه بالمتألم أى علاقة خاصة ، والثانى أن يشعر المرء به بمجرد أن يعلم بحدوث الألم ودون أن يراه مجسدا . والشرط الثانى يتوقف الى حد كبير على الذكاء . والقدرة على الحنان المجرد أمر نادر وهام . ولايضاح ذلك نقول ان الانسان يتألم اذا اتصل به قتل أخيه أو قريبه فى الحرب ولكنه لايتألم اذا سمع أن مليونا من الناس قضوا فيها . ان كثيرا من شرور الدنيا الحديثة تزول اذا وفقنا الى اصلاح هذا الزيف . وقد استطاع العلم أن يزيد من قدرتنا فى التأثير على حياة الغير ولكنه لم يستطع حتى الآن أن يزيد من شعورنا بالحنان نحوهم

الذكاء :

من أكبر الاخطاء التى وقعت فيها الكنيسة أنها وجهت كل عنايتها الى ماسمته « الفضيلة » وهى تقصد بالفضيلة الامتناع عن طائفة من الاعمال التى تدخل فى عداد « الخطيئة » . وقد بقى هذا الزيف فاشياً زمنا طويلا . ومادام باقيا فلن يدرك الناس أن الذكاء ألزم للدنيا وأنفع لها من هذه الفضيلة التقليدية المصطنعة . ولايتوقف الذكاء على المعلومات التى يعرفها المرء بمقدار مايتوقف على قدرته على تحصيل هذه المعلومات . وهذه القدرة على التحصيل يمكن أن تنمى بالمرانة . وبدون الذكاء لايمكن أن تبقى حضارتنا المعقدة الراهنة فضلا عن أن تتقدم . فتدريب الذكاء يجب اذن أن يكون من أهم الأغراض التى نرمى اليها فى التربية وقد يبدو هذا الرأى من البديهيات التى لاتحتاج إلى البحث والتسوية ولكنه فى الواقع ليس كذلك لأن رغبة الكثيرين من رجال التربية فى تلقين التلاميذ مايعدونه آراء صحيحة تجعلهم يهملون تدريب الذكاء عندهم . ولأهمية الموضوع سنقوم بشرحه بشىء من التفصيل

فالأساس الغريزي للحياة الذهنية هو الفضول الذى نشاهده فى أدواره الاولى عند الحيوان ولكن الذكاء يحتاج الى نوع خاص من الفضول . ورغبة الغالبية العظمى من الناس فى الوقوف على أسرار غيرهم هى فضول ولكنه فضول رخيص . كما أن ميلهم إلى التحدث عن شئون الغير الخاصة ليس الدافع فيه المعرفة ولكنه الحقد بدليل أنهم يتحدثون عن الاخطاء والسيئات ولا يذكرون شيئاً عن الحسنات . وهم فى حديثهم عن الاخطاء لا يكلفون أنفسهم عناء التريث لتمحيص مايتحدثون عنه والتثبت من صحته أو ضلاله . أما الفضول الصحيح فهو ما يكون الدافع اليه حب الحقيقة وهو يشاهد بصورة واضحة فى الاطفال الذين يطلبون معرفة كل ما تقع عليه أبصارهم . . ثم يأخذ فى الضعف والتلاشى كلما تقدمت بهم السن حتى يزول تماما . وبزواله ينتهى الذكاء النشط أيضا

وعلى الرغم من أن مدى الفضول وقوته يضعفان بعد الطفولة الا أن نوعه قد يتحسن . ولايضاح ذلك نذكر ان الفضول الى معرفة المبادىء العامة يدل على مستوى من الذكاء أرفع مما يدل عليه الفضول الى الحقائق الثابتة . والفضول الذى يخلو من المنفعة الذاتية هو بطبيعة الحال أرقى من الفضول الذي يتجه الى الفائدة . وقد لا يكون من الصواب أن نقول أن أحسن الفضول ما خلا من النفع ولكننا لانخطىء إذا قلنا أن أحسن الفضول ما كانت علاقته بالمنفعة غير مباشرة أوظاهرة بحيث تحتاج فى كشفها الى مقدار خاص من الذكاء

والفضول المثمر يجب أن يكون مصحوبا بالقدرة على التحصيل . وهذه القدرة بدورها تتوقف على قوة الملاحظة وعلى الايمان بامكان التعلم والصبر والتوفر على العمل . ولكن الفضول يحيافى احتكاك

وصراع دائم مع مختلف الاهواء الاخرى التى تزخر بها الحياة الانسانية وهو لذلك يحتاج الى فضائل ذهنية خاصة أهمها أن يكون المرء « واسع التفكير » حتى يستطيع أن يقبل الحقائق الجديدة التى تخالف ما يرغب فيه أو ما اعتاده . فسعة التفكير أذن ينبغى أن تكون من الصفات التى تعنى التربية بها أكبر العناية

ومن الأمور التى تؤثر فى الذكاء علاقة الفرد بالمجموع والى أى مدي يجب أن تكون هذه العلاقة . . . وبعبارة أخرى عند أى حد ينبغى أن يتحرر الفرد من المجموع ؟ والفرد كما نعلم يحب أن يقف دائماً إلى جانب الفريق الذى يناصره سواء اكان ذلك اسرته أوجيرانه أو زملاءه أو حزبه السياسى أو وطنه . كما أن العواطف تنتقل بالعدوي كالوباء . وهذا أمر مشاهد فى اى اجتماع يظهر فيه ميل الجمهور وحماسته الى ناحية من النواحى . . . لأن هذه الحماسة تثير فى الموافقين موافقتهم وتثير فى المعارضين معارضتهم على السواء . ولعل خير اتجاه أن يكون الانسان مفيداً بغريزة الجماعة فى الامور العامة التى لا تمس صالحه الشخصى أو تتوقف على ميله الذاتى . أما حيث يتصل الامر بالمنافسة أو التصرف فى الامور الخاصة فينبغى أن يترك لكل انسان حريته دون أن تخليه هذه الحرية من ضرورة التعاون مع الجماعة ودون أن تمنعه من ابداء رأيه فى الأمور الهامة حتى ولو خالف فيها رأي المجموع . والدنيا التى يعتنق أهلها هذه المبادىء ستنكر نظاما مثل نظام الفاشية بل أنها لن تعرفه لأن أنصاره كلهم أناس ملأ الخوف قلوبهم وجردهم من حرية التفكير والعمل والجماعة من الرجال والنساء معاً – التى تملك الحيوية والشجاعة والحساسية والذكاء – ستخالف كل جماعة أخرى من الناس قبلها كما أنها ستمتع بالسعادة وسيزول منها الشقاء . فان أهم أسباب الشقاء هى اعتلال الصحة والفقر واختلال الحياة الجنسية . وكل هذه عيوب ستتناولها الحالة الجديدة بالتعليم الصحيح والاصلاح الشامل . وستعنى عناية خاصة بتربية جيل جديد من النساء اللواتى لا يعرفن الخوف . فقد ظل الخوف — فى اعتقاد الناس — زمنا طويلا هو الضمان الوحيد لفضيلة المرأة فكانت المرأة تلقن الخوف وتحرم من الحب على هذا الزعم . وهذه المرأة هى التى كانت تشجع القسوة والنفاق فى زوجها وتفسد الغرائز السليمة فى أبنائها . فجيل واحد من النساء اللواتى لا يعرفن الخوف سوف يغير العالم لانه سوف يقدم اليه رجالا لا يعرفون الخوف أنفسهم .. تفيض قلوبهم بالاخلاص والكرم وتنزع نفوسهم الى الحرية ويتجهون الى الهدف فى صراحة واستقامة ويزيلون بحماستهم الآلام التى نعانيها الآن من حالة الخمول والجبن والقسوة والغباوة التى توجه حياتنا فى الوقت الحاضر . والتعليم وحده هو المسئول عن وجود هذه الصفات السيئة وعن بقائها كما أنه هو وحده المسئول عن زوالها . فلنرقب فجر الدنيا الجديدة فى اصلاح التعليم

دكتور صبرى جرجس

رجاء

ترجو ادارة المجلة الجديدة الشهرية من مشتركيها الذين لم تصل اليهم هدية هذا العام مع عدد سبتمبر أن يوافوها بقيمة الاشتراك المتأخر عليهم حتى تقوم بدورها بارسال الهدايا اليهم .

الادارة

المجلة الجديدة

اكتوبر ١٩٣٦

الثمن ٣ قروش

اقرأ فى هذا العدد

مطبعة المجلة الجديدة

فهرست

المجلة الجديدة اكتوبر سنة ١٩٣٦

---

١ — الاشتراك فى المجلة الجديدة الشهرية في مصر والسودان لمدة عام هو ٤٠ قرشا و ٢٠ قرشا لستة أشهر وفى الخارج ٥٥ قرشا فى العام

٢ - الاشتراك فى المجلة الجديدة الاسبوعية فى مصر والسودان هو ٢٥ قرشا فى العام و ١٣ قرشا لستة أشهر وفي الخارج ٥٠ قرشا فى العام و ٢٥ قرشا لستة اشهر

٣ — الاشتراك فى المجلة الجديدة (الشهرية والاسبوعية) فى مصر والسودان هو ٦٠ قرشا فى العام و ٣٠ قرشا لستة أشهر. وفى الخارج مائة قرش فى العام و ٥٥ قرشا لستة أشهر وفى غير الاتحاد البريدي يزاد ٣٠ قرشا فى العام

تصدر المجلة الجديدة ١٢ عددا سنويا

وتهدى الى قرائها كتابين كبيرين

١٢ شارع نوبار (مكتب بريد الدواوين بمصر)



الحاج أمين
الحسينى الذى يتزعم
الحركة الوطنية
العربية ضد اليهود الصهيونيين
وهو مفتى فلسطين

صاحبها ومحررها
سلامه موسى
المجلد السادس

المجلة الجديدة

العدد العاشر
من
السنة الخامسة

اكتوبر ١٩٣٦

سير الحوادث

يعم الاغتباط جميع المفكرين فى الأمة لمعاهدة التى وقعت بيننا وبين الانجليز . وذلك لانهم يجدون فيها الضمان المؤكد لحماية البلاد من غارة ايطالية متوقعة فى هذه السنين المضطربة كما يرون فيها بداية عصر جديد نستطيع أن نرصد فيه وقتنا وجهودنا لاصلاحاتنا الداخلية التى تخلفنا فيها عن سائر الامم فى العالم لاشتغالنا بمكافحة الانجليز لتحقيق الاستقلال

ولكن وسط هذا الاغتباط نجد فريقا منشقا على اجماع الامة يريد معارضة المعاهدة وهذا الفريق يسعى لجمع خصوم الوفد فى هيئة واحدة . وعند التأمل فى أشخاص هؤلاء المعارضين وأغراضهم نجد أن المقصود ليس معارضة المعاهدة بل معارضة الوفديين اظهارهم أمام الأمة بمظهر الخونة لانهم عقدوا المعاهدة . وقد كانوا فى نظر هؤلاء المعارضين خونة أيضا عندما كانوا يرفضون توقيع المعاهدات المقترحة السابقة

والنية المبيتة هى اسقاط الوفديين من كراسى الحكم ثم الغاء البرلمان و « تنقيح » الدستور حتى لاينتخب وفدى . أو تحكم البلاد بلا برلمان . ثم يشرع هؤلاء المستبدون فى احالة القطر كله الى عزبة تستغل لمصالحهم الشخصية وتعود الامة كلها عبيدا قانعة بالجلابيب الزرقاء كما كان يقول رءوس المستبدين قبل خمس سنوات . وقد أثبت هؤلاء المستبدون طيشهم ورعونتهم فى تجاربهم الاستبدادية الماضية حتى أوشكوا أن يحرجوا بريطانيا فى العام الماضى الى عمل حاسم لتنحيتهم عن الحكم نهائيا . ولا يبعد أن يبعثوا فتنة فى البلاد تؤدى الي اراقة الدماء . ولذلك نعتقد أن من مصلحة الدولة قمع هذه المعارضة وهى بعد فى المهد . ولا فائدة من الاستقلال فى ظل الاستبداد ولا قيمة للاستقلال اذا كان امثال زكى الابراشى أو اسمعيل صدقى سيحكمون مصر بلا برلمان

غلاء الجنيه المصرى

انزلت حكومة فرنسا قيمة الفرنك فصار يساوى قرشا مصريا بعد أن كان يساوى نحو قرش ونصف . وأغلب الظن أن هذا الخفض سيعقبه خفض آخر فى جميع نقود العالم . وقد اقترحت علاجات مختلفة للازمة . ولكن خفض النقد هو العلاج الوحيد الذى لجأت اليه معظم الامم ووجدت فيه الفائدة . وذلك لأنه يخفف اعباء الديون ويدفع بالتجارة والصناعة الى النشاط فيقل العطل ويزول الكساد أو يكاد

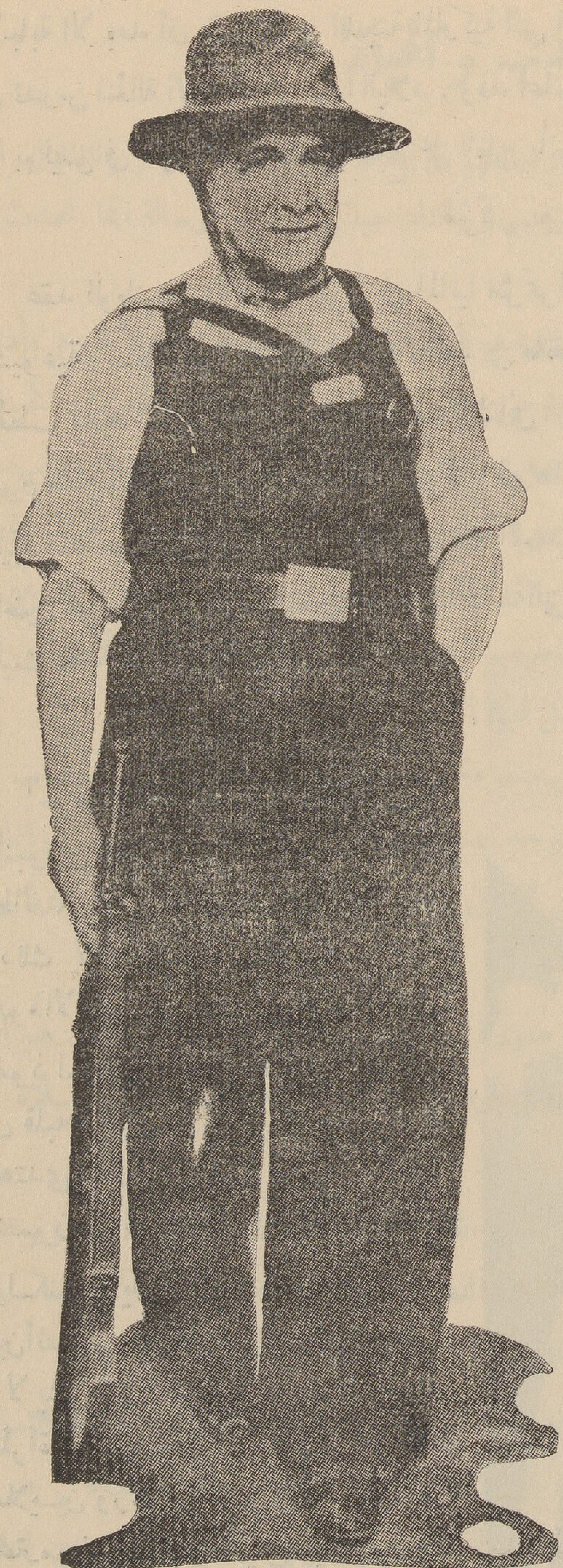
ولسنا نقول أن خفض النقد هو ترياق لكل داء فى النظام الاقتصادي ولكنه علاج سريع الفعل ولهذا السبب يجب أن نفكر فيه بجد وخاصة لأن الأزمة التى تقاسيها مصر وخاصة أزمة المزارعين المدينين لاتزال جاثمة . وفى حين تنقشع عن الاقطار الاخرى تبدو فى مصر وكأنها تزداد قوة . وقد اقترحت اللجنة البرلمانية التى كلفت بحث الطرق لمعالجة الديون العقارية خفض الجنيه المصرى الى نصف قيمته . ويؤسفنا أن هذا الاقتراح لم يجد التنويه الذى يستحقه فى الصحف . فاننا نرى فيه العلاج الوحيد للازمة الحاضرة فى بلادنا . وهو لايقتصر فعله على انقاذ المدينين بل انه يشجع حركة الصادرات ويفسح ميادين العمل للعاطلين وينشط التجارة والصناعة . وأما مايخشى منه من الغلاء فان ضرره من هذه الناحية اقل جدا من المنفعة التى تجنيها فى شئون أخرى

ونستطيع أن نقف الخفض عن التهور بابقاء ارتباط الجنيه المصرى بالجنيه الاسترلينى بعد خفضه الى النصف . بل أن مشروعاتنا الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والتعليمية والصحية تحتاج الى هذا الخفض . وعندنا من رصيد الذهب مايجعل ثروة الحكومة منه تتضاعف بمجرد اعلان الخفض

ونحن نرجو الحكومة أن تفكر بجد فى هذا الموضوع

الثورة الاسبانية

كان الشهر الماضى داميا فى اسبانيا . فان الثائرين الذين يقودهم الجنرال فرانكو والحكوميين الذين يقودهم كاباليرو رئيس الوزارة الاسبانية يتناحرون . والحرب بينهما هى قتال وحشى عنيف لا رحمة فيه لأسير أو ضعيف . وتروى حوادث عن التعذيب والتخريب لاتصدق لفظاعتها وشناعتها . ولكن ارجح الظن أنها صادقة . فان فريق الثائرين الفاشيين الذين يقودهم فرانكو



كابالليرو رئيس الوزارة الاسبانية

وفريق الحكوميين والشيوعيين والفوضويين والاشتراكيين الذين يقودهم كاباليرو لايبالون ببيع الوطن فى سبيل النصر . وكل منهم يشعر أنه يدافع عن مبدأ كأنه عقيدة دينية يجوز فيها بيع الوطن نفسه

وقد حاولت فرنسا ايجاد اتفاق بين الدول للحياد حتى لاتشتبك أوربا كلها فى حرب بين الفاشية والشيوعية . وقد نجحت الى حد ما ولو فى الظاهر والشكل . ولهذين قيمتهما فى حصر الثورة الاسبانية داخل اسبانيا . ولكن الواقع أن الذخائر والاسلحة ترسل الى كل من الفريقين المتحاربين . وحكومة برتغال لاتبالى حتى الشكل فى الحياد وهى تؤيد بكل قونها فريق الثائرين

وطوالع الحال الى الآن تدل على أن الثائرين سيفوزون . وهم اذا استولوا على مدريد أصبح الاعتراف بحكومتهم مرجحا

ثورة فلسطين

لاتزال ثورة فلسطين قائمة لاتهدأ . وقد توسط الوزير العراقى نوري السعيد باشا بين الانجليز والعرب ولكنه لم يفلح . وأعلنت الحكومة البريطانية انها تنوى أن تزيد صرامة القمع وزادتها بالفعل . بل بعض الصحف البريطانية تبحث عن التقسيم الاقليمى لفلسطين بحيث يصبح لليهود حكومة مستقلة عن حكومة العرب . ولما ابدت عصبة الامم استياءها من حوادث فلسطين أجاب المستر أيدن بانه لايستطيع

الاجابة الا بعد أن يقرأ تقرير اللجنة الملوكية التى انتدبت لدرس الحالة . وأن هذه اللجنة لا يمكنها أن تدرس الحالة الا بعد أن تهدأ البلاد . وقد أعلنت الأحكام العرفية

وليس فى سير الحوادث مايشجع على الظن بأنها فى مصلحة العرب

مؤتمر نورمبورج

عقد الوطنيون الاشتراكيون فى المانيا مؤتمرا دل على جملة أشياء . أولها أن المانيا تعلن العداء للشيوعية ويكاد يقول زعماؤها انها تأخذ على عاتقها حماية أوربا من الشيوعية . وقد كانت بعض الخطب تشبه اعلان الحرب على روسيا . والثانى أن الالمان قد نجحوا أو كادوا فى ايجاد مواد خامة تقوم مقام القطن والبترول والكوتشوك وغيرها . وهذا النجاح هو ثمرة التجارب التى احرجوا عليها بعد حرمانهم من المستعمرات ومع قلة الذهب لديهم . والثالث أن جميع الالمان أصبحوا فاشيين راضين عن حكم هتلر بل مغتبطين به . فان الحماسة التى قوبل بها زعماء الوطنية الاشتراكية فى نورمبورج حيث عقد المؤتمر تفوق الوصف



الدكتور امبيدكار

المنبوذون

آخر مايقال عن الدكتور امبيدكار زعيم المنبوذين انه يرفض المسيحية والاسلام لطائفته ويطلب اعتناقهم لديانة السيخ . وذلك لأنه يخشى من المسيحية زيادة نفوذ الانجليز . ويخشى من الاسلام زيادة نفوذ المسلمين . وهو لا يزال هندوكيا فى قلبه وان لم يكن فى عقله . وقد اهتدى اخيرا الى ديانة السيخ وهم قوم ينتمون فى العرف الى الديانة الهندوكية ولكنهم لا يعرفون النجاسة ويساوون بين أنفسهم وبين المنبوذين وهم لا يدخنون ولا يشربون الخمر ولا يعرفون حجاب المرأة ولا يحجون . ويبلغون نحو ثلاثة ملايين وربع معظمهم فى بنجابه . وهم يحترمون البقر بلا تقديس ويؤمنون باله واحد . وقد نشأت السيخية فى القرن السادس عشر

الادب والحياة

بعض هؤلاء الأجداد الأجلاء يتركون رسالتهم فى ألفاظ تشيع فيها الانوار والظلال والحركات والسكنات والآمال والآلام وكل ما كان يكتنفهم فى أثناء حياتهم وهذه الرسالة انما تحدث هؤلاء الأبناء حديثا قويا خالداً لا ينقطع

هذه الرسالة هى « الأدب » وقد تكون شعرية أو نثرية وهى مهمة شاقة لايقوم بأدائها إلا أفراد قلائل ممن أوتوا الالهام وهبط عليهم وحى خاص . وانك لتقرأ هذا الحديث الخالد هذا الحديث الذي ترويه القرون وكأن كل لفظ فيه « مخزن الكنوز » أو « قارورة العجائب » . ففى « مخزن الكنوز » قد يجد الانسان كثيراً من اللآلىء النفيسة الجذابة الجميلة — يجد عقوداً من الفريد وعناقيد من الجوهر وحبات من الزمرد والعقيق وتهاويل من الحلى والصور إلى غير ذلك . وفى « قارورة العجائب » تبهر العين ألوان الطيف السحرية والآفاق الخيالية والأقواس القزحية والموشورات التى تفسح أمام الخيال دنيا يضل فيها الخيال

لكن كل هذه الكنوز والعجائب تعيش متفرقة متباينة فاللآلىء تتباعد عن حبات الزمرد والألوان لاتكاد تندمج مع بعضها لأنه لايوجد بينها صلة أو آصرة تربطها جميعاً . وانك حين تقرأ تاريخ هذه العجائب لاتجد مايفيدك عن الرجل الذى جمعها أو نممها جميعاً لأول مرة ولا تجد ما يدلك على منشئها

ولكن الأدب على العكس من ذلك هو صورة من نفس صاحبه أو ليس الاسلوب هو الرجل ؟ ان الفكر كالبحر والحياة هى الشاطىء الذى يلقى اليه بما فيه من لآلىء وأصداف وأشلاء وأحياء وما تحويه جعبته العظيمة من عجائب

وهذه مهمة شاقة تكفل بها هؤلاء الأباء فلقد نقلوا الينا حضارات الماضى كله وترجموا لنا حياتهم ولم يقتصر بعض منهم على أن يكون الارث الذى يخلفه للأبناء ارثاً قديماً وانما سعى إلى المستقبل ففتح معالم تشق على الطيف وراد أقطارا تقصى الخيال أن يتقصاها

فالاديب هو نبي الانسانية الذي يترجم عن آمالها وآلامها ، عن حفائقها وعن أحلامها وهو الذى يكشف الجمال أمام أعينها إذا عز الجمال ، ويخلق من البلقع الجدب جنة فيحاء . هو الذى يسعى إلى تحقيق المثل الأعلى فى الحياة بعد هدم الفاسد من النظم والاوضاع وادماج الطبقات بعضها ببعض ادماجا تاما حتى تتحقق مبادىء الحرية والعدل والمساواة بينها

الهمشري

الأصل الهندى لكتاب الف ليلة وليلة

عن دائرة المعارف الاسلامية

نستطيع أن نقرر فى كثير من الثقة أن نواة كتاب ألف ليلة وليلة مأخوذة عن كتاب قصص فارسى يعرف بكتاب « هزار أفسانة » نقل إلى العربية فى القرن الثالث الهجرى وان غالب هذه القصص من أصل هندي . ووجوه الشبه التى نجدها بين كتب هندية وفارسية لاشك فى أنها أقدم من الأصل العربى ، وبين نواة الف ليلة وليلة تمدنا بمقاييس نستطيع أن نميز بها قصص هذه الطبقة القديمة ، وهذا التشابه صنفان ، فهو طوراً يكون صورة مطابقة للنص العربى . وطوراً ينحصر فى ملامح متفرقة من السهل تمييزها ، وكلما كانت هذه الملامح بارزة واشتد اتصالها ببناء القصة وموضوعها زادت قيمة فى نظرنا

ولدينا إلى جانب هذا مقاييس خارجية محضة كذكر الأسماء والنظم الفارسية القديمة . وقد حاول لين الدفاع عن النظرية القائلة بالأصل العربى لكتاب الف ليلة وليلة فبالغ فى تقدير هذه المقاييس الخارجية بمقدار ماوجد فيها من تأييد لنظريته . ومن الأيسر علينا أن نعلل كيف ان قصاصا أو نساخا عربيا وضع أسماء وإشارات عربية تتلاءم والأحوال العربيـة المعاصرة له من أن نتفهم علة ورود الأسماء الفارسية القديمة ، اللهم إلا اذا فرضنا أن هذه الاسماء عبارة عن بقايا مرحلة قديمة من مراحل التطور ، ولذلك فان المقاييس الخارجية التى تتصل بالهند وفارس تعتبر أهم نسبيا من غيرها . فقصاص العرب كانوا يعرفون كيف يطبعون القصة الأجنبية بالطابع المحلى ، وكيف يوفقون بينها وبين مايحيط بهم ، غير أنه كانت تعوزهم الحاسة الفنية الرفيعة التى تمكنهم من أن يصبغوا الشىء الوطنى بالصبغة الأجنبية ويكسبوه جو بلاد غير بلادهم

وفى القصة الأولى التى تتكون منها نواة الكتاب نلمس كلا من المقياسين اللذين يثبتان وجود الأصل الأجنبي فيه ، فاسما شاه زمان وشهريار وغيرهما أسماء فارسية ، كما أن خيانة زوجى الأميرين الأخوين التى انتهت برحلة أحدهما تشبه القصة الهندية « كاساثارت ساجارا »

وكذلك القصص الصغيرة الثلاث التى وردت عرضا فى نواة الكتاب ، والتى تتحدث عن التجار الذين يفهمون لغة البهائم والوحوش لها نظائر فى الأدب الهندى . والتشابه الملحوظ بين الطريقة التى تدمج بها بعض القصص فى بعض فى الف ليلة وليلة وبين الطريقة التى تنتهجها الكتب الهندية

له أهمية خاصة ، فان ادماج قصة فى قصة من خصائص الأدب الهندي ، وهو أمر مشاهد فى « المهابهاراته » وال « ينجه تنتره » و « وتلة بجه ومساتى » وغيرها ، ولا يحفل الهنود بما فى هذه الطريقة من بعد عن الواقع ومنافاة لطبيعة الأشياء . فانهم يظهرون من حين الى حين أشخاصا يتـكلمون أو يستمعون فى حين أن طبيعة موقفهم من القصة تتنافى مع هذا

والباعث الأول لـكتاب الف ليلة وليلة هو اكتساب الوقت وثنى المتهور عن عزمه . وهـذا موجود أيضا فى قصة الوزراء السبعة الهندية الأصل ، ونلحظ هذا بصورة أخري فى القصة الهندية « سوكاسابتاتى » ففيها تحول البغاء الأربعة بين زوجة صاحبها وبين زيارة خليلها فى غيبة زوجها بأن تشغلها فى البيت بجزء من قصة تسرده عليها كل يوم وتختمه دائما بقولها « سأقص البقية غداً اذا بقيت فى البيت الليلة » ، وهكذا لاتستطيع الزوجة تنفيذ مأربها حتى يعود زوجها

وهذه الطريقة فى تـكوين هيكل القصص شائعة فى الهند نادرة فى غيرها . ولسنا نعرف بين المصنفات القديمة كتابا واحدا اتبع فيه هذا النهج اللهم إلا كتاب أوفيد ويمـكن اتخاذ هذا النهج مقياساً نبين به الأصل الهندى لأجزاء خاصة من الف ليلة وليلة . وليس الأمر مقصوراً على ذلك بل انه يتعداه إلى الأسلوب ، فمن لوازم الـكتب الهندية الشعبية قولها « لاتفعل ذلك وإلا أصابك ما أصاب فلانا » فيسأل السامع « وكيف ذلك ؟ » فيجيب القاص برواية القصه ، وهذا الأسلوب نفسه مستعمل فى الف ليلة وليلة ، وقولهم « وكيف ذلك ؟ » فى بداية القصة ترجمة حرفية للعبارة السنسكريتية « كاتام إتات » ، ونحن نميل إلى افتراض أن هذه العبارة بالذات موجودة فى هزار إفسانه كما توجد أيضا فى الاصل الهندي الذي أخذ عنه هذا الـكتاب

فالقصص التى فى أوائل جميع النسخ المخطوطة والمطبوعـة من كتاب الف ليلة وليلة كقصص التاجر مع العفريت ، والبنات مع الحمال والصعاليك الثلاثة ، والاحدب كلها شاهدة على الطريقة التى قام عليها هيكل الـكتاب ، لان فيها السمات التى تذكرنا بالقصص الهندية القديمة ، ومن تلك السمات الحيلة التى لجأ اليها الصياد فى إعادة العفريت إلى القمقم بعد أن كان قد أطلق سراحه ، فهى مشابهة للترجمة المغولية لقصة « سمهة سندفترمساتى » أي قصة « ارجى برحى خان » ومشابهة لقصة أهل الجنوب المعروفة بـ « بنجه تتره »

ومن السمات التى تذكرنا بالقصص الهندية أيضا الصراع بين الثعبان الابيض والثعبان الاسود وكلاهما عفريت ، فاننا نجد له شبها فى قصص التتار التى من أصل هندى ، وليست من أصل إسلامى كما ذهب إلى ذلك ناشرها بافيه ده كورتاي . وكذلك الصراع بين العفريت والاميرة الساحرة ، إذ أن له شبها قويا بالترجمة المغولية لقصة « وتله بنجه ومساتى » ومنها أيضا قصة الملك والحـكيم دوبان

وكيف قتل هذا الحكيم الملك بكتاب دهنت أوراقه بالسم ، فتلك عادة شائعة بين الهنود وهناك من جهة أخري تشابه فى الملامح بين الكثير من الحكايات الاولى من كتاب الف ليلة وليلة يجعلنا لانسلم بسهولة بأن هذه الحكايات كانت فى الاصل متفرقة على الصورة التى وصلت الينا ، بل من المحتمل أن تكون كل حكاية من هذه الحكايات المأخوذة من هزاز أفسانه قد أصابها تغيير كبير فيما بعد

والحكايات الاخرى التى لاشك فى أصلها الهندى الفارسى هى . —

١ — حكاية الحصان المسحور ، فقد وردت بها أسماء فارسية مثل سابور ، واعياد فارسية مثل النيروز والمهرجان . ويمكننا أن نرد الفكرة التى تقوم عليها هذه الحكاية الى قصة « بنجه تنتره »

٢ — حكاية حسن البصري، وقد ورد فى ترجمة هابشت وهاجن اسم بطل هذه الحكاية «عاصم الصباغ » بدلا من حسن الصائغ وربما كان هذا ناشئا عن التباس بين الصائغ والصباغ

وأهم مافى هذه القصة سرقة الريش ، والحيلة التى تغلب بها بطل القصة على الرجال الذين كانوا يتنازعون الميراث وتوسل بها الى استرجاع محبوبته الهاربة . وهاتان الظاهرتان من أصل هندى ثم ذاعتا بعد ذلك فى الشرق

وصدر قصة حسن البصرى والجزء الاخير منها يتردد ثانية فى كتاب الف ليلة وليلة فى حكاية جان شاه المتداخلة فى حكاية حاسب كريم الدين وملكة الحيات ، وهى حكاية ربما امتزج أصلها بعناصر يهودية . أما حكاية جان شاه فقد كتبت على نسق قصة أقدم منها ولكنها ضعيفة من الناحية الفنية . ومن الغريب أن قصة حاسب كريم الدين نسبها الى هزاز أفسانه أحد الكتاب فى مقال نشره بمجلة أدنبره فى حين أنه ينكر انكارا تاما أن الف ليلة وليلة له أصل فارسى

واذا ضربنا صفحا عن المقاييس الفنية البحتة فانا نستطيع أن نقول فى ثقة إن هذه الحكاية بما فيها من تهويل سخيف وتكرار ممجوج لم تقتبس من نفس المصدر الذى أخذت منه الحكايات المحبوكة الجيدة السبك مثل حكاية الحصان الأبنوس وحسن البصري وغيرهما

٣ — وحكاية سيف الملوك هى الحكاية الوحيدة فى كتاب الف ليلة وليلة التى نجد فى الفارسية حكاية كاملة تقابلها تمام المقابلة . وقد ذكر لين المخطوطات الفارسية التى توجد فيها هذه الحكاية

٤ — حكاية قمر الزمان والأميرة بدور

٥ حكاية الأمير بدر والأميرة جوهر السمندلية

٦ — حكاية أردشير وحياة النفوس . ونجد هذه الحكاية أيضا بشكل آخر فى مخطوطات الف ليلة وليلة . نجدها فى حكاية عمر بن النعمان . وبالرغم مما قرره سيبولد فانى أرى أنها إضافة متأخرة إلى نواة كتاب الف ليلة وليلة ونجد هذه الحكاية أيضا فى حكاية تاج الملوك والأميرة دنيا التى تقابل حكاية أردشير وحياة النفوس مقابلة تكاد تكون حرفية

وعلى هذا فان هذه القصص التى أخذت من كتاب هزار أفسانه هى التى تكونت منها نواة كتاب الف ليلة وليلة ثم تجمعت حول هذه النواة فى أراض عربيه طبقات مختلفة من الحكايات

وأول طبقة من هذه الطبقات بغدادية يتردد فيها اسم هرون الرشيد . وبعض حكايات هذه الطبقة من وحى الخيال ، والبعض الآخر عبارة عن حوادث تاريخية زيد فيها وأعيدت صياغتها مثل حكاية أبى الحسن أو النائم اليقظان التى نجد أصلها التاريخى فيما رواه الاسحاقى وكذلك نجد ان كثيراً من الحكايات التى ذاعت عن أبى نواس وأبى دلامة قد أصبحت من الروايات الادبية

ويجب ألا ننسى أن اسم الرشيد كان قد أصبح منذ وقت قديم رمزاً للعصر الذهبى الغابر تفعل فيه الأعاجيب وتحاك حوله الأساطير . وعلى هذا فمن الخطأ أن نكتفى بورود اسمه فى حكاية من الحكايات فننسبها إلى هذه الطبقة . وفى مثل هذه الحالة يجب أن يكون اعتمادنا على المقاييس الداخلية

واذا صرفنا النظر عن كثير من التفصيلات التى لابد أن يعتورها الشك فانا نستطيع أن نقول بصفة عامة إن الاقاصيص الهينة الجيدة السبك التى تمثل حياة الطبقة الوسطى وتقوم على مشكلة من مشكلات الحب ويكون حلها على يد الخليفة هى من الطبقة البغدادية ، أما حكايات الصعاليك وحكايات الجن وهذه فى الغالب ضعيفة الاسلوب ، فهى من طبقة مصرية متأخرة

ومما يجدر ذكره أن الجن فى الحكايات الهندية والفارسية القديمة يفعلون مايفعلون من تلقاء أنفسهم ، أما الجن فى القصص المتأخرة فيخضعون دائما لطلسم ما . وعلى هذا فان صاحب الطلسم هو الذي يسيطر على مجرى الامور دون الجن والعفاريت

أما الحكايات البغدادية فليس للسحر دخل فيها . وقد بين نولدكه أن حكايات الصعاليك فيها عنصر مصرى خالص . وأقدم مثل على هذا النوع هو القصة المشهورة التى رواها هيرودوتس عن كنز الملك رامبسينيت . فانا نجد شبها طريفاً لجزء من هذه القصة فيما حكاه المقدمون الثمانية للسلطان بيبرس فى كتاب الف ليلة وليلة

ونحن نرجح ماحاول أن يثبته شوفان من أن الجزء الاخير من الطبقة المصرية بما فيه من حكايات مبتذلة عن السحر من وضع يهودى . وحكايات هذه الطبقة المتأخرة هى أضعف ما فى الكتاب من الوجهة الفنية

وفوق هذه الطبقات الاربع التى سبق أن بينا أنه لا يمكن تمييز بعضها عن بعض بالدقة ، اشتمل كتاب الف ليلة وليلة على عدد من القصص الكبيرة والاقاصيص الصغيرة . وهذه القصص الكبيرة ترد كل واحدة منها فى نسخة دون الاخري . ويظهر آنها أضيفت الى الكتاب لالشىء إلا ليبلغ عدد الليالى التى دل عليها اسمه . من هذه الحكايات حكاية الوزراء السبعة وهى من أصل هندى مستقل والحكايات التى نسجن على منوالها ، مثل حكاية الوزراء العشرة وحكاية الوزراء الاربعين وحكاية جليعاد وشماس

أما نسبة حكايات السندباد البحري الى كتاب الف ليلة وليلة فمحل بحث . ويظهر أنها وضعت فى عهد بلغت فيه بغداد والبصرة غاية ماوصلتا اليه من إزدهار . وربما كانت هذه الحكايات فى الاصل كتاباً قائما بذاته

ومن الحقائق المعروفة آن هناك بعض الحكايات المصرية القديمه والحكايات اليونانية التى تشابه حكاية السندباد فى مادتها

وهناك حكايات لم تكن فى أصل كتاب الف ليلة وليلة مثل الحكاية الطويلة التى تتحدث عن فروسية عمر بن النعمان وولديه ، وحكاية شول وشمول وحكايتين تعليميتين تختلف كل واحدة منهما عن الاخرى اختلافا بينا وهما حكاية الحكيم هيكر ، وهى يهودية الاصل ، وحكاية الجارية تودد التى أصبحت فيما بعد كتابا يقبل الشباب فى أسبانيا على قراءته واسمه La Donzella Teodor Tudur وتيودور أو تدور تصحيف لكلمة تودد ومن السهل إيضاحه بوساطة فن الكتابات القديمة

والاضافات الاخيرة التى أضيفت إلى هذا الكتاب الضخم حدثت فى مصر . وربما كان ذلك فى أواخر عهد المماليك ، ولعلها وضعت فى القاهرة لكثرة ورود أسماء صحيحة لاماكن فيها . وهذا الرأي يمكن استنتاجه أيضا من لغة هذا الجزء . فهى تشبه اللغة العربية فى عصورها المتأخرة وتقرب فى كثير من الوجوه من اللغة المصرية الدارجة

على أن واضعى هذا الجزء لم يوفقوا تماما فى محو الفروق الاصلية البارزة بين أسلوب الجزء الاصلى وأسلوب ما أضافوه اليه . وكذلك تختلف النسخ المختلفة اختلافا بينا فى هذا الصدد . وقد حاول شوفان أن يعين على وجه التدقيق شخصية الرجل الذى وضع الطبقتين المصريتين وهو يرى أنه يهودي دان بالاسلام . ولكننا نرى أن عدد الكتاب والقصاص الذين اشتركوا فى تكييف

الف ليلة وليلة فى عصور متعاقبة كانوا من الكثرة بحيث أن الكشف عن عمل كل مؤلف منهم على حدة أصبح من الأمور المعقدة التى لا يجرؤ كاتب على التعرض لحلها

وقد جاء فى الفقرة التى ذكرها المسعودى أن الكتاب الفارسى هزار أفسانه الذى ترجم إلى العربية ترجمة حرفية معناه الف خرافة وأنه سمى بدل ذلك الف ليلة . أما اسم الف ليلة وليلة الذى أطلق أخيرا على الكتاب فيرجع إلى أن العرب كغيرهم من الشرقيين بصفة عامة يتطيرون من الأعداد الزوجية كما سبق أن بين ذلك جلد ميستر . وربما كان لميلهم المألوف إلى نوع من التسجيع فى تسمية الكتب دخل أيضا فى تغيير اسم الكتاب . ولكن ، كما أن الكتاب الفارسى هزار أفسانه لم يشتمل بالدقة على الف خرافة ، وهذه التسمية العددية إنما قصد بها عدد كبير من الحكايات التى وردت فى كتاب الف ليلة وليلة لم تكن فى الأصل مقسمة إلى الف ليلة وليلة وإنما وضع هذا التقسيم فى العصور المتأخرة . وهذا يبدو جليا من اختلاف النسخ فى هذا الموضوع اختلافا كبيرا . ولقد كانت الرغبة فى إكمال عدد الليالى فى الكتاب هى الباعث الى الزيادات الكثيرة التى أدخلت عليه . أضف إلى هذا أن شهرة اسم كتاب الف ليلة وليلة جعلت النساخ يميلون الى أن يضيفوا إلى ما اشتملت عليه المخطوطات كل ماهو دخيل وعجيب . وأحسن مثل على هذا مخطوطات باريس رقم ١٧٢٨

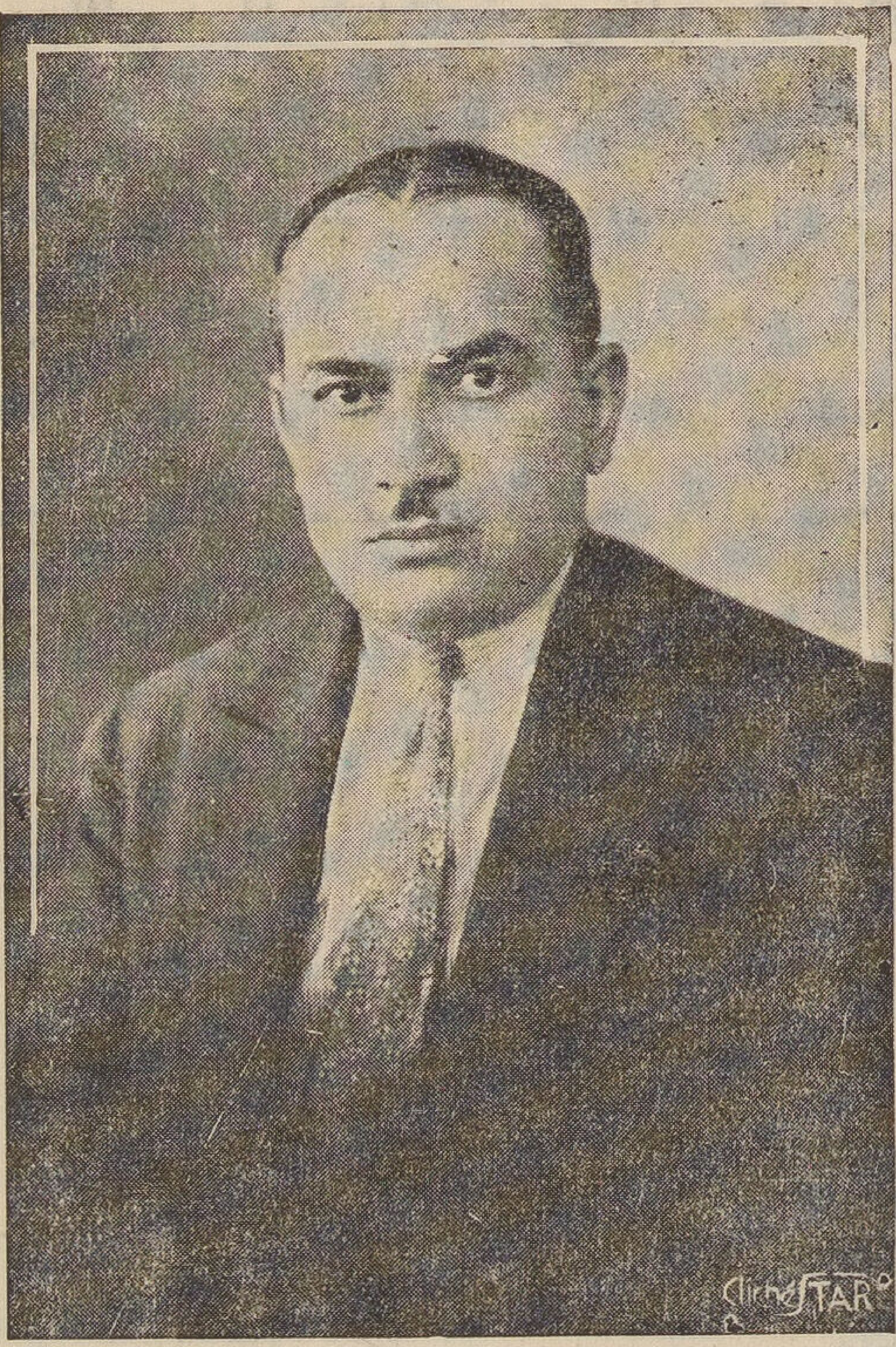
كفاح

لذة العيش فى جهاد عنيف   منه راجى الحياة لا يستاء !
لذة العيش فى أمان كبار   كلما خابت جد فيها الرجاء !
لذة العيش فى غرام جموح   عاصف بالكيان ، فيه جفاء !
لذة العيش أن تكون قويا   رجلا فيه للرجولة ماء !
يصرع الدهر لا تكلّ قواه   يمنع العين أن يسيل البكاء
طامحاً لا ينى لأحداث دهر   عاصفات ، ولا يقول « قضاه ! »
لذة العيش أن نحس بمعنا   ه صحيحاً ، لا أستبيك الرخاء
إن عيشاً مزيفاً هو عيش   لين خفض مابه أنواء
أنا عيشى ياصاح عيش رجال   حلوه مره هناء شقاء
لا تظنن انى عنه راض   لست أرضى به ولا أستاء
لم أنل فيه كل غايات نفسى   ليس للمجد غاية وانتهاء
كلما نلت مطلباً جد ثان   سرت فيه وما اعترانى انثناء
بله انى مكافح دون يأس   ذل من فى الكفاح ألقوا وناءوا
أنا مصرى ناشىء مستميت   فى المعالى ، فليس دوني علاء
وأرى المجد فى السماء فما تبـ   ـعد عن همتى وعنى السماء
صاح لا تشتك الزمان ، وجاهد   ليس فى صرعك الزمان عياء
يا ابن بانى الاهرام ترب خلود   يا ابن فرعون ما عليه عفاء

بنتاءور الصغير

المعرفة والصداقة الاممية

يحدثنا جايز فى كتابه الممتع « ست سنوات فى بوليفيا » عن دكتاتور من الاهلين اشتهرت سيرته فى تاريخ جمهورية بوليفيا (فى أمريكا الجنوبية) وكان يدعى « ماجاريجو » اذ لم يكن هذا الزنجى الاصل غير ضابط صغير فى الجيش ، فاستطاع بمتانة أخلاقه أن يبلغ فى النهاية منزلة الحاكم بأمره فى بوليفيا . . . وفى أثناء حكمه سنة ١٨٧٠ م . سمع عن نشوب الحرب بين فرنسا وألمانيا واستقر رأيه على أن فرنسا المعتدى عليها يجب أن تؤازر . ولكنه مع الاسف كان قاصرا فى معارفه وثقافته الى درجة جهله بكيفية بلوغ فرنسا لنجدتها ! فجمع الجيش البوليفى ومضى على رأسه مجتازاً التلال إلى الاودية ، وحينئذ بادره أحد قواده بسؤاله عما اذا كانت ثمة مراكب لنقل الجنود عبر المحيط الى فرنسا ؟ وكم كانت دهشة ماجاريجو عظيمة عند ما علم ان آلاف الاميال تفصل ما بين بوليفيا وفرنسا ! وهكذا عاد الى حيث بدأ زحفه فى أسف وخيبة . . .



الدكتور ا . زكى أبو شادى

فمن هذه الحادثة التاريخية لايشق حتى على المنطق اليسير أن يقدر أن الصداقة الاممية لا يكفى لاستغلالها الشعور بها ، وانما يجب أن تسندها المعرفة التامة . وفى أذهان القراء الكثير من الامثلة لصداقات بين الشعوب وبين الحكومات لم تؤد إلى الخير المرجو ، لا لسبب سوى جهل البعض بشؤون البعض الآخر . صحيح أن هذا الجهل فى مظهره ليس مثل جهل ماجاريجو ، ولكنه فى حقيقته شبيه به جد الشبه من ناحية التفاصيل وحسن تطبيق المعاونة . ولا شك فى أن هذا من أسرار الفشل الذريع الذى منيت به الانسانية فى علاقاتها الاممية ، ولا علاج لهذه الحالة المحزنة الا بنشر المعرفة الواسعة بين الشعوب عن سبل الترجمة الثقافية والسياحة وتبادل الزيارات

الجامعية وما شا كل ذلك ، وحينئذ يمكن للأمم أن تقف كل منها على متاعب الاخرى وأمانيها ، مع الاحساس بالمصالح المشتركة بينها احساسا دقيقاً يزجيها الى استنباط الوسائل لتبادل النفع والخير واتقاء النزاع ودفع الحرب

يصدق الاعتراف بأن هناك بداية حركة منذ سنوات فى هذا الاتجاه ، الا أنها مع الاسف حركة ضعيفة جداً بالنسبة لعظم المسؤولية وخطورتها ، وبعبارة أخرى إن الثقافة الدولية والتعارف الاممى محدودان جداً بالنسبة لتشعب العلاقات والمنافع . فكل سعى شامل يبذل لازالة الحجب والفوارق بين الشعوب ولتنوير بعضها عن البعض الآخر تنويراً تاما هو السعى الصادق للتعاون الاممى والسلام الحقيقى بينها . وعلى هذا فالصداقة الاممية لن تقوم لها قائمة بغير المعرفة الحقة ، فرجال الثقافة هم خير الاعوان للساسة متى كانوا مخلصين صادقين فى أداء رسالتهم . وانى كلما سمعت عن تأليف جمعية أممية ثقافية ، أو عن ذيوع دائرة معارف دولية جديدة ، أو عن زيادة التقارب بين الشعوب تولتنى غبطة عظيمة بأن الضمير الانسانى لم يمت بعد ، وأن الشعوب لابد مثبتة جدارتها بانسانيتها ، وان مآل الانسانية التسامى فوق الجهالة والتعصب الاعمى حتى تصير الارض هى الجنة الموعودة . . واذا كانت أجيال وأجيال تفرق بيننا وبين هذه الغاية النورانية فليس هذا مما ينهض عذرا لاستسلامنا للخمول واليأس ، بل علينا أن نكون جميعاً مبشرين فى تفاؤل بمستقبل الانسانية ، باذلين غايه وسعنا لازالة الحزازات التى ينميها الجهل بين الامم ، وهيهات أن تضيع هذه الجهود عبثا وان تباطأ فعلها وظهور أثرها

ا . زكى ابو شادى

القانون الفرعوني

مصدر القوانين كلها

إذا كان القانون يجرى مجرى الأخذ بالثأر والتخلى عن المجرم لأهل المجنى عليه واسترقاق المدين فهو قانون بدائي يليق بالأمم البدوية وغير المتحضرة والقبائل

حينما كان العالم قبل سبعة آلاف سنة موغلا فى الجهالة والتوحش كان لدى مصر قانون يدل رقيه وحكمة قواعده ، وقيامها على أساس العدالة ، وإبتعادها عن مبدإ الانتقام الفطرى ، وإيمانها باختصاص الحكومة أي الجماعة باقامة القسطاس وتوقيع الجزاء ، وتنظيمه للهيئة التى تقوم بالقضاء مع ضمان استقلالها . . يدل كل ذلك على مبلغ رقى الحضارة حينذاك ، لأن القانون الذى يكون فى هذه الدرجة السامية من الرقى لاريب يوافق حضارة سامية تبينا معالمها مما خلفت ، كما يدل على بعدها عن العهد الفطري الأولى لتكوين الدولة

وكان الشعب ينتخب القضاة ، والقضاة ينتخبون بدورهم رئيساً لهم ، وكانت المحكمة إذاقدمت بين يديها قضية لتنظرها جلس أعضاؤها وأمام الرئيس القانون مدون فى ٨ كتب، وتجرى المحاكمة فى صمت لأن المرافعات كانت كتابية لا كلامية خوفا من التأثير على القضاة بسحر البلاغة ، أو قوة العارضة ، أو سرعة البديهة مما قد يؤدى إلى حيف أو ظلم . وبعد أن تستوفى المرافعات حدها يتداول القضاة ، ثم يصدرون حكمهم بالأغلبية ، والحكم يعلنه الرئيس ،وتتولى الحكومة تنفيذه ونحن فى القرن العشرين الميلادى بعد مرور آلاف السنين نتمنى للقضاة حرية كهذه !

***

لمصر تاريخ معروف يبدأ بحكم الفرعون « مينا » عام ٥٠٠٤ ق.م. أما ماقبل ذلك فلا يعرف عنه الكثير لذلك يسمى العصر الخرافى أو ماقبل التاريخ ، ويزعم قدامى المصريين أن ثلاث أسر من الملوك تداولت الحكم فى ذلك العصر : الأولي الاسرة المقدسة وملوكها من الآلهة . والثانية الاسرة الشبيهة بالمقدسة ، وهى مكونة من أشباه الآلهة . والثالثة أسرة حورشيسو وحكامها من الكهنة

وتقول أساطيرقدماء المصريين إن أوزيريس من ملوك الاسرة المقدسة وضع للمصريين الكتب

والطقوس ، وأن زوجته إيزيس سنت لهم قوانين الزواج الشرعى وأن توت من ملوك الاسرة الثانية سن الشرائع وعلم المصريين الكتابة والفلك ووضع السنة المصرية ،وقسم الشهور وباسمه سمى الشهر الأول من السنة المصرية المسماة الآن بالسنة القبطية

ولكن المحقق أنه كان ساريا فى الدولة القديمة التى بدها مينا مؤسس الاسرةالاولى قانون معروفة بعض قواعده

وجاء بوكخوريس ابن مؤسس الاسرة الرابعة والعشرين « حكم من عام ٧١٨ — عام ٧١٢ق.م» فجمع شتات القوانين الموجودة وعدل فيها و تسمى مجموعته مجموعة قوانين بوكخوريس ، وقدسماها الاغريق فيما بعد قانون العقود

ولما جاء أحمس الثانى من ملوك الاسرة السادسة والعشرين (حكم من عام ٥٦٩ — عام ٥٢٥ ق . م) سن قوانين عدة وعدل مجموعة بوكخوريس وجمع كل ذلك فى مجموعة قوانين أحمس عام ٥٥٤ق . م .

ولما تولى الحكم أمرنيوس مؤسس الاسرة الثامنة والعشرين « حكم من عام ٤٠٦ — عام ٤٠٠ ق . م » كون لجنة من المشترعين أعادت العمل بمجموعة بوكخوريس بعد تنقيحها،وظلت هذه المجموعة سارية كقانون لمصر إلى نهاية العهد الفرعونى

وفى عهد البطالسة عدلت وبقى العمل بها على الشعب المصري دون الاغارقه الذين كانوا يمتازون بالخضوع للقانون الأغريقى

وفى العهد الرومانى استمر تطبيقها حتى عام ٢١٢ ميلادية حين أصدر الامبراطور كراجلا الرومانى قانوناً منح به الرعوية الرومانية لجميع شعوب الامبراطورية الرومانية وحتم سريان القانون الرومانى عليهم . وبذلك انتهى سريان القانون المصري فى مصر بعد أن طبق ماينيف على الخمسين قرناً

فى تاريخ الامم فترات تنحط فيها المدنية انحطاطا شديداً . وقد جاء العهد الرومانى وبخاصة الدور المسيحى منه مسرحا للجهل والمناقشات البيزنطية ومجالا للفوضى والاستبداد والانحطاط . وقد قام العصر المسيحى حاجزا دون مدنية الفراعنة ، ومنها القانون الفرعونى ،كما مرالعصر العثمانى على مصر فصد تيار الحضارة الاسلامية واستقبل عهداً من الجهل والفوضى والانحطاط قيد مصر عن مجاراة الامم بله التفوق عليها

***

قسم القانون المصرى القديم الأموال إلى . عقارية ، ومنقولة . والمنقولة إلى جامدة وحية —

وكان لفرعون جميع الاراضى ، ثم صار يمنح حق استغلالها لمن يشاء من النبلاء والكهنة ، ثم وزعت الأراضى على الأسر الكبيرة لتوزعها بدورها على صغار المزارعين

وكان للزارع بعد ذلك حق تملكها والتصرف فيها وتوارثها فكانت تابعة لهم ولم يكونوا تابعين مسترقين للأرض وأصحابها كما كان الأمر عند الرومان — وكانت المرأة تتساوي مع الرجل فى الأرث

هذا هو حكم قانون مصر فى الملكية قبل نحو ٢٠٠٠ سنة . وقد دار الزمن دورته واذا بحاكم مصر قد عاد مالكا لأرضها ولم يبدأ المصريون فى تملك الأرض إلا عام ١٨٥٨ فى عهد سعيد باشا

وكانت التعهدات بداية شفوية بحضور الشهود ، ثم صارت كتابية منذ نحو ٣٥٠٠ سنة ،ووجب تسجيلها لدى المسجل الرسمى . ولم يكن يترتب على العقد سوى التزام من جانب واحد

وقد بلغت فائدة القرض ٣٠ فى المائة ولكنها لاتسرى إذا بلغ مجموعها مقدار الدين الاصلى . ولم يكن ثم تحكم فى شخص المدين فلم يكن يحجز إلا على أمواله فقط ، وشتان بين عدل القانون المصرى فى هذا وتعسف القانون الرومانى القاضى باسترقاق المدين للدائن . وكانت ملكية الأسر إجماعية أى أن جميع أفرادها متضامنون فى الالتزامات . غير أن الملكية لم تكن تسقط بالتقادم لأن القانون المصرى كان يجهل التقادم

وقد أباح القانون الاجارة وجعلها فى الأراضى الزراعية لمدة سنة ، وأرض البناء لأكثر من سنة . وكان الرهن معروفا وتقبل فى الرهون أشياء غريبة مثل مومياء الوالد ، وإذا لم تخلص قبل فاة من يرهنها حرم هذا الراهن من ميزات الدفن وحفلاته

وكان البيع يتخذ شكلا لجميع المعاملات من إجارة ورهن ووصية . وقد ادخلت مجموعة أحمس طريقة الاشهاد بالميزان فى التبنى والعقود الناقلة للملكية من عقار ومنقول . وطريقة الاشهاد أن يؤتى بميزان وقطعة من نحاس ويحضر طرفا العقد والشهود فيمسك المشترى موضوع التعاقد أو مايرمز له ويقول إنه اشتراه بالثمن المقدر بالميزان ، ثم يقرع الميزان بسبيكة النحاس مشيراً إلى وزن الثمن ، ولا ريب أن هذه صورة رمزية لطريقة البيع القديمة حينما كانت تستعمل سبائك النحاس كنقود

وكان عقد الزواج يجرى أولا مدنيا ثم يتلوه الزواج الدينى الذي يعقده الكاهن كما هو الحال الآن فى أرقى الأمم المتمدنة . وكان الزواج يجرى بطريق الشراء ، ولكن لم يكن معنى ذلك أن يسترق الزوج زوجته ، فمركزها يظل مساويا لمركزه ويبقى لها حق التصرف فى أموالها ، فى حين أن القانون الفرنسى الحديث كان يمنع الزوجة من التصرف فى أموالها بدون رضا الزوج ، كما كان لها

حق الطلاق ثم تطور الزواج حتى اكتفى بالعقد المدنى فقط ، ثم انتهى الأمر أن صارت الزوجة وأموالها ملكا للزوج بتأثير الشريعة اليهودية

وقد بدأ الرق فى عهد الأسرة الرابعة باستخدام أسرى الحرب

وكان عقاب القاتل الأعدام ، بصرف النظر عما إذا كان القتيل حرا أم عبدا لأن المهم هو توافر القصد الجنائى فحسب ، كما كان القتل عقاب المتقسم الحانث بيمينه ، ومن امتنع عن مساعدة من يقتل أمامه ، وحكم الأعدام لا ينفذ فى المرأة الحامل حتى تلد

وعقاب الزنا جدع أنف الزوجة الزانية وضرب الزوج الزانى ١٠٠٠ عصا

وكان عقاب من يفشى أسرار الدولة قطع اللسان . وعقاب الجندى الفار من المعمعة أن يوسم بالعار فاذا استبسل بعد ذلك رد له اعتباره كما هو الشأن فى عصرنا هذا

وعقاب الوالدين اللذين يقتلان ولدهما الحكم باحتضانه ثلاثة أيام ، وهو كما أرى حكم روعى فيه العامل النفسى فجاء شديداً مفزعاً للضمير رغم انه عادل

وكان عقاب السرقة أو قطع الطريق الضرب بالعصا أو الأشغال الشاقة فى المناجم أو الموت حسب أهمية الجريمة . وهناك رواية غريبة فحواها أن القانون كان يقضى على كل محترف للسرقة أن يقيد اسمه لدى رئيس له فاذا سرق شىء ذهب المسروق منهم إلى الرئيس وأعطوه أوصاف الشىء المسروق ويدفعون له ربع قيمة هذا الشىء فيتولى رده اليهم ، وهذا يشابه ما يجرى الآن فى أرياف مصر من رد الشىء المسروق مقابل « الحلوان » . وتعليل ذلك أن المشرع لما رأى استحالة منع السرقة منعا باتا أوجد وسيلة لاسترداد الشىء المسروق مقابل أتاوة قليلة بدلا من فقدها كلية وهذه العادة مستغربة على أية حال

* * *

أثر القانون والعلم والفلسفة المصرية فى حياة الاغريق والرومان لا يتأتى لمؤرخ أن ينكره . وقد كان الكثيرون من طالبى العلم يتغربون عن بلادهم ليتعلموا فى جامعات مصر ومدارسها ، وقد اشتهرت جامعات منف وطيبة وعين شمس بكونها منهلا عذبا للعلوم والآداب تجمع جهابذة العلماء وفطاحل الأساتذة

وقد وفد إلى مصر من معلمى اليونان المشرعين ليكرج وصولون ، ومن الفلاسفة فيثاغورس وإقليدس وافلاطون . ولما آن لصولون العودة لبلاده وأراد وضع قانون لم يجد أمامه إلا قوانين مهذبة الأمم فاقتبس من مجموعة بوكخوريس

قال شمبوليون : « تعلم فيثاغورس بمصر كل ما استطاع معرفته ، كما تعلم بها صولون وطاليس

المليطى كل ما علماه اليونان ، ولسنا نجهل أسماء أساتذة افلاطون بجامعة عين شمس »

وقال ريفيو (١) : « كل ما يمكن أن يسمى حقاً بقانون فى وصايا الألواح الاثنى عشر إنما أخذ من قانون مصر . فحقوق الأفراد والأمم التى يتحدث عنها مشرعو الرومان لم تكن من مخترعات عقولهم وإنما هى حقوق مأخوذة من قوانين مصر القديمة ، وفضلا عن هذا فقد كان المصريون أساتذة الاغريق وقدوتهم فى كل شؤون المدنية »

ومن أشهر ما أخذ القانون الرومانى عن القانون الفرعونى من الطرق الرمزية طريقة الاشهاد بالسبيكة والميزان . وقد سموها (mancipacis per aes et libram) وصار لها أهمية خاصة لديهم لكثرة إشكالات القانون الرومانى وحرفية إجراءاته

* * *

من المواد المقررة بالسنة الأولى بكلية الحقوق القانون الرومانى ، وقد اضطررت للاعجاب به ، للدور العظيم الذى قام به . فقد بدأ تجميعه سنة ٤٥٠ ق . م . وظل يتطور نحو ١٠٠٠ سنة ثم غشيه النسيان فراح فى لجته نحو ١٠٠٠ سنة أخري ثم اكتشف ودرس وصار أساساً لمعظم قوانين الدول فى العصر الحاضر ، ومنها القانون المصرى المقتبس من القانون الفرنسى المأخوذ عن القانون الرومانى

ثم علمت أن القانون الرومانى ذا الألواح الاثنى عشر مأخوذ عن قانون صولون المشرع الاغريقى الذي وضع قانونه سنة ٦٠٠ ق . م . فزال ما توهمت من أن القانون الرومانى هو مصدر القوانين

ثم قل إعجابى بالقانون الرومانى لما علمت أن قانون حمورابى ملك بابل المجموع قبل ٣٥٠٠ سنة أرقى من القانون الرومانى فى نظرياته ويقرب من القوانين الحديثة ففيه مثلا مبدأ فصل الدين عن الدولة

وإن الانسان ليضطر أن يقل إعجابه بالقانون الرومانى أو يزول حين يعلم أن القانون الأول الذى استمدت منه حضارات البحر الابيض المتوسط شرائعها قد بدأ قبل قانون حمورابى بنحو ٣٠٠٠ سنة وقد مر بتطورات عظيمة على عصور طويلة تبلغ ٥٠٠٠ سنة أو تزيد . وما هذا القانون الأول إلا القانون الفرعونى

القانون الرومانى يدرس فى الأمم اللاتينية على انه أصل القوانين الحديثة ، ولهذا يدرس عندنا فى كلية الحقوق . ولكن ما الداعى لان نجاري الامم الغربية فى عصبيتهم للقانون الرومانى باعتباره غربيا ؟ لم لا نحكم العقل والمنطق والتاريخ فضلا عن الحافز القومى فندرس القانون الفرعونى باعتباره أساساً لجميع القوانين ؟

---

(١) ريفيو عالم فرنسي من علماء المصرلوجية أثبت أن أهم قوانين الرومان أخذت من قانون أحمس وما بعده

يدرس فى السنة الاولى بكلية الحقوق تاريخ القانون فلا ينسى ذكر المجموعات القديمة كقانون دراكون وقانون صولون الاغريقيين وقانون الاثنى عشر لوحة الرومانى وقانون حمورابى البابلى حتى قانون جورتين الكريدى وقانون مانو الهندي ثم لايشار بحرف للمجموعات المصرية مثل مجموعتى بوكخوريس وأحمس . ويدرس أيضا التطور فى الشرائع الرومانية والانجليزية والاسلامية ويهمل القانون الفرعونى أصل الشرائع ومبدأ تطورها

ويدرس تاريخ القانون فى دبلوم الدراسة العليا فى القانون العام فلا يفوته القانونين اليونانى والرومانى . وكأن البرنامج يراجع نفسه لاستدراج مافات السنين المتقدمة درسه بيد أن جهده لايعدو عهد البطالسة لاتصاله بالقانون الاغريقى ولايعترف بقانون فى مصر قبل ذلك

* * *

مما يحز فى النفس القومية أن نجد الأجانب أمثال ريفيو يأخذون أنفسهم باثبات مجد مصر، وهو تاج فخار وعزة وكرامة ، ونبقى نحن بنجوة ساهين ، مكتفين بالتشدق من حين الى حين ، بأننا الخلف الصالح وأحفاد الفراعين — مالنا ندفن صفحاتنا البيض النواصع ونرفع صفحات قانون الرومان وهم المغتصبون الأوائل الذين حرمونا قانوننا المجيد بعد أن بددوا حضارتنا ؟

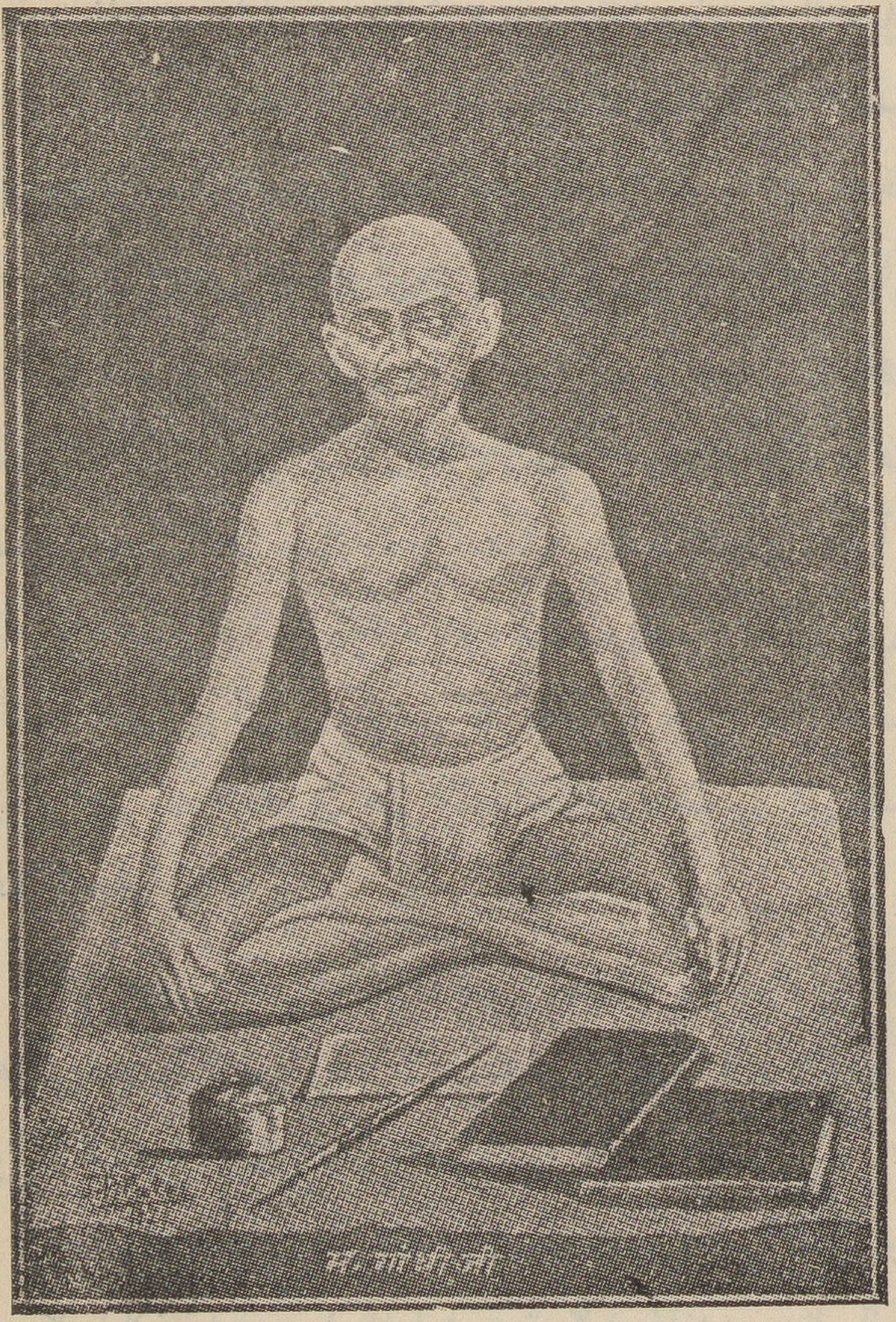
ولكن أليس المصري غريباً فى بلاده حتى فى شرائعه ؟ ! !

عبد الخالق ثروت الغمراوى



اجتماع لسماع غاندى

بادما سيدة هندية تعيش مع زوجها المحامى فى يسر وهناء فى إحدى المدن الصغيرة فى الهند ، وهى هندوكية مثله تحترم التقاليد الهندية وتمارسها فى عقيدة ثابتة لايشوبها شك ، ومن عقائدها كراهة المنبوذين والتشاؤم برؤيتهم والخوف من نجاستهم . وكان أحد هؤلاء المنبوذين يأتى الى المنزل كل يوم فى الصباح لكى يجمع الزبالة ويحملها فى عربة بعيداً عن المدينة ، وفى الهند يقوم المنبوذون بأحقر الاعمال مثل كساحة المراحيض وجمع الزبالة ، والمنبوذ لهذا السبب قذر الهيئة سيىء الرائحة ، وهذه القذارة التى تجلبها عليه حرفته الوضيعة تزيده احتقاراً



غاندى

وسمعت « بادما » أن غاندى العظيم سيأتى الى مدينتها وسيعقد اجتماعا تحضره السيدات لكى يجمع التبرعات للمنبوذين فان غاندى قد طلق السياسة منذ أربع سنوات وقصر جهوده على انقاذ المنبوذين من نكبة النجاسة وفتح معابد الهندوكين وتأسيس المدارس لهم ورفع مستواهم الاقتصادى وهو يتنقل من مدينة إلى أخرى فيعقد الاجتماعات ، ويخطب بين الجماهير الهندوكية المتعصبة فيقول بمساواة المنبوذين بسائر الطوائف ويجمع منهم الاموال لترقية هؤلاء المنبوذين

ومع أن بادما تكره المنبوذين وقد نشأت منذ طفولتها وتلقين أمها على كراهيتهم فانها كانت تحب أن ترى غاندى وقد سبق لها قبل أربع سنوات أن حضرت اجتماعا له وكانت متحلية ببعض

حليها الثمينة من الذهب والفضة ، فلما طلب غاندى التبرعات قدمت له جميع حليها وكانت لا يقل ثمنها عن مائة جنيه . فلما عادت الى بيتها وعرف زوجها مافعلت خاصمها وبقى الخصام نحو خمسة أشهر لم يشترك الاثنان فى حديث

وقد تذكرت حليها هذه المرة . ولذلك قالت لزوجها انها تنوى حضور الاجتماع ولكنها لن تأخذ حليها معها ، فوافق الزوج على ذلك وخرج هو الى مكتبه وتجهزت هى للذهاب الى الاجتماع فنزعت جميع ما عليها من الحلى ، ثم نظرت الى نفسها فى المرآة فلم تعجبها هيئتها وهى عاطلة من الحلى ولذلك عادت فوضعت سواريها على ساعديها وهى تنوى أن تخفيهما حتى إذا طلب غاندى التبرعات لم تطالب أو لم تحرج على أن تقدم شيئا

وقصدت الى الاجتماع فوجدت الآلاف من الرجال ومن النساء الفقيرات والغنيات وهن فى لغط وحديث وضوضاء لا تنقطع ولكن عندما صعد غاندى الى المنصة هدأ الاجتماع وسكنت الضوضاء ، وقعد غاندى والجمهور يتأمل شخصه الضعيف بل النحيل وهو شيخ ضئيل الجسم له شاربان ابيضان وعلى كتفيه شملة من النسيج الهندى الذى دعا اليه هـذا الزعيم ، وكان جميع الحاضرين تقريبا من الرجال والنساء يلبسون هذا النسيج

شرع غاندى فى الكلام والصمت يسود المكان كأن ليس فيه أحد فقال

« اخوتى . اخواتى . إننا قد اجتمعنا هنا لكى نجمع بعض المال لمساعدة المنبوذين. كلنا أمام الله متساوون ليس بيننا رفيع ووضيع ، وهذا المنبوذ هو أخونا الذى يجب أن نحبه ونساعده حتى يعيش مطمئنا على حياته وعلى معاشه ، لقد ظلمناه كثيراً وآن الاوان لان نكف عن ظلمنا له ، ان الديانة الهندوكية لم تظلمه حين قررت إنقسام الناس الى طوائف لانها انما قصدت ذلك على سبيل التخصيص أى أن تختص كل طائفة بعمل ما ، ولكننا نحن أسأنا فصرنا نحتقر المنبودين ونحرمهم من الحقوق حتى عمتهم الفاقة وأدت بهم الى القذارة التى تشبه النجاسة ، انى أطلب أموالكم فلا تبخلوا بها »

ثم خطب اثنان أو ثلاثة من الخطباء وحضوا على التبرع . وعاد غاندى فتحدث فى صوت هادىء بلغة العامة وهو لا يتكلف الكلمة البليغة أو الايماءة المدروسة . فحض على الخير والحب والمساواة بين الطوائف والمنبوذين

وشرع الحاضرون يقدمون حليهم ونقودهم حتى ارتفع منها كوم فوق المنصة وجمدت بادما مكانها لا تتقدم . ولكنها شعرت كأن غاندى ينظر اليها ويوبخها . والواقع أن غاندى التفت اليها وقال فى نغمة حلوة:

« وأنت يا أختى ماذا تقدمين للمنبوذين ؟ »

فنهضت بادما وتقدمت الى المنصة ونزعت سواريها . فقال غاندى « أشكرك يا أختى »

* * *

وعادت بادما الى مكانها وهى ترتجف من الفرح والخوف فان الفرح قد غمرها بكلمات غاندي . والخوف تملكها لما تتوقع من رؤية زوجها وحديثه الخشن معها بشأن السوارين اللذين تبرعت بهما

وجاء الزوج وتناول عشاءه وانكفأ الى سريره ولم يمض عليه دقائق حتى نام . ولكن بادما لم تطق النوم فبقيت ساعة ثم ساعتين ثم ثلاثاً وهى فى ارق وهم . وأخيرا نهضت وايقظت زوجها وفاجأته بقولها :

« اسمع . اسمع . أنا تبرعت بالسوارين »

فقال الزوج وهو فى نعاس يكاد يغلبه .

« ألم أقل لك قبل الذهاب أن تنزعى حليك ؟ » ثم غلبه النوم

فعادت وأيقظته لانها شعرت انه يجب الفصل فى هذا الموضوع بجد وبلا هوادة . واستيقظ الزوج تماما . وسمع القصة بتفاصيلها وكيف أن زوجته حاولت أولا أن تخفى سواريها . وكيف نجحت فى الأول ولكنها استجابت أخيرا لطلب غاندى

وهنا قال الزوج « وأنا أردت أن أذهب الى المكتب ولكنى قصدت الى الاجتماع وكان معى سبعون روبية وضعتها أمام غاندي »

ونام الاثنان بعد ذلك نوماً عميقاً

الصناعة حياة الأمم

بقلم الدكتور حسين على الرفاعى

خامات وآلات ، وأيد عاملة ، ورءوس أموال ، ورءوس مفكرة تنتج مجتمعة حرفا عديدة ، وهى فى مجموعها تولد الصناعات

والصناعه حرفة شريفة وباب رزق لاينضب مادام القائمون بها يعملون لها بكل جد ونشاط وإخلاص وأمانه . وصناعة فى اليد أمان من الفقر . ولا نجاح لخمول فى الصناعة ، ولا صناعة مع خمول بل ليس للخمول حظ فى الحياة ، لان الحياة نضال مستمر لايفوز فيها إلا العامل اليقظ ، والصناعة فى حاجة مستمرة الى التجديد ، ولايتوافر التجديد إلا لمحب الاستطلاع ، لاقتباس الطرق الحديثه والوسائل المبتكرة المؤدية إلى نجاح الصناعه ، ورواج مصنوعاتها فى الداخل والخارج

نظرة صغيرة إلى ماحولنا وإلى الحياة التى نحياها فى بلادنا والمعيشة التى نعيشها فى منازلنا ، الصغير منا والكبير ، الحقير منا والعظيم ، الفقير منا والغنى ، نري صناعات فى صناعات . صناعات آلية وصناعات يدوية ، صناعات منزلية ، وصناعات خارجية ، صناعات غذائية ، وصناعات غير غذائية ، صناعات زراعية ، وصناعات غير زراعية ، صناعات الغزل والنسج والصباغة من قطنية وصوفية وحريرية وكتانية وتيلية ، صناعات الخضر والفاكهة المجففة والمحفوظة ، صناعات الأسماك والزيوت والورق والجلود والصابون والاسمنت والفخار والجرانيت والرخام والأسمدة والزجاج والأثاث ، وغير ذلك من مختلف الصناعات التى يعجز القلم عن حصرها

كل هذه الصناعات موجودة فى القطر المصري بنسب محدودة ، ولا أقول إنها متوافرة وكافية لحاجة البلاد لانها حديثة ناشئة ، وهى على حداثتها تبشر بالنجاح . وقد عنى بأمرها عناية خاصة الزعيم الاقتصادى الكبير ، وأستاذنا الفاضل المخلص لوطنه ، الغيور على رفاهية مواطنيه ، صاحب السعادة محمد طلعت حرب باشا

ولما كانت صناعات القطر حديثة فان القائمين برعايتها وحمايتها من سادة القوم والحكومة يسيرون رويداً رويداً ليقيموها على دعائم متينة ، فيضعوا لها الأسس الراسخة التى لاتزعزعها عواصف المنافسة غير الشريفة . داخلية كانت أو خارجية ، والحكومة تدأب فى حمايتها ، والضرب على أيدى العابثين بها ، بوضع القوانين اللازمة لمنع الغش أو التلاعب فيها

وفى مصر صناعات كثيرة ، خامات بعضها متوفرة فيها ، وخامات الآخر يعوزها بعض العناصر الواجب استحضارها من الخارج . ولا يضيرنا فى أعمالنا الصناعية أن نستعين بالامم الاجنبية لاتمام ماينقصنا لاصلاح أحوالنا الصناعية ، لان هذه الامم تستعين بما توافر لدينا من الخامات لانجاح صناعتها هى بدورها . فالامم متضامنة فى الحياة الاقتصادية ، وما زاد فى أمة من الخيرات الطبيعية يتمم مانقص فى الامم الاخرى

أما فى مصر فقد رجحت كفة الصناعات الزراعية ، لأن قوام البلاد الزراعة . والصناعات الزراعية على نوعين : — صناعات زراعية غير غذائية أى لا تستعمل للتغذية ، وصناعات زراعية غذائية . وفى هذا التقسيم امتازت الصناعات الزراعية عن الصناعات غير الزراعية فى مصر ، وأصبح للقطن المصرى القدح المعلى ، ولذا فهو جدير بأن يكون الحجر الاساسى لاحياء القطر صناعياً

فالقطن متوافر لدينا وهو ثروتنا الوحيدة رغم كل مكابر . وإذا كنا نريد أن نكون مخاصين حقاً فيجب علينا أن نضع استغلال هذا المحصول الزراعى فى مقدمة قائمة الصناعات المطلوب إنعاشها . ولقد فطن لهذه الحقيقة زعماء النهضة الاقتصادية وأنصارها فأسسوا « مدينة الصناعات القطنية » فى المحلة الكبرى . وكان بودى الاطالة فى الكتابة عنها ولكن رغبة فى عدم بخسها حقها ، أكتفى بالاشارة اليها ، إذ لم يسعدنى الحظ بعد بزيارتها

ورغم الجهود الجبارة التى يبذلها رجال « شركات مصر » فانها لا تكفى لاستهلاك نصف محصول القطر القطنى فى الصناعات . وعلى ذلك فان المجال فسيح والميدان واسع ليفكر أغنياؤنا فى استغلال كمية كبيرة أخرى من قطن البلاد فى الانتاج الصناعى ، وعندئذ يجنى القطر من هذا النهوض فائدتين عظيمتين : إذ يرتفع بلا شك سعر القطن المصرى لقلة الباقى منه للتصدير ، ثم تستفيد البلاد من المصنوعات القطنية الاهلية حيث تباع داخلياً بأثمان رخيصة لعدم تحملها نفقات النقل والتصدير ، فضلا عن دقة صنعها ومتانة نسجها وجودة نوعها . على أننا لا ننسى مايعود على عمال القطر من فتح أبواب جديدة للارتزاق منها . وكذا المصنوعات الصوفية التى ظهر تقدمها فى السنوات الأخيرة بفضل عناية وزارة الزراعة والجمعية الزراعية الملكية بتحسين أنواع المواشى والعناية بأصوافها ، فانتشرت مصانع السجاد الحكومية والاهلية

ولقد أثبتت مصر للعالم — بفضل ماقدمته من مصنوعاتها المختلفة فى المعارض الدولية التى اشتركت فى كثير منها — أن فى مصر صناعات ، وأن فى مصر رجالا يعنون بأمرها ، وأن مصر غنية فى صناعاتها بعكس مايزعمون ويدعون فقرها وعدم مقدرتها على الخوض فى ميدان الصناعات

وهناك صناعات زراعية ولكنها غذائية وهى المعروفه بالمحفوظات والمجففات أي التى تحفظ فى علب أو أوعية خاصة أو التى تجفف من الحاصلات الزراعية التى تنتجها المزارع والحدائق من خضر

وفاكهة . وأرجو أن يعذرنى القارىء إذا قلت إن العناية بهذا النوع من الصناعات مازال فى مهده والاقدام عليه ضئيل لايتناسب مع الاقدام على المزارع والحدائق التى خصصها أصحاب الاراضى الزراعية للخضر أو الفاكهة

لا أريد أن أغمط الحكومة نصيبها فى هذا الميدان ولكنه نصيب تعليمى أساسه الارشاد فمن الخطأ الاعتماد عليه وحده كمقياس لتقدم الصناعة وانتشارها فى البلاد . وإنما فضل الحكومة فى هذا الباب هو فضل المعلم المخلص والمرشد الامين لا أكثر ولا أقل . ولا أريد أن أحط من قدر الجهود العظيمة والمساعى المشكورة التى قام بها كبار الملاك من تخصيص مساحات وافرة من أطيانهم لانبات الخضر والفاكهة ، أذكر منهم على إسلام باشا ومحمود زكى بك . ولكن يقتصر الكثير من منتجى الخضر والفاكهة فى مشاريعهم الموفقة على إنتاج أجود أصناف الخضر والفاكهة دون تخصيص جزء من هذه الحاصلات للانتاج الصناعى بأنفسهم ، فالمسألة فى حاجة إلى شىء من الاقدام مع التضحية فى البداية والنجاح فى النهاية ، على أن يتولى تحقيق هذه الأمنية أصحاب هذه المزارع والحدائق

وعلى فرض نجاح الصناعات وتوافر منتجاتها فى مصر ، هل يجوز الاكتفاء بهذا القسط من النشاط الاقتصادى ؟ أو هل هناك شطر آخر عظيم الأهمية يجب العمل على إنهاضه والأخذ بناصره وبذل أقصى مايمكن بذله لتصل مصر بصناعتها إلى الغاية المنشودة — وهى رواجها فى الداخل والخارج ؟ وهل هناك فائدة من نجاح الصناعات الاهلية دون إعداد العدة اللازمة لتصريفها ؟

لاحياة للصناعة اذا لم تمهد لها السبل التجارية التى تضمن تصريف ماتنتجه . فالتجارة وحدها هى مفتاح نجاح الصناعة ، اذ لافائدة من الصناعة دون التجارة ، ولا حياة للتجارة اذا لم يعن بتنظيمها . ومع شديد الأسف فان الجزء الأعظم من التجارة فى مصر فى يد الأجانب ، وقسط المصريين فيه ضئيل ، وان كان قد بدأ أخيراً فى الظهور

ولست أريد أن أقول كما كان يزعم الطبيعيون « الفزيوكراتيون » فى فرنسا قديماً أن الصناعة عالة على الزراعة ، وأن التجارة سرقة . فقد انقضى هذا العهد الغابر وتحولت الافكار وتطورت الأمم فأصبحت الزراعة والصناعة والتجارة متضافرة ومتضامنة ، لاقوام لواحدة منها دون الاخرى

ولذا أرجو أن يوفق الله الغرف التجارية المصرية — التى أود ، وألح أشد الالحاح فى ضرورة تسميتها « الغرف الصناعية والتجارية » — إلى الاخذ بيد الصناعة والتجارة والوصول بهما الى ماتتوق اليه مصر من خير ونجاح خليقين بهذه النهضة المباركة

السودان الذى أعيد الينا

وهجرة المصريين اليه

نصت المعاهدة بين مصر وبريطانيا على اعادة السودان من حيث الادارة والموقف السياسى إلى الاتفاقية المعقودة سنة ١٨٩٩ وبذلك أصبحت ادارة هذا القطر ثنائية تستوى فيها حقوق مصر بحقوق بريطانيا . وقد جاء فى المعاهدة انه :



سيدة فى أم درمان

« يواصل الحاكم العام بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين مباشرة السلطات والطرفان المتعاقدان متفقان على أن الغاية الأولى لادارتهما فى السودان يجب ان تكون رفاهية السودانيين . وبناء على ذلك تبقى سلطة تعيين الموظفين فى السودان للحاكم العام الذى يختار المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين عند التعيين فى الوظائف الجديدة التى لايتوافر لها سودانيون أكفاء »

ومن هذه النصوص يتضح لاخواننا السودانيين ان مصر لاتستأثر بحق دونهم وانها لاتنظر نظرة الاستعمار للسودان بل هى تعترف أن رفاهيتهم مقدمة على كل اعتبار سواء من ناحية مصر أم من ناحية بريطانيا

وتقول نصوص أخرى ان :

« يكون جنود بريطانيون وجنود

مصريون تحت تصرف الحاكم العام للدفاع عن السودان فضلا عن الجنود السودانيين . وتكون الهجرة المصرية إلى السودان خالية من كل قيد إلا فيما يتعلق بالصحة والنظام العام . ولا يكون هناك تمييز بين الرعايا البريطانيين وبين الوطنيين المصريين فى شئون التجارة والمهاجرة والامتلاك »

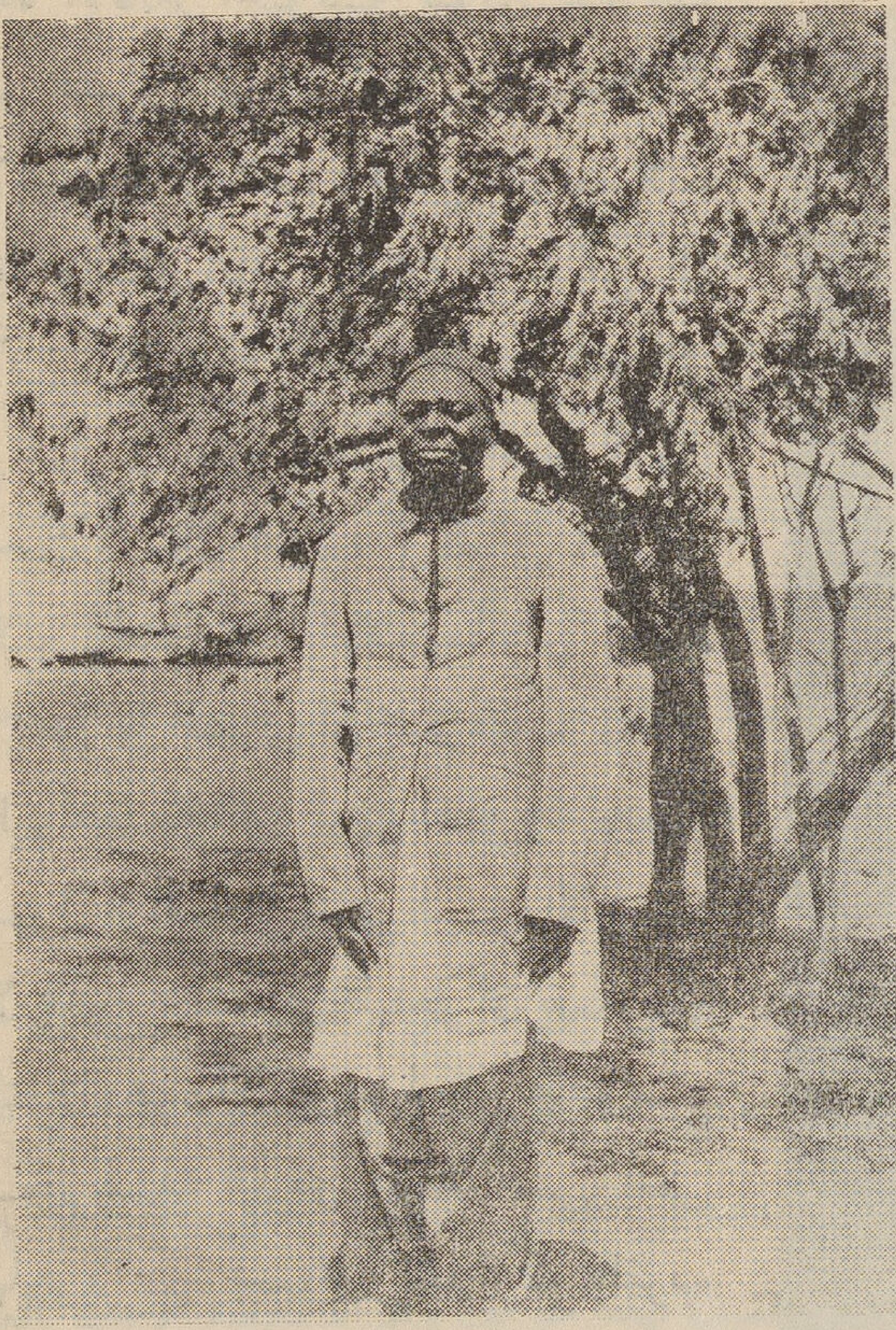
* * *

هذا هو أهم ماجاء فى النصوص الخاصة بالسودان . وقد فرح اخواننا السودانيون بفتح باب الهجرة المصرية إلى قطرهم . وليس فى العالم العربى قطر هو أقرب الينا فى الدم واللغة والدين والعادات والتاريخ من السودان ولكن يجب ألا ينخدع أحد بلفظة « الهجرة » فان السودان فقير . والمصرى الذى ينوى الهجرة اليه يجب أن يحمل معه من الأموال ما يكفى لتأسيس متجر أو مصنع أو لاستغلال زراعة . أما الشاب الذى يعتقد انه يمكنه أن يجد العيش بمهارته الفنية أو ذكائه أو مغامرته فلن يجد فى السودان غير خيبة الأمل



سوق الفخار فى أم درمان

ولفظة « السودان » توهمنا ان هناك قطرا واحدا . ولكن الحقيقة انها تعنى قطرين . ففى الشمال نجد السودان العربى حيث يتكلم السكان اللغة العربية وحيث ملامح الوجه عربية مصرية . وفى هذا القسم لا يشعر المصرى المهاجر انه غريب إذ هو يجد كل شىء تقريبا مطابقا لما تركه فى مصر



ولكن فى الجنوب نجد قطراً آخر هو غريب عنا وعن السودانيين العرب كل الغرابة إذ هو مؤلف من زنوج لايعرفون العربية ولا يدينون بالاسلام أو المسيحية وهم فى حال من التوحش إذا لم تجعل إقامة المصرى محاطة بالقلق الدائم فانها تجعله على الأقل يشعر انه فى قلب افريقيا غريب عن وطنه . وسكان هذا القسم يتفاوتون فى توحشهم وأكثرهم لايزال يعيش برعاية البقر والخراف والمعز ويجهل الزراعة أو يمارسها بطرق بدائية

وليست الاقامة فى القسم الجنوبى سهلة على المهاجر المصرى . فان الأمطار فى بعض

باليسار سلطان فى قبائل نيام نيام عند بحر الغزال

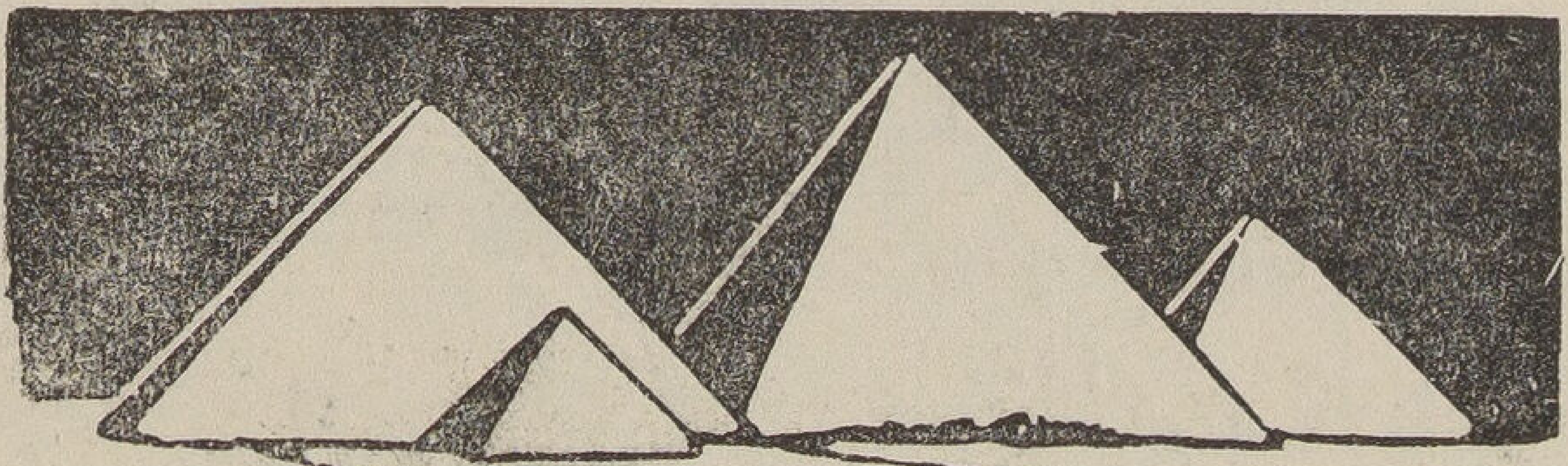
فى أسفل قرية من قرى الشيلوك



هذه الاقاليم الجنوبية يتوالى سقوطها نحو عشرين يوما . والارض كاسية بالأشجار والاعشاب ولكن المواصلات سيئة والتنقل شاق . ولذلك لم يمكن الى الآن الانتفاع بالميزات الاقتصادية التى لا تنكر فى هذه الاقاليم . والقسم الشمالى (حيث السكان العرب) قليل الخيرات كثير الصحارى ولكنه مأنوس بسكانه لا يشق على المصرى أن يقيم فيه . وهناك أقاليم خصبة هى أرض الجزيرة وبعض السهول الواقعة على ضفتى النيل الابيض . ولا يمكن المصرى المهاجر أن يفكر فى استغلال هذه الارض ما لم يكن عنده مبلغ ضخم لهذا الغرض . وقد أسس بعض المهاجرين بساتين للفواكه بالقرب من الخرطوم وانتفع بها كثيرا . وهذا العمل يمكن التوسع فيه



فلاحتان على النيل الابيض



مستقبل الطب

للاستاذ رمسيس شحاته

اضحي الطب الآن بفضل ما اسداه من الخدمات الجليلة للانسانيه من أكبر الاشياء التى نحرص عليها أشد الحرص ونتمنى لها من كل قلوبنا كل تقدم ونجاح . ويشجعنا على طلب المزيد ماحققه الطب من عجائب تقرب من حد المعجزات وما أصابه من نجاح تجاوب صداه فى كل أجزاء العالم كما تناول كل نواحى نشاط البشرية قاطبة من تحسين واتمام وتعديل . ولاشك أن أثر ذلك النجاح كان اعمق مايكون فى تطور حياتنا العقلية والجسمية

والطب دائم التغير وهو فى حركة مستمرة حيث السعى نحو الاكمل والاحسن فلا تمضى لحظة دون أن يتحقق فى العالم تقدم جديد أو دون أن نصيب نفعا جديدا . ولقد دعانا هذا الي تأمل مستقبل الطب وما يمكن أن يكون عليه بعد مدة من الزمن . ولسنا ندعى الاحاطة بهذا الموضوع فهذا امر محال كما اننا لاندعي كشف الغيب فهذا تخريف وهراء تنقصه الامانة العلمية وروح الجد والاتزان . انما نعتقد ان الاتجاهات الحديثة التى تتجها الابحاث الطبية الآن تكاد ترسم لنا صورة واضحة لما سيكون عليه حال الطب فى المستقبل. وهذا المستقبل وان امتدت حدوده الى ماوراء حياة الفرد العادى لا يمكننا الا أن نعتبره مستقبلا قريبا

ولقد سنحت لكاتب هذه السطور فرصة الاتصال من قرب بطرف من هذه الاتجاهات كما أنه كثيرا ماتهافت على دراسة الجديد منها دراسة توفر لها فى اوقات طويلة وقصد عليها ما استطاع من جهد وعناء

والطب بطبيعته علم وفن وليس من الممكن تحقيق أى جديد أو نجاح فيه مالم يتمش نجاح الناحية العلمية اى العلوم الطبية على اختلاف فروعها مع الناحية الفنية وتشمل فن التشخيص ووسائله ثم فن العلاج وسبله. فبتقدم هاتين الناحيتين معا وليس بتقدم واحدة منهما فقط يتحقق تقدم الطب عامة

مما تقدم نستطيع أن نري أن الكلام عن مستقبل الطب لابد أن ينقسم بطبيعة الحال الى

الـكلام عن مستقبل العـلوم الطبية ثم الـكلام عن مستقبل فن التشخيص ووسائله واخيرا الـكلام من مستقبل العلاج ووسائله . وسنتعرض فيما يلي للـكلام عن كل من هذه النواحى على التوالى اعتقادا منا أن هذا الطريق يـكاد يـكون الوحيد لايصالنا إلى الاحاطـة بالموضوع على أكمل وجه وابسط صورة

مستقبل العلوم الطبية

وليسمح لنا القارىء أن نقدم له أولا هذه العلوم واحدا واحدا رجاء تـكوين فـكرة عامة عنها ومعرفة حقيقتها وغاياتها

أول هذه العلوم الطبية هو علم التشريح وهو دراسة جسم الانسان من حيث الشكل والبناء والتشابه وهذا هو التعريف الاصلى لعلم التشريح وان كنا نميل الآن الى تقسيمه الي ثلاثة فروع مختلفة علم التشريح بالمعنى المقيد وينحو فى دراسة جسم الانسان من حيث الشكل ومواضع الاعضاء ونسبها وعلاقتها ببعض . ثم علم الانسجة وهو علم دراسه الانسجة المختلفة التى يتـكون منها الجسم البشرى وانواع الخلايا المختلفة التى تدخل فى بنائه . ثم علم الاجنة وهو علم دراسة الاطوار المختلفة التى يمر فيها الجنين حتى يصير انسانا كاملا

وعلم التشريح علم لانستطيع الابتداع فيه لانه مقيد ببناء الجسم ولـكنه لايزال بعد ناقصا فاننا وان كنا نعرف الـكثير عن بناء الجسم البشرى مازلنا نجهل شيئا كثيرا أيضا على الاخص مايتعلق بالجهاز العصبى المركزى . فنحن لانعرف فى الحقيقة الا الشكل الخارجى للمخ وبقية أجزاء الجهاز العصبى المركزى فوق جهلنا بالمراكز المختلفة الموجودة فيه ومواضعها وما يتصل بها من حزم عصبية . ولقد اتجهت البحوث الأخيرة نحوه وكان على رأس المساهمين فى هذا الباب الاستاذان دلماس ولو من جامعة مونبيليه من بعد الاستاذ جيليس والاستاذ جراسيه من نفس الجامعة ولكل من هؤلاء مؤلفات قيمة فى هذا الموضوع ولـكن مازال هناك مجال متسع للبحث فما زلنا نجهل اشياء كثيرة عن هذا الموضوع وأغلب الظن أن هذا هو الباب الوحيد الذى سيتحقق فيه نجاح ذو قيمة فى علم التشريح فى المستقبل اذا اعتبرنا ان مسألة البحث فى النظام اللمفاوى اوشكت أن تدخل فى حيز الانتهاء

أما علم الانسجة فمستقبله عظيم ولاشك أنه مقبل على عصر عظيم من التقدم والنجاح وأهم ابواب النجاح فيه باب زراعة الأنسجة **Culture de tissue** وقد بدأ البحث فى هذا الباب منذ

مدة ولكن النتائج التى حصلنا عليها لاتكفى بعد انما تعد اكبر مشجع للمضى فى الموضوع والاستفادة من البحث خصوصا وان النتائج التى حصلنا عليها حتى الان مع قلتها قد امكن أن نجد لها تطبيقات فذة أقلها عملية التطعيم بالغدد التناسلية الشابة على نحو ما هو معروف فى عمليات تجديد الشباب . ثم التطبيقات الهامة فى جبر الكسور وعمليات جراحة التجميل . وقد ظهر أننا نستطيع أن ندفع بالبحث الي أكثر مما تقدم للحصول على نتائج اعظم وأبهر مما لدينا إلى الآن

وهناك باب آخر للعمل نحو التجديد فى علم الانسجة وهو يبشر بثورة هائلة ربما تناولت هذا العلم من الاساس فمن المعروف أننا نلجأ فى دراسة الانسجة المختلفة للجسم إلى عمليات تلوينها فنلونها باصباغ خاصة وهذه الاصباغ تكون الاجزاء المختلفة للخلايا بألوان مختلفة يسهل التمييز بينها ومن ثم الحكم على تركيب الخلية الداخلى . ونحن قد تبين الشىء الكثير باتباع عملية التلوين هذه ولكننا نسعى منذ أمد بعيد الى التخلص منها لانه ظهر لنا أن الاصباغ تقوم فى بعض الاحيان بخلق أجزاء جديدة فى الخلايا ليست موجودة فيها فى الحالة الطبيعية وذلك لان تلون الخلية يعقبه موتها

وقد كنا نطمع أن نتمكن من رؤية الخلية حية لما تتغير بعد كما يحدث فى حالة موتها ولقد كانت هناك صعوبة هائلة وهى ان الخلايا شفافة بالنسبة للضوء العادى ولا يمكننا أن نميز بينها قبل التلوين أى شيء بواسطة المجهر والضوء الطبيعى

ولكن استطاع أخيرا الاستاذ لامارك من جامعة مونبلييه أيضا استنباط طريقة جديدة لمشاهدة الخلية الحية وتصويرها تصويراً يكشف عن أجزائها المختلفة دون حاجة الى تلوينها وذلك باستعمال أشعة رونتجن ذات طول موجة خاصة وشدة خاصة

ولقد كان لاذاعة هذا الاختراع رنة تجاوب صداها فى كل الاوساط العلمية فى العالم وهذه الطريقة حديثة لم تعلن الا فى شهر مارس من هذا العام ومع كل فقد أمكن أن نحقق بها نجاحاً وان نحصل على نتائج جديدة تبشر بمستقبل زاهر وتطور جديد

وفى اعتقادى ان النجاح الذى سوف نحققه فى علم الانسجة سوف يتجه على الاخص فى الاتجاهين اللذين بيناهما فيما تقدم

أما علم الاجنة فهذا علم لم يولد إلا مع القرن الحالى بأبحاث ارنست هيكل العالم الالمانى الفذ وهو علم حديث على ذلك وهو مازال فى دور التكوين. وما زلنا نجهل فيه الشىء الكثير اذ ليس تاريخ

الجنين البشرى واضحا الآن تمام الوضوح ولسنا نلم بكل دقائقه فهناك فترات لاتزال مظلمة أغلب ظنى أن البحث سيتجه نحوها حتى يكشف الحجاب عنها ويزيل النقاب نهائياً عن خفاياها

على أن هناك مشكلة أخرى لها قيمتها وهى مشكلة تعيين الجنس فقد ظهر منذ مدة اننا نستطيع ان نعين جنس الجنين إن كان ذكرا أو أنثى وأن نتحكم فيه بالنسبة الى بعض الحيوانات وعلى الأخص الطيور . ولكن مازال هذا الأمر مستحيلا بالنسبة للنوع البشرى وفوق ذلك فنحن لم نصل بعد الى تفسير كامل لاختلاف الأجناس ولا بد لنا من ابحاث جديدة فى هذا الباب وقد اتجه الباحثون فعلا الى العمل فى هذا الميدان . وهناك نتائج معينة تدفعنا الى الاعتقاد بأن المستقبل جدير بتحقيق تقدم عظيم من هذه الناحية

وهناك مسألة أخرى وباب جديد للبحث فتحه استاذ من أساتذة جامعة ستراسبورج منذ عامين ذلك هو تحقيق تربية الجنين خارج الرحم . لاشك أن هذه الطريقة جديرة بأن توصلنا الى كشف الستار عن الفترات الغامضة فى تاريخ الجنين البشرى فوق ازالة القناع عما خفى فى مسألة الجنس وربما قدمت لذلك تفسيراً قاطعا هذا فضلا عما قد تؤديه لنا من الخدمات اذا لجأنا الى تطبيقها عمليا لأن هذا يحقق فى الواقع فكرة معامل لخلق الانسان

ان النتائج التى حصلت عليها معامل جامعة ستراسبورج تدعو الى الاعتقاد بتعميم هذا البحث فى الجامعات الاخرى مما سوف يكون له أبعد الاثر فى مستقبل العلوم الطبية

يلى علم التشريح العام فى الاهمية والقيمة علم وظائف الاعضاء وهو يبحث فى الشروط العامة . التى يجب أن تتوافر فى الجسم لاستمرار الحياة فيه ثم دراسة نشاط هذا الجسم وما تقدمه أعضاؤه المختلفة من عمل أو لما لها من وظيفة

ولقد كان الكلام فى هذا العلم فى قديم الزمان رجما بالغيب وضربا من التخمين ولكن التطور الكبير الذى أحدثه فيه كلود برنار قد انتقل به الى حدود العلوم التجريبية المنضبطة ولقد عرف علم وظائف الأعضاء بعدئذ عصرا من التقدم والنشاط لم يكن له به عهد وقد بلغ هذا التقدم أوجه فى الوقت الحاضر فتعددت الاكتشافات الكبرى فى هذا العلم كما تعددت تطبيقاته الطبية . ولكننا لانزال بعيدين عن الكمال فى هذا الباب أيضا . ومن العجب أن يكون النقص على أشد ما يكون فى معلوماتنا عن الجهاز العصبى العام من الناحية الفسيولوجية متمشيا مع جهلنا به من ناحية التشريح

أننا مازلنا نجهل كيفية انتقال التيار العصبي فى الاعصاب بل لانستطيع أن نثبت أن هناك حقيقة تيار عصبي وما زالت تتنازعنا فى ذلك نظريات على أشد ماتكون من الاختلاف فيما بينها. فهناك النظرية الكهربائية ثم النظرية الكيماوية وأعجب من ذلك كله النظرية الحيوية . لقد وضع حداسيه من مونبيليه ـ وقد سبق الاشارة اليه فيما تقدم ـ نظرية عامة فى الجهاز العصبى ولكنها لا تفسر كل شيء وهناك أبحاث كل من بافلوف وما تيلنيكوف الروسيين ومن الانصاف أن نشهد بقيمة الابحاث العلمية الفذة التى قامت بها المدرسة الروسية خصوصاً فى باب الجهاز العصبي ولكن هذه الابحاث لاتفسر كل شيء بل نستطيع أن نقول ان اكتشاف بافلوف المتعلق بالاعمال المنعكسة المقيدة Reflex conditionelle قد عقدت الموضوع وزادته غموضا وان كانت قد دفعتنا بذلك نحو الطريق القويم ووجهتنا نحو الغاية الصحيحة

وهناك مسألة أخرى ظهر فى الأيام الاخيرة ما لها من قيمة وتأثير وما يمكن أن يكون لها من التطبيقات العملية التى تبشر بتطور عظيم فى فن العلاج ذلك هو الظواهر المعروفة بالظواهر المغناطيسية فى الانسان والتى تظهرها بأجل المظاهر وأوضحها عمليات التنويم المغناطيسى ثم نقل الافكار وقراءتها . فقد ظلت هذه الظواهر معدودة بين حيل الدجالين وشعوذة المشعوذين الا أن العلماء لم يستطيعوا الاستمرار في اهمالها والنظر اليها على هذا الاعتبار لكثرة ماشوهد منها ولذيوعها بين أناس أمكننا أن نثق فيهم ولو الى حد ولقد أدى ذلك الى خروج هذه الظواهر من حدود مظاهر التحايل والدجل الى حدود المظاهر الفسيولوجية الطبيعية . والعجب أننا رغم تسليمنا بذلك لم نقبل بعد على دراستها الدراسة العلمية الوافية بل لم نحاول حتى تفسيرها تفسيرا علميا صحيحا اذ تكاد تكون كل ثروتنا فى هذا الموضوع محصورة فى عدة نظريات أشهرها نظرية الاستاذ جراسيه من كلية مونبيليه وقد سبق ذكره .ولو أن هذه النظرية قد أدت الى ماهو معروف من طرق الايحاء الذاتي والايحاء الاجماعى فى العلاج فانها لاتفسر حقيقة العلاقة بين الاجهزة العصبية المختلفة بل لا تكاد تتعرض لذلك الا اضطرارا

ولما كان للجهاز العصبى المكانة الاولي فى الجسم وكانت أهميته تفوق أهمية الاجهزة الاخرى فاننا نتوقع أن هذه الخاصية التى لم تدرس بعد والتى لم تعرف قوانينها بل ولا طبيعتها أو مايحدث من تأثيرها فى الجسم جديرة بأن تنير أمامنا اذا حققنا فيها بعض النجاح كثيرا من النواحى المظلمة من العلوم الطبية ومن يدرى؟ ربما كانت تخفى بين طياتها حلا لبعض المعضلات الحالية فى الطب الحديث

ويدعونا الى الاعتقاد بأن مستقبل الطب عامة والعلوم الطبية خاصة سوف يتأثر بما قد نحصل عليه من النتائج فى هذه الناحيه هي تعدد الابحاث فى هذا الموضوع ثم زيادة الاهتمام بأمر النواحى العلمية المختلفة وربما كان الدافع الي ذلك ماقدمنا من اتجاه نحو دراسة الجهاز العصبى نحو اكتشاف خواصه ووظائفه المختلفة فى مختلف الاوساط المشرفة على البحث العلمى حالا . على أن هناك سببا آخر لا يمكن اهماله وينحصر فى أن هذه الدراسة مشتركة بين العلوم الطبية والعلوم النفسية (السيكلوجية) ولقد دعا التقدم السريع الذى حققناه فى المدة الاخيرة فى هذه الناحية من هذه الدراسات الى اثارة مسألة التنويم المغناطيسى ووضعها قيد البحث والملاحظة وكان طبيعيا عندئذ ان يدعو هذا الاهتمام بالمسألة من ناحية علماء النفس اهتماما يعادله ولم يلبث أن ذاقه لاهمية الموضوع وشدة تعلقه بالعلوم الطبية بين الاطباء والباحثين منهم

بقى علم آخر من العلوم الطبية ونعنى به علم الميكروبات . ولقد عرف هذا العلم فى المدة الاخيرة عصر ازدهار وتقدم لم يكن يضارعه فيه علم آخر من العلوم الطبية بل حتى من العلوم قاطبة . ولقد تمكنت الابحاث في هذا الباب من كشف النقاب عن كثير من الحقائق المهمة والتى نضعها الآن فى الدرجة الاولى من الاهمية حتى دعا ذلك بعض المتحمسين لهذا العلم الي القول بأن أسس الطب فى الواقع لا تتعدى التشريح ثم علم الميكروبات . ولقد تقدمت الابحاث فى هذا العلم حتى بلغت الذروة وحتى ابتدأنا نرى أشراق الفلسفة الميكروبية ان صح أن نتكلم على هذا النحو.

على أن أمرا ظل فى كل هذه المدة ورغم كل هذه النتائج ورغم كل ذلك التقدم والنجاح الذى اصاب علم الميكروبات ، نقول ، ظلت النظرية الميكروبية للامراض محل بحث وتنازع بين العلماء

وقد اشتد هذا التنازع بين العلماء حتى انقسموا فما بينهم إلى مدرستين مدرسة باستير وتجعل من الميكروب كل شىء أو على الاقل الجزء الأهم فى الامراض ثم المدرسة الحيوية وعلى رأسها أنطوان ريديه وغيرهم من أساتذة مدرسة مونبيليه وتجعل من الجسم أو التربة Terrain كل شىء فى الامراض ولا يلعب الميكروب فى نظرهم إلا دورا بسيطا بل الادهى أنهم يدعون ان الجسم يخلق ميكروباته . ولقد امكن فى وقت من الاوقات اسكات النظرية الحيوية واخفات صوتها واخماد أنفاسها إلى حد بعيد ولكن ذلك الاستبداد لم يكن ليستمر طويلا فعدنا نرى ونسمع من جديد تكرر الدفاع من هذه النظرية والدعوة الى مناقشتها واحيائها من جديد

نرى اننا وان كنا قد بلغنا الذروة تقريبا فى علم الميكروبات فاننا مازلنا نجهل جهلا يكاد

يكون تاما مسألة من المسائل الاساسية فيه وأغلب الظن أن الابحاث سوف تتعدد فى هذه الناحية وسوف تتابع حتى نصل منها إلى نتائج عملية نستطيع الركون اليها

وآخر العلوم الطبية هو علم التشريح المرضى ولقد كان فى استطاعتنا ادراج الكلام عنه فى أثناء الكلام عن علم الانسجة لولا خشية الغموض والابهام . وموضوع دراسة هذا العلم هو دراسة الانسجة فى حالة المرض لا فى الحالة الصحية على نحو مافى علم الانسجة وواضح أن كل مايمكن أن يحققه هذا العلم الاخير من نجاح وتقدم لابد أن يؤثر فى علم التشريح المرضى أشد التأثير فاذا تأملنا ما يمكن أن يؤديه تطبيق الطريقة الجديدة فى دراسة الانسجة ونعنى بها طريقة الاستاذ لامارك التى سبق الاشارة اليها رأينا عصر التقدم الذى يقبل عليه علم التشريح وما سوف يحققه من نجاح . على أن مشكلة المشاكل فى هذا العلم والتى لابد لنا من ابحاث متعددة متوالية للوصول فيها الى نتيجة حاسمة يمكن الاطمئنان اليها هي مسألة السرطان . فالسرطان فى الواقع يعتبر انه معضلة الطب الحديث عامة . ومشكلة المشاكل فيه على وجه التقريب أحد مواضيع دراسة التشريح المرضى . ونستطيع أن نقول ان حل مشكلة السرطان من ناحية التشريح المرضى لابد أن يؤدى بنا الى حل نهائى لمسألة السرطان عموما مع ما يتعلق بها من المسائل الاخرى الاضافية

والابحاث فى هذا الموضوع على قدر عظيم من الاهمية والكثرة وهي تدفعنا من مأزق الى مأزق ونحن نكاد نتخبط فيها تخبطا أعمى لا هدى ولا رائد فيه ولكن لابد من الاستمرار على ذلك وان كان شديد الايلام للنفس أن نستمر على السعى من وراء غاية مجهولة معصوبى العينين ومكتوفى الايدى لان الغاية التى ننشدها تكاد تفوق الغايات الاخرى كلها مجتمعة . ان حل معضلة السرطان لم تعد بعد حلم علماء التشريح المرضى فقط بل انتقل منهم الى رجال الطب عامة

مستقبل الفنون الطبية

بينا فى ما تقدم طرفا عن مستقبل العلوم الطبية وقد تعرضنا فى عجالة الكلام عن مستقبل كل منها . ولما كان الطب علما وفنا فاننا نريد الآن أن نستعرض مستقبل الفنون الطبية فى عجالة كالسابقة حتى نستطيع بذلك أن نكون لأنفسنا صورة واضحة من مستقبل الطب عامة وما يمكن أن تحققه الايام فيه من تقدم ونجاح

والفنون الطبية كما قدمنا قسمان قسم التشخيص ووسائله ويتضمن دراسة الامراض وعوارضها . ثم قسم العلاج ووسائله ويتضمن أيضا علم الصحة العامة وفن الوقاية أيضا

مستقبل التشخيص

لاشك ان الطريقة الـكلينيكية وهى المبنيه على الملاحظة والمقارنة والمشاهدة ستظل الوسيلة الـكبري فى تشخيص الامراض ومن عجب أن يعتز بها الاطباء وأن يفضلوها على ماعداها من الوسائل الاخرى رغم ضعفها الظاهر وسهولة الانخداع من طريقها

على أن النجاح الذي أصابته طريقة الـكشف بأشعة اكس قد دفع البـاحثين الى مداومة البحث فى هذه الناحية وكان من نتيجة ذلك التقدم المحسوس الذى أصـابته هذه الطريقة . على أن البحث فيها قد تشعب الى طرق أخرى لاتزال فى مهدها وأغربها وسائل الـكشف المختلفة باستعمال الوسائل الـكهربائية المتنوعة من دراسة الامراض واظهارها .وأذكر على سبيل المثـال ماهو معروف من القياس الكهربائي لدقات القلب وتسجيل ذلك ويعرف بطريقة Electric Cardiac Grapxhic ثم الـكشف عن طريقة حساسية الاعصاب باستعمال القيادات الـكهربائية المختلفة وقياس سرعة ردها Chronaxie ان هذه الابحاث لاتزال فى البداية ولا يبعد أن يأتى اليوم الذى يدخل فيه المريض الى مكتب الطبيب فاذا به يقيس مظاهر نشاطه المختلفة بمقاييس كهربائية أو غيرها مبينا بذلك علي وجه التدقيق ما يمكن أن يكون فى جسمه من علل وأسقام

وهناك وسيلة أخرى لتشخيص الامراض ونعنى بها وسيلة التحليل الـكيماوى . وهى طريقة قد ثبت قدمها فى الطب وتتجه الابحاث فيها نحو الآلية . ولذلك لاتبعد أن نرى فى المستقبل فى عيادات الاطباء وآلات ذاتية تقوم بتحليل بول أو دم المريض وكتابة النتائج المطلوبة اذا قدمت لها العينيات اللازمة ودفع لها قطع معينة من النقود مثلا

سوف يتضاعف عدد هذه التحاليل وسوف نـكتشف منها عدداً كبيرا فضلا عن تعميمها وتبسيط أجرائها على النحو الذى قدمناه

أما الوسائل الحيوية وتضمن التحاليل البـكتريولوجية فأكبر ظنى أنها سوف تنـكمش قليلا قليلا حتى لايبقى لها أثر الا فى بعض الحالات الخاصة . وذلك راجع الى أسباب كثيرة لعل أهمها أن نتائجها ليست قاطعة أو جازمة انما محل مناقشه مستمرة وتأويلات مختلفـة . ربما اقتصرت هذه الطريقة فى المستقبل على تشخيص السفلس والدفتيريا والـكوليرا فقط وعلى الاخص الاول من هذه الامراض

مستقبل العلاج

لعل مستقبل العلاج هو ما يعنى جمهور العامة مباشرة فهو الصلة بينهم و بين الطب وهو فى نظرهم محك تقدمه ومقياس نجاحه وهذا الرأى يتفق وشيء من الحقيقة . فالطب علم عملى ومحور الدراسة فيه وان كان لايهمل الناحية العلمية البحتة يدور ويميل الي التطبيق العملى وأهم هذه التطبيقات هو العلاج

واذا تأملنا وسائل العلاج القائمة الآن رأينا أن اغلبها ينحصر فى الادوية حتى نكاد نخلط بين معنى كلمة علاج ومعنى كلمة دواء بل هما يعبران بالنسبة للغالبية من الناس عن شيء واحد ولذلك أسباب عدة لعل أهمها ذيوع الأدوية وانتشارها مما أدى الى كثرة الصيادلة أو صانعى الأدوية . وفى الحق ان فن الصيدلة قد أدى الي الانسانية منذ قديم الزمان خدمات جليلة وهو لا شك ما زال يؤدى لنا أعظم الخدمات أيضا وهذا يبرر قدمه وتأصله فى القدم فوق ذيوعه وانتشاره . ولكن لقد شاهدنا فى هذه الفترة الاخيرة نشوء طرق أخرى للعلاج غير ما كان معروفا من الأدوية وتنحصر فى المركبات الكيماوية أو المستحضرات النباتية أو الحيوانية الاخرى . ونعنى بهذه الطرق الجديدة الطريقة الميكروبية للعلاج . كان من الطبيعى جدا أن يصحب تقدم هذا العلم وبخاصة على النحو الذى بيناه أن يتناول طرق العلاج بالتحوير والتبديل وأن يستحدث فيها الشيء الكثير . فاخترعت الأمصال وتعددت الطرق فى تحضيرها وتجهيزها واخترعت الفكسينات واستعملت فى التطعيم والوقاية من الامراض ثم اخترعت الأنافوكسين واخترعها الاستاذ رامون من جاومه بارنست وذاعت ذيوعا عظيما دعا الكثيرين من المتحمسين له الى القول بأننا عما قريب نجد فيها الدواء لكل الامراض المعدية تقريباً . وقد سبق من بين المكتشفات الفذة العظيمة فى هذا الباب اكتشاف البكتريوفاج أو ميكروب الميكروبات وهو ميكروب يعيش على الميكروبات ويقتلها لاستخدامها كغذاء له . ولا يمكن المتصل بالابحاث فى هذا الموضوع حتى ولو عن بعد أن ينسى ذلك التهليل العظيم الذى استقبل به هذا الاكتشاف ثم ذلك التحمس الحار والاندفاع الشديد فى البحث فى هذا الميدان ونعجب أشد العجب كيف استطاعت السنين الاخيرة أن تخمد هذا التحمس وأن تخفت هذا التهليل وذلك الدعاء . وأغلب الظن آن عوادي الزمن قد تذهب بكل ما قدمنا من طرق العلاج أو على الاقل بالجزء الاكبر منها . ليست الادوية الكيماوية هى العلاج الحقيقى الناجع

الذى يمكن أن نطمئن اليه أشد الاطمئنان ويكفى أن نلاحظ ذلك التردد الذي يظهره الاطباء غالباً فى إعطاء الادوية لتعلم مقدار كراهيتهم الكامنة لها . لا شك أن الادوية التى نستعملها الآن على جانب عظيم من الاهمية والقيمة فى جسم الداء وعلاجه ولكنها فوق ذلك سموم لها أثرها فى أجزاء الجسم المختلفة وإن تضاءل وضعف فان الايام لابد تظهره يوما من الايام . ولقد دعا ذلك الاطباء فى العصور المختلفة إلي الاقلال بقدر المستطاع من الادوية والاعتماد على مقاومة الجسم نفسه ونحن نرى الدعوة إلي ذلك تتكرر فى فترات مختلفة من التاريخ العام لفن العلاج ونستطيع أن نقول الآن أننا فى احدى هذه الفترات وقد شجعنا على ذلك نشوء طرق جديدة فى العلاج لا تعتمد على السموم ولا على الميكروبات وإنما تعتمد على تأثير العوامل الفيزيكية المختلفة من حرارة وبرودة وكهرباء وضوء واشعاعات على الجسم

ولقد بدأت هذه الفترة ابتداء فعلياً باكتشاف تأثير أشعة اكس على خلايا الجسم ثم الاشعة البنفسجية وصادف وقوع هذا الاكتشاف فى مدة اشتد فيها تذمر الأطباء من الادوية وقلة مفعولها بها على أثر اكتشاف مايعرف بالمناعة ضد أدوية معينة ثم عدم تأثيرها

والبعض منها بعد تناولها فترة معينة من الزمن ويطلق على هاتين الخاصتين Idiosyneravei و Into lerance . وأقبل الاطباء على اشعة اكس والاشعة فوق البنفسجية ثم اشعاعات الراديوم ثم التيارات الكهربائية المستمرة والمتقطعة ثم التيارات سريعة التردد على نحو ما هو معروف بالدياترمى ثم الامواج على اختلاف اطوالها أخيرا

ولم يقتصر التحويل من الناحية الكيمائية الميكروبية الي الناحية الطبيعية على استعمال الاشعة والحرارة والكهربائية انما تعداها الى استعمال الحركة والتدليك والماء كوسائل للعلاج وتعددت ابواب استعمالها وتوالت اعلان النتائج التي تبشر بنجاح عظيم فى هذا الباب مما جعل للاخصائيين فيها مكانة بارزة وشهرة ذائعة ونحن الآن لا نزال عند مهد هذه الطريقة التى لا تزال بعد رضيعاً على أن تعدد الابحاث فيها ثم اتجاه الافكار اليها اتجاها خاصاً يجعلنا نعتقد أن المستقبل لها ولاشك وأن العلاج بالطرق الفيزيكية Phiysic therapie اجدي واوفق للطبيعة من كل ما عداه وسوف يأتى اليوم الذى تستبدل به كل الادوية أو على الاقل معظمها بهذه الطرق الجديدة

وليست الطريقة الفيزيكية هى الطريقة الوحيدة التى تبشر لها الابحاث الحديثة بالمستقبل فهناك طريقة اخرى اكبر طرافة واحدث عهدا منها ويقصد بها طريقة العلاج النفساني . وربما

دهش القارىء لقولنا هذا أو أخذه منا على محمل الدجل والتهويش ولو تأمل قليلا لاقتنع هو بصحة ما أقول ولكفى نفسه مؤونة الاتهام . إن الملاحظات الطبية ملآى بالأمثلة والحوادث الغريبة التى تم فيها الشفاء بطريقة غير مفهومه وبدون استعمال أى علاج خارجى وقد كان ذلك ينسب إلى دجل بعض الدجالين وتهويشهم الى أن تناول هذه المعجزات بعض رجال العلم ممن لا سبيل الى اهمال أقوالهم أو الشك فيها ولقد دفع تكرر هذه الحوادث ثم تقدم الابحاث فى الجهاز العصبى والاتجاه الفكرى العام نحو هذا الموضوع الى نسبة هذه المعجزات الى التأثير النفسى أو عمل الجهاز العصبى فى الجسم على أن المسألة لم تتعد مجرد النسبة وليس هناك دليل قاطع عليها ولكن ثمة ابحاث اخرى قد أجريت على الحيوانات اجراها كثير من الباحثين وعلى رأسهم الاستاذ متا لينكوف الروسى قد أثبتت العلاقة الوطيدة بين الجهاز العصبى ومقاومة بعض الامراض ثم شفائها ولذلك لا يبعد أن يأتى اليوم الذي تتحقق فيه هذه النتائج بالنسبة الى الانسان عندئذ يأخذ العلاج النفساني المحل اللائق به بين وسائل العلاج المختلفه

لعل القارىء قد لاحظ الآن نقصا معيبا فيما تقدمه ولعله بدأ يتساءل وماذا يكون من شأن الجراحة ؟ وربما ظن أننا لا نعتبرها وسيلة من وسائل العلاج والحق أننا لا نستطيع ذلك فلاشك أن الجراحة وسيلة للعلاج وان كانت الصيغة المستعملة فيها لذلك هي الهدم والبتر والاستئصال ولسنا نتوقع لها تأخرا أو تقهقرا فى المستقبل انما على العكس نعتبر أنها ستتقدم وستزدهر ازدهاراً عظيماً

أغلب الظن أن التحسين سوف يتناول الجراحة فى كل نواحيها فى الحواشي والصميم

أما ما يتعلق بالحواشى فنقصد به ما يمكن أن نحققه من تقدم فى عملية التعقيم ولقد بدت بوادر ذلك فى العام الماضى . فمعروف أن الجراح لابد أن يتأكد من تعقيم الادوات التى يستعملها فوق مكان الجروح وهو يشدد فى ذلك تشديدا عظيما فيحول دون توجيه أنفاسه الى الجرح بوضع كمامة كما يتحاشى أن يلمس الجرح الا بعد تطهير يديه ووضع قفاز معقم فيهما

ورغم كل هذه الاحتياطات كانت نسبة الموتي من أصحاب العمليات نتيجة لتلوث الجرح مرتفعة بلغت فى بعض الاحوال الى ٤٠ ٪ وقد كافح الجراحون ضد ذلك الخطر كفاحا طويلا الى أن وضع أستاذ براند يلى فى العام الماضى تصميما لغرفة العمليات يجعل كل ما فيها معقما بحيث لا يدع فرصة تسمح للميكروبات الموجودة فى الهواء بتلويث الجرح . ونحن لا نود أن نتعرض الآن

للوسائل المستعملة فى هذه الطريقة فان ذلك يدفعنا الى الخوض فى تفاصيل لايتسع لها المقام كما أنها تدخل فى حدود الخاصة فقط

وفى فن الجراحة مشكلة أخرى غير مشكلة التعفيم والمطهرات وهى مشكلة التخدير فمعروف أنه يجب أن يخدر المريض قبل اجراء العملية الجراحية والمخدرات المستعملة متنوعة متعددة كما أن وسائل ادخالها الى الجسم وتسليطها عليه متعددة مختلفة كذلك ولكن هذه المخدرات ايا كان نوعها أو طريقة استعمالها تشترك فى صفة عامة وهي أنها سامة وأن التخدير بها يعقبه تسمم خفيف فى الجسم يحسب له الاطباء الف حساب قبل اجراء العملية ويجعلهم يقتصدون فيها اكبر اقتصاد ممكن . مما دعا الباحثين الى البحث عن طرق للتخدير يكون فيها المخدر أقل ما يكون قدرة على تسميم الجسم قد أخفقت الابحاث الكيماوية فى دلك فأحسن المخدرات الكيماوية المعروفة مازال سما زعافا كاف لقتل الجسم لو زادت على كمية محدودة فوق أن أثرها السيء علي الجسم قوى فعال

ولقد قام بعض الباحثين بالبحث عن طريقة فيزيكية للتخدير فجرب دارسونفال التيارات السريعة التردد ولكنه لم يحصل الى نتيجة يحسن الارتكان اليها والامل ضعيف فى ايجاد طريقة كهذه ولكنه فى الوقت الذى يسد فيه أبواب النجاح من الناحية الكيماوية أو الفيزيكيه يفتح الباب على مصراعيه من الناحية النفسية ويبدو فى الافق أمل بأن الانسان يستطيع على ما يظهر ان يتغلب على الألم وتأثيره السيء اذا أحسن استعمال بعض المواهب النفسية وأغلب الظن أن ما سنحققه من تقدم فى الدراسات النفسية من الوجهة الطبية سيحقق لنا نجاحا فى هذه الناحية الجراحية

هذا مجمل ما يمكن أن تحققه الجراحة من نجاح فيما يتعلق بالحواشى أما مستقبل الجراحة من حيث الصميم فانه يبشر بانقلاب عظيم على اكبر جانب من الخطورة

وتظهر بوادر هذا الانقلاب فيما حققناه حتى الآن من نجاح فى عمليات الجهاز العصبى الرأسى فلقد كان فتح الجمجمة من قبل معناه موت محقق ولكنه الآن وسيلة لاجراء مختلف العمليات الجراحية . ولقد تعددت العمليات المختلفة التى من هذا النوع كما تعددت طرق اجرائها ولكنها جميعا على قدر عظيم من الخطورة والصعوبة فما زالت تكتنفها أخطار جسيمة وعقبات هائلة فوق ما يلزم لاجرائها من استعداد تام وحيطة وحذر شديدين يكفيان فى بعض الاحيان لاثناء عزم الجراح عن

القيام بالعملية رغم تأكده بأنها الأمل الوحيد فى نجاة المريض وهذه القيود متعددة لا نود الخوض فيها الآن فذلك تطويل لا مسوغ له . وان اكبر الظن أنها سوف تختفى شيئا فشيئا حتى تصبح جراحة الجهاز العصبى العام على مثال الجراحة العامة من حيث السهولة والبساطة وذلك بتقدم الوسائل الجراحية بزيادة معلوماتنا عن عن الجهاز العصبى نفسه

وبجانب ما يمكن أن نحقق من تقدم فى جراحة الجهاز العصبى العام هناك مجال واسع للتقدم فى الجراحة عامة وجراحة الجمال بوجه خاص . وأغلب الظن أن هذا التقدم سيتناول الصميم بالتعديل والتحوير فنحن لا نعرف الآن من الجراحة الا جراحة الهدم والاستئصال ولقد جنينا من ورائها اكبر الفائدة ولكن التقدم العلمى الاخير جعلنا ننظر الى جراحة أخرى هي جراحة البناء سوف تكون أكبر فائدة وأعظم قيمة والأمثلة التى نعرفها الآن من هذه الجراحة الجديدة متعددة منها عملية فورنوف فهى زيادة فى أحد الاعضاء وتعتبر بمثابة بناء جديد أقيم ازاء حائط متهدم متصدع رجاء تقويته واطالة بقائه . وهناك مثال آخر وهو استعمال الطعم العظمى Greffe Ossue فى جبر الكسور وواضح من هذه العملية أن الجراحة قامت فيها بجزء وافر من البناء بدل الهدم وأغلب الظن أن أمثلة البناء سوف تتعدد بحيث تصبح الجراحة على وجه العموم اميل الي البناء منها الى الهدم فاذا أصيب منا عضو سوف لا يكتفى الجراح باستئصاله انما سوف يعمد إلى عضو مماثل لا يعدم وسيلة فى الحصول عليه ليضعه لنا بدل العضو المستأصل ولا شك أن المجال الجراحى سوف يتسع عندئذ اتساعاً هائلا ما كان يخطر ببال من قبل

وستصيب جراحة الجمال من هذا التقدم حظا وافراً من النجاح بحيث تصبح بعد قليل من الامور الشائعة وبحيث تصبح فى متناول جميع أفراد الشعب لا الأغنياء فحسب وربما كان هذا هو أهم ماسيحققه الطب عموما من تقدم ونجاح وازدهار أن يجعل كل وسائله المتعذرة على الكثيرين الآن فى متناول جميع أفراد الشعب من الفقراء والاغنياء

ان مستقبل الطب زاهر يبشر بالخير العميم وهناك ميادين كثيرة للعمل والخدم العامة فى سبيل تقدم الانسانية ولقد بدأت الشعوب جميعاً تعرف ما للطب من أهمية وقيمة فى حياة الانسانية ولذلك اقبلت عليه اقبالا لا يعرف حدا وواتته تشجيعها بشكل يثير الاعجاب حقا ولكن من بين هذه الشعوب شعوب كثيرة لا ترى فى الحياة الا نضالا ممقوتا فى سبيل الجاه والعظمة

الكاذبة وهي تسعى لذلك ولو أدى إلى الحاق الضرر بالانسانيه وانزال الدمار والخراب ببعض شعوبها . ولا يرى الاطباء فى ذلك الا معولا للهدم والدمار قد سلط على معاقل آمالهم فى البناء والتعمير

جدير بنا أن نثق فى الطب وأن نوليه عطفنا وأن نعمل كل ما نستطيع لتشجيعه وتقدمه بين الشعب المصرى ، بهم ذلك جيدا وليتهم يسعي حقيقة لان يساهم فى هذا الميدان بسهم وافر . ان ما يمكن أن يكسبه لنا باحث واحد من مجد وفخار اذا ما حقق تقدما ولو بسيطا فى ناحية من النواحى العلمية أو الطبية ليفوق أضعاف ما يمكن أن تكسبه جيوشنا وأساطيلنا فى المستقبل من انتصارات حربية أو فتوح وغزوات

رمسيس شحاته



الانسان والحضارة والفلسفة

للاستاذ أحمد فتحي

سبيل الانسانية الى مثلها العليا فى هذا العصر الراهن وعرة متشعبة المسالك ، تكثر فيها منعطفات مضللة وصخور عائقة هي من وحي مدنية العصر وآخذة بنصيب ضخم من الرفاهية المقرونة الى افتنان العقل وافتنان الشهوات ، فبينما يدعو المصلحون الى السلم العام ومعاونة الضعفاء ومساعدة العجزة والغاء الرق وغير ذلك من شواهد النزعات الخيرة ، تستبد بالأمم القوية رغبات الاسترقاق فتغير على سواها من الامم الواهنة المستضعفة فى الارض ، وتعمى المادة بعضا من الناس فيتجرون بالرقيق والجواهر السامة فى غير مبالاة بما يصيب الانسانية على أيديهم من تدهور وانحلال . !

ولا يزال العقل المنجب يغذى أنصار الانسانية وخصومها على السواء كلا بوسائله وأساليبه التى تكفل له نجاح مسعاه ، فبينما يستعين أنصار السلام بقادة الفكر وأساطين الرأى فى مقاومة أخطار الحرب وتنحية شبحها المفزع عن طريق الشعوب ، يستعين المحاربون أنفسهم بالعقل العالم المستنير على إبادة خصومهم . وكما يقوم العقل بانهاض الدليل الساطع على بشاعة الحروب وشناعة نتائجها ، يقوم كذلك بقوة من علمه المكتسب بأبراز وسائل القتال الحديثة المبدعة فى شتى ميادين البر والبحر والهواء ، وكما يستنكر العقل الواعى المتزن تجارة الرقيق ، يفتق من ناحية أخرى الحيل لتنشيط سوق هذه التجارة ويعمل على نجاتها من رقابة الحكومات التى تكافحها وتناهضها . وغير ذلك من الامثلة كثير لا يشمله حصر ، وغاية القول أن العقل كما يوحى بالطرق الايجابية الفعالة لأسعاد البشر يوحى أيضا بالطرق السلبية الهدامة لسعادة الانسان ! ..

وان المتأمل الجاد المستوعب فى القوى المهيمنة على اتجاهات العالم المتمدين خليق بحصرها فى ثلاثة عوامل ، هى العلم والفن والفلسفة . واذا تأملنا أمهات المسائل التى تشغل الفكر العالمي وتبلبل الخاطر الانساني عامة ، وجدنا أن هذه العوامل الثلاثة تحتضنها جميعا ، فاذا نظرنا الى مشكلة من مشاكل العصر الكبرى مثل الغاء الرقيق ، وجدنا انها خاضعة لثلاثة العوامل المذكورة فى آن . فهى بحسبان أنها عمل على اقرار الحرية الشخصية والسعى وراء ترفيه جميع الافراد — يمكن اعتبار أنها من شواهد الفن الرفيع العالى ، وهي بحسبان أنها تنزه عن التفرقة بين طبقات

النوع الانساني وحيلولة دون خضوع بعض هذه الطبقات للبعض الآخر ، وسمو بالبشر جملة عن ان تستبد به المادة ، يمكن اعتبار انها من شواهد النظر الديموقراطى الذي يمت الى الفلسفة بنسب قريب ، وهي من جهة ثالثة يجوز اعتبارها من شواهد العلم ، بحسبان أنها تحرير للعقل وتحطيم لقيوده ورغبة الى بلوغه الذروة من النشاط وافادة المجموع . !

واذا أرادت الفلسفة الارستقراطية أن تقحم أنفها فى الموضوع مدعية أن بقاء الرقيق الابيض انما هو اقرار للنظم الطبيعيه وتذرع لتقليد الطبيعة فى التفريق بين افراد النوع الواحد واخضاع طبقات منهم لطبقات أخرى تحت تأثيرات قوامة على حياة الطبقات الخاضعة والمخضعة على السواء وجدنا أن من السخف بمكان أن يستعين المغرضون على أغراضهم بغلط قديم لم يثر عليه السلف وآن الوقت لأن يضيق الخلف بسخفه وحماقته . بغض النظر عن أن الطبيعه قد اقرته فى أزمان طويلة ، وبغض النظر أيضا عن أن النشاط العقلى انما كان رائده تقليد الطبيعه فى الخلق والابتكار فانه لايجوز بحال أن يكون هذا التقليد أعمي ينتظم الصالح والضار ، فان من الحماقة بمكان تسليط بعض أفراد النوع البشرى على بعضهم الآخر ، ومن السفاهه بمكان أن يضمن بعض الاحياء حياتهم بأفقاد البعض الآخر من هذه الاحياء حياته أو بعضا منها

وهكذا يشتد اللجاج حول أمهات المسائل التى تشغل أذهان الناس وما يلبث الصراع أن يعييهم فيفرون الى آثار الفن يلتمسون عندها التلطيف من حدة التفكير والتخفيف من أحزان الاخفاق فيه . ولا شك أن الفن قد أصبح بهذا الاعتبار وغيره لازماً لاغناء عنه للناس ، يتلهون به ويهربون اليه من احزانهم ويستعينون به على سآمتهم ويصيبون منه الوانا من رياضة الذهن فضلا عن السلوى والعزاء وتجسيد الاخيلة الرفافة فى آفاق أحلام اليقظة التى ينعم بها الناس الفينه بعد الفينه

« * »

لاشك فى أن العلم المبتكر ضرورة من ضرورات الحياة بوجه عام مهما بلغ من آثاره التى تناهض سلامة البشر بما تبدع من وسائل اهلاكه ، ومهما بلغ من جناية الرفاهية على الناس بتأثيراتها السلبية ورد فعلها الصحي والخلقي على السواء فانه لم يعد مستطاعا الرجوع بالانسان إلي معيشته الاولى التى تعتمد علي الوسائل الفطرية التى كان يعتمد عليها الانسان القديم فى عصوره المتقدمة ، لانه أصبح من الضرورى له أن ينعم بآيات النشاط العلمى التى توفر له الراحة والرفاهية

فانه لم يعد يطيق تحمل المشاق فى سفره على ظهور الدواب مثلا بعد تنعمه الطويل باتخاذ القطرات والاتومبيلات والطائرات فى أسفاره ، ولم يعد يحتمل سكنى الا كواخ بعد تعوده سكنى البيوت الفخمة التى تكفل له الراحة وترد عنه أخطار تقلبات الجو ، ولم يعد قادرا كذلك على اصطياد الوحش بهيئه لغذائه بعد أن ألف شراء لحومه وطيوره من السوق فى سهولة ويسر ، ولهذا تثبت لدينا استحالة تنازله عن مستحدثات العلم التى تقوم عليها حياته الجديدة المترفة ، ولكنه يبدو فى كثير من نواحى الحياة أن الانسان قد أصاب من هذه المبتكرات فوق الغاية ، وازاستزادته منها تبدو سرفا فى الرغبة إلى الرفاهية لا مبرر له ولا طائل وراءه ، بل قد يكمن وراءه كثير من الاضرار قد يكون أهونها زيادة العاطلين وظهور أمراض صحية واجتماعية جديدة ، وزيادة فى الحذر فى المعاملات السياسية والاقتصادية قد تؤدى إلى استعار الحرب ، فضلا عن اعتساف الارستقراطية بين طبقات بعينها من الشعوب

نعم ، يلوح ان الانسان قد أخذ من المدنية قسطه الاوفى ، وأصاب من خيراتها وشرورها جميعا حتى ملأ معدته بحيث يخشى عليه من التخمة ان زينت له نفسه طلب المزيد ، واذا بدا هذا الرأى غريبا بعض الشىء ومناقضا للسائد المألوف فى أنحاء العالم المتمدين ، فان دعامته النظر الى ويلات البشر التى جرته اليها الحضارة الراهنة . فما زالت الآلات تقذف بالآلاف من العمال كل الى عرض الطريق لتعضهم الفاقة وتحطمهم البطالة . وما زالت الحياة المترفة ترزق نفسها كل يوم ضحايا جديدة ، وآلتها فى ذلك ان الانسان قد أصبح من الضعف عن احتمال الشظف وخشونة العيش بحيث يؤذيه أكبر الاذى أن يمسه الضر وتنال منه ضوائق العيش !

على أن الاحزان التى يحتشد لمعاناتها أهل هذا العصر لاتقف عند الحد الذى يمكن فيه الترفية عنهم بالتماس السلوى والتسرية عند التصوف مع هذه الاحزان بل ولا فى أماكن اللهو والمجانة ، ولا الاسفار البعيدة ورحلات الصيد وغيرها من رياضة الجسد ، فان الضمير العام المستيقظ الشديد الانتباه لاترضيه من حضارة العصر أشياء يألم لها أشد الالم ولا يملك لها دفعا ، ومن ثم يلازمه ابتئاس وتأزم العليل الذى لايجد وسيلة يلتمس لدائه منها طبيبا يشفيه ، ولا ريب فى أن التمادى فى التحضر معناه زيادة هذه الاحزان ، بحيث لانستبعد مطلقاً أن يحين الوقت الذى يلازم فيه التقطيب كل جبين ، وتفارق البسمة كل شفة . وهذه نتيجة لما بين أيدينا من مقدمات قد يتلخص معظمها فى قيام العلائق بين الناس على غير أساس من الحب والميل الاجتماعى الفطرى ، بل على

انقاض ذلك من وسائل النفع المادى وارضاء نزوات الاجساد ونزغات الشيطان !

هذه خواطر سريعة لم يسيطر فى تدوينها سوى النظر الخير النزاع الى الصالح العام دون نظر الى فوارق اللون والدين والسلالة وغيرها . ولن يفوتنا التنبيه الى الجهود التى تبذل فى الاشتغال بمعالجة مسائل الفلسفة البحتة . فان لها فى بعض الاوساط الخاصة مقاما أي مقام ، وما نرى الا انها جهد هباء ، بعكس الاشتغال بمسائل السيكولوجية وما اليها من البحوث المتصلة بالحقائق الانسانية التى لم يزل يعتورها بعض الغموض والاستغلاق . فان للعالم الآن مايشغله ضمنا بجهده ووقته عن مضيعة مناقشات سخيفة لا طائل تحتها فى قضايا لايمكن أن ينتهى بحثها الى نتائج حاسمة تفيد النوع الانسانى ، وحتى اذا وصل الباحثون فيها الى مثل هذه النتائج ، فلن يكون لها من الخطر مايحول تيار الفكر الانساني بأى حال ، وعلى هذا فمن المستطاع تقرير انه لم يعد لامر الفلسفة البحتة سوى القيمة التاريخية باعتبار انها كانت رياضة للعقل الآدمي فادته الى هذه الغايات الباهرة فى مختلف العلوم والفنون والآداب

هل الكون سائر الى نهاية

لاستمرار الكون لابد من وجود طاقة لان كل الظواهر الطبيعية بما فيها الحياة يتوقف وجودها على وجود الطاقة ويمكن تعريف الطاقة علميا بأنها القدرة على أداء عمل والطاقة لايمكن أن تفنى أو تستحدث وهي على أنواع فمنها طاقة الحركة والحرارة والكهرباء وكل هذه الانواع لها القدرة على أداء عمل

وأنواع الطاقة هذه يمكن تحويلها من صورة الى أخرى فيمكن تحويل الطاقة الميكانيكية الى حرارة وكذلك الحرارة الى طاقة ميكانيكية . فمثلا كمية معينة من الحرارة الناتجة عن احراق مقدار من الفحم فى آلة بخارية تعطى مقدارا ثابتا من الطاقه الى الصورة الاخرى لاتصحب هذا التحويل فقد شيء من الطاقة انما يختفى جزء منها وهذا الجزء المختفى لايمكن الاستفادة منه لانه لايمكننا أن نستخلص منه عملا . ودائما تكون هذه الطاقه المختفيه على صورة حرارة

فمثلا البندول المتذبذب لابد أن يسكن بعد مدة من الزمن ولكن طاقة حركته لم تفن انما جزء منها استعمل فى مقاومة الاحتكاك الناشيء فى مركز تعليق البندول وقد نشأ عن هذا الاحتكاك حرارة والجزء الآخر استنفد فى مقاومة جزئيات الهواء التى يصادمها فى طريقه فى أثناء الحركة وينتج عن هذا التصادم حرارة لأن الحرارة ماهى الا زيادة حركة جزيئات الجسم فالبندول بمصادمة جزيئات الهواء قد رفع قليلا من درجة حرارة الهواء . وفى كلتا الحالتين تشع الحرارة في الفضاء وتصبح على صورة طاقة مختفيه لايمكننا أن نستخلص منها عملا

اذن نستنتج قاعدة مهمة وهي انه عند تحويل أى صورة من صور الطاقة يختفي جزء من الطاقه وهذه الطاقه المختفية لايمكن أن نستخلص منها عملا أى أننا لايمكننا أن نستفيد منها شيئا

فاذا كان هناك جسمان مختلفان في درجة الحرارة فان الحرارة تسرى من الاعلى درجة الى الاقل درجة . وسريان الحرارة فى هذه الحالة يمكننا استخدامه فى استخلاص عمل ما أما اذا كان هناك جسمان متساويان فى درجة الحرارة فلا تسرى بينهما الحرارة . وفى هذه الحالة لايمكن

أن نستخلص عملا . فلنفرض غرفة بها عدد من الاجسام المختلفة فى درجة الحرارة فاذا تركت هذه الاجسام فلا بد أن يأتى وقت تصل كلها الي درجة حرارة واحدة وفى هذه الحالة لايمكننا أن نستفيد بعمل من هذه الاجسام المتساوية فى درجة الحرارة

فبهذا الشكل اذا تساوت جميع الاجسام الموجودة فى الكون فى درجة الحرارة فان كل الطاقة تختفى ولا يهم سواء أكانت كل الاجسام فى درجة حرارة عاليه أم درجة حرارة منخفضة انما المهم حتى نستفيد بعملما أن يكون هناك سريان للحرارة من الاجسام المرتفعة فى درجة الحرارة الى الاجسام المنخفضة الدرجه . وكل الظواهر تدل على أن الكون سائر الي هذه الحالة التى تتساوى فيها جميع الاجسام فى درجة الحرارة وبذا تتحول كل الطاقه الي طاقة مختفية لا يمكن الاستفادة منها بعمل ما

وان تحول الطاقة الموجودة فى الكون الى طاقة مختفيه يزداد يوما بعد يوم أو بعبارة أخرى يمكننا ان نقول أن الطاقة الكليه الموجودة فى الكون تختل اى أن الكون سائر الى الفناء فانه لابد أن تصل الي وقت تتساوى فيه جميع الاجسام فى درجة الحرارة وبذا تنعدم الحياة واذا لم يكن هناك عمليه تتجدد بها هذه الطاقة فان الكون لا بد ان يتلاشى فالشمس والارض وكل الاجسام الاخرى تشع حرارة وهذا الاشعاع لا يمكن أن يستمر الي مالا نهايه لان الحرارة تميل لان تجعل جميع الاجسام فى درجة حرارة واحدة

ويستحسن أن نعبر عن اختفاء الطاقة بعدم النظام فاذا قلنا ان الطاقة المختفية تزداد فهذا معناه أن نظام الكون يزداد اختلالا ويمكننا أن نقول اجمالا أن الكون يميل لان تتحول جميع الطاقة الموجودة فيه الى طاقة حرارة والحرارة ما هي إلا حركة غير منتظمة لجزيئات الجسم بعكس طاقة الحركة التى هى عبارة عن حركة منتظمة فى جزيئات الجسم

فاذا سقط جسم «حجر مثلا» فكل جزيئات الحجر تتجه نحو الارض في نفس الاتجاه وبنفس السرعة فاذا قابل هذا الحجر سطحا أملس فان حركة كل الجزيئات تنعكس وبذا يرتفع الحجر مرة أخرى فحركة الجزيئات لم يختل نظامها انما عكست فقط أما اذا صادم هذا الحجر سطحا خشنا فان نتيجة احتكاك الحجر بالسطح الخشن ينتج عنه أن جزءا من طاقة الحركة يتحول الى حرارة أى يحدث اختلال فى حركة جزيئات الجسم وطاقة الحركة الباقية لا تكون كافيه لأن ترفع الجسم الى علوه الاول

وبذلك نرى أن كل تحول فى الطاقة يصحبه زيادة اختلال الكون الذى كان امسى أتم نظاما منه اليوم

« * »

هنـاك قانون يشبه قانون بقاء الطاقة وهو قانون بقاء الـكتلة . فان مجموع الـكتلة الموجودة فى الـكون ثابت لايتغير وأن المادة لاتفنى . فاذا أحرقنا أى جسم وجمعنا نائجات هذا الاحتراق فاننا نجد ان هذا الوزن يساوى وزن المادة التى احرقت . ولكن نظرية النسبية الآن تدغم هذين القانونين قانون بقاء الطاقة وقانون بقاء الـكتلة ونعتبر أن للطاقة كتلة وأن أى قطعة من أى مادة عبارة عن طاقة جامدة غير ظاهرة . وقد كان يظن قديما انه اذا سخن جسم فان وزنه لايتغير ولكن الحقيقة أن وزنه يتغير تغيرا طفيفا والسبب فى ذلك أن الحرارة كأى نوع من أنواع الطعام لها وزن . وان وزن طاقة الحرارة التى أعطيناها الجسم قد أضيفت الي وزن الجسم وكذلك الجسم المتحرك يزن اكثر من وزنه في حالة السكون . وهذه الزيادة فى وزن الجسم المتحرك لايمكن ادراكها الا حالة السرعة العظيمة ويمكن اختبار هذه الزيادة فى وزن الالـكترونات السريعة الحركة كالالـكترونات التى تنطلق من الراديوم . وقد دلت التجارب على وجود زيادة فى وزن الاجسام المتحركة . فالجسم المتحرك بسرعة تساوى نصف سرعة الضوء يزيد وزنه بمقدار ١ على ٧ من وزنه والجسم المتحرك بسرعة تساوى تسعة أعشار سرعة الضوء يزيد وزنه بمقدار مرتين ونصف من وزنه الاصلى اما الجسم المتحرك بمقدار ٩٩ على ١٠٠ من سرعة الضوء فان وزنه يزيد سبع مرات من وزنه فى حالة السكون وعلى هذا القياس فان الجسم اذا تحرك بسرعة تساوى سرعة الضوء فان وزنه سيبلغ مالا نهاية وهذا من الاسباب التى تدعونا ان نعتبر أن سرعة الضوء هى اقصى سرعة فى هذا الكون

« * »

ويمكن ايضاح أن الطاقة لها وزن بدراسة ذرة الهليوم . فذرة الايدروجين تحتوى بروتونا واحدا والـكترونا واحدا ووزن ذرة الايدروجين يعزى الي وزن البروتون لأن وزن الالـكترون يمكن اهماله بالنسبة الى وزن البروتون وفى ذرة الهليوم توجد ٤ بروتونات ولذلك كان من المنتظر أن تـكون ذرة الهيلوم تزن ٤ أضعاف وزن ذرة الايدروجين ولكنه قد وجد أن ذرة الهليوم أقل من ٤ أضعاف وزن ذرة الايدروجين بقليل

ونظرية النسبيه توضح ذلك بانه عندما يتحد ٤ بروتونات لتكوين ذرة الهليوم فانه ينطلق مقدار من الطاقة وهذه الطاقة المنطلقة تأخذ جزءا من الوزن معها فتكوين ذرة الهليوم يوضح تحويل المادة الى طاقة فان ذرة الهليوم قد فقدت جزءا من مادتها التى اشعت الى الفضاء على شكل طاقة ورغم أن هذا التحويل بسيط فانه ينتج منه طاقة هائلة فاذا أمكننا أن نبنى أوقية من ذرات الهليوم فيمكننا أن نحصل على طاقة تحرك آلة بخارية قوتها ١٠٠ حصان يمكنها أن تعمل باستمرار مدة ٨ سنوات

* * *

معظم علماء الفلك يرون أن هذا الانحلال يحدث . فالنجوم تشع باستمرار كميات هائلة من الطاقه وكذلك الشمس تفقد ٣٦٠ الف طن من وزنها يوميا وهذا الانحلال يعتبر انحلالا تدريجيا بالنسبة الى عمر الكون العظيم ولكن يمكن للشمس أن تستمر على هذا الاشعاع نحو ٥٠ مليون مليون سنه أخرى



عدتنا فى تنازع البقاء

صرخة من القلب عساها تصل إلى القلوب

للاستاذ رمسيس شحاته

بعد قليل ينزاح عن صدورنا كابوس الاستعمار الذى ظل جاثما فوقها زهاء نصف قرن اشبعنا فيها إذلالا وإستعباداً وتحقيرا . وأغلب الظن أننا سنعمد إلى الاستنشاق العميق بما فيه من شهيق وزفير بدل أن نتنفس الصعداء رويداً فى التنفيس عنا واسترجاع مكانتنا واظهار سلطاننا بين الأمم وربما كان لنا فى ذلك بعض العذر أو قل ان طبيعة البشر من حب الظهور والمبالغة ستدفعنا الي ذلك قسرا

اذا صح ماقدمنا ولا أخاله الا كذلك فأغلب الظن أن الشئون العسكرية وهى النقطة الحساسة فى السياسة الدولية الحاضرة سوف تستغرق جل انتباهنا وعنايتنا ان لم تستوعب كل جهودنا فى السنين القليلة الآتية . فنحن نطمع طمعا تأصل فى نفوسنا حتى تشربت به كل أفكارنا أن نستعيد مجدنا الحربى بكامل عدته ولا أظننى مبالغا ان قلت أن الشباب المصرى قد بدأ يتنسم الآن عبير امبراطورية مصرية على نحو الامبراطوريات الفرعونية أو على الأقل على نحو امبراطورية محمد على التى لم تتحقق ويلهب هذه الآمال مانراه من الطمع والشراهة من الدول الاخرى التى تريد أن تقضى على وجودنا واستقلالنا من جديد بأن تضمنا الى امبراطورية رومانية أو من يدرى ربما كانت امبراطورية يهودية . وهذا الخبل الذى أصاب عقول بعض الساسة وتسرب منها الي عقليات بعض الشعوب المتمدينة فجعلها تهذى بحديث الامبراطوريات وتخطب فيها الخطب الطويلة الرنانة يزيد فى حاجتنا الى افهام العالم حتى ولو أدى ذلك الي اصطدام طاحن . أننا أسياد فى بلادنا وأننا قوة لايستهان بها قد حان الحين لان نعلى بدورنا ارادتنا علي القدر فينصاع لها انصياعا

فاذا أضفنا الي ثرثرة موسولينى ووعده الشعب الايطالى بامبراطورية رومانية قد رسم حدودها فاذا بها تضم مصر بين أجزائها ثم تذكيره الشعب المتحمس بنفس هذا الخيال والوهم يوم أن أعلن انتصاره على الحبشة بقوله ان هذا الانتصار ليس الا خطوة لابد أن تتلوها خطوات فى سبيل

الغاية، المنشودة، أقول اذا أضفنا الى ثرثرة هذا الماهل وما يكنه الانجليز من المقت والكراهية له ولشعبه ولسياسته وما يتمنون له من اخفاق محقق وفشل ذريع أدركنا بسهولة وعلاقتنا بالانجليز لاتخفى على أحد بعض العوامل والنوازع التى سوف تتنازعنا وبعض المغريات التى سوف تغرينا وتجعلنا نجرى الى التسلح مهرولين واضعين كل آمالنا وثقتنا فيه

وربما كنا على حق فى هذا المسلك مادامت المدافع هى التى تتكلم اليوم بألسنة الشعوب وما دام فى العالم ساسة على نحو ذلك النفر من المستبدين ليس لكلمة الشرف فى نظرهم أى اعتبار أو ليس للتعهدات الدولية من قيمة ومادام الحديد قادرا على تعديلها على الغائها . أقول اننا سنكون على حق فى هذا التسلح بل حتى فى المبالغة فيه إلى الحد الذي تسمح أو لاتسمح به مواردنا الطبيعية فأذى الاستعمار من جديد مع مايلحقه من ذل وعار ليزيد اضعافا مضاعفة على أذى الخراب المالى وضرره

ولكن هناك حقائق معينة جديرة بأن نتأملها وأن نتمعنها فانها لاشك جديرة بأن توضح لنا السبيل القويم إلى التسلح

وأول مايخطر على بالنا عند التفكير فى التسلح هو أن مصر ستلجأ إلى فرصة الخدمة العسكرية وجعلها اجبارية علي نحو ماتفعل فرنسا وألمانيا مثلا . وأنها ستستطيع بذلك أن تجند مليونا أو أكثر من الشبان اذا احتاج الامر الى التجنيد وصار الوطن فى خطر . ومهما تكن النظم التى ستتبعها لذلك فان مسألة المسائل على مايظهر ليست تدريب الشبان على الحرب وأعمال القتال ثم اعداد الضباط والقواد أو بالجملة توفير الجيش العامل من حيث الافراد انما المشكلة هى فى الواقع تسليح هذا الجيش وتزويده بالآلات والمعدات الحديثة بحيث يستطيع أن يصمد للغارة وأن يرد على وسائل الهجوم بدفاع من جنسها على الاقل ان لم يفقها . ولكن من أين لنا بهذه المعدات؟ من أين لنا بالمدافع والبنادق والقنابل والرصاص؟ من أين لنا بالمراكب الحربية والغواصات والديناميت؟ من أين لنا بالطائرات والغازات السامة والقناعات الواقية؟ والجواب الطبيعى على هذه الاسئلة جميعا هو « الاستيراد من الخارج » وعبارة الاستيراد من الخارج هذه سهلة النطق على اللسان سريعة الافلات من الشفاه ولكننا لو تأملناها قليلا لرأينا انها تتضمن اخطارا جسيمة يجب أن نحسب لها من الآن ألف حساب

من الطبيعى جداً أن نقول حالا ان الاستيراد من الخارج هو الأمل الوحيد الذي نملكه

فنحن أمة زراعية ليس للصناعة فيها شأن يذكر كما أننا أمة جاهلة ليس لنا بعد قبل على تحمل ماتتطلبه الصناعات الحربية من مجهود علمى متواصل وبحث لا ينقطع وإن رغبنا فى ذلك أشد الرغبة أعوزتنا المعرفة . ولكنه من الطبيعي جدا أن نحسب الف حساب لخيانة « الخارج » وغدره ومن الطبيعى الف مرة ان نقدر ذلك على تقدير الامر الواقع لأن أحدا لايعرف ماذا يخبىء الغد لنا من مفاجئات . إن المحالفة التى تربطنا بالانجليز ليست ضمانا ضد عوادى الزمن وليس فى العالم من يستطيع أن يضمن لنا سلامة نية الانجليز وصداقتهم فى المستقبل فوق قدرتهم على امدادنا بما نحتاج اليه من الاسلحة والذخائر للدفاع عن كياننا إذا لزم ذلك . فمن يدرى ماذا يكون مركز انجلترا إذا عصفت العاصفة يوما وأخذتها على غرة ربما لاتجد عندئذ من هذه المواد مايسد حاجتها وحتى لو وجد لديها ما يكفينا واياها وسلمت نياتها من نحونا فربما تعذر عليها اوسالها الينا والمسافة بيننا شاسعة والطريق وعر شائك

ليس ماتقدم ضرب من الوهم أو التطير انما هي حقائق جديرة بالتأمل والتحقيق . ورب معترض يقول ، دع عنك هذا الحذر وتلك الحيطة البالغة فانهما مدعاة لليأس والقنوط وأنت تعلم ألا سبيل لنا الى تحقيق مارمي اليه فى هذه الناحية من استقلال وحرية . ولو لم أكن أرى رأيا غير هذا الاعتراض ولو لم يكن لى أمل أقوى من ذلك اليأس والقنوط لما دعيت الى هذا الحذر ولما نبهت الى وجوب الحيطة والاستعداد للطوارىء

انى لا أنكر أننا أمة زراعية ليس للصناعة فيها شأن يذكر بل أسلم أننا لو عهدنا الى الصناعة لتعذر علينا ذلك لنقص مواردنا الطبيعية من هذه الناحية ولكنى لا أسلم أبداً أننا لانستطيع اذا صحت عزيمتنا أن نعمل عملا فى هذا الميدان بل أعتقد أننا بقليل من المثابرة والحنكة نستطيع أن نحقق الاستقلالى الذى نشير اليه والحرية التى نطمع فيها

ولو رجعنا الى التاريخ قليلا لوجدنا الامثلة واضحة فيه فقد كان لمصر فى عصر محمد على أسطول ناوأت به أساطيل اليونان والترك كما كان لها فى ذلك العهد معامل لصناعة الاسلحة والذخائر . صحيح ان الاساطيل وقتئذ وكذلك الاسلحة والذخائر كانت فى حالة شبه بدائية بسيطة مما سهل اصطناعها على مصر ولكنا لو تأملنا أيضا حالة مصر فى ذلك العهد وحالتها فى الوقت الحاضر لرأينا أننا نستطيع بنفس المجهود الذى صرفه أجدادنا بل بأقل منه أن نصطنع الاسلحة الحديثة كما اصطنعوا هم أسلحتهم وذخائرهم . وليس محمد علي مهما بلغ من الحنكة والسياسة أبعد نظر او أكثر

نشاطا وهمة واخلاصا لهذا البلد من زعمائنا الحاليين . صحيح أن الاحوال قد تغيرت وأصبحت أمور الصناعة الحديثة أكثر تعقيدا وصعوبة منها فى عهد محمد على ولكنه أمر لاشك فيه أيضا أن مصر شعبا وعقلية قد تغيرت وسايرت الزمن فى تقدمه

ويخيل الىّ أن القارىء يحتج على ماتقدم بأنه كلام نظرى محض لايقدم ولا يؤخر وأنا أنتقل به من هذا الكلام النظرى الى حياة العمل والنشاط لاعرض عليه طرفا من نواحيها

نحن فى حاجة ملحة قوية الى أسطول جوى وأسطول بحرى ووحدات هذه الاساطيل هي الطائرات والبواخر الحربية وليس لصناعتهما أي أثر فى بلادنا الآن فكيف اذن نستطيع الحصول عليها الا باستيرادها من الخارج ؟ وما دمنا نرغب عن ذلك فالحل الوحيد هو أن نعمد الي صناعتها ولصناعه الطائرات والسفن الحربية لابد لنا من أشياء ثلاثة أولها المعامل التى تصنعها وما يتطلب ذلك من آلات . وبعد ذلك يأتي الاشراف الفنى وما يتطلبه من رجال أكفاء ذوى خبرة ودراية فى الشئون الصناعية . وأخيرا يأتى دور المواد الخامة وأهمها المعادن . ونحن لاندعى أن مصر تتوافر لها أى هذه العوامل فليس لدينا من المصانع شيء كما أن الاشراف الفنى والخبرة الصناعية لاتتوفر فى كثير فى أبنائنا بل نحن نسلم جدلا أنها معدومة بالكلية كما اننا فقراء ومدقعي الفقر من حيث المعادن والمناجم عموما ولكنى أعتقد مع كل ذلك أن قيام هذه الصناعات ليس محالا بل هو أمر ميسور

ماذا يكون لو اننا عمدنا الى اقامة المعامل وتزويدها بالآلات اللازمة وفى استطاعتنا أن نستعين فى ذلك بخبرة المهندسين الاجانب ممن تفوقوا فى تلك الصناعات ؟ وليس من شك فى أن هذا أمر ممكن وليس أسهل بعد هذا على صحة مانقول من أن نذكر أن أفرادا من الشعب المصرى استطاعوا ذلك والامثلة تتكرر يوما بعد يوم مؤيدة هذه النظرية وهى اننا نستطيع استيراد الآلات اللازمة من الخارج واقامة المعامل لسد بعض حاجاتنا . واذا كان هذا الامر ممكنا بالنسبة للطائرات والمراكب الحربيه والمدافع وغيرها . فالشىء واحد وان تعددت مظاهره . ولقد سمعنا ان مهندسين من الالمان قد أنشأوا فى أديس أبابا معملا لعمل الطائرات فاذا كان ذلك ممكنا فى الحبشه فكم يكون ممكنا فى بلاد كمصر

واقامة هذه المعامل لاتضمن لنا موردا فى وقت الحاجة فحسب بل هى ادعى مايكون الى القفز بالصناعة المصرية خطوات الى الامام . فى مصر ثروات طبيعية هائلة لم تستغل بعد وقد حان الوقت

لاستغلالها فالى متى سنظل نياما . فى مصر منابع للقوى وفى مصر يد عاملة وفى مصر شعب مضح قد بذل من دمائه الزكية كل ما استطاع واشترى حريته بثمن غال من هذه الدماء وهو مستعد فى كل لحظة أن يعمل بل هو أشوق مايكون الى الطفرة بالصناعة الوطنية والنهوض بها

ولا تقتصر فائدة اقامة المعامل على ضمان حاجة البلاد والنهوض بالصناعة اعا تتعداها الى مشكلة المشاكل فى مصر وهي أجور اليد العاملة . فى مصر ثروة هائلة من هذه اليد العاملة ومع ذلك فهى مهملة أشد اهمال ولست أعرف بلدا انحطت فيه أجور اليد العاملة الى الحد الذى وصلت اليه فى مصر على أن تكاليف الحياة لاتتفق وهذا النقص المريع فى أجور اليد العاملة ويرجع ذلك الى الامتيازات من ناحية وجشع أصحاب رؤوس الأموال من ناحية أخرى ثم قلة الاعمال والمصادر الذى تستخدم فيها هذه اليد العاملة مع عدم وجود تشريع يقيها شره أصحاب الاعمال وتعسفهم . ونحن اذا أنشأنا المصانع أوجدنا بذلك عملا لهذا العدد الوفير من العاطلين ونهضنا بأجور اليد العاملة مما لا تخفى فائدته العامة على أحد

نرى أننا بانشاء المصانع نضرب عصفورين بحجر واحد فنحن نضمن سداد حاجتنا كما نفيد من وراء انشاء هذه المصانع إفادة مزدوجة : ترقية الصناعة وتحسين حال الصانع وترقيته ثم زيادة الثروة العامة باستغلال الموارد الطبيعية التى لم تستغل بعد

وليس المهم هو أن ننشىء المعامل انما هو وفرة انتاجها وليس من الممكن ضمان ذلك الانتاج الا بتوفير الاشراف الفنى لها وهذا الاشراف الفنى مهما اسرف المغرضون فى تقدير نفقاته وتعظيمها أقل كلفة مما لو عمدنا الى الشراء والاستيراد من الخارج فالمعامل التى سوف تبيعنا المدافع سوف تبيعنا معها أجر الاشراف الفنى الذى احتاجته صناعتها . ان الاشراف الفنى متوافر فى البلاد الصناعية وزائد على الحاجة وفى استطاعتنا أن نستفيد من خبرة المعامل الكبرى لقاء أجر زهيد هذا اذا لم نقيد بقيود خاصة . ان بين المهندسين من الالمان والفرنسيين والانجليز والامريكيين واليابانيين وغيرهم من ذوى الخبرة والدراية بالشئون الصناعية من نستطيع أن نركن الى خبرتهم ودرايتهم ومن نستطيع استجلابهم واستخدامهم بأجور تتناسب مع مجهوداتهم وكفاءتهم لا أكثر ولا أقل . هذا اذا كنا أحرارا فى الاختيار وجعلنا المسألة مناقصة دولية حرة وليست مناقصة صورية كما كان العهد فى حالات الخبراء الفنيين واشباههم مما لم تكن تدعو الحاجة اليه ومما لم يكن هناك

مبرر له ولسنا أول من يلجأ لذلك فان روسيا وتملك الآن من مصانع الطائرات والسفن العدد الوفير قد استطاعت ذلك بفضل استعانتها بالمهندسين من الالمان ورجال الصناعة فيهم والغريب أن روسيا الآن تهدد المانيا وتعتمد فى تهديدها هذا على قوة هذه المعامل واستعدادها

والى ماتقدم فاننا بايفاد البعثات العلمية وبتحويل دفة الهندسة الى مايجب أن تكون عليه من العناية بالشئون العملية سوف نستطيع خلال سنين قلائل أن نتحمل بأنفسنا كل الشئون وأن نستغنى بهؤلاء عن الاجانب

بقيت بعد ذلك مسألة الخامات ولعل القارىء يعتقد فى نفسه أن هذه هى الصخرة التى ستحطم كل آمالنا فنحن بلد على أشد مايكون من العوز والفقر فى الثروة المعدنية وأنا أسلم جدلا بذلك وان لم يكن قد أقيم بعد الدليل القاطع على صحته ولكنى اعتقد ان هذا الفقر ليس كافيا لاقصائنا فنحن وان كنا فقراء من هذه الناحية أغنياء من نواح أخرى . وليس فى العالم دولة واحدة تستطيع أن تستغنى بثروتها المعدنية عن بقية الدول ومن هنا نشأ سوق المقايضة وتبادل الخامات فلماذا لا نساهم نحن فى ذلك ؟ نستطيع أن نعطى العالم قطناً وبصلا وحبوبا ومحاصيل أخرى كثيرة فى مقابل ما نأخذه منها من حديد ونحاس والمينيوم وفحم مثلا وهاهى فرنسا بلد للصناعة فيها شأن يذكر ولها امبراطورية واسعة مترامية الاطراف ومع كل ليس لديها الكفاية الا عدد ضئيل من الخامات اللازمة للصناعة وهى تعتمد على المقايضة وتبادل الخامات فى الحصول على الخامات للصناعية الاخرى التى تنقصها

ان الكسب الذى نناله بصناعة حاجاتنا بأيدينا بدلا من شرائها جاهزة من الخارج يعادل أرباح الشركات التى تبيعنا اياها فوق أجر اليد العاملة ونحن نوفر كل هذا باقامة المصانع فى بلادنا . ولو سلمنا جدلا اننا سوف لانحقق من وراء ذلك توفير المكاسب التى أشرنا اليها وفرضنا اسوأ الفروض وكان أن تعادل ثمن الشراء مع ماسنتكبده من المصاريف لو قمنا بصناعة هذه الحاجيات بأنفسنا ، أقول لو كان الامر على هذا الفرض لكان ربحا لنا أن نقوم ببناء المعامل فنكون عندئذ قد كسبنا تشغيل اليد العاملة التى ستستخدم فوق ضمان سداد حاجتنا واستقلالنا عن المؤثرات الخارجية والاهواء السياسية وما هى عليه من تقلب دائم . ولكسبنا فوق كل ذلك احياء صناعاتنا واحتفاظنا بالثروة الاهلية فى بلادنا بدلا من تسربها الى الايدى الاجنبية

لا أخال القارىء الا مقتنعا معي أن الربح كل الربح هو فى أن نلجأ الى بناء المعامل وايجاد

الصناعات المعدنية بأنفسنا . ولا أخاله كذلك الا مقتنعا أن هـذا وان اكتنفته المصاعب أمر ميسور ولا أظنه الا متفقا معى على أن الربح الذى يمكن أن نجنيه من وراء هـذا العمل يغرى أشد الاغراء على تحمل المشاق ويشجع على المضى فى ذلك السبيل ولـكن لعله يتساءل ومن تريد أن يقوم بذلك ؟ اتطمع من ذوي رؤوس الاموال أن تقبل على المخاطرة وتحمل المشاق فى سبيل غاية كهذه ونحن نعرف انهم آخر الناس فى التفكير فى شىء كهذا وأبعدهم ميلا الى الجرى وراء غايات كهذه ؟ أم تريد الحكومة ونحن نعرف انها تشكو الاملاس المالى والافلاس الفنى فى كل لحظة وفترة وليس لخزائنها قبل على تحمل مصاريف بناء المعامل ثم استجلاب المشرفين الفنيين واحضار الخامات ؟

وفى الواقع لست أطمع من الشركات أن تقبل فى الوقت الحاضر على مشروعات كهذه بل أعتقد ان الواجب الوطنى يدعونا الي منعها من تنفيذ ذلك لو أنها أقدمت عليه من تلقاء نفسها . ولست أدعو الى تحريم صناعة الاسلحة على الشركات لاننى أشفق عليها من الاخفاق فى هذا المضمار أو لاننى أكثر تقديراً لاستعدادها للنجاح فى هذا الميدان منها نفسها انما أدعو اليه تجنبا للفضائح المخزية التي لاتفتأ صحف العالم تفشيها وتذيع أسرارها على العالم فى كل دولة وفى كل وقت . كلنا قد سمع عن التهم المريعة التى قد نسبت الى معامل كروب فى المانيا وشنيدر فى فرنسا وغيرهما والخيانات الفظيعة التى اقدمت عليها هذه الشركات من أجل الحصول على المال والمال فقط مما كان له أكبر الاثر فى طرد اليهود من المانيا ثم تسليم مصانع الاسلحة الفرنسية الى الحكومة القائمة الآن

ان صناع الاسلحة أو تجار المدافع كما يسمونهم فى أغلب بلاد العالم متهمون بانهم السبب الاكبر فى مايصيب الانسانية من حروب فوق أنهم لايقيمون وزنا لتهم الخيانة الوطنية التى قد تلصق بهم فهى أمر طبيعى جدا بالنسبة لهم بل من علامات النجاح والقوة وربما الشرف أيضا . وقد ذقنا فى مصر مرارة الخيبة من وراء فعل هذه الفضائح فلا تزال فضائح الكورنيش عالقة باذهاننا وما زلنا نرتعد غضبا كلما مرت بذاكرتنا وكل يوم يقدم للهيئة الاجتماعية المصرية أو مايلقبونه «بالهايليف» أفراد جدد يطلقون عليهم لقب الطامحين. وأنا لاأكره مثل هؤلاء الطامحين ولست أستطيع أن أجزم انهم جميعا من عينية أولئك المموليين اليهود الذين لعبوا بكروب وشنيدر فى أثناء الحرب العظمى ولكنى لا أتمالك عن اساءة الظن بهم من هذه الناحية . اننى لا أستطيع أن أقنع نفسى أن كل هؤلاء الطامحين رجال شرف ونزاهة ومبدأ مادام للاصفر الرنان كل ماله من

هوى فى النفوس . واكبر ما أخشاه هو أن يقبل هؤلاء وأمثالهم على استغلال هذه الحاجة الطبيعية وتمثيل الدور الذى مثله نظراؤهم فى أوربا من قبل . واكبر اعتقادى أن اليوم الذى سوف تقبل فيه رءوس الاموال متهافتة على استغلال هذه الناحية ليس ببعيد وعندئذ نندم لاننا لم نسد فى أوجه انطمع الاقتصادي هذا الباب . والطامة لاشك أدهي وأنكى لو أقبلت شركة أجنبية على العمل فى هذه الناحية اذ ذلك لا يكون استعمارا جديدا فحسب بل أداة قوية لاهلاكنا وابادتنا كأمة حرة وكشعب عامل

والسبيل الوحيد لضمان السلام من كل ماقدمنا من الاخطار هو ان تقبل الحكومة على هذا العمل كما فعلت حكومة فرنسا مثلا ولا بأس من أن نقيم اكتتابا شعبياً عاما على نحو مافعلنا فى بناء مصنع القرش مثلا على ان تتناسب أهمية الاكتتاب والدعوة اليه مع عظم المبالغ المطلوبة . وفى استطاعتنا أن نلجأ ايضا الى عملية اليانصيب على نحو ماتفعل الحكومة الفرنسية ايضا وفى استطاعتنا أن نقوم باكتتاب عام تشترك فيه طبقات الشعب كلها والحكومة على رأسها لجمع المال اللازم لتشييد هذه المصانع وضمان سيرها

وسوف لا يعدم ساستنا ونعلم مبلغ حب الشعب وتأييده لهم وتقديره لجهودهم، أن يجدوا الوسائل فى ترغيب افراد الشعب من كل الطبقات والالوان فى الاكتتاب ثم التضحية المادية اليسيرة لمجد الوطن . لقد فرض الالمان على أنفسهم أن يأكلوا سمكا يوما فى الاسبوع وذلك تشجيعا للمصانع الالمانية وضمانا لعمالها من البطالة ونحن نستطيع أن نقوم بآلاف الاعمال من هذا القبيل ومهما قيل فى وطنية الشعب الالمانى وتضحيته فى سبيل مجد الوطن فالشعب المصرى أوفر الشعوب حظا وأرسخها قدما فى ميدان التضحية الوطنية والحب العميق لبلاده

انى لا أشك لحظة فى أن الشعب المصرى اذا تحقق قيمة مايطلبونه منه من اكتتاب وفائدة ومن السهل اقناعه بذلك سوف يقبل عليه اقبالا عظيما جديرا بان يكفينا مذلة الاعتماد على الآخرين وخصوصا على الخارج وقد لبس فى هذه الايام ثوب الغادر الخائن المتوثب للقضاء على الضعيف فى غير رحمة أو شفقة أو حياء من وجد الى ذلك سبيلا

عندئذ وعندئذ فقط نكون قد استطعنا رفع خطر التحكم الاجنبى فى سلامة الدفاع عن بلادنا فوق ضمان هذه السلامة من الوقوع تحت سيطرة المولين ورجال الاعمال وما قد يكونون عليه من جشع وتكالب على المال ولو أدى هذا التكالب ودفع بهم الجشع او التسفل الى درجة الخيانة

دراسة الانسان

للاستاذ أحمد زكى بدوى

يعتبر علم دراسة الانسان من العلوم الحديثة . ويتصل تاريخ هذا العلم بتاريخ علم الحياة الذى بزغ فى أوائل القرن الثامن عشر على يد لامارك وبلغ أوج مجده فى أواسط القرن التاسع عشر عند ما أصدر داروين كتاب أصل الانواع فكشف به عن أعظم أسرار النظام النشوئي، ثم جاء سبنسر وعمم نظرية التطور حتى جعلها تشمل الهيئة الاجتماعية الانسانية وأظهر كيفية انتقالها بالتدريج من الوحشية إلى المدنية ، وكيف انها دائمة التطور ، شأنها فى ذلك شأن النبات والحيوان

ومنذ ذلك العهد أخذ علم دراسة الانسان يظهر تدريجيا على يد أنصار نظرية التطور . ونخص بالذكر منهم تيلور وفريزر ومورجان وكرادلى ووستر مارك وهارتلاند وركلاس

ومن سوء الحظ أن مصر لم تهتم كثيرا بهذا العلم رغم أن هناك مجالا واسعاً للابحاث الانثروبولوجية فى كثير من أنحاء القطر المصرى ، واقتصرت أعمال التنقيب الخاصة بنشوء الانسان على بعض الباحثين من الأجانب وأذكر منهم الآنسة كاتون طومسون والآنسة جاردنر فقد قامتا بالتنقيب فى طبقات شواطيء بحيرة موريس بالفيوم وكانت أهم نتائج هذه الابحاث اثبات نظرية عصور الخصوبة والجفاف التى توالت على افريقيا وهى تقابل نظرية العصور الجليدية بأوربا كان من واجب الجامعة المصرية الاهتمام بهذا العلم لاهميته العظيمة ، وذلك على الاقل بتعيين أستاذ خاص له ، ولكن كان كل نصيبه بضع محاضرات لاتجدى تلقى على شعبة الجغرافيا

ولم يصدر فى اللغة العربية من الكتب الخاصة بدراسة الانسان مايستحق الذكر اللهم الا كتاب فجر التاريخ الذى أصدرته منذ ثلاثة أعوام وهو مختصر جدا وكتاب سكان الكوكب للاستاذ محمد عوض محمد ويقتصر على الناحية الاثنولوجية

أثيرت ذات مرة مسألة تحديد الوقت الذى ينتهى فيه التاريخ القديم ويبتدىء التاريخ الحديث ولما سئل ادوارد تيلور العالم الانثروبولوجى العظيم أجاب بأنه « ليس لذلك أهمية فكلاهما من فروع علم دراسة الانسان »

والواقع ان علم دراسة الانسان يكاد يشمل منطقيا كل المعرفة البشرية إلا أنه يتعلق من الناحية العملية بعدة ابحاث متنوعة ويتوقف ذلك على ما أصابته هذه الابحاث من فائدة خاصة أو أهمية . فعندما ابتدأت متحجرات الانسان القديم تلفت النظر ، كان من المفروض أن الانتروبولوجى هو الذى يبحث فيها وفى الجماجم على الخصوص ، وهكذا كلما نشأت دراسات تتعلق بالجنس وبالتشريح البشرى كانت تدخل تحت موضوع الانتروبولوجيا الطبيعية ولكن دراسة الانسان كمخلوق اجتماعى — الجماعات والمظاهر الاجتماعية والعادات والتقاليد والثقافة — أصابت أيضا اهتماما عظيما حتى ان كلمة انتروبولوجيا أصبحت تطلق فى انجلترا على هذه الابحاث الاجتماعية بالذات رغم ان الانتروبولوجيا الاجتماعية تشمل كما يقول تيلور كل تاريخ الانسان الثقافى فان هذه العبارة من الناحية العملية مقتصرة على ذلك الجزء الذي لا يمثله التاريخ المدون . لان الجماعات المتأخرة أو الفطرية التى ليس لها تاريخ مدون هي التى تهيىء الفرصة لبحث أصل المسائل الاجتماعية التى يستدعي فهمها معرفة نشوئها . ومن أجل ذلك وجدت الانتروبولوجيا الاجتماعية . ويتعذر فهم التاريخ الحديث بدون الالمام بالتاريخ القديم وعلى هذا القياس يصبح التاريخ المدون مفهوما فى ضوء الحقائق الاجتماعية وأسباب نشوئها

تحتاج دراسة الانسان الى الاستعانة ببعض العلوم الطبية كعلوم التشريح ووظائف الاعضاء والاجنة وتكوين العضل والمتحجرات وكذا الاعتماد على بعض العلوم الاجتماعية كعلوم الاجتماع والنفس والاخلاق وغيرها وذلك لاثبات الحقائق المختلفة التى تتحقق بنشوء الانسان وتطوره . وكثيرا ما تتعارض نتائج هذه العلوم فى بعض التفاصيل مما يجعل مهمة العالم الانتروبولوجى من الصعوبة بمكان ، فهو مضطر لدراسة الابحاث التى تتعلق بالانسان دراسة دقيقة ثم يقارنها بعضها ببعض وأخيرا يقرر قبول النتائج التى أجمعت أغلب الابحاث على صحتها ورفض التى اتفقت على خطئها . وقد يختلف الانتروبولوجيون أنفسهم فى نتائج مقارناتهم ولكن اختلافهم هنا لا يزيد على الاختلاف المشاهد فى كثير من العلوم . والحقيقة كما يقول انشتين متطورة بتطور الانسان

ينقسم علم دراسة الانسان الى قسمين أولهما دراسة "الانسان الطبيعية" وتدرس الانسان كحيوان وعلاقته بباقى المخلوقات الحية" ومكانه فى الطبيعة" وتركيبه البدني وأعماله العضلية" على ضوء علم التشريح المقارن وعلم وصف الاعضاء وتقوم أيضا بالدراسة" المقارنة للاعمال العقلية وتبحث عن قدم الانسان كما تدل عليه بقاياه . وتقوم بالدراسة المقارنة للصفات الطبيعية" التى تميز

السلالات المختلفة للنوع البشري ونمو الانواع البشرية وتفاعلها على البيئات الطبيعيه المختلفة بالنسبة للاغذيه الموجودة بها وقدرة النوع على مقاومة المناخ والمرض

وتبحث دراسه الانسان الاجتماعيه فى الانسان الاول من الوجهة الارخولوجية على ضوء بقايا مصنوعاته وعن كل مايتعلق بخواص ومؤثرات عصور ماقبل التاريخ واستمرار تفرق الاحوال الثقافية على توالى العصور وتهتم بالدراسة المقارنة للفنون والصناعات : نشوئها وتطورها وتنويعها الجغرافى ثم تدرس الانسان كحيوان اجتماعى بالبحث المقارن عن المسائل والنظم الاجتماعيه : الميلاد والتعليم والزواج والموت والعادات والتقاليد والقانون والاخلاق وممارسه السحر والدين والقبائل والجماعات والحكومة . وتبحث أيضا عن تقسيم الانواع البشريه وفقا للاحوال الثقافية

سنحاول الآن القاء نظرة سريعة على القسم الاول من دراسة الانسان على أن نتحدث عن القسم الثانى فى فرصة أخرى

الانسان من حيث العلوم الطبيعية حيوان فقري الا أنه يتفوق على الحيوان بقامته المنتصبة وعينيه المتجاورتين ويديه الخفيفتين وقدميه وما عدا ذلك من الخصائص الجسمانية فكل منها موجود فى عالم الحيوان وان لم تكن مجتمعة بتوافق الا فى الانسان

للانسان صلة عظيمة بباقى الحيوانات وخصوصا بالقردة العليا وكل القرائن تثبت أنه يشترك معها فى ارومة واحدة . أي أن القردة ليست أصل الانسان بل انهما سليلا نوع واحد . ويشبه تكوين الانسان التشريحى الى حد كبير القردة الشبيهة بالانسان ـ الغوريلا والاورانج والشمبنزى والجيبون . ويتفق معها من جميع الوجوه عظمة بعظمة وعضلة بعضلة وعصب بعصب ودم بدم إلا أن هناك فروقا ضئيلة أهمها مخ الانسان الذي يبلغ وزنه ثلاثة أضعاف وزن مخ الغوريلا . فانوزن المخ التقريبى للانسان يبلغ ٤٨ أوقية بينما لا يزيد وزن مخ الغوريلا على ٢٠ أوقية على اكثر تقدير كما أن حجم الجمجمة الانسانية لا يقل عن ٥٥ بوصة مربعه ويبلغ فى الاورانج والشمبنزى ٢٦ و ٥ر٢٧ على التوالى

كان الانسان فى الازمنة الاولى يكافح ليعيش مكافحة شاقه ، وكان بين جميع المخلوقات الموجودة على الارض أقلها استعداداً للدفاع عن نفسه من الاخطار المحيطه به . وكان لكل حيوان سلاحه الخاص من أنياب ومخالب وغيرهما فكان له حظ فى البقاء ما عدا الانسان الذى كان يجول بينها لا سلاح له يدافع به عن نفسه ولا مأوى يقيه

ولـكن قدر للانسان أن يتفوق لأنه لم يتخصص . بينما تخصص الحيوان فـكان لـكل عضو وظيفه واحدة . ناليد الانسانيه مثلا هى أقدم الايدى بين الحيوان وأقلها تخصيصا . وايدى الفرس والجمل والقط والطائر « الجناح » كلها مخصصه وكلها يقصد منها عمل شىء بعينه قد اهلت له اليد اكبر تأهيل وأخصه بحيث لا يمكنها عمل شىء آخر . لذلك كانت أعضاء الانسان تليق لكل وسط تقريبا لانها لم تتخصص لوسط بعينه وأن حريته فى اختيار الوسط كانت اكبر من حرية اى حيوان آخر ، فاعتمد الانسان فى تطوره على الوسط دون أن يعتمد على جسمه . اى بدلا من أن يعتمد على اجتماعه باخوانه أو يحتمى بالمغاور فى الدفاع عن نفسه . وبدلا من أن يختص بطعام واحد كان يأكل جميع الاطعمه . ولذلك كان تطوره اجتماعيا بدلا من أن يكون بيولوجيا كما هو الشأن فى الحيوان فتطورت نفسه وأخلاقه واصبح رقيه وانحطاطه يقومان على الذهن بدلا من اللحم والعظم

كانت حياة الانسان الاول النفسيه مجموعه من الغرائز والعادات . فلم يـكن ينظر الى أبعد مما يصل اليه نظره فلا يرى الاشياء الا كما يراها الطفل ، فالشمس مخلوق حي ، وكذا الرياح والامطار وغيرها ، والمرض تسببه الارواح الشريرة التى تدخل جسم المريض وتطرد الأرواح الطبيعية والأحلام هى وقائع حقيقية للنفس فى تجولها عندما يكون الجسم نائما . وظن الانسان أن خياله فى الماء هو جزء منه ، ولذلك فان كثيرا من الهمجيين يحترسون عندما يسيرون حذاء النهر من وقوع ظلهم على الماء ، خوفا من أن يصل اليه التمساح ، فيسحبهم الى النهر عن طريق الظل ويأكلهم

ويتميز الهمجيون بتعصبهم الشديد لما يعتقدونه من الخرافات لدرجه عظيمة . وينظرون الى أغلب الشرور كأنها فضائل . فالسرقه والقتل فى نظرهم وسائل رفعه ومجد ، وقد يقتلون الشيوخ عندما يشح الغذاء ، وقد يهجرون الاولاد أو يبيعونهم عندما يـكثرون . فهم لا يعرفون الضمير

يعيش الهمجيون فى عالم يختلف عن العالم الذى نعيش فيه ، ويعملون أشياء عديدة تختلف عما نعمل ، الهمجي طفل الطبيعه ، يعيش كما تعيش سائر الحيوانات المتوحشة . ليس له نباتات أو حيوانات مستأنسة . يصطاد الحيوانات والاسماك ويقاتل ليعيش . وينتقل فى قبائل صغيرة ، حافظا وجوده بحرب دائمه مع القبائل الاخرى . يعيش من اليد إلى الفم ، حياته مملوءة بالاخطار والمجازفات لا يعتقد الا بقانون أخلاق واحد هو قانون الحق للأقوى أى القانون الذى يسود بين الحيوانات

ي

المفترسه فى كل مكان . وعلى العموم فالهمجى يعيش وفقاً للبيئة التى نشأ فيها ، فله الجسم الذى يحتاجه والغرائز التى تقوده نحو الاشياء التى يحتاج الى عملها لكى يستطيع أن يبقى على حياته .

كان الانسان الاول يخشى الحيوانات وأفراد القبائل الاخرى فلما توصل الى اختراع الاسلحة قل خوفه نوعا ما . الا أنه ظل لا يعتمد على أحد ولا يعتمد عليه أحد ، لا يرجو شيئا من جاره فكانت حياته قلقا مستمرا مصدره الخوف وحب الذات

لننتقل الآن من طبيعة ونفسية الانسان الى البحث عن قدمه ، والارخولوجيا هى العلم الوحيد الذى نعتمد عليه في هذا البحث . كانت أبحاث علماء الآثار منذ أوائل القرن التاسع عشر مقتصرة على الحضارات التاريخيه المعروفة ولكن منذ ظهرت نظرية داروين أخذوا يهتمون بالبحث عن عصور ما قبل التاريخ . فقسم الباحثون عصور ماقبل التاريخ تقسيما حيويا كان أساسه في أوربا العواصف الثلجية التى طغت عليها في أحقاب مختلفة وكانت هذه العواصف حدودا تفصل ما بين عصر وآخر وكان أساس هذا التقسيم فى افريقيا أحقاب الجفاف والخصوبة التى توالت عليها

ويقرر علماء الجيولوجيا هذه الاحقاب بعشرات الالوف من السنين . الا انهم قسموا عصور ماقبل التاريخ على الاطلاق الى ثلاثة عصور : العصر الحجري وعصر البرونز وعصر الحديد وقسم بالتالي كل من هذه العصور الى أقسام أخرى وفقا للتطورات المختلفة التى طرأت على مصنوعات الانسان فى ذلك الوقت

كانت وسيلة الارخولوجيين فى ابحاثهم التنقيب وهيا كل الانسان القديم ومصنوعاته وقد وجدوا كثيرا من الهيا كل والمصنوعات فكانت صورة صادقة عن حياة الانسان الاول

قد يختلف الانثروبولوجيون أحيانا فى بعض التفاصيل أو فى اعطاء تواريخ تقريبية للحفريات ولكن ليس هناك شك بينهم فيما يتعلق بقدم الانسان ، فقد أجمعوا على أن سلف الانسان عندما اقترب من الشكل البشرى فى حجم المخ يرجع الى بدء عصر البليوسين ، أى منذ ما يقرب من ٤٠٠ر٠٠٠ سنة وسمى فجر الانسان ومعلوماتنا عن فجر الانسان قليلة ، وكان من المدهش أن الانثروبولوجيين بجهادهم العجيبة وعبقريتهم أمكنهم أن يحدثونا عن الانسان القديم منذ ٢٠٠ر٠٠٠ عام فأظهروا شكل الانسان حينذاك على ضوء بضع حفريات لا تعدو جمجمة أو سنا . واثبتوا أن أصل الانسان لا يرجع الى أى شكل من اشكال القردة الشبيهة بالانسان التى ما زالت موجودة وبرهنوا على أن كل من القرد والانسان تفرع من أصل واحد من شجرة تطور الحياة . وبقدر

السر ارثركيث بان هذا الانفصال حدث منذ مايقرب من مليون عام . وهنا يختلف بعض الانثروبولوجيون فيقررون وجهات النظر الآتيه (١) نشأ الانسان الشكلى من القردة الشبيهة بالانسان (٢) من فصيلة مشتركة بينة وبين القردة الشبيهة بالانسان (٣) من نوع سالف للقردة الشبيهة بالانسان . ولا غرابة فى هذه الاختلافات لأن البحث مازال حديثاً

وقد اكتشفت حتى الآن عدة أنواع من الانسان ظهرت ثم انقرضت ولم ينحدر الانسان منها مباشرة . فانسان جاوة الذى اكتشف عام ١٨٩٢ هو أول الاشكال البشرية ويقدر عمره بنحو ٦٠٠٠٠٠ر سنة وانسان هيدلبرج (١٩٠٨) قد يكون من نفس النوع . له فك يمتاز بخاصة المضغ لا ذقن له وهو شبيه بفك القرد وانسان بيكنج (١٩٢٩) وهو مخلوق يمتاز بأنه يعبر الطريق بين الحيوانية والانسانية أما انسان بلتدون فيمتاز بأهم ملامح الانسان . أما احدث أنواع الانسان التى اكتشفت فهى النيندرتال وكان يعيش فى أوربا منذ ١٠٠ر٠٠٠ سنة تقريبا ثم زال هذا النوع عند ظهور إنسان منذ ٥٠ر٠٠٠ سنة وهو أول أقارب الانسان . وقد جاء من آسيا .

ان اكتشاف الهياكل التى تحدثنا عنها قد تم خلال الثلاثين عاما الماضيه ماعدا انسان جاوة . ولذلك فان البحث مازال ناشئا ومازال هناك مجال لكثير من المكتشفات .

لننظر الآن الى الآثار التى تركها الانسان . انها لا تعدو بضع آلات مصنوعة من الصخور الصلبة كالصوان مهذبة تهذيبا بسيطا لتقوم باغراضه الأولية كالصيد والدفاع عن النفس وقطع الاشجار وهلمّ جرا . على أنه كان يدأب دائما فى تحسين هذه الآلات كلما ارتقى فى سلم المدنية وكان يساعده على هذا التحسين نموه العقلى المتزايد كانت الآلات الحجرية تزداد اتقانا مع مضى الزمن حتى صارت آلات نافعة رشيقة . ولم يقف نموه العقلى عند ذلك فسرعان ما كشف سراً كان له من أكبر الأثر فى حياته ذلك هو من استنباط الفلزات من خاماتها المعدنية الأولى وقد يكون وقوفه على سر هذا الفن قد جاء عن طريق المصادفة على أنه كان على كل حال عرف كيف يستفيد منه فلجأ إلى صناعة آلات من البرونز الذى هو مزيج من النحاس والصفيح . ومن ذلك العهد ابتدأ تقدم الانسان يخطى واسعة

بقى القسم الاخير من أقسام دراسة الانسان الطبيعية وهو دراسة الاوطان المختلفه للنوع البشرى . يتفق أغلب علماء الاثنولوجيا على أن الانسان نشأ فى اقليم واحد من سطح الارض

ثم انتشر فى جميع أنحاء الارض . وكان للنوع البشرى فى أول عهده صفات جنسية مشتركة بين جميع الافراد ثم ظهرت الاختلافات بسبب البعد عن الوطن الاصلى ، وانتقال جماعات الى اقليم وجماعات أخرى الى إقليم آخر مخالف له . فكانت البيئة هي السبب الاول لايجاد السلالات المختلفة لان كل اقليم يحتاج لخصائص خاصة به ، والذين حرموا هذه الخصائص قد يهلكون ، أو ينمون هذه الخصائص على مدى الزمن . وأهم المظاهرات التى تميز سلالة من سلالة هى شكل الشعر والرأس والوجه وشكل القامة والاطراف وشكل العين والانف ولون البشرة . أما خواص هذه الظاهرات فدقيقة جدا فمن خواص الجلد الاسود مثلا الوقاية من الشمس ، بينما يتأثر الجلد الابيض فى المناطق الباردة من هذه الحرارة أما الاسمر والاخضر والاحمر فهى ألوان متوسطة تلائم المناطق المتوسطة

والخلاصة أن التنوع نشأ عن اختلاف البيئات وعن اجتماع العناصر المختلفة بالاختلاط والتناسل وحينما كانت التنوعات مفيدة لمقاومة الحرارة والبرودة أوغيرهما من صفات المناخ . أومساعدة على النجاح فى الحصول على الطعام أو مكسبة مهارة فى المحاربة أو الهرب من الاعداء . مالت الى الثبات بسبب تفوق الافراد الذين ورثوها

ولكن الانسان بعد أن قطع فى تطوره شوطا كبيرا أصبح أكثر مقاومة للعوامل الطبيعية وأقدر على التحكم فى موارد الطبيعة ، وعلى اخضاع قواها لمقتضيات راحته وسعادته . فاكتسب مقدرة على مقاومة وتسخير قوى الطبيعة بدلا من أن يكون تحت رحمتها . ولذلك بقيت صفات السلالات كما هي ولم تعد تتأثر بالبيئات الجديدة اذا انتقلت اليها

الثقافة الجنسية

بقلم نورمان هير في دائرة

المعارف التناسلية

يستيقظ النشاط العقلي مبكراً فى كل طفل ، وحينئذ يظهر على صورة ميل شديد لاستطلاع كل ظاهرة من ظواهر الحياة بالغة مابلغت من البساطة ويمتد حب إستطلاعه هذا الى الشئون الجنسية وقد ذكر هافلوك اليس فى مؤلفه الشهير عن التربية الجنسية أن المعضلة التي تحير عقول معظم الأطفال هي فى الواقع « كيف يأتي الأطفال إلى العالم » ؟

وإنه من الغباء المطبق أن نرمى الطفل بالخروج على الآداب إذا مارغب فى معرفة أمر من الأمور الجنسية فليس هذا الميل الى الاستفسار عن الحقيقة إلا أول مايوضح نشاط العقل الانسانى ، الشيء الذي رفعه عن باقي الحيوان فجعل من البدائى المتبربر كائنا متمدينا . وحب الاستطلاع الجنسى عند الطفل هو الذى يملك على الناس مشاعرهم سواء ا كان منشأ هذا هو الرغبة الصادقة لذاتها أو الفائدة العملية ودوافع القوى الطبيعية الخفية . وليست مسألة وجودنا فى هذا العالم مقصورة على فروض علماء ماوراء الطبيعة فحسب ، بل هي تحير عقل الطفل فى الوقت الذي يبدأ فيه تفكيره

فهو يسأل والديه منذ طفولته الاولى أسئلة لاتقف عند حد ، وكلها تدور حول هذا الموضوع الدقيق . ويمكن أن نملأ المجلدات بالوقائع البينة الغريبة التي دونها المربون وعلماء النفس الذين تخصصوا فى دراسة نفسية الطفل . وسنقتطف هنا قليلا منها اخترناه كأمثلة نموذجية :

« ذكر والد طفل فى الخامسة من عمره أنه كان ينوى الذهاب الى السينما بعد ظهر يوم الاحد ، فاستفسر منه أحد أصدقاء العائلة عما اذا كان سيصحب طفله معه فأجابه الوالد بالنفى لأن هناك تعرض قصص غرامية . وهنا سأله طفله اذن كيف تنتظر منى أن اعرف ماهو الحب ؟ وأنت تعلم أن هذا يلذ لى كثيرا ؟ »

قد يعترض انسان بان الحب لم يكن وحده موضع اهتمام الطفل ، وعلى ذلك لايكون هذا المثل مقنعا . ولكنا نرد على هذا بأن نفس الطريقة التى أبدى بها الطفل ملاحظته تكشف لنا فى وضوح أن « مسألة الحب » كانت ماثلة فى ذهنه منذ حين

إن أكثر الامور إثارة لحب الاستطلاع عند الاطفال هى كما أوضحنا آنفا « كيف يولد الطفل ؟ » ويجيب معظم الآباء على هذه الأسئلة باجابات غاية فى الحذر كقولهم « يخرجون من الكرنب » أو « يأتى بهم اللقلق » وما إلى هذه من التفسيرات التى يصغى اليها الطفل وقد يظهر اقتناعه بها ولكنه فى الواقع يرتاب إلى حد ما فى صحة هذه الاجابات

وقد ذكرت مسز « آليس بألنت » مؤلفة « علم النفس التربيبى » قصة مربية لم تكد تدخل فى خدمة إحدى الاسر حتى انفرد بها طفل فى الخامسة من عمره وطلب اليها أن تخبره « من أين يأتى الأطفال ؟ » وظاهر أن هذا الطفل كان قد طرح نفس السؤال على والديه دون أن يظفر باجابة مرضية

ولقد دهش الوالدان عندما نقلت اليهما المربية حديث الطفل ظنا منهما أنه كان قد نسى هذا الموضوع منذ زمن بعيد

ولقد دلت التجارب على أن قصة الكرنب أو اللقلق لم يكن يصدقها الاطفال تصديقا أعمى ، ومهما أظهروا الاقتناع بها وقتا ما فلا تلبث تحرياتهم المستمرة أن تغير رأيهم . فهم يترقبون قدوم اللقلق من النافذة فاذا مرت أيام دون أن يروه يتملكهم الشك من جديد ويلجون بالأسئلة . فهم يسألون مثلا عما إذا كان اللقلق يأتى بهم كساة أم عراة ؟ وكيف يعرف اللقلق العنوان بالضبط ؟ وكيف يمكنه أن يدير مقبض الباب ؟ وما الي ذلك

وذكروا أن ابن حمال فى برلين وكان فى الثالثة من عمره قد سأل هذا النوع من الأسئلة فأجيب بتلك الردود المعهودة . فقال لوالدته يوماً « الآن قد عرفت كيف ينمو الطفل فى بطن أمه ، لقد ظننت بى البله الى حد أن أصدق أننى كنت فى قاع البحيرة قبل ولادتى . فلو صح هذا لأصبت ببرد ، وكيف يمكن للقلق أن يأتى بى ؟ لقد ذكرت أنه ألقى بى من المدخنة ولو صح هذا أيضا لتلوثت بالسناج ولآذانى السقوط أذى شديداً »

هذا الشاهد المقطوع بصحته يرينا كيف يفند « أبرياؤنا » مهما بلغ صغر سنهم مغالطات والديهم وهذا التساؤل يرينا معارضة الصغير فى قبول قصة أمه وهذا راجع إلى معرفته حقيقة الامر من رفاقه الصغار فى الطريق . على أن هذا لم يكن سببه الشك بل هو استعداده لقبول المعلومات التى يدلى بها اليه الاطفال الآخرون

ونسوق مثلا آخر عن فتاة صغيرة فى الرابعة من عمرها كانت موجودة عندما شعرت احدى صديقات والدتها بالمخاض « ألم الوضع » فلاحظت حالة التهيج ولم تبعد الا عندما حضر الطبيب ، فلما ذهبت إلى فراشها فى المساء قالت لوالدتها : —

« هل اللقلق الآن أم البطن ؟ » فاعترفت الأم وقد أخذها العجب « بأنه البطن » وأردفت الطفلة :

« قد فهمت الآن ، ولكن لا اعرف كيف أمكنك ابتلاعى ؟ . فهذه القصة الصغيرة مسلية حقا لأنها تكشف عن خبث الطفلة فى استيضاح الشكوك التى ساورتها عن قصة سمعتها عمن يكبرنها سنا

وكثيراً ما تسبب أسئلة الاطفال حيرة الكبار إذ يسألونهم لماذا تنجب المتزوجات أطفالا دون الغير المتزوجات ، والامثلة التى سقناها آنفا توضح الحقيقة التى لامرية فيها وهى أن حب الاستطلاع يتجه تماما الى الناحية الجنسية ولذا وجب علينا أن نواجه الثقافة الجنسية منذ الطفولة الأولى

هل ينبغى أن يقف الأطفال على هذه الناحية من الحياة أم لا ؟ ...

إلى عهد قريب لايتجاوز بداءة هذا القرن كان يجيب غالب الآباء على هذا بالنفى معتذرين بأن براءة الطفل يجب أن لاتلوث فى سن مبكرة وان مايحتاج إلى معرفته سيجد له فى المستقبل متسعاً من الوقت ، كما يرون أن الأفضل للطفل أن يقف على الحقيقة من زملائه وذلك حتى لايفقد احترامه لوالديه إذا مابحثا هذه المسائل معه شخصياً أو على مسمع منه

وهذا رأى خاطىء ناقشه وأدحضه العلماء والمربون ادحاضاً تاما منذ زمن ، فلسنا بحاجة إلى أن نخوض غماره ثانية

ويمكننا ان نفرض مبدأ رئيساً هو « أن الأمانة فى التثقيف لايمكن أن تؤتى ثمارها الا اذا عنى بسلطة الآباء . فليس أبعث على زعزعتها من أن يكتشف الطفل انه كان مخدوعا » وسنشير إلى هذا الموضوع فيما بعد

وقد وضح ف . مالنج الكاهن بهامبورج رأيه فى ضرورة الثقافة الجنسية المبكرة بقوله « إننى احبذ الصراحة المطلقة وأظن أن إخفاء الأمور الطبيعية تحت رداء الانكار والغش قد يكون أكثر ضرراً من كشف الحقيقة . فان إنسانا قط لم تضره الحقيقة فى شىء بينما قد يتسبب عن التستر الممقوت أعظم الاضرار » ولذا فنحن ننتصر لفكرة تنوير النشء وحينئذ تكون المشكلة هى معرفة كيف ومتى نبدأ هذا التنوير ؟ ويجب أن لانظن أن مسألة تثقيف الطفل واجب صعب غير محدود لأن المربين يمكنهم الاستعانة بمرونة عقل الطفل الذى يسترعيه كل عظيم مدهش « على ألا تطغى عليه المبالغة » وحينئذ تصبح مشكلة تجدد الكائنات الحية شيئاً طبيعياً جداً وسيرى الطفل فى هذا مظهرا لبأس القوى الطبيعية ، فاما ماكشف له عن هذه الاعجوبة فى عبارة ملائمة صادرة عن عقلية سليمة ، مضافا الى ذلك الاحترام المتولد من الحب فلا بد أن يري الطفل فى الطبيعة

البشرية ظاهرة مدهشة ومنبعاً للسرور لا يمت للشهوة أو الرذيلة بصلة. أما الآباء الذين يهملون أطفالهم اهمالا شائناً فيسمحون بمثل هذا الترابط الفكرى يتغلغل فى نفوسهم فلا شك أنهم مخطئون. حتى أن الدكتور جودتشيلد لم يتردد فى أن يعلن احتجاجه الشديد على أولئك الذين اعتادوا قذف شبانهم بين مباهج المدن ومغرياتها دون أن يزودوهم بأكثر مما لو كانوا ذاهبين الى اللجنة

وعلى الرغم من أن الثقافة الجنسية ضرورية كما مر بنا فهى إلى جانب هذا تحتاج إلى حذر شديد ولباقة، ولذا وجب على المربى المسئول أن يحسن تقدير واجبه. فلو عهد بذلك إلى شخص غير كفء فان غباءه ونظرته السوداء المتشائمة للعالم تصبغ روح الطفل بالسوداء، وبهذه الطريقة فان الآباء الذين يحاولون حفظ نقاوة أبنائهم وبراءتهم باخفاء الوظائف الأساسية للحياة الانسانية عنهم سينتهى بهم الأمر إلى نتيجة عكسية لان المعرفة التى سيحصل عليها الطفل فى حياته الخارجية ستكشف له مسألة التناسل عن طريق القصص الوضيع الذى يسمعه من رفاقه والفاسدين من الخدم وكذلك من الصور الفاحشة

ويقص الاستاذ ليمان مثلا من الطرق الفاسدة للحصول على الحقيقة وذلك أن إحدى تلميذاته ساءت حالتها من جراء كبت ميولها الذى سبب لها برودا وفتورا بالغين:

« عندما كنت فى التاسعة أخذت المعلومات الجنسية عن خادمة سيئة الخلق جربت كل أنواع الحب والشهوة والرذيلة وأصيبت بأمراض مختلفة فوق انها انسلت طفلا. ولذا رغبت فى أن تحمينى من السقوط فى نفس الهوة فجعلت لى من نفسها مثقفة تناسلية. ولست أذكر التفاصيل تماما بل كل ما أعرفه انها كانت تصور المرأة كالحمل الوديع، وتصف الرجل الذى يبحث عن إطفاء شهوته دون أن يكترث لما يسببه اندفاعه من نكبة المرأة بالوحش المفترس. وكانت نصائحها فى الشئون الجنسية تتلخص فى العبارة الآتية « كل ما أقوله لك هو أن تحذري الرجل لانك قبل ان تحاولى احتقاره يكون قد أولدك طفلا » . . . ولما كانت قد قطعت صلتها بهؤلاء الوحوش رغم انها تشعر بشهوة جنسية جامحة فقد أخذت تتقرب إلى الفتيات الأخريات من زميلاتها وتحبب نفسها إلى الصغيرات اللواتى عهد اليها أمر تربيتهن فظفرت بصداقتى وتركت فى نفسى شعور المقت والاحتقار والنفور من كل شىء يمت الى التناسليات بسبب »

واننا نعتذر لتفصيلنا فى هذه المسائل اذ ان بعض الناس يعدون ذلك اسرافا، فالكثيرون منهم لا يقدرون الضرر الذى ينتج عن الجهل بطرق التربية الحديثة، ولا نظن أننا نضيع الوقت عبثا فى توضيح بعض النقط، وليس ببعيد ما كتبه الفونس دوديه:

« أما الأطفال فانهم يتلقون كل مايحتاجونه من الطرق والصحف . وأما البنات فلا ينبغي أن يتعلمن شيئا عن وظائف الأعضاء . وعندي أن الأفكار الجديدة مضرة ، وأن الحقائق الجنسية قذرة هادمة . لانها تقلق العقل وتنفره ، وتبعد الفتيات عن طبيعتهن »

ومن المؤسف أن يكون هذا الرأى أكثر إنتشاراً مما يتصوره العقل . ولقد كان هافلوك اليس محقا فى رده على أمثال هؤلاء البيوريتان «المتطهرين» . وقوله « ان مثل قناعتهم كمثل من لا يرى ضرورة لامداد سكان المدن بالماء النقى مادام يمكنهم أن يشربوا من ماء الشوارع الراكد » وانا نكرر القول بوجوب ابعاد الطفل عن الأفكار القذرة والخطيئة عند ماتقدمه إلى عالم الحب وإلا شغل عقله بأفكار ثابتة عن « الجنس » قد تتأثر بها فترة بلوغه كلها

ويكون خطر الجهل الذي وصفناه على أشده عند البنات اللواتى يباغتهن الحيض قبل أن يحذرن ليأخذن الحيطة .

ويصف ادموند دى جونكور فى كتابه « عزيزتى » حالة الخوف التى تتملك الفتاة الجاهلة عند مايلوث الدم ثيابها الداخلية وصفا دقيقا .

وقد وضع تلت طبيب الأمراض النسائية فى القرن الماضى جدولا بيانيا لفترات الحيض عند أعدد كبير من الفتيات أوضح فيه أن ٢٥ فى الماية منهن لم يكن على علم به ، ومن بين هذا العدد ١٣ فى الماية انتابهن ذعر شديد وأصبن بحالات عصبية و٦ فى الماية ظنن أنهن مجروحات فاغتسلن بماء بارد وقد تأثرت صحة الخائفات منهن تأثرا سيئا . وقد كتب انجلمان

« يمرض عدد كبير جداً من الفتيات عند بلوغهن بسبب الخوف والتهيج العصبي والتعرض للبرد فليس أغرب إلى بديهه فتاة صغيرة أدهشها حيض فجأئى لا تعرف له سبباً من أن تحاول ايقاف ذلك النزيف الذي تظنه ناشئا عن جرح . وما دام الأمر كذلك فمن الطبيعى أن تستعمل الماء البارد لتمنع النزف ، حتى ان بعض الفتيات يحاولن أخذ حمام بارد . وقد حدث لفتاة صغيرة أن أصبحت أما مستنيرة بعد أن قاست مدة طويلة من نتائج اخطائها فلم يضع هذا الدرس القاسى سدى إذ أنها تذكرت تجاربها السابقة فثقفت أطفالها . وأمثال هؤلاء الأطفال القلائل قد أسعدهم الحظ فتلقوا التعاليم الضرورية عن صحة المرأة فى فترة الحيض الشهرية »

وعندما يقع نظر الفتاة الجاهلة بأمر الحيض على النزف لأول مرة دون أن تعرف له سببا ينتابها فزع شديد جداً ظنا منها أن هذه الحالة ما هى إلا عقابا لها على مزاولتها العادة السرية وقبولها للأفكار النجسة . وقد لا ترى طريقا أفضل من الانتحار تخلصاً من هذه الحالة

ولقد استشهد الدكتور ستيكل بقصة « حنة » التى كانت كلما سألت والدتها عن أصل الطفل

أجابتها فى كل مرة بأنها يجب ألا تعرف هذه الاشياء القذرة فهى تلوث طهارة روحها . ولكن حنة لم تكن تتوقع أنها هى وأمها وأخوتها مدينون جميعا بوجودهم إلى تلك « الأشياء القذرة » التى أشكل عليها أمرها ولم يتسع لها المجال لتبحثها مع صديقاتها لأن مربيتها كانت تضيق عليها الخناق

وبينما كانت تتسلق احدي القوائم فى درس الالعاب الرياضية شعرت باحساس سار ورأت أنه يمكنها أن تحصل على نفس هذا الاحساس كلما ضمت فخذيها بقوة . وقد كان من الممكن أن تذكر لامها ذلك لولا خوفها من أن تكون تلك اللذة متصلة « بالاشياء القذرة » التى ذكرتها والدتها

وذات مرة استيقظت حنة فوجدت بعض بقع من الدم على فراشها وقميصها وللحال خيل اليها أنها هوت إلى تلك « الاشياء القذرة » فرضت واعتقدت أن هذا عقاب الله لها وستعرف والدتها أنها أصبحت مخلوقة تعسة لا قيمة لها . ففكرت فى التخلص من الحياة ، وعمدت إلى المطبخ وفتحت صنبور الغاز ولكنها أنقذت فى اللحظة الاخيرة بعد أن فقدت الرشد

ولا يكون رد الفعل عند الطفل بهذا العنف دائما ، غير أن الازمة التى يمر بها عند ما يتضح له هذا اللغز الجنسى على غير توقع يكون دائما خطيرا ، ويرجع فرار بعض الزوجات من أزواجهن فى ليلة الزفاف إلى عدم توقعهن لذلك الفعل وان كان هذا قد أصبح من النادر فى الوقت الحاضر ولكن يحدث فى كثير من الاحوال أن تتزوج المرأة وهى مشبعة تماما بالافكار الخاطئة فتكون نتيجة هذه الثقافة الجنسية الخاطئة برود المرأة وعجزها عن ارضاء الزوج ولذلك فكثيراً ما تتحطم السعادة الزوجية لهذه الاسباب

وجهل الفتيات الصغيرات بمسألة ولادة الطفل يحدث أحيانا نتائج غريبة مبهمة ففى الراس مثلا جرت العادة على تفهيم الفتيات أن المرأة تلد من سرتها . وهناك خرافات أخرى تتصل بنفس الموضوع ، فمثلا اذا حملت احدي الفلاحات فانهم يرجعون سبب ذلك الى تفكيرها فى سرتها أكثر من باقى جسمها

ولقد صادف الاطباء كثيرا من الفتيات الحاملات يعتقدن أن حملهن سببه قبلة أو ضمة من يد رجل ملتهب العاطفة . على أن البعض لايعتقد بوجود شيء من هذا فى القرن العشرين . وأن مثل هذه الحوادث إن لم تكن مجرد خيال فهى على الاقل لاتخلو من مبالغة . ولكن معظم الاطباء يقررون العكس ، فان كثيرات ممن أفسدهن ذوو الضمائر المستهترة فلجأن لاستشارة بعض الاخصائيين كن لايعرفن أكثر من معلومات غامضة عن المسائل الجنسية

ولتوضيح ذلك نسوق اليك بعض مقتطفات من كتاب « التربية » للدكتور توتس :

« انى أتذكر تماما أن تلميذة فى الرابعة عشر زارتنى فى عيادتى يوما وقد تأبطت كتبها وبادرتنى

بأنها ماقدمت للاستئناس برأيى كطبيب اخصائى فى أمراض النساء إلا بعد عراك نفسانى شديد، وهى تشكو من قرح حمراء على بعض أعضائها . وقدهالنى عند فحصها أن وجدت خليطا من السيلان والسفلس ، هذا فوق انها تحمل جنيناً فى شهره الرابع وقد انقطع عنها الحيض منذ ذلك الحين . ورغم هذا كله فان الفتاة لاتعرف من أمر نفسها شيئاً

« وذات مرة زارتنى فتاة فى السادسة عشر تشكو شيئاً يتحرك فى احشائها ولما كان فى أسرتها حوادث سرطان كثيرة ، فقد حضرت لاستشارتى على هذا الاعتبار . ولم يكن هذا السرطان سوى جنين فى شهره السادس ، وبالرغم من أن عائلتها كانت دائما تتباحث فى مختلف الشئون الطبية فان أحدا لم يكلف نفسه مشقة شرح الدورة الانثية أو ظواهر الحياة الجنسية »

فسواء ترك الطفل على جهالته او أعطى معلومات خاطئة فالنتيجة هى أنه يفقد ثقته بوالديه .

وبهذه المناسبة نشير الى أن المثل الذى جاء به الدكتور ليمان عن كيفية حصول أحد تلاميذه على المعلومات الجنسية كان مثلا فرديا لايصلح لان يكون أساساً

وهذه الامثلة القصيرة تنقض ما وصل اليه الدكتور ليمان : —

«حدث يوما أن تحدثنا فى كيفية مجىء الاطفال الى العالم . فقال صديقى ان الاطفال يخرجون من بطون أمهاتهم فلم أصدق هذا وسألت والدتى التى اعتراها قلق شديد لهذا السؤال وقصت على قصة ملخصها ان الله هو الذى يرسلهم وأصرت بعد هذا أن تعرف من أخبرنى عن ذلك — وهنا أحسست الخطر يهدد زميلى ارنلد فيما لو صرحت باسمه . ولكنى اضطررت فى النهاية أن أفعل وللحال قصدت والدتى إلى صديقتها السيدة « ب » فكان نصيب ارنلد أن ضرب بالعصا . وكان درساً بالغاً لى . ولم تتمكن والدتى بعد ذلك أن تكسب ثقتى القلبية »

ويحدث مثل الذى ذكرنا من اضرار فى حالة ذكر الحقائق ناقصة لان محاولة مسخ الظواهر الطبيعية الملموسة لايرجى منه أى نفع . وبجانب تلك الاضرار فان لهذه المحاولة خطر آخر فان الطفل لايقنع بالحقيقة المنتقصة بل يحاول أن يصل اليها عملياً كما حاول معرفتها نظريا

لقد نشر فرويد وكثيرون من العلماء كتابات مشوقة عن النظريات الجنسية فى الطفولة ، ومنها نتبين بوضوح ان الاطفال الذين لم يقفوا على شىء قط عن الامور الجنسية أو التى تلقوا عنها معلومات ناقصة قد تطورت نظرياتهم متجهة نحو البحث فى أصل الحياة الانسانية. ولهذه النظريات عناصر مشتركة فهم يعتقدون أن الطفل يخرج من جسد أمه سواء عن طريق السرة أو فى أثناء عملية التبرز . كما يظنون أن نصيب الرجل فى النسل عبارة عن أخذه المرأة بالقوة وبغير رضاها . ويظن معظم الاطفال فضلا عن هذا ، أن ليس هناك فرق بين المرأة والرجل من الناحية التشريحية .

وتخيلات الاطفال الجنسية لاعداد لها ولكنها لاتخرج عن أن تكون خليطا مما ذكرناه

أما طريقة تلقين الاطفال معلومات ناقصة حيث يختلط الصواب بالخطأ فتترك عندهم اعتقادا قويا وخاطئا عن النظرية الجنسية ، وتؤثر هذه الصورة المشوهة فى مستقبل الحياة الجنسية عند الطفل وهى موضوع احلامه سنوات عديدة ، اذ أن البالغ يريد أن يحقق تصورات الطفولة وأحلامها وقد تبع التحليل العلمى كثير من الأخطاء الجنسية فوجد أن منشأها هو شذوذ الاعتقادات ابان الطفولة المبكرة

* * *

وينبغى أن تنظم الثقافة الجنسية وتسير على نفس المبدأ الذى نراه فى ساحات العدل . فالقاضى يكون شديد الشعور بواجبه ومسئوليته فيما يتعلق بمستقبل الطفل وشعاره فى ذلك « الصدق — الصدق كله — ولا شىء غير الصدق » .

ويجب أن تنكشف الحقيقة أمام الطفل تدريجياً لا دفعة واحدة . كما يجب أن تنظم عملية التثقيف الجنسى لتتمشى مع نمو الطفل العقلى ، فمن الغباء مثلا أن تشرح لطفل فى الثالثة من عمره اخطار الأمراض التناسلية

ومما يؤسف له أن بعض الآباء يرى فى الثقافة الجنسية شيئاً وحشياً ومؤلما الى أبعد حد . ولكن الأمر على العكس تماما فالتربية الجنسية ستنتشر فى مدار عدة سنين وتكون موافقة لنمو الطفل . على أن المسألة الجنسية لا يجب أن تكون موضوعا أساسيا أو فصلا محرما من فصول التربية . بل تكون جزءا من تعليم الطفل

* * *

متى ينبغى أن تبدأ الثقافة الجنسية ؟

الاجابة سهلة : فهى عند ما يبدأ الطفل أسئلته المعهودة وحالما يظهر اهتمامه بالمسائل الجنسية . فانه إذا لم ترض رغبته فى المعرفة فسيحاول ارضاء نفسه بنفسه عن طريق آخر كما بينا آنفا . واذن فالوقت الذى نبدأ فيه بتثقيف الطفل تثقيفا جنسيا يتوقف على الطفل نفسه وعلى أى حال لا ينبغى أن يتأخر تثقيفه عن سنته السادسة

فاذا مضى وقت طويل قبل أن يسأل الطفل عن بعض أعضاء جسمه وعن الطريقة التى ولد بها اخوته وأخواته فانه لا بد أن يكون قد أخذ معلوماته من طريق آخر

وبملاحظة هذه المعلومات المستقاة من الخارج فانه من الطريف أن نقتطف بعض إحصائيات طبعها معهد التناسليات فى برلين ، وهى ترينا بشكل قاطع أنه وان كان قد اقتنع بها معظم الناس

فان الثقافة الجنسية مازالت بعيدة من أن تطبق تطبيقا عاما

والاحصائيات التى أجريت على عدد كبير جداً أثبتت أن الثقافة الجنسية عند الأولاد تأخذ مكانها فى عقولهم بالنسبة الآتية : —

من سن ١٠ الى ١٢ ٦٠ فى المماية

من سن ٧ الى ٩ ١٥ «

من سن ١٣ الى ١٦ ٢٠ «

قبل السادسة أو بعد السادسة عشرة ٥ فى الماية

وتبدأ الثقافة الجنسية عند البنات متأخرة عن الأولاد بسنة تقريبا ، ولكن النتيجة دائما واحدة . وعلى كل حال فان ٥ فى الماية من الحالات لم يتثقفن تثقيفا جنسيا قبل سن الزواج . و٦٠ فى الماية يدعين انهن لم يتثقفن أى تثقيف جنسى .

ومن الاحصائيات الأكثر طرافة تلك التى عملت عن طريقة حصول الأطفال على المعلومات الجنسية لأن ١ فى الماية فقط من الحالات كان يستقى الولد معلوماته الجنسية من والديه و٧٠ فى الماية من اجابات تلاميذ المدارس كانت على الترتيب الآتى : —

من زملاء المدرسة ، والأصدقاء ورفاق اللعب والأخوة والأخوات الأكبر سنا والعاهرات والخادمة . والمربية . والوصيفة . . . الخ . .

واجاب ١٠٧ فى الماية منهم بالاجابات الآتية : —

من قراءة الكتب والاطلاع على دائرة المعارف

و٣ فى الماية منهم عرفوا حقائق الحياة من الكتاب المقدس

و٢ « منهم عرفوها بملاحظة الحيوان

وقد كانت بعض الاجابات واضحة تماما : فواحد يقرر أنه تعلم الشئون الجنسية من رفاقه فى اللعب رغما عنه ، وثان أخذها عمن يكبرونه سنا فى أثناء الطريق ، وثالث يقول انه حضر حادث اجهاض عند ماكان فى السابعة ، وآخر يقرر أنه عند ماكان فى الثامنة رأي حالة جماع بين اثنين من زملائه

وقال اثنان انهما عرفا ذلك عند زيارتهما لمتحف بسيط متنقل فى السوق

أما عن طريقة التربية فالأسئلة المحسوسة تحتاج إلى إجابات مثلها

فالصور المأخوذة عن علمى الحيوان والنبات لعمليات الاخصاب تكون عادة قبلة أنظار التلاميذ ولكن الثقافة التى أساسها الزهور وأفراخ الدجاج هى وحدها التى سرعان مايتفتق لها ذهن الطفل

وتترك غريزة حب الاستطلاع عنده ظمأى . وحينئذ يبحث عن مورد آخر لمعلوماته وبذلك يفقد الابوان غرضهما

والثقافة الجنسية تحتاج الى كثير من الخطط الحكيمة والحذق من جانب الأبوين . وسواء كانت الوالدة أم الوالد هو القائم بأمر التربية فهذا يتوقف على نوع الطفل ذكرا أو أنثى

ومن المستحسن أن يثقف الأب ابنه والام ابنتها ولكن الاختيار من ناحية أخرى يتوقف على قدرة الواحد أو الآخر من حيث طريقة الاداء

ولقد تحقق بعض الآباء ضرورة الثقافة الصادقة ، ولكنهم يخطئون الطريقة الصحيحة التى ينهجونها أو تنقصهم المؤهلات التربوية . وهذا النقص يرجع فى الحقيقة الى أن تربية الآباء أنفسهم كانت على أساس خاطىء ، وما دام الامر كذلك فمن المستحسن أن يستعان بطبيب الاسرة أو أحد الاقارب أو الاصدقاء ذوى المؤهلات التربوية . وبالرغم من ذلك فان الوالدين يجب ألا يدخرا وسعا فى القيام بهذه المهمة النبيلة فى سبيل أطفالهما ولسوف يذكرون هذه الثقافة دوما بالشكر كما ثبت ذلك تلميذان من تلاميذ الاستاذ ليمان فقد قال أحدهما :

« ولدت عام ١٩٠٩ وكنت الابن الاكبر لوالدى ويمكن أن أجمل تاريخ ثقافتى منذ الفترة التى سبقت الحرب إلى ما بعد نشوبها . هذا إذا عدوت قليلا من المعلومات الغامضة والثقافة المبهمة .. سافرت الى الريف مع والدي حيث سنحت لى فرصة زيارة حظيرة أعجبت فيها بعجل صغير فسألت والدى سؤالا ساذجا « ايجب فتح بطن البقرة لنخرج منها العجل الصغير ؟ » فافهمنى والدي الطريقة التى يولد بها العجل فسألته « وهل ولدتنى أمى على هذا النحو ؟ » فكان رده بالايجاب . وبهذه الطريقة أستنار أمامى الموضوع . على أننى لم أحصل على معلومات تامة فى الشئون الجنسية كالمبيضين والخصيتين والجماع الخ الا عند ما بدأت دراسة علم الحياة بالمدرسة . وأعتبر أن ملاحظاتى الصغيرة فى علم الحيوان قد ساعدتنى على تفهم المسائل الجنسية أي عكس ما ذهبت اليه الآنسة س.

وقد ذكر الآخر

« حتى اننى عند ما كنت صغيرا لفت انتباهى ما فى قصة اللقلق من خرافة ، ولم أتمكن من معرفة سبب استحالة تطبيق ما يحدث للحيوان على الاطفال وقد عبرت عن رأيى هذا لوالدي الذى لم يتوان فى أن يفصل لى الموضوع تفصيلا ويشرحه لى فى وقار

« ولقد عرفت أن السيدات الغير المتزوجات لا يلدن أطفالا ما دامت أنثى الحيوان لا تحمل من غير ذكر

« ولدقة هذه المعلومات وسهولة الحصول عليها من والدى لم أحفل بعبث زملائى فى المدرسة ولم أعر دعاباتهم التفاتاً »

أما المسألة التى بحثت كثيرا فهى امكان القيام بالتربية الجنسية فى المدرسة من عدمه ، والاجابة المنطقية على هذا السؤال هو أن يتضافر الوالدان مع المدرسة فى هذا الأمر

وهناك آراء كثيرة تميل إلى الأخذ بأيسر قدر من الثقافة الجنسية فى المدرسة ويستحسن أن يعرف الأطفال بعض الشئون الجنسية من معلميهم بطريقة علمية فى أثناء الدراسة ، لا أن يتصيدوها فى غير دقة فى أثناء أوقات اللعب ، لأن معظم الأولاد يعرفون حقائق الحياة الضرورية . ولكنها بطريقة مضطربة مختلفة . ومن المفيد حقا أن يتلقنوا المعلومات الجنسية والأمراض التناسلية بطريقة ايجابية بدل أن يتخبطوا فى شبه ظلمة من الجهل

ولقد طرح الدكتور ماكس هودان أسئلة على تلاميذ تتراوح أعمارهم بين ١٣ ، ١٤ سنة ونظن أنه من المفيد أن نذكر نتائجه التى نشرها ولنبدأ بالأسئلة الخاصة بالأمراض التناسلية التى سأله عنها الانسان : —

١ — هل يمكن شفاء الأمراض التناسلية ؟

٢ — أنضر الأمراض التناسلية بالاخصاب ؟

٣ — هل يمكن أن تعيش المرأة إذا أزيل رحمها ؟

٤ — ماهو عدم التوازن الحركى ؟

٥ — ما هو أصل رطوبة النساء ؟

٦ — هل هناك علاقة بين التضخم والمبيضين ؟ وهل يؤثر تضخم المبيض على وظيفة المبيض ؟ وهل تؤثر هذه الحالة التناسلية عند المرأة ؟

« وقد اتضح فيما بعد أن سيدة من أسرة هذا التلميذ كان قد أجري عليها عملية جراحية »

٧ — مالمقصود بالثدى المصاب ؟ « وهذا يشير إلى التهاب رخو فى ثدى المرضع »

٨ — هل يمكن أن تعيش امرأة بغير رحم ؟

٩ — ماهو الحمل سفاحا ؟ وكيف يحدث ؟

١٠ — ماهو الارتخاء ؟

١١ — ما معنى الفحشاء ؟

« ولبحث هذه المسائل وعلى الأخص المتعلق منها بعلم الأمراض الجنسية يحتاج الأمر إلى معرفة الاعضاء التناسلية عند المرأة والرجل وينجم عن ذلك أسئلة عديدة »

والبنات يظهرن اهتمامهن الشديد بالمسائل المتعلقة بالحيض : —

١٢ — ما معنى انقطاع الحيض ؟

١٣ — كيف يأتى الحيض ؟ وما عندالأولاد فى مقابله ؟

١٤ — هل الفتيات اللاتى يحضن فى سن ١٣ ، ١٤ صالحات للحمل ؟

١٥ — لماذا لم أحض فى هذه السن ؟

١٦ — متى تكون المرأة صالحة للحمل ؟

١٧ — كيف تحيض فتاة فى الثالثة عشر ولم تلد ؟

١٨ — ماذا يعنى بتغير الحياة ؟

١٩ — كيف يتسع عضو الأنثى لمرور الطفل ؟

٢٠ — هل تعيش المرأة بعد الاجهاض ؟

٢١ — وإذا ماتت الام قبل أن تجهض فهل يموت الجنين ؟

٢٢ — ما هى الولادة بالوساطة الآلية ؟

٢٣ — هل يموت الطفل اذا احتاج الأمر إلى عملية جراحية لاستيلاء الام ؟

٢٤ — هل يعيش المولود فى الشهر السابع ؟

٢٥ — هل يمكن الجماع بعد الولادة بأربعة أسابيع ؟

٢٦ — كيف لا تحتاج الزنجيات إلى القابلات ؟

٢٧ — كيف تحمل المرأة ؟

٢٨ — كيف يحدث الحمل ؟ « وهذا السؤال يسبب خجلا وإحراجا عند ايضاح عملية الجماع التى هى موضوع السؤال . ويجب على المدرس أن يكون حاذقا فى إرضاء السائل دون ارتباك »

٢٩ — كيف أن النساء يعقبن أطفالا ؟

٣٠ — هل يمكن للمريضات بالامراض التناسلية أن ينسلن ؟

٣١ — كيف نعلل وجود شامة فى جسم بعض الناس ؟

٣٢ — لماذا يختلف صدر المرأة عن الرجل ؟

٣٣ — لماذا ليس للرجل ثديان كالمرأة ؟

٣٤ — لم لايلد الرجال ؟ « يحاول الطفل بهذا السؤال أن يعرف تقسيم العمل التناسلى والنسل والحمل »

٣٥ — هل للواتى لم يحملن لبن ؟ « وهذا يرتبط بسؤال سأله تلميذ من سكان المدن » هو لماذا تبدر القرة دائما ؟

٣٦ — بماذا نعلل وجود الشعر على البطن ؟

٣٧ — كيف ينمو الشعر على الرأس ؟

٣٨ — لماذا لاتنسل العاهرات ؟

« ثم اتت أسئلة كثيرة عن التوائم والولادة والاجهاض »

٣٩ — هل تصحبه نشوة ؟ « يقصد الانشراح الجنسى »

٤٠ — ماذا يحدث اذا لم يتمكن الرجل من الانفصال عن المرأة ؟ « وقد يكون سبب هذ السؤال ملاحظة بعض الحيوانات الاليفة والحشرات ، التى يبقى بعضها ملتصقا بعد الجماع ، أو لسماع حديث بعض البالغين العارفين » . والانسان يلاحظ قوة الخيال التى تأخذ على الطفل كل تفكيره إذ عند سماعه لحادث عرضاً يأخذه على علاته

ولا شك فى أن كثيرا من الاسئلة ألقيت للحصول على رأى مرضى لشئون يخفونها . وهذه الاسئلة وتنوعها تحدث حججا قوية لصالح التعليم الجنسى المدرسى. إلا أن معظم المناهج المدرسية فى كثير من البلاد تحتاج الى اصلاح تعليمى شامل فى الموضوعات الجنسية ، وبحث هذه الناحية خارج عن موضوع هذا الفصل ، ولذا قد قصرنا بحثنا على التعليم الجنسى فى حدود الاسرة

وفى الختام نقتطف ملخصا من الاخلاق عند قدماء المصريين كتبه « أميليليو » عن والد مصرى كان يلقى على ولده درساً فى التناسل منذ ثلاثين قرناً وهذا يرينا الى أى حد تختلف حضارتنا عن بعض الشعوب القديمة

« دونك مثل أمك التى حملتك عبئا ثقيلا من أجل فائدتك وحدك ، دون أن تركن الى ، فلما وضعتك تكفلت بعبء آخر ، فارضعتك ثدييها سنين ثلاثاً ، ولم ينفرها تبرزك ولم تتأفف يوما مما تفعل . وعندما عدوت تلميذا واظبت على حمل الخبز إلى معلمك ، وكذلك كانت تحمر له الجعة يوميا وأنت بدورك عندما تتزوج وتعقب طفلا عليك أن تربيه كما ربتك أمك »

أخبار اجتماعية

قوانين للعمال

ألقى وزير الصناعة والتجارة خطبة جاء فيها :

أما القوانين التى تمت فعلا فهى :

أولا — قانون تشغيل الاحداث فى الصناعة

ثانياً — القانون المنظم لتشغيل النساء فى الصناعة

ثالثاً — قانون تحديد ساعات العمل

رابعاً — قانون تعويض العمال عن اصابات العمل

هذه القوانين تنفذت فعلا والقانون الأخير آخذ سبيله إلى التنفيذ

وهناك طائفة من القوانين فرغ من بحثها ووضعها فى شكل قوانين وأرسلت إلى قسم قضايا الحكومة وهى :

أولا — قانون تنظيم العلاقات الناشئة عن عقد العمل الفردى بين صاحب العمل والعمال

ثانياً — تحديد ساعات العمل فى محال يومها

ثالثاً — قانون الاعتراف بالنقابات وتنظيمها

أما الطائفة الثالثة من القوانين فمنها بعض القوانين لم تصدر فى أغلب بلاد أوربا إلا فى السنوات الأخيرة . فانظروا كيف تسارع الحكومة إلى انصاف العامل المصرى فتضع قوانين لم يصل اليها العمال فى أوربا إلا بعد دهور ودهور وهى تنحصر الآن فى :

أولا — قانون التأمين الاجتماعى وعلى الأخص بالنسبة للأمراض الناشئة عن طبيعة الصناعة . فهناك صناعات تسبب أمراضاً خاصة تدخل فى ذلك التشريع

ثانياً — قانون التأمين الالزامى ضد حوادث العمل وهذا يترتب على تنفيذ قانون اصابة العمل

ثالثاً — قوانين الصلح والتحكيم بين أصحاب العمل والعمال

فكثيراً ما يحضر إلى عمال يشكون من أصحاب الاعمال فاستمهلهم فيلحون ويدعون لهم حقوقا مهضومة وأن فى يد الوزير نيلهم تلك الحقوق والوزير الآن ليست فى يده سلطة تضطر صاحب العمل للخضوع لمصلحة العمل والعمال

وستقدم هذه التشريعات فى الدورة البرلمانية القادمة

تهمة الكفر

من القطعة التالية التي ننقلها عن أحد الكتاب فى مجلة الرسالة يدرك القارىء مقدار الرجعية في البلاد واتهام الناس بالكفر لأقل سبب وأتفه عذر والكاتب ينتقد النشيد القومي . قال :

المصيبة الكبرى فى هذا النشيد أنه موضوع على مبادىء أنقره من نقل ألفاظ الألوهية والشريعة وصرفها عن الله ودين الله إلى الوطن . وهذا الحاد فظيع إن جاز فى غير مصر لم يجز أن يكون فى مصر

يعين الدين الاسلامى معنى الآخرة ومعنى اليقين بالحساب والبعث ، فيجىء صاحب هذا النشيد فيقول : غرامك يامصر . .

قصاري شعورى دنيا ودين ، وحبك آخرتى واليقين

إذن فلا آخرة ولا يقين بالآخرة

وكما يقال : تعالى الله ، وسبحانه وتعالي ؛ يقول صاحب النشيد : تعاليت يامصر ! !

ويقول الله فى كتابه العزيز عن جنة الآخرة : « تلك الجنة التى وعد المتقون ، فينقلها صاحب النشيد إلى مصر ويقول :

ألست الكنانة فى أرضه « وموعود جنته والنعيم »

إذن فالجنة التى وعد المتقون هى مصر ، والا فما معنى قوله : « وموعود جنته » ؟

والطامة الكبرى قوله : وصوتك يامصر وحى الاله

فمتى أضيف الوحى الى الله فقد تعين معناه وخرج من كل المعانى اللغوية التى تفيدها لفظة الوحى كالاشارة والرمز ووسوسة الشيطان ، ولا يفهم أى مسلم على وجه الأرض من قولك . وحى الله ، أو وحى الاله ، أو الوحى الالهى إلا معنى واحداً . فكأن هذا النشيد موضوع عمداً لافساد عقيدة المسلمين وتشكيكهم فيها وحملهم على اعتقاد خلافها والنزول بألفاظ الألوهية والشريعة وتجرىء الناس عليها

ونحن لا نصدق أبدا أن وزارة المعارف تعمل لهذا الغرض باذاعة هذا النشيد . فان لم تعلن تبرؤها منه وتأمر بابطال اذاعته وتنشر ذلك فى الصحف ، كلها ، فقد وجب على الازهر أن يتقدم إلى المعركة ويفهم وزارة المعارف أن الاله الذى يعبده المسلمون ليس هو الاله رع !! . وسنري ويري الشباب الاسلامى

ازدياد الجرائم

حسبنا دليلا على خطر ما صار اليه أمر الامن العام من جراء كثرة الجرائم ان البلاغات المقدمة لنيابات المحاكم الجزئية ارتفع عددها من ٣٧٩ الف بلاغ فى سنة ١٩٣٢ الى ٤٢٤ الف بلاغ فى سنة ١٩٣٣ ثم طفر الى ٥١٩ الف بلاغ فى سنة ١٩٣٤ — ٣٥

فاذا أضفنا البلاغات المقدمة للنيابات المركزية لبلغ مجموع البلاغات فى السنة الأخيرة ٨١٦ الف بلاغ ، أي أن كل عضو من أعضاء النيابة يجب أن يتصرف فى نحو ٣٦٠٠ بلاغ فى السنة !

كذلك ارتفع عدد الجنايات من ٦٩٥٧ جناية فى سنة ١٩٣٢ إلى ٧٣١٥ جناية فى سنة ١٩٣٤ الى سنه ١٩٣٥ ، وبلغت نسبة الجنايات المحفوظة فى السنة الاخيرة ٥٠ر٥ فى المايه ، وبلغت نسبة الحفظ فى جنايات القتل ٦٧ر٨ فى المايه و ٥٨ فى المايه فى الشروع فى القتل و ٥٦ فى المايه فى السرقة

وكان من نتيجة هذا ان الجنايات تقدم للمحكمة بأدلة ضعيفة ، مما أدى إلى أن محكمة الجنايات حكمت بالبراءة فى حوالى ربع ما قدم اليها من جنايات القتل ، ومعنى هذا ان التحقيق لا يثبت التهمة الا على عشرين قاتلا من كل مائة قاتل ، وان ثمانين قاتلا يفلتون من العقاب !!

وقد اقترحت لجنة المالية علاجا لهذه الحالة رفع الأعمال التافهة عن كاهل أعضاء النيابة المحققين والتوسع فى تدريس تحقيق الجنايات العملى ، وان يتفرغ للتحقيق بوليس قضائى تابع للنيابة . كما اقترحت زيادة عدد موظفى النيابات

وهذه هى الخطوة الاولى . أما الخطوة الثانية المتممة لها فانها تخصيص القضاء . ليستطيع القاضى الجنائى المتخصص أن يتفرغ للعلوم الجنائية والاجتماعية التى تزيد طمأنينته الى الاحكام التى يصدرها وتعينه على تعيين النزاع بين الاتهام والدفاع وتساعده على تطبيق تقارير الخبراء بعد تقديرها وجلاء غوامضها . بعد أن دلت الاحصاءات الرسمية على أن حالة العمل الراهنة لا تسمح بتقديم القضايا الجنائية بأدلة قوية كافية لانارة السبيل أمام القاضى . وان عدد الجنايات والجنح والمخالفات التى ينظرها القضاة الجزئيون قد بلغت فى سنة واحدة نحو نصف مليون يضاف اليها ثلث مليون قضية مدنيه

جيسيل والربا

يجهل كثيرون هذا الاسم ولكن الذين يدرسون الاقتصاديات الحديثة التى لا تلتزم قواعد النحو والمعروض يعرفونه لانه يفتح بابا للتفكير فى حل الازمة

فانه يقول أن نظرية الربا يجب أن تعكس فبدلا من أن يؤدى المدين فائدة الدائن يجب أن يؤدى الدائن هذه الفائدة . وهذا بالطبع كله غريب ولكن عند مانفهم النظرية لا نرى أنه يخلو من العقل ذلك أن جيسيل يقول ان جميع المنقولات التى نملكها تفقد شيئا من قيمتها بمرور الزمن إذ هى تبلى ويأكلها السوس حتى ولو لم نستعملها بل هى أحيانا تفقد قيمتها لأن اختراعا جديدا يأخذ مكانها مهما حافظنا عليها وأحطناها بالصيانة والنظافة . ولكن النقود لاتبلى فحامل النقد يمتاز على حامل البضاعة بأن نقده لايبلى . وتكون النتيجة أن الناس يكنزون نقودهم فيؤخرون الحركة التجارية والنشاط الصناعى أو هم لايقرضون إلا بفوائد عالية ولذلك يقترح جيسيل أن تفرض الحكومة ضريبة على أوراق النقد جميعها بحيث تفقد كل ع م خمسة فى المائة من قيمتها حتى إذا مضى عليها عشرون عاما أصبحت صفراً . وطريقة ذلك أن يبين على البنكنوت تاريخ صدوره فاذا مضى العام الأول وضع حامله عليه طوابع بقيمة ٥ فى الماية من أصله . وهذه الضريبة تقابل ما يصيب المنقولات من بلى

ويرمى جيسيل من وراء ذلك إلى جملة أغراض أولها العدل والمساواة بين حامل النقد وحامل البضاعة ، وثانيها تشجيع حامل النقد على شراء البضاعة حتى يروج الأخذ والعطاء . وثالثها للتشجيع على الاقراض بلا ربا

والحق ان الفكرة تستحق الدرس

جني القطن

حملت الينا الصحف الاميركية الواردة فى البريد الأخير أن المستر ماك رست نزيل ممفيش « تنسى » قد امتحن فى حقول ستونفيل فى ولاية مسيسى الآلة التى اخترعها لجنى القطن فأسفر امتحانها عن نجاح ولكن بعض الذين شهدوا امتحانها لا يزالون يشكون فى نفعها الكامل

جرى امتحانها فى حقل مزروع قطناً بحضور مائتين من خبراء زراعى القطن . وهى آلة ضخمة طفقت تسير بين صفوف شجيرات القطن فتمد مردانها الفولاذية الشبيهة بالأيدي وعددها ١٣٤٤ إلى القطن فتجنى منه القطاف وتلقيه فى محافظه دون أن تضر بالنبتة أو بالقطن غير الناضج فتمكنت من أن تجنى فى ساعة أكثر مما يستطيع أن يجنيه عامل باليد من مطلع الشمس إلى مغربها

ولم ينكر أحد من الذين شهدوا امتحان هذه الآلة مقدرتها على أن تجنى القطن بسرعة . وقد رأوها تقطف فى ثمانى ساعات ما يقتضى لقطفه اثنين وثمانين رجلا فى مثل ذلك الوقت ولكن كثيرين منهم لايزالون يشكون فى اكتمال نفعها لأن القطن الذى تجمعه لايجيء بالنظافة المعهودة حين تجنيه الايدي

على أن الكثيرين يخشون أن يؤدي نجاح هذه الآلة إلى الاستغناء عن الايدى العاملة فيلحق

ضررها بمئات الألوف من الزنوج الذين يشتغلون فى جنى القطن فى الولايات الجنوبية الاميركية

الكتاب المقدس

أعلنت جمعية الكتاب المقدس الانجليزية انها طبعت من الكتاب المقدس فى العام الماضى إحدى عشر مليون ونصف مليون نسخة وهذا المطبوع ليس فى لغة واحدة بل فى أكثر من مائة لغة وفى هذه الارقام ما يطمئن ازاء موجة الالحاد التى عمت روسيا . وبدهى ان بعض هذه النسخ المطبوعة قد أستعيض بها عن نسخ قديمة قد بليت فاشتري صاحبها غيرها من النسخ الجديدة . ولكن ليس من شك أيضاً فى أن ازاء موجة الالحاد التى تعم روسيا وتخرج منها نجد موجة ذهنية أخرى هى رغبة الجماهير فى التدين واقتناء الكتب المقدسة

الثقافة الانجليزية فى مصر

نشرت الاجبشن مايل مشروع نظام لتأسيس « اتحاد انجليزى مصري » وقالت ان هذا الاتحاد سينشأ فى شهر دسمبر القادم حينما يعقد اجتماع عام يعرض عليه هذا المشروع لاقراره

ويؤخذ من هذا النظام أن مقر الاتحاد سيكون فى القاهرة وأغراضه هى ترقية العلاقات الخاصة بالطلبة وتبادل الثقافة بين مصر والامبراطورية البريطانية وتعزيز روح الصداقة بجميع الوسائل الاجتماعية والفكرية بين الانجليز والمصريين وترقية مصالحهم

ويتألف الاتحاد من المصريين الذين تعلموا فى معاهد بريطانية وتشبعوا بروح ثقافتها ومن الانكليز المقيمين فى القطر والذين يفهمون روح الشعب المصرى وعاداته ويساعدون على تنمية روح الاخلاص والمودة بين الشعبين

ويدير الاتحاد مجلس تنفيذى مؤلف من ٢٤ عضوا ويجتمع على الاقل أربع مرات فى السنة للنظر فى الحالة المالية وفى سير أعمال الاتحاد ويكون له الحق فى انتخاب لجان خصوصية وتخويلها ما يلزم من سلطة لحسن سير الاعمال . وله أن يسن أو يعدل أو يلغى التعليمات الخاصة بالاتحاد طبقا لدستوره

وللاتحاد أن يرخص بانشاء اتحادات فرعية له يكون كل منها ممثلا بعضو فى المجلس التنفيذى

وأقل مبلغ يدفعه العضو بصفة اشتراك سنوي هو ٨ جنيهات تدفع مرة واحدة أو على أربعة أقساط

وأقل مبلغ يدفعه الاتحاد الفرعى للاتحاد المركزى هو ١٢ جنيها . وكل من يكتتب بمبلغ ٥٠ جنيها دفعة واحدة يعتبر عضوا مدى الحياة . ولا يجوز للعضو المستقيل أن يرجع على الاتحاد بما دفعه

ويعقد الاتحاد المركزى اجتماعا عاما سنويا فى شهر دسمبر ويجوز عقد هذا الاجتماع بصفة استثنائية ويشترط أن تتوافر ثلاثة ارباع أصوات المجتمعين فى حالة سن القوانين أو تعديلها أو الغائها ويكون اعطاء الاصوات دائما بالاقتراع السرى

تقدم العلوم والفنون

قوميتنا الفرعونية

لولا اللغة العربيـة التى تعتبر بحق صلة الوصل بيننا وبين الامم الشرقية والعربية لبعدت شقة الخلاف بيننا وبينهم لاختلاف العوائد والمشارب والاخلاق . فالمسألة فى الحقيقة يجب ألا يكون دين أو العصبية تأثير فيها . والقومية تدعونا أن نبعث فى نفوس أولادنا مصريتهم ، وان نهيء لهم أسباب تعلم تاريخهم المجيد الحافل والعظمة كى يعلموا انه انما من مصر اشتقت مدنيات الامم الاخرى ، وانه عن مدنيـه مصر نقل الاغريق والرومان والفرس والعرب فسوف يـكون ذلك أشد سحراً فى قلوب الاطفال من تعاويذ أجدادهم الاقدمين وأكبر أثرا من تمائمهم فيحفزهم ذلك الى ذروة العظمة والكمال

والآن لنرجع الي الموضوع فـكثيرا مانسمع من المتـكلمين باللغة الدارجة ألفاظا لانفقه لها معنى . واذا تأملناها وجدنا انها لاتمت بصلة الى اللغة العربية . كما انها ليست من أصل يوناني او اندوجرمانى . ولاصلة بينها وبين التركية فنحار فى أمرها . ونتصور انها كلمة عربية محرفة ونحن هنا لانريد أن نتعرض لأسماء الامـكنة والبلاد التى معظم أسمائها مصرى « كدمهور » أى بلدة « حوريس » . وهو اله مصرى معروف . « والفيوم » أى « البحر » . « وابو صير » أى « بيت اوزريس » وكلها لاشك فى مصريتها ، وانما نريد ان نذكر مانراه محشورا حشراً فى لغتنا العربية الدارجة . فمثلا أغانينا الشعبية مملوءة بالالفاظ المصرية القديمة التى تمر علينا دون ان نلاحظها ويكفى للدلالة على ذلك أن مفتاح معظم اغانينا هو مصرى قديم وهو كلمة « ياليل » فليس المقصود من هذه الـكلمة نداء الليل او مناجاته لان ذلك لامحـل له فى مقام السرور والانشراح . بينما نرى الشعراء ينسبون الليل الي الهموم والاتراح . وقد قال امير الشعراء امرؤ القيس :

وليل كموج البحر ارخى سدوله   على بأنواع الهموم ليبتلى

ومما لاشك فيه انه لاصلة بين الليل والعين حتى تقرن به فى « ياليل ياعين » . كل ذلك مما يرد الى ذهن الباحث المدقق . والحقيقة ان أصل الـكلمة ومعناها يزيلان الالتباس والحيرة . فالـكلمة مصرية قديمة ومازالت محفوظة فى اللغـة القبطية « ليلى » الى الآن ومعناها سرور او فرح

وقد وردت فى النصوص القبطية : « افرحي أيتها العذراء » « ليلى أؤدى بارتينوس »

فالمعنى فى « ياليل ياعينى » هوافرحي ياعيني . واذا ذهب احدكم الى الصعيد لسمع فى اغانى الاهلين كثيرا من الالفاظ المصرية القديمة . فمن اغانيهم : « ياهوايا مريسى . نشف لي قميصى » « ومريسى » أى قبلى . والهواء القبلى حار عادة يوافق طلب المغنى . ومن اغانيهم ايضا : « هوب هوب يازرع النوب . هوب هوب . فتلنى الشوب » وكلمة « هوب » معناها الشغل « ونوب » تعنى ذهب . « شوب » كلمة مصرية محرفة قليلا عن « ضوهب » ومعناها الحرارة . فكأن المغنى يقول : « الشغل الشغل يازرع القمح (وهو مايعنيه بالذهب) الشغل الشغل فتلتنى الحـرارة » . وربما كانت هذه احدى اغنيات وقت الحصاد

والعبارات المصرية القديمة متغلغلة فى معظم نواحى تعبيراتنا فتسمع الاولاد فى الشوارع يقولون فى اوقات المطر « يامطرة رخي رخى » وكلمة « رخ » هى مصرية قديمة معناها « يغسل » وفى اصطلاحاتنا أمثال « شبار عليه » . وكلمة « شبار » قديمة ومعناها « عجائب »

وقد نسمع لفظا فنتصور انه عربى . فاذا انعمنا النظر ظهر لنا عدم امكان ذلك لعدم موافقة المعنى . فمثلا « آه يا كاسى » يظن البعض ان كاس هذه هى كلمة « كأس » العربية . فلا يكون هناك معنى فى التوجع بالكأس . والعادة ان يتوجع الناس من رؤوسهم وقلوبهم فيقولون : « آه ياقلبي آه ياراسى » . أما تفسير ورود كلمة « كاس » هنا فبسيط وهو ان الكلمة قديمة ومعناها « عظم » فكأن القائل « آه يا كاسى » انما يقول « آه ياعظمى »

وحتى أولادنا الصغار فانهم يبدأون حياتهم واقوالهم بالكلمات المصرية القديمة فيقول الطفل « ممـا » عند مايريد الاكل وهي مصرية قديمة غير انها محرفة ومدغمة ومعناها « اعطنى آكل » ونقول للطفل الذى بدأ يتعلم المشى « تاتا تاتا خطى العتبة » فكلمة « تاتا » مصرية قديمة ومعناها « دس او اوطأ بقدمك » واذن يكون الشطر الثانى من الجملة موضحا للشطر الاول ومناسبا له . كذلك فى التخويف ترد كلمة « بخ » وهى مصرية قديمة . وتعنى العفريت « الجنى » وهي مكونة من كلمتين « بى » وهى أداة التعريض للفرد الذكر . و « واخ » وهو الاسم

ضربنا بعض الامثال لما هنالك فى لغتنا الدارجة من الالفاظ المصرية القديمة . ويوجد خلاف ذلك مئات ومئات من الكلمات التى نستعملها كل يوم ولا نفقه لها معنى مثال ذلك قولنا « حمرأ » فى المغالطة فى اللعب « وجاى » اذا استغثنا . وكلها مصرية قديمة . كذلك ترد علينا كلمات أو أسماء نحار فى رجعها الى أصلها مثل « بصارة » « ومدمس » . « وقرصة » للفطير الخاص بالصدقة فى الجبانة وكلها مصرية قديمة

عبد الهادى حمادة

احياء الآداب العربية

تهتم وزارة المعارف هذه الايام باحياء الآداب العربية وستنفق آلافا من الجنيهات على طبع الكتب العربية . وهذا حسن . ولكن أحسن منه أن تنشر المؤلفات الاوربية الحديثة التى غيرت الذهن الاوربى ودفعته الى التقدم . وقد نشك نحن فى قيمة هذا التقدم ولكن قيمته فى تنازع البقاء لاتنكر . والأمة التى لاتأخذ عدتها منه تنهزم

ونهضة وزارة المعارف الحاضرة تعد رجعية بالمقابلة الى نهضة محمد على . فان مصر فى ذلك الوقت أى قبل مائة سنة فكرت فى العلوم الاوربية وبعثت البعثات لباريس لهذا الغرض . ومن الضرر الكبير أن نجعل الثقافة العربية أساساً للتفكير الحديث . فانه ليس لهذه الثقافة أية قيمة سوى القيمة التاريخية . وهى أسوأ عدة ذهنية لشاب حديث

وهذه النزعة الى احياء الثقافة العربية وتاريخ العرب وحضارة العرب وآداب العرب ولغة العرب قد كلفتنا الى الآن ألوف الجنيهات . وهى عقبة فى توجيه الامة نحو الحضارة الحديثة أى حضارة أوربا . ويكفى القارىء أن يعرف أن هذه النزعة كلفتنا فيما يسمى « المجمع اللغوى » أكثر من أربعين الف جنيه . ولم ننتفع من هذا المجمع بما يساوى أربعين مليما

ولو أننا ترجمنا من الكتب الاوربية الحديثة خمسين أو مائة كتاب بهذا المبلغ الضخم لانتشلنا البلاد من وهدة الرجعية ونهضنا بالذهن المصرى الى مستوى عال من الثقافة العلمية المفيدة

الصحة والعبقرية

مما يستغرب كثيرا أن انتشار قواعد الصحة الوقائية والقدرة على مكافحة الامراض قد زادت متوسط العمر فى الامة ولكنها لم تزد عدد المعمرين . فالناس الآن لايموتون فى الامة المتمدنة كما كانوا يموتون قبل خمسين سنة . ومعنى هذا ان الأطفال قد قلت بينهم الامراض المميتة وكذلك الشبان بل كذلك الكهول . ولكن الذين يبلغون الثمانين أو التسعين فى انجلترا أو أسوج أو ألمانيا لم يزد عددهم هذه السنين على ما كان عليه قبل خمسين سنة

وكذلك تفشت الثقافة وأصبح مستواها بين جمهور الامة أعلى مما كان قبل خمسين سنة ولكن عدد العبقريين الآن لم يزد على ما كان عليه قبل خمسين سنة حين لم تكن الثقافة متفشية الى الحد الذى بلغته فى أيامنا

فاذا فرضنا ان العبقرى فى صحة الذهن كالمعمر فى صحة الجسم أمكننا أن نقول ان كليهما لم ينتفع بالتقدم الصحى أو الثقافى فى الامم المتمدنة

الثقافة الصحية

عن الدكتور شخاشيري

تدريس علم الصحة فى المدارس لايكفى اذا كانت المعيشة فى البيت مظلمة أو على نور من العلم ضئيل . ونشر الثقافة الصحية فى البيت قد يفيد أضعاف مايفيد علم الصحة فى دور العلم . وكل طبيب مفروض عليه الالمام بما يعود على الجسم بالصحة ولكن هل يعمل كل طبيب بحسب مايفرض عليه ذلك العلم ؟ وغسل اليدين والفم قبل الاكل وبعده لازم لزوم الطعام للجسم ولكن هل تقدر أن تفيدنى عن معدل الذين يفعلون ذلك منا فى كل مئة أو ألف ؟ وهذه الظاهرة هى أول مظاهر الثقافة الصحية فى أمة تريد أن تعيش هادئة وفى جو سليم من الأمراض . وتنظيف الاسنان ظاهرة ثانية وهى كما تعلم ضرورية ليس لصحة الاسنان فحسب ولكن لصحة الجسم . والواجب أن يكون لكل تلميذ وتلميذة ورجل وامرأة فرشاة أسنان ، واذا كلفت أحصاء هذه الفرش فهل تجدها مطابقة بعددها لعدد من فى البيت من الاشخاص . ثم ان المعيشة المضطربة ظاهرة ثالثة ولكن قد يكون لنا عذر فى عدم انتظام معيشتنا ولاسيما فى هذه الايام . والنظافة يجب أن تكون مرعية فى كل ناحية من نواحى الحياة ومظهراً من مظاهرها فى الثياب التى ألبسها على جسمى والتى أظهر بها وفى الطعام الذي أتغذى به وفى الماء الذي أشربه والذى أغسل به . وفى الفراش الذي أنام عليه . وفى الكأس الذى أشرب بها . والطبق الذي آكل منه . والملعقة والشوكة وغيرذلك . وكل مايتعلق بالانسان ويحتاج اليه فى معيشته يجب أن يكون نظيفا . وظاهرة النظافة من الدلائل على الثقافة الصحية وهى تمتد بأثرها فتمنعنى من أن لا أشرب من كأس قد شرب بها غيرى ولو كان ابنى قبل أن أغسلها ولا أنشف بمنشفة ليست لى ولا أسعل ولا أعطس فى وجه من يكون يكلمنى ولا أبصق فى غير منديلى . وفى حالة المرض لا أزور أحدا ولا أزار من أحد ، فطفل يولد فى مثل هذه البيئة وينمو على تلك الاصول والمراعاة ينشأ ولاشك قويا فى الجسم والعريزة ويكون حظه من الصحة والحياة موفورين . وحظ امته من ثقافته جد كبير ، وعلى هذه الثقافة يقوم مجد الامم فأوربا وممالكها وشعوبها لم تبلغ مابلغته من التقدم والرقى فى مختلف العلوم والصناعات والاختراعات إلا بعد أن نضجت ثقافتها الصحية فى أبنائها . والشرق لايقوم من كبوته ويضارع الغرب فى العلوم والفنون الا اذا نضجت فى أبنائه هذه الثقافة الصحية وقامت أصولها على مناهل العلم ورياضه . ليس بعلوم الجغرافيا والتاريخ والهندسة واللغة والفقه وأشباه هذه العلوم التى تدرس فى مدارسنا وتحشر أصولها فى عقول أبنائنا تنهض ونقف على أقدامنا ، انما بالثقافة الصحية وبتلك العلوم جميعا نستطيع أن نسير مع قافلة الامم الراقية جنباً الى جنب فى غمار هذه الدنيا وملماتها

حديث الأدب والأدباء

الفن الجميل

من مقال للاستاذ محمد سعيد لطفي بك في الراديو

فى ظلمة الليل وأنت ترقب نجوم السماء تفكر فيما أهمك أو فيما ترجو ، تمر بك صداحة تغرد فى الفضاء فتلهم النفوس المستعدة الرضى بما قسم وتسدل على الهموم ستراً رقيقا . تلك هى قمرية الوادى تؤدى كل ليلة واجبها لاسعاد البشر والترويح عنه

هذه القمارى لها لسان ولها لهاة تتلو بها المزامير رحمة بالعباد ، وقد تعانى وهى تغرد ألم الشوق ولهيب البعاد

هذه القمارى تبعث السكينة والسلام وترسل تحنانها بشرى ورحمة وهى تذكر الفها صرعه الصياد أو صيدها خطفه الأولاد . ولكنها مهما سجعت باكية أو شاكية حركت أوتار القلوب وهزت عواطف الحنين والرجاء

ليست الطيور كلها بلابل وقمارى وبنات هديل ، فللبعض أصوات لايقرها الفن الجميل ولا تسجلها الموسيقى

كذلك الناس من أصواتها مايسحر القماري ومن تواقيعها مايخجل العندليب ، ومن الموهوبين من اذا قال ياليل ، وقف الليل فى خشوع يستمع الى نجواه ، و نثرت عليه الكواكب من أنوارها جلالا تتحلى النجوم اللامعة بجلاله

من هؤلاء الموهوبين سيد درويش طيب الله ثراه . أخرج للناس فنا جديدا هو ترجمان النهضة المصرية وصورة جميلة للأمل المرجو والمستقبل الوثاب

ما كتب الخلود الا للنوابغ وهم عصب الدولة الحساس وقلبها الخفاق ولسانها الناطق . يدفعونها الى السمو فتتبعهم كما يتبع الخيال صاحبه ويدعونها بمواهبهم الى السمو الشهى والخيال الممتع حيث يطيب العيش وتنعم الحياة . الى هؤلاء النوابغ يهدى الخلود او سمته فيبقون على مر الاجيال أساطين فن وأساتذة ثقافة . من عرف لهم قدرهم ذاق من حلو الفن ماطاب . ومن أنكر عليهم نبوغهم حرم نفسه لذة الدنيا ونعيم الحياة

ما أخطأ الناس إذ أعطوا لهؤلاء الموهوبين ماشاءوا من مال فانهم أطباء النفوس يسقونها شرابا طهورا شافيا ويسمعونها ماتريد ، وقد يبلغونها أقصى ماتريد وفوق ماتريد . اذا جلس الموهوب على كرسى حكمته واستلم صولجان مهنته ونادى على الهموم بالزوال فزالت ، ودعا جوارى الفنون فلبت ، ورجع ترجيعه العذب الحنون . فالله أكبر الله أكبر . وما أخطأ الناس يوم يكرمون من سافر منهم الى الدار الآخرة لأن فنه باق ونبوغه محفوظ والجمال والجلال يرفرفان على تواقيعه . وما تقدمه لسيد درويش هو بعض مايجب من عرفان للجميل وتقدير للمواهب

مصر والبلاد العربية

من مقال للدكتور عبد الوهاب عزام في الرسالة

بين مصر والبلاد العربية كل مايؤلف بين الأقوام من وشائج القربى والتاريخ ، وكل مايحكم القرابة من عقائد وعواطف وآلام وآمال ، وكل مايؤكد الأخوة من حقائق ومنافع . والكلام فى هذا تبيين مالا يعوزه البيان

يذهب المصرى إلى أحد الأقطار العربية فكأنما برح بقعة فى مصر إلى أخرى ، يري وجوها يعرفها ولا تنكره ، ويسمع من أحاديث الماضى والحاضر مايسمعه فى بلاده ، ويحدث عن الهموم والمطمح التى تنطوى عليها نفسه ويخفق بها قلبه . حيثما توجه وجد أهلا بأهل واخوانا باخوان ، وابصر من ذكر التاريخ ، ومشاهد الحاضر ، وخطط المستقبل ، مايوحى اليه أنه فى وطنه وبين قومه . وكأنه لايذهب إلى هذه البلاد إلا ليرى بعينيه ماحدثه به التاريخ وأحكمته فى نفسه النشأة والتعلم

ذهبت مرات إلي فلسطين والشام والعراق ، فكان يخيل الى أينما سرت أنى لا آخطو إلا على صفحات من التاريخ المجيد . ولا أرفع بصرى إلا الى عنوان من عناوينه فى صورة مسجد ، أو مدرسة . أو قبة حنت على عظيم من أسلافنا أبطال الاسلام والعربية . وطوفت فى العراق مدنه وقراه ، وحضره وباديته ، فكانت بغداد عندى القاهرة ، بل أجل ذكراً ، وكانت الكوفة والبصرة والموصل أعظم أثراً فى نفسى من طنطا والمنصورة وأسيوط ، وكانت مضارب شمر وبنى تميم أذهب بى فى التاريخ من مضارب القبائل المصرية . وأما دمشق الجميلة الجليلة فما دخلتها إلا ازدحمت على أحداث التاريخ ورفعتنى مواكبه فسارعت الى الجامع الأموي أنشد قول شوقى :

هذا الاديم كتاب لا كفاء له ... رث الصحائف باق منه عنوان

ولست بدعا فى هذا فما أحسب مصريا ذهب إلى هذه البلاد إلا شعر بما أشعر به

وليس الامر بيننا تشابك أقوام واتصال أوطان فحسب ، ولكنه الحب المؤكد ،والود الصريح ينطق على ألسنة القوم ، ويتجلى فى أساريرهم ، ويبين فى أعمالهم ، ويشهد به اهتمام القوم بكل صغيرة وكبيرة فى مصر ، وتحدثهم عن علمائها وأدبائها وأحزابها وقادتها حديث المحب العارف الخبير ، وحرصهم على قراءة ماتخرجه مصر من كتب ومجلات وجرائد . وكثيراً مانري فى الشام والعراق من يعلم عن مصر أكثر من أبنائها . واذا تحدث هؤلاء الاخوة الكرام عن مصر أشادوا بذكرها ، وأكبروا حضارتها ، وأعظموا مآثرها على العربية والاسلام ، معترفين مغتبطين لا جاحدين ولا كارهين . وعدوا مجدها مجدهم . وعزها عزهم . وفخروا بها كما يفخرون ببلادهم

وتطلع البلاد العربية إلى مصر . وانزالها هذه المنزلة أجدى الوسائل إلى التقريب بينها.وتوحيد سننها فى التربية والتعليم . والتأليف بين أبنائها . ولم يأل اخواننا جهداً فى التودد والتقرب . فماذا يجب على مصر ؟ ليست مصر أقل شعوراً باسلامها وعربيتها . ولا أضعف تقديراً للوشائج التى تحكم بهذه البلاد أواصرها . والمصالح التى توثق بها علائقها . ولكن التاريخ السياسى فى العصر الاخير فرق بين هموم مصر وهموم أخواتها . وشغلها بغير الذى شغلوا به . فلما أفاقت قليلا الى نفسها وموقفها بين الاقطار والامم لم يلحقها شك فيما بينها وبين أخواتها من أواصر وعرى لاتقوى الحادثات على فصمها . وكلما خف عنها عبء المصائب ازدادت شعوراً وبصراً بمكانتها بين اخواتها وما يجب عليها

على مصر إن ترعى القرابة وتجزي الود بالود ، وعليها أن تضطلع بالتبعات التى تحملها إياها ثقة البلاد العربية بها ، واقامتها منها مقام الأخ الاكبر . أسمع أحيانا بعض المتحدثين بهذا يقولون إن على مصر أن تستغل هذه الثقة ، وحاشا لله أن يكون الأمر استغلالا أو اتجارا ، إنما هو أخوة ومودة وتبعات وواجبات ، وتعاون على الوقوف فى معترك الحياة ، وتآزر على بلوغ الغاية التى تلتقى عندها مقاصدنا جميعاً ، يجب على مصر أن تصلح نفسها وتكمل حضارتها ، وتعمل مايوافق مكانتها وتسن السنن الصالحة لنفسها وغيرها . يجب عليها ان تشارك فى السراء والضراء ، ولا تقف بمعزل فى مصائب البلاد العربية ومسراتها ، بل تشارك جهد اليد واللسان والقلب . وعليها ألا تألو جهدا فى امداد من يستمدها ، وبذل ماتسأل من معونة فى العلم والادب وغيرها موحية إلى كل مصرى يذهب إلى البلاد العربية أنه يذهب ليؤدى واجبا ويعاون أخا ، وأن واجبه حيثما كان من هذه البلاد كواجبه فى مصر ، وأن مقصده الأول أن يبذل من قواه على قدر طاقته ، لايبغى جزاء ولا شكورا ، وان لم يقصر إخواننا فى الجزاء والشكر

ادبنا القديم

من مقال للاستاذ جبران مسوح فى الجريدة السورية العربية (بونا سيرس)

لا يمكن أن يكون للقديم قيمة ما لم تكن له أفضلية على الحديث

بعض الافكار تسير فى طريق الخلود لوحدها فكل عصر يراها أمامه . البعض الاخر يجرّونها جرّا فالذى لم يمت منها اليوم سوف يموت غدا

أرجو من القاريء أن يطيل اناته دقيقة واحدة ويقرأ العبارة الآتية :

« شاعر قوله هذر . يظلم الناس والبقر . وهو الابلج الأغر . طار والصحب فى الاثر . يسألون ما الخبر . ابراق من البشر : جاوز الشمس والقمر ! واستوي ثم واستقر ؟! انها محنة القدر ، والاعاجيب تنتظر »

وانى لا استغرب الآن اذا سألنى القارىء — اذا كانت هذه الكتابة عربية .. والارجح انها عربية لانها وردت فى مجلة تصدر فى وطننا العزيز وهى قطعة من مقال كله من هذا الطراز . وبما انك قد بلعت ريقك وارتحت قليلا فمن فضلك دقيقة ثانية واقرأ قطعة ثانية منه :

« حاكم غره الملق . فتترى به التزق . جاوز الحد وانطلق يتبع الجهل والخرق . قيل رفقا فما رفق . يشترى باطلا بحق . فهو اليوم فى الأفق . وغدا موعد النفق . ليته بر أو صدق . ليته لم يكن فسق . جل ربى الذى خلق . رزق الحكم من رزق . دبر الملك فاتسق »

انتهت والحمد لله . .

الى الآن يوجد بين كتابنا من يستعملون هذا النوع من « الأدب » وهم على الغالب لا يعرفون غيره . والمصيبة فى الأمر أن هؤلاء الأفاضل يريدون أن يكون لهم قراء وأن يطلق الجمهور عليهم اسم أدباء . واذا لم يتم لهم كل ذلك فتكون الامة كلها جاهلة والادب عديم الانصار والنبوغ ضائع بين أهله الخ

والحقيقة أنك لو جمعت عشرة الاف قارىء معهم مئة مدفع وعشر زحافات وكمية من الغازات السامة ثم اطلقت عليهم هذا المقال لكان كافيا لتفريقهم شذر مذر وجعلهم جميعا أن يولوا الادبار

وقد لا يكون غريبا وجود مثل هذا « الكاتب » حتى فى عصرنا هذا يسطر مثل هذه « الدرر » وينشرها تحت توقيعه . ولكن الغريب وجود مجلة تنشرها له . فان الصحافى الذى يتساهل الى هذا الحد فيما ينشر فى صحيفته يكون قد خدع الكاتب أو خدع قراءه أو خدع نفسه . والمصيبة واقعة فى كل حال من هذه الحالات الثلاث . أما اذا اعتقد أن هذه « الأفكار »

تستحق النشر فهناك أكبر المصائب كلها فى هذا الباب

* * *

والامراض دائما يجب أن نبحث عن أسبابها . فما هى العلة التى جعلت مثل هذا الاديب أن يقتل وقته فى صف هذه السخافات . هذا مانريد أن نعرفه فى هذه السطور

ان هذه الطبقة من كتابنا لا يطالعون الا الادب القديم . وهم مغرمون فيه لدرجة يعتقدون انه يكفى لجعلهم ادباء وكتابا ومفكرين مثل التلميذ الذى يقطع الصف الاول والثانى فانه يعتقد انه صار فى درجة من العلم تؤهله لحل اكبر القضايا الاجتماعية

وهؤلاء الكتاب صاروا الآن خطرا كبيرا على أدبنا الحديث . اذ جعلوا جمهور القراء يعتقدون أن الادب العربى لا يصلح لهذا العصر . فانصرف الى اللغات الاجنبية من يحسنون تلك اللغات وانصرف الباقون الى كل ماجاء اليهم من الأدب الغربى عن طريق الترجمة

ويجب أن لا نلوم القراء فى ذلك فهم فى عصر يحب اهله كل شىء جديد . وقد توافرت الوسائل لذلك حتى استطاع الانسان أن يعرف قبل أن ينام كل ليلة كل ماحدث على وجه هذه الارض فى ذلك النهار . والذى يهتم الى هذا الحد بما يجرى أمامه لا تقدر أن تجعله يهتم بما وراءه

* * *

ان أدبنا القديم هو موضوع يجب أن يشبعه كبار كتابنا بحثا ليعرف الجمهور موقفه الحقيقى نحوه . ومن الحماقة أن نعتمد فى ذلك على الذين يلقون الكلام على عواهنه أو الذين يسكرون من تزيينه . فكم هؤلاء جلب على أدبنا الويلات والمصائب فى كل الاجيال . وبعبارة أوضح نقول أن أدبنا القديم فيه كثير من الخرافات والأوهام يجب أن ننزعها عنه كما ننزع من مجرى الماء كل الاوساخ التى تعكر ذلك الماء وتقف حائلا دون سيره الطبيعى

ولا يستغرب القارىء اذا قلنا ان هذه السخافات التى يجب نزعها هى ثمانون فى المئه منه . نعم ثمانون فى المئه . وكل كبار أدبائنا يعرفون ذلك ولكن تنقصهم الجرأة لمقابلة الجمهور بهذه الحقيقة

بقى عشرون فى المئه من أدبنا القديم تستحق أن نسميها « تفكير صحيح » ولكن عشرة منها تعد صالحة لهذا العصر . لان التفكير الانسانى مهما كان هو قسمان الواحد يمشى مع كل العصور والثانى يرافق الاجيال الى حد معين ثم يتلاشى . فالثالث من أدبنا القديم هو عشرة فى المئه منه . وهى الكمية التى يدرسها ويبحث عنها المفكرون الكبار فى العالم . وبعبارة أوضح هى الادب الذى ثبت أمام الاجيال ولم تؤثر عليه الصدمات التى لقيها

مطبعة المجلة الجديدة بمصر

المطبعة التى تخرج الطبع المتقن مع الاجر المتخفض

المجلة الجديدة

نوفمبر ١٩٣٦

الثمن ٣ قروش

اقرأ فى هذا العدد

مطبعة المجلة الجديدة

3

المقتطف

المقتطف مجلة تقرأها اليوم وترجع اليها فى المستقبل — ولا أدل على ذلك من مطالعة مجلداتها السابقة كل مجلد تاريخ واف للسنة التى صدر فيها . فيه وصف المستنبطات التى استنبطت والمكتشفات التى اكتشفت وأشهر حوادث التاريخ وأهم مشكلات العالم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وسير أعظم الرجال وآراء أكبر العلماء — وكل مايهم المرأة معرفته من ادارة مملكتها البيتية — وكل ذلك بكلام بليغ قريب التناول وصور كثيرة وتحقيق وتمحيص اشتهر بهما المقتطف مع مقالات كثيرة فى مواضيع شتى علمية وأدبية وفلسفية فاذا كنت ممن يعنون بالنهضة الشرقية الحديثة — اذا أردت أن تطلع على ارتقاء الحضارة الغربية فى الستين سنة الماضية — اذا أردت تاريخا وافيا لسير العمران منذ اكثر من نصف قرن الى الآن . فيجب ألا تخلو مكتبتك من مجلدات المقتطف وهى تباع مفردة أو مجموعة وقيمة الاشتراك السنوي فى القطر المصرى جنيه مصرى واحد ، وفى الخارج بمبلغ مائة وعشرين قرشا مصريا أى مايساوي ٦ دولارات امريكية

ويخصم ٢٠٪ لحضرات الاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بقيمة الاشتراك وبشهادة من مدير المدرسة . العنوان : ادارة المقتطف بمصر .

فهرست

المجلة الجديدة نوفمبر سنة ١٩٣٦

---

١ — الاشتراك فى المجلة الجديدة الشهرية في مصر والسودان لمدة عام هو ٤٠ قرشا و ٢٠ قرشا لستة أشهر وفى الخارج ٥٥ قرشا فى العام

٢ – الاشتراك فى المجلة الجديدة الاسبوعية فى مصر والسودان هو ٢٥ قرشا فى العام و ١٣ قرشا لستة أشهر وفي الخارج ٥٠ قرشا فى العام و ٢٥ قرشا لستة اشهر

٣ـ الاشتراك فى المجلة الجديدة (الشهرية والاسبوعية) فى مصر والسودان هو ٦٠ قرشا فى العام و ٣٠ قرشا لستة أشهر. وفى الخارج مائة قرش فى العام و ٥٥ قرشا لستة أشهر وفى غير الاتحاد البريدي يزاد ٣٠ قرشا فى العام

تصدر المجلة الجديدة ١٢ عددا سنويا

وتهدى الى قرائها كتابين كبيرين

١٢ شارع نوبلر (مكتب بريد الدواوين بمصر)



أم المصريين صاحبة العصمة السيدة صفية زغلول

صاحبها ومحررها
سلامه موسى
المجلد السادس

المجلة الجديدة

العدد الحادى عشر
من
السنة الخامسة

نوفمبر ١٩٣٦

سير الحوادث

تعرض المعاهدة على البرلمان فى أوائل شهر نوفمبر . وليس هناك أدنى شك فى أن البرلمان بمجلسيه سيصدق عليها مع الشكر للمجهود العظيم الذى بذله المفاوضون المصريون . وليست هناك معارضة يؤبه بها . لأن المعارضين لا يعارضون المعاهدة بالذات وانما يعارضون الوفد للأسباب التى عارضوه من أجلها طول الـ ١٦ سنة الماضية . ولذلك لا يجدون من الجمهور ولا من أعضاء البرلمان أقل تأييد

وبعد التصديق على المعاهدة تشرع الوزارة الوفدية فى التوفر على درس المسائل الداخلية وانفاذ البرنامج الذي رسمه المؤتمر الوفدى للتجديد . ويبدو فى جميع الدوائر الوفدية اطمئنان عام على الحياة البرلمانية وبقاء الدستور مصونا . ولعل فى الظروف السياسية الجديدة التى يدريها كبار الوفديين ما يبرر هذا الاطمئنان . ولكننا لا نرى ان هذا يمنع من وضع العقوبات الصارمة على الحنث باليمين الدستورية فقد تعبنا كثيرا فى السنين الماضية وأوذيت البلاد فى كرامتها وأخلاقها وسياستها . واذا كان الاطمئنان مبنيا على أساس صحيح - وهو ما نعتقد - فان وضع هذه العقوبات لن يضر أحداً

فلسطين

انتهى الاضراب فى فلسطين . وكان انتهاؤه نتيجة منشور نشرته اللجنة العربية العليا التى استمعت إلى نصائح ملوك العرب كما انها أيضا التفتت الى وجود عشرين الف جندى بريطاني قد

شرعوا يستعملون المدافع ويلغمون القرى ويهدمون بيوت الثائرين . ومع ضعف ثقتنا بحسن النتيجة لهذا الاضراب أو هذه الثورة لا نزال نرجو أن يصل السكان العرب الى التخفيف من وعد بالفور بتحديد الهجرة اليهودية الى فلسطين . وعن قريب ستصل اللجنة الملوكية البريطانية لبحث شكاوى العرب . ونحن نعود فننصح للعرب بأن سبيل المقاومة لليهود هو اتخاذ أسلحة هؤلاء اليهود فليفكر العرب فى انشاء بنك عربي وتأسيس مصانع حديثة وايجاد جمعيات تعاونية للزراعة والصناعات الزراعية . وليتركوا هذه النعرة العربية السخيفة . أو يجب عليهم بكلمة أخرى أن ينفضوا عن أنفسهم هذا الثوب الشرقى البالى ويأخذوا بالحضارة الحديثة ويتبعوا الخطط التى اتبعها أتاتورك كمال . بل عندنا ان هذا هو السبيل الوحيد للرقى أمام الامم الشرقية

خراب اسبانيا

تسير الحرب الاهلية فى اسبانيا وتفتك بالسكان وتخرب المدن وتنشر الخراب فى جميع الانحاء . وكفة الثائرين الذين يقودهم الجنرال فرانكو ترجح كفة الحكوميين . والذخائر والاسلحة تصل الى جيش الجنرال فرانكو ولكنها لا تصل الى حكومة السنيور كاباليرو رئيس الوزارة الاسبانية

وقد اثمرت هذه الحرب الاهلية على فظاعتها ثمرة حسنة هي اعتراف فرانكو بالاستقلال الداخلى لاقاليم الريف فى مراكش الشمالية . ولم يكن هذا الاعتراف نتيجة الاريحية السياسية عند هذا القائد الاسبانى ولكنه كان نتيجة سحب الجيش الاسبانى من الريف لمقابلة حكومة الجبهة المتحدة . فانه عرف ان الريفيين يمكنهم أن يعلنوا استقلالهم فى فترة غياب الجيش الاسبانى عنهم فسلم بالواقع ومنح الريفيين استقلالا داخليا . وهو يعدهم بانهم ستفتح أمامهم أبواب الهجرة فى أسبانيا وان مساجد مدريد واشبليه وقرطبه القديمة ستجدد ...

ولكن الاريحية لم تكن كاملة . فان البطل العظيم عبد الكريم الذى كافح الاسبان جملة سنوات قبض عليه بعدها لايزال فى منفاه . وهذا مع العلم بان الجنود الريفيين يحاربون الآن الحكومة الاسبانية فى صف فرانكو

ولا نستطيع أن نثق بان الاستقلال الذى منحه فرانكو للريفيين سيدوم اذا انتصر هذا الجنرال على الحكومة . فانه سلم به مضطرا وقد يرجع عنه فى المستقبل . فمن مصلحة الريفيين الآن أن يستردوا الجنود الريفيين الذين يحاربون فى اسبانيا لصيانة هذا الاستقلال من غدر الذين منحوه

روزفيلت ولاندون

فى أوائل نوفمبر تصل المعركة الانتخابية للرياسة فى الولايات المتحدة الى ختامها . فان الرئيس ينتخب كل اربع سنوات ويجوز له أن يعاد انتخابه مرة واحدة . ولهذا السبب رشح المستر روزفيلت نفسه للانتخابات أمام خصمه الجمهورى لاندون وأمام طائفة أخرى من الخصوم الذين لا يؤبه بهم وجميع الطوالع الانتخابية تدل على أن المستر روزفيلت سيفوز ويعاد انتخابه لاربع سنوات أخرى . والسبب لذلك انه استطاع أن يجعل الحكومة مدينة بنحو الفى مليون جنيه انفقها على العاطلين وعلى التخفيف من الازمة . وهذا الدين العظيم الذى تحملته الدولة بالخطط التى اتبعها روزفيلت فى استخدام العاطلين وانقاذ المفلسين تعاب عليه من خصومه وهم جمهور الاغنياء ولكنها تعد له فضلا عظيما على الامة من جمهور المتوسطين والعمال

والفا مليون جنيه هما دين عظيم . ولكن موارد الولايات المتحدة الامريكية أعظم . ثم ان الديون الحكومية ازاء الاقتصاديات الحديثة وطرق التناول للنقد لا تخيف ولا تربك . وأعظم تهمة توجه الى الرئيس روزفيلت انه شيوعى وانه ينوى افساد النظام المالى حتى ينتهى بالفوضى التى يعقبها الشيوعية . ولكن الامريكيين لم تخدعهم هذه الاوهام التى ينشرها خصوم الرئيس

مشروع السنوات الاربع فى المانيا

فى مؤتمر نورمبورج الذى عقده الوطنيون الاشتراكيون فى المانيا تقرر وضع برنامج السنوات الاربع لاغناء المانيا بالمواد الخامة التى تستجلبها من الاقطار الاجنبية . وقد سبق ان قلنا ان الالمان نجحوا بالعلوم التى يتفوقون فيها فى اخراج البترول من الفحم وفى صنع الكوتشوك من مواد المانية وكذلك نجحوا فى ايجاد طائفة من المنسوجات الكيماوية مثل الريون . ولكنهم مازالوا فى حاجة الى مقدار كبير من المواد الخامة . وقد عينوا الجنرال جورنج مديرا لمشروع السنوات الاربع لكى تكون له السلطة المطلقة فى استنباط هذه المواد من المانيا . وقد اجبرت الحرب الكبرى الالمان على استخراج النترات من الهواء لصنع القنابل . فلما سكنت الحرب أصبحت المانيا تبيع هذا السماد بملايين الجنيهات للاقطار الاخرى . وليس بعيد ان يتجه الجنرال جورنج الى استخدام الالومينيوم مكان المعادن الاخرى . فان هذا المعدن كثير جدا فى الارض

ولكن استخراجه ليس سهلا . فاذا عرفت طريقة لاستخراجه بمقادير كبيرة فانه يغنى عن كثير من الحديد والنحاس وغيرهما

والمظنون أن الجنرال جورنج سيعين مستشارا للدولة . أما هتلر فيقتصر على الزعامة

شئون الهند

وقعت فى بومباى اعتداءات طائفية من الهندوكيين والمسلمين بعضهما على بعض قتل فيها أكثر من خمسين وجرح مئات . واحتاج الهندوكيون الى أن يطلبوا معونة الانجليز . وهذا تعليق مؤسف لمن يطلبون الاستقلال

وقد انتخب جوهر لال نهرو للمرة الثانية رئيسا للمؤتمر الهندى الوطنى وهو هيئة هندية تشبه الوفد عندنا . وهو مؤلف من الهندوكيين والمنبوذين والمسلمين والسيخ والمسيحيين. ونهرو يختلف من غاندى الذى كان رئيسا لهذا المؤتمر من حيث انه اشتراكى يرغب فى تعميم الصناعات الكبرى فى الهند فى حين ان غاندى يطلب الصناعات القروية والغزل فى مقدمتها

والجمهور الهندى يميل الآن الى نهرو بعد أن رأى أن خطة العصيان المدنى لم تعد على الهند بفوائد كبيرة وخاصة لأن الدستور الجديد محاط بقيود تجعله أداة غير صالحة للاصلاح والرقى . وقد صينت فيه حقوق الامراء المستقلين الذين أصبحوا حلفاء للامبراطوريين الانجليز

روسيا ومصاعبها

فى الشهر الاسبق حوكم عدد كبير من الزعماء واشباه الزعماء فى موسكو بتهمة الخيانة والتآمر على قتل ستالين . وحكم بالاعدام على ١٦ منهم ٩ من اليهود . ورأت المحكمة أن تروتسكى نزيل أسوج هو رأس هذه المؤامرة

وقد كان المفهوم الى الآن أن روسيا خالية من أحزاب المعارضة . وهى كذلك فى الظاهر. لان الذى يعارض الشيوعيه يعد خائنا ويحاكم على تهمة الخيانة . ولذلك انحدرت المعارضة الى الظلام وأصبحت مؤامرات تدبر فى الخفاء

وليس تروتسكى معارضا للشيوعية ولكنه يعتقد ان ستالين معتدل أكثر من اللازم وانه يجب على روسيا أن تعمم الحركة الشيوعية فى العالم . وقد كان ستالين ولا يزال الى الآن يعتقد ان الفلاحين يجب أن يؤخذوا باللين والهوادة وأن يترك قسم من الارض الزراعية يملكه الفلاحون حتى تتسرب اليهم المبادىء الشيوعية . كما انه يعتقد ان الدعاية الشيوعية خارج روسيا غير مجدية بل هى تضر بروسيا نفسها

ولا يعقل أن مؤامرة شهر سبتمبر الماضى هى آخر المؤامرات فى روسيا

فى الدول الديكتاتورية

امتلأ العالم بالدول الديكتاتورية أو الفاشية مثل المانيا وايطاليا وبرتغال وتركيا واليونان . وفى هذه الدول جميعها وان اختلف النظام الحكومى الذى تعمل به نجد شخصا هو رأس الدولة الذى يطاع عن حب وخوف معا . وهو بشخصيته الفذة القوية يجذب اليه عيون الامة وقلوبها ويستطيع بهذه العلاقة المتينة أن ينفذ جميع آرائه الاصلاحية بأسرع مما تستطيع الوسائل البرلمانية عند الامم الديمقراطية . والديكتاتور هو قبل كل شيء داعية يجب أن يثابر على الدعاية ويبين للامة ميزاته الشخصية كما يبين ميزاتها القومية . وهو لهذا السبب يحتاج الى تعميم التعليم والثقافة. لأن الدعاية تحتاج الى القراءة والقدرة على فهم الخطب وحفظ الاناشيد وتفهم التاريخ القومى . ولذلك نجد أن جميع الامم الديكتاتورية قد عممت التعليم وعنيت عناية كبيرة بنشر المدارس . لأن المدرسة تتناول الطفل بغرس المبادىء الفاشية . فهى لذلك كبيرة الأهمية عند الديكتاتور

وقد نجد اهمالا فى نشر المدارس فى الامم الديمقراطية . ولكننا لانجد أى اهمال من هذه الناحية عند الأمم الديكتاتورية . ولسنا بذلك نمدح الامم الديكتاتورية فان فيها من القيود للحرية مالا تعرفه الأمم الديمقراطية البرلمانية . ولكننا نقرر هذه الحقيقة من ناحية التعليم والمدارس وهى حقيقة لايشك فيها . وميزة أخري للامم الديكتاتورية هذا الاقبال على الرياضة البدنية . وهو اقبال لانظير له عند الامم الديمقراطية . وقد تستطيع أن تقول ان النية المقصودة من هذه الرياضة هى التهيؤ للحرب والقتال . وهذا صحيح . ولكن الواقع الذى لايشك فيه أن الشاب أو حتى الصبى أو الفتاة فى قطر مثل ايطاليا أو المانيا يبدون فى صحة الجسم واعتدال القوام أميز من زملائهم فى فى الاقطار الديمقراطية . ويجب ألا يفوتنا أيضا أن الحماسة للشخص هى على الدوام أكبر من الحماسة للنظام والمبدأ . ومن هنا نجد ان الامم الفاشية فى حماسة دائمة للمشروعات والدعايات الجديدة تنفذها وكأنها يد واحدة . لانها ملتفة حول الديكتاتور متحمسة له . فالاتراك يستجيبون لنداء أتاتورك . والالمان يلبون دعوة هتلر . والايطاليون لايخالفون أمرا لموسولينى . ومن هنا هذا النشاط الذي يبدو فى انفاذ الخطط الأصلاحية فى جميع الامم الفاشية . أما فى الامم الديمقراطية فان المبادىء والانظمة لاتبعث التحمس كما تبعثه الشخصية الفذة للديكتاتور . ولذلك نجد التلكؤ والتردد . بل ان النظام الديمقراطى بطبيعة ما فيه من أحزاب اشتراكية ومحافظة وحرة وشيوعية يبعث هذا التردد ويضعف الحماسة بالمناقشة والبحث عن العورات والنقائص وتجريح الخصوم . ويمكنك أن تعترض هنا أيضا بأن هذه المناقشة أو البحث انما هما برهان الحرية . وهذا صحيح أيضا

ولكن الذى لايشك فيه أن الشباب أوحتى الكهول يتحمسون ويعملون حزبا واحـدا فى الامم الديكتاتورية. أعظم ما تختلف فيه الامم الديكتاتورية عن الأمم الدعقراطية من حيث التعليم أنها أنزلت التاريخ من مستوى المواد العلمية الى دعاية وطنية ، فالأمة الديكتاتورية تقول ان العالم مدين لها بالثقافة والحضارة وانه لولاها لـكان العالم كله فى ظلام ، وهى تـكلف علماءها بأن يتمحلوا الاسباب لتبرير هذه الدعوى

فهاك مثلا أحد المقتبسات من كتاب ايطالى : « ايطاليا هى أعظم أمة فى العالم » وأيضا : « لم يعد الايطاليون أمة خيالية تعشق الغناء والقمر ولـكنها أمة من الجنود »

وهاك أحد المقتبسات من كتاب ألمانى : « ان تاريخ أوروبا انما هو من مآثر السلالة النوردية »

وهاك اقتباسا من كتاب تركى : « الاتراك هم أقدم أمة على وجه الأرض »

والنظرية الألمانية تقول ان الألمان هم الذين خلقوا الحضارة فى أوربا بل فى العـالم كله . وهم بهجرتهم الى الشرق حتى الهند قد أوجدوا الأديان والثقافات والأخلاق . وانما كانوا ينقرضون باندغامهم فى السلالات المنحطة التى نزلوا بينها . ومثل هذه الدعوى يقولها أيضا أتاتورك ومؤلفو التاريخ . فان النظرية هنا تقول ان الأتراك قبل نحو ١٠٠٠٠ سنة خرجوا من أسيا فنشروا الحضارة بأوربا وهم الأصل حتى فى حضارة مصر وبابل . والايطاليون لايبعدون الى هـذا الأصل النائى للحضارات ولـكنهم يذكرون الدولة الرومانية القديمة وأنها هى التى نشرت العدل فى أنحاء العالم . وانه لولا رومة لما كانت أوربا الحديثة

وهذا الأكبار من شأن السلالة و قومية هو الذى دعا الألمان الى كراهة التزاوج مع اليهود

ومما يلاحظ فى الأمم الديـكتاتورية أن زعماءها يصارحون بانتقاص الديمقراطية . ولـكنهم فى بعض الأحيان يمارسون من الدعقراطية أكثر جدا من الأمم التى تسمى نفسها دعقراطية . ففى « فيلق العمل » الذى أسسته ألمانيا يعمل الشبان من جميع الطبقات ستة أشهر يفلحون الأرض أو يشقون الطرق فى زى واحد لايختلف فى ذلك ابن فقير من ابن غنى . وهـذه المساواة فى العمل الأجبارى أبعث على الروح الدعقراطى من أى شىء آخر

وكذلك الحال فى استفتاء الشعب فان الزعيم هتلر مثلا يرجع الى الشعب الألمانى فى كل كبيرة ويستفتيه فى الخطط المتبعة . وليس فى أوربا « غير سويسرا » حـكومة تستفتى الشعب وتعتمد على الاستفتاء كما يفعل هتلر

وظنى أن بعض الميزات التى امتازت الحـكومات الديـكتاتورية بها مثل الرياضة البدنية والتنبه الثقافى والخدمة الالزامية للانشاء والبناء فى الدولة واستفتاء الشعب . كل هذه وغيرها يمكن الأمم الديمقراطية البرلمانية أن تنتفع بها ولو خالفت الأسس الدستورية التى تقوم عليها الحـكومات الفاشية

سلامه موسى

الريون الذى يكتسح قطننا

مضى على كاتب هذه السطور أكثر من سبع سنوات وهو يكرر القول بان القطن المصرى قد أصبح عرضة لخطر عظيم جدا هو الريون أى الحرير الصناعى . واننا اذا استنمنا الى هذا الخطر ولم نقاومه فان زراعة القطن سوف تزول من مصر قبل أن تمر ١٥ أو ٢٠ سنة . فان هذا الريون يطارد قطننا من أسواق العالم ويحتل مكانه وهو يفعل به مثلما فعلت أصباغ الانيلين الكيماوية بالنيل الهندى فقد كان الهنود يزرعون نحو مليون وربع مليون فدان من النيل . فلما اخترع الألمان هذه الاصباغ كف الهنود عن زراعة النيل وصاروا هم أنفسهم يشترون الاصباغ الالمانية

وليس مصيرنا فى مسألة القطن يختلف كثيرا عن مصير الهنود فى مسألة النيل . فاننا الآن نشترى الريون ولايكاد يخلو منه بيت فقير أو غنى وهذا الريون يسير بقوة وبسرعة وينمو نموا مخيفا فليس بعيدا — لا بل من المحقق — أن يتغلب على قطننا ويطرده من أسواق العالم بل من سوقنا المصرية نفسها

ويسرنا أن هذا الذى نبهنا عليه فى أكثر من ثلاثين أو أربعين مقالا قد شرعت الهيئات التجارية تلتفت اليه . فقد كتبت مجلة غرفة الاسكندرية مقالا فى هذا الموضوع قالت فيه :

« فالواقع أن الاقطان المصرية الطويلة التيلة والطويلة المتوسطة والمتوسطة تستهدف لمخاطر عظيمة فى الاسواق الاجنبية من مزاحمة الحرير الصناعى — الريون — لها مزاحمة أقل مايقال فيها انها ناجحة الى حد خطر ، كما يتبين بوضوح من مقارنة أرقام الانتاج العالمى لغزل القطن المصرى وغزل الحرير الصناعى فى السنوات الثلاث الأخيرة وهى مقدرة باللبرة — الرطل — الانجليزى كما يأتى :

سنة ١٩٣٣ من القطن المصرى ٠٠٠ر١٦٠ر٦٠٢ ومن الحرير الصناعى ٠٠٠ر٥٢٠ر٦٦٢

سنة ١٩٣٤ من القطن المصري ٠٠٠ر١٤٠ر٦٣٤ ومن الحرير الصناعى ٠٠٠ر٨٥٤ر٧٨٨

سنة ١٩٣٥ من القطن المصرى ٠٠٠ر٤٣٥ر٦٢٨ ومن الحرير الصناعى ٠٠٠ر٧٨٠ر٩٣٢

« فمن هذه الارقام يتضح أنه بينما ظل انتاج غزل القطن المصرى ثابتا تقريبا بل وتأخر فى السنة الماضية عنه فى التى قبلها نجد أن غزل الحرير الصناعى يتقدم بخطوات واسعة حتى لقد زاد فى ثالثة هذه السنوات عنه فى أولاها حوالى ٥٠ فى المائة ، وبينما كان مساويا لغزل القطن المصري فى أولاها تقريبا زاد عليه بمثل هذه النسبة الكبيرة فى السنة الثالثة ، ومتى كان الامر كذلك فلا سبيل الى مداراة الخطر الذى يستهدف له قطننا الخام فى أسواق البلدان الصناعية »

* * *

هذا هو ماقالته هذه المجلة وكله صواب وكله يستحق النظر والبحث السريع فى وسائل العلاج بل اتقاء الكارثة القادمة التى تنتظرنا كأنها القدر المحتوم . وقبل أسبوعين تقريبا أذاعت الجرائد تلغرافا هو خلاصة مقال لاحدى المجلات الاقتصادية الاوربية عالجت فيه هذه المسألة نعنى تقدم صناعات الريون . وقد التفتت الى ناحية لها مغزى كبير جداً فى هذا الموضوع . وهو أن الأمم التى راجت فيها صناعات الريون هى نفسها الامم التى تستورد أكبر مقدار من القطن الخام ولا تزرعه فى أرضها وهى اليابان وايطاليا وألمانيا فانها تشترى القطن الخام من الأقطار الأجنبية وتؤدى ثمنه نقدا ولذلك أكثرت من إنشاء المصانع التى تصنع الريون حتى تستغنى عن استيراد القطن وتحتفظ بثمنه

وتقترح المجلة التى نقلنا عنها هذا الاقتباس أن نعالج اكتساح الريون لقطننا بأن نقبل على إنشاء المصانع للغزل والنسيج ونحميها من واردات الريون وليس شك فى قيمة هذا الاقتراح ولكنه لن يصدر هذا الموج الجارف . ولا يعقل أننا فى يوم ما نستطيع أن نستهلك جميع القطن المزروع فى مصر ولابد من أن الاقطار التى تستورده ستكف عن استيراده بما تصنع من الريون

وعندنا أن العلاج الحقيقى أن نستعد من الآن لزراعة مزروعات أخرى غير القطن وأن ندفع الحركة الصناعية بأقصى مايمكننا حتى إذا جاء اليوم الذى لاتكفينا فيه الزراعة أمكننا أن نعتمد على الصناعة . وليس لنا مفر من أن نصير أمة صناعية . وقد فتح لنا بنك مصر ميدان الصناعات فيجب أن نتوسع فيه بل يجب أن نستعد لانشاء مصانع الريون نفسها . فان الولايات المتحدة الامريكية تزرع القطن ومحصولها منه أكبر من محصول سائر العالم ومع ذلك أقبلت على إنشاء مصانع الريون بهمة عظيمة

ان الخطر قادم فعلينا أن نتوقاه من الآن ونرسم الخطط للوقاية منه من الآن

أسلوب التفكير الحديث

نعنى بأسلوب التفكير الحديث ذلك التفكير المثمر فى الهيئة الاجتماعية الراقية سواء أ كانت ثمرته اختراعا أم اكتشافا أم اصلاحا . وذلك لأن فى العالم الحاضر أساليب كثيرة للتفكير يعد بعضها عقيما وبعضها الآخر قليل الثمرة كما أن بعضها قديم لا يمكن مع النزاهة الذهنية أن يوصف بأنه تفكير إذ هو فى حقيقته تسليم أعمى لعادات وتقاليد قد التصقت بالعواطف فصارت عقائد يتوهم المعتقد بها انها تفكير سليم

والانسان يشق عليه التفكير الارادى الموجه . ولذلك لا نكاد نسأم أو نتعب ونجد الفرصة للاستراحة إلا وتنساق خواطرنا سائبة مطلقة بلا قيد . وهذه الخواطر هى التفكير البدائى الذى لا يتقيد ولا يوجه وجهة معينة . وهى فى الغالب تعبر عن شهواتنا ورغائبنا ولا تكاد تختلف إلا قليلا من الأحلام ومن تفكير الأطفال

ولكن الانسان منذ عصور بعيدة حاول أن يوجه تفكيره ويضبطه بالمنطق ويحدد للالفاظ معانيها ، وهذه المحاولة نرى على أقواها عند الاغريق . فان اهتمام افلاطون وأرسطوطاليس بتحديد المعانى وتمييز المشكلات التى تنشأ من العبارات واضح . ويزداد وضوحا فى القرون الوسطى سواء عند الأوربيين أم عند العرب . فان القارىء للمؤلفات التى وضعها مؤلفو هذه القرون يشعر بأن جل اهتمامهم منصرف إلى تعيين المعنى وتسييجه بالألفاظ التى تجمع وتمنع . ولكن هذا الاهتمام على فائدته مع الاعتدال ينتهى فى الغلو إلى أن يكون عبادة للألفاظ فينعكس الغرض وتعود الألفاظ كأنها الأصل وليست الوسيلة

ونحن نتعب كثيراً عندما نقرأ أرسطوطاليس لعنايته بتحديد العبارات والألفاظ ولكنا نتعب أكثر جداً عند ما نقرأ مؤلفى القرون الوسطى من العرب والأوربيين لأنهم اتخذوا طريقة أرسطوطاليس وغلوا فيها حتى خرجوا عن الأصل الذى قصده ذلك المعلم الأول . فاذا قرأناهم وقعنا فى تيه من الألفاظ يوهمنا ان هؤلاء المؤلفين قد نسوا ان الالفاظ وسائل فقط ووسائل سيئة مع ذلك فيجب أن نقتصد فيها بقدر الامكان

كانت مهمة الاغريق فى التفكير أن يجعلوه مطابقا للمنطق . ولكنهم كانوا فلاسفة يفكرون بعقولهم فقط . ولم يعرفوا التفكير باليد أى لم يعتمدوا على التجربة العلمية التى نعتمد عليها كثيراً

هذه الأيام . وقد شرعوا فى هذه التجربة فى الاسكندرية ولكن لمدة قصيرة . ثم كانت تجاربهم العلمية قائمة على البحث عن حقائق الاشياء وليس عن فائدتها وهذا على عكس مايجري بيننا هذه الايام

وأولى الخطوات نحو التفكير الحديث قام بها روجر بيكون الراهب الانجليزى فى بداية القرن الثالث عشر . فانه استنكر الاستسلام للمنطق وقال انه لا يكفى للوصول إلى الحقائق . وانما يجب أن نجرب التجربة ثم نقابل بينها وبين تفكيرنا المنطقى . فاذا كان تفكيرنا يطابقها فهو صحيح وإلا فهو خطأ . لان التجربة لا تخطىء ولكن المنطق قد يخطىء

وفى أواخر القرون الوسطى نجد حركة تنشأ فى الاندلس هى مزيج من العلم والعمل والصوفية فان المسلمين الذين ورثوا الثقافة الفارسية عن مدرسة الاسكندرية عن المصريين القدماء قد نظروا إلى الذهب النظر المصرى القديم وهو انه يطيل الحياة أو يخلد الانسان . فحاولوا أن يحيلوا المعادن إلى الذهب . وصار الخلود (الصوفية) يقرن إلى تجارب الذهب (الكيمياء)

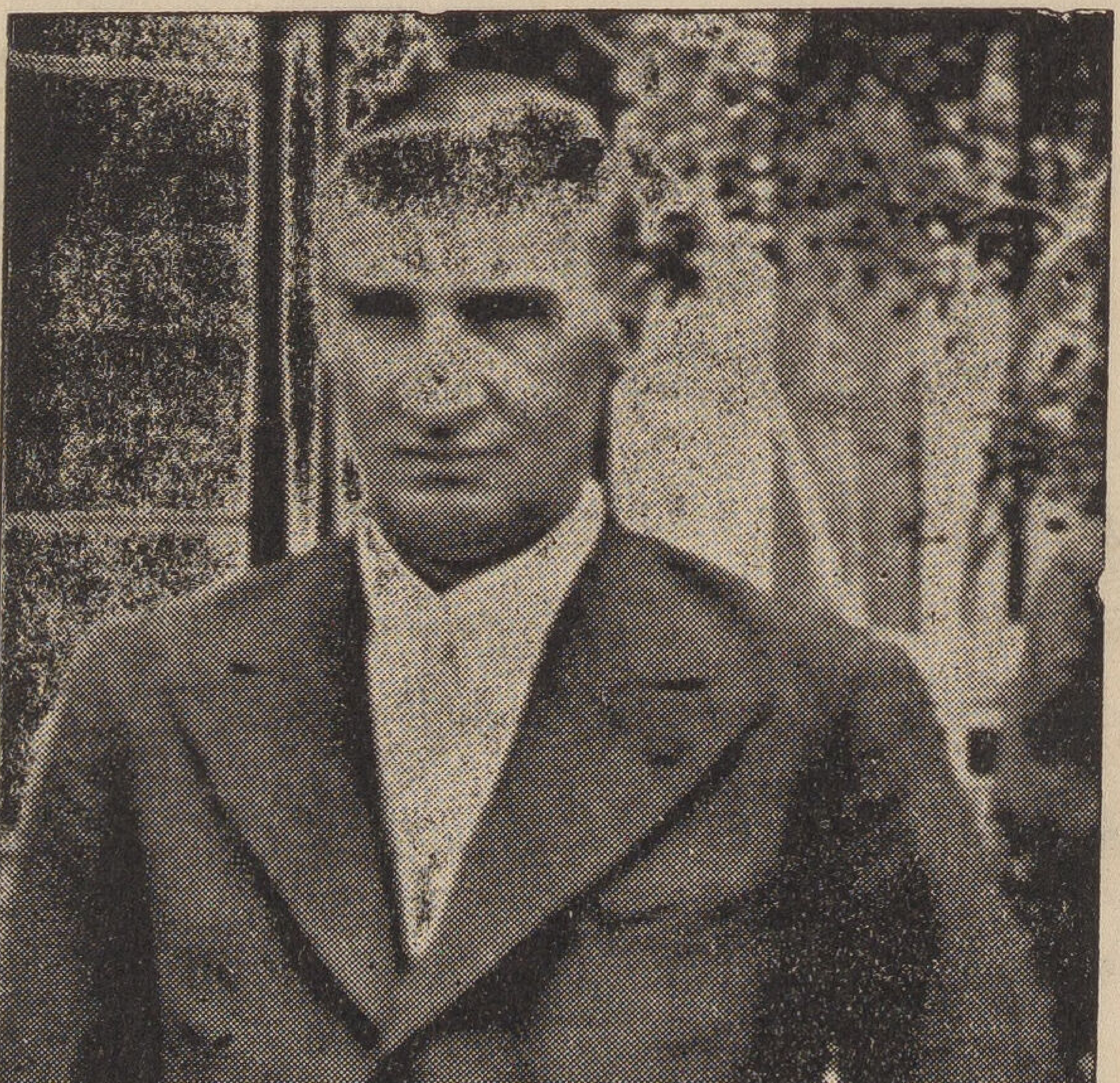
ونقل اليهود هذه التجارب إلى أوربا وكان هناك أمراء كثيرون مفلسون ظنوا ان الطريق إلى الثراء ليس شاقا ما دام الذهب يصنع ويطبخ فاستقدموا الكيميائيين وترجمت كتب العرب فى هذا الموضوع وأصبحت الكيمياء علما يقوم على التجربة وقد تخلص من الصوفية أى من الرغبة فى السعادة والخلود الخ

وجاءت النهضة فكانت ثورة على الفلسفة والصوفية . واحتقارا لهما عظيما . فان الناهضين شعروا بأن تأخرهم يعود إلى هذا التفكير الموروث عن أرسطوطاليس وهو الذى انحط إلى أن صار كأنه الحرجة الملتفة من الالفاظ فى القرون الوسطى . ثم ان الاضطهاد الدينى منع هؤلاء الناهضين من أن يشغلوا أذهانهم بالبحث عن حقائق الاشياء . ولذلك لم ينفقوا قليلا أو كثيرا فى البحث عن ماهية النفس أو الروح أو العالم الثانى أو مصير الكون أو نهاية الانسان . فان كل هذه الابحاث كانت بسلطان الكنيسة تعرضهم لخطر المحاكمة بتهمة الهرطقة . فتركوها خوفا ثم قاطعوها كرها وانصرفوا الى استخدام المعارف الانسانية لخدمة البشر . وهذا الانصراف يعد الفائدة الوحيدة للاضطهاد الدينى إذ كان فى ارهابه أمرا للمفكرين بأن يتركوا الفلسفة والصوفية ويقصروا تفكيرهم على ما يفيد الناس فوائد دنيوية

وانطلق المفكرون بعد ذلك يفكرون فى الخدمة البشرية لا أكثر . وكبر شأن التجربة العلمية حتى كان فولتير يعتقد أن نيوتن صاحب نظرية الجاذبية أعظم رجل عاش فى عصره . ونيوتن هذا هو أصل الطبيعيات الحديثة التى نرى أثرها فى الرقى الصناعى العام

ولكن التجربة العملية التى هى آخر أطوار للتفكير الحديث لم تعم جميع المعارف الانسانية،

فهناك « علوم » الاقتصاديات والاجتماعيات والاخلاقيات التى لا تمسها هذه التجربة العلمية . ولذلك لا يمكن أن تعد إلي الآن علوما . ونحن لهذا السبب نعالجها كما نعالج الفلسفة أو الصوفية بالتفكير المنطقى أو بأقل منه أي بالتفكير التقليدى الذي ورثناه . فنحن فى هذه العلوم متأخرون عن تفكيرنا الحديث فى الكيمياء أو الطبيعيات بنحو ألفى سنة . وقد يعترض هنا بأن التفكير باليد أو التجربة العلمية لا تصح على هذه العلوم . وهذا خطأ . فان الاحصاء يقوم مقام التجربة . وهو مضبوط ويمكن استخراجه من أقطار مختلفة واستنتاج النتائج منه . ولكن وراء الاقتصاديات والاجتماعيات والاخلاقيات مصالح مالية تمنع قبول بعض النتائج . وهى العقبة الحديثة للتفكير الحديث



صاحب السعادة البارون فون واخندورف الوزير المفوض الجديد لدولة ألمانيا فى مصر

مدارس الهواء الطلق في ألمانيا

لقد سبقت ألمانيا غيرها من الامم فى هذا المشروع ، ولا عجب ، فالعناية بالصحة وبالفحص عن الاطفال طبيا عند لحاقهم بالمدارس كبير جدا فى ألمانيا . وقد علم بالبحث أن هناك ٤ ٪ من الصغار يستطيعون الذهاب إلى المدرسة العادية ولكنهم لا يمكنهم الانتفاع التام بالتعلم فيها ، لا لنقص فى قواهم العقلية ، بل لفقر دم ، أو ضعف جسم ، وهذا ناشىء عن رداءة الغذاء ، أو المسكن أو البيئة ... الخ ونظراً لان التعليم عام اجبارى فى ألمانيا ، والحكم على أمثال هؤلاء الضعفاء بالبقاء فى المدارس العادية فيه قضاء على حياتهم ، فالنتيجة الطبيعية كانت انشاء مدارس لهم فى الهواء الطلق بضواحى المدن الكبيرة . ولقد فتحت أول مدرسة من هذا النوع سنة ١٩٠٤ فى شارلوتنبرج إحدى ضواحي برلين

والمبادىء المتبعه فى هذه المدارس هي :

(١) الحياة والتعلم في الهواء الطلق . (٢) إعطاء الطفل كمية كبيرة من الغذاء الجيد بنظام خاص . (٣) مراعاة النظافة التامة ، وكثرة الراحة ، واللعب . (٤) اختيار المدرسين الماهرين لادارة هذه المدارس والتعليم فيها . (٥) جعل الفصول صغيرة ، وتنويع الدروس حتى تكون شائقة ، والتقليل من المقدار الذى يعطى التلاميذ مراعاة لحالتهم الصحيه ، وتوزيع أوقاتهم بين العمل ، واللعب ، والقراءة ، والغناء ، والراحة ، والغذاء . (٦) العلاج بالتمرينات فى الهواء الطلق ، وبأشعة الشمس ، والحمامات . (٧) الوقاية من البرد والملابس الصوفية وغيرها ، وتجنب التيارات الهوائيه · (٨) العناية بصحة الاطفال وأسنانهم

وبعد التجربه الاولي لهذا النظام أظهر الاطفال نجاحا في عملهم ، وقويت أجسامهم ، وحسنت صحتهم ، وزاد وزنهم ، وشفى كثير منهم من مرضه ، ولم يتأخروا فى دروسهم ، مع أنهم كانوا يشتغلون أقل من نصف الوقت الذى كان يشتغله قرناؤهم فى المدارس العادية ، ثم كان فى استطاعتهم بعد العلاج أن يشتغلوا مع غيرهم الاصحاء بالمدارس العامة ، ويسيروا على مستواهم فى الدراسة . وبذلك لم يحرموا التعليم من أجل ضعفهم ، ولم يرهقوا بالنظام العادى من التعليم . وإذا نجحت هذه الطريقه فى تعليم الضعفاء من الاطفال فلاشك فى نجاحها فى تعليم الاقوياء والمتوسطين منهم

محمد عطيه الابراشى

امته ونفسيته

كثيرا ماعقد الكتاب المقابلة بين الجزر البريطانية والجزر اليابانية . وسكان كل منهما ، والمشابهة لاتقتصر على الناحيه الجغرافية فان كلا من الدولتين كانت ولاتزال تملك قوات بحرية ضخمة

ولكن المقابلة والمشابهة تقفان هنا فان الانجليز يختلفون فى نفسيتهم أكبر الاختلاف من اليابانيين وذلك أن الانجليزى ديمقراطى لاتكاد تحس وانت ببلاده انه خاضع لحكومة بل هذه الحكومة لاتكاد ترى لها علامة تدل عليها والانجليزي عريق فى حضارته التى لم تتغير وانما نمت نموا تدريجيا والمرأة الانجليزية تمارس الوانا من الحرية وتشارك الرجل فى الاعمال الحرة . وفى انجلترا خاصة وبريطانيا عامة حركة صناعية تعد قديمة بالمقابلة الى غيرها فى الاقطار الاجنبية وفى كل هذه الاشياء تختلف بريطانيا من اليابان

ولكن المشابهة الصادقة يمكن أن تقوم بين المانيا واليابان . فان النفس الالمانية هى أقرب ماتكون الى النفس اليابانية على الرغم من اختلاف اللون والسلالة واللغة والدين . والالمان هم فى معظمهم بروس . وبروسيا هى القطر العظيم الذى يستغرق أكثر من النصف الشمالى لالمانيا . وقد سمى اليابانيون « بروس الشرق »

وانما سموا كذلك للروح الحربى الذى يسود الدولتين . فان البروس منذ أيام فردريك الكبير يحترفون الجندية كأنها الصناعة الوطنية كما كان يقول ميرابو زعيم الثورة الفرنسية . واليابانى كذلك يفهم انه جندي قبل أن يكون فلاحا أو تاجرا أو طبيبا أو معلما . بل لقد كان المعلم اليابانى الذى يعلم الصبيان الذين لايزيد عمر أحدهم على عشر سنوات يدخل اليهم فى الفصل وهو يحمل سيفا يجلجل به . ولم تبطل هذه العادة الا منذ وقت قريب

وفى كل وقت فى اليابان والمانيا تتخذ الدولة مقاما ليس له شبيه عند الامم الاخرى فى الاحترام بل التقديس . فان امبراطور اليابان مقدس بل مؤله وقد وجد اليابانيون المسيحيون بعض العنت من هذه الناحية . ولم يحدث تصادم صريح بين الدولة وبين المسيحيين كتلك التصادمات التى حدثت أيام الامبراطورية حين رفض المسيحيون عبادة الامبراطور الرومانى ولكن شيئا شبيها بذلك قد حدث بالفعل وان كان اقل فى الدرجة لم يبلغ حد ازهاق الارواح

وقد كان هيجل فيلسوف المانيا يقول « ليس على الدولة من واجب هو اسمى من واجب احتفاظها بنفسها وقمع خصومها وليست الحرية السياسية أوحرية الضمير سوى أحلام مخترعة » وهذا

مذهب فى الدولة لا يستطيع أن يقول به انجليزى أو فرنسى ولكن اليابانى يقول به ولذلك حين شرعت اليابان سنة ١٨٦٨ تأخذ بالأساليب الاوربية عمدت الى دستور بروسيا فنقلته الى بلادها وآثرته على جميع الدساتير الاوربية . وليس ذلك إلا لأنها وجدت فيه مايوافق مزاج الأمة من ناحية الاكبار من شأن الدولة

هاتان الخاصتان أى الاكبار من شأن الروح الحربى والاكبار من شأن الدولة تشترك فيهما اليابان وألمانيا . ولسنا نعنى بذلك انهما تحبان الاعتداء أو تطلبان الحرب فان الذي ينظر الى ألمانيا ويتأمل خططها ونظمها يشعر أنها تعنى كثيراً بتوقى الحرب وانها فى كل محاولاتها لكفاية نفسها بالزراعة والصناعة تريد أن تحمى نفسها فقط من الاعتداء . ولكن الروح الحربى هو نزعة ذهنية ينزع اليها الشعب كله سواء فى ألمانيا أم فى اليابان كما ينزع الانجليز الى الثقافة البدنية ويقبلون على الرياضة الجسمية . فان موظف الحكومة المدنى فى اليابان يتخذ الشكة الحربية وان لم يحمل السيف وقد أشرنا الى أن المعلمين كانوا الى وقت قريب يحملون السيوف ، وليس الالمان كذلك ولكنهم يحترمون الجندية احتراما لامثيل له فى أوربا كلها . والجندية عندهم أخلاق قبل أن تكون حرفة فان الطلبة فى الجامعات الألمانية يتعلمون المثاقفة بالسيوف ولو كانوا يستعدون لأن يكونوا قسيسين ولهذا السبب يمكن أن نقول ان الحركة الهتلرية الأخيرة هى فورة قومية تجد التأييد من جميع الشعب إذ هى تعبر عن نفسيته

وكذلك الجندية فى اليابان أخلاق كالرياضة البدنية عند الانجليز . فان القسيسين البوذيين يحرم عليهم دينهم قتل بعوضة . ومع ذلك يتعلمون الحركات العسكرية وينالون قسطا من الثقافة الحربية . ولا يعقل ان الحكومة اليابانية تعد هؤلاء القسيسين للقتال الذى يناقض ديانتهم البوذية . ولكنها تعلمهم مبادىء الجندية لان هذه المبادىء هى الروح الوطنى السائد فى اليابان

القبعة رمز الحضارة

مسألة الطربوش وتوحيد الزي

آراء لبعض كتاب مصر ومفكريها

رأى الاستاذ محمود عزمى

« قامت فى بلاد الشرق المتكلمة باللغة العربية نهضات وثابة الى الاستقلال والانطلاق من القيود وكثر خلالها الحجاج بين أن يعود القوم الى المدنية العربية أو أن يأخذوا من المدنية العصرية وحاول البعض أن يوفق بين الرأيين ورأى البعض ان هذا التوفيق محال لانقطاع الصلة ـ بفعل محن التاريخ ـ بين حاضر هذه الشعوب الشرقية وماضى الامة العربية أو الامم الاسلامية ، بتعبير أصح . وأنه لامحيص من الاختيار بين المدنيتين . ولست أدرى على التحقيق ما هو الرأى الغالب لكنى أدرى أنى انا من الذين ينادون بملء فيهم بضرورة الاخذ من المدنية العصرية وهي الحضارة الغالبة وبأن الخير فى شخوص الكتلة الشرقية المتكلمة لغة عربية الى شواطيء البحر المتوسط الشمالية الغربية وبأن كل نظرة الى رمال التيه والبادية انما تكون نكوصا علي الاعقاب فى ميدان الجهاد الذى يسير فيه العالم سيرا هائل السرعة الى الامام

وسط هذه التيارات المتقابلة أقبل صيف ١٩٢٥ وكان على أن أمضيه فى القاهرة . وعندى أن بعض الاصلاحات الاجتماعية لاتجدي فيها المناقشة ولا يفيد الجدل بل تجدى القدوة ويفيد العمل . من أجل هذا اعتزمت انأنفذ ما أنا مقتنع به من رأيى فى صدد المدنية العصرية وفى صدد القبعة .

لكن « الاخطاء الوراثية » المتراكمة كان لها فى عزيمتى بعض الاثر . فجعلتنى أجد من « حسن الفطن » ألا أفاجيء اخواني وأصدقائى بما سأضع على رأسى فى مصر من عمرة جديدة ، وأن أنذرهم قبل الموعد بأيام حتى لاينقضوا علي بالسؤال والاستفسار ، واذن فقد حددت لنفسى اليوم الاول من شهر يوليه لسنة ١٩٢٥ لألبس فيه القبعة وأخذت منذ العشرين من شهر

يونيه أعلن كل من أقابله من الأخوان والاصدقاء انى مغير لباس الرأس من أول الشهر التالى

وجاء أول الشهر وقصدت فى حزم وهرولة إلى بائع القبعات بميدان سوارس ولاحظت أن سرعة الخطى قد أخذت تقل عندما اقتربت من الحانوت ولاحظت أن السير قد وقف بي عند باب الحانوت ولاحظت انى أخذت أنظر الى القبعات المعروضة خلال الزجاج ، ولاحظت أنى استأنفت سيرى فى شارع قصر النيل دون أن أشترى القبعة ودون أن أدخل حانوت القبعات، ولاحظت أنى أخذت أتهم نفسى فى صوت خافت بأني « جبان » وبأن « الأخطاء الوراثية » لاتزال تجد منى منفذا ومنيت نفسى بالعودة الى الحانوت بعد الظهر لكنى لم أعد اليه عاما كاملا

ومضى الصيف ومضى الخريف ومضى الشتاء ومضى الربيع . وأقبل الصيف من جديد، صيف سنة ١٩٢٦ والمناقشة حول « الطربوش والقبعة يتسع نطاقها حتى وصل الى « الرابطة الشرقية » التى أرادت أن تتذرع « بفتوي » يصدرها الأطباء فتقدمت إلى جمعيتهم باسئلة واستيضاحات انتهت الجمعية إلى الاجابة عنها فى اجتماعها العام

وأعلن القرار أو أعلنت الفتوى مساء فكانت هى القاضية على « أخطائى الوراثية » من هذه الناحية إذ قصدت صباح اليوم التالى السبت الثالث من شهر يوليه ١٩٢٦ الى بائع القبعات نفسه واشتريت قبعة الصيف وخلعت على الحوذى ما كان على رأسى قبل هذا من طربوش

ومنذ ذلك اليوم ألبس القبعة متناوبا أنواعها المتمشية مع كل فصل من فصول السنه

(عن مجلة الهلال أول نوفمبر سنة ١٩٢٧)

فتوي جمعية الاطباء المصريين

عقدت جمعية الأطباء المصريين اجتماعا عاما صباح يوم الجمعة الموافق للثانى من شهر يوليه سنة ١٩٢٦ وقالت « هيئة كبار الأطباء » فى فتواها الذى نشرته الصحف أن الطربوش لباس رأس غير صحى وأن للباس الصحى شروطا عددتها واذا بها متوافرة فى القبعة وغير متوافرة إلا فيها

رأى الاستاذ عبدالله حسين

. . . انما الذى يهمنا هو أن قد حان الوقت للتفكير فى لباس الرأس . لاشك فى أن الطربوش قد انحدر الينا من بلاد أخرى سواء أقيل انه صنف من الطربوش المغربى أم انه جاء الينا من

تركيا وان تركيا أخذته عن اليونان أو بعض البلاد البلقانية أو بعض بلاد التركمان الخ على أن الواقع هو أن الطربوش ليس له أصل مصرى أو عربى أو اسلامي وانه لاعلاقة له بالدين أو باللغة وكان لبسه محاكاة للغير

ليس الطربوش لباسا لمعظم سكان مصر فسوادهم يلبسون العمامة والطاقية . ومن جهة أخرى يلبس المصريون فى الخارج القبعات . واذا لبس أحدهم طربوشا لفت الانظار وقد يحتمل متاعب. لأنه يدل جميع الناس على انه اجنبي . وفى البلاد تعصب ضد الاجانب أو سعى لاستغلالهم . ويعتقد الكثيرون من الاجانب أن الطربوش لباس للامم المتأخرة . مهما يكن من شيء فقد آن الاوان للتفكير فى توحيد الزى كله لأن مصر تنفرد بشذوذ غريب واختلاف الازياء بين ابنائها

(الاهرام ١٧ سبتمبر سنة ١٩٣٦)

رأى الاستاذ احمد الصاوى محمد

رأيت يوم افتتاح البرلمان جنديا من جنود الجيش يدوخ من الشمس فيحملونه الى أقرب مكان حيث صبوا حالا على رأسه كوز ماء ! . . ولو أن جنودنا يلبسون ماتلبسه كل الجنود فى البلاد المتمدينة كالقبعات والخوذات الخفيفة لما رأينا العرق يتصبب علي وجوههم ويبلل سترهم

الاهرام ٢٦ مايو سنة ١٩٣٦

إنك لاتجد بلدا فى العالم كله قد تنوعت أزياء الناس فيه وتنافرت ملابسهم مثل مصر . تجد الطربوش وحده ، والطربوش المغربى والطربوش المعمم والعمامة واللبدة والطاقية واللاسة الخ

فاذا نظرت الى شارع من شوارعنا وجدت كرنفالا متناقضا عجيبا كأنه عيد من اعياد المساخر وكأن الناس فى ازيائهم مثلما هم فى طباعهم قد اتفقوا عندنا على ألا يتفقوا فلا من وجهة الذوق العام ولا من وجهة الأخلاق العامه ولا من وجهة الكرامه القوميه يمكن ان يعد هذا مما يدعو الى الرضى او الارتياح

(ما قل ودل)

رأى الاستاذ سلامة موسى

« القبعة هي رمز الحضارة يلبسها كل رجل متحضر سواء أكان يابانيا أم صينيا أم انجليزيا أم أمريكيا . ونحن اذا لبسنا القبعة فلسنا بذلك نلبس لباس أوربا فقط بل انما نصطنع لباسا اتفق

المتحضرون على وضعه على رؤوسهم كما اتفقوا على أن يأكلوا بالسكين والشوكة أو كما اتفقوا على أن يستحموا كل يوم . فان للمتحضرين عادات يتعارفون بها ويصطلحون عليها واتخاذ القبعة من هـذه العادات فلسنا نحب أن نخرج على العالم المتمدين بلباس خاص يجعلنا فى مركز من الشذوذ يجاب الينا الانظار فيعمد السياحون الى تصويرنا كأننا أمة غريبة عن الامم التى جاءونا منها . . .

« عن كتاب اليوم والغد مارس ١٩٢٧ »

رأي الاستاذ نقولا يوسف

منذ نحو ستين عاما أصدر الخديوى اسماعيل أمره لموظفى الحكومة المصرية باستبدال « البنطلون » بالقفطان فثارت ثائرة المحافظين ولكنهم اعتادوا الجديد بعد ذلك . ومسألة العادة هي التفسير السيكلوجى لكراهة الجديد واهله . وعندنا اليوم ألوف من الشبيبة المصرية الراقية تود لو استبدلت الطربوش بالقبعة ولكنها تخشى الانتقاد الموهوم . ولهذه الرغبة أسباب معقولة أولها : أن للطربوش مضار صحية أعلنتها منذ سنوات جمعية الاطباء المصريين اذ هو لايتفق مع طقس البلاد وشمسها . وثانيها أن القبعة مع حمايتها للرأس والعينين من وهج الشمس قد صارت رمزاً للحضارة لدى جميع شعوب العالم فاليابانيون والاتراك والافغان يلبسون اليوم القبعة مثل أهل أوربا وأميركا لانها لباس المتمدينين . وثالثها أن الطربوش ليس بلباس مصرى ولاعربي حتى نتعصب له وحدنا دون سائر أمم العالم . ومع ذلك فسنضطر قريبا الى خلعه كما خلعنا البرقع !

رأى طريف لمصطفى أفندي صادق الرافعى

« لايهولنك ما أقرر لك من أن القبعة على رأس المصرى فى مصر تهتك أخلاقى او تهتك سياسى أو تهتك دينى أو من هذه كلها معا . . .

ثم اني مستيقن أن الافكار الشرقية أو الاسلامية تحت القبعة هي غيرها تحت الطربوش لان تغيير الرمز يتغير به ما كان يلهمه وهذا لايكابر فيه أحد فقد عاد الامر الى صبغة نفسية كما ترى فمن سخافة التقليد بل من الغفلة أن ننزع نحن الى ما اتخذوه وننشأ علي الوقاية من شمس أرضنا بهذه الوقاية المحكمة فى حين أنه ان لم نجعل بيننا وبين الشمس ونورها وحرها ملاءمة فنبرز لها ونعتادها من الصغر ونلقاها بوجوهنا هيأنا ذلك لغمراتها عند أيسر الاسباب . . . » ؟

هلال أول نوفبر ١٩٢٧ جزء ١ سنة ٣٦

الاحزان العامة ..!

تحدثنا فى مقالنا السابق عن « الانسان والحضارة والفلسفة » حديثا قصيرا عن بعض متاعب النوع البشرى ، التى تجابهه بها مدنية العصر ، وحديثنا اليوم قد يتصل موضوعه من قريب أو بعيد بموضوع الحديث السابق ، اذ انه تلخيص تعليلى للأحزان العامة التى يحسها الناس ولا يملكون دفعها ، أو يملكون الدفع ويقصرون عنه بدوافع قوية من ضعف الروح ووهن الارادة ، وهى من الامراض النفسانية التى اكتسبها الناس على أثر أخذهم بالتحضر واعتيادهم الرفاهية والبلهنية !

وفى الواقع لا نكاد نلمس من الآثار السلبية لمدنية العصر وللحرب العظمى أيضا ما هو أشد خطرا على الناس وأقسى نكاية بهم من الضعف المعنوى الملحوظ فى وهن الأخلاق واستنامة الضمير العام واختناق النزعات الخيرة أو ركودها على أحسن ظن . وهذه الحالة الشنيعة التى يتعرض لها المجموع الحى المتحضر تهدد الكيان الانسانى بانحلال سريع أداته رد الفعل الذي يحدثه نوم الضمير وضعف الارادة وركود النزعات الخيرة

إن أساس تعمير الكون يرتكز فى معظمه على الحب المتبادل باخلاص بين الأفراد دون نظر إلى النفع الشخصى والاستفادة المادية أو غيرها مما يدخل فى باب تبادل الفائدة وتحقيق الأغراض الفردية وما اليها ، والمشهود بجلاء ان هذا الحب النبيل الانسانى يتلاشى ويذوب كلما أوغل الانسان فى سبل الحضارة ! لأن أساليبها تقوم على الاستغلال المغرض والاستفادة من كل شىء واقتناص الفرص التى تسنح دون مراعاة لما يسببه ذلك للآخرين من متاعب وصعاب ، قد تنتهى بهم إلى العدم أو الفناء نفسه ، مما ليس يتفق وروح التعاون الانسانى على اسعاد الانسان والنهوض بعواطفه نحو الغاية السامية من الوجود

لسنا مسرفين إذا قلنا ان مثل هذه الأحزان الفاجعة تجؤر بالشكوى منها كل بيئة ، . ويضيق بها كل ميدان . والحديث التفصيلى الشامل منها فضلا عن أنه مشج شديد الايلام للنفس . فهو متشعب ذو دروب كثيرة ، يصعب ارتيادها جميعا بل قد يستحيل كل ما فى الاستحالة من مدلول مفهوم

فاذا نحن صوبنا أنظارنا نحو الطبقات التاعسة التى تمثل الاغلبية من الاحياء ، أزعجتنا هذه

الحلوكة القاتمة التى تغشى حياتها البائسة ، ففى محيط العمال شكوى غير منقطعة من عسف أصحاب الاعمال ، الذين يربحون الكثير الطائل ويبخلون على الايدى العاملة بالقليل التافه من الاجور والجزاء وشكوى متصلة من نشاط العقل العالم المبتكر فى ابتداع الآلات التى تعطل الآلاف والملايين . وتجعل الايدى العاملة مخلوقات طفيلية لا حاجة اليها ولا فائدة تؤديها لأصحابها ولا غيرهم ، وقد أصبح العمل الذي كان يستغرق انجازه الشهور ويتطلب المئات من العمال ممكن الانجاز بعشرة رجال فى عشرة ايام أو نحو ذلك ، بتكاليف قليلة واتقان كثير . وليس يدرى أحد مصير هذه المخلوقات الآدمية المتعطلة التى تقذف بها المصانع كل يوم الى عرض الطريق ؟ !

يلوح لنا فى ساعات التأمل الجاد الهادىء شبح القحط العام يتهدد العالم بعد بضعة قرون كنتيجة منتظرة لتتابع انقراض الصناعات التى تقتلها غيرها فى ظل وارف وأمن مستتب من صالح الاقتصاد فى الوقت والجهد والنفقات ، وفى الواقع لايمكن لأحد أن يتكهن بعمر صناعة من الصناعات مادام العقل المخترع نشيطا ينذر أي صناعة بالانقراض بمجرد ظهور ماهو أجدى منها . !

واذا كانت كبري آفات حياة الطبقات العاملة هى جشع أصحاب العمل وطغيان الآلات على الايدى وانقراض الصناعات التى تجعلها مستنبطات العصر عتيقة غير ملائمة ، فان هنالك آفات أخرى لاتقل عن هذه تنغيصاً لحياة العمال وازعاجاً لهم . فاننا نسمع عن أنواع من الامراض لم يعرفها الانسان إلا منذ أمد قصير ، أي بعد ظهور مدنية العصر الحديث . وهناك أيضا أمراض خاصة تتعرض لها طوائف خاصة من العمال كالمشتغلين بالتعدين والكيمياء الصناعية والمناجم وغيرذلك كثير . وبحسب هذه الطبقات حرمانها بسطة العيش ومتع الحياة رغم انها تدفع ثمن ما تناله غاليا باهظا ، ورغم انها تؤدى الى أفراد البشر خدمات جليلة تفوق الحصر والوصف

وقد تكون أحزان هذه الطوائف على أى من الاحوال مستطاعة الترفيه ،ولكننا اذا حاولنا ذلك الترفية وجدناه يكلف قلب النظام العام ، لانه يتطلب تنازل طبقات من الناس عن طباعهم التى تجرى فى دمهم وتتردد مع أنفاسهم ، كالاثرة ، والجشع ، وموت الضمير أو تدنسه . وقد لا نكون مغالين فى القول بأن الخروج على هذه الطباع المكتسبة قد يكون أندر من الراديوم . !

اذا انثنينا عن الطبقات العاملة لنستقرىء أحزان غيرها من طبقات الامم ، لم نجد من العسير الوقوع على أحزان الطبقات المستنيرة المتعلمة المتوسطة الحال ، طبقات الموظفين وصغار الملاك والتجار ، الذين هم الى الفاقة أقرب منهم الى الثراء . فالغالب فى هؤلاء أن يكونوا ضائقين بحياتهم متبرمين ساخطين ، لانهم لا يرون فيها كفاء كفاياتهم ومعلوماتهم ومحصولهم من المعارف وما

يؤدون من الخدمات والنفع للغير . وزد على ذلك تطلعهم الى الحياة الكبيرة المترفة التى يتطلعون اليها من كثب ، عاجزين عنها فى كثير من اللوعة والتحسر ، بل والحسد لاصحابها أيضا

والنظرة الى تاريخ الاشتراكية الحمراء تغنى لادراك انها لم تكن لها من الدوافع الاصيلة الا مثل هذه العواطف التى تشعر بها الطبقات المتوسطة ، التى هى أكثر ادراكا لقيمتها وحقوقها ، رغم ان الطبقات الاخيرة — أعنى العمال والفلاحين — هى التى كان لها الاثر الظاهر فى ثورة الاشتراكيين . ولا تزال مبادئهم فى كل بلد تغزو كثيرا من القلوب وتتحدي كثيرا من الانظمة القائمة ، وأكبر الخطر الآن هو أن تتفشى فى العالم هذه المبادىء مبالغا فيها كما يبالغ فيها فى روسيا الشيوعية ، ومع ذلك يبدو ان هذه غاية منتظرة لروح التبرم التى تسود العالم فى معظم طبقاته هذه الايام ، واذا كانت الشعوب المحكومة بالاقوى منها آخذة سمتها الى التحرر من الرق فان طبقات الامم المتحررة نفسها قد أخذت تثور على فوارق المجتمع التى تضع الحواجز بين طبقات الناس . !

أجل ، هذه أظهر أحزان الطبقات المتوسطة من النوع البشري ، ويمكن تلخيصها فى كلمة « الحرمان » فاذا نظرنا الى الطبقة الاولى من الناس ، طائفة المترفين . وجدنا هذه تنقسم قسمين . أحدهما جاءته الثروة تجرر أذيالها فى غير جهد . ورثها ميراثا . ولا يعنيه الا أن يستعين بها على قضاء أوطاره من حياة ناعمة لاينغصها عمل ولا شعور بالمسئولية . والآخر حصل ثروته أو ورثها أيضا ولكنه دائب فى العمل مثقل كاهله بالتبعات الجسام

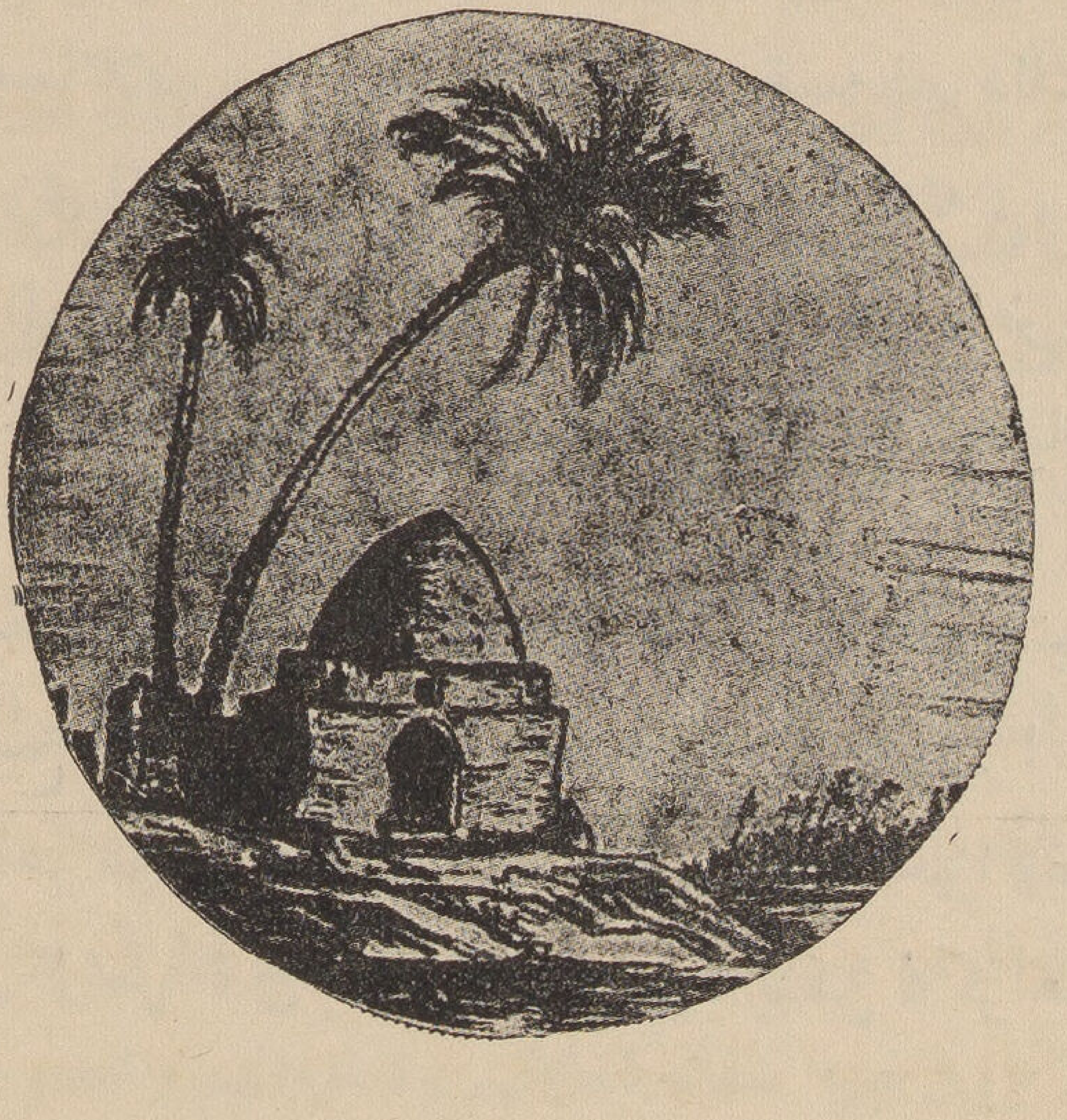
أما الصنف الاول ولنسمه « الهانىء » فانه معرض دائما لان تفقده حياته الهينة كل شعور بالواجب نحو الآخرين ، وهو لذلك فاقد للثقة بالنفس والاعتماد عليها . مهدد بأن يقع فريسة لسوء التقدير ويذهب ضحية للمخاتلات ، بل وهو فى خطر من نفسه غير ذلك . هو الاستسلام للوهم ، والاندفاع أمام التيار الغريزى الى حيث تفسد نفسه وتتلاشى ارادته ، وهذا ينتهى به غالبا الى تدهور خلقى شائن يسلمه الى براثن « النورستانيا » اللعينة ، وهى مرض عصبى عضال ، لم يعرف إلا بعد الحرب . وهنالك الطامة الكبرى ، اذ تصبح حياة المريض ودنياه زاخرة بالاحزان المتصلة المستحكمة الحلقات

أما الصنف الثانى من طبقات الموسرين ، الذي يعنى بالعمل ويضطلع بالتبعات . فان الغالب فى هؤلاء تضخم الأنانية ، حتى ليصبح الواحد منهم أبخل على نفسه من نفسه . ! وهم بذلك خاسرون حب الناس ، وان كانوا فى الظاهر موضع الحفاوة والتبجيل أينما راحوا وغدوا . ويستطيع القاريء أن يصور لنفسه أحزان الرجل الذى يشعر بالمحيط حوله يكن له كراهية شديدة ومقتا هائلا ! غير ما يظهر له

***

والآن ... بعد أن أجلنا المامة عاجلة بأطراف الحـديث ، نري من اللازم الاشارة الى احزان الطوائف الدينية والاقليمية واللونية أيضا . فأحزان اليهود معروفة مشهورة . حتى انهم يريقون الدماء ويثيرون العجاج فى سبيل حصولهم على وطن قوى معترف به من أصحاب الديانات الأخرى ومنذ أمد غير بعيـد أخرج منهم عنوة رهط كبير عن ديارهم ، وجردوا عن متاعهم ونشبهم . وأحزان المنبوذين فى الهند معروفة مشهورة الأخبار ، حتى انهم يحرمون كل الحقوق المدنيـة والسياسية والاقتصادية التى يتمتع بها غيرهم من الطوائف والنحل . ونسمع الآن أن الزعيم الهندي الأكبر يصوم من أجل انصاف قضيتهم ، ويناصرها بكل ما أوتى من قوة الايمان بالحق .! وهنالك زنوج أمريكا الحمر ، والسود ، محرومون كثيراً من الحقوق ايضا . رغم أن منهم أبطالا كثيرين ونوابغ أفذاذاً فى مختلف الميادين والحرف

احمد فتحى



الحقيقة

فصل من كتاب « المسالك الجديدة فى العلم » للاستاذ ارثر ادنجتون أستاذ الفلك والفلسفة التجريبية بجامعة كمبردج وترجمة الاستاذ رمسيس شحاتة

دعنا ياسيدى القارىء نسأل أنفسنا هذا السؤال :

ما هى طبيعة الحقيقة . هل هى مادية ، أم روحية ، أم مزيج من الاثنين ؟ ورغم اننى كثيرا ما بينت كراهيتى لكلمة « حقيقة » لأنها غالباً ما تعقد الموقف فقد اضطررت لأن أضع السؤال السابق على هذه الصورة لأنها الصورة التى يوضع فيها عادة ولكن ذلك سوف لا يمنعنى عن أن أجيب على ما يرمى اليه القارىء وما يمكن أن يقصده بسؤال كهذا حسب اعتقادى

ولكن دعنا أولا نتأمل سؤالا آخر ربما كان فى جوابه ايضاح كثير للمسألة . وهذا السؤال نضعه على الصورة الآتية : هل المحيط مكون من الماء أو من الأمواج أو منهما معاً ؟ . لقد أكد لى بعض الزملاء فى أثناء رحلة فى المحيط الأطلنطى أن المحيط لايمكن أن يكون إلا مكونا من الأمواج ولكن ذلك لايمنعنى من الاعتقاد ان المحيط مكون من الماء فى الواقع . ونحن اذا سلمنا وقدرنا أن طبيعة المحيط مائية سوف لا نجد على الأقل من يعارضنا فى ذلك مؤكدا أن طبيعة المحيط على العكس مما نقول موجية أو انها مزدوجة جزء من الماء وجزء من الامواج مثلا . وبالمثل أعتقد ان طبيعة الحقيقة روحية وليست مادية كما انها ليست مزدوجا ماديا روحيا وهذا يرجعنا إلى السؤال الأول . اننى لا أسلم أبداً بالغرض القائل أن طبيعة الحقيقة يمكن أن تكون إلى درجة معينة مادية لأننى أعتقد أن الفكرة والصورة الجديدة التى يعطيها العلم الحديث للمادة الآن تجعل ربط صفة « المادية » بالاسم « حقيقة » أمر ليس له معنى

وفى تفسيرنا لكلمة مادى — أو بلفظ أدق ومعنى أضبط فيزيكى — بأنها تدل على مايمكن أن ندركه عن طريقة التجارب الحسية فى العالم الخارجى نرى أنها تناظر الأمواج لا الماء فى محيط الحقيقة . إن جوابى على السؤال لاينكر وجود الكون والعالم الفيزيكى كما ان الاجابة بأن المحيط مكون من الماء لاينكر وجود الأمواج . انما نحن نصل إلى الطبيعة الداخلية للاشياء عن طريق

التحليل الآتي : — إن الموجة كالعالم الفيزيكي أو المادي الترمزي عبارة عن معنى أجوف لايمكن أن يحوي داخله أي شيء . اننا نستطيع أن نكون أمواجا من الماء أو من الهواء أو من الأثير أو حسب نظريتي النسبية والكوانتم أمواجا من الاحتمال . وهكذا يبقى علينا حتى بعد أن ترشدنا الفيزيكا الى الامواج أن نعين ما تحويه هذه الأمواج وذلك بطريق آخر من طرق المعرفة غير طريق الفيزيكا

وإذا كنت ياسيدي القاريء ستفهم من هذا أن علاقة المظهر الروحي للتجربة بمظهرها الفيزيكي كعلاقة الماء بالشكل التموجي فانني أستطيع أن أتركك لأن تحدد بنفسك اجابتك على السؤال الذي سقناه في أول البحث وبذلك أتحاشى كل سوء فهم ممكن . ان المهم هو كما ترى أن مظهري التجربة يشتبكان الآن معاً دون أن يطغى أيهما على مكان الآخر . وعلى ذلك فانه يظهر لنا كما لو أن الفهم الحديث للكون الفيزيكي يترك مختارا محلا واسعاً لحقيقة الروح والوعي

وبتسليمنا فقط بوجهين للتجربة الوجه المادي والوجه الروحي فاننا لابد بطبيعة الحال أن نعطي كلا منهما معنى هاماجدا . فنحن لانستطيع أن نتصور أن الأساس اللامادي للرموز الفيزيكية واضح في أي مكان آخر قدر وضوحه في حالة تلك الرموز الفيزيكية التي يمكن أن تعبر عنا . ودون أن نقيد أنفسنا بأي تعميم نظري لا نستطيع إلا أن نسمي هذا الاساس اللامادي إلا روحيا مما يتفق والسبيل الوحيد الذي لدينا لمعرفة حقيقته

ولكي نري الفكرة بأجمعها دعنا نتأمل أيها القاريء كيف تدخل أنت في سلسلة المعرفة . انني أستطيع أن أصفك حسب البحث العلمي كجزء من الكون الفيزيكي وأن أعين في المكان والزمان وأن أعين تركيبك الكيماوي و . . . الخ والمعلومات أو المعرفة التي يمكن أن أجمعها بهذه الطريقة معرفة غير مباشرة لأنني حصلت عليها — ككل تجاربي الحسية — طريق التغيرات الفيزيكية في جهازي العصبي . ولكي أعطي هذه المعرفة أضبط الاشكال وأدق الصور يجب علي أن أستعمل لذلك رموز الفيزيكا الرياضية والمعادلات التي تربط هذه الرموز ببعضها . قد يكون كل ذلك صورة مدهشة لك ولكن لاشك يشمل كل مايمكن أن أجمعه من المعرفة عنك . انني أعتقد انه الى جانب ذلك الجزء من مخك الذي يخبه الفسيولوجيون على الاخص كأنه « أنت » هناك شيء آخر . لست فقط ذلك التركيب التي تضمه وتعبر عنه تلك الرموز الفيزيكية انما أيضا « ذلك الشيء الذي يعنيه الحق وله يهتم » والذي يجب علينا بضرورة الامر أن نسلم بوجوده منذ بدأ تساؤلنا وبحثنا وما كنت لأحاضرك الآن مالم اكن متأكدا من ذلك . ومعرفتي لك هذه أبعد من معرفتي عن بنائك الفيزيكي لانني حصلت عليها جزئيا من مظاهرك وسلوكك الفيزيكي وجزئيا من معرفتي المباشرة لما يمكن أن تعنيه هذه الظواهر في حالتي شخصيا . وكما ترى ان المقصد قريب ولو

ان الرحلة الطويلة . ان هذه المعرفة ليست من النوع الرمزى لان الطبيعة التى أعطيك اياها بناءاً عنها تتكون من خواص معروفة لى فى عقلى دون أى تدخل حسى فى ذلك

والآن الى أى حد تتأثر الغريزة الحديثة بهذا الفهم وهذه الفكرة ، اننى اعتقد أنها تتأثر بالشكل الآتى ... إن فلسفة معينة تدعى أثر طبيعة المنضدة مثلا معروفة الى عقليا دون أن تتدخل فى تلك المعرفة أي عملية حسية كانت . وعلى النحو كل من اطلع على نظرية النسبية لابد أنه قد اصطدم بتلك العقيدة الذائعة وهى أن المكان معروف لنا عقليا دون تدخل أي عملية حسية فى ذلك ويرجع الفضل الى نظريتى النسبية والكوانتم فى استئصال هذه العقيدة من الفيزيكا واستبدالها بفكرة المعرفة الرمزية التى تلعب دوراً هاما فى هذا البحث

ولعلك الآن ياسيدى القارىء تود أن تسألنى عما اذا كانت نفس الطبيعة الروحية التى لذرات والكترونات المخ الحى تتعداها الى كل الذرات والالكترونات التى فى الكون . وأنا أجيب على ذلك بأنه ليس من المناسب ان نتكلم عن الذرات والالكترونات من هذه الناحية وبهذه الكيفية . انه من الواضح لنا أن وعينا مرتبط بجزء من المخ ولكننا لاندعى أن عنصراً ما من عناصر ذلك الوعى مرتبط بنوع ما من الذرات التى من المخ . فعناصر الوعى هذه ليست الا افكارا معينة واحساسات خاصة بينما عناصر خلية المخ هى الذرت او الالكترونات وهاتان المجموعتان من العناصر لاتوازى أو تناظر بينهما . وعلى ذلك بينما أعتقد أن وراء الكون الفيزيكى ميدانا روحيا لا أظن اننى اعتقد ان هذا الميدان الروحى موزع بحيث تتناسب اجزاؤه على كل جزء من المكان او الزمن . والنتيجة الاخيرة التى أصل اليها هى انه رغم أن البحث فى معضلة التجربة او الحقيقة يقودنا فى آخر الأمر الى حجاب أو ستار من الرموز فهناك معرفة مباشرة موجودة فى عقول وامخاخ الكائنات الواعية ترفع هذا الحجاب فى اماكن معينه وما نستطيع أن نراه خلال تلك الفتحات ذا طبيعة روحية وعقلية أما فيما عدا ذلك فنحن لانري إلا الحجاب

لقد ابتعدنا فى الوقت الحاضر كثيرا عن تلك الأيام المريحة السهلة التى كنا فيها رغم ما كنا نشعر به من جهل حيال دقائق وتفاصيل بناء المادة بل نعتقد اننا انفسنا معضلات خفية عويصة ليس للعقل أن يسبر غورها وفى ذلك الوقت كان يخيل لنا جميعا اننا نعرف حقا مايمكن أن تكونه طبيعة هذه المنضدة مثلا . انها كانت عبارة عن المادة تلك الحقيقة العامة التى يدركها الجميع أتم ادراك ولكن لا . انه خطأ فاحش ان نتصور اننا نعرف قليلا عن عقولنا وامخاخنا مع انه هنا قبل أى مكان آخر تبدأ المعرفة . اما مايتعلق بالاشياء الخارجية فاننا ندرسها و نفحصها بواسطة العلم ولكننا لانستطيع أن « نعرفها » حقا . إن تتبعنا لهذه الاشياء الخارجة عنا قد قادنا من المادة الصلبة الى الجزيئات ومن الجزيئات الى شحنات كهربائية موزعة مبعثرة ومن هذه الشحنات الى امواج الاحتمال

ومن يدرى ماذا يكون بعد ذلك ؟

ان هذا لايؤدى الى العروضية المطلقه « Su lyeatinim » ان الاشياء الفيزيكية حسب فهمى هى أيضا ماهى حسب فهمك انت أيضا فهناك عالم خارجى ليس جزءا من مخ أينا ولكن الذى نشترك فيه هو ذلك الجزء المحايد الذى نشأت فيه أسس التجربة . اننى اعتقد انه ليس هناك أقل شك فى ان فكرة العلماء الآن عن العالم الخارجى اكثر

من القرن السابق حيث كان كل تفسير للظواهر الطبيعية يستند الى العقيدة الراسخة بأنه لايمكن يوجد شيء مالم يمكن للمهندس أن يصنع مثالا له . ان المادية الجافة التى كانت ترمى الى اختزال الكون وكل مافيه من عضوي او غير عضوى إلى نوع من العجلات والاقواس أوغيرها من الحيل قد اختفت تماما . بل ان التفسير الميكانيكى للجاذبية اوالكهربائية قد أصبح الآن ممايستدعى الضحك انك تستطيع أن تسلم الفيزيكيين الآن العقل البشري وأنت آمن انهم سوف لايكتشفون فيه رحى طاحون أو شيئا كهذا ولكن يحسن بنا أن لانبالغ فى تقدير هذه العلاقات الحسنة والعوارض الطيبة فى الفيزيكا الحديثة لأن استبداد المهندس قد اعقبه استبداد الرياضيين وهناك على الأقل رأى عام يزداد يوما من يوم وهو أن الرياضى سيد أقل استبدادا من المهندس لأنه لايدعى فهما اعمق مما تصوره رموزه

ولقد اشرت فى كتاب سابق الى عادة للفيزيكيين لاأفهمها وهى اعتبار عملية الخلق كأنها من عمل عالم رياضى ومن الممكن أن يكون التهكم الذي ورد فى تلك الصفحات اقل لذعا الآن مما كان وقت ظهورها . اننى لم أكن استطيع أن اتنبأ وقتئذ أن زميلا لى قد يدلى جديا بوجه نظر تجعل « المهندس الأعظم للكون يظهر كرياضى بحت وذلك حسب شهادة خليفته » انجينز قدنبذه وهو « انه من الممكن أن تعتبر أن الرياضى لايرى الطبيعة إلا خلال النظارات التى اصطنعها لنفسه »

وجينز فى نبذه لما يظهر لى كأنه الرأى الصحيح يشير الىفشل النظريات الشبه البشرية ثم حيل المهندس من يعدوا فى تفسير الكون ويوزاى بينهما وبين ما أصابته الفكرة الرياضية من نجاح فى ذلك . وهناك عاملان يفسران فى رآى النجاح النسبي الذى اصابه الرياضى وذلك انه قبل كل شيء المروض المحترف للرموز وفى استطاعته أن يعالج كميات مجهولة منها وأن يقوم بعمليات رياضية مجهولة ايضا . ومن الواضح انه الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يساعدنا فى استخلاص شيء من المعرفة من بين كثير من المجاهيل . ولكن السبب الرئيس فى انتصاره على انصاره وزملائه هو اننا سمحنا له أن يملى علينا شروط المسابقة . ان مصير أي نظرية عن الكون موكول الى اختيار عددى فهل فى ذلك حق وانصاف ! أنت لست متأكدا ان الرياضى يفهم العالم خيرا من الشاعر او المتصوف وربما كانت كل بضاعته انه يجيد الجمع

مرض السرطان

دراسة تحليلية لهذا المرض الوبيل . آخر ما وصل اليه العلم الحديث في تفسيره وهل هناك علاج حاسم له

بقلم الاستاذ رمسيس شحاته

يكفى الان أن يذكر أمام العامة من الناس اسم السرطان لنري مقدار اشمئزازهم وكراهيتهم المتمكنة لهذا المرض الوبيل . بل إن مجرد ذكر ذلك الاسم كفيل وحده لانفاذ الرعب فى قلب السامع الذى لايتأخر فى أغلب الأحيان عن الاستعاذة بالله والانبياء والاولياء والصالحين من شر ذلك المرض وكأن مجرد ذكره كاف لأن يجعل السامع عرضة للوقوع فى حبائله كما لو كان شيطانا رجيما

والادهى انك لو سألت زيدا من الناس عن ذلك المرض أفاض لك فى الشرح والكلام وامعن فى الوصف والتدقيق كأنه الخبير العليم بكل بواطن المسألة ودقائقها . ولئن فاته أن يزودك ببعض معلوماته فسوف لاينسى أبدا أن يؤكد لك أن هذا المرض هو معضلة الطب الحديث ومشكلة المسائل فيه وهو قاهر الأطباء ومدوخهم مهما ادعى مدعوهم ومهما كثرت آمالهم . لعمرى ما يقدر ذلك الشخص ما فى ذلك من تهكم وزراية بطائفة من الناس لو علم لأعطاهم كل ثقته ولشفعهم بكل عنايته وعطفه

انه لمن الغريب حقا أن يعنى الجمهور كل هذه العناية بمرض هو فى الواقع أشد الامراض غموضا وابهاما بل اكبرها تعقيدا فى أعين الطب والأطباء . وأكبر ماتخشاه أن يكون الجمهور ليس على ماهو عليه من تشوق الى تسقط أخبار هذا المرض وتتطور الابحاث والنظريات المتعلقة به إلا تشفيا من الطب وشماتة فى الأطباء . فلو كانت هذه حقيقة ميل الجمهور فابشر إذن بسوء العاقبة والحق لنا عندئذ أن نقول ان الطب ورجاله قد لاقوا اقبح الجزاء على خدماتهم المتوالية المتعددة . على أنه مما يبعث فى نفوسنا بعض العزاء أن نلاحظ أن هؤلاء هم فى الواقع المشوق الاساسى للجمهور فى التطلع إلى اخبار هذا المرض واليهم يرجع كل الفضل فى كل مايعرفه الجمهور ومايتناقله من المعلومات عن هذا المرض . واغلب الظن أن السبب الذي دفع بهم الى القيام بهذه الدعاية الواسعة رغم ما قد

ينشأ عنها من خطر محقق لو أساء الدهماء استعمالها وتوجيهها هو تنبيهم إلى شر ذلك المرض وعوارضه رجاء الحصول على مساعدتهم فى التغلب عليه وقهره بل استئصال شأفته نهائيا

مكان السرطان بين الامراض عامة

والسرطان من أخبث الامراض وأشدها فتكا ويزيد المسألة تعقيدا وخطرا أننا لانعرف عنه إلا القليل ولكن مهما كان جهلنا بأمره ومهما تضاربت النظريات فى تفسيره ومحاولة استجلاء حقيقته والكشف عن سره فلدينا من المعلومات مايسمح لنا بأن نضعه فى مكانه الحقيقى بين الامراض وهذه الخطوة وإن بدت فى أول الأمر تافهة هينة فهى أول سهم صائب سدد إلى قلب المعضلة ومن يدري ربما كان هذا السهم هو كل مايلزم من الأسلحة والأساليب لكشف الستار عن غوامض المعضلة نهائيا

مما لاشك فيه أن السرطان من الأمراض التى تطلق عليها اسم « الأورام » وتتميز هذه الامراض عن غيرها بانها ليست ناشئة بالضرورة عن الميكروبات . اى انها بعبارة أخرى ليست التهابا . فالسل مثلا مرض قتال وهو يضارع السرطان من حيث فتكه وبطشه ولكنه مرض التهابى ناشىء عن التهاب الأجزاء المصابة به كالرئة مثلا فى حالة السل الرئوي وهذا الالتهاب نتيجة حتمية لوجود ميكروب السل فى الرئة نفسها . فليس من الممكن ايجاد اصابة السل دون إدخال الميكروب الخاص به الى الجسم بينما نحن لانعرف للسرطان ميكروبا ونكاد نقطع فى أغلب الحالات بعدم وجود أى نوع من الميكروبات فيه

وتتميز الأورام عن بقية الأمراض فوق مابينا من اختلاف فى منشئها فى كيفية تطورها فالميزة الكبرى التى تنفرد بها الاورام هى قدرتها على النمو والزيادة المضطردة واستقلال ذلك النمو عن نمو الجسم نفسه فليس هناك أى علاقة بينهما . فاذا أصاب السرطان طرف الأنف مثلا شاهدت ذلك الطرف يأخذ فى النمو والازدياد مع عدم تناسب نموه مع النمو العام للعضو ويستمر الورم فى النمو طالما بقى المصاب به على قيد الحياة . ولقد لوحظ فى بعض الحالات ان نمو الورم قد فاق نمو الجسم بأجمعه كما أمكن مشاهدة عدة حالات تعدي فيها وزن الورم بعد فصله وزن الشخص الذى كان يحمله

ومن المهم أن تفرق بين نمو الاورام وبين ما يصحب بعض الالتهابات من انتفاخ وهو مايطلق عليه الناس عادة كلمة ورم وهناك فرق واضح بين الزيادتين . فلو تأملنا قليلا من سبب مانلاحظه من نمو فى حالة الاورام لوجدنا أنه ناشىء عن تضاعف الخلايا المكونة له فى العدد وكبرها فى

الحجم فنحن نعرف أن جسم الانسان مكون من خلايا . وهذه الخلايا تتوالد بالانقسام وهى فى نمو دائم . ومن هنا نرى أن الورم هو فى الواقع مجرد زيادة الخلايا المكونة لعضو ما أو لأى جزء من اجزاء الجسم زيادة لا تتناسب ونمو الجسم عادة وعلى ذلك فانه من الممكن أن نحصل على أنواع مختلفة من الأورام . فاذا تضاعفت الخلايا الدهنية كان الورم دهنيا وإذا تضاعفت الخلايا العضلية أو العظمية أو الليفية أو العصبية كان الورم عضليا أو عظميا أو ليفيا أو عصبيا على التوالى

أما اذا تأملنا السبب فى ما نشاهده من انتفاخ فى حالة الالتهابات مثل الخراج أو الدمل مثلا رأينا أن هذا الورم ظاهرى فقط وانه ليس ناشئا عن زيادة فى عدد خلايا الجزء المصاب به انما ناشىء عن زيادة عدد الخلايا الدفاعية الواردة الى هذه النقطة مع تيار الدم . وواضح أن السبب فى ورود هذه الخلايا الى النقطة الملتهبة هو محاولة الجسم التخلص من سبب الالتهاب وهو الميكروبات فى هذه الحالة . فاذا اعترض معترض قائلا ان الورم فى حالة الالتهاب ناشىء هو الآخر عن زيادة عدد الخلايا الموجودة فى نقطة الالتهاب وهو بذلك شبيه بالورم فى حالة الاورام امكننا أن نرد على ذلك بسهولة وذلك بالرجوع الى نوع الخلايا الزائدة فهى فى حالة الورم من نفس خلايا العضو المصاب وهى على ذلك عرضة للاختلاف فيما بينها ويتبع ذلك الاختلاف موضع الورم ثم تركيب العضو المصاب به اما الورم الناشىء عن الالتهاب فسببه زيادة فى عدد الخلايا الدفاعية فقط وهى موجودة فى جميع اجزاء الجسم وخصوصا فى الدم وعلى ذلك فجميع اورام الالتهابات متشابها لأن أساسها نوع واحد من الخلايا وهى الخلايا الدفاعية كما بينا

لقد كان من الميسور حسم الجدال سريعا لو لم نكن نطمع من ورائه فى بعض الايضاح . ليس هناك سبيل الى الخلط بين النمو فى حالة الاورام والانتفاخ فى حالة الالتهابات اذ انه من الممكن التمييز بينهما بالعين العادية ودون أن ندفع التحليل الى مستوى الخلايا هذا إذا لم يصل الالتهاب الى درجة التقرح . فالالتهاب عادة يصحبه ارتفاع فى حرارة الجزء الملتهب واحمراره مما لا يشاهد فى أغلب الأورام

مكان السرطان بين الاورام

رأينا فيما تقدم أن السرطان ورم وهو على هذا الاعتبار كالورم الذي يصيب أطراف أصابع القدم فى بعض الاحيان ويسمى عادة « بالكالو » ولكن ما أشد الفرق بين المرضين وما أبعدهما البعض عن الآخر من كل النواحى تقريبا . إذا كان السرطان ورما فهو ورم من نوع خاص ليس كبقية الأورام وهذا النوع من الاورام اتفق على تسميته بالأورام الخبيثة دلالة على خطرها واشارة الى

فتكها وكما أمكننا تقسيم الأمراض الى امراض التهابية وامراض ورمية فانه من السهل علينا أن تميز فى الامراض الورمية بين نوعين من الاورام اولهما الاورام العادية ثم الاورام الخبيثة . ورائدنا فى هذا التميز هو سير هذه الأورام وتطورها

نلاحظ اننا اذا استأصلنا ورما عاديا وكان الاستئصال كافيا فان الورم يزول ولا يعاود الظهور بالعضو المريض ثانية . مثال ذلك الزوائد التى تظهر احيانا على الرقبة او الجبهة أو طرف الأنف والتى تزول ويختفى اثرها بمجرد ازالتها واستئصالها اى التى يكفى للشفاء منها التخلص منها أولا . أما الاورام الخبيثة فليس الاستئصال هو علاجها النهائى فكم من سرطان عاود المريض فى نفس الجزء الذى كان به وذلك بعد استئصاله . إن شرط نجاح الاستئصال هو أن يستأصل الجزء المصاب وأن يستأصل حوله جزء كبير مما لم تظهر فيه الاصابة بعد فوق استئصال الغدد اللمفاوية المتعلقه به مما يتعذر عمله فى أغلب الاحيان

مما تقدم نرى أن الأورام الخبيثة تمتاز بقدرتها على الانتقال من جزء الي جزء والى تخلل الاجزاء المجاورة لها مادة تشعباتها فى هذه الاجزاء مما لا يلاحظ فى الأورام العادية . فسرطان حلمة الثدى كغيره من السرطانات قادر على مد تشعباته فى داخل الثدى نفسه مصليا بذلك مايجاوره من الأنسجة ومسببا لها من الضرر والخسارة الشىء الجسيم . وقدرة التخلل هذه مقصورة على الأورام الخبيثة وهى التى تجعل عملية الاستئصال الكامل التام تقرب من المستحيل فى كثير من الأحيان

والميزة الكبرى التى تمتاز بها الأورام الخبيثة هى قدرتها على العدوي عن بعد وتكوين مايعرف بالبؤر البعيدة . فسرطان المستقيم مثلا له القدرة على تحقيق سرطان الكبد أو المعدة أو المثانة أو البروستاتة وربما الكلى أيضا . وليس ذلك عن طريق الانتقال بواسطة التشعب والتخلل السابق الذكر ولكن عن طريق العدوى المباشرة وذلك بانتقال الخلايا السرطانية فى الأوعية اللمفاوية والغد اللمفاوية والدم احيانا من العضو المصاب إلى بقية الاعضاء الاخرى . وهذه الميزة هى فى الواقع الحد الفاصل بين الاورام العادية والأورام الخبيثة . وهى المرجع النهائى فى التمييز بينهما والسرطان هو أحد هذه الأورام الخبيثة ولكن الطب يعرف غيره من الاورام التى تشترك وإياه فى هذه الخاصة وإن كان هو الممثل الرئيس لهذه المجموعة من الاورام

مكان السرطان بين الامراض الخبيثة

رأينا أن السرطان هو أحد الاورام الخبيثة وكما كان من السهل أن نعين هذه الفئة من الاورام وأن نحصرها فى حالات معينة بما أوصلنا التحليل العلمى إلى التميز بين خواصها العامة تميزا قاطعا

فانه من الميسور أيضا التفريق بين انوع هذه الاورام الخبيثة المختلفة . ولايكفى أن نحدد إذا كان الورم خبيثا أو عاديا لمعرفة كل خواصه إنما يجب أن ندفع التحديد إلى أبعد من ذلك اذا كنا نريد حقيقة أن نحلل المسألة تحليلا علميا صحيحا . يعلمنا علم الهستولوجية أو الانسجة ـ ويؤيده فى ذلك تأييدا قاطعا علم الاجنة ـ ان جسم الانسان يمكن أن نميزفيه بسهولة بين نوعين من الخلايا ليس من سبيل إلى الخلط بينهما فانه من الحالات النادرة أن نري تحول خلايا أيهما إلى خلايا الآخر كما أن الفرق بينهما من حيث الشكل والتركيب والعمل واضح ليس من الميسور اهماله او تخطيه . اما هذان النوعان من الخلايا فيحتل أولها الخلايا المكونة للانسجة المخاطية على اختلاف انواعها وتشمل خلايا الجلد ثم الطبقة المبطنة للقناة الهضمية من أولها إلى آخرها ثم خلايا جميع الغدد الموجودة فى الجسم وهى على وجه العموم خلايا افرازية كما يسهل أن نرى ذلك بمجرد ملاحظة توزيعها فى الجسم . وإلى جانب هذه الانسجة المخاطية يشمل هذا الفريق الاول من الخلايا المكونة للجهاز العصبى . ويلاحظ أن جميع هذه الانسجة سواء النسيج المخاطى أو النسيج العصبى صادرة عن الغلاف الخارجى للجنين Ectoderme بينما نرى أن خلايا النوع الثانى وهو المعروف بالانسجة الواصلة Tissue Comjonctive تختلف من الخلايا الآنفة الذكر من حيث الشكل ثم العمل الى اختلافها من حيث الاصل والمصدر الجنسى ومعظم هذه الخلايا تقوم بعملية التغذية بالنسبة للخلايا الأخرى ثم حفظها واعطاء الاعضاء شكلها الخاص ووضعها المناسب . أما من حيث الاصل فانها صادرة عن الغلاف المتوسط فى الجنين Meseuchyme

الآن وقد رأينا فى العجالة المتقدمة كيفية بناء الجسم البشرى على وجه العموم وكيف انه من الممكن أن نميز فى خلاياه المختلفة نوعين رئيسين من الخلايا نريد أن نعرف أيهما عرضة للاصابة بالسرطان . ولو تأملنا قليلا الاسم اللاتينى الذى يطلق على السرطان لأمكننا أن نعرف على وجه التقريب أى النوعين الآتيين يمكن اصابته بالسرطان . فكل سرطان يسمى بوجه عام Epitheliuma ومن الميسور أن نري علاقة هذه الكلمة بكلمة Epi theliam التى أطلقناها على الأنسجة المخاطية وعلى ذلك نرى أن السرطان لايصيب إلا خلايا النوعين الأول وهو لا يصيبها جميعاً بل نستثنى منها الخلايا العصبية . وليس معنى ذلك ان السرطان لا يصيب الخلايا العصبية وانما اصطلح على أن يسمى مثل هذا السرطان بلفظ علمى آخر وهو جليوم

وهناك ورم خبيث آخر يشابه السرطان كثيرا ولكنه يصيب النوع الثانى من الخلايا الداخلية وهو يسمى حسب الاصطلاح اللاتينى ساركوما . وسوف لا نتعرض له فيما يلى ولو أن وجه الشبه بينه وبين السرطان عظيم وذلك رجاء التبسيط والوضوح

مما تقدم نري أن الخلايا التى يصيبها السرطان كلها خلايا افرازية وهى موزعة فى جميع أجزاء الجسم إذ توجد على طول القناة الهضمية من أولها إلى آخرها كما انها تكون الجزء الرئيس فى كل

الأعضاء الداخلية تقريباً مثل الكبد والبنكرياس والكلى وغيرها زائدا الى ذلك انها العنصر الأول فى تركيب الغدد على اختلاف أنواعها وأوضاعها . من هنا نشأ امكان وجود السرطان فى أى عضو من أعضاء الجسم حتى فى الرئة

تطور السرطان

أول ما يصيب السرطان خلية من الخلايا يلاحظ عليها اسراع فى النمو والانقسام إلى حد زائد بحيث تصبح وحدها أساساً لورم يمكن ادراكه وملاحظته بالعين المجردة على انها لا تستغرق فى ذلك وقتاً طويلا فقد يتم تكوين البؤرة فى أسابيع معدودة . ويشمل هذا النمو جميع أجزاء الخلية خصوصاً نواتها فتتضخم بحيث قد تشغل فى بعض الأحيان نصف حجم الخلية مع انها فى الحالات العادية لا تشغل إلا جزءاً ضئيلا من الخلية نفسها قد لا يتجاوز فى بعض الاحيان واحدا من مائة من الحجم الكلى للخلية . ويصحب هذا النمو تغير ظاهر فى تركيب الخلية . فهى وان كانت تظل حافظة لتركيبها فى أثناء الادوار الأولى من المرض فانها تفقد كل أثر لهذا التركيب فى الأدوار الأخيرة بحيث يتعذر كثيرا معرفة نوع الخلية التى نشأت عنها أولا . ولا ينحصر هذا التغير فى شكل الخلية وحجمها من حيث التضخم أو الكبر أو من حيث اختلاف نسب أجزائها عن النسب العادية بازدياد حجم النواة ازديادا ملحوظاً انما يتعداه إلى شكل الخلية نفسها إذ تذهب معالمه كما يتناول التغيير الأجزاء الأخرى المكونة للخلية وأخصها عصيات الكروماتين والتى يسمى مجموعها بالكوندريوم فتصبح أكبر قبولا للألوان فوق ظهور أشياء جديدة بالخلية لم تكن بها من قبل

ومن مثال ذلك المكونات الحافرية والقرنية التى تلاحظ فى نوع من أنواع سرطان الجلد

ويستمر الورم فى النمو والازدياد أولا بازدياد خلاياه لسرعة نموها وكثرة انقسامها وثانيا باصابة الخلايا الاخرى المجاورة له والتى سرعان ما تأخذ فى نمو والانقسام بدورها . ولو تأملنا قليلا ما ينشأ عن ازدياد هذا النمو واضطراده رأينا انه لابد وان يسبب نقصاً شديدا فى الأغذية الواردة الى الخلايا السرطانية الموجودة فى المنطقة الوسطى من الورم والتى لا تصل اليها الأغذية إلا بعد مرورها على المناطق الخارجية ويشتد هذا النقص شيئاً فشيئا ويشتد عوز تلك الخلايا إلى الغذاء حتى ينتهى بها العوز والحاجة فى آخر الأمر الى الاستشهاد فتموت جوعا وتنحل بذلك المناطق المتوسطة وتأخذ فى الزوال والتلاشى شيئا فشيئا . وربما تخيل القارىء أن هذا هو فى الواقع أحد الأسلحة التى تسلحنا بها الطبيعة لمقاومة السرطان ولكنه لو تأمل قليلا لرأى ان ما يظهر لنا فى أول الأمر كأنه سلاح فى أيدينا وسهم صائب نصيب به سويداء قلب المرض ليس الا مدفعاً

جبارا يسدده المرض الى صدورنا عن قرب وعن ثقة بالفوز والنصر

ان اشلاء الخلايا المستشهدة هى أصلح غذاء يمكن أن تجده الخلايا الأخرى لأن هذه الاشلاء مكونة من مواد عضوية لا فرق بينها وبين ما يدخل فى بناء الخلية الحية من المواد العضوية وهى على ذلك سريعة الامتصاص أكيدة الفائدة الغذائية

ان انحلال المنطقة الوسطى يعقبه امتداد الاطراف وتشعبها امتدادا فظيعاً وتشعبا شرها سريعا وذلك الامتداد وهذا التشعب هما الخطوة الأولى فى تمكن المرض وتأصله

ويظل الحال على هذا المنوال والسرطان ينتقل من مجموعة من الخلايا الى المجموعات المجاورة له وهكذا الى أن يصل فى آخر الأمر الى وعاء من الأوعية اللمفاوية أو الأوعية الدموية وهنا تحدث الطامة الكبرى فيتكون ما يعرف بالانتقال عن بعد أو Metastase وينتشر السرطان عندئذ لا عن طريق التأثير المباشر والامتداد من نقطة الى أخرى ولكن عن طريق البذر والتعميم موزعا مع السائل اللمفاوى أو الدم وهما يصلان الى كل جزء من أجزاء الجسم

الخلية السرطانية

ورب قارىء يعترض الان قائلا : لقد اظهرت لنا السرطان كأنه داء من الادواء واشدها هولا ولست اري ذلك فماذا يهم انتشار السرطان وتحول خلايا الجسم كلها من خلايا عادية الى خلايا سرطانية . لا شك أن عدم التناسب فى النمو له أبعد الاثر فى جمال الجسم وتناسق اجزائها ولكن ليس الجمال هو كل شىء فى الحياة وكانى به يريد أن يقول بل حسنا أن يصاب المرء بالسرطان اذ كان ذلك يضاعف عدد خلايا جسمه لأنه لاشك أنه كلما كثر عدد الخلايا وزادت قدرتها على الانتاج والعمل . فى الحق ان اعتراضا كهذا اعتراض وجيه بل انه على جانب عظيم من الصدق والكياسة ولكنه لايلبث أن يتحول إلى أضحوكة لذيذة إذا امعنا فى تحليله قليلا

قلنا ان تحول الخلايا العادية الى خلايا سرطانية يصحبه فى الادوار المتقدمة من المرض تغير كامل فى تركيب الخلايا وبديهى ان هذا التغير لايمكن أن يكون عديم الأثر فى عمل الخلية فالواقع ان الخلية تستمر فى أول الامر على أداء وظيفتها كما لو لم تكن أصيبت بالسرطان وقد يلاحظ عليها أحيانا زيادة ظاهرة فى النشاط وانتاجا أكثر عن المعتاد ولكنها لاتلبث اذا اشتد بها التغير أن تفقد القدرة على أداء عملها فقدانا تاما فتأملوا اذن هو ذا جسم الانسان قد أصبح كتلة من الخلايا التى لاتؤدى عملا . أفيستقيم أمر كهذا والحياة ؟!

إن الخلية السرطانية لاتفقد وظيفتها الأولى فحسب انما تكتسب بمجرد تسرطنها وظيفة جديدة

وهى افراز السموم الخاصة بها وهذه السموم فوق باعها الطويل فى نشر السرطان وتعميمه تقتل الخلايا التى تلحقها مسببة لها مايعرف بانحلال الأنسجة ، وناهيك عما لهـذه العملية من ضرر بالغ بالجسم . وهذه السموم فوق قتلها الخلايا تنتشر فى الجسم فتسبب له ضعفا عاما وهو مايسبب ما يعرف بالضعف العام الذي يسبق الموت عادة فى حالات السرطان . وقد يتسبب الموت بالسرطان عن غير هذا السبب فقد يؤدى النمو الى ضغط بعض الأعضاء الحساسة أو الى سد بعض الاوعية أو الامعاء مثلا مما يؤدى الى الموت قبل بلوغ الجسم الى حالة الضعف المشار اليها آنفا

أسباب السرطان

قد يعجب القارىء أن نتعرض الآن للكلام عن أسباب السرطان وقد سبق أن ذكرنا أن هذا هو لغز الطب الحديث ومسألة المسائل فيه على أن بحثنا لايشير الى مانعرف عن هذه الاسباب لايمكن الا أن يكون بحثا مبتوراً . فانا وان كنا نجهل الآن السبب الحقيقى للسرطان فلم نعدم أن نعرف له بعض المسببات المعينة . وإنا وان كنا نجهل على وجه الاطلاق حقيقة هذا المرض وطبيعته الداخلية فلدينا طرق عدة لتوليده وهى طرق أضحت من القوة بحيث لانستطيع الشك فيها فاذا كان سر السرطان الرئيس ما زال خافيا علينا فلا أقل من أن ننسبه الى مانعرف من الاسباب ومن يدرى ربما أظهرت الابحاث أن التعمق فى معرفة السرطان أمر لامحل له ولاداعى للبحث عن معرفته لانه يظهر الآن أننا نستطيع فى كل حالة نسبة السرطان الى سبب واحد قد يكون من الخير أن نسلم مبدئياً أنه السر المغلق الذى طال البحث عنه والتنقيب عن آثاره

لاشك أن النظرية المتقدمة فيها كثير من الجرأة وربما قلنا كثير من التعسف أيضا ولكن مما لاجدال فيه أن للسرطان أسبابا معينة وهذه الاسباب كلها تشير الى مسبب رئيس يمكننا عن حق احتسابه العامل الأول فى سرطنة الخلايا أو قل هو العامل الوحيد والسبيل المفرد لذلك

ولا يمنعنا ماتقدم عن استعراض الأسباب التى سبق الاشارة اليها فذلك هو السبيل الوحيد على مانعتقد الى تحليل المسألة ودراستها دراسة مثمرة . وتنقسم هذه الاسباب الى شيع ثلاث : الاسباب الحيوية وهى التى تجعل من الميكروبات والطفيليات السبب الرئيس فى السرطان ، ثم الاسباب الكيماوية وهى التى تعزى السرطان الى وجود مواد كيماوية معينة بكثرة فى الجسم ، ثم الاسباب الفيزيكية وتعزى السرطان الى عوامل فيزيكية معينة

النظرية الحيوية

عند مابدأ البحث عن المسبب للسرطان اتجهت الأنظار بطبيعة الحال الى الميكروبات وكانت

إذ ذاك النظرية الميكروبية للامراض فى أوج عظمتها . وتشعب البحث من هذه الناحية تشعباً عظيما ولكن على غير جدوى . ولقد ساعد على تشعبه والاستمرار فيه ملاحظة الباحثين أن الأنسجة السرطانية تحتوى فى أغلب الحالات ان لم يكن بصفة مستمرة ميكروبات معينة واتجه الرأى إلى اعتبار أن هذه الميكروبات هى المسببة للسرطان ولكن لم يكن من الممكن التسليم بذلك إلا باجراء تجارب تكميلية إذ من يدرينا إذا كانت هذه الميكروبات تنشأ فى الانسجة السرطانية بعد تكونها لانها تعد وسطا صالحا لمعيشتها

وللفصل فى ذلك تعين أن تحقن هذه الميكروبات إلى جسم خال من السرطان فاذا أوجدت فيه سرطانا كان ذلك تأييداً شبه قاطع بالنظرية الميكروبية ولكن خيبة الامل فى تحقيق هذه التجربة دعت الباحثين إلى مضاعفة الجهود واستمرار البحث وما زال البحث الى اليوم مستمراً من هذه الناحية ولقد سمحت الملاحظة المستمرة للانسجة السرطانية باكتشاف عدد لا بأس به من الميكروبات المختلفة وبقى علينا أن نعرف أى هذه الميكروبات هو المسبب حقيقة للمرض

ولقد أسعد الحظ كاتب هذه السطور برؤية باحث من الباحثين فى هذا الموضوع وأعنى به الأستاذ باجس أستاذ الطب التجريبي بجامعة مونبيليه بفرنسا وهو يؤيد نظرية أن السرطان ناشىء عن نفس الميكروب الذى يعطى السل أيضا أى باشلس كوخ . ولقد استطاع سرطنة جسم سليم بواسطة حقن هذا الميكروب له . ولكن الأستاذ باجس واحد من أولئك الذين يجعلون من ميكروب السل السبب الاول فى كل الامراض وهو واحد من أنصار مدرسة مونبيليه القديمة . ولاشك أن هذه المدرسة لها أثرها البارز فى تاريخ الطب فى العالم وقد تكون الآن على باب ثورة جديدة تتهدد النظرية الميكروبية للامراض وتؤيد نظرية مدرسة مونبيليه ولكن ذلك لا يكفى لأن يجعلنا نسلم بان السرطان مرض ميكروبى لأن ذلك يعوزه الاثبات والدليل

ونحن نلاحظ أن التفسير الذي تعطيه مدرسة مونبيليه ويعطيه الأستاذ باجس للسرطان يتفق اتفاقا بعيداً والنظرية الفيزيكية لانه وان كان ينسبه إلى ميكروب السل فانه لايعطى هذا الميكروب إلا دوراً ثانويا وسنرى ذلك عند التعرض للنظرية الفيزيكية

وقد نسبت للطفيليات نفس الدور الذى نسب فيما تقدم للميكروبات ونلاحظ أن هذا لايفيد كثيرا فى الموقف فالفرق من الوجهة الحيوية ضئيل بين الميكروبات والطفيليات إذ لايتعدى الفرق فى الحجم من حيث إمكان رؤيتها بالعين المجردة أو بالمجهر . أما فيما عدا ذلك فتشترك الميكروبات والطفيليات فى كل الخواص على وجه التقريب ولقد لقيت النظرية الطفيلية نفس مالقيته النظرية الميكروبية من الصعاب والاعتراضات

نحن لانجزم بفشل النظرية الحيوية فان ذلك فى الواقع أمر سابق للاوان ومهما يكن من قيمة هذا الفشل فاننا لانستطيع أن نؤكد انه فشل نهائى فمن يدرى ماتجىء به الايام للنظرية الميكروبية على أن نظرة عامة للاتجاهات الطبية الحديثة ترينا أن النظرية الميكروبية قد فقدت كثيرا من أعوانها فوق أنها أصبحت الان كالعجوز الشمطاء لابد من جملة عكاكيز لتستند اليها . ان النوعية الميكروبية وهى العمود الفقرى للنظرية الميكروبية العامة تكاد تصبح أثراً بعد عين وليس من سبيل الى الاحتفاظ بها كما وضعها باستور فى أول الامر فانها تكاد تفلت إلى عالم النسيان وتصبح فى خبر كان

النظرية الكيماوية

وظفر السرطان بعناية الكيمائيين أيضا حين توفر على البحث فيه أساطين من البحاثين وعلماء الكيمياء ولم تكن نتائج هذه الابحاث أسعد حظا من النتائج التى وصلت اليه النظرية الحيوية . ولقد عزا بعض الكيماويين السرطان الى المنغنيز وذلك فى وقت كان المنغنيز فى أعين الكيماويين محور المادة الحية ومرجع نشاطها . وعزا الاستاذ كريستول من جامعة مونبيليه أيضا السرطان إلى غنى الاغذية بالزنك وعزا آخرون السرطان الى زيادة أو نقص فى عناصر أخرى كالرصاص وغيره على أن كل هذه الابحاث لم تؤد إلي نتيجة حاسمة

ولكن من بين المواد الكيماوية المختلفة التى عزى اليها السرطان نجد مادتين يستحقان ان نتأملهما على حدة اولهما القار او « الزفت » فلقد لاحظ اليابانيون أن العمال الذين تتعرض أقدامهم وأيديهم لهذه المادة لا يلبثون أن يصابوا بالسرطان ونسبة الاصابة بينهم مرتفعة بدرجة ملحوظة . واتجه الرأى عندئذ إلى اعتبار التعرض للقار سبب الاصابة ولاثبات ذلك عملت ابحاث تحليلية تتلخص فى تغطية الجسم المراد سرطنته بالقار وتركه مدة من الزمن على هذا الحال بعدها ينزع القار ثم تعاد العملية مرات متكررة لوحظ بعدها ظهور السرطان فى مكان التغطية . ظن الكيماويون فى أول الأمر أن المسألة تتعلق بخواص القار الكيماوية ولكن ظهر هناك تفسير جديد لا نتعرض له الآن رجاء وضعه فى مكانه فيما يلى

أما المادة الثانية فهى عبارة عن مشتق كيماوى من المركبات العضوية المكونة للحرارة . وهذه المواد موجوده بكثرة فى جسم الانسان فحاجتنا إلى الحرارة حاجة ملحة فوق ان تكوينها تشترك فيه أعضاء كثيرة مما يجعل هذه المواد موجودة فى أغلب أجزاء الجسم كله . والغريب ان التحول الكيمائى الذى يجب اجراؤه من المركبات الحرارية لتحويلها إلى المواد السالفة الذكر بسيط

جدا وهين إلى درجة بعيدة بحيث نستطيع أن ننسب حدوث هذا التحول الكيماوى إلى العوامل الفيزيكية التى يتعرض لها الجسم عادة . ونلاحظ فوق ذلك أن هذه المسألة تضع تحت أيدينا مفتاحا جديدا للمعضلة فهى تثير مشكلة التربة من جديد وما يكتنفها من المسائل العويصة والألغاز المعقدة . فمعروف ان المواد المرارية موجودة بوفرة فى الجسم البشرى عادة وهى موجودة على ذلك فى كل الأجسام على التساوى وفوق ذلك فان التحول الكيماوى المشار اليه آنفا تحويل بسيط قد لا يتعدى فى بعض الحالات أكسدة بعض ذرات الايدروجين الموجودة فى تلك المركبات وعملية الأكسدة هذه عملية عادية كثيرة الحدوث فى الجسم البشرى فى الحالة الطبيعية مما يجعلنا نسلم بأن كل جسم لابد من احتوائه قدرا ما من هذه المواد المحولة ولكنها مع ذلك لا تسبب له السرطان وعندئذ نضطر اضطرارا الى التسليم بأن التربة ـ وهى عامل شخصى محض خاص بكل جسم ـ لابد انها تلعب دوراً ما فى مسألة التسرطن

والمهم فى مسألة التربة أنها تأييد جديد للنظرية الفيزيكية فلقد حاول العلماء الكيماويون منذ أمد بعيد وعلى رأسهم أساطين المدرسة الألمانية الحديثة تمثيل الجسم البشرى بمعمل كيماوي ولا نقول انهم أخفقوا فى ذلك اخفاقا تاما على أن النجاح الذى أصابوه فى هذه الناحية لم يعادل ماأصابته النظرية الفيزيكية من نجاح فى تفسير الظواهر الحيوية ونعنى بها النظرية الكلوئيدية للاستاذ لويب الامريكى والاستاذ أوجست لومبير الفرنسى · ومهما يكن الأمر فان التربة واختلافها مما يمكن اسناده الى الحالات الفيزيكية المختلفة التى يمكن أن تطرأ على المادة الحية فى الخلية

النظرية الفيزيكية

بينا فيما تقدم كيف تفسر النظرية الحيوية عملية السرطنة ناسبة اياها الى التأثير المباشر للميكروبات أو الطفيليات وأوردنا طرفا مما يمكن أن يوجه الى هذه النظرية من نقد ثم تعرضنا قليلا للنظرية الكيماوية وبينا كيف يحاول الكيماويون اسناد عملية السرطنة الى التأثير المباشر لبعض المواد الكيماوية وألحقنا بذلك طرفا مما يمكن أن يوجه الى هذه النظرية أيضا من نقد وتفنيد ولمحنا فى كل ذلك الى النظرية الفيزيكية ولعل القارىء يتوقع منها حلا نهائيا لمعضلة السرطان وفى الواقع أن هذا ما آمله ويأمله الجميع ولكن لا بد لذلك من ابحاث أخرى طويلة . ان النظرية الفيزيكية هى فى رأيى أبعد النظريات تحليلا للمعضلة وأقواها على تفسير المظاهر المختلفة والمشاهدات المتباينة فى المسألة وهى على ذلك أوفق حل وجد الى الآن ولكنها لا تزال بعيدة عن الكمال وما هى الا خطوة أوسع من الخطى الأخري نحو الغاية المنشودة . فيجب علينا أن لا نخدع أنفسنا أو ان نتوقع منها أكثر مما يمكن أن تعطى

وتعتبر النظرية الفيزيكية السرطان كأنه النتيجة المباشرة لتأثير العوامل الفيزيكية المختلفة فى الجسم . لقد نشأت الفكرة فى باديء الأمر كنتيجة محتملة لما شاهده الفيزيكيون من تكرار الاصابة بالسرطان بين العلماء الذين تضطرهم ابحاثهم الى التعرض الى أنواع معينة من الاشعاعات أخصها أشعة اكس وأشعة الراديوم فلقد ذهب كثير منهم ضحية لهذه التأثيرات وكان من بينهم كثير من الفطاحل والأقطاب فى هذا الفن وفى كل بلاد العالم تقريبا . لم يكن من الممكن اهمال أمر كهذا فلقد روع العالم العلمى بموت الكثيرين من رجالاته كنتيجة لتعرضهم مدة معينة للعوامل الفيزيكية التى سبق التلميح اليها

وهذه العوامل متعددة لاتقتصر على تأثير أشعة اكس أو اشعاعات الراديوم انما تتعداها الى غيرها مثل الاحتكاك أو الضغط المستمرين وقد أمكن اظهار أثر هذه العوامل فى عملية السرطنة بشكل قاطع بحيث نستطيع أن نقول أن فى امكاننا أن نولد السرطان فى جسم خلو منه فى أى وقت وذلك بمجرد وضع هذا الجسم تحت تأثير هذه العوامل كلها أو بعضها . ونظراً للتقدم العظيم الذى حققه العلم الحديث فى علم الفيزيكا استطعنا أن ندفع الابحاث السابقة الى الأمام الى أن بلغنا به حد المقاييس الدقيقة مما يسهل تحقيقه فى الابحاث الكيماوية أو الحيوية . فنحن نعرف على وجه التحقيق القدر الذى تلعبه هذه العوامل فى عملية السرطنة ونعرف انها على اختلاف أنواعها تسلك فى ذلك سبيلا واحدا فسواء استعملت أشعة اكس أو اشعاعات الراديوم أو الاحتكاك المستمر أو الضغط المتوالى فالنتيجة واحدة والكيفية التى ينشأ بها السرطان واحدة أيضا

فاذا سلطت على الجلد مثلا لمدة كافية من الزمن اشعاعات الراديوم أو أشعة اكس فان نتيجة ذلك كما تعلمنا الفيزيكا تتعدى التأثيرات الحيوية المختلفة والتى تستعمل من أجلها هذه العوامل كطرق للعلاج الى اتلاف كمية من الخلايا وانفجارها وهذا الانفجار اما أن ينشأ عن تأثير القذائف كما فى حالة الراديوم أو عن التأثير الكهربائى المغناطيسى كما فى حالة أشعة اكس . وانفجار الخلايا هذا كاف اذا استمر المدة الكافية لتوليد السرطان على النحو الذى أشرنا اليه سابقا . فالخلايا المنفجرة تترك وراءها كميات هائلة من المواد الغذائية التى تمتصها الخلايا الأخري فتتحول نتيجة لذلك الى خلايا سرطانية ويتخلف هذه الخلايا المنفجرة نفسها كما أثبت الاستاذ فيرشون أبو الباثولوجية الحديثة افرازات اسمها الافرازات الانحلالية وهى تسبب موت الانسجة وانحلالها . ويضاعف هذا الموت عملية الامتصاص المبالغ فيه التى أرجعنا اليها عملية السرطنة نفسها

واذا تأملنا بقية العوامل أى الاحتكاك والضغط وجدنا أن ما تقدم يمكن تطبيقه عليهما أيضا . كما يمكن تطبيقه على نظرية الاستاذ باجس المتقدمة الذكر فيكون عمل ميكروب السل أو أى

ميكروب آخر أو أي طفيلي يمكن مشاهدته ليس الا القيام بعملية اماتة بعض الخلايا وانفجارها مما يؤدى الى السرطنة على النحو الذى قدمنا

مما تقدم نرى ان النظرية الفيزيكية تذهب فى التفسير الى الحد النهائى تقريبا فهى تكمل التفسيرات المبتورة التى تقدمها النظريات الأخرى فوق انها توحد بين صفوفها و توجهها اتجاها واحدا واضحا

اذا شئنا اذن أن نتجنب السرطان فعلينا أن نتجنب كل ما يمكن أن يسبب الموت السريع أو انفجار الخلايا الحية مثل التعرض للاحتكاك أو للضغط أو للكم القوى أو للسقطات والصدمات العنيفة فوق تجنبنا العوامل الاخرى مثل التعرض من غير سبب الى أشعة اكس والوقاية منها اذا اضطررنا أن نعمل لذلك لأن علاج السرطان أمر عسير فى الواقع فلا يعرف الطب له الا علاجا واحدا

علاج السرطان

علاج السرطان هو الاستئصال الواسع الممتد فليس المهم هو استئصال كل الورم الرئيس أى الجزء الأهم منه انما المهم هو أن لاتترك أى خلية سرطانية واحدة . وأفضل مايمكن أن يقوم به مريض بهذا المرض هو أن يعطى الطبيب المعالج الحرية فى أجراء العملية بأسرع مايمكن لو رأى ضرورة ذلك فالاسراع فى العلاج عامل من أقوي العوامل ومساعد كبير على الشفاء

وليس من الضروري استئصال المرض بالمشرط فقد يتعذر ذلك أحيانا أو يستحيل ولذلك يستعمل الراديوم وأشعة اكس فى مقاومته فى الأدوار الأولى وقد يعجب القارىء من هذا القول بعد ما بينا من عمل أشعة اكس والراديوم وباعهما الطويل فى توليد السرطان ولكن قديما قيل : « وداونى بالتى هى الداء » فهناك فرق بين أشعة اكس مستعملة بمقدار معين وبينها نفسها كقوة غشومة مدمرة

ابحاث دلبت

ومن بين الابحاث الرئيسة فى السرطان هناك ابحاث خاصة قام بها الأستاذ دلبت تمتاز بطرفتها فانها ليست على مثال بقية الابحاث الأخرى وأساسها الاحصاء والمقارنة فقط . قام دلبت باحصاء عدد الوفيات بالسرطان فى كل أنحاء فرنسا مقسما الأقاليم إلى مناطق عدد سكانها خمسة آلاف شخص فقط وأوجد بالرجوع إلى السجلات الرسمية عدد الاصابات الموجودة فى كل من هذه المناطق ومنها عين النسبة المئوية للمصابين بالسرطان فى كل أقاليم فرنسا وقام بمقارنة هذه النسب بالتكوين المعدنى والجيولوجى لتربة كل من هذه الأقاليم اعتباراً بأن فرنسا بلد زراعى يعتمد أهلها فى الجزء الأكبر من موادهم الغذائية على محصولات أرضهم . وقد أوصله هذا البحث إلى نتيجة فذة

هى أن الاقاليم الغنية بالماغنيسيوم عنصرا أو مركبا سواء فى الماء أو فى الاغذية تقل فيها الاصابة بشكل ظاهر . واستنتج من ذلك أن الماغنيسيوم لابد انه يلعب دوراً هاما فى عملية الوقاية ضد السرطان . وقد أجريت مختلف التجارب للتحقق من النتيجة التى حصل عليها ولا تعرف حتى الآن أن هناك من يعارض هذه النتيجة وقد توالت الابحاث فى الموضوع وانتقلت من فرنسا إلى ايطاليا وألمانيا وكانت النتائج التى وصلت اليها الابحاث مؤيدة لما وصل اليه دلبت . ولعل فى ذلك سند جديد للنظرية الكيماوية ولكننا لو تأملنا قليلا لوجدنا إن هناك فرقا بين الوقاية من المرض وتسبيبه فقد يكون للمواد الكيماوية أكبر الاثر فى علاج مرض ما أو فى الوقاية منه دون أن يكون له أى أثر فى تسبيبه فنحن نعرف أن للبزموث والزئبق أكبر الاثر فى علاج السفلس «الزهرى» ومع كل لايعزى الزهرى إلى نقص أيهما فى الجسم . وفوق ذلك فاننا نلاحظ أن تأثير الماغنيسيوم العام فى الجسم من شأنه تقليل تعريض الجسم للعوامل الفيزيكية التى سبقت الاشارة اليها فهو مسهل وعلى ذلك يجعلنا نتجنب الامساك ولا نكون مبالغين إذا قلنا ان ٩٩ فى المائة من حالات السرطان فى القناة الهضمية وعلى الأخص المستقيم ناشىء عن الامساك

العبرة

نستطيع أن نستخلص مما تقدم الحقائق الآتية والتى يجب أن لا تغيب عن بالنا حتى لانقع فى مخالب هذا المرض الوبيل وحتى يمكن أن نتخلص منه أو نساعد الآخرين على التخلص منه إذا وقعوا فى حبائله

١ — السرطان مرض فاتك جدير بالعناية والالتفات وهو لا يؤلم الجسم فى اول الامر ولذلك يجدر بنا الاسراع الى الطبيب فى كل مرة نلاحظ فيها ورما نتوسم فيه انه ليس ورما التهابيا كما بينا

٢ — لا يجدر بنا أن نتلكأ فى اتباع مشورة الطبيب إذا ما نصح باجراء العملية بحجة انه من الممكن الاستغناء عنها أو بحجة انها غير مجديه . فليس كل سرطان مميت والعامل الاول فى نجاح العملية هو التبكير والتعجل فى استئصال الورم استئصالا كليا

٣ — إذا شئنا تجنب اغلب السرطانات فعلينا ان نحذر الامساك وأن نقاومه بكل الوسائل الممكنة . وأن نتجنب كذلك تعريض عضو من اعضائنا الى الاحتكاك المستمر بجسم آخر خصوصا إذا كان خشنا . إذا كنت تريد أن تضمن سلامتك من سرطان اللسان مثلا فتأكد اولا أن اضراسك ليس من بينها أضراس محدودة الطرف تحتك بها لسانك باستمرار .

٤ — تستطيع أن تطمئن إلى املاح الماغنيسيوم فى وقايتك من شر هذا المرض الفتاك على أن تستعملها بانتظام ودون مبالغة فى ذلك وهى جديرة بأن تقنعك بعظيم فائدتها لما سوف تلاحظ من آثارها الحسنة فى تنشيط جسمك وتقويته وخصوصا فى تنظيم عملية الهضم والافراز

الفيتامينات وقيمتها الغذائية

بقلم كامل لطفى ميخائيل

لاتعجب ! فان الذين عاشوا قبل سنة ١٩١٢ وكان يربطهم بالعلوم حب الأطلاع أو بغية فى الاحتراف بها ، ماكانوا يسمعون البتة عن هذه الكلمة الاعجمية الغريبة « فيتامين » التى صارت فى يومنا هذا حديث الكثيرين من رواد العلوم وبحث من ولجوا باب التكلم عن الغذاء والتغذية الغنية التى تلعب أكبر دور فى اثراء أصحاب المزارع الذين يديرونها على احدث النظم العلمية الاقتصاديه ، كما أنها موضوع الطب والاطباء فى المعالجة

ومما يعزى الى انتشار الفيتامينات الآن وتفشيها بنسبة محسوسة مابذلته معامل الأغذية لدعاية الترويج فى الجانب التجارى من رسم الصور المختلفة المطرزة باسماء الفيتامينات والمغالاة فى قيمتها مما أكسبها لونا جذابا مغريا على لوحات الأعلانات . ولا حرج فى ذلك ، فهذا شأن التجارة والاتجار

ولكن مما يؤسف له من نتيجة هذه الدعاية أن كثيرا من الناس ذوى الدراية القليلة بالعلوم قد اكتنفتهم لغة الترويج وابعدتهم عن أن يروا قيمة الفيتامينات فى أحسن جانب لاستعمالها ، حتى اصبح الكثير منهم يغالى فى قيمتها إلى حد انتحت فيه باقى المواد الغذائية كالبروتين والدهن والكربوهيدايت والمعادن ، حتى انك لاتكاد تحدث شخصا عن البروتين باعتباره غذاء للنمو حتى تجده ينحو بك ويذكر لك الفيتامين بانه أمتن من البروتين فى عملية النمو ، وكأنه لايفرق بين وظيفة البروتين فى النمو ووظيفة الفيتامين فى النمو ، وهذه علة يجب أن تشفى من كثير من أمثال هذا المثال ، كما أن بعضهم يجهل المواد الغذائية وفوائدها وهذه علة ايضا يجب أن تعالج بواسطة الاطلاع على كتب ونبذات علم التغذية ، وهذا أصوب ملجأ لملافاة الاغلاط

ولا أعنى فى حديثى هذا أن الفيتامينات قيمتها لاتدعو للاهتمام بها ولكنى أقول مع مالاقته من نتيجة التجارب العديدة لاظهار منافعها فى السنين الاخيرة تبعث على الاهتمام الكثير بها لتوفيرها فى غذاءنا كما سيظهر ذلك من حديثنا عنها . واننا فى حالة تقرير أخذ كميات وافرة من الفيتامين يجب أن لاننسى كم يحتاج جسمنا أو جسم الحيوان من البروتين أو المعادن مثلا ، فنوفر ذلك أيضا بالنسبة التى تجعلنا قادرين على التمتع بالصحة الجيدة والبنية المطلوبة أو الغرض المطلوب من الحيوان ، وإلا

اختل التوازن في الجسم وأصبح ضعيفا حتى انه في بعض الاحيان لا يكون قادراً على عدوي الامراض مع العلم أن الغذاء الكامل الجيد مسبب للمناعة أو هو بالحري مقوي المناعة. وهذا خلاصة ما أعنيه عندما يغالي الانسان بالفيتامين يجب أن لاينسى الفوائد الجمة المطلوبة التي تعود على الشخص في حالة اهتمامه بالمواد الغذائية الاخري أى يجب أن يكون الغذاء كاملا من جميع المحتويات بقدر النسب التي يحتاجها الجسم

* * *

وبما أننا نحتاج الى معرفة الفيتامينات حتى يتسنى لنا استعمالها على الوجه الاصح آثرت أن أنقل الى اخواني القراء موجزا عن بعض ماقرأت أو درست في هذا الباب، وسأكتب هذا الموجز في قالب دراسة تفصيلية موضحا مكانة الفيتامينات من حيث التاريخ أو التركيب الكيماوي .. الخ

* * *

فكلمة فيتامين ظهرت أو بالحرى أو من وضعها أو نطق باسمها هو العالم البولندى كاسمير فنك وهى كلمة اتخذت لفظها في الانجليزية كما نحن نلفظها في العربية تماما. وأصلها من الكلمة اللاتينية « Vita » ومعناها الحياة والسبب الذي قاد إلى معرفة الفيتامينات هو ماروى عن العالم البولندى، أنه كان يعتقد أن هناك مادة من المواد الغذائية ذات صلة نوعية أو قرابة من البروتين تؤثر في حياة المخلوق الحى تأثيرا بارزا. ووجد أنه حينما لايحتوي عليها الغذاء، يعود ذلك بضرر تظهر علاماته في الحيوان. وطفق يجرب بعد ذلك هل هى من البروتين ؟! فأجرى عمليات كثيرة توصل في نهايتها إلى فهم أن هذه المادة حاضرة في الغذاء ومستقلة ليست من البروتين كما كان يزعم وأنها توجد في بعض الاغذية كما أن بعضها يفقدها تحت حالات خاصة. وعلى ذلك كان أول من أشار إلى اكتشافها

وبتوصله هذا إلى معرفة إستقلالها، أراد أن يعطيها اسما يعبر عنها ويحددها بعض الشيء، فلم يجد أقرب وأحسن من هذه الكلمة التي نتداولها الآن وهى الفيتامين التي شرحنا معناها. وفي الحقيقة أنها تؤدى وظائف أخرى لاينطبق عليها هذا الاسم غير أننا إذا انحرفنا قليلا وتجاهلنا تفرع وظائفها وانتهينا بجمعها تحت الغاية الفريدة التي تنتهى بها كل وظيفة، لأدركنا أنها لاتخرج في معناها الاصلي عن تأدية أهم وظيفة وهى الحياة، وذلك بلا شك هو السبب الذى بعث بكاسميرفنك لأن يخلع عليها هذا الاسم لكونها مادة للحياة. وقد لا أبعد بك كثيرا في هذه الفكرة فهى نفس ما أثبتته تجارب الدكتور مكولم الامريكى بمحطة التجارب بوسكنسن بامريكا حينما شاهد من خلال تجاربه أن عدم اعطاء نوع واحد من الفيتامين هو السبب الرئيس

الذي يؤدي فى كثير من الأحيان إلى الموت ، ومن هنا ندرك أن الاسم مطابق لما وضع له

ولزيادة الايضاح فى هذا الجانب اذكر ماقرأته مرة عن صورة أخذها الدكتور والتر إدى . .
فهى علاوة على ما ستعرضه أمامنا من النتائج التى تشرح لنا بجلاء قيمة الفيتامينات وتأثيرها الوخيم فى حالة فقرها فى الطعام ، فأنه أيضا ستصور لنا العملية التى حاول بها المجربون فى تجاربهم من اكتشاف الفيتامين وأنواعه بل التى مازالوا يحاولون مع الفيتامينات من دراستها الدراسة التى تمكنهم من اخراج أنواع جديدة أو تساعدهم على دراسة مادة الفيتامين ، واليك نص ماكتب تحتها مع بعض الايضاح

أربعة من الجرذان أجرى عليها الاختبار الآتى : فوجد أن الأول وقد أعطى غذاءا كاملا من جميع المحتويات الغذائية شاملا الاغذية التى تحتوى على مايحتاجه من أنواع الفيتامينات . هذا نما نموا طبيعيا بل يصح أن نقول فى صحة أحسن ، والثانى ، حجز من غذائه نوع من الفيتامين يسمى فيتامين « A » فكانت النتيجة تدل على أن غدد العين لم تكن قوية لتفرز السوائل العينية لتغذية وحفظ العين ، وعليه ضعفت وصارت مرتعا خصبا لنوع من البكتيريا المضرة . أما الثالث والرابع فقد حرما من الاغذية التى تحتوى على فيتامين « B » فكانت النتيجة ظهور حالات مرضية مختلفة . فكان منها فقد كل أو بعض الحواس والحركة « الشلل » ، وانحناء شديد فى سلسلة الظهر ، علاوة على وقوف النمو ، بل هزل الجسم وراح يأخذ شكلا صغيرا تعلوه خشونة الشعر وفقد لمعته وعدم انتظامه . وذكر أن مثل هذه الحيوانات حينما تعالج بواسطة اعطاءها فيتامين « B » تعود صحتها إلى حالة عادية ماعدا بعض العظام التى اتخذت شكلها تحت الحالات المرضية فى طور النمو

وهكذا كانت تجري جميع التجارب على هذا النمط الفسيولوجى الذي توصل بواسطته لفيف المكتشفين إلى معرفة أنواع الفيتامينات ، إما عن طريق الجرذان وهى أكثر شيوعا أو على عدد من أنواع الحيوانات الاخرى كالطيور والارانب والخنازير ... الخ

* * *

ونحاول بعد ، دراسة شىء تاريخى عن استعمال الفيتامين . فقد عرف الفيتامين عضواً قبل هذا التاريخ بكثير . ولكن ماكان يشير اليه أحد أو يعبر عنه بوصف يوجب فهمه أو تحقيق وجوده بدلالة واضحة فى أى نوع من المأكولات ، ولكنه كان يمارس تناوله فى الغذاء بطريقة مبهمة لديهم لايستطيعون أن يعزوا السبب له كما يمارس ذلك الآن بين عامتنا وهم يجهلون الفيتامين لكنهم ينصحون بأكل أنواع مخصوصة ويقولون بأن عدم تعاطيها يسبب كذا وكذا

ولا أقول ان هـذا فقط حديث الغذاء بين عامتنا أو القدماء . بل هو أيضا حديث الطب قديماً وقد يـكون من أهم الحلقات التى كانت تميز مثل هـذا الطب صحياً ويمتاز صاحبه بكثرة رواده

فبعض الطب المصرى القديم يشم مثل هذا اللون ، بل طب بعض الأقطـار النائيـة كالصين وبعض سكان الهند وأواسط افريقيا التى تتمشى حضارتهم ومدنيتهم جنبا للقرون الوسطى أوماقبلها . بل قد أعبر بهذا الحديث بالقول باننا مازلنا إلى هذا العهد الذي نرى فيه المدنية تعم أقطاب مدن العامرة وتفيض عليها بأجل العلماء والأطباء النطاسيين ، وبأحدث ماابتـكروا كتشف ، وأجمل مانظم وسهل استعماله ، ان هناك جماعة من العامة مازالوا يستعملون بعض الطب العتيق الناجح مما وصل إلى أيديهم عن طريق أجدادهم أو تلقنوه من محترفى الدجل — ومن الغريب أن يلتف حول نفر من هؤلاء الأطباء البائدين جماعة من المتعلمين ويوردون الحجج بصحة طبه ودواءه ، فيتهافت عليه الـكثيرون ممن دفعتهم عاهة إلى حاجته حتى وإن كانت العاهة لاطب لها. وقد تـكون حذاقة ومهارة هذا الصنف من الأطباء مجلبة للشهرة الواسعة بواسطة انتقاءه مايقوى على شفائه ومعالجته ورفض مالم توصله تجاربه إلى تصحيحه وإبراءه

وفى اعتقادنا هذه الأيام أن العلم الحديث كشف الستار عن معظم هذه الغوامض ، وأوضح صحة البعض وأوصى بالآخري فى عدم استعمالها لانها قد تـكون حشوا فى الدواء بلا فائدة او قد تـكون مضرة . ويجدر بأن نأتى بشرح لتلك الخبرة الطبية العتيقة فى جانبها الأحسن بتعليل نسلمه بعض الشىء من الخطأ :

فتجد أن ذلك الطب كان محصورا فى تشخيص داء تـكون ظواهره بارزة ليس كما نستعمل الآن لذلك المـكروسكوب والسماعة .. الخ للامراض الخفية والظاهرة . ثم يقرر العلاج ، وقد يـكون من احد الأغذية التى تحتوى نوعا من الفيتامينات بغض النظر عن البعض الآخر الذي يعالج بالدلك والجبر والسوائل المسهلة .. الخ ممثلا إن كان المرض من النوع الذى سبق ذكره كالـكساح أو ماعبرنا عنه بفقد بعض الحركة ، فالعلاج الذى يتقدم به هذا الطبيب ماهو إلا أن يشير إلى نوع من الخضر أو المـأكولات التى تحتوى نوعا من الفيتامينات كما نحن نعرف الآن فى وقتنا الحاضر وكما كان يعرب هو عن طريق التجارب التى كانت تأتيه مصادفة من مزاولته حرفته بأنه يقوى اعضاء الحركة . وقد يزيد من فذلـكة حديثه إعلاء لقدره ولطلبه النادر كما يزعم فى قوله للزبائن ، فيذكر مركبا من عدد من المأكولات قد يجهزها هو بنفسه ويجعلها فى شكل خاص مغر كما يمارس ذلك الآن فى الصين بـكثرة . أو يصف المركب بتطويل معقد يهتم فيه بالاكثار من النوع الذي

يعنيه ثم يجعل لذلك بروجراما عن أوقات الاخذ والمقدار... الخ مما يجعل الشاري مهتما بأمره ويدفع الدنانير فيه بسخاء

والمشاهد أن استعمال الفيتامين فى الطب القديم لم يكن على أساس كما نحن نتقرب الآن من معرفة هذا الاساس فى طبنا الحديث . ومعرفته قديما كانت مجرد نتائج التجار التى كانت تنجح مع البعض مع طول ممارسة المهنة وقوة الملاحظة . ويجب أن نعرف انه ما كان الطبيب منهم يفطن الي هذا السر الموجود بنوع الغذاء . ولكنه كان يعرف أن الصنف، الذى يذكره يؤدى الى النتيجة المرغوب فيها ، ولو لاحظ ذلك لادلى بالاشارة اليه فى تاريخ الطب

ولهذه المناسبة نذكر قصة واقعية رواها أحد أساتذة كلية جفن الزراعية لطلبه علم التغذية فى افتتاحية محاضرته عن الفيتامينات . ويشاهد من خلالها مصادفة من المصادفات التى قادت إلى استعمال الفيتامين فى نوع من المشروبات التى صارت قاعدة لغيرهم من بعدهم ، والتى هى مثال لما كانوا يلاقونه قديما هؤلاء الاطباء وغيرهم من مصادفة ترشدهم فى اثناء حياتهم فى فنهم . واليك القصة :

ان جماعة من الامريكانيين قاموا بسياحة إلى بعض الجزر فى المحيط الاطلنطى فى مركب شراعى كبير . وقد أخذت الرياح تقذف بهم إلى اتجاه لايقصدونه . فغابوا تائهين على المياه زمنا طويلا. ينشدون النجدة ولا معين لهم . يطلبون البر فتعانقهم الامواج وتملأ قلوبهم بالرعب والهول. يسألون الغسق عن نور يخلفه فلا يجدونه ، ويمتلىء الفضاء سحبا وبرقا . يتلمسون الاهتداء وقد أوشك اليهم أن يكون الشمال فيه كالجنوب والشرق كالغرب وليس فى انظارهم سوى الماء والسماء

وهكذا صارت الرحلة ملأى بالهلع والذعر، وطالت بهم المدة حتى نفدت منهم جميع الخضراوات أو بالحرى المأكولات التى تحتوى الفيتامين وبقى معهم دقيق الخبز الابيض والارز وبعض من محتويات العلب . وكان هذا هو الغذاء الوحيد الذى عاشوا عليه مدتهم . وقد ظهر بينهم بعد مدة مرض وبال أفضى بموت اثنين ، وقضى على صحة الكثيرين منهم بحالات خطيرة ماعدا أحدهم وكان بحاراً ، وقد خزن لاستعماله الخاص كمية كبيرة من عصير الليمون فى زجاجات كان يستعمله فى اثناء الاكل

وحينما بلغ قبطان المركب أمر هذا الرجل، فطن إلى معرفة السر ونسبه الى الليمون الذى يستعمله البحار . فأخذ يجرب هذا العصير وآثر استعماله أولا لنفسه . فوجد أن صحته فى تحسن . وقد انتشت أعضاؤه ، وتركه الخمول ، وأصبح يقظا نشيطا

ولما أدرك مقدار فائدته ، ورأى ان الركاب احوج منه إلى هذا العصير ، اخذ يعطى كل فرد

ملعقة كل يوم ، وأعقب توالى هذه الجرعات تحسنا محسوساً . ولما أوشكت أن تفرغ الزجاجات نقص الجرعة الى نصف ملعقة ثم الى الربع حتى صارت بهم المركب بغتة الى احد سواحل أمريكا الجنوبية حيث استعانوا هناك بشراء كميات كبيرة من الليمون لاستعمالها . وكان لهم أن يسترجعوا صحتهم كما كانت قبل ، بل حينما وصلوا الى بلدتهم انطلقوا يقصون هذا الاكتشاف الطبي العظيم وينصحون كل بحار ومسافر باقتناء عصير الليمون

وعلى ذلك لاندهش إذا قلنا أن مصادر الطب القديم قد تكون قصصا تشبه هذه فى معالجة المرضى بواسطة الأغذية التى تحتوى الفيتامينات . وسنرى فعلا فى قراءتنا ان الفيتامينات تستعمل كدواء لمعالجة بعض الامراض فى طبنا الحديث

* * *

وهنا نعود الى جانب آخر من الحديث ونتكلم بطريقة اجمالية عن دراسة بسيطة منظمة بعض الشيء عن الفيتامينات فى وقتنا الحاضر

الي هذا القرن العشرين الزاخر بمختلف الاختراعات لم يتمكن الكيماويون من معرفة مادة الفيتامين أو عناصرها كما نشاهد مثلا فى المواد البروتينية . وقد لمحت بعض الجرائد والمجلات العلمية الى بحث العلماء فى هذه الناحية ، وفى الحقيقة لم تظهر الى الآن نتائج بارزة من تجاربهم يمكننا ن نتناولها بسهولة فى أثناء دراستنا فى الكتب ، وعليه لا أريد أن أسترسل فى شرح اقوالهم ولكن أهم ماتمكن أن يعرفه الكيماوى هو أن يثبت أن الفيتامينات تعطى صورة شبيهة بالمساعد الكيماوى الذى يدخل فى العملية الكيماوية ليساعد على التغير الكيماوى بسرعة . وأن الفيتامينات لاتكون مادة واحدة فى خواصها وتركيبها ولكنها مختلفة تجمع جنسيا تحت اسم الفيتامينات وأن لكل واحدة وظائف مختلفة تؤديها للجسم ، كما أن الواحدة منها تختلف نتائجها فى حالة عدم توفرها . واما عن فوائدها فهنا فكرة اجمالية موجزة تصف الفيتامينات بطريقة يمكن أن نحصر فيها كل ماتقدم به نحو الجسم من منافع . وعلى كل حال سندرس تفصيلياً بعضاً من هذه الفوائد تحت كل نوع من الفيتامينات . وأن هذا التعريف على الاطلاق لايعتبر تاما مادامت الفيتامينات فى حقل التجارب ومازال الكثير عنها مبهما وأن فى المستقبل ستظهر لها فوائد كثيرة أخرى غير التى نعرفها الان ، وعليه نكتفى بذكر ماوصلت اليه الابحاث فى علم البيولوجية «١» أنها تساعد فى عملية الهضم ، فتسرع ببعض المواد والعناصر الى التفكير الكيماوى الذى ينتهى بعملية امتصاص المركبات المفيدة وفرز الباقى خارجا . «٢» تشعر الخلايا الحيوية بالنشاط لتقوم بمهمة الوظائف الحيوية كالاحساس والتكاثر . . . الخ . ثم الدفاع عن نفسها ضد المكروبات والأعراض

البيئية . . . الخ . «٣» تمون الجسم بمجموعة من بعض الكيماويات التي يحتاجها ، ولايقوى هو بنفسه على صناعتها . وهى لاتعرف الى الآن ولكن تبدو علاماتها جلية فى جسم الحيوان

وهذه النقط الثلاث هى خلاصة مانعرفه الى الان وربما تعترضنا فوائد أخرى فى أثناء دراستنا أهميتها قد تكون ضئيلة

اتفق العلماء على تقسيم الفيتامينات من ناحية خواصها الكيماوية فوجدوا أن الستة الانواع من الفيتامينات المهمة التى توصل الى اكتشافها العلم الحديث ، بعضها يذوب فى الزيوت والبعض الآخر يذوب فى الماء كما أن الاثنين يذوبان تحت بعض الحالات فى الكحول وهذه خاصة كيماوية لها أهمية فى مستقبل الفيتامينات . والطريقة التى توصل الى هذا التقسيم هى بواسطة معرفة أن بعض الفيتامينات تكون حاضرة مع الغذاء الذي يكون به الزيوت ، وفى حالة عدم وجود الزيت بالغذاء يفقر هذا من هذه المادة . كذلك الحال مع الفيتامينات التى تذوب فى الماء واتفقوا على تسمية كل نوع من الفيتامينات باسم خاص مقتبس اما من وظيفته التى يؤديها للجسم أو من خاصيته . ولسهولة الاستعمال اختصروا الاسماء الى حروف الهجاء وعلى ذلك وضعوا التقسيم على هذا الأساس بان وجدوا فيتامين (A) (D) (E) تذوب فى الزيوت وعليه سميت بالفيتامينات الذائبة فى الزيوت . وأن فيتامينات (B) (C) (G) تذوب فى الماء ، فسميت بالفيتامينات الذائبة فى الماء . وقد يكون أيضا هذا التقسيم فى المستقبل قابل للزيادة والتنقيح . وأن جميع هذه الفيتامينات متوافرة فى النباتات ماعدا فيتامين (D) فانه يوجد أكثر فى المستخرجات الحيوانية كالزبدة ومح البيض الاصفر . . . الخ . كما أن أحدها يوجد فى أشعة الشمس البنفسجية وسندرس الفيتامينات بحسب هذا التقسيم :

الفيتامينات الذائبة في الزيوت

فيتامين (A) او مايعرف باسم « Fat Soluble Vitamin » وذلك لسرعة ذوبانه فى الزيوت .

وهو أول نوع من الفيتامينات اكتشفه الدكتور مكولم الاميركى سنة ١٩١٣ . ومن غريب ماروى عن هذا النوع أنه يكون ملازما للون الاصفر فى بعض المأكولات . فيوجد مثلا فى الذرة الشامية الصفراء وجذور النباتات الصفراء . . . الخ . وليس بنسبة كبيرة

ويوجد أيضا بكثرة فى الزبدة واللبن وفى كبد الحيوانات والسمك خصوصا فى زيت الحوت وفى مح البيض الاصفر وفى بعض العضلات . ويوجد أيضا فى بعض النباتات فى الأوراق الخضراء خصوصاً السلق والسبانخ والرجلة والجرجير والخس . . . الخ . وفى الطماطم والقرع والبرسيم وفى أوراق الكرنب الخضراء ومتوسط فى لبه

وهذا الفيتامين يفقد فائدته إذا تعرض للهواء . أما الحرارة الشديدة فانها تعدم نفعه ، لذلك يستحسن بان لاتطهى هذه المأكولات وتؤكل بقدر الامكان نيئة

وعدم وفرته فى أي غذاء ينتج عنه بطء النمو لذلك كثيراً مايلقب بعنبه النمو أو مشعر النمو وعدم وفرته أيضاً تقلل المناعة ضد الأمراض . كما أنه ظهر من عدم وفرته فى غذاء الطيور الداجنة مسبب لأمراض الجهاز التنفسى كالبرد والروب Roup أو مايسمى « Avian Diphtheria »

ولكى نتقى هذه الأمراض نوفره فى غذاءنا ، وهو خير علاج

فيتامين (D) أو مايعرف باسم « Anti—rachitic Vitamin » وسمى بهذا الاسم لأنه يمنع مرض « Rickets » أى المرض المسبب لضعف الساق فى الحيوانات والانسان وخصوصا الأطفال بل فى العظام جميعاً فتظهر منحنية ومشوهة الخلق

وأهم وظيفة يؤديها للجسم هى مساعدة الدم بالحاجة الضرورية بالتموين من الأغذية بالكالسيوم والفسفور اللذين يعملان فى تركيب العظام . وعلى ذلك يظهر لنا كيف وصل البحث بان ضعف الساق مسبب عن فقر هذا النوع من الفيتامينات وبلا شك يبنى أيضاً على ضعف العظام النمو البطىء

وما يلوح لنا من اتصاله بالمواد المعدنية التى نتوقع أن الابحاث فى المستقبل ستكشف عن هذه العلاقة نجد أن علماء التدجين يذكرون أن صلابة العظام فى الطيور الصغيرة الداجنة لاتحدث إلا بواسطة هذا الفيتامين كذلك سهولة انزلاق البيض وتكوين القشرة الناعمة والسميكة المقاومة للكسر لاتحصل إلا بمساعدة فيتامين آنتى - رشيتك . ولهذا قرروا فى تركيب الغذاء ١ فى المائة من زيت كبد الحوت يعطى مستديماً خصوصاً فى فصل الشتاء فى الأقطار الباردة التى تحجب عنها حرارة الشمس زمناً وبذلك يحصلون على الفوائد المرغوبة من الدواجن

ومما هو جدير أن نذكره عن هذا النوع أنه يوجد فى أشعة الشمس البنفسجية أو فوق البنفسجية . وأن الانسان قد يكفيه فقط تعرضه لها فيتشرب جسمه مايحتاجه منها من الفيتامين ويلاحظ فى ذلك أن الجسم العاري هو الذى ينتفع بهذه الفائدة دون الجسم المستتر عن الأشعة التى لاتتسرب اليه . وأتذكر ماقاله أحد الأطباء فى صدد هذا الموضوع أن التعرض للاشعة خمس دقائق تكفى لتموين الجسم بما يحتاجه . وتعرف هذه الطريقة باسم حمام الشمس

وقد شاهدت كثيرا من الافرنج يداومون على حمام الشمس فى الصبح حيث الحرارة بسيطة وحيث يتمكنون من تعرية معظم أجسامهم ، بل قد يلبسون أطفالهم فى الصيف ملابس تكاد أن تجعل معظم الجسم عاريا . وبلا شك تعتبر هذه العملية المستديمة من مسببات التجميل عندهم بل تساعد على قوام الجسم المتزن . . . الخ . ويا حبذا لو نشأنا نعمل بما يقرأ أو بما يشاهد عند الافرنج مما يفيد وليس مما يضر

وأتذكر مرة كنت فى طريقى إلى المدرسة وقد تقابلت مع أستاذ أمريكى اعتاد أن يخرج من منزله إلى المدرسة ماسكا قبعته فى يده . فسألته فى ذلك اليوم عن هـذا السبب . فأجاب : « أن ما بقى لى من شعر على رأسى الاجرد ، أريد أن أثبته بواسطة الشمس لئلا يلتصق بالقبعة » وهذا صنف آخر من الناس يخلط الفكاهة بالدرس القيم ، فهو يحتاج إلى الفيتامين من الشمس وفى نفس الوقت ينسب العملية لابقاء ما بقى من شعره ويحترس من قبعته

ولا غرابة فيما تحدثنا عنـه فاذا عرجنا وشاهـدنا الأطفال فى مصر الذين يصابون بمرض الكساح الوقتى التى يعيقهم من الانتصاب والمشى المبكر بالرغم عن الاغذية الجيدة التى تعطى لهم ، لنسبنا هذا الضعف ان لم يكن كله إلى عدم تعريضهم للأشعة والمحافظة عليهم بالملبوسات الكثيرة المضايقة كذلك الغرف الرطبة البعيدة عن الاشعة . بل قد يتفق أن تأتى عليه أشمس فيبعدونه عنها — فى حين اننى قد شاهدت من جولاتى فى أكثر مناطق السودان الجنوبية أن الاطفال حيث يعيشون عراة بلا مئزر وحيث مساكنهم تلفح فيها حرارة الشمس وحيث الطفل ينال من الغذاء ما تشمئز منه نفوسنا وحيث تحيط المكروبات والناموس ببيئته ، تجد الطفل ينمو سريعا ويقوي على المشى فى سن صغيرة جدا ، بل ليدهشك قوام هؤلاء الناس الذى يجمع بين الاستقامة والطول . فان كان هناك سبب جوهرى لمرونة هذه العظام فانما تكون أشعة الشمس البنفسجية التى تعتبر فى تلك المناطق البنفسجية

وبينما أكتب فى الاهتمام بأشعة الشمس ، أرى نفسى وأنا ساكن فى منطقة حارة أن أقول إنه يجب أن نعرف أيضا ان الاكثار منها يسبب مضار جسيمة علاوة على انها تحرق البشرة

ولا نكتفى بأن نقول اننا فقط نستمد رأسا هذا الفيتامين من أشعة الشمس بل حدثتنا التجارب والابحاث أخيرا أن هذه الاشعة تصنع منها بعض المواد الفيتامينية ، وذلك بواسطة تعريض الاطعمة الخالية من الفيتامينات أو التى بها قليل من الاشعة التى فوق البنفسجية مدداً تختلف بحسب نوع الطعام . وبذلك لأن الاشعة التى فوق البنفسجية يمكن خزن الفيتامين الموجود بها . ومن الغريب أن نعرف أيضا أن هذه المواد التى أكسبت الفيتامين بالاشعة لا تفقده أبدا . كما أن الاعتقاد القديم بأن فقط الاطعمة الملونة هى التى تحتوي الفيتامين ثبت ان الحنطة والدقيق واللبن الابيض الجاف يمكن اكسابها الفيتامين بواسطة التعريض للاشعة . كما ان بخلاف ذلك الهموغلوبين والقشدة التى أزيل فيتامينها كذلك الغلسرين والجلاتين لا يمكن اكسابها هذه الخواص بواسطة التعريض . والشيء الغير الممدوح فى هذا النوع من الفيتامين الاصطناعى أن الأطعمة يصير لها طعم

خاص مكروه كالمحرقة ، كما أن اللون والرائحة يتغيران وذلك مما يدل على أن هناك بعضا من التغير الكيماوي الحاصل وان الفيتامين آنتى رشيتك يشترك فى عملية التفاعل الكيماوى

ويوجد فيتامين آنتى رشيتك أيضا بكميات كبيرة فى زيت كبد الحوت ومتوسطا فى اللحم واللبن ومح البيض الاصفر ونادرا فى النباتات . وهذا لا يفقد خاصته إذا تعرض للحرارة أو الهواء — وعدم وفرته فى الغذاء يسبب علاوة على النتائج السالف ذكرها ضعف العضلات وقوة الاحساس التى تلازم مرض « Rickets »

فيتامين E أو مايعرف باسم « Anti—Sterility Vitamin » وسمى بهذا الاسم لأنه يمنع العقم . وهذه ظاهرة علمية حديثة تعتبر من انتصارات الابحاث العلمية . وهى تتكاتف أو تساعد الفلسفه القائمة على أشعار الغريزة التناسلية بتأدية وظيفتها — وهذا النوع من الاشعار انبتته حقول التجارب البيولوجية ، وأصبح يمارس فنيا فى أشعار النباتات باعطاء النسل ، بل قد لجأ مربو الدواجن والحيوانات الانتاجية المزرعية إلى استعمال هذه الطريقة ، وهى عبارة عن اضعاف القوة الجسمية للنبات أو الحيوان بواسطة ايقاف موارد الغذاء حتى يهزل الجسم ، فتنشط بعد ذلك الغريزة التناسلية وتشعر بأن الحياة صارت نحو الموت ولابد من تخليد النوع وهذا قانون طبيعى . وبخلاف ذلك السمن تشعر الغريزة بطول الحياة وأن أهمية النسل ضئيلة

والمشاهد هنا من قولنا مساعدة آنتى — استرلتى فيتامين لهذه الفلسفة ، هو أن الأولى تعتبر المادة للاشعار والثانية عبارة عن الممهد أو الطريق الذي تسلكه هذه المادة إلى تنشيط جهاز التناسل للقيام بوظيفته — وعلى كل حال هذا ماتمكنت من تفسيره عن علاقة الاثنين بالتناسل ، ولا أدرى كم غيرى يفسر هذا الموضوع على أوجه صحيحة أخرى

واذا تتبعنا نتائج آنتى — استرلتى فيتامين فى حقل التجارب ، نجد إذا اهملت الطيور الداجنة من اعطائها هذا النوع ، يتسبب عنه قلة البيض وهذا علاوة على ماينشأ من عدم صحة البيض للتفريخ . وقيل ان الحيوانات التى تدر اللبن للجنين إذا اهملت ايضا من هذا الصنف تقل كمية لبنها كما أن بعض التجارب دلت بأن عدم وجوده فى الغذاء مسبب للعقم رأسا بغض النظر عن الفلسفة السابق ذكرها . وعلى كل حال مازال البحث جاريا فى هذا النوع من الفيتامينات والمعروف عنه إلى الآن قليل ، ولكننا نتوقع فى القريب أن الابحاث ستظهر له اهمية عملية عظيمة

ويوجد هذا فى اللحوم والعضلات والامعاء « Visceral Organs » ودهن اللبن ، وفى النباتات يوجد فى زيوت الخضراوات وأيضا فى الموز والطماطم والبرتقال والخس والحبوب عموما والفول السودانى والبرسيم

٥ * *

وننتقل بعد ذلك إلى المجموعة الاخرى :—

الفيتامينات الذائبة فى الماء

فيتامين B أو مايعرض باسم « anti—Neuritic Vitamin » وله تأثير شديد على صحة الجهاز الحسى ، لذلك سمى بهذا الاسم لانه يمنع بعض المسببات لالتهابات هـذا الجهاز التى تسفر عن ألم وأوجاع فى الاعصاب وأنزتزيا أى فقد الشعور.. الخ أو بعبارة أوضح يمنع « Neuritis »

وقد اكتشفه كسمير فنك سنة ١٩١٣ بعـد أن أشار الى اكتشاف الفيتامينات سنة ١٩١٢ . والسبب الذى قاد إلى معرفة هذا النوع ، انه كان يبحث عن أسباب البرى بري بين شعب اعتاد أن يقتات من الرز المقشور أى الذى ينزع غلافه . وقد وجـد أن هؤلاء حينما يستعملون جنـين الرز وبعض لحائه لايعتريهم هذا المرض . وقد توفق فى بحثه بعد ذلك إلى أن أدرك أن السبب راجع الى عدم هذا الفيتامين من غذائهم — وفقر الطعام منه يسبب ضعفا شديدا ويؤدى الى هذا النوع من الشلل المعروف بالبري برى الذي يصيب الجنس البشري ، وهو مرض قتال وبيل يـكثر فى اليابان والهند وبعض الاقطار الاسيوية . ووجد اخـيرا أن عدمه فى الغذاء مسبب على الاطـلاق امراض البولينيوريتس التى ينتشر منها نوع فى الطيور الداجنة يعرف باسم « Polyneuritis Gallinarum » والعلامات الاولية التى تبدو من عدم وفرة هـذا الفيتامين فقـد الشهية والتمادى فى الهزال

وما رواه أيضا الاكتشاف عن آنتى نيورتك فيتامين إنه يساعد على النمو . ولـكن قد ظهر اخيرا من نتائج البحث أن هذه الظاهرة تتسبب من نوع منه ، لأنه قد تبين أن هذا النوع يحتوي اثنين أو ثلاث فيتامينات سيستقل فيما بعد من الاندماج فى هذا النوع ، وسوف يحدثنا عنها البحث الجارى فى المستقبل ! وأن أبرزهم هذ فيتامين G الذى سندرسه مستقلا بذاته والذى يعزى اليه النمو فى آنتى — نيورتك فيتامين

ويوجد هذا بأكبر كمية فى خميرة البيرة والطماطم والفاصوليا وبكميات متفاوتة فى الكرنب والسلق وجنين الحبوب وقشورها .. الخ — وهـذا قل أن يفقد خاصتـه بواسطة التعرض للحرارة أو غيرها

فيتامين C أو ما يعرف باسم « anti—Scorbutic Vitamin » وسمى بهذا الاسم لانه يمنع مرض الاسـكربوت وهـذا يصيب اللحاء اللحمى الذي حول الفك وخصوصا الذى بين

الاسنان مع نزف الدم منهما . ويصحب هـذا المرض ضعف شديد وحمى متقطعـة والتهاب وجروح فى الفم .. الخ

وينحصر هذا المرض فى بعض الحيوانات ، فمنها الانسان والقردة والارانب والجوافو . ولا يصيب الدواجن والماشية ، لذلك قصر الاهتمام به فى بحثنا العام على الانسان فقط

ومن الغريب انه إلى قبل اكتشاف هذا الفيتامين كان يعتقد الاطباء أن هـذا المرض لايشفى أبدا حتى ذكر هذه العبارة الدكتور الالمانى « وهلم ليب » فى كتابه التشخيص الطبي عن مرض الاسكربوت . وبلا شك الوصول إلى معرفة هذا الفيتامين يصور لنا البون الشاسع بين ماضى الطب وحاضرنا ، وقيمة هذا الاكتشاف

ويوجد بكثرة فى الطماطم والخس وعصير الليمون والبرتقال بل الموالح على العموم والبرسيم وبعض الحشائش الخضراء والحبوب التى لم تبلغ النمو الكامل وبعض الجزور والجزوع — وهذا النوع يفقد جوهره بسرعة اذا تعرض للهواء أو المدة الطويلة لأى حرارة

فيتامين G : وهذا النوع حديث الاكتشاف وإلى عهد قريب كان يدرس كجزء من فيتامين B ولكنه أخيرا دل البحث على استقلاله كما برهن ذلك بالمر بدليل أن الفيران التى كان يجرى عليها تجاربه متجها فى خطته نحو النمو الطبيعى ، كانت لاتقصر حاجتها على آنتى نيورتك فيتامين بل على مادة أخرى دعت الى توافرها فى الطعام ، وهذه فيتامين G وتوصل الى وجودها أثناء عمليته فى نوع من الخميرة التى تؤدى وظيفة فيتامين G ولاتقوم بوظيفة آنتى نيورتك فيتامين . وعليه تبين الفرق وعرف أن هذا النوع يقوم بتمهيد النمو وفى حالة عدم وجوده فى الغذاء يتسبب عنه مرض يعتري الانسان ويعرف بالبلاجرا وهذا من امراض الجلد والسلسلة الفقرية ، ويظهر عن تقشر الجلد على سطح الجسم عموما ، ويصحب بضعف وهزال واضطراب فى الهضم وألم فى الظهر وانكماش الجلد وفقد الشعر ولمعته وأذي فى العيون علاوة على ظهور ضعف فى الجهاز الحسى

وعلاوة على ماسلف ، قد ازال اكتشاف هذا الفيتامين اعتقاد البعض قديما عن مرض اللسان الأسود بالكلاب ، فقد كانوا ينسبونه إلى عدم اعطاء اللحوم ولكن البحث قد دل على أن توافر الفتامين G فى اللحوم هو العامل الأساسى لأبعاد هذا المرض . وعلى كل حال مازال هذا الفيتامين حديث البحث والملاحظات وما وصلنا اليه قليل

ويوجد فى المركبات الحيوانية جميعها كاللحوم واللبن والبيض .. الخ

تعليق :—

لاشك فى أن الاماكن الزراعية كالقرى حيث النباتات والحيوانات تربى ، لاخوف على سكانها

من الامراض التى تتسبب عن قلة الفيتامينات ، لأنها تتوافر طبيعيا فى بيئتهم . وفى الحقيقة درس الفيتامينات يصح أن نقول إنه يقصر على سكان المدن أو الذين يقطعون مسافات طويلة فى السفر ، بل على الاطلاق كل شخص يبعد عن الاماكن الزراعية ، حيث الاغذية الطازجة تستبدل بالمخزونة فى العلب والمملحة والمنشفة أو المثلجة فى بعض الاحيان . ولا أقف عند ذلك بل أقول ان هناك بعض الأقاليم الزراعية التى يكثر فيها مثلا الرز والذرة والقمح كبعض المناطق فى مصر والسودان حيث تجد أن معظم الغذاء فى مثل هذه الانحاء ينقلب فيه انتاج البلد ، وبالطبع الخوف من هذه الاطعمة حينما تكون خالية من قشرتها بغض النظر عن قلة محتوياتها الفيتامينية التى اعتاد الناس على سلخها وأكل الرز أبيض .. الخ

ولا ريب فى أن الشخص الذى يبعد عن الاماكن التى بها الفيتامينات المعرضة للأمراض التى تنشأ عن عدم أخذها . لذلك وجب أن يدرس مثل هذا الموضوع بدقة حتى يكون مؤمنا على صحته

وأضيف إلى ماسبق أن بعض الامهات كذلك الآباء اعتادوا أن يرضوا ابنائهم بالحلو كالشكولاته والكرمله .. الخ وهذه علاوة على أضرارها التى تجلبها للصغار خصوصا ، تخلو تمام الخلو من الفيتامينات ، فى حين أن الطفل يحتاج إلى الفيتامين بكثرة ليساعده على قوام جسمه ونموه . وإذا استبدل بذلك كوب من عصير الليمون أو البرتقال أو الحلوى المصنوعة من مح البيض أو بعض المربيات ، بلا شك تكون أفيد بكثير وأنها ترضى الطفل وتقنعه بل ياحبذا لو تهتم الام دائما باعطائه الفواكه وخصوصا الطماطم المسكرة بالعسل أو عصير الفواكه الحلو لابنها بدلا مما سلف ذكره على شرط أن تكون طازجة فتقتصد كثيرا من متاعبها وتسعد ابنها فى صحته وتكون قد عملت بالمثل الانجليزي القائل « تفاحة فى اليوم تمنع زيارة الطبيب »

وفى الأخير أقول أن تمكنا من معرفة انواع الفيتامينات والمواد الغذائية التى تحويها ، سهل لنا كيف ننتقى غذائنا من النباتات ومستخرجاتها والحيوانات ومستخرجاتها التى تحوى أغنى كمية من الفيتامين . وأمثال لذلك : الطماطم واللبن والبيض والخميرة والسلق والبرتقال والبرسيم الخ مما تحتوى على أكبر كميات من الفيتامينات

وهذا البحث يقودنا بأن لا نتعاطى مثلا الدقيق الابيض إلا ما يحتاجه جسمنا من نشويات كذلك الارز المقشور . ونقيس على ذلك كثير . ويحسن أن نطلب دائما المواد النشوية التى تحتوى فيتامين كذلك الأمر مع البروتين والزبوت وبذلك نكون قد حصلنا على أجود الاطعمة المغذية والمانعة للضعف الذى يعرض لعدوى الامراض

الانسان : هذا المجهول

خلاصة كتاب للعالم الفرنسي الكسيس كاريل

من الكتب التى لفتت الأنظار هذا العام كتاب « الانسان : هذا المجهول » لمؤلفه الكسيس كاريل

والكسيس كاريل هذا رجل فرنسي استقدمه معهد روكفلر فى الولايات المتحدة لكى يقوم بتجارب علمية ، وهو معروف بأسلوبه الخاص فى التجارب . فانه ينزع نسيجا من لحم الحيوان أو ينزع أحيانا قلبا كاملا من الضفدع أو غيرها ثم يضع النسيج أو القلب فى سائل يحتوى الغذاء الذى يحتاج اليه الجسم الحى . ثم يجدد هذا الغذاء باخراج المواد الفاسدة منه على نحو ماتخرج الكليتان المواد الفاسدة من أجسامنا

وقد استطاع بهذه التجارب أن يجعل بعض الأنسجة تعيش وكأنها لا تعرف الموت واهتدى إلى أسرار فى طبائع الجسم الحى ربما لم يئن الأوان للانتفاع بها

ومن هذه التجارب يرى القارىء ان الكسيس كاريل اخصائى أي انه يختص بدرس الأنسجة الحية وعلاقة الحياة بالكيمياء . ولكنه مع ذلك قد كتب هذا الكتاب فحمل على العلماء لتفشى الاخصاء بينهم . وسوف أتناول هذا الكتاب فى فرصة أخرى ولكنى هنا أعرض للقارىء هذه المسألة أى مسألة الاخصاء وضررها المؤكد كما أوضحه هذا العالم الاخصائى نفسه

فانه يقول ان العلماء قد بالغوا فى الاخصاء . وهم يحبون هذا الاخصاء لأنه من الجهة الواحدة سهل إذ ان العالم يسير فى طريق معين ومعبد ويدرس مسألة واحدة يتوفر عليها بكل قواه . ثم هو من ناحية أخري يؤدى إلى نتائج سريعة . ولذلك يقبل عليه العلماء ويكرهون التعميم . فان عالم الكيمياء يكره أن يكلف درس الطبيعيات ولو طولب بدرس الطلاق والزواج لعد ذلك خروجا عن المألوف إذا لم يعده ضربا من الجنون . وكذلك دارس الزراعة لا يفكر فى درس المذاهب الاجتماعية وهو يعدها بعيدة عن اختصاصه لأن مهمته الاصلية أن يعرف كيف يقى النبات من الامراض والآفات وكيف يزيد الغلات . وليس له شأن بعد ذلك فى الطريقة التى توزع بها هذه الغلات بين السكان

وقد أدي هذا الاخصاء إلى فوائد كبيرة لاتنكر . ولكنه أدى أيضا إلى أضرار فادحة زعزعت

الكيان الاجتماعى فى الأمم المتمدنة وبلغ أثرها الأمم المتوحشة . فان الاخصاء فى علمين اثنين هما الكيمياء والطبيعيات قد هدى الانسان إلى مكتشفات ومخترعات فى الزراعة والصناعة والملاحة والحرب جعلته يمتاز فى هذه الأشياء كلها بقوة لايعرف كيف يتصرف بها .فان الأسمدة الكيماوية زادت غلات القمح زيادة كبيرة جداً فى جميع الامم الزراعية كما ان استعمال المحاريث الموطرية قد زاد مساحة الارض المزروعة بالقمح وكانت النتيجة ان أقطاراً مثل كندا أو استراليا اضطرت الى احراق محاصيلها منه . وكذلك أنشئت مصانع عظيمة تخرج من المنتجات ما ليس فى استطاعة الامم استهلاكه حتى أصبحت تضطر إلى اغلاق أبوابها والقاء العمال فى عطل وفقر . وقد عرفت مواد كيماوية مميتة لو استعملت فى حرب كبري لكانت خطراً على الحضارة

والسبب لذلك كله ان الاخصائيين يحبس كل منهم نفسه فى معمل فيدرس فى لذة وحماسة ويكتشف ويخترع وهو لا يبالى ماذا يكتشف وماذا يخترع من حيث علاقته بالهيئة الاجتماعية التى يعيش فيها فهو يفرح عندما يعرف طريقة جديدة لزيادة السرعة فى الطائرات أو عندما يكتشف سماداً جديدا أو غازا آخر يفتك بالعدو وقت الحرب . ولو أن هذا الاخصائى كان يدرس الدين إلى جنب الكيمياء أو يدرس المذاهب الاجتماعية إلى جنب الطبيعيات أو السيكلوجية الى جنب الطبيعيات لما كان هذا التخبط الذى نراه فى العالم هذه السنوات الاخيرة لان هذا التخبط أو هذه الفوضى هى ثمرة التقدم العظيم فى بعض العلوم دون البعض حتى لم يعد هناك تكافؤ فالعلوم لا تسير كلها صفا واحدا متكافئة متعاونة على الخدمة البشرية وانما يتقدم بعضها بعضها الآخر حتى أصبح الاختراع الجديد فى بعض الآلات بدلا من أن يؤدى إلى زيادة الخير والرخاء يؤدي الى زيادة الشر والفاقة فان المخترع انما كان يقصد الى كثرة الانتاج من الاقلال من الجهد البشرى . ولكن اختراعه هو عكس ما قصد اليه لانه ينتهى بطرد العمال الزائدين الذين أدى الاختراع الجديد إلى الاستغناء عنهم . وهذه الاسمدة الكيماوية والمحاريث الموطرية ووسائل النقل العظيمة التى زادت غلات القمح فى العالم بدلا من أن تستعمل لمكافحة الجوع قد أصبحنا نحرقها لنتخلص منها أو لنحافظ على الثمن الموافق لها

وإذن ماذا يقترح الكسيس كاريل ؟

يقترح ايجاد علماء جدد يصح أن نسميهم بالحكماء يدرسون علما جديدا يمكن أن نسميه « البشريات » أى يرصدون حياتهم لدرس جميع المعارف ويحاولون التوفيق بينها بحيث لا يؤدى أحدها الى الضرر . فان المعارف فى ذاتها ليست مضرة ولا مفيدة. وانما هى كذلك من حيث علاقتها بالانسان أى البشر . فاذا ابتكرنا علما جديدا نطلق عليه اسم « البشريات » ندرس فيه الآثار التى تنشأ من كل اختراع أو اكتشاف جديد فى العلوم فاننا نستطيع أن نقى الحضارة من الفوضى

التى تعانيها هذه الايام وسوف تعانى أكثر منها فى المستقبل اذا استمر الاخصاء على ما هو عليه من النشاط

ولكن من هو هذا القادر على أن يدرس جميع العلوم وعلى أن يقدر أثرها بالبشر فان الاخصاء فى علم ما يحتاج الى عشرات السنين فكيف بالاخصاء فيها كلها أو ما يقرب من ذلك

ان كاريل يسلم بالصعوبة . وهو لذلك يقترح اختيار هؤلاء العلماء الجدد منذ الطفولة وتهيئتهم لهذه المهمة فيجب أن يكونوا من أرومة حسنة معروفى الاباء فى قوة الذهن وطول العمر وسلامة الغرائز . ثم يعلم هؤلاء العلماء وترصد لهم المؤسسات للدرس المثمر مدى ٢٥ سنة يطمئنون فيها على عيشهم وهنائهم وتترك لهم الحرية المطلقة فى الدرس والتأليف

* * *

وكاريل هو قبل كل شىء بيولوجى يدرس الأجساد فهو لهذا السبب يفهم من الرقى أنه يجب أن يكون بيولوجيا فى أجسامنا وعقولنا وغرائزنا وليس فى بيئتنا . بل هو يرى أننا قد وصلنا الى حال من الحضارة تقتضى استنتاج طبقة جديدة من المفكرين الحكماء يستطيعون حل المشاكل القائمة ومعالجة الادواء التى تتكاثر وتستعصى . فان الازمات الاقتصادية تتوالى والجنون يكثر والجرائم فى ازدياد . وليست هذه جميعها عائدة الى أن المؤسسات الاجتماعية سيئة فقط بل هى تعود أيضا الى أن العقول المدبرة عاجزة عن التدبير فالعالم فى حاجة الى عقول جديدة تستطيع أن تشق الطرق وتسن الخطط للاصلاح المبتكر على نحو ما كان يفعل رجال النهضة فى القرن الخامس عشر فان مما كان يمتاز به هؤلاء الرجال تلك النظرة البكر التى كانوا ينظرون بها الي الدنيا واحتقارهم العظيم للفلسفات . ويرى كاريل أننا فى حاجة الى هذه النظرة فلا نتقيد بفلسفة ولا نخضع لطريقة فلسفية بل نعمد الى بحث الاشياء والانتفاع بالمكتشفات والمخترعات العلمية

لقد استطاع رجال النهضة أن يخرجوا أوربا من طرق التفكير الفلسفى أو اللاهوتى الى الطرق العلمية الحديثة وليس بعيداً أن تكون علة الارتباك الحاضر ان نشاطنا الذهنى معطل بالفلسفات الشائعة وأنه عند مانخرج منها تنفتح أمامنا أبواب جديدة للبناء والتأليف بدلا من الهدم والتحليل اللذين يسيطران الى مدى بعيد فى الابحاث العلمية الحديثة بل ربما كانت فلسفة ديكارت الثنائية عقبة فى سبيل التحرير الذهنى

ويرى كاريل أنه يمكن ايجاد حكماء يدرسون جميع العلوم ويستطيعون الاستنباط البنائى منها للهيئة الاجتماعية وذلك بشرط أن نحوطهم بما يحميهم من تكاليف العرف والعادات السائدة . فلا نطالبهم بمحاضرات أو بهموم العيش أو بحضور المؤتمرات والحفلات . فان كثيراً من وقت العلماء يذهب الآن فى مكافحة ظروف مختلفة من الصعوبات تقتل وقتهم وتفنى قوتهم بلا طائل

ومؤسسة روكفلر التي يعمل فيها كاريل هي مثل لما يجب أن تكون عليه المعاهد فى المستقبل لاستنتاج هذا الجيل . فانه يجب أن تؤسس المعاهد باوقاف تحبس عليها تديرها هيئات علمية لها الحق فى توجيهها وتعيين الابحاث التى تنفق عليها . ثم يعيش فيها علماء حكماء مطمئنون على عيشهم غير مهددين إذا ارتأوا من الآراء مايخالف العرف والعادات الاجتماعيـة ولهم من وسائل البحث كل مايحتاجون اليه

* * *

ولـكن إذا كان هذا هو الموضوع الاصلى لـكتاب « الانسان : هذا المجهول » فان كاريل يتناول أشياء كثيرة تتصل ببحثه وهى إذا لم تـكن جـديدة فى عمومها فانها طريفة فى تفاصيلها . وغاية المؤلف منها أن يصل الى فهم الانسان . فهو مثلا يقول ان الفردية الانسانية كما تبدو لنا فى تقاسيم الوجه والجسم والذهن كذلك هى بادية فى الخلايا الحية لهـذا الجسم . فاذا أردنا أن نرقع الجلد فى الجسم الحى ونقلنا اليه رقعة من مكان آخر منه هو نفسه وخطناها بما حولها لم نلبث أن نرى الرقعة تنمو وتحيا حتى تعود جزءا متمما لسائر الجلد . ولـكننا اذا نقلنا رقعة أجنبية وخطناها بما حولها لم نلبث أن نراها تنكمش وتموت . ومن هنا نفهم أن الفردية تصل الى كل مكان من جسمنا وهـذا الجسم الانسانى هو غاية فى الاقتصاد والدقة . فان السائل الذى يغـذونا ويحمل عنا فضلاتنا لايزيد فى وزنه على عشر الجسم . ولـكن كاريل عند مايحفظ نسيجا حياً فى سائل صناعى يحتاج الي سائل يزيد على وزنه ألفى مرة

والـكتاب مشحون بهذه التفاصيل الصغيرة الطريفة التى لايمـكن استيعابها فى مقال

الحب .. قصة روسية

للقصصى الروسى أنتون تشيكوف

ترجمة الاستاذ حسن حبشى

« الساعة الثالثة صباحا ، وليل ابريل الهادىء يطـل علىّ من نوافذ حجرتى ، والنجوم الزهر المتلألئة تتطلع إلىّ فى دلال . وليس فى مكنتى أن أنام لما يحوطنى من سعادة وسرور . إن احساسا غريبا ملك علىّ نفسى ، واحتوانى من أعلى رأسى إلى أخمص قدمىّ . لا أعرف كنهه ، ولم أبحث عن سره وخفاياه . والوقت يمضى سريعاً . . . فيالي من غبى أبله ، وكيف يمكن لرجل يرى نفسه كنجم سابح فى الأثير أن يحلل هذا الشعور ، وهل يمكنه ذلك إذا جاءه البشير بأنه قد ربح ألفى روبية ؟ وهل تساعده حاله على هذا التفكير ؟ »

بهذه الجمل أو ما هو فى معناها ، بدأت رسالتى الغرامية إلى « ساشا » وهي فتاة فى التاسعة عشر من عمرها كلفت بها . وقد كتبت الرسالة خمس مرات ومزقتها ، وأعدت كتابتها أخيرا . وأمضيت فى ذلك فترة كبيرة كما لو كنت أكتب قصة طاب الى وضعها . ولم يكن هذا رغبة منى فى اطالة الرسالة أو اجادة عباراتها ، ولكن أملا فى أن أجعلها بدون نهاية ، وما ألذ جلوس المرء فى غرفة المطالعة ، يخيم عليه الصمت وتحوطه السكينة مستعيدا فى خياله أحلام اليقظة ، بينما ليل الربيع الجميل يطل عليه من نافذته ! ! وقد رأيت خلال سطور الرسالة صورة محبوبة لدى هو شبح حبيبتى وظننت انى واياها على المكتب ، وظللت أكتب وعيناى مصوبتان الي يدي كأنما كانت ساشا تضغمها بكفيها الرقيقتين . واذا نظرت خلتنى خيل الى أني أرى طيفا جميلا عند الباب . . فعند مدخله بالامس وقفت حبيبتى « ساشا » تنظر الى بعد أن ألقت كلمة الوداع . ولم أكن لأفكر فى شىء أبدا غير صورتها ككل رجل يعشق أى امرأة . وحين التقى ناظراى بعينيها الجميلتين عرفت أنها تيمتنى واني كلفت بها . وهذا كل ماحدث بيننا اذ ذاك

ما أبهي اللذة حينما تمضى رسالة غرام ، ويتمهل العاشق فى ارتداء معطفه وقبعته ومن ثم يتوجه الي صندوق البريد فيودعه الكنز . . لقد اختفت النجوم من السماء وظهر مكانها شريط أبيض طويل جهة الشرق ، وقطع السحاب المتناثرة تشرق على أسطح المنازل القائمة ، وبهذا الشريط

الابيض اكتست السماء لونا شاحباً . ولكن المدينة لم تزل بعد فى سباتها العميق ، وقدخرجت عجلات المياه الي الشوارع وفى هذا السكون الشامل رن صفير البوق من مصنع بعيد موقظا عماله وبجوار صندوق البريد المبلل بالندي المتكاثف يمكنك أن تتبين شبحا لحارس عملاق ، مرتديا معطفا من جلد الماشية . وفى يده عصاه . وهو ليس بالنائم أو المستيقظ ولكنه بين بين . . .
ولو كانت الصناديق تعلم ما يقاسيه الناس فى سبيل الوصول اليها لما كان عندها هذا الهواء الشديد . وعلى كل فقد قبلت صندوق البريد مرارا ، وعلمت انه أجل شىء يقدم اليه الشكر ، وأرجو كل من ذاق نيران الحب أن يتذكر كيف يلقى وديعته فى الصندوق ومن ثم يتجه الي الفراش ويجذب اليه غطاءه ، وكله اعتقاد وحزم بأنه حالما يستيقظ فى الغد يرى نفسه محاطا بذكريات الامس فيتوجه الى النافذة فى سرور ، وضوء النهار يتخذ سبيله الي حجرته خلال الستائر الكثيفة . ولنعد الى الواقع . ففى ظهر اليوم الثانى جاءتنى وصيفة «ساشا» تحمل الي الرد التالى :

« أكون سعيدة لو تفضلت بزيارتنا اليوم . سأنتظرك . » صديقتك . س .

ولم ترد علي ذلك شيئا ورغم ما فى رسالتها من الخطأ الهجائى ، ورغم غلافها الساذج الطويل فقد شعرت بلذة وسرور يتجاوبان فى أنحاء نفسى وتذكرت فى الخط المنحنى سير « ساشا » ورفعها لحاجبيها حينما تضحك ، وحركة شفتيها . ولكن ما حوته الرسالة غير ذلك لم يقع لدى موقعا حسنا اذ ليست هذه طريقة الاجابة على الرسائل الغرامية ثم لماذا أتوجه الى منزلها وأظل منتظرا نهاية لقائها لامها الضخمة وأخواتها وحثالة أقاربها ، وليس ثمت أبغض من أن يكبح جماح الشخص فى شرح عواطفه ، وذلك لتطفل امرأة عجوز قبيحة قد أزيفت . أو طفلة صغيرة بلهاء تزعجنا بكثرة أسئلتها ولذا فقد طلبت من « ساشا » بوساطة الخادم أن تختار أى حديقة لى نتقابل ، وسرعان ما أجابت سؤالى ، وكأنى قد ضربت علي الوتر الحساس منها

وحوالى الرابعة أو الخامسة ظهرا اتخذت سبيلى الى أبعد مكان منعزل فى الحديقة ولم يكن فيها شخص سواى ، ورأيت « ساشا » مولية اياى ظهرها . وتبين لى من هيئة وقوفها أن الخوف يعتريها . وخيل الى أن كل نقطة فى ثوبها تهتف بى : صه ! !

وكانت الفتاة ترتدى ثوبا بسيطا من القطن ، وقد أسدلت على وجهها نقابا أبيض زيادة منها فى التستر ولكى لا ازعجها اقتربت منها على أطراف أصابعى وهمست اليها فى صوت منخفض

ومما أذكره الآن أنى لم أكن موضوعها الجوهرى فى هذه المقابلة ، فلم أنل من خيالها

أكثر من صمت الاشجار الحزينة . ولكن كيف يعرف الرجل فى مثل هذه الاحوال اذا كانت حبيبته تبادله الغرام ؟ وهل الحب عندها ضرورة أم هى تعده شيئا تافها ؟

وغادرنا الحديقة الى منزلى ، ويالها من لذة . فان فى خلوة الشاب مع حبيبته فى منزله نشوة أشد من نشوة الخمر والموسيقى . وفى هذه الآونة يتحدث الرجل عن أمله فى المستقبل ولعل فى هذا الكلام والثقة بالنفس والغرور بالامانى كثيرا من الاضاليل وغالبا ما يدبر الخطط ويرسم المشاريع ويندفع فى تعظيم نتائجها . ولا يصدقه سامعه الا اذا كان جاهلا . ومن حسن حظ الرجال أن حبيباتهم يندفعن فى تيارهم وقد أعمى بريق السعادة المنشودة أعينهن وملأ أذهانهن . وعدن لا يعرفن من الحياة شيئا . وبدلا من أن يقفن فى سبيل تلك الترهات يسبحن فى عالم من السعادة فيملوهن شحوب الدهشة وينصتن فى سرور الى ألفاظ الجنون والبلاهة

وقد أصغت الى « ساشا » بجوارحها ، ولكنى سرعان ما تبينت فى وجهها غياب ذاكرتها عنى . ذلك لأنها لم تدرك سر كلامي . ولم تفهم كنه ما أريد ، اذ لم تنل فائدة مما لقنتها عن أملى فى المستقبل السعيد ، وظهر لى أن وقتى ضاع سدى فى شرح خططى ومراميها . أما هى فقد كانت مشتاقة أن تعرف أى حجرة ستخصص لزينتها . ولون الورق الذى يكسو حوائطها ، ولماذا أقتنى بيانا صغيرا ، ولا يكون ضخما إلى آخر هذه الاسئلة التافهة . ثم راحت تختبر فى دقة متناهية كل ما كان على منضدتي من صور فوتوغرافية . وتخلع طوابع البريد المستعملة بحجة أنها فى حاجة اليها ثم قالت لى فى صوت منخفض :

— أرجوك أن تجمع لي الطوابع القديمة اذا سمحت

ثم عثرت على بندقة فخطمتها محدثه جلبة والقت بها الى فيها ، ثم القت نظرة على مكتبي ومحتوياته وتساءلت :

— لماذا لا تلصق وريقات صغيرة على غلاف كتبك ؟

— ولماذا ؟

— حتى يكون لكل كتاب رقه . و أين أضع أنا كتبى . لقد اشتريت كثيرا منها كما تعلم

— وأى كتب عندك ؟

فرفعت حاجبها فى دهشة وفكرت لحظة ثم قالت :

— كل شيء

ولو سألتها حينذاك عما لديها من الافكار والرغبات لرفعت حاجبيها وتأملت لحظة ثم قالت « كل شيء »

وطفقت أريها حجرات المنزل واحدة بعد أخرى ، وقد تركته في غير انتظام مدة الخطبة حتى الزواج . واذا سمح لي القارىء أن أقول رأيي الخاص نتيجة تجاربي الشخصية فان المدة التي تلت الخطبة حتى الزواج كانت سوداء . فهي بعيدة جد البعد عن حياة الاعزب وعن معيشة المتزوج ، فالرجل الخاطب غير هذا وذاك كمن ترك شاطىء النهر وتوسطه ثم خارت قواه فلم يدرك شاطئه الآخر

وكنت أختلس من وقتي لحظات أتوجه فيها إلى شريكة حياتي ، والآمال تحوطني من كل جانب ، وخيالي يفيض بشتى الرغبات والأماني والاقتراحات الجمة ، وكان يخيل الى أنه لا تكاد تفتح لي الباب حتى أرى نفسي غارقا إلى القمة في بحر في السرور ولم أكن أدخل على ساشا في منزلها حتى أراها في جمع حشيد من أقاربها وسكان المنزل وقد ملك مشاعرهم واستولى علي لبهم الأثاث ، فلم يعودوا يفكرون في شيء سواه « وأغتنم هذه الفرصة لأقول إنه قد مضى شهران في إعداد ملابس العرس » وكانت رائحة الشمع والدخان تملأ جو المنزل ، والخرز يتهشم أني وضع القدم ، وفي الحجرتين الكبيرتين تقوم أكوار من التيل والحرير والصوف ، وبين هذه الامواج الزاخرة تطل « ساشا » برأسها الصغير ، وقد قبضت بأسنانها على شريط من الخيط وكانت جماعة الخياطين تستقبلني بهتافات السرور وسرعان مايتوجهون بي الى غرفة الطعام حتى لا أضيع عليهم الوقت وأظل فيها رغم إرادتي متحدثا الى « بيمبوفنا » إحدى قريباتها الفقيرات وتلمحني « ساشا » فتبدي أسفها وتسرع من أمامي وفي يدها كرة من الخيط ، واذا لمحت في عيني بريق الضجر صاحت بي !

— رويدا رويدا . لن أغيب أكثر من دقيقة ، أخشى أن تتلف « ستبانيدا » الحمقاء ثوبي

وانتظر فترة ثم أثور حانقا وأبرح البيت مجولا في الشوارع . واذا ماذهبت اليها ووجدتها في الصالة على أهبة الخروج مع أمها تقول لي :

— سنتوجه معا لشراء بعض القماش ، ونستبدل بالقبعة أخرى فهل لك في مصاحبتنا ؟

وعلى ذلك تذهب تدابيري أدراج الرياح ولا أجد مندوحة من أن أمضي معهما وليس آلم عندي أكثر من أن أرى السيدة تساوم التاجر ، وشد ما أخجلني أن أري « ساشا » بعد استعراضها كميات جمة من البضائع وانزالها الثمن الي الحضيض تخرج من الحانوت صفر اليدين لم تشتر شيئا ولم

تطلب من التاجر أن يقطع لها بعض القماش . وحين تبرح ساشا وأمها الحانوت ، تتجادلان وتحتمان بأن لون الورد المزين للقبعة قاتم أكثر مما يجب وهكذا . واليوم وقد تزوجت « ساشا » والليل ضارب بأطنابه على الكون أجلس فى حجرة المطالعة وتجلس هى خلفى على مقعد وثير وتلوك فى فمها بصوت عال شيئا لا أتبينه وأطلب زجاجة من البيرا وأقول :

— ساشا : هيا ابحثى لى عن البريمة . هيا يا ساشا ابحثى عنها

فتقفز « ساشا » من مكانها وتثور فى عنف باحثة عنها بين تلول الأوراق الممزقة وتعود بدونها وتجلس هادئة ، وأكابد انا الظمأ المميت والغيظ المؤلم فأصرخ بها .

— ساشا ابحثى عن البريمة

فتقوم غاضبة بين أكداس الورق المتناثرة وأسمع صوت خشخشة الأوراق فأخاله اشتباك الاسنة والرماح وصليل السيوف البائرة فأدع مكانى وأمضي باحثا عنها ، حتى أعثر عليها أخيرا فتمضى هي الى المنضدة وتعتمد عليها

فأقول :

— الأجدى لك ياساشا أن تقرئى شيئا يفيدك

فتأخذ كتابا ثم تجلس قبالتى وتبدأ فى تحريك شفتيها مستغرقة فى أفكارها فأقول محدثا نفسى ، ومتأملا إياها :

— لقد قطعت من عمرها عشرين ربيعا ولو قارنتها بفتى متعلم فى مثل عمرها لبذها فى آرائه وأفكاره وذكائه ومعرفته

ولكن سرعان ما أسامحها كما أغفر لهذه الجبهة المنبسطة والشفتين المتحركتين كذبهما وإنى لأذكر كيف كنت فى أيام حبي الأولي لغير «ساشا» اهجر عشيقاتي لبقعة على جوابهن أو لكلمة تافهة أو لعدم اعتنائهن جيدا بنظافة أسنانهن ولكنى اليوم اتسامح في كل شيء ، وأغفر لها كل شيء . وأصمت حين تبحث عن البريمة ، وأغفر لها عدم النظام والحديث الممل . نعم أسامح ساشا فى كل هذا كأنما أخطاؤها أخطائى ، وكل ما كان يؤلمنى قديما أصبح مصدراً لولهى وهيامي . وذلك كله يرجع إلي حبى . ولكن ماهو الحب ؟ ذلك مالا أعرف حقيقته

الازهر وتدريس اللغة العربية

بقلم الدكتور روسل جولت عميد كلية الآداب بالجامعة الامريكية

للازهر أثر واضح فى مناهج التعليم وطرق التدريس فى مصر . ففى اللغة العربية لا تزال مصر تتبع أساليب تقليدية فى تعليم الناشئة اللغة القومية رغم التغيرات الكبيرة التى طرأت على تدريس اللغات فى البلدان الاخرى . ولا مشاحة فى أن اللغة فى مصر مسألة محفوفة بالمصاعب وتدعى هذه المسألة عادة باسم Bilingualism أى ازدواج اللغة ، لان الطالب يواجه اللغتين ، الدارجة ، والفصيحة ، وكل منهما تنافس الاخرى ، وان رجعتا إلى أصل واحد

ولغة الكلام فى مصر هي الدارجة ، اذ أن جميع السكان على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية يتكلمون بها . وان كانوا لايكتبونها . أما اللغة التى تقرأ وتكتب فهى اللغة الفصحي

ومن أقوال يعقوب ارتين باشا ، وزير المعارف الاسبق ، فى هذا الصدد ما يأتى :

« لذلك عندما يبدأ الطفل المصرى حياته المدرسية ، لايقتصر تعليمه على تمثيل الكلام المعروف لديه بحروف اواشارات كتابية ، كما يفعل الطفل الاوروبى ، ولكن فى الحقيقة ما يتعلمه هو لغة أجنبية أخرى ، فوق قراءة هذه اللغة وكتابتها . ومثله فى هذه الحالة على وجه التقريب مثل طفل انجليزى يسمع اللغة الانجليزية الدارجة وينطق بها فى المدرسة والمنزل على السواء ، ولكن لايسمح له أن يقرأ أو ان يكتب الا باللغة الانجليزية التى كانت معروفة فى عصر الفريد الكبير . ويظهر أن تعليم اللغة العربية من المدارس الاولية الي الازهر ، يرمي الى احلال اللغة الفصحى محل اللغة الدارجة ، كتابة على الاقل . وقد سبق لنا أن أشرنا الى العوائق الجسيمة التى كانت حائلا دون تطبيق أساليب الطرق الحديثة فى التعليم من جراء هذا الأسلوب التقليدى الذى يرجع الى القرون الوسطى (Scholastic) »

ونظرا للصعوبة التى ينطوى عليها هذا الازدواج اللغوى Bilingualism فتعلم القراءة والكتابة أصعب ، على الارجح ، على الطفل المصرى منها على الاوربى . وينتج من هذا التعقد فى عملية التعلم أن المتعلم يلجأ الي الحفظ وحشو الذاكرة أكثر منه الى التفكير واستعمال الذكاء وبهذا يحرم الطفل من تربية الذوق السليم ولذة المطالعة فى السن السيكولوجية المناسبة . فطبيعة المادة وصعوبة عملية التعلم تحولان دون الطرق الحديثة التى تنبه ملكة الذكاء وتسهل استيعاب مايقرأ ، فضلا عن أن العربية فقيرة فى كتب الاطفال . وهناك مسألة أخرى سيكلوجية تتعلق بهذا الشأن

ولها من الاهمية مكان عظيم وهى أن الطفل منذ اول عهده بالمدرسة يصادف باستمرار عقبات تفكيرية لأنه مضطر أن يفهم ويعبر بغير لغة أمه . وهذا مما يعطل التقدم الفكرى بلا مراء

وقد كتب سير وليم ولكوكس رسالة شائقة فى هذا الموضوع أشار فيها الى أثر اللغة المزدوجة فى تفكير الطلاب المصريين وبنى هذه الرسالة على اختباراته فى مدرسة الهندسة الملكية كأستاذ وممتحن

ان بلادا كمصر نسبة الامية فيها كبير الى حد يعتد به ، جديرة بأن يعير المربون فيها أهمية الي هذا الموضوع الخطير فيسهلون على أبنائها تعلم اللغة القومية على الوجه المنشود . ولعل الصحافة والحركة القومية كان لهما الاثر الطيب فى القيام بهذا الواجب المقدس ، إذ أن كلا منهما أخذ يعبر عن آرائه ورغباته بلغة تسمو فوق العامية ، ولكنها لا تتوغل بعيداً عنها . ومع أن هاتين القوتين تعملان علي هذا الاصلاح المرغوب فيه ، فان المعاهد العلمية لا تزال بعيدة عن هذا الاصلاح لأنها مقيدة بتقاليد الف عام ، ولانها تعتقد أن العربية الكلاسيكية هي هى اليوم كما كانت أمس ، ولا تقبل تغييراً ولا تبديلا كسائر لغات العالم ، وان المرانة على أوضاع اللغة القديمة وأساليبها هى الطريق الامثل فى تعليم اللغة العربية . وبين المصريين من بعيدى النظر الذين درجوا بين أحضان المعاهد العلمية الحديثة من لا تخفى عليه هذه المشكلة التى هى أعقد من ذنب الضب ، وان كانوا — نزولا علي الرغبات التقليدية — مقيدين بطرق التعليم الكلاسيكية رغما منهم .وقد ذكر العلامة الدكتور كلاباريد فى تقريره هذه العبارة ، وهى .

« لقد شرح لى مفتشو التعليم ونظار المدارس الصعوبة التى يلاقيها تلاميذ الفصول الابتدائية حتى العليا منها ، وتلاميذ مدارس المعلمين فى كتابة اللغة العربية الفصحى ,وتساءلوا إذا كان الانسب أن يسمح لهؤلاء التلاميذ أن يكتبوا مذكراتهم الخاصة باللغة العامية »

واذا أضفنا الى هذه الصعوبات ما تطلبه السلطة الدينية من قدسية اللغة الكلاسيكية ، اتضح لنا بجلاء أن تعليم اللغة يصبح آلياً « أتوماتيكيا » جامدا ولا يخفى ما فى هذا من الاثر السيىء فى عملية التفكير واستعمال الذكاء

غير أن هذا الاثر ليس مقصوراً على تعليم اللغة العربيه بل تعداه الى التربية المصرية من جميع نواحيها . وذلك أن التعليم أصبح ذا طابع خاص ، هو الحفظ والاستذكار بدلا من تمثيل المواد الدراسيه أي هضمها . وقد مضى علي هذه الظاهرة فى التربية المصرية الف عام على الاقل . وفى خلال هذا الزمن الطويل أصبحت الوسيلة لاستيعاب المعارف هى حفظ النصوص المسلم بها

فى الكتب والتى ينظر اليها المتعلمون بعين الاجلال والاحترام . ولما كانت الطريقة الوحيدة للدرس هي طريقة الاستذكار المعروفة فى الازهر منذ الف عام ، فان هذه الطريقة قد تغلغلت فى المدارس المصرية ، وتسربت الي المدارس الحديثة التى أنشئت على النمط الاوربي . وقد أشار اللورد كرومر الى هذه الظاهرة بقوله : « . . . تلك الطرق التى كساها الزمان بلباس الاجلال والاحترام والتى تثقل فيها ذاكرة الطالب المصري ، ولا يمرن عقله »

وقد جاء فى كتاب التربية السنوى الذى يصدر فى انجلترا « ١٩٣٢ » صفحة ٩٩٢ هذه العبارة وهى : « وللمصرى ميل تقليدى الى استذكار القواعد وحفظها عن ظهر قلب عوضا من أن يفكر ويتأمل ويبحث عن الاسباب ومسبباتها »

ومع أن تقرير المستر مان « مفتش التعليم فى انجلترا » محوط بسياج من التحفظ والاحتراس والاعتدال فى لغته ، فانه أصلى هذه الظاهرة في التربية المصرية نارا حامية بهذه الكلمات اللاذعة اذ قال :

« ومهما شددنا فى القول فاننا لا نتجاوز الحد إذا قلنا وألححنا فى القول بأن الاستذكار ليس السبيل إلى المعرفة . وكل محاولة يراد بها احلال ملكة الذاكرة السفلى مكان ملكة الفهم العليا لا بد أن يدفع عنها ثمن باهظ ، وما هذا الثمن سوى أضعاف ملكات التفكير والتخيل والاستدلال لان كل ملكة لا تستعمل يعتريها الوهن والهزال . والطفل الذى يقضى أيامه المدرسية فى الاستسلام للحفظ والاعتماد على الذاكرة فى سلسلة من الالفاظ لا يفهمها ولا يحاول فهمها ، لابد أن يشب رجلا عاجزا عن التمييز بين الحق والباطل . وكلما اتسع نطاق هذا النوع من التعليم فى نظام التربية القومي جاءت العاقبة وبالا وساء أثرها فى الثقافة العامة فى طول البلاد وعرضها ، وأصبح التعليم مرادفا للحذلقة ، واكتست ملكات الذكاء النشيطة العاملة بغشاء من المواد الميتة تزداد قسوة عاما بعد عام »

ومن الخطأ أن نعتقد أن أثر هذه الطريقة الازهرية مقصور على تدريس اللغة العربية أولا ، وطرق التدريس عامة . فان عقلية خاصة قد نتجت من هذه الطرق فتأثر بها عدد من أبناء الامة . وقد جاء فى رسالة قدمها الدكتور أمير بقطر لمؤتمر التعليم الذى عقد فى مدينة جنيف بسويسرا سنة ١٩٢٩ ما يأتى :

« ولقد خلق الأزهر فى طبقه معينة من السكان عقلية خاصة ، عقلية تتصادم مع مبادىء القرن العشرين ومثله العليا ، عقلية أسدلت حجابا كثيفاً وأقامت حائلا منيعا بين ما نسميه العقلية الازهرية وعقلية سائر الشعب المصري ، عقلية لا تتفق إلا مع العصور القديمة الفطرية

التى نشأ فيها ذلك المعهد المبجل العظيم »

وقد كتب اللورد لويد المندوب السامي فى مصر « ١٩٢٥ — ١٩٢٩ » عن أثر الازهر فى بدء الاحتلال البريطانى ما يأتي :

« وكانت التربية الدينية فى مصر تستأثر بها سلطة واحدة في مصر هى سلطة الازهر . وليس من شك فى أن طرق التعليم فيها تلك التى كانت ترجع الى القرون الوسطى قامت حائلا دون تقدم التربية فى مصر وتطورها . وطلبة هذا المعهد كانوا يحملون معهم التعصب المقترن بالغطرسة وقلما اتصفوا بالمرونة الفكرية أو خصب الخيال . وكم كانت تكون خطوة التقدم فى ميدان التربية عظيمة لو انتشل ذلك المعهد العظيم من وهدته ؟ لو تم ذلك لزالت تدريجيا روح التعصب وعدم التسامح التي طالما عاقت تقدم مصر »

ونستطيع أن نقول فى الختام ان أثر العربية « كما نراها فى الازهر » لا يتفق مع التقدم الحديث فى ميدان التربية . ونخشى ان الاصلاح الحديث فى الازهر لم يكن الا من قبيل العناية بالسطح دون العمق . فادخال الادوات والاجهزة الحديثة وانشاء القسمين الثانوي والابتدائى وغير ذلك من الاصلاحات لا تجدى نفعا طالما كان النظام فى حد ذاته مطبوعا بطابع القرون الوسطى

ومن المناسب أن نذكر بعض وجوه الشبه بين الثقافه الغربيه القديمة scholasticism التى قلنا انها ترجع الى القرون الوسطى وبين المركزية الفرنسية . وليس الغرض من هذا أن نقول، ان النظامين متشابهان كل المشابهة ، أو أن ننكر أن المركزية الفرنسية قد نشرت فى فرنسا ثقافة عالمية . ولكننا نرمي الى التكلم عن وجود الشبه ونبرهن كيف أن المركزية الفرنسية لقيت فى التربة المصرية مرعي خصيبا . فمع ان العربية القديمة لاهوتية دينية ، والمركزية الفرنسية عالمية ، غير أنهما متفقتان فى أن كلا منهما يخضع لسلطه عليا تملى على الآخذين بها قبول كل ما يدلى به من الآراء بدلا من البحث الفردى والاجتهاد والتفكير . وقد أدى هذا حتما الى جعل النظم البيداغوجيه تسير كلها على وتيرة واحدة وطريق واحد ، وأن يعتمد الطلاب على الحفظ والاستذكار فى مواد الدراسة . واذا قلنا ان مواد الدراسة التى دخلت مصر مع دخول الثقافة الفرنسية كانت غريبة على العربية ، فانه يجوز لنا القول كذلك أن الفلسفة العامة التي تسود على ادارة هذه المواد وادخالها فى نظام التعليم لم تكن غريبة البتة

الصمت

قصة روسية تأليف ليونيد اندريف

وترجمة الدكتور صبرى جرجس

دخلت زوجة الأب ايجناتيوس عليه فى مكتبه ذات مساء ... كان وجهها ترتسم عليه امارات الحزن والالم ... وكان المصباح الخافت الصغير يهتز فى يدها كانما هو خائف يرتعد . فلما اقتربت منه لمست كتفه بانامله واستطاعت بعد جهد أن تقول من خلال عبراتها

« أيها الاب : دعنا نذهب الى فيروشكا »

بيد أن الرجل لم يحرك رأسه عند سماعه هذه العبارة من زوجته ولكنه ارسل اليها نظرة جامدة من فوق نظارته ... نظرة طويلة فاحصة . فما كان من المرأة الا ان اشاحت بيدها الخالية فى يأس وقنوط والقت بنفسها على ديوان منخفض

ومضت فترة استطاعت المرأة فى خلالها ان تستجمع قواها وان تقول فى نغمة حزينة متباطئة « كيف يمكن أن تخلو الشفقة من قلبيكما الى هذا الحد ؟ » وركبت وجه المرأة تقطيبة من الالم والحنق كانما ارادت ان تعبر بها عن صلابة هذين الشخصين — زوجها وابنتها

وعلت شفتى الرجل ابتسامة باهتة ثم نهض واقفا وأغلق الكتاب الذى كان يطالعه وخلع نظارته ووضعها فى علبتها بتؤدة ثم بدا كأنه يتروى . وكانت لحيته السوداء الطويلة التى بدأ الشيب يقتحم سبيله اليها تتحرك فى وقار هادىء فوق صدره مع كل حركة من حركات الحديث أو التنفس

وأخيرا انفرجت شفتا الرجل عن كلمة واحدة « حسنا . لنذهب »

فلم تكد اولجا ستيبانوفنا تسمعها حتى نهضت واقفة وقالت فى لهجة متوسلة جبانة « ارجو الا تعنفها ايها الاب ... فانت تعلم من اى طراز هى »

كانت غرفة فيرا فى الطابق العلوى . وقد اهتز الدرج الخشبي الضيق تحت وقع اقدام الاب الثقيلة ومال برأسه كى يقيها الاصطدام بالسقف . ولكنه كان على ثقة من أن هذه المحاولة لن تنتهى الى نتيجة ما

قالت فيرا « لم جئتما ؟ » وهى ترفع ذراعها العارية الى عينيها وتلقى بالثانية على قطعة من القماش الابيض لا يكاد المرء يستطيع أن يميزها عنها لشدة ماعراها من الشحوب

وبدأت أمها تقول « فيروشكا » . ولكن العبرات خنقتها فلم تستطع أن تتابع الحديث

وقال أبوها محاولا أن يضفى شيئا من الرقة على نغمة صوته الجافة القاسية « فيرا ... الا تخبريننا ماذا يؤلمك ؟ »

ولكن فيرا لزمت الصمت ولم تجب

« فيرا ... الا ترينا — امك وانا — جديرين بثقتك ؟ السنا نفيض بالحب لك ؟ السنا اقرب الناس اليك ؟ حدثينا عن متاعبك واحزانك وثقى انك لن تندمي على ذلك ... انظري الى أمك العجوز المسكينة .. انظرى كم تتألم من اجلك »

« فيروشكا »

وتابع الصوت الجاف حديثه وهو يهتز ... نعم فلا بد ان يكون شيء ما قد انكسر فيه « وأنا ... انا ... هل تحسبين اننى أرى الامر سهلا ؟ كأنما لا استطيع أن ارى الحزن يقتحم سبيله الى قلبك دون أن أعرف ما هو . . . انا ابوك لا اعرف ما هو . . . ايجوز أن يبقى الامر على هذا النحو ؟ »

ولكن فيرا لزمت الصمت ولم تجب

وأخذ الاب يمشط لحيته باصابعه فى حذر كانما يخشى أن تشتبك فيها ثم تابع حديثه قائلا « لقد ذهبت الى بيترسبرج على الرغم منى . فهل انفرجت شفتاى عن كلمة دعاء واحدة عليك . . . انت يامن عصيتنى وهزأت بارادتى ؟ .. وهل امتنعت عن اعطائك ماتريدينه من المال ؟ . وهل تستطيعين الزعم باننى لم أكن بارا بك عطوفا عليك .. فلماذا اذن تلزمين جانب الصمت »

وسكت الاب ايجناتيوس عن الحديث وخيل اليه وهو واقف امام ابنته انه يرى شبحا هائلا مخيفا لاخطار غامضة اخذت تحوطها وتحدق بها وهى وحيدة ضعيفة لاحول لها ولا سند حتى ابتلعتها فى لجتها وغابت عن عينيه

فى تلك اللحظه فاض قلبه بكراهة هائلة نحو تلك المدينة المروعة الغامضة وامتلأت نفسه بالغضب من تلك الفتاة التى كانت تلزم الصمت فى عناء مثير

وفى النهاية تحركت شفتا فيرا فقالت فى نغم مهموم وهى تغمض عينيها

« ان بيترسبرج لاشأن لها بى .. وأنا لا اشكو شيئا ... خير لكما ان تذهبا الى الفراش فان الوقت متأخر الآن »

وهمست امها تقول « فيروشكا يا ابنتى الصغيرة العزيزة .. الا تعترفين لى ؟

ولكن الابنة قاطعتها فى ملل هاتفة « أماه »

وجلس الاب على مقعد وانطلقت من شفتيه ضحكة ساخرة ثم سألها فى تهكم

« اذن فليس فى الامر شيء »

وانتصبت الفتاة واقفة وهى تقول فى حدة « ابى .. انت تعلم انى احبكما .. وكل مافى الامر انى متعبه قليلا وسيمضى ذلك فى حينه . اذهبا للنوم الآن فانى أيضا اريد أن انام . وغدا — أو فى أى وقت آخر — سنتحادث معا »

« دعينا نذهب »

« فيروشكا »

فصاح الاب بملء صوته « أقول لك دعينا نذهب .. إذا كانت قد نسيت الله فهل نحن ... »

ثم دفع زوجته بعنف نحو الباب وبينما كانا يهبطان الدرج تباطأت زوجته وقالت فى همس خشن « انت يارجل المسئول عن هذه الحالة التى وصلت اليها . فمنك تعلمت كل شيء .. ان حسابك امام الله عسير . ما اتعسنى وما اعظم شقائي »

انهمرت الدموع من عينيها فحجبت عنها الدرج وزلت قدمها مرة أو مرتين عن الخطوة الصحيحة فكادت تسقط . وشعرت كأنما هي على وشك الوقوع فى هاوية مجهولة القرار

منذ ذلك اليوم لم يتبادل الاب كلمة مع ابنته . ومضت الابنة وكأنها لاترى فى الامر شيئا .. كانت تقضى الوقت هاجعة فى غرفتها أو متجولة فى المنزل .. تمسح على الدوام عينيها بيديها دون أن تنطق بحرف ... ومضت الأم تحيا فى هذا الصمت الموحش ... واستحالت روحها المرحة الي نوع من الانقباض والذهول فلم تكن تدرى ماذا تفعل

وبعد أسبوع خرجت فيرا للنزهة كعادتها كل مساء ... وكان هذا آخر عهدها بالحياة . . . إذ القت بنفسها تحت القطار فمزق جسدها اشلاء

وقام الاب إيجناتيوس نفسه بمراسيم الجنازة . أما الأم فلم تستطع حضور الصلاة فى الكنيسة إذ صدمتها الفاجعة فخلت قدميها وشلت يديها وعقدت لسانها وتركتها جسدا هامدا لاقوة فيه ولا

قدرة على الحراك . فبقيت راقدة فى غرفتها المظلمة بالمنزل حتى وصل إلي أذنيها رنين الأجراس وهى تقرع نغمات الحزن فى وداع إبنتها . وسمعت خطوات المعزين فى أثناء خروجهم من الكنيسة ومرورهم بالمنزل ... فحاولت بكل ما ملكت من الجهد وحرارة الايمان أن ترفع يدها لترسم علامة الصليب على صدرها ولكن اليد لم تطاوعها .. وحاولت أيضا أن تحرك لسانها بكلمة وداع لابنتها ولكن اللسان عصاها وظل فى مكانه دون حراك

وكان المعزون بالكنيسة جمهورا كبيرا من الناس الذين يعرفون الاب إيجناتيوس ومن الغرباء الذين لا يعرفونه .. وجميعهم سواء فى الحزن على الفتاة الراحلة وفي التلهف على معرفة الحالة النفسية للاب من قسمات وجهه ونبرات صوته . لم يكن الرجل محبوبا لديهم لشدته وكبريائه وازدرائه بالخطاة وروحه القاسية التى لا تعرف الرحمة أو العفو وغيرته وجشعه الذى كان يدفعه إلى استغلال كل فرصة تعرض له لاقتناص المال من شعب كنيسته فكان الجميع يودون أن يشهدوا آلامه ويروا ذلة نفسه فى إحساسه بخطيئته المزدوجه لموت ابنته — قسوته كأب وفشله كقسيس — لم يستطع أن يحفظ إبنته — وهى لحمه ودمه — من الخطيئة والدنس

صوبت النظرات اليه من كل عين . . . وأحس هو بوطأتها على نفسه فحاول جهده أن يبقى منتصب القامة مرفوع الرأس وتحول اهتمامه من ابنته المتوفاة الى كرامته المستهدفة

« قسيس جامد » كلمة قالها الرجل كارزينوف وهو نجار بدين الاب بخمسة روبلات . ولكنها تناثرت كما تناثر كثير من أمثالها

على هذا الحال ذهب الاب ايجناتيوس الي المقبرة وعاد منها . . . جامد الوجه منتصب القامة . لم يعرف الانحناء الا عند باب مخدع زوجته . . وذلك لان الباب أقل ارتفاعا من قامته الفارعة . ولما دخل الغرفة أتبعه الانتقال المفاجىء من النور الى الظلام فلم يستطع أن يتبين وجه المرأة الا بعد كثير من الجهد . . . وهاله أن يرى الهدوء مرتسما عليه . . وحاول أن يري أثر الدموع فى العينين فلم ير فيهما الا الجفاف . . . أراد أن يستشف منهما الغضب أو الحزن أو أى دليل من دلائل الانفعال . . . ولكنهما كانتا هادئتين صامتتين لا تدلان على شىء ولا حراك بهما كالجسد المسجى على الفراش

وحاول أن يشق هذا الصمت بالحديث فقال « كيف حالك الآن ؟ »

ولكن الشفتين لم تنفرجا عن حرف والعينين لم تومئا باشارة . . . ولمس الاب جبينها بيده

جبينها الذى كان يتصبب بالعرق البارد . . . ولكن المرأة لم تبد ما يدل على انها شعرت به . . . فلما رفع يده عنها سرت فى جسده قشعريرة قوية اذ رأى عينيها الزرقاوين العميقتين تحدقان النظر اليه من خلال الظلام . . ولكنهما كانتا كما عهدها لاول وهلة خاليتين من الحزن والغضب

وأدرك الاب انه لايستطيع أن يحتمل هول الموقف فقال وهو يتجه نحو الباب « سأذهب الى غرفتى »

ومر فى طريقه بغرفة الاستقبال فرأى كل شىء فيها منتظما كما كان . . وخيل اليه ان المقاعد فى أغطيتها البيضاء ان هى الا جثث ملفوفة فى الاكفان . . . ولمح على احدى النوافذ قفصا صغيرا مفتوح الباب

وصاح الاب فى صوت أجش « ناتاسيا » . وكأنما شعر بالخجل من نفسه لصوته الداوى فى المنزل الساكت بعد ساعات من موت ابنته فأعاد النداء بصوت هادىء « ناتاسيا . . . أين الكنار ؟ »

« لقد ذهب »

« ولم تركتيه يذهب ؟ »

فبدأت العبرات تنهمر من عينى ناتاسيا ولكنها كبحت نفسها ومسحت دموعها بطرف منديلها وقالت « انه كان روح السيدة الصغيرة . . أفيكون من الحق أن نبقيه بعد ان ذهبت هي ؟ »

فى تلك اللحظة خيل الى الاب حقاً ان الكنار الاصفر الصغير فى مرحه الدائم وشدوه الجميل كان فى الواقع روح فيرا . . . ولو لم يذهب لما كان ممكنا ان يقال بأن فيرا قد ماتت . واحفظه هذا الخاطر الطارىء على الخادمة فصاح بها

« اغربي عنى . . . . يا حمقاء »

* * *

منذ ذلك اليوم الذى شيعت فيه الفتاة الى مقرها الاخير ساد المنزل صمت عجيب . لم يكن سكوتا لان السكوت هو انعدام الصوت ولكنه كان صمتا . . . يحمل الى الرائى الاحساس بأن هناك شيئاً ما يمكن ان يقال ولكنه لايقال . . . وكلما خطر للاب ايجناتيوس ان يزور مخدع زوجته كان يقابل بتلك النظرة العنيدة الثقيلة التى كانت تنفذ الى صدره وتكاد تزهق منه الانفاس . . . وكذلك كان يشعر كلما بدا له أن يراجع القطع الموسيقية التى كانت تعزفها ابنته

أو يجيل النظر فى كتبها أو فى صورتها . . . صورتها التى استحضرتها معها من بيتر سبرج . كان للاب طريقة واحدة لا تتغير فى الفحص عن الصورة ... كان يبدأ أولا بالنظر الى وجنتها التى زاد من بهائها ووضوحها ما أسبغه المصور عليها من الضوء . ولشد ما كان يعجب حين كان يرى فيها ذلك الجرح الصغير الذى يذكر انه رآه على وجهها حين ماتت ولكنه لم يستطع ان يهتدى الى مصدره يومئذ . . . فى كل مرة أمتحن الصورة كان يراجع نفسه فى السبب المحتمل لحدوثه . . . فلو انه نشأ عن القطار لسحق الرأس كله ولما بقيت سليمة بعد الحادث كما وجدت . . . ولكن لعله حدث مصادفة من قدم بعض الناس عند اكتشاف الجثة أو من أظافر بعضهم عند حملها

فاذا أنهكه طول التفكير فى التفاصيل الخاصة بموت ابنته انتقل الي النظر فى عينيها . . كانت لها عينان سوداوان ذات أهداب طويلة تسبغ ظلالا عميقة تحتهما . . . فكان يبدو للرائى ان العينين محوطتان باطار أسود جميل . وقد جعل المصور الفنان لهما طابعا خاصاً . . . فكان الناظر اليهما يخال ان هناك حجابا . . . ستارا شفافا يفصل بينهما وبين ما تحدقان اليه . . وليس يهم فى أى وضع كان الاب يضع الصورة . . فان العينين كانتا تتبعانه دائما . . فى ذلك الصمت العجيب الذى كان فى الدقة والوضوح بحيث خيل اليه انه يكاد يسمعه . . . وهكذا أخذ ذلك الخاطر — انه يسمع الصمت — يغزو خيال الاب

وفي كل صباح بعد الافطار كان الاب يتجه الى غرفة الاستقبال ويلقي نظرة سريعة عابرة على القفص الخالى والمقاعد المتناثرة . . . ثم يلقى بنفسه على أحدها ويغمض عينيه ويسبح فى خياله وهو مصغ الى ذلك الصمت العجيب الذى يسود المنزل . . كان كل شىء يبدو ساخرا . فالقفص كان صامتا وفى صمته كان يتجلى الاسى والدمع . . وكان يبين من خلالهما آثار مرح عدت عليه الايام فعفته . وزوجته كانت صامتة . . ذلك الصمت المتصل العنيد الثقيل علي النفس المروع الذى كان يهز جسد الاب بالقشعريرة حتى فى اشد الايام حرارة ودفئا . وابنته كانت صامتة . . صمتا يشبه القبر فى ابديته وبروده ويشبه الموت فى خفائه وغموضه بل لقد كان يخيل اليه احيانا ان الصمت ذاته يقاسى من هذه المحنة ويسعى الى الخلاص من نفسه ليكون حديثا . . فما يوفق لان شيئا قويا ثقيلا كان يجثم عليه ويبقيه كما هو . صمتاً . . . صمتاً ابديا

وذات يوم تمتم الاب نفسه قائلا « ما اشد حماقتى » ثم انتزع نفسه من مقعده وانتصب واقفاً واتجه نحو النافذة ثم اخذ يحدق النظر الى الطريق المرصوف ثم الى المخزن المكشوف . وشد

ما عجب حين رأي سائقا واقفا بالباب . . . كان الرجل يبدو كتمثال من الخزف . . . كان من العسير على الاب ان يدرك لم وقف الرجل هناك . . فى ذلك المكان الذى تمضى الساعات دون ان يطرقه طارق من الناس

« * »

وكان عمل الأب إيجناتيوس يقتضيه أن يتحدث كثيرا خارج منزله ... فقد كان عليه أن يتفاهم مع زملائه الكهنة ومع أفراد الشعب ، وكان عليه أن يلقى الصلاة فى الكنيسة والعظات فى حفلات المساء ... ولكنه برغم هذا كان يشعر حين يعود إلى منزله انه ظل طول اليوم فى صمت .. أجل انه كان يتحدث كثيرا . . . ولكنه لم يكن يستطيع أن يتناول فى أحاديثه الموضوع الوحيد الذى يقتحم اهتمامه فى شدة وعنف ويشغل باله على الدوام .. وهو : لم ماتت فيرا ؟

لم يستطع الاب إيجناتيوس ان يدرك أن الاجابة على هذا السؤال فى حكم المستحيل . بل ظل على اعتقاده وامله فى الوصول إلي جواب يرضيه ويقنعه .. ثم جفاه المنام . . . فكان اذا خلا الى نفسه كل مساء ذكر تلك اللحظة التى وقف فيها مع زوجته الى فراش فيرا وهو يسألها منتهراً « اخبرينا مابك » فيخال أن ماوقع بعد ذلك انما هو حلم من الاحلام . ثم كان يغمض عينيه ويحاول أن يستعيد الى خياله ذكرى تلك الليلة بدقائقها وتفاصيلها فكان يرى كيف اعتدلت فيرا فى فراشها وكيف ابتسمت وكيف حاولت أن تقول شيئا فانحسرت الالفاظ من لسانها .. ماذا عساها كانت تود أن تقول . .. هذه الكلمة التى لم يقدر لها أن تنطلق من شفتيها قط كان فيها الحل والشفاء . بل لقد خيل اليه أن هذه الكلمة قد انطلقت فى همس خافت ضعيف حتى لو أنه مال برأسه وأوقف دقات قلبه لسمعها .. ولكنها كانت فى الوقت ذاته بعيدة عنه . . . لا أمل فيها على الاطلاق .. وتمضى به الذكرى فينتفض فى فراشه ويعتدل فى جلسته ويمد يديه الى الفضاء ويهتف من أعماق قلبه « فيرا »

فلا يجيبه الا الصمت .. الصمت المطبق العميق

وذات مساء خطر له أن يدخل مخدع زوجته وكان قد مضى عليه اسبوع دون أن يراها فاتجه إلي رأس الفراش حتى لايقابل نظراتها الملحة الثقيلة .. وخاطبها قائلا « ياأمى .. أريد أن أتحدث اليك عن فيرا .. فهل تسمعين ؟ »

ولكن عينيها بقيتا فى صمت .. فرفع الاب صوته وتكلم فى قوة وحزم كما اعتاد أن يتكلم مع التائبين والمستغفرين

« انى أعلم انك تعدينني مسئولا عن موت فيرا .. ولكن سائلي نفسك : هل كان حبى لها أقل من حبك ؟ ان منطقك معوج سخيف . نعم كنت حازما معها .. ولكن هل منعها هذا الحزم من عمل ما كانت تريد ؟ لقد تنازلت عن كرامتى كأب وحنيت رأسى فى خضوع عندما تحدت لعنتى وسافرت . ومع ذلك أما ظللت تلحين عليها بالبقاء حتى أمرتك أنا بالسكوت ؟ هل كنت قاسيا عليها ؟ ألم اعظها دائما عن الله وعن التواضع والمحبة ؟

ثم أرسل الاب نظرة خاطفة سريعة الى عينى زوجته وتابع حديثه

« ماذا عساى كنت أفعل حين رفضت أن تكشف لنا عن حزنها ؟ . الم آمرها ؟ . . . الم أرجها ؟ .. لعلك كنت تتوقعين منى ان اجثو على ركبتى امامها وابذل دموعى فى رجائها واستعطافها ؟ ثم كيف كنت استطيع الحدس بما كان يدور فى خلدها ؟.. الفتاة القاسية المجردة عن الشفقة والحنان ! »

ثم ضرب الاب ركبته بيديه وصرخ قائلا

« لم تكن تشعر بالحب لنا ... او على الأقل لى انا ، الطاغية .. وربما كانت تحبك .. تحبك أنت .. لانك كنت تبذلين من دموعك أمامها وتهرقين من كرامة نفسك لها »

وانطلقت من الاب ضحكة عالية جوفاء ثم مضى يقول

« نعم .. لابد انها كانت تحبك .. وهاك الدليل على ذلك : تلك الميتة التى اختارتها لنفسها . انها عزاء جميل لك . ميتة قاسية فاضحة شائنة . ماتت فى التراب . فى الدنس . ككلب طريد رفسه صاحبه »

ثم استحال صوت الاب الى همس خافت اجش وهو يقول

« انى أشعر بالخجل : بالخجل عندما أسير فى الطريق . وعندما أقف على المذبح . وعندما أخلو بنفسى الى الله . الفتاة القاسية الجاحدة ملعونة هى فى قبرها الى يوم الدين »

ولما فرغ الاب من حديثه القى نظرته الخاطفة على زوجته ولكنها لم تكن فى وعيها .. وحين أفاقت كانت عيناها صامتتين وعبثا حاول الاب أن يستطلع منهما ما اذا كانت قد وعت ما قاله أم لم تعه

* * *

عند ما انتصف الليل — وكانت الليلة هادئة مقمرة والجو حاراً سا كنا — خرج الأب من غرفته وسار على أطراف أصابعه حتى لا تسمعه زوجته أو الممرضة وارتقى الدرج متجها الى غرفة فيرا . وكانت بالغرفة نافذة لم تفتح منذ موت الفتاة . . فكان جوها جافا ساخنا .. وكانت روحها تدل على الهجرة والاهمال . وكان الناظر اليها يدرك لأول وهلة انها ظلت غير مطروقة فترة ليست قصيرة من الزمن . ولما دخلها الاب أبصر شعاعا من ضوء القمر يسقط على النافذة وينفذ من خلالها فيضيىء أركانها بضوء خافت ضعيف يبدو منه الاثاث كالاشباح . وفى زاوية منها ظل الفراش الابيض الصغير كما كان منذ تركته صاحبته . . ولكنه بدا للاب فى تلك اللحظة كأنما هو شبح أو خيال . واتجه الرجل الى النافذة ففتحها . . واقتحم الغرفة تيار قوى من الهواء النقى المشبع برائحة النهر القريب وشذى الازهار المتفتحة وحمل معه أصوات خافتة لاناس يصخبون وينشدون من بعيد

وخلع الاب حذاءه ثم اتجه إلى الفراش الخالى وسقط على الوسادة يحتضنها . . فى تلك القطعة منها حيث كانت فيرا تسند رأسها . ولم يدر الرجل كم من الوقت مضى وهو على هذه الحال ولكن الاصوات الصاخبة التى كان الهواء يحملها الى أذنيه هدأت ثم سكنت وتلاشت . . وهو لا يزال را كعا كما كان وشعره الاسود الطويل متناثر فوق كتفيه وعلى الفراش

وتحرك القمر حتى اختفى وبدت الغرفة فى ظلام دامس فرفع الاب رأسه وتمتم بصوت تجلى فيه حبه المكبوت لابنته المتوفاة

« فيرا يابنيتي ! . . أتدركين مقامك عندى ومنزلتك لدي يا أبنتى ؟ . يا ابنتى الصغيرة . . . يا قلبى . . يا دمي . . ياحياتي ! . ان أباك . . أباك العجوز الضعيف الذى وهنت قواه . . »

وعرت جسد الرجل رعدة قوية وقد اقتحمته ثورة العاطفة ولكنه ملك زمام نفسه وعاد يتمتم فى رفق وحنان

« ان أباك العجوز يتوسل اليك . . انه يبكى بالدمع كما لم يفعل من قبل قط ! . . ان أحزانك يابنيتى الصغيرة وآلامك هي أيضا أحزاني وآلامي »

وهز الرجل رأسه ثم تابع حديثه

« نعم يافيرا . . . ما الموت لرجل عجوز مثلى ؟ ولكن أنت الفتاة الرقيقة الضعيفة الوجلة ؟ . أتذكرين يوم جرحت أصبعك وسالت منه الدماء . . لقد بكيت يومئذ يابنيتى . . انى أعلم أنك

تحيننى . . لا ريب فى هذا . وكنت تقبلين يدي كل صباح . فهلا صارحتنى . أى ألم يعذب رأسك الصغير . وأنا — بيدى هذه — أزيله وأمحوه . انها لا تزال قوية . هذه اليد يافيرا . لا تزال قوية»

واهتز شعر الاب ايجناتيوس وهو يقول « أخبريني »

ثم اتجه ببصره الى الجدران وهو لا يزال يتمتم « أخبريني »

وساد الغرفة صمت عميق لم يعكره الا صوت عربة تتحرك من بعيد

وبدت من الاب نظرة فزعة كأنما خيل اليه أنه يري الجثة الممزقة المشوهة . ثم رفع نفسه واستوى علي قدميه واتجه نحو الباب وهو يتمتم فى همس كسير « أخبريني »

ولكنه لم يلق جوابا على هذا الاستعطاف المتكرر غير الصمت

* * *

فى اليوم التالى بكر الاب ايجناتيوس فى تناول فطوره منفردا ثم ذهب الى المقبرة للمرة الاولى بعد وفاة ابنته . كان المكان حارا هادئا وقد خيل للاب انه يستطيع أن يلزم عادته القديمة فانتصب بقامته وعلت وجهه تلك الهيئة الجامدة التى كان الناس يعهدونها عليه من قبل . ولعله حاول أن يخدع نفسه عن ظاهرتين جديدتين لا سبيل الى الانخداع فيهما — ضعف ساقيه وشيب لحيته . وكانت المقبرة يؤدى اليها طريق طويل مستقيم ذو ميل قليل الى أعلى فى نهايته باب بدا كأنه فم مفتوح ومتأهب دائما للاطباق على كل ما يجيىء اليه

وكان قبر فيرا فى نهاية المقبرة . فكان على الاب ايجناتيوس أن يجتاز اليه طرقا ضيقة معوجة بدت عليها آثار النسيان والاهمال وتناثرت على جوانبها المقابر القديمة بأسوارها المتكسرة وأحجارها الضخمة التى ظهرت عليها علامات البلى والتآكل . كان القبر محاطا بأرض يغطيها العشب والكلأ . وكانت أشجار البندق وفروعها الممتدة على جوانبه تكاد تغطيه بأوراقها الغزيرة . وجلس الاب على حجر قريب وهو يكاد يمسك أنفاسه ثم أخذ يجول بنظراته خلال المكان ويلقى بين الحين والآخر نظرة عابرة على السماء الصافية الساكنة . فامتلأت نفسه بذلك السكون العميق الذى يسود المقابر حين يهدأ الجو ويسكن الهواء ولا يسمع فيها شيء حتي حفيف أوراق الاشجار . ثم بدا للاب ايجناتيوس ان هذا ليس سكونا ولكنه صمت . صمت عميق يستقر فى كل حجر من أحجار المقبرة وينتقل منها الي كل مكان فى المدينة وينتهى فى آخر الامر الي هاتين العينين الصامتتين فى ثبات وعناد

سرت فى جسد الاب قشعريرة باردة وهو يتجه بنظره الى قبر فيرا وأخذ يحملق فى الحشائش المتناثرة حوله وهو لا يكاد يصدق أن تحت هذه الحشائش - وعلى بعد أقدام قليلة منه - ترقد ابنته. وخيل اليه أن هذا القرب مستحيل ولكنه مع ذلك أثار فى نفسه الالم والارتباك. لقد اعتاد حين كان يفكر فى فيرا أن يراها شبحا اختفى الى الابد فى أعماق الابدية . . . ولكنها الآن - فى هذه اللحظة - كانت قريبة منه ... قريبة جدا . وان كانت قد ذهبت الى غير عودة . بل لقد طاف بخياله انه لو نطق بكلمة واحدة كانت تداعب شفتيه . . . أو لو قام بحركة صغيرة لخرجت فيرا من قبرها وبدت فى كامل فتنتها وسحرها ... ولخرج معها أيضا كل الموتى بعد طول الهجوع فى هذا الصمت الموحش الطويل

خلع الاب ايجناتيوس قبعته السوداء وداعب شعره باصابعه وهو يهمس قائلا « فيرا »

واهتز جسد الاب كأنما كان يخشى أن يسمعه عابر غريب وقام من مكانه وهو يحملق فى الفضاء حوله ... فلم ير أحداً هناك . وكأنما أمدته الوحدة بشجاعته الذاهبة فاعاد النداء بصوت عال هذه المرة قائلا « فيرا »

كان الصوت صوت رجل عجوز ... صوت حاد آمر ، وبدا من الغريب أن يظهر هذه الرغبة القوية ثم لا يجاب اليها

« فيرا »

وارتفع الصوت فى عناد ولما تلاشت آخر نغماته فى سكون الليل خيل اليه - للحظة خاطفة - انه سمع الجواب متقطعا يأتيه من تحت صخور المقبرة فاسرع بازاحة الشعر عن أذنه ومال بها على الصخرة الخشنة وهو يرهف السمع ويقول متوسلا « أخبريني يافيرا »

وسرت فى جسد الاب قشعريرة أخرى وهو يحس شيئا باردا يتسرب من القبر الى أذنه . وخيل اليه أنه يسمع فيرا تتكلم ... تتكلم لكن دون أن تعكر هذا الصمت المطبق المحيط به . واستبد به هذا الاحساس حتى انه حين استطاع فى آخر الامر أن يتحرك من مكانه كان شاحب الوجه كالموتي . وفى تلك اللحظة خيل اليه أن هذا الجو المحيط به يهتز كله من صمت مدو" وأن هذا الصمت يكاد يخنقه ويزهق أنفاسه . كان يشعر بشيء يسرى فى جسده ويطبق على صدره ويهزه من قمة الرأس الي اخمص القدم . ولم يعد فى استطاعته أن يحتمل هذا الرعب المفاجيء فاجال حوله نظرات حادة خاطفة وقام من مكانه متباطئا وهو يحاول بكل مايملك من جهد أن ينصب قامته وأن يسبغ على جسده المهتز شيئا من كبرياء الوقار . وقد أفلح فى هذا . ثم نفض عن ملابسه غبار المكان

ووضع قبعته على رأسه ورسم على القبر علامة الصليب ثلاث مرات وسار فى طريقه بخطوات متزنة ثابتة وهو لا يكاد يعرف الطريق الذى يسير فيه

ووقف الاب عند مفترق طريقين وركبت شفتيه ابتسامة خافتة وهو يحدث نفسه قائلا « أيجوز أن أكون قد ضللت الطريق »

ولكنه لم يتردد إلا برهة قصيرة ثم عرج بدون تفكير الى اليسار لانه شعر باستحالة الوقوف والانتظار . فقد لاحقه هذا الصمت القاتل الذى خيل اليه أنه يملأ المقبرة . . . ينبعث من القبور ويصدر من كل مسام الارض ممتلئا برائحة الموت ومشبعاً بجثث الموتى . أسرع فى خطواته وهو يكاد يترنح . ثم أخذ يعدو قافزاً من فوق القبور ومصطدما بالاحجار والصخور وكاد يتعثر اكثر من مرة لولا استعانته بفروع الاشجار واستناده بين الحين والحين الى الجدران . . . كان كل مايملأ ذهنه فى تلك اللحظة هو الهرب فاخذ يجري من مكان الى مكان ثم أطلق ساقيه للريح وقد تهرج رداؤه الطويل وتناثر شعره فى الهواء . ولو أن جثة من الجثث قامت من قبرها لما استطاعت أن تفزع رائيها بمثل ماكان يفزعه رؤية هذا الرجل وهو يعدو ويعرج ويشيح بذراعيه . وقد شوه الرعب وجهه وبدا عليه الجنون وترددت من فمه المفتوح لهثات خشنة جوفاء

وفى النهاية وصل الاب الي طريق ضيق بدت فى نهايته الكنيسة الصغيرة الملحقة بفناء المقبرة وعلى مقعد الى جوارها جلس رجل عجوز عابر سبيل فى أرجح الظن وبجانبه اشتبكت امرأتان من المتسولات فى عراك اختلط فيه السباب القذر بالاقسام المغلظة

ولما وصل الاب ايجناتيوس الى بيته كان الغسق . وكان مخدع زوجته اولجا ستيبانوفنا يبدو مضاء فلم ينتظر حتى يخلع ملابسه أو ينزع قبعته أو يمحو عنها آثار الغبار بل اتجه نحوها مباشرة وركع بجانبها وهو يقول من خلال عبراته

« يا أماه . يا ارلجا . ارحميني واشفقى على . سأصاب بالجنون لاريب »

ثم اعتمد برأسه بين يديه وأخذت العبرات تسيل من عينيه فى حرقة وحرارة كانما كان يبكى للمرة الاولى فى حياته . ومضت عليه فى ذلك فترة غير قصيرة ثم رفع رأسه وهو يشعر فى يقين واطمئنان أن المعجزة ستتم وأن زوجته ستتحدث عاطفة حانية عليه

بهذا الامل سحب جسده الضخم نحو زوجته وقابل نظرة عينيها الزرقاوين . ولكنهما كانتا كما عهدهما دائما خاليتين من الحنان أو الغضب . مليئتين بالسكون والصمت

ذلك الصمت الذى كان يخيم على الحياة فى هذا البيت الكبير المهجور

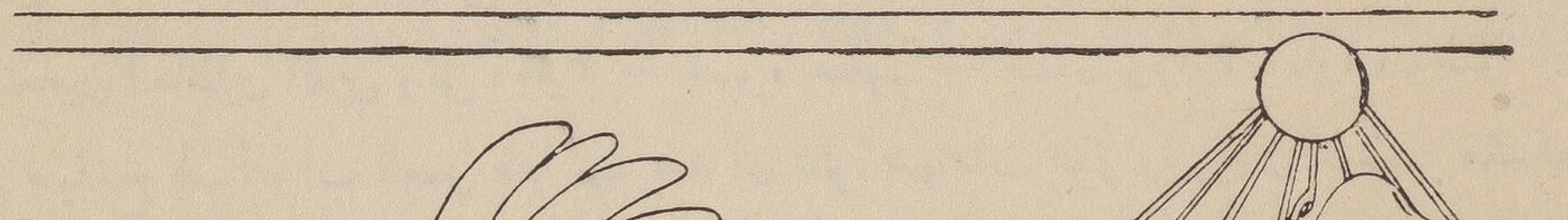
القبلة على العربة

لا جديد تحت الشمس

قل أن نصدق هذه الكلمة إلا فى حالات نادرة . ومن هذه الحالات هذه الصورة التى يراه القارىء هنا . فان اخناتون فرعون مصر المجدد الذى تولى العرش حوالي سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد قد وقف فى العربة الملوكية يقبل زوجته . أو هي التى التفتت اليه فى تكاف الحركة وتلهف الرغبة تطلب قبلته

وهذه القبلة العلنية الصريحة لايحسب فيها حساب للعرف أو الوقار أو الحياء . وفى مصر هذه الايام من ينادي بضيعة الاخلاق وميوعة الشباب والاستهتار العام لأن فتى يرافق فتاة فى الاتومبيل ولو أن أحد الشرطة فى زماننا رأى زوجا وهو يقبل زوجته والعربة سائرة بهما فى أحد شوارع القاهرة لما تركهما بغير تحقيق

ويقال لنا بعد ذلك ان الدنيا صائرة الى قلة الحياء . فأين كان الحياء قبل ٣٢٠٠ سنة ؟



اخناتون يقبل زوجته على العربة

في الحياة والعمل

مرآة شهرية لضروب النشاط الاجتماعى والاقتصادى والثقافى

وزارة المعارف

ذكرت الصحف أن وزارة المعارف تستعد للاحتفال بعيدها المئوى وهذا يدل على أنها قد مضى عليها نحو مائة سنة وهى تشرف على توجيه الثقافة العامة والتعليم الفنى فى مصر سواء أ كانت وزارة أم نظارة أم هيئة أخرى، أقل وجاهة وفخامة

وجدير بالوزارة بعد هذه المائة من السنين أن تحاسب نفسها على هذه الخدمة التى خدمتها للبلاد وهل هى ملائمة للتطور الاجتماعى أو التطور الاقتصادى . وحسبها أن تنظر إلى عشرات الألوف من المتعلمين العاطلين الذين وثق آباؤهم — لسوء حظهم — بتعليم وزارة المعارف وظنوا أن هذا التعليم سيفتح لهم أبواب العمل فاذا بهم بعد أن نالوا شهادات الوزارة يرون أنفسهم متسكعين فى الشوارع لا يطلبهم أحد للعمل ولا يعتقد أحد أن ثقافتهم لها قيمة عملية تكفى صاحبها لأن يكسب عيشه . بل عليها أن تذكر أيضا ٨٥ فى المائة لا يقرأون

والواقع أن وزارة المعارف هى أبعد الوزارات عن التطور ولسنا نقول ذلك فى نقد الوزير الحاضر أو كبار موظفيها القائمين بالعمل فيها الآن . فان هؤلاء قد ورثوا ميراثا سيئاً يحتاج إلى العلاج الطويل وإذا كانوا يلامون فانما ذلك لأنهم لم يشرعوا إلى الآن فى التغيير والتبديل

وماذا يمكن الوزارة أن تقوله فى عيدها المئوى إزاء هؤلاء الألوف من المتعلمين العاطلين ؟ وماذا تقول إزاء هذه البدعة المضحكة المبكية وهى المجمع اللغوى الذى يكلفنا مبلغاً يتراوح بين عشرة آلاف وخمسة عشر الف جنيه كل عام لكى يخرج لنا بكلمات ودعايات وآراء تؤخر التطور العام للأمة وتردها إلى الوراء وإلى الآراء الشرقية العتيقة التى لم يحقق أى ارتقاء إلا بمقدار التخلص منها؟ وماذا تقول إزاء التعليم الالزامى الذى لا يعلم أحداً ولا يعد شابا لأن يكسب عيشه ؟ وماذا تقول إزاء الصناعات والحرف العديدة التى يعرفها أبناء الأجانب النازلين بيننا ولا يعرفها أبناؤنا ؟

لقد قيل ان فى العالم أربعة آلاف حرفة وصناعة يعيش منها المتمدنون فكم عندنا منها ؟ وهل

لو كانت عندنا هذه الحرف والصناعات ولو كان آباؤنا قد تعلموها — هل كان عدد المتعلمين العاطلين يبلغ مبلغه الحاضر ؟

ها كم خبراً صغيراً يا رجال الوزارة

إن المجلس البلدى فى لندن يتولى التعليم فى هذه المدينة . وهو يعلم فى مدارسه ثلثمائة مادة يمكن التلاميذ أن يعيشوا ويكسبوا باحترافها . وهذه المواد تختلف من صناعات المنزل إلى العمل فى المصانع الكبرى . وكل هذا يجري بما يوافق البيئة الزمانية والمكانية . ويجرى فى تطور لا ينقطع إذ ليس هناك برنامج ثابت . ففى شارع فليت حيث الجرائد الكبرى أنشئت مدرسة لتعليم الشبان الحفر على الزنك والحجر أى الزنكوغراف والليثوغراف . وفى مصر يمارس هذه الصناعة أرمن . وهى صناعة سهلة ويمكن الشبان المصريين أن يتعلموها . فهل فكرت فيها الوزارة ؟

ان الدنيا الجديدة فى حاجة إلى ثقافة جديدة ووزارة المعارف تمارس ثقافة قديمة يتعلمها أبناؤنا ويخرجون بها آملين أن يعملوا بها ويكسبوا منها العيش الشريف ولكنهم يلاقون العطل والجوع والحرمان

ووزارة المعارف هى المسئولة عن كل ذلك . فماذا تقول فى عيدها المئوي عن هذا الموضوع

الفاشية والنازية

أعظم ما تشابه به النازية الألمانية الفاشية الايطالية هو الاشتراك فى الباعث أو الأصل وهو مكافحة الدعاية الشيوعية . فلو لم تكن هذه الدعاية فى ايطاليا وألمانيا لما كان النظام القائم فيهما الى الآن . وقد اعتبر كل من موسولينى وهتلر هذه الدعاية كالنتيجة المحتومة لآراء الحريين والديمقراطيين فحمل كلاهما على هذه الآراء . ولذلك يشتركان فى كراهة النظم البرلمانية التى جعلت الخطباء يجتذبون العامة ويستطيعون توجيهها نحو الثورة الشيوعية . وفى كلا النظامين نجد ان النقابة المؤلفة من العمال وأرباب العمل تأخذ المقام الأول فى تنظيم الصناعات

ويشترك الفاشيون والنازيون فى تقييد الحرية أى حرية السعى والكسب بل حرية الخطابة والكتابة بحيث لا تتجاوز هذه الحرية مصلحة الدولة أو ان مصلحة الدولة هى الاعتبار الاول فى هذه الحرية . وكلاهما يجيز امتلاك العقار ولكن فى حدود هذه المصلحة . فان مالك العقار فى ألمانيا أو ايطاليا يستطيع التصرف به ولكن مع قيود ثقيلة سواء فى هذا التصرف نفسه أم فى

الضرائب التى يجب أن يؤديها والانتاج الذي يجب أن يخضع فيه لمصلحة الدولة . ومن هنا ماقيل من وجه التشابه بين النظام القائم فى المانيا وايطاليا وبين النظام القائم فى روسيا فان مالك العقار فى النازية والفاشية ليس حرا كل الحرية كما هو فى انجلترا أو فرنسا اذ عليه قيود كثيرة ولكن الامتلاك الفردى لم يلغ

هذه هى وجوه الشبه بين ايطاليا وألمانيا . ولكن هناك وجوها أخري للاختلاف بينهما . ربما كان أبرزها ان مركز الفاشية الايطالية ومحورها ومفتاحها هو الدولة . ولكن محور النازية أى الوطنية الاشتراكية هو السلالة أو الدم الالمانى . ومن هنا هذا العداء لليهود فى ألمانيا فى حين تخلو الفاشية الايطالية منه

ثم ان النازية الالمانية لاعتمادها على هذا الاساس السلالى لا تؤمن بالتوسع الامبراطوري لأن هذا التوسع سيعنى فى النهاية اختلاط السلالة الالمانية بالدم الأجنبي فى حين تعتمد الفاشية الايطالية على التوسع الامبراطورى لخلوها من هذا الغرض . واذا كانت ألمانيا تطلب المستعمرات فليس ذلك إلا لأنها تطلب المواد الخامة لا أكثر

ولهذا السبب نفسه نجد فى ألمانيا معنى صوفيا للأرض الالمانية . فان النازيين لحدة وطنيتهم يطابقون بين الارض الالمانية وبين السلالة الالمانية ومن هنا تجديدهم للزراعة والعناية الكبرى بتأسيس العزب وحمايتها من البيع الجبرى بل حمايتها من التجزؤ بقصر الميراث على الابن الاكبر للاسرة

والمستوي الثقافى العام فى ألمانيا أرقى بكثير منه فى ايطاليا . ولذلك كان الرقى فى النازية أسرع منه فى الفاشية بل هو سيكون أيضا أسرع فى المستقبل حين يخطو هتلر خطوات واسعة نحو تحقيق الاشتراكية

المستر نورمن توماس

نورمن توماس زعيم الحزب الاشتراكى فى الولايات المتحدة ومرشحه لرياسة الجمهورية فى الانتخاب المقبل وهو من أصحاب الادمغة الكبيرة ومن المعتدلين فى زعامة حزب اشتهر بالتطرف ولا بدع فى اعتداله لانه كان قسيسا بروتستانتيا قبل أن القيت اليه مقاليد الزعامة

وسئل المستر توماس عما يفعله لو قدر له وانتخب رئيسا فقال:

« ان الخطوة الاولى التى أقدم عليها هى تجنيد البلاد بجملتها — كما فى وقت الحرب — لمكافحة البطالة على خطط اشتراكية لاتكون مباينة للقبول من دستور البلاد ، فاذا خالفته من بعض الوجوه وجب تنقيحه على ما يلائم مصلحة الشعب . وهذا يعنى انهاء سيطرة محكمة الولايات المتحدة العليا

لأنها فى كثير من أحكامها جائرة مضادة لروح العصر ويعنى أيضا منح الحكومة حق الاستيلاء على مرافق الاعمال العظيمة كلها واستخدامها

« ثم استولى على المناجم والمعادن والسكك الحديدية وعلى مولدات القوة وغيرها من المشاريع الاساسية الضرورية لمجموع الشعب والتى يجب أن تنتفع الأمة كلها بنتاجها لا افراد قلائل هم الذين استأثروا بخيراتها كل هذا الزمان فكانوا السادة و بقية الشعب فى جملة العبيد . واثابر على اعانة العاطلين والفقراء وعلى متابعة الاعمال النافعة التى بدأتها الحكومة الحالية وهى آخذة بها فاوجدت بذلك اعمالا لمئات الالوف على حسابها . وتكون أهم وزارات الحكومة نظارة تدبير أعمال لمن لا عمل لهم وضمان لحاجات المعمرين منهم . وتكون الاموال التى تنفق فى هذا السبيل مجموعة من ضرائب يفرض اثقلها على الدخل الكبير

« و نقضى بجعل الكثير من تطبيب مرض الناس خاصا بالحكومة والتهذيب فى المدارس العالية مجانيا لغير القادرين على اداء بدله . ونجعل ساعات العمل فى الاسبوع ثلاثين ساعة . وفى الزراعة ننظم طريقة اشتراكية فى الزرع والجمع والتصريف على صورة تعاونية تشرف الحكومة عليها بتدقيق فتعدل الاسعار بحسب الظروف وتمد الفلاحين المحتاجين بالمال وتنشىء وكالة تعوض على الفلاح مايخسره من عطل المواسم أو النكبات الطبيعية

« ومما لاحاجة الى ايضاحه هو الغاء كل القوانين التى تحول فى بعض الأحيان دون حرية الكتابة والخطابة . حرية الجرائد وعقد الاجتماعات السياسية . والقوانين التى تقاوم مساعى العمال للحصول على حقوقهم وما يرتأونه من التنظيم والاشتراع الضروري لكيانهم والضامن لهنائهم . وبما أننا نؤمن بالسلم ونناهض الحروب فاننا نخفض التسليح الى ادنى معدل ممكن الى أن يجىء الوقت المساعد على اطراح السلاح بالكلية ونمهد لذلك بالغاء المدارس العسكرية »

وقال فى عرض حديثه ان الاشتراكية تختلف عن الشيوعية فى أهم الوسائل والنظم التى يعتمد عليها فى تحسين حالة المجتمع . فالشيوعية تبغى تقييد الحرية الشخصية وحرية الكتابة والخطابة والدين أما الاشتراكية فتؤيدها جميعا . والشيوعية والاشتراكية على اتفاق فى مقاومة الرأسمالية وتسعيان لابتداع طريقة أخرى يكون بها الانتاج للاستعمال العام وليس للربح الشخصى

فالاشتراكية تحاول أحداث هذا التغيير بوسائل سلمية قانونية . أما الشيوعية فتقول ان التغيير لايمكن ولا يتم بدون سيطرة مطلقة آمرة ناهية . وأن هذه السيطرة لاتتأتى الا عن طريق الثورة . ونحن فى هذه البلاد نكره السيطرة ولا نرغب فى ثورة لان هنالك وسائل شتى نتمكن بها من استئصال المساوىء الحكومية والاجتماعية بالاقتراع العام وذلك عندما ندرك أكثرية الشعب

ان فئة قليلة منها قد اغتصبته حقوقه واستأثرت بخيرات البلاد ومقدرتها الى حد أصبحت عنده الآمرة الناهية حتى على الحكومة

المسلمون فى بلغاريا

كنا نعلم أن فى الأزهر طالبا بلغاريا يتلقى علومه فى كلية الشريعة هو الاستاذ اسماعيل حقى وقد أوشك أن يتمم دراسته ويعود الى بلاده فلما تلقى المسئولون فى الأزهر خبر وصول بعثه بلغارية رأينا أن نتصل بها ونتعرف منها شيئا جديدا عن اخواننا المسلمين فى البلغار

وقد ذهب مندوبنا بعد ظهر أمس الى شارع الأزهر حيث تكية محمد بك أبو الذهب وكتب يقول : ذهبت الى عمارة ضخمة تضم عددا كبيرا من الأتراك والاكراد والالبانيين والبلغاريين والتتار وهذه العمارة تابعة لرواق الأتراك بالأزهر وفيها الكثير من الغرف يقيم كل اثنين أو ثلاثة من الطلبة فى إحداها ، وفى إحدي هذه الغرف تقدم بى أحد العلماء من الأتراك الذين أقاموا فى مصر مدة فاذا بثلاثة من الشبان تلمح فى وجوههم النجابة ويدل مظهرهم على الصحة والنشاط وهم محرم عبدالله افندى نجل المفتى الأكبر للمسلمين فى بلغاريا وعثمان سيف الله افندى واحمد حسن افندي وقد علمت من محدثى التركى أنهم من العائلات العريقة من المسلمين

سلمت عليهم وهنأتهم بسلامة الوصول الى مصر فتقبلوا هذه التهنئة بسرور ولما علموا أننى أريد أن أتحدث معهم عن شئون المسلمين فى بلغاريا أظهروا ارتياحا وان كنت قد شعرت منهم بشيء من الخجل وذلك بسبب عدم تمكنهم من التعبير عن آرائهم باللغة العربية كما يجب ولذا كانت أسئلتى مختصرة وكانت أجوبتهم على قدر هذه الأسئلة وكان يجيب على اسئلتى عثمان سيف الله افندى

سألت حضرته كيف رأيتم مصر قال : بلدة جميلة ونحن مسرورون منها كثيرا قلت وأى المعاهد تود أن تتلقى فيها دروسك قال : اننا جميعا نحب أن نلتحق بكلية الشريعة ولكننا لا ندري ماذا يكون وهل سنتمكن من دخولها ثلاثتنا أم لا فتمنيت له تحقيق هذه الامنية ثم وجهت اليه هذه الاسئله ·

س — كم عدد المسلمين الموجودين الآن فى بلغاريا ؟

ج — يبلغ عدد المسلمين الموجودين فى بلغاريا حوالى ٧٥٠٠٠٠ نسمة من مجموع السكان البالغ خمسة ملايين منهم ٨٦٠٠٠ من الاتراك والباقون من البلغاريين ويسمون البدماك

س — ماهو نصيب المذاهب الاربعة بين مسلمى بلغاريا

ج — كل المسلمين هناك أحناف

س — ماهى نسبة المتعلمين عندكم

ج — نسبة المتعلمين حوالى ٧٥ فى الماية ولـكن الجيل الحديث من الشبان يبلغ حوالى ٩٥ فى المائة

س — هل حضوركم لمصر لحساب أنفسكم أم لحساب الحكومة البلغارية

ج — نحن حضرنا هنا من قبل جمعية الدفاع عن الاسلام وهى جمعية خيرية كبرى للتعليم ومن قبل مفتى الاسلام مع رعاية الحكومة ومساعدتها

س — من هو الرئيس الاعلى للمسلمين فى بلغاريا وما هو نظامهم

ج يعتبر المفتى هو الرئيس ومعه أشخاص يستعين بهم ومقره « صوفيا » العاصمة ويوجد فى كل بلدة محكمة شرعية تنظر فى شئون المسلمين من نكاح وطلاق وميراث وغير ذلك أما ما عدا هذا فالمسلمون كغيرهم يقضون مشاكلهم أمام المحاكم الاهلية

س — هل يوجد هناك مجلس نيابى وما عدد المسلمين الموجودين

ج — يوجد مجلس « المبعوثان » ولـكنه منذ عامين معطل وكان النواب المسلمون فيه حوالى عشرة أشخاص

ولما أردت أن أعرف منه سبب التعطيل ابتسم وقال معطل أو لم يعطل عندكم أربع سنوات وقد دهشت لهذا الجواب الذى يدل على معرفة واطلاع

س — هل يوجد موظفون كبار من المسلمين عندكم

ج — لا . والسبب فى ذلك أن التعليم بين المسلمين لم ينتشر الا حديثا

س — بماذا يعنى المسلمون هناك من الاعمال

ج — يعنون كثيرا بالزراعة والتجارة وهم يعتمدون على أنفسهم وحالتهم تكاد تكون حسنة من الوجهة المادية

س — هل توجد طوائف دينية كثيرة

ج — يوجد من اليهود حوالى أربعين ألفا ومثلهم من بقية الطوائف الأخرى والباقى من المسلمين

س — وما هو موقف الحكومة منكم ومن هذه الطوائف

ج — الحكومة عندنا تعدل بين الطوائف ولـكل طائفة تمام الحرية فى شعائرها وعبادتها وكلنا راضون عنها مطمئنون اليها

س — هل توجد بعثات اسلامية من بلغاريا فى غير مصر ولماذا فضلتم مصر فى بعثتكم

ج — كنا من قبل نذهب للاستانة ولـكننا الآن جئنا لمصر لأننا نعتبر الأزهر هو أكبر جامعة دينية فى الشرق

وهنا رأيت أننى قد أخذت زمنا كبيرا من وقتهم فشكرتهم على هذه المعلومات واستأذنت منهم بعد أن وعدت ببحث واف فى فرصة أخرى

التعليم فى الهواء الطلق

إن النشاط العقلى والجسمى للانسان فى الحياة الخارجية فى الهواء الطلق أكثر منه داخل الفصول بين جدران أربعة ، فقد ألف الانسان جو الطبيعة منذ ظهوره فى هذا العالم ، وجسمه لايتحمل البقاء محبوسا فى الداخل ، وهذا حق ، وبخاصة فى الطفولة فى الأدوار الأولى للتكوين والنمو ، فالطفل الصغير يجب أن يقضى كل دقيقة ممكنة فى الهواء ، فى الحدائق وغيرها . وليس معنى ذلك أن نحرمه التعلم ، بل نعلمه فى بيئة صحية ، فتفيده صحة وقوة وملاحظة وعقلا ، والاطفال جبلوا بطبيعتهم على حب الطبيعة والمعيشة فى الهواء والخلاء . وإن حبهم للمكث فى الخارج حب غريزي الغرض منه المحافظة على النفس والنوع

هـذا وإن النشاط الكبير الذى يظهره الاطفال وهم فى عالم الطبيعة - كالحدائق مثلا - سبب واضح يدعو إلى القيام بالدراسة فى خارج الفصول بقدر الاستطاعة . ويستفيد التلاميذ من التعلم فى الهواء أكثر من استفادتهم فى الفصول المدرسية . وبخاصة حينما يألفون هذا النوع من الدراسة . ولقد برهنت القواعد الصحية الحديثة على أن المكث طويلا بين أربعه جدران غير صحى فالأوبئة والأمراض المنتشرة نتيجة طول المكث فى داخل المنازل أو الحجرات . وعلى المدرس أن يذكر أن أكثر الامراض انتشارا فى المدارس الانجليزية والامريكية مرض التدرن الناشىء عن كثرة المكث فى الداخل فى حجر فاسدة الهواء

فاذا كان للتربيـة فى دور الطفولة تأثير قوى فى الاطفال طول حياتهم فمن الواجب أن نشجع فيهم ذلك الحب الطبيعى للمكث فى الهواء ، ونجتهد فى تجديد ذلك الشغف بالمكث فى الخـلاء ، ونفعل كل مافى استطاعتنا من قوة لترغيبهم فى المعيشة الصحية ، والعمل على أن يجـدوا مسراتهم فى الطبيعة ، وأن يكسبوا العلم والصحة فى وقت واحد

ولقد برهنت مئات من التجاريب فى مدارس الهواء الطلق على أن ضعفاء الأجسام من الأطفال يتعلمون بسرعة عظيمة ، وتزيد قوتهم حينما يسمح لهم بالتعلم فى الهواء الطلق

يقول أحد الأساتذة فى إحدى الجامعات الاوربية إنه لم يستطع المحافظة على صحة ابنه إلا بوسيلة

واحدة هى الامبراطورية دائما على أن يلعب فى الخارج طول النهار فى يومى السبت والاحد من كل أسبوع فان هـذا الطفل كان يأتى إلى المنزل يوم الجمعة بعد انقضاء الاسبوع الدراسى وهو متعب منهوك القوى . وباللعب والراحة يومى السبت والاحد فى الهواء كانت قواه تتجدد فى أيام الاثنين ويكثر نشاطه وتزيد حيويته . وفى أيام العطلة والاجازة كانت صحته تتحسن كثيراً من الرياضة فى الحدائق وتغيير الهواء فى المصايف . فمثل هذا الطفل سعيد الحظ بأبيه . أما غيره من الاطفال فقد لايجدون هذه العناية والملاحظة والعمل على تحسين صحتهم وتجديد قواهم . فالطفل العادى قد يكون تأخره فى الاعمال المدرسية ناشئا عن الاجهاد المستمر مع إهمال الرياضة واللعب وتقوية الصحة والاستفادة من الهواء والشمس . وبالاختبار قد شوهد أنه يمكن تحسين كثيرين من الاطفال صحياً إن لعبوا ومكثوا وقتاً طويلا كافياً فى الهواء الطلق

والتعليم فى الهواء الطلق خطوة كبيرة نحو الطريق المؤدي إلى تقوية أجسام الاطفال عموما والضعفاء منهم خصوصاً . وإذا كان الهواء خير علاج لكثير من امراض الاطفال وغيرهم فلماذا لايكون خير واق منها ؟ ولماذا لايكون الهواء أحسن مقوّ لمن يحتاج إلى القوة والنمو ؟

روسيا والشيوعية ومصر

فى البحر الابيض المتوسط على إحدى البواخر اليونانية شاب مصرى يدعى عبد الرحمن فضل حرم من الرعوية المصرية بتهمة الشيوعية . فرفضت السلطات المصرية أن تقبله فى الاسكندرية ورفضت كذلك السلطات اليونانية — وهى الآن ديكتاتورية — أن تقبله فى بيرية . فالرجل يروح ويجىء كل أسبوع بين مصر واليونان ويأكل ويشرب بما يتصدق عليه به ربان الباخرة اليونانى

ولو أن أحد القصصيين الخياليين ألف قصة خيالية وجعل بطلها مثل عبد الرحمن فضل يروح ويجىء بين ميناءين ووطنه يرفض نزوله فيه لما صدق القراء مثل هذه القصة لأنها تتجاوز حدود الخيال المعقول

ولكن هـذا هو الواقع الآن . وهو واقع يخجلنا جميعا .. فان الشيوعية تعد من الجنايات التى يعاقب عليها فى بعض الأقطار — مثل هنغاريا — بالاعدام . ومع أن هذه العقوبة قاسية جدا ولكنها معقولة بل هى أيضا مع قسوتها عادلة . وذلك لأن أبناء الامة يستوون فيها ولايحكم على واحد منهم بها إلا بعد محاكمة ينظرها قضاة تمرنوا على التحقيق وسمعوا أقوال المحامين عن المتهم ولهذا المتهم الحق فى تقديم البينات والشهود . ثم له الحق فى كسر الحكم الابتدائى واستئنافه والشروع من جديد فى التحقيق

وهذه كلها ضمانات تـكفل العدل مع أن العقوبة قاسية . ولـكن عبد الرحمن فضل لم يحاكم ولم يدافع عنه محام ولم تطلب منه بينة أو شهود . وإنما كل ماحدث أنه كتب عنه تقرير سرى عملت به الحـكومة فحرمته من الرعوية المصرية بناء عليه . وهل يمـكن إنسانا أن يحرم من رعويته وأين يـكون وأين يذهب ؟

يكون فى الحال التى فيها عبد الرحمن فضل « المصري » الذي يتصدق عليه ربان البـاخرة اليونانى . وهذا المصرى يراه المسافرون كل يوم ويسألونه عن الحال الذى هو فيهـا ويعجبون من مصر !

ان كنا نخاف الشيوعية — ويجب أن نخافها — فلماذا لا نحكم على الشيوعيين بالاعدام وننتهى من هذه الفضيحة التى تخجلنا جميعا ؟

لقد جرت علينا الشيوعية ضروبا من الخبل فى التفـكير . فاننا قاطعنا روسيا مقاطعة تجارية لا نظن ان خسارتنا منها تقل عن عشرين أو ثلاثين مليون جنيه . اذ فى الوقت الذى كنا نبحث فيه عن أسواق للقطن ونرجو زيادة بضعة قروش فى ثمن القنطار لـكى نخفف عن المزارعين عبء الديون العقارية كنا نقفل مختارين هذه السوق الروسية . مع أن روسيا كانت تستطيع أن تشترى منا كل عام بما يبلغ ثمنه ثلاثة ملايين جنيه من القطن فاذا حسبت هذا فى مدة ١٥ سنة من هذه المقاطعة عرفت مقدار الخسارة التى عادت علينا من القطن فقط

وماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة أن روسيا استقدمت من مصر - أجل من مصر - المستر براون الخبير الزراعى فى وزارة الزراعة المصرية فسافر اليها وعلم أبناءها : راعة القطن . وهم يزرعونه الآن وقد استغنوا عن قطننا

فانظر إلى مقدار الخبل الذى وقعنا فيه سواء فى مأساة عبد الرحمن فضل أم فى مأساة زراعة القطن . والمسئول عن هاتين المأساتين هو الوزارات الاستبدادية الماضية وذلك لأنها كانت تجعل من الشيوعية تـكأة تتـكىء عليها لايقاع الرعب فى بعض الجهـات العليا حتى تبقيها على الدوام فى كراسى الحـكم خشية أن تفور البلاد فورة شيوعية دامية

ولنا الآن وزارة أمينة شريفة تعرف الحقائق . فعليها واجب محتوم هو إزالة الخبل الذى ركب عقولنا طول هذه السنين الماضية وذلك بالغاء المقاطعة للتجارة الروسية والغاء القانون الذى يحرم أبناء البلاد من رعويتهم المصرية . ولا بأس من أن نجعل العقوبة لجريمة الشيوعية قاسية ولو الى حد الاعدام

كنيسة وقسيسها

في رشيد كنيسة أثرية . وكل ما في تلك المدينة أثري جوامعها ومنازلها ونيلها وأهلها أيضا

كنيسة أشبه بكهف تائهة بين المنازل البالية المحيطة بها لا يكاد يعلن عن وجودها شيء في ذلك الزقاق الضيق الذي يصب في سوق الخضر برشيد ، فمدخلها الخارجي مشابه لمداخل سائر المنازل المجاورة لها

قادنا اليها ، وكنا جمعاً من الأصدقاء في زيارة المدينة ذات التاريخ القديم ، ساكنها شيخ أسمر الوجه أشيب اللحية تدل تجاعيده على قلب طيب ونفس سمحة ، مرتد رداء أسود نافضا كثرت فيه البقع ، ووضع على رأسه قبعة عالية تعلق بها زغب الحمام الرفيع وكساها الغبار بطبقة تكاد تغطي سوادها فبدت كأن العنكبوت قد نسج عليها خيوطه وبدا الرجل في مجموعه أثرا من الآثار

هذا هو قسيس الكنيسة وساكنها الوحيد ولو بعث اسكندر دوماس وشاهده لكان يدهش إذ يرى « أبي فاريا سجين جزيرة ايف » قد خرج من كتابه « كونت دي مونت كريستو » مفضلا عالم الحقيقة على عالم الخيال

سرنا وراء القسيس الشيخ ومن حولنا صبية الحي ينادونه « يابونا » عارضين خدمهم فيبتسم هو شاكرا راضياً مغتبطاً بالمحبة التي يحوطه بها أهل الحي ، ووصلنا إلى باب في زقاق يبدو كأنه مخلوع ولكن لم يمكنا الدخول منه إلا بعد أن فتحه القسيس بمفتاح ضخم بيد مرتعشة فما ولجناه حتى صفق سرب من الحمام بجناحيه طائرا وجرت الدجاجات في الساحة الصغيرة هنا وهناك وهربت القطط إلى مخابئها وبقي كلبان أو ثلاثة كلاب شرسة واقفة تنظر الينا شزرا ولم تهدأ إلا بعد أن طمأنها سيدها

دخلنا الكنيسة من باب ضيق منحني الرءوس قسرا ، فاذا بها أشبه بمغارة لا تتسع لأكثر من عشر أنفس وتناثرت هنا وهناك صور القديسين وشمعدانات محطمة ولوحات رخامية منقوشة باليونانية وفي الداخل مذبح جميل بالرغم من قدمه

أما أرض الكنيسة فعلى طبيعتها . ومشهدها بالاجمال يثير الرهبة والخشوع ويزيد ذلك الشعور رائحة البخور الذكية التي عبق بها جو الكنيسة الصغيرة

وخرج القسيس ومد يده الى جيبه فاخرج حباً من الفول وفرقه على الاخوان فبسطوا به أيديهم فتساقط مئات الحمام الأليف لالتقاط الحب

فكان منظرا ذكر البعض بميدان سان مارك في البندقية وحمامه المشهور . وكانت مقارنة ذات وقع بين هذه الساحة الحقيرة وكنيستها الصغيرة وبين ميدان سان مارك الفسيح وكاندرائيته العظيمة

تنظر فى وجه الشيخ فتأخذك دلائل الرضى والغبطة المرتسمة عليه وتشعر بان هـذا الشخص الفانى سعيد فى حياته . انه سعيد حقاً فى صداقة حمامه ودجاجه وكلابه وقططه ، سعيد بتقواه ومحبة جيرته . انه يكاد يمثل فى حياته فلسفة الحياة

تجرى يدى بكتابة هذه الكلمة ، ولا أعرف الى أية غاية أوجهها . غير أنه اذا لم يجد القارىء لها هدفا فليحسبها خبرا مثل سائر الاخبار كعودة كبير أو تكريم موظف . أو . . .

على أنى واثق من أن ذاك القسيس الشيخ لن يسره كثيرا ترديد ذكره فى العالم الصاخب واقلاق معيشته الرياضية الهنيئة فى كنيسته الصغيرة ووسط أصدقائه الوفيين دائما . . .

صداقة الوالدين للابناء

لكل فرد منا - رجلا كان أم امرأة - معارف وأصدقاء . تجمعنا بهم ظروف الحياة فنعرفهم ثم نألفهم ونجد فى طباعهم ومشاربهم مايلائم طباعنا ومشاربنا ، وفى ميولهم وعقلياتهم مايوافق ميولنا وعقلياتنا ، فنصادقهم ونطمئن اليهم . وتتوثق بيننا وبينهم عرى الألفة والود ، فنعاملهم معاملة الند للند ونصطفيهم من دون الناس ، ونستشيرهم فى أمورنا ونطلعهم على دخائلنا ، ونواسيهم وقت شدتهم ، وننتظر منهم المثل وقت شدتنا . وقد تندمج شخصياتهم بشخصياتنا ، فنعمل بيد واحدة ، ونفكر بعقل واحد . ولا نستطيب مجلساً غير مجلسهم ، ولا نستعذب حديثاً غير حديثهم ثم نحن نراهم كل يوم فلا نمل ولا نسأم ، واذا غابوا افتقدناهم ، وشعرنا بما يتركون فى نفوسنا وحياتنا من فراغ . وكذلك نحن نحاول جهدنا أن نقرب بين أصدقائنا المتباعدين ، ونجمع بين أصحابنا المتفرقين ، حتى تنتظم منهم حلقة متآلفة متوافقة ، وتتكون منهم عائلة متحابة متضامنة نرى أنفسنا ننسلخ بالتدريج — من غير قصد — عن أهلنا وأقربائنا لنندمج فيها ، ولو حسبت مقدار مايقضيه الرجل من وقت فى مقهاه وناديه بين اخوانه وأصدقائه وما تصرفه المرأة فى زيارات لأحبائها وصديقاتها لوحدت نصيب البيوت والحياة العائلية — منا ومنها — لا يكاد يذكر — وقد يطول مدى الصداقة عشرات السنين حتى ليصبح الصديق يعرف عن صديقه أكثر مما يعرف عنه أهله وأولاده وأقرباؤه الأقربون . ونحن معشر المصريين لانفترق فى هذا عن الغربيين . بل لعلنا أسرع منهم تعارفا وتفاهماً ، وأطول عشرة وأكثر اخلاصاً لأصدقائنا . ولكننا ننقص عنهم فى شىء واحد أراه من أكبر أسباب التربية الحقة وأقوى دعائم الجماعة عندهم ، ومن أكبر معاول الهدم للبيوت وتفكيك روابط الاسرة عندنا وهو صداقة الأبوين لأولادهما والأخوة والأقارب بعضهم للبعض الآخر

فالأب هناك يتخذ من ابنه صديقا — بكل مافى هذه الكلمة من معنى — فيصاحبه ويجالسه ويثق به ويطمئن اليه ويستشيره فى أموره ، ويقف منه على قدم المساواة اذا مابلغ الحلم . وكذلك تتخذ الام من ابنتها صفية مخلصة ، تبادلها الرأي والنصيحة من غير تعنت أو املاء . ولذلك تراهم يقضون جل أوقاتهم فى بيوتهم ، ينعمون بالحياة العائلية الهادئة أكثر من نعيمهم بحياة المجتمع الصاخبة . وهل يجد الانسان صديقاً يخلص له ويطمئن اليه أكثر من أبيه واخوته ؟ وهل تجد البنت صديقة وفية تحرص على كرامتها وتعمل على رفع شأنها فى غير حسد أو ضغينة أكثر من أمها وأخواتها . أما نحن فى مصر فنخص غير أهلنا بعطفنا ، ونضع ثقتنا فيمن تقذف بهم الاقدار فى طريقنا وتربطهم أعمالهم بنا . أما أقاربنا وأخواتنا فليس لهم علينا غير مجرد أداء الواجب والزيارات الرسمية عند المناسبات

ولذلك ينشأ الولد بعيداً عن حجر والديه ، غائبا عن مجتمعهم . حتى اذا بلغ أشده جرفه تيار المجتمع . فانصرف عن البيت ودائرة العائلة ليكوّن له مجتمعاً آخر وعائلة ثانية . وهكذا ينقسم البيت الواحد دوائر ومجتمعات قد لا تجتمع فى مرة من المرات ، الوالدان فى واد ، والابناء فى واد ، فلا يعرف الواحد شيئا عن الاصدقاء الآخرين ومعارفهم ، إلا كما يعرف الكمساري راكب الترام . ويصبح الاهل كسكان البنسيون يحيى بعضهم البعض فى الصباح . ولايلتقون إلا على موائد الطعام . وهذا هو سر انحلال الأسرة وفساد الاخلاق وعلة خمود أقوى الغرائز الانسانية وأسمى العواطف والنزعات

ولعل الذى يدفع بالشرقيين الى هذا المسلك الشاذ - الذى ينافى الطبيعة ويخالف أبسط قواعد العمران - هو مادرجوا عليه وألفوه طوال السنين من تربية وطنية منزلية محاطة بسياج التقاليد ، وقيود النظم الجامدة التى تجعل من الاب السلطان المطلق والدكتاتور المستبد الذي يقبض على دفة البيت بيد من حديد . فاذا يده كالسوط وصوته كالرعد . اذا مشى قاموا وقوفا خاشعين واذا تكلم ظلوا صامتين . واذا ما أكل قاموا بين يديه . هذه تحمل القلة وهذه تقدم الصحون ، وهذا يصب الماء على يديه ، وذاك يبادر بالمنشفة . فاذا ما انتهى تجشأ وتمطى وقام الى فراشه ليستريح أو الى السلاملك أو المنظرة ليستقبل الضيوف والزوار من المعارف والاصدقاء . كأنه فى البيت غريب عن أهله وساكنيه . لايؤاكلهم فى مائدة ولايخالطهم فى مجلس . فاذا أدب أولاده أخذهم بالعنف والشدة تحت ستار الادب والنظام ، واذا أحسن كان احسانه مشوباً بالفتور وعطفه ضرباً من المجاملة وقد يكون فى مجلسه الخاص عالماً أديباً ومجرباً حكيما ، ثم لايستفيد أولاده من أدبه وعلمه ولاينتفعون من حكمه وتجاربه . هذه هى السنة التى درج عليها معظم البيوت فيما مضى .

ولا أحسبنى مبالغاً فى تقديرها ولا مهولا فى تصويرها . فما زلنا إلى الآن نرى أبناء البيوت القديمة المحافظة على تقاليدها المتمسكة بهـا — ولو كانوا كبارا فى السن والمقام ، وأرباب أسر وعائلات ، يقفون أمام آبائهم موقف الخشوع الذي لامعنى له لايبـدون رأيا فى شىء ولايظهرون استحسانا لشىء . ولايشربون القهوة ولا الماء ، بل هم لايجلسون فى حضرتهم ولو كانوا أكبر منهم مقاما وأغزر علماً وأعلى مرتبة من أصدقاء والديهم ، وقد يستفتى الأب الأمى الفـلاح صديقا له اميا مثلا فى أمور قضائية أو وصفة طبية ، ولايسأل ابنه المحامى أو الطبيب كأنه لايزال صغيرا قاصرا — أو « ابن امبارح » كما يقولون — ولا أبالغ ان قلت أن الكثيرين من آباء الريف لايثقون فيما تلقاه أولادهم من علم ولايعترفون لهم بخبرة أوسداد رأى وهكذا جرى المثل «مزمار الحى لايطرب»

هذا لون ألوان التربية المنزلية تغرنا منه مظاهر الطاعة المموهة والاحترام الـكاذب ، ولـكنه يقتل فى أولادنا شخصيتهم ويشل تفكيرهم ويولد فى نفوسهم الخوف من تحمل المسئولية ومجابهة الصعاب ، وينزع منهم ثقتهم فينا ويجعلهم عالة علينا أن كانوا ذوى شخصيات ضعيفة بطبيعتها . ابحثوا عنهم تجدوهم موظفين خاملين خاضعين يقبلون الضيم ويصبرون على الأذى ليس لهم كرامة يدافعون عنها ولا مبدأ يتمسكون به — وتجاراً أو صناعا أو زراعا يقنعون فى عيشهم بالقليل عن جبن لا عن ايمان لايستغلون مافى بلادهم من موارد ولايساهمون فى مشروع — وهم جميعا يتحركون كالظلال ليس بها روح ، يعيشون ويموتون نـكرات لايؤبه لهم ولايقام لهم وزن . واذا كانوا ذوي شخصيات قوية بطبيعتها كظموا غيظهم فى صدورهم على مضض ، حتى اذا ازداد الضغط انفجروا وانقلبوا علينا وعلى البيت والمجتمع ، وصاروا ثائرين متبرمين بالحياة ساخطين على الدنيـا . وكم من ولد نشأ على الطاعة العمياء والنظام القاسى الشديد فصار مستهتراً لايعرف نظاما وهو كبير . وكم من طفل قتر عليه والداه ووقفوا فى سبيل « غياته » فاذا بلغ سن الرشد وورث المال بدد ما آل اليـه من ميراث . ولو كنا أخذناهم من صغرهم بالحلم واللين وأشركناهم معنا فى أمورنا وفتحنا لهم مجالسنا وأدمجناهم فى زمرتنا حتى يتشربوا بمشاربنا ويقتربوا من ميولنا واتخـذنا منهم أصـدقاء صغارا ، لزالت بيننا وبينهم القيود وقربت مسافة السن ، واستطعنا أن نبث فيهم روح الهمة والنشاط وان كانوا مستكينين ونلطف من حدتهم ونهدىء من ثوراتهم ان كانوا متمردين — حتى نصلح لزمانهم ويصلحوا لزماننا . ووالله لقد صدقت العامة فى أمثالها — ان كبر ابنك خاويه . فالأطفال أحوج الى من يفهم نفسياتهم ويعطف عليهم ويأخذ بيدهم فى الطريق الوعر الذى هم عليه مقبلون — وخصوصا فى دور البلوغ . فهم وقتئذ فى دور ثورة وغليان آل اليه ، وغريزة كانت ناعسة فتنبهت من غير سابق انذار وعاطفة تتفتح كالزهرة فى الاكمام ، وعيون تزول عنها الغشاوة ونفس متعطشة الى العلم

والمعرفة وسؤال المجربين . كلنا نعرفها ونذكر ما كنا عليه فيها ونقدر خطرها فى أولادنا كما جربنا خطرها فى أنفسنا . ونحن مع ذلك نحيطها بشيء من الغموض والابهام فنفضحها من حيث نريد أن نسترها وتدفعنا تقاليدنا التي أحطناهم بها والسد المنيع الذى أقمناه بيننا وبينهم الي أن نتركهم لرحمة الاقدار ، يصادقون من يشاءون ويخالطون اخوان السوء ويرتبطون معهم بأسوأ الروابط ويقتبسون منهم أسوأ العادات . حتى اذا وقع المحظور واندفع أولادنا فى التيار الجارف ، مددنا أيدينا لهم فجرفونا معهم أو جلسنا ننظر اليهم يتدهورون واضعين رأس الجهل على يد الندم

اصلاح القرية

أول درجات العمل صدق النية فى القيام به . وقد توافرت النيات للاصلاح القروى عند رجال الوزارة الوفدية فليس من شك فى أننا قادمون على اصلاحات متوالية تتناول بناء القرية ونظامها وموقعها . وليس شك فى أن الوزارة الحاضرة قد وضعت الاساس لطائفة من الاصلاحات . وهي لن تستطيع التراجع عن تنفيذها بل هى ورطت غيرها فى هذه الاصلاحات فلن يمكن وزارة أخرى أن تكف عنها اذ هى تعرض نفسها عندئذ للاستنكار العام

وأعظم ما نحتاج اليه فى انفاذ خطة الاصلاح التى سنتها الوزارة الوفدية الا تقدم على مشروعات الا بعد الثقة التامة من صلاحها وضرورتها مع تقديم الاهم على المهم . وهناك كثير من العطف والحنان فى الكلام عن الفلاحين وقراهم ومساكنهم ولكن هذا العطف وهذا الحنان يجب ألا يعميانا عن التفكير السليم المنطقى فى الاصلاح المنشود

فهناك مثلا مسألة مياه الشرب . فاننا كتبنا كثيرا عن هذا الموضوع وعالجناه فى تحنن وعطف وتحسر . ولكنا لم نسلط عقولنا ومنطقنا عليه . ولو فعلنا لعرفنا ان مياه الشرب التى يشربها الفلاحون ليست سيئة . فان الفلاحين يستقون من مياه النيل الجارية . وهم يشربونها عكرة أو مرشحة . وهى فى كلتا الحالين ليست سيئة الطعم ولا مؤذية للجسم . فان عكر المياه هو الطين الذى يجفف ويستعمل أحيانا دواء للامساك . وهو ليس متعفنا وليست به قذارة . وقد عاش آباؤنا آلاف السنين وهم يشربون هذا الماء عكراً أو مرشحا ولم تنشأ عنه أمراض بينهم

وانما الذى يدعو الى الكلام الكثير عن ايصال المياه المرشحة الى منازل الفلاحين هو

الاعتقاد الراسخ بأن مرضى البلهارسيا والانكلستوما ينشآن من مياه الشرب . وهذا وهم عظيم لا أصل له فى الحقيقة ، فان هذين المرضين ينشآن من دودتين مختلفتين تدخلان الجسم من الجلد أى من السير بلا حذاء فى القنوات المعشبة التى لا تجف على طول العام تقريبا . ولهذا السبب لا يكاد هذان المرضان يعرفان فى الصعيد الاعلى حيث لا يمارس الرى الدائم بل يقتصر على رى الحياض ، فان الجفاف الذى يعقب هذا الرى يقتل هاتين الدودتين ولا يصاب الفلاحون بهما مع ان هؤلاء الفلاحين يشربون مياه النيل العكرة التي نعتقد أنها هي الاصل لهذين المرضين

وتفشى هذين المرضين يرجع الى نظم الرى الجديدة التي جعلت أرض الوجه البحرى وبعض الوجه القبلى متشبعة بالمياه طول العام مع بقاء هذه المياه راكدة فى القنوات التى لا تجف

ولهذه الديدان سلسلة من الحياة اذا انقطعت حلقة منها بالجفاف ماتت ، فالسبب الاصلى هو تشبع التربة المصرية وهذا السبب نفسه هو أيضا الاصل لكثرة الديدان التى تصيب القطن وتحدث الملاريا بوفرة البعوض الذى ينقل مكروبها

فالدعوة الي اصلاح مياه الشرب هو عبث واضاعة للمجهودات والاموال . وقد اقترح أحد الاطباء فى مديريه المنوفية أن تترك مياه النيل على حالها ويعطى الفلاحون أحذية عالية الى الركبة حتى لا تصيبهم الديدان من الارض الرطبة أو من القنوات الموحلة

وهذا الاقتراح معقول . ولكن خيرا منه أن تجفف التربة المصرية فلا يسمح بتاتا بالرى الا عن طريق الآلات الرافعة . ويجب أن يبقى مستوي مياه الرى دون الارض التي يرويها بمتر أو أكثر من ذلك . واذا جففت الارض ماتت الديدان وعادت الى الفلاحين صحتهم ولو شربوا مياه النيل العكرة

المجلة الجديدة

ديسمبر ١٩٣٦ الثمن ٣ قروش

اقرأ فى هذا العدد

الخ. الخ.

مطبعة المجلة الجديدة

فهرست

المجلة الجديدة ديسمبر سنة ١٩٣٦

---

١ — الاشتراك فى المجلة الجديدة الشهرية في مصر والسودان لمدة عام هو ٤٠ قرشا و ٢٠ قرشا فى ستة أشهر . وفى الخارج ٥٥ قرشا فى العام .

٢ — الاشتراك فى المجلة الجديدة الاسبوعية فى مصر والسودان هو ٢٥ قرشا فى العام و ١٣ قرشا لستة أشهر . وفي الخارج ٥٠ قرشا فى العام و ٢٥ قرشا لستة اشهر

٣ — الاشتراك فى المجلة الجديدة (الشهرية والاسبوعية) فى مصر والسودان هو ٦٠ قرشا فى العام و ٣٠ قرشا لستة أشهر . وفى الخارج مائة قرش فى العام و ٥٥ قرشا لستة أشهر . وفى غير الاتحاد البريدي يزاد ٣٠ قرشا في العام

تصدر المجلة الجديدة ١٢ عددا سنويا

وتهدى الى مشتركيها كتابين كبيرين

١٢ شارع نوبار (مكتب بريد الدواوين) بمصر



أيام عيد الميلاد

هى ولعبتها

صاحبها ومحررها
سلامه موسى
المجلد السادس

المجلة الجديدة

العدد الثاني عشر
من
السنة الخامسة

ديسمبر ١٩٣٦

سير الحوادث

وافق البرلمان بمجلسيه على مشروع المعاهدة وكذلك تمت الموافقة من البرلمان البريطاني. وقد كان هذا منتظرا لأن المعاهدة تتفق ومصالح الشعبين البريطاني والمصري. وهي من ناحيتنا تفتتح لنا عهدا بالاستقلال والديمقراطية وهو عهد نرجو ألا يصاب بادواء الاوتوقراطية

ولم يعد للحكومة ولا للشعب، بل لم يعد للفرد من الامة أن يعتذر عن اصلاح البلاد بالاشتغال بقضية الوطن. فان هذه القضية قد انتهت بسلام. فيجب أن نرصد جهودنا من الآن إلى ترقية الصحة والتعليم ومكافحة الفقر. ولسنا نشك فى أن حكومتنا متنبهة إلى ذلك. فان ماتقوم به وزارة التجارة والصناعة مثلا يدل على أنها تضع البرامج لاصلاحات كبيرة. فأنها تدرس ضروب التأمين الاجتماعى فى الامم الاوربية بنية ادخاله فى مصر. وهى قد هيأت مشروعا للنقابات مهما كان فيه من النقص فانه يعد باكورة حسنة للاصلاح اذ أن اصلاح أحوال العمال يكاد يكون مستحيلا بدون نقابات منظمة

وأول مايجب أن نقوم به بعد هذا الاستقرار أن نسن قانونا يكفل بقاء الدستور وصيانته من



السر ميلز لامبسون

الانقلابات التى ربما ينويها دعاة الاستبداد . ثم بعد ذلك نشرع فى مكافحة الفقر باعتبار أنه الاساس لكل نقص آخر فى الامة

ابو الهول

ليس بين المنقبين عن الآثار المصرية من هو أسعد حظا من الأستاذ سليم حسن إلا اذا اعتبرنا مكتشفات كارتر التى أثارت من اعجاب العالم المتمدن ودهشته أكثر مما أثارته مكتشفات الاستاذ سليم حسن . ولكن الشيء الذى يدعو الى الاسف أنه ليس فى قبور الاهرام التى اكتشفها الاستاذ سليم حسن ولا فى قبور طيبة التى اكتشفها المستر كارتر ماينير عن تاريخ مصر القديم . فان ماكان يعرفه الاثريون قبل الاكتشاف لم يزد بهما شيئا جديدا

ولكن فى اكتشاف لوحتين عند أبى الهول ما ربما ينير قليلا عن تاريخ مصر القديمة ، فان إحدى اللوحتين توهم أن أبا الهول هو تمثال رع أى الشمس المؤلهة . وكان المظنون أنه تمثال الملك خفرع . وليس هناك عبارة يقينية تؤيد هذا الوهم الذى لو صح لكانت له قيمة كبيرة عن تفسير هذا اللغز القديم — لغز أبى الهول

انقلاب فى العراق

حدث انقلاب خطير فى العراق . فان قائد الجيش بكر صدقى أغار على العاصمة بطائرات القت منشورات وقنابل لكى تستقيل الوزارة . ثم لم تمض ساعات حتى قتل جعفر العسكرى القائد العربى المشهور . ثم استقالت الوزارة وحل البرلمان ولم يعين يوم لانتخاب برلمان جديد

وباستقالة وزارة ياسين الهاشمى عينت وزارة جديدة برياسة حكمت سليمان . وقد علل هذا الانقلاب بان الوزارة السابقة كانت بطيئة فى الاصلاح وبان القصر لم يكن راضيا عنها



سعيد نورى (من الوزارة السابقة)

وهذا الكلام الأخير يشبه ما كنا نسمعه أيام زكى الابراشى فى مصر . وهو لايقال فى حكومة

دستورية لأن القصر يجب أن يرضى عن الوزارة التي يرضاها الشعب

وهناك متفائلون يقولون أن بكر صدقي وحكمت سليمان ينويان السير بالعراق في النهج الذي سار فيه مصطفى كمال أي توجيه الامة نحو الحضارة الغربية بقوه وسرعة. فاذا كان الامر كذلك فان الانقلاب لايعد كارثة. وان كان من العسير أن يوجد رجل أو رجال من طراز مصطفى كمال

والعراقيون واقعون بين ايران من الجنوب وتركيا من الشمال. وكلتا هاتين الدولتين قد سلخت عن نفسها الثوب الشرقي وتوجهت نحو الحضارة الاوربية. ولذلك يسهل على العراق أن تحتذيهما



جعفر العسكري

الحرب الاسبانية

مضى على الثائرين الذين يقودهم فرانكو نحو ٢٤ يوما وهم عاجزون عن اقتحام مدريد بعد أن كانوا يؤملون انهم سيفتحونها في أقل من ٢٤ ساعة. وقد استعادت حكومة الجبهة الوطنية قوتها وصمدت للقتال بل هي شرعت في الهجوم. ولا يرجح أن ينتصر أحد الفريقين على الآخر. وأغلب

الظن أن أسبانيا ستنقسم قسمين : واحد فى الغرب حيث تسيطر عليه حكومة فاشية . وآخر فى الشرق ينحدر بسرعة نحو الشيوعية

وقد ارتبكت أوربا لهذه الثورة الاسبانية وأوشكت أن تشتبك فى حرب لأن روسيا كانت ولا تزال تساعد حكومة الجبهة . وكذلك تفعل فرنسا . فى حين ان ايطاليا وألمانيا وبرتغال يساعدن حكومة فرانكو . وقد أعلن فرانكو الحصر البحري على حكومة الجبهة . وهذا يعنى انه سيفتش السفن والبواخر التى تقصد إلى ميناء برشلونة . وما دامت الحكومات الأوربية — ما عدا ايطاليا وألمانيا — لم تعترف به فان التصادم بينها وبينه ليس بعيدا . وقد أصبحت أوربا كلها هذه الأيام فى حال عقلية تشبه الحال التى ساقتها إلى الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ . فان كل دولة تستعد للحرب وتفقر أبناءها بالضرائب الباهظة لصنع المدافع وتكويم الذخائر . وتقهقرت عصبة الأمم من مسرح السياسة حتى كأنها لا وجود لها . والوساوس تملأ الجو . فان بريطانيا لا ترتاح إلى الاستعداد الحربى الذي تبديه ايطاليا فى البحر المتوسط . وبلجيكا تعلن من الآن حيادها فى حرب قادمة بين ألمانيا وفرنسا

ألمانيا واليابان

وفى هذا الارتباك العام والوساوس السائدة أعلن اتفاق يشبه المحالفة بين اليابان وألمانيا غايته مكافحة الشيوعية . والأصل فى هذا الاتفاق هو خوف ألمانيا من الاتفاق الذي عقد بين روسيا وفرنسا . فقد فسرته ألمانيا بانه محالفة بين هاتين الدولتين عليها . ولا يسع المنصف إلا أن يعتقد ذلك أيضا

وأوربا هى الآن بمثابة المدينة التى قتلت قضاتها وهدمت محكمتها وتركت الحكم لغوغائها . فان ايطاليا قد عملت على الغاء عصبة الأمم فألغتها بالتحدى المتوالى ولم تبق منها غير الاسم . وجميع الطوالع تدل على أن العالم يجب أن ينتظر حربا اخرى أهول من الحرب الكبرى قبل أن تتفق أوربا على انشاء « الولايات المتحدة الأوربية »

نظرية الميكروبات

يرى القارىء فى هذا العدد مقالا منيرا للأستاذ رمسيس شحاتة عن النظرية الميكروبية القائلة بأن الامراض المعدية تعود الى ميكروبات . فان الكاتب يلخص هنا آراء جديدة يقول بها علماء محدثون وينكرون فيها ما عزى إلى الميكروبات من الأهمية . فان الميكروب لا يهاجم الجسم بل الجسم هو الذى يجذب الميكروب على نحو ما يجذب جسم الميت ميكروب التعفن . ومن هنا يجب أن يتجه الطب نحو تقوية الجسم وليس نحو مكافحة الميكروب بالذات . وهذا المقال يتفق والنزعة التجديدية لهذه المجلة التى ترود الميادين الثقافية لتنقل ما يجد فيها من الآراء

النهضة الصناعية



صاحب السعادة محمد طلعت حرب باشا

مما يسر جميع الواقفين على التطور الاقتصادى فى البلاد أن النهضة الصناعية تتقدم ببطء ولكن مع الاطمئنان . والفضل فى تقدمها لشركات بنك مصر المختلفة . وآخر ماترويه عن تقدمها أن شركة الغزل والنسيج بالمحلة الكبرى قد أعلنت عن زيادة رأس مالها حتى يبلغ مليون جنيه . وليس الوقت بعيدا حين يمكن مصانع المحلة أن تكفى القطر كله بالأقمشة القطنية

الهدية الثانية

أرسلنا مع هذا العدد الهدية الثانية للمشتركين وهى كتاب الأستاذ أحمد زكى بدوي عن التطور الدينى . أما الكتاب الاول فهو الحياة الجديدة للاستاذ نقولا يوسف





اشتهرت انجلترا بخزف ودجوود ولا يزال الانجليز يصنعون طقوم الشاى والقهوة على طريقة ودجوود . وهنا طقمان للقهوة صنعا على هذه الطريقة



المراوح

رسم زيتي للرسام الانجليزي بيرسكين

ألمانيا والاصلاح الاجتماعي

الاشتراكية — سواء أكانت ديمقراطية أم وطنية — هي من المخترعات الألمانية فان زعيمها المكروه الآن «كارل ماركس» كان ألمانيا بثقافته ولغته وان لم يكن كذلك بدمه اليهودي وهو يكره الآن في ألمانيا لأن اشتراكيته كانت عالمية ليس فيها شيء من الوطنية، ولأن روسيا قد جعلته نبيها المعصوم ولأن الدم اليهودي كان يجري في عروقه

ولكن ألمانيا ليست اشتراكية بسبب كارل ماركس فقط. فان الألمان منذ أيام الأمبراطرة وبسمارك بل منذ أيام هيجل كانوا ولا يزالون ينظرون الى «الدولة» كأنها محور النظام أو القلب الذي تعزى اليه الحياة الاجتماعية. وقد شرعوا أيام بسمارك في وضع ما يسمى الآن «التأمين الاجتماعي» اي ان الدولة يجب أن تكفل للعاطل وللمسن وللمريض جزاء ماليا يقيه الحاجة

والاشتراكية مذهب اقتصادي اجتماعي يمكن أن يتخذ ألوانا مختلفة. فيكون ديمقراطيا صرفا لا يكاد يكون للدولة شأن فيه أو قد يكون حكوميا مركزيا الدولة فيه هي كل شيء. وقد عرفنا نحن في مصر مثل هذا النظام الثاني أيام الفراعنة كما يثبت ذلك كتاب ديرين الذي ترجمه الى العربية الاستاذ أنطون ذكرى

ولا تخلو أمة متمدنة من لون من ألوان الاشتراكية. واذا تركنا روسيا جانبا فاننا نجد ان أسوج هي أكثر الأمم الأوربية اقبالا على الاشتراكية ذلك انها قد عممت التأمين الاجتماعي وأسست الحكومة هناك طائفة من المصانع تديرها بنفسها وتبيع منتجاتها للجمهور. ويلي أسوج ألمانيا ثم بريطانيا. والذي يقرأ خطب الرئيس روزفلت ويتأمل مشروعاته لا يسعه إلا الاعتقاد بأن الرجل اشتراكي لاغش فيه. والواقع انه ليس في العالم رجل ينطوي قلبه على البر اوذهنه على النظام إلا ويرى نفسه سائرا في طريق من الطرق الاشتراكية المختلفه التي تؤدي إلى تأمين جميع أفراد الأمة من الفقر والمرض والشيخوخة والجهل. ولا عبرة بعد ذلك أن تكون هذه الاشتراكية «وطنية» على مذهب هتلر أو «عالمية» على مذهب كارل ماركس

والمانيا هي الآن أقل الامم الاوربية ذهبا إذا اعتبرنا مئويه الذهب إلى السكان ولكن النظام أو الأنظمة الاشتراكية التي تمارسها قد جعلت كل عامل فيها أما مستخدما يؤجر وأما عاملا تؤدى له اعانة العطل. وقد منع أرباب المصانع من الاستبداد بالعمال كما منعوا من الاستبداد بالجمهور. فلا يجوز لهم طرد العمال كما لايجوز لهم فرض الأثمان الباهظة على منتجاتهم. ولكل عامل الحق في

اجازة سنوية مأجورة كما لو كان يعمل

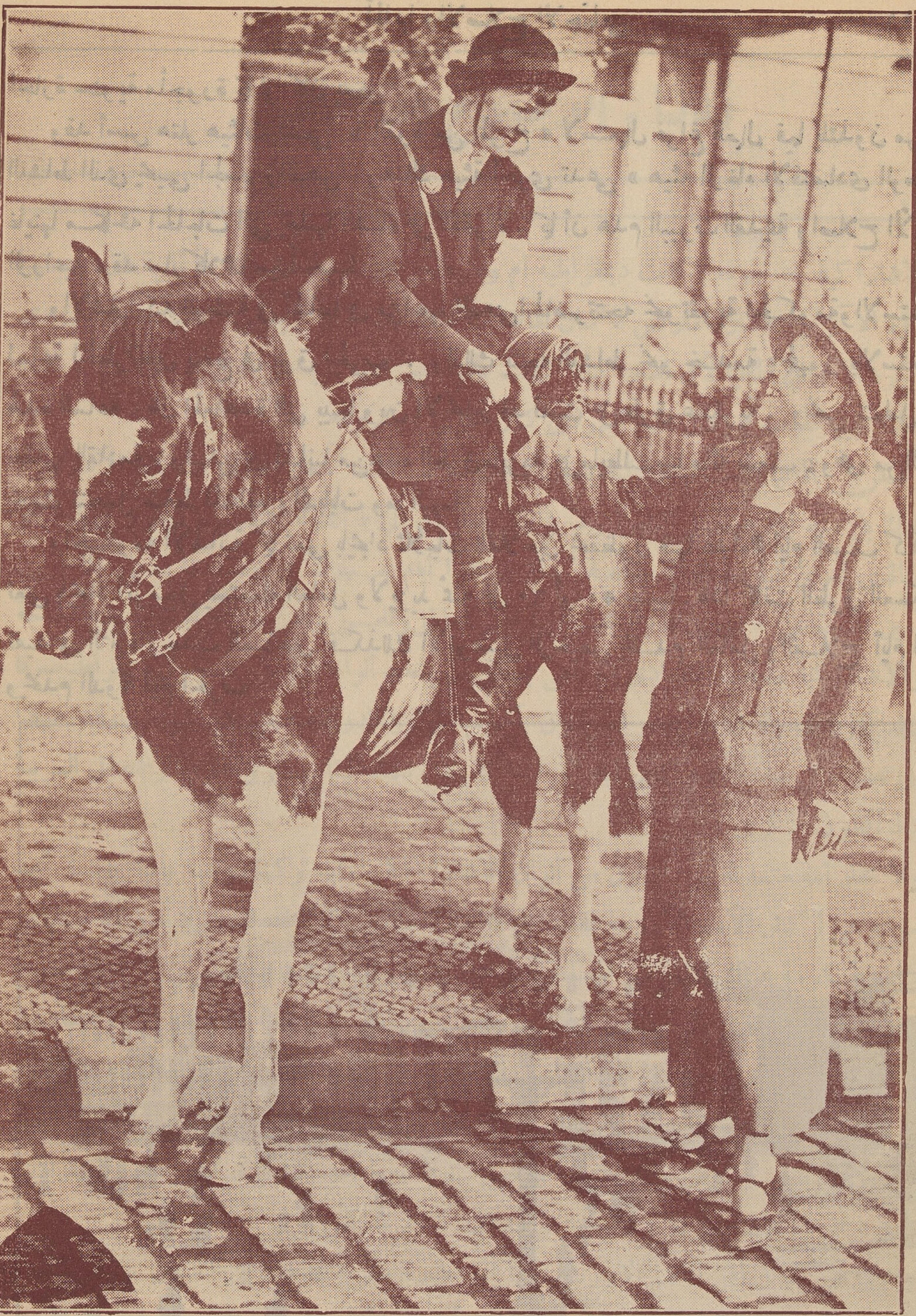
وقد أسس هتلر هيئات تسمى « القوة من المرح » لاستعمال فراغ العمال فيما يلتذون من النشاط الذى يحيى الجسم والذهن . وهناك هيئة أخرى تدعى « هيئة الرخاء الاقتصادى الوطنى » غايتها مكافحة الحاجات التى يجلبها الشتاء على الفقراء . كما أن هدم البيوت القديمة واصلاح الأرض الزراعية ، قد سار كلاهما سيراً حسنا

والاشتراكية الوطنية فى ألمانيا فى مزاجها الذهنى الحاضر تتجه نحو تقوية الحكومة والاستعداد لساعة الخطر حين ينفخ فى بوق الحرب . ولذلك يتجه النشاط نحو خدمة الجمهور بالاستعداد لهذه الساعة . فان المعاهدة التى بيننا وبين الانجليز قد نصت على طرق عسكرية . ونحن نتململ من نفقاتها القادمة . ولكن فى ألمانيا من هذه الطرق مايزيد على مايطلب منا مائة ضعف ، وهى من السعة بحيث تتحمل ضغط المدافع والدبابات وما اليهما

والحكومة الألمانية كما تعنى بايجاد ثلاجات للفلاحين يحفظون فيها غذاءهم أيام الصيف كذلك تعنى بايجاد أتومبيل يستعمله العامل ولايزيد ثمنه على ٦٠ أو ٥٠ جنيها . فاذا كانت الطرق العسكرية تفيد فى التنزه وجذب السياحين فكذلك الاتومبيل الرخيص يخدم العامل والفلاح أيام السلم ويخدم الدولة أيام الحرب



الدار الجديدة التى بنيت فى مونيخ بالمانيا لادارة الحزب الوطنى الاشتراكى



السيدة الفريدا شومان الفارسة الألمانية تجوب أنحاء ألمانيا على جوادها لجمع التبرعات لاعانة الشتاء للفقراء . وستقطع ٣٥٠٠ كيلومتر فى تجوالها الى يوم ٣١ مارس سنة ١٩٣٧

القوانين و الفراعنة

كان الملك بوخوريس مؤسس الاسرة الرابعة والعشرين أول من جمع شتات القوانين وأمر بتعديلها تعديلا يتماشى مع مقتضيات زمانه . وقد سميت مجموعته بمجموعة قوانين بوخوريس . وكان التعديل التشريعي مشبعا بروح قوانين حلفائه الاشوريين والكلدانيين . وكان أظهر مكان للتعديل والاخذ بالاصول الكلدانية والاشورية هو الجزء الخاص بالالتزامات على اعتبارها الاصل الاول للقانون وعليها تتركز أسس المعاملات وفيها تتجلي وحدة التشريع العالمي ان صحت الاحلام يوما واعتنقت الشعوب جمعاء أصولا واحدة فى المعاملات مصدرها أصول الالتزامات العامة . كما يرغب فى ذلك الاستاذ المعروف ادوار لامبير فى بحوثه المستفيضة . وسميت مجموعة بوخوريس فيما بعد عند الاغريق بقانون العقود

ومن سنه ٥٦٩ الى سنة ٥٢٥ قبل الميلاد حكم مصر أحمس الثانى أحد ملوك الاسرة السادسة والعشرين وأصدر هو الآخر مجموعة سميت باسمه أي مجموعة أحمس

ومن سنة ٤٠٥ الى سنة ٣٩٩ جاء الملك نفريت مؤسس الاسرة الثامنة والعشرين وأعاد العمل بمجموعة بوخوريس بعد تعديلها وتهذيبها

ويقول المؤرخون بل يؤكدون ان العمل بمجموعة بوخوريس - نفريت ظل قائما فى بعض العصور الرومانية حتى سنة ٢١٢ ميلادية

وقد تأثرت تشريعات البلاد القائمة على شواطىء البحر الابيض المتوسط بالاصول التشريعية المصرية بالرجوع الى بوخوريس ، وبوخوريس - نفريت . وقد أخذت التشريعات الاغريقية شيئا كثيرا عنها . أى ان الاخذ التبادلى التشريعى كان معروفا لدى المصريين والاغريق وظل للتشريعات المصرية القديمة أثر ظاهر فى التشريعات الرومانية حتى سنة ٢١٢ م كما تقدم . وأكثر الاغريق من الاخذ عن التشريع المصرى القديم عندما حضر لمصر مشرعهم المعروف سولون ثم عاد لبلاده بعد ذلك وهو يحمل فى رأسه ماشاءت له قدرته العلمية القانونية من الآثار التشريعية المصرية حتى ذاعت الاصول القانونية المصرية القديمة ذيوعا ظاهر الاثر فى التشريعات الاغريقية

لم يقف أثر التشريع المصرى القديم عند الاغريق فحسب بل ذهب الى روما كما تقدم . ولما قام هيرودوت وأشاد فى الألعاب الأولمبية بمتانة التشريعات المصرية وأخصها مجموعة أحمس التفت الرومانيون الي ذلك واقتبسوا منها شيئاً كثيرا وأودعوها مجموعة الأثنتى عشرة لوحة الموضوعة سنة ٥٥٥ — ٤٠٩ قبل الميلاد وهو الوقت الذى كان فيه أحمس الثاني يحكم مصر باعتباره أحد ملوك الاسرة السادسة والعشرين

ومجموعة الاثنتى عشرة لوحة الموضوعة قبل التاريخ الميلادى بأربعة قرون ونصف قرن هى أول مرحلة من مراحل عهد التجميع عند الرومان حيث قامت بعملها جماعة من أشراف الرومان وعدد أفرادها عشرة صاغوها وأفرغوها فى قالب تشريعي وقدموها لمجلس الشعب وعلقت بعد ذلك بالسوق العامة . ثم أحرقها الغاليون عندما أحرقوا روماسنة ٣٩١ قبل الميلاد . واللوحات الموجودة بعد انما هى صورتها لا أصلها

من هذا يتبين ان التشريع المصرى القديم دخل بلاد الاغريق وبلاد البحر المتوسط ودخل روما وظل العمل آخذا بأصوله حتى سنة ٢١٢ بعد الميلاد

ولعل السبب فى هذا التسرب التشريعى انما يرجع الى قاعدة التجميع وهي حصر الاصول المشتتة وتعديلها وتهذيبها تعديلا وتهذيبا يتناسب مع ظروف عصر التجميع من بيان الاصل منفردا والتعديل بعده

وأخذ الرومان من أربعة قرون ونصف قبل الميلاد الى القرن السادس بعد الميلاد — أى عصر جوستنيان — يعملون فى تهذيب الأصول القانونية وشرحها شرحا مستفيضا حتى البحوث وذاعت التفسيرات العلمية ذيوعا عظيما وكثرت المؤلفات الى أن بلغت الفى مجلد تقريبا . فأمر الامبراطور جوستنيان بتلخيصها فقها وتشريعا وجمعت فى أربع مجموعات فى النصف الاول من القرن السادس . وكان وما زال أهمها المجموعة الفقهية فى تقرير الاصول القانونية وهي مجموعة الديجست أوالباندكت عصارة ما أخرجته أدمغة مشترعى الرومان مدة عشرة قرون . أربعة قبل الميلاد وستة بعد الميلاد وقد أصبحت هدى للشعوب الحاضرة حتى قال عنها المشترع « هرنخ » الالمانى ان القانون الروماني أصبح عنصرا لازما من عناصر المدنية

وقد عنيت به درسا وتحليلا الامم الاوربية فى القرون الوسطى وعلى الاخص جامعة بولونيا فى القرن الحادى عشر وأطلق على أساتذتها الشارحون اسم جماعة الشارحين أو أصحاب الحواشى

وعلى رأسهم العالم الايطالى « اينيريوس » وجاء بعده الشارحون الاربعة المعروفون ودون الكل أبحاثهم فى مجموعة عرفت بمجموعة « آكوس » . ثم أعقبهم الشارحون للشارحين السابقين وظهروا فى ايطاليا وفرنسا وألمانيا . ولعل أشهرهم الايطالى « بارتول » الذى كان له القدح المعلى فى التحليل والشرح . وفى القرن السادس عشر نبغ فى القانون الرومانى من حيث الشرح والتحليل وتعقب المصادر عدد غير قليل من العلماء فى ايطاليا وهولاندا وفرنسا . وعرف فى هذه الاخيرة على الاخص العالمان « دوما » و « بواتييه » الذى طبقت شهرته الآفاق العلمية والاوساط القانونية حتى اعتبر مصدرا للقوانين الفرنسية الموضوعة سنة ١٨٠٤ وأخصها القانون المدنى وفى ألمانيا نبغ فى القانون الرومانى من الناحية التاريخية والفلسفية وذلك فى القرن التاسع عشر العالمان الشهيران « سافينى » و « اهرنج »

* * *

وفى الوقت الذى بلغ فيه الفقه الرومانى والتشريع الرومانى هذا المبلغ العظيم — وهو القرن السادس بعد الميلاد — لما يظهر بعد التشريع الاسلامى ولما تظهر العلوم الفقهية الاسلامية . ونريد هنا بعبارة الاصول الفقهية الاحكام القانونية والمبادىء الاصلية الخاصة فقط بالمعاملات وتنظيم علاقات الافراد بعضهم ببعض أو علاقاتهم بالحكومات . ان أى بحثنا مقصور على غير ما يتناوله البحث الدينى البحت

ويظهر لنا من استقراء التاريخ أن الاصول العلمية الفقهية والاحكام التشريعية الاسلامية لم تظهر ظهورا جليا معينا الا فى العصر المسمى بالعصر العلمي الذى بدأ بظهور الدولة العباسية حوالى أوائل القرن الثامن الميلادى (سنة ١٣٢ هـ ٧١٣ م) حيث ظهر الائمة الاربعة وراجت مذاهبهم وأذاعها تلاميذهم ومريدوهم وآخر المذاهب الاربعة مذهب الامام حنبل اذ ظهر فى أوائل القرن التاسع الميلادى

وفتح العرب مصر . وكانت مصر قبل دخولهم مسوسة بالاصول القانونية الرومانيه . وبدخول العرب زال التشريع الرومانى . وحل محله التشريع الاسلامى وأخذ فيها على الاخص بمذهب الامام الشافعى . ثم بمذهب الاسماعيلية . وأخيرا سادت المذاهب الاربعة فى القرن الميلادى الثالث عشر فى عهد الظاهر بيبرس (سنه ١٢٤٤ م)

ولما دخل المماليك مصر حملوا معهم القوانين التتارية وفى طليعتها مجموعة الاحكام التى وضعها

ملك التتار جنكزخان وهى المعروفه عند المصريين فى ذلك العهد بالسياسة واسمها الحقيق الياسه على انهم أبقوا العمل بالشريعه الاسلاميه بجانب القوانين التتارية

ولما فتح العثمانيون مصر سنة ١٥١٦ م أخذوا فى تطبيق الاحكام الشرعية الاسلامية واعتبروا مذهب الامام أبى حنيفة المذهب الرسمى

ولما دخل الفرنسيون مصر فى حملتهم المعروفة أحدثوا انقلابا خاصا فى النظم المألوفة ولكنهم عادوا فأخذوا بنظام القاضى الشرعى من حيث تحديد دائرة اختصاصه

وفى عهد محمد على ذاعت أحكام الشريعة الاسلامية ووضعت قوانين أخرى بجانبها كانت تدعو اليها حالة تطور البلاد وأخيرا وضعت القوانين المختلطة سنة ١٨٧٥ أخذا عن القوانين الفرنسية ووضعت القوانين الاهلية سنة ١٨٨٣ أخذا عن القوانين المختلطة مع بعض التعديل عن القانون الايطالى فى المرافعات

* * *

جوستنيان



نشوء الحضارة

للاستاذ احمد زكى بدوى

إن تاريخ الانسان الاول هو صورة لنضاله الدائم مع البيئة لاشباع حاجاته . وليس التقدم المادى إلا نتيجة جهود الانسان لتذليل العقبات الطبيعية التى تقابله . فلنحاول الآن استعراض هذه الجهود

كان الانسان الأول يعيش كما تعيش القردة . فلم تكن ملابسه إلا الجلود وفراء الحيوانات ، ومسكنه تحت أغصان الاشجار والكهوف . كانت حاجته الأولى الحصول على الطعام . وأبسط الطرق الموصلة إلى اشباع هذه الحاجة هى جمع الأطعمة فى الأمكنة التى تتوافر فيها النباتات المختلفة أو صيد الاسماك على السواحل . وكذا صيد بعض الحيوانات البرية . وكان ذلك يستدعى مهارة عظيمة واستعمال الحيلة ، ومعرفة طباع الحيوان المراد صيده ومواضع نومه . وعلى توالى الزمن تعلم الانسان تدجين بعض أنواع الحيوان وكان الحصان والكلب أهمها فاستخدمهما فى الصيد

ان حاجة الانسان الثانية هى الدفاع عن نفسه وقد اخترع لذلك كثيراً من الادوات الحجرية شبيهة بمخالب وقرون الحيوانات ولذلك سمى الانسان « الحيوان المستخدم للآلات » تمييزا له عن باقى الحيوانات . وهذه التسمية ذات قيمة لأنها تميز الانسان الفطرى بسيفه وبلطته عن الثور بقرونه والدب باسنانه

إذا أردنا أن نحدد معنى الحضارة أمكننا أن نعنى بها كل الأدوات التى نستعين بها فى الوجود والتى نتمكن بها من مكافحة الوسط الطبيعى الذى نعيش فيه . وليست سهام المتوحشين الخشبية أو القوارب المصنوعة من قشور الشجر أو الاسقف المصنوعة من الاغصان أو حيل المتوحشين الاولية — ليس كل ذلك إلا أطواراً من الاطوار الأولى لنشوء الحضارة



احمد زكى بدوى

كانت أقدم الآلات التى تركها الانسان مصنوعة من الصخور الصلبة كالصوان مهذبة تهذيبا بسيطا

لتقوم باغراضه البسيطة كالصيد والدفاع عن النفس وقطع الاشجار وهلم جرا . على أنه كان يدأب دائما فى تحسين هذه الآلات كلما ارتقى فى سلم الحضارة وكان يساعده على هذا التحسين نموه العقلى المتزايد . فكانت الالات الحجرية تزداد اتقانا مع مضى الزمن حتى صارت آلات نافعة وثيقة . ولم يقف نموه العقلى عند ذلك فسرعان ما اكتشف سراً كان له أ كبر الاثر فى حياته ذلك هو فن استنباط الفلزات من خاماتها المعدنية الاولى . وقد يكون وقوفه على سر هذا الفن قد جاء عن طريق المصادفة على أنه على كل حال عرف كيف يستفيد منه فلجأ إلى صناعة آلاته من البرونز الذى هو مزيج من النحاس والصفيح . ومن ذلك العهد كان تقدم الانسان بخطى واسعة حتى وصل إلى بدء عصوره التاريخية المعروفة

ان اكتشاف سر استخراج الفلزات من المعادن كان يرجع إلى اكتشاف طريقة الحصول على النار . وبلغ من أهمية النار ان عبدها الانسان فى العصور الأولى وأ"له قوتها ، مع أنه استخدم هذه القوة . لذلك كانت عبادة النار عامة عند معظم الشعوب الأولى وعند الآريين خاصة فقد كانت عندهم عنصر الحياة ينبث فى الوجود ظاهرا وخفية ويحمى كل شىء

ساعدت النار على تحويل المعادن واستخدامها ، فاخذت الحضارة فى الرقى الحقيقى . لأن قوة المعدن سهلت صعوبة معالجة مواد الصناعة . فالشجرة التى لم تكن تقطع بالفأس الحجرية الا فى أيام تقطعها الفأس المعدنية فى ساعات والقارب الذى كان ينقر باحجار الصوان فى شهور ، تنقره الآلات المعدنية فى أيام

كان الرجل فى أول الأمر يضع لنفسه ولاسرته السلاح الساذج والملابس والكوخ والقارب وغيرها . فلما اتسع نطاق الاسرة وتكونت القبائل ، شرع الرجال يتبادلون مصنوعاتهم . فتولد من هذا تقسيم العمل . وأدى هذا التقسيم الى اتقان الصناعات بسرعة لأن كل صانع أخذ يتخصص فى نوع واحد من السلع ويعمل على تحسينه وزيادة المصنوع منه ثم أخذ عنه أولاده الصناعة فرسختها فيهم العادة والوراثة ومن هنا ترقت الصناعة

بعد أن ظل الانسان يعيش احقابا طويلة على جمع الطعام والصيد انتقل إلى دور الزراعة ولكننا نجهل ابتداء وكيفية نشوء هذا الدور وأغلب ماوصل لنا عنه هو القصص الميثولوجية التى ترجع نشوء الزراعة إلى أصول دينية . كانت معرفة الانسان للزراعة من أهم عوامل رقى الحضارة . لأن الزراعة اقتضت إقامة الانسان بمكان واحد لايتحول عنه ، وتستدعى الاقامة السكن فى كوخ أو غيره ، فنشأت صناعة البناء ثم صار استئناس الحيوان — الذى كان يحدث اتفاقا وقت الصيد — تدريجيا

دائما ، فعرفت صناعات الألبان والاصواف والاوبار . وعرف الانسان من اللبن فوائد الخميرة فاستعملها فى خبزه . واقتضت الزراعة توقيتا محكما . فاضطر الانسان إلى البحث فى دورة الفصول بدلا من التوقيت القمرى . لأنه لم يعد ينفعه فى الزراعة فتوصل إلى معرفة السنة الشمسية وقليل من علم الهيئة

كان الانسان الفطرى متصلا تقريبا بالمملكة الحيوانية ، بينما كانت المرأة متصلة بالمملكة النباتية فالرجل يشتغل بالحرب والصيد والقنص وتربية الحيوانات . بينما تبذر المرأة البذور وتجمع الاثمار ورغم اشتراكهما فى محصول عملهما فان كلا منهما كان يعمل بعيدا عن الآخر . وأتى حين اجتمع فيه عمل الرجل كراع بعمل المرأة كزراعة ، عندما أخذ الرجل يستخدم البقرة أو الثور ليجر المحراث وأخذت المرأة تعتنى بالأغنام . وهنا تقدمت الزراعة . وأصبحت الاسرة خاضعة لنظام تعاونى فى الانتاج يعمل كل أعضائه متضامنين تحت سلطة الزوج وأخذت الاسرة تنتج كل ما تحتاج اليه وكان كل فرد قادراً تقريبا على القيام بجميع الاعمال الضرورية لذلك كان التبادل منعدما فيها . ولكنه كان موجوداً بين القبائل التى تتنوع مواردها أى بين التى تعيش مثلا على الرعى والتى لاتعرف غير الصيد مورداً لغذائها . وهنا يحدث تقارب بين هذه القبائل فيتم تبادل المحاصيل بطريقة فطرية

إن حياة الانسان الاقتصادية هى الدعامة التى قامت عليها نظمه الاجتماعية المختلفة وقد نشأت كلها من أصول ساذجة ، إلا أن معرفة هذه الاصول تقتضى الالمام بنظريات عديدة ويرجع ذلك إلى أن أغلب علماء الانسان لم يدرسوا الجماعات الفطرية فى بيئة واحدة بل فى عدة بيئات كأواسط افريقيا واستراليا وبعض جزائر المحيط الهندي . وطبيعى أن الجماعات التى عاشت فى هذه الاماكن خضعت لظروف بيئتها الخاصة . فكان من ذلك اختلاف نظمها والذى كان من أثره اختلاف نظريات العلماء عن نشوء النظم الاجتماعية عامة . إلا أن أكثر هذه النظم شيوعاً وأقربها للتاريخ والواقع هو نظام الطوطمية

العشيرة الطوطمية هى جماعة تتبع نظاما دينيا يفرض مجموعة طقوس معينة تسمى الطابو ، ويأتى ارتباطها من أن أفرادها يحملون طوطما واحداً وبعبارة أخرى اسما واحداً . وهم لذلك يعتبرون أنفسهم أقارب بعضهم لبعض . والطوطم مصدر هذه القرابة . وهو غالبا حيوان أو نبات تعتقد العشيرة أنها من سلالته ، فتجعل له رمزاً واسما عامين . فاذا كان الطوطم ذئبا ، فان كل أفراد العشيرة يعتقدون أنهم من أصل ذئب وعلى ذلك فيهم خواص الذئب

تقوم الاسرة فى ظلال هذا النظام على صلات طوطمية . وتؤدي واجبات اجتماعية ودينية

واقتصادية وسياسية بدلا من الواجبات الابوية . والموانع التى يفرضها النظام الطوطمى على الاسرة هى منع الزواج الداخلى واباحة الزواج الخارجى . وذلك بان يسبى رجال العشيرة فى حدود العرف نساء العشيرة المجاورة لهم ، فيقوم رجال العشيرة التى سبيت نساءها بخطف نساء العشيرة الاولى وهكذا : لان الزواج محرم من نساء القبيلة ومباح من نساء القبائل الاخرى . وينتسب الابن فى حالة سبي المرأة لطوطم أبيه . أما إذا انتقل الرجـل إلى عشيرة المرأة وظل بها ، فان الانتساب هنا يـكون لطوطم الام

يعتبر الطوطم أيضا اله القبيلة أى موجدها وحاميها . وهو مبدأ الجماعة الوحيد وقوة ارتباطها الدائمة . وروحها العظيمة . لذلك كان موضع عبادة بصورة ساذجة . عبد الطوطم لأنه يمثل القوة الاجتماعيـة الموروثة فى الجماعـة . فهو المـكون للفرد الاجتماعى فى العشيرة الاولى ، وهو من ناحية الجزء الخارجى المحسوس مانسميه المبدأ أو الاله فاذا كان رمز الجماعة والله فى وقت واحـد ، فذلك لأن الله والجمـاعة اعتبرا شيئـا واحـداً . فـكان إله العشيرة أو الطوطم هو العشيرة نفسها

كان تأثير النظام الطوطمى عظيما فى جميع الروابط الاجتماعية . فلم يقتصر عمله على إيجاد الاسرة والدين بل أوجد القانون والاخلاق فساعد على جعل الانسان الفطرى يعيش فى جماعات منظمة يندر فيها القتل والسرقة ، بعيدة عن الفوضى والفساد

كان القاتل يعتبر نجسا يحرم على سائر أفراد القبيلة النظر اليه ، ولن يغتفر ذنبه إلا إذا قام ببعض الطقوس الطوطمية بان يضحى مثلا بحيوان لروح المقتول ويطهر جسمه بدمه

كان الانسان يعتقد أيضا أن الطوطم يعطيه بعض القوة السحرية التى يمـكنه أن يعتمد عليها فى الاحتفاظ بممتلـكاته الشخصية فيقوم ببعض الطقوس التى يظن أنها تجعل للشىء المراد الاحتفاظ به قوة سحرية يصبح بها خطراً على أى شخص يمسه خلاف صاحبه . فأثمن الممتلـكات تترك لمدة ما فى حماية هذه الطقوس عند غياب صاحبها . فاذا رغب انسان فى حفظ ملابسه أو منزله أو أقاربه فما عليه إلا أن يجرى طقوس الطبو عليها ، وبذلك تصبح فى أمان ، لانه وضع طوطمه عليها ، وذلك فى نظره كاف بان يحمل اللعنة لـكل من يقتربها . أى يصاب بالمرض أو الموت

كان للنظام الطوطمى أثر بين فى خدمة الحضاره وتقدمها . فهو أصل التعاون بين أفراد الجماعة والدافع على تضحيتهم بالمنفعة الشخصية فى سبيل منفعة الجميع . نشأ هذا النظام من عدة خرافات نمت تدريجيا ثم أعطاها طمع الرؤساء والسحرة بعد ذلك اتساعا صناعيا . وفى خدمة قضية البخل والطمع خدمت الخرافات قضية المدنية فقد أوجد هذا النظام عقدة الزواج وبذرة الدين وقدسية

الحياة البشرية وحقوق المالكية . وبمرور الزمن نمت الافكار وأصبحت قادرة على الوقوف بنفسها وطرحت سندها المكون من الخرافات التى كانت عمادها الوحيد فى الازمنة الاولى . فاختفت الروابط الطوطمية وانتقلت العشائر الى نظام التوطن ، وتغيرت وظيفة رئيس العشيرة الدينية إلى وظيفة سياسية ولما تقدمت العشائر اقتصاديا ونمت الثروات وصلت إلى نظام الدولة ، ووجدت الحكرمة فاصبحت الادارة التى تتولى بها الدولة مهمتها

لننتقل الان إلى التحدث عن اللغة والدين وهذان ا ان هما فى الواقع أحد أصول وثمرات الحضارة . فاللغة كانت أحد عوامل تكوين الامم . ثم كا يها فيما بعد دليلا على رقى الامة . وكذلك كان الدين أحد وسائل التعبير عن شخصية الجماعة وكان رقيه فى نفس الوقت دليلا على رقى الذوق الاجتماعى

الكلام هو الحد الفاصل بين الانسان والحيوان ، وقد استخدم الانسان فى تطوره عدة طرق للمخاطبة بالاشارة والصياح والتكلم ثم الرسم وأخيرا الكتابة

كانت الالفاظ الاولى بسيطة لاتتعدى بعض أمثال وقليلا من الاسماء مكونة من مقطع واحد ولغة الاطفال أكبر دليل على عدم قدرة الانسان القديم على نطق كلمات من عدة مقاطع ، ولما استعملت الكلمات الغراماطيقية أو النحوية ساعدت على تكوين اللغة ذات المقاطع ، وبالاشتقاق ابتدع الانسان من الكلمات التى تدل على الافكار السهلة الواضحة كلمات تدل على أفكار مركبة عويصة ، وكان ذلك أعظم طريق سار فيه الانسان من الجهل إلى المعرفة

كانت الكتابة فى أول أمرها تمثيلا لأطراف الاشياء ثم اختصرت الخطوط فانتخبت صورا قريبة من أصولها قربا ما ، وهذا هو دور تصوير الفكرة . وتلاه دور تصوير الصوت وذلك لما تغلبت العلامة المميزة لصوت الكلمة على مدلولها فى الاعتبار والدور الاخير هو دور التصوير بالأحرف وذلك لما حللت الاصوات إلى عناصرها الأولية وأشير إلى كل عنصر منها بعلامة ومن تركيب هذه العلامات أو الحروف تألفت الكلمات

واللغة هى البذرة فى الثقافة . والثقافة هى النتاج الحى لتفاعل عقل على آخر ومحصول الافكار والمشاعر ونواحى النشاط المشتركة بين العقلين . وبدون العمل لاتكون هناك ثقافة ولا تقدم فى الذكاء . لذلك كانت الثقافة ضمن التقاليد الاجتماعية التى اعتادها الانسان ببطء وثبات وبانتشارها جعلت الانسان يمتاز على بقية المخلوقات

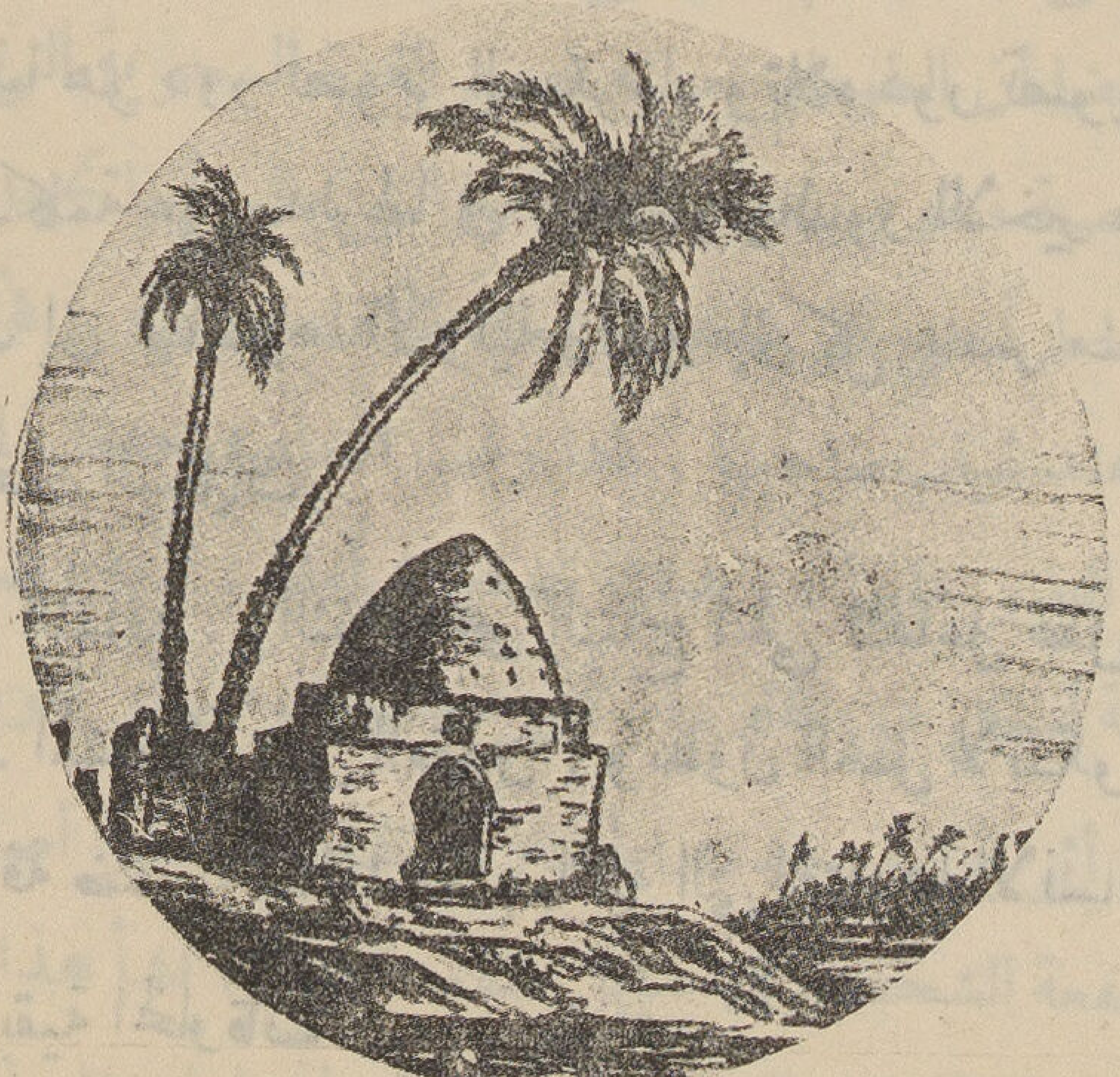
نشأ الفن من أصول سحرية ، فكان الانسان يقوم بالتصوير معتقداً أن قوة الصورة تعطى

قوة للواقع . فلكي يكون الصيد ناجحا كان الانسان يكرر رسم الحيوان الذي يريدصيده ظنا منه بان ذلك يؤدي إلى وفرة الحيوان ، أو يرسمه هالكا أمامه معتقدا أن ذلك يتحقق فى الصيد

وكذلك نشأ النحت من أصول دينية . فكانت تصنع تماثيل الآلهة وأوثان الاسلاف على شكل خشن . لم تكن رموزاً إنما كانت الاثواب أو المساكن التى تتقمص فيها الارواح . لان الروح قد تحل بأي مكان وفقا لرغبتها . فى النبات أو الحيوان او الحجر . لذلك مثلت رواح الاسلاف فى صور ساذجة لتعكس خواصهم بصفة رمزية . وعلى توالى الزمن وجد الانسان لذة نفسية فى أعماله التقليدية فاعجب بها لاتقان صنعها وجمال شكلها ومن ثم أخذ الفن يتخلص من الصنعة والدين

وقد نشأ الشعر ايضا من الدين ، فكانت قصص الابطال الاولى قصصا شعرية تطورت إلى ميثولوجيات دينية . وكذا نشأت الدرامة من فكرة التقمص ، أى حلول روح انسان أو حيوان فى جسم الانسان ، فتتكلم وتعمل خلاله . ولذلك صنعت الاشكال الاولى للاقنعة ليلبسها الانسان ، فيقوم بدور الحيوانات المختلفة حقيقية أو خيالية

كان لطقوس العبادات الدينية الاولى مظهر فنى ، فكان القداس الذى يقام للآلهة ترتل فيه حياة الآلهة والادوار المختلفة التى تقمص فيها . وكان الكهنة يقلدون الحالات الموصوفة . وعندماينتهى القداس يعتقدالمحتفلون أن روح الاله ستتضاعف فيهم



عقيدة الالوهية

للدكتور ا. زكى ابو شادى

ان التعليم الطبي يؤدى حتما الى شىء من الصراع مع الدين . وقد لحظت منذ نشأتى ان كثيرين من الاطباء تتزعزع عقائدهم الدينية ثم يتزعزع نهائيا ايمانهم الالهى . ومنهم من يدعي التوفيق بين العلم والدين ، ولكن اختبار دعواهم يظهر عجزهم عن هذا التوفيق ، وما سبب ذلك الا ضعف ايمانهم الفطرى وسطحية نظراتهم وفقدان الشجاعة الكافية لايجاد هذا التوفيق المنشود ، مادام الدين ظاهرة اجتماعية كائنة فعلا وواجبة التقدير

وقد كان شأني شأن الجندى الجرىء الذى يجد الصفوف قد افتقدت الرائد فيتطوع مندفعا للقيام بهذه المهمة التى ربما لم يكن كفؤا لها ، ولكن غيرته الفطرية تزجيه وشجاعته تسنده . وكنت أجد تشجيعا غير قليل من أستاذى المرحوم السيد محمد رشيد رضا الذى كنت أكاتبه وأكاتب مجلته « المنار » حتى إبان اقامتى فى انجلترا . وكان هذا الامام الجليل يشجعنى دائما وان خالف آرائى مرات ، ولكنه كان يعنى بجوهر سعيي للتوفيق الصحيح بين العلم والدين فى شجاعة لاتنافى الرشد والاتزان

وسأجعل حديثى الآن متناولا مسألة المسائل الدينية والصوفية ألا وهي : « عقيدة الالوهية » فأقول انه لولا ايمانى بها لما تحمست متطوعا هذه السنين الطويلة للاشادة بها وتفسيرها قدر طاقتى ولى هذه الابيات المعنوية « العطف الالهي » من ديوان « الشفق الباكى » فهى من اعترافاتى الوجدانية الصريحة :

وأحس أنى فى اندماج دائم ... بالكون ، والكون العظيم حياتي
أتأمل الساعات فى أجرامه ... وكأننى متأمل مرآتى
وأنال عطفاً من جميل حنانه ... يسرى الي روحى بغير فوات
حسّ خفى لست أدرك كنهه ... وكأنما هو معجز الآيات
بلغ الضمير ، وكان خير مؤذن ... بالله فى ملكوته لحياتي

وهذا الاحساس هو من دوافع شغفي بعلم الفلك وترددي على المراصد . لأني أجد في ذلك عبادة صوفية واستغراقا في معاني الالوهية . ولولا هذا الاحساس لما تأملت وفسرت ، فالشعور الديني ليس عقليا فحسب بل لابد له من استعداد وجداني ، وهذا التأمل الصوفي هو ما نعته الغزالي بالنظر الى وجه الله

* * *

إن فلسفة عقيدة الالوهية في نظري مردها الى نتيجة إحساس الجزء بالكل ، وسامحوني على لغتي الصوفية فلن أجد غيرها مسعفا في هذا المقام

واذا توسعنا في هذه النظرة فيخيل الى أن تمجيد الابطال متفرع عنها أو هو صورة منها ، لان البطولة شمول وعظمة بحيث أن البطل في نظر مقدريه — ان لم أقل عابديه — هو رمز للقدرة الغلابة الفائقة ، وبعبارة أخري أنه رمز الشمول . ولذلك نجد تمجيد الابطال الوطنيين والدينيين وغيرهم يكاد يبلغ عن غير وعي مرتبة التأليه ، خصوصا اذا كان البطل ميتا ، حتى ربط بعض الباحثين المتعمقين مثل جرانت ألن والاستاذ هالدين نشوء الآلهة عند الوثنيين وظهور القديسين عند غيرهم بعبادة الموتى . ومن العجيب أن النفس البشرية شديدة الميل الى تقديس الموتى والانحراف بذلك انحرافا عظيما عن جادة التوحيد والمنطق السليم . وحتى في ضوء الدين الاسلامي الذي يعد المثل الاعلى في صراحة التوحيد نزع الدهماء من المسلمين بالرغم من أصوله الصريحة الى تمجيد الاولياء تمجيدا يخالف روح الاسلام ، مما ألجأ المصلحين أمثال محمد عبده ورشيد رضا والمراغي وسواهم الى محاربة هذه البدع التي تكاد تؤدي الى الاشراك بالله

من هذا أنتقل الى التنبيه الى أن عقيدة الالوهية من الناحية الفلسفية العلمية هي ظاهرة سيكولوجية ، هي احساس الجزء بالكل ، وهي تتدرج تحت اسماء مختلفة من شعور الانسان نحو وطنه ونحو زعيمه ونحو الانسانيه مثلا الى شعوره نحو الكون بأسره ونحو الالوهية الشاملة والمطلقة

واذن فعقيدة الالوهية عند معتنقيها ليست وهما حتى ولو كان تفسيرها عند بعضهم وهما ، فالاحساس بالالوهية قد يكون واحدا « وان تدرج » عند أصحاب الديانات المختلفه من متمدينين وهمجيين لانها ظاهرة سيكولوجية متماثلة المنشأ ولكن تفسيرها يختلف بينهم جد الاختلاف ولو كانوا جميعا مخلصين في ايمانهم

يقول الاستاذ برتجل باتيسون فى كتابه « فكرة الله فى ضوء الفلسفة الحديثة »
ان احساسنا بهذه الفكرة دليل على وجود الله ، وهو يعتمد فى تدليله على ظهور الغرض فى النشوء وفي رأيي العاجز أن هذا التدليل ليس قويا وان جاء من أستاذ الفلسفة فى جامعة ادنبره ، وكان الاولي به أن الاحساس بالالوهية عند أغلبية الناس دليل على فطرية هذا الاحساس وانه على تكيف هذا الاحساس تتكيف معاني الالوهية التى تختلف جد الاختلاف حسب ثقافة الناس وطبائعهم ومؤهلاتهم وبيئاتهم

وهذا الاستاذ سورلى أستاذ الفلسفة الخلقية فيجامعة كيمبردج يرى أن يقرن فكرة الالوهية بالمثالية الخيرة للوجود (راجع كتابه القيم الخلقية وفكرة الله) كما ان الاستاذ أ. ن. ألكسندر يرى ان الالوهة هى مثالية سائرة الى الكمال !

ومثل هذه النظرات الفكرية لمعاني الالوهية لاتتمشى مع معظم الديانات السائدة التى تنزه الله سبحانه وتعالى عن ايمان الاستاذ ألكسندر على الاقل ، ولكنا مع هذا ليس لنا ان ننكر فى حد ذاته قد لايقل فى حرارته من ايمان مخالفيه

* * *

ان ما يعنينى هنا هو أولا التلخيص لاحدث الآراء الفلسفية اللاهوتية ثم التعليق عليها بآرائي الخاصه التى تؤيد أن الايمان بالله يتمشى مع العلم ، على اعتبار انه ليس سليل الوهم أوالجهل او الفلسفه الخاطئه

لهذا لن اذهب بعيداً الي فلسفة أرسطو وما بنى عليها من التدليل على وجود الخالق المكشكة خاصة ، فلن يقبل العلم ولا الفلسفه الحديثه شيئا من ذلك. وحتي فىالقرن السادس عشر لم تعدم انجلترا جمعية للعقليين بين اعضائها كرستوفر مارلو وولتر رالى، وقد رفضت الترويج لتلك الآراء السطحية وان اتسمت بسمة الفلسفة

وكان لدراسات جون لوك فى سنة ١٦٧٢ للذهن الانسانى ماقضى علىالآراء القديمه اللاهوتيه سواء استمدت فلسفتها من أرسطو ام افلاطون . وقد انتهت ابحاث لوك الى انهلاتوجدفكرة فى الذهن الانسانى الا وكانت مكيفة من الوسائل التى تدلى بها المشاعر الانسانيه . وجاء هيوم فعزز اللاأدريين ثم جون ستيوارت مل فلم يحكم بالمعرفة الا المشاعر وحدها ثم سبنسر فصرح بأن القوة الاساسية للعالم غير معروفه ولا يمكن معرفتها

وقد أتحفت « لجنة التأليف والترجمة والنشر » قراء العربية بترجمة كتابين نفيسين أحدهما « عرض تاريخي للفلسفه والعلم » تأليف أ. وولف استاذ المنطق بجامعة لندن ، والآخر « فلسفة المحدثين والمعاصرين » للمؤلف نفسه ، ففي وسع كل منا تصفحهما وتصفح أمثالهما للوقوف على تفصيل ما اجمله في هذا المقام

ومن الضروري الاشارة الى ظهور طائفة من الفلاسفة المؤمنين بين الانجليز ، وهم تلامذة الفلاسفة الالمان أمثال كانت ونخت وشلنج وهيجل وشوبنهاور وهارتمان ولوتز ، ولكن آراءهم لم تصمد أمام التقدم الفلسفي العالمي وان بقيت الآن بعض آراء لكانت وهيجل ولوتز في صورة منوعة . وأهم هؤلاء الاعلام بلا جدال هو كانت وقد كان — على حد تعبير الاستاذ وولف — شديد الاحترام للنتائج التي وصل اليها العلم الطبيعي بحيث لم يستطع رفض كل ماتذهب اليه تلك النتائج على الوجه الذي يدعو اليه مذهب هيوم التشككي الذي كان يقول انه كلما تعمق فيما يسميه نفسه تخبط وتعثر في بعض الاحساسات ولم يستطع أن يقبض على نفسه أبدا ، وكان يعتبر كل مايبدو حقيقيا مجموعاً متعددا من التأثرات والآراء المتقطعة التي يكسبها تداعي المعاني مظهر الحوادث المتسلسلة . ويخيل لنا أن مادتها ثابتة لخطئنا في الظن بأن التأثرات المماثلة لتأثرات سابقة هي بعينها ، وكل مايوثق به هو تيار التجارب المتغيرة حتى الرياضيات نفسها ليست يقينية وأقصى مايمكن افتراضه لشيء هو الاحتمال . كان الفلاسفة المؤمنون في العصور السابقة يعتزون في التدليل على الالوهية بالطبيعة نفسها وبمظاهر الدنيا في ذاتها ، فعندهم أن الاسباب الثانوية تدل على السبب الاول ، وأن النظام الكوني يدل على العقل الغير المحدود ، وأن الجمال في العالم يشير الى الروح الاعلى . ولكن كانت قضى على هذا الطراز من المنطق وأحل في موضعه طرازاً من التعليل العلمي مقسما معارفنا جميعها الى موضعية وذاتية في عناصرها

وينوه الاستاذ وولف بجدة الطريقة التي اتبعها كانت دفاعا عن العلم ، وهي طريقة « التجريد » التي كانت تطوراً بيناً للمذاهب القديمة عن « الافكار العامة » و« الحقائق الخالدة » و « الآراء المستكنة » ، فقد كان كانت يرى أن موضوعات العلم نتيجة لعاملين : الاشياء المحسوسة وهي مستقلة عن العقل ، وبعض صور وارتباطات يقدمها العقل . وهذه الصور الآتية عن الالهام كالزمان والمكان) والعلاقات والمقولات الفكرية (كالجوهر وعوارضه ، والعلة والاثر الخ) هي أوليات سابقة من حيث أنها لا تكتسب بالتجربة إذ التجربة نفسها تستحيل بغيرها . ومن جهة

أخرى نجد مادة الحس لاحقة أي أنها تجيء فقط عن طريق التجربة وان تكن لاتأتى على ماهى عليه بالفعل بل متغيرة بالصور والمقولات السابقة ولاتصل المعرفة البشرية الى حقيقة الاشياء نفسها بل الى مظاهرها ، واستخدام الصور والمقولات الاولية فى كل مايقع فى دائرة التجارب البشرية حق مبرر بل هو فى الواقع أمر لامفر منه ، ولكنها يجب ألا تطبق على مايتجاوز تلك التجارب ، فالله والحياة الآخرة مثلا أبعد من متناول التجارب الانسانية ، واذن فلا يمكن أن يكونا موضعاً للمناقشة ، فهما لايمكن إثباتهما ولانفيهما ، ولايمكن الايمان بهما على أنهما من الاعتقادات التى تقوم على أسس نظرية بل على أسس عملية . وعلى هذه الاعتبارات العملية بنى كانت الاعتقاد بوجود الله وحرية الاختيار والخلود . فهذه الاعتقادات مسلمات تحتها أصول السلوك العملى المطلق ، كما أن الوجود الحقيقى لعالم الاشياء على صورة ما من المسلمات التى تحتمها النتائج النظرية للعلم

ولكن هذا التدخل العملي الذي قدمه كانت لم يؤثر الا على قليلين لان أساسه العلمى ضعيف بخلاف نقده للتعقل الخالص فقد كان له أثر بليغ على الافكار فى القرن التاسع عشر ، وهكذا اضمحلت آراؤه كما اضمحلت آراء سابقيه ممن لم تصمد تعاليمهم للتطور العلمى وحقائق البحث النفساني

ولابد لنا من وقفة أمام ألمعية الفيلسوف الالمانى هيجل الذى تأثر به أمثال بوسانكيه وكروتشى ، فقد انتهى هيجل من تأملاته الفلسفية الى أن العقل والطبيعة المادية هما « المطلق » بذاته لامجرد مظاهر أو دلائل علي مطلق مجهول ، وفوق ذلك فليس العقل والمادة حقيقتين متميزتين ولكنهما عنصران تتكون منهما عملية افصاح المطلق عن نفسه ، وبعبارة أخرى ان الفكر والحقيقه شىء واحد ،وليس ثمه غير حقيقه واحدة هى مايدعوها « المطلق » وان هذه الحقيقه الروحيه هى مرادف « الالوهية »

ومع كل هذه التفاسير الفلسفية أخذ الشك أو الالحاد يطرد لان المتعلمين لا يعنيهم أقل من الايمان بأن خلف هندسة الوجود عقلا الهيا منظما ضابطا ، وعلى وجه هذه الطبيعة المسحة الالهية البارة . فاذا لم يوقنوا بذلك انتفى ايمانهم حتما

وازدادت العلوم تقدما فازداد الايمان تضاؤلا بين المتعلمين ، لان التعليل العلمى للألوهية أخذ ينهزم ، واكتفى المفلسفون بالكلام عن « الحاسة الدينية » كبرهان وجدانى على وجود الله

وما يعنون بذلك الا مزج العاطفة بالعقيدة الموروثة ، وما كانت العاطفة فى اعتبار السيكولوجية برهانا ايجابيا على وجود الشىء

أما فى أمريكا ففلاسفتها الذين يعنون بالديانات يصرحون اما بأن العقيدة الالهية ليست عنصرا ضروريا من الدين ، وأما بتصويرها مطابقة لمثالية أو لفكرة مجردة أو لروح مبهمة للعالم (يراجع كتاب الفلسفه الامريكيه المعاصرة فى مجلدين ومؤلفات جوزيف ما كابى) . وأما فى الفلسفه الانجليزيه فلدينا الاستاذ تيلر يعلن بوضوح ان الفلاسفه المتدينين يرفضون الان فى جملتهم التعليل من نظام الوجود وجماله وقانونه وهندسته الطبيعية ويؤثرون الاهتمام بما ينعتونه « القيم » أو « المثاليات » معتبرين هذه القيم جوهر الاشياء ، قائلين ان العقل فى حالة خاصة من حالاته أشبه بحالة الصوفيين (أى بنوع من الكشف والشهود) يرى « الحقيقة » « والقيم » شيئا واحدا . والاتجاه الفلسفى الحديث عند هؤلاء أميل الى اعتبار « القيم العليا » عينية أكثر منها معانى نفسية أو عقلية ، ولو أن الفلاسفة مختلفون فى تفسير معنى « العينية » التى توصف بها هذه «القيم» وأما فكرة الالوهية الكلاسيكية فضائعة وسط هذا التفكير ضياعا تاما

وهذا الاستاذ كار فى كتابه « الارضية المتغيرة للدين والاخلاق » يدعى أن الرياضيين والطبيعيين ببحوثهم قد جعلوا من الصعب المزداد عسرا تعيين مكان الله فى تنظيم الكون وهندسته! أما الاستاذ برنجل باتيسون فقد أشرت الى وقوفه عكس هذا الموقف اذ يدلل على وجود الله بمحض احساسنا بفكرة وجوده ، وعندى ان كلاهما مخطىء لان أساس بحثهما فى ذلك وهمى على ما سأبينه بعد

وليس شك فى أن عدد العلماء الذين يؤمنون بالالوهية العرفية الآن أقل من عددهم منذ ربع قرن مضى ، وليس بينهم أحد من نوابغ العلماء المنتسبين للجيل الحاضر مثل جوليان هكسلى أو اينشتين ، فان هؤلاء ينظرون الى الالوهية نظرة تصورية مثالية تخالف العرف تمام المخالفة

كذلك لبس شك فى أن أنصار الفلسفة المادية لم يقلوا فى هذا القرن عددا من امثالهم فى القرن الماضى ، وما رأى هيكل فى كتابه « لغز الوجود » الذى عزره بخترعن ان المادة والطاقة هما واجهتان للمجهول لا مقدمة التنبؤ عن الحقائق الطبيعية التى كشفها القرن الحاضر والتى زادت الفلسفة المادية تمكينا وان لم تكن هذه الفلسفة مرتبطة بأية نظرية بالذات

وكثيرون من هؤلاء الماديين يرون ان التفاعلات الكونية لا تشعر بوجود الله على الاطلاق

سواء من بداية السدم الى نشوء الكواكب الي بلوغ الانسانية منزلتها الحاضرة الممتلئة بالتناقض والمفاسد كما يعتقد اولئك الماديون

وقد نشأ عن سريان هذه الحركة قيام مثل الاستاذ هفدنج (وهو فيلسوف دعركى متشكك) بالدعوة منذ ربع قرن الى الاهتمام « بالقيم » بدل « الحقائق » ، وبعبارة أخرى انه يرى الاحتفاظ بالدين لصفاته الخلقية والعاطفية وبذلك وضع فكرة الله فى موضع ثانوى أو طرحها كلية وقد أشرت الى قيام فكرة « المثالية » أو « التصورية » فى أمريكا مقام فكرة الله العرفية . وعلى هذا النحو ينحو ولز والاستاذ ودز الذى يجهر بأنه يعد الالوهية مرادفة للروح الاجتماعي الممثل وهناك طائفة من الفلاسفة المحدثين أمثال الاستاذ امز والاستاذ أوفرستريت ترى أن الله هو صورة ملايين البشر وانه كائن حى يمثل خير مافى البشرية . وعلى هذا القياس يمكننا بسهولة ان نوافق جوزيف ماكابى على قوله ان ثمة مالا يقل عن عشرين الهاً مختلفا للاديان الفلسفية ، كما ان ثمة نظير هذا العدد للاديان الاخرى !

وكما أنه لا يخطر فى بال أحد الآن فى البيئات الثقافية العالية أن يستدل علي وجود الله من مجرد وجود النظام أو العدل أو الجمال فى الوجود ، فكذلك لا يحلم أحد بهذا الاستدلال من مجرد الاحساس الدينى ، لان العقيدة الدينية مغروسة بحكم البيئة والوراثة وتزيدها العواطف حرارة وحماسة . كذلك لا تحس البيئات العلمية بالحاجة الى العقيدة الالهية ، وتؤمن بأنه لو أغلقت أماكن العبادة عشر سنين مثلا واختفى رجال الدين هذه المدة لما أحس بذلك أحد ، ولنشأ جيل جديد لا حاجة له بغير القوانين الحكيمة والنظم الاجتماعية المفيدة ، ولا هم له الا نشر العدل والاخاء والسعادة بين الناس ، ولما فكر أبدا فى معنى الله بل لاستغرب لهذه الفكرة عندما تعرض عليه . .

والواقع انه حتى فى هذا الجيل تثبت احصائيات الكنائس أن ثلثى من ينتسبون الي المسيحية هم عمليا بعيدون عنها ولا صلة لهم بأية كنيسة ، ومع هذا لا يمكن مطلقا لأى بحاثة اجتماعي أن ينكر ان الانسانيه الحاضرة سامية فى أخلاقها وان كانت غير متمسكة بأديانها الموروثة وانما ينصب تمسكها على الاستفادة من تجاريب الحياة التى تعتبرها مصدر الهدى الوحيد الجدير بالاحترام

يقول جوانز هوايت فى كتابه « ديانة العقل الحر » ان الاداب جزء صميم من قصه النشوء، حينما الديانة على العكس منشؤها الخوف . وقد ولدت فى بداية التنبه الذاتي حينما بدأ الانسان يتحسس

كالاعمى فى تيه من الخرافات . وان الخوف من الخافى المجهول هو شعلة جميع الاديان ، فاذا ما طرح الانسان هذا الخوف جانبا فان ذهنه حتما ينقى . ومثل هذا الرأى نلمحه عند الاستاذ هالدين فى كتابه « الحقيقه والعقيدة » كما ان لالدوس هكسلى فصلا بليغا في كتابه « دراسات لائقه » عن « أبدال الديانات » أشار فيه الى انحطاط الدين في الغرب والى قيام حركات وطنيه وسياسيه واجتماعيه وفنيه وغيرها استوعبت اهتمام الناس الى حد كبير أو صغير واقترنت بشيء من الطقوس التى أنفوها فى الحركات الدينيه وأشبعت مشاعرهم بدرجات مختلفه ، فلا غرابه بعد ذلك اذا اشتد انصراف الناس فى الغرب عن الديانات الموروثه وحتى عن العقيدة الالهية فى ذاتها

* * *

لقد عرضت المامة عن اتجاه التفكير الحديث فى الغرب بشأن عقيدة الالوهية . أما رأيي الشخصى فى هذا الموضوع فقد اسلفته من قبل وان يكن فى ايجاز ، وقد نشر فى رسالة لى بعنوان « مذهبى »

ولما كنت عميق الايمان راسخ العقيدة فاني بكل ارتياح لبيت الدعوة للافاضة بهذا الحديث وزيادة البيان عن دخيلة نفسى ازاء هذه التيارات المتضاربة

وانى أكرر أن الشعور بالالوهية فى اعتباري ليس مسألة خوف او جهل على ما يرى بعض المفكرين الغربيين بل هى مسألة فطريه سيكلوجيه مبعثها احساس الجزء بالكل ، وهل نحن فى المعنى التصوفى الا ابناء الله ؟ ولولا هذا الاحساس لما قال الحلاج كلمته المشهورة التى اودت بحياته ، لان بيئته لم تفهمها فأساءت تأويلها وجنت عليه شر جناية

اما عقيدة الالوهية الخاطئة فى بعض الاديان فقد تكون ناجمة عن خوف او جهل ، ولكن لاشأن لى بمثل ذلك ، اذ انما أتكلم عن الاحساس الاصيل لا عن التقليد الموروث

ويطيب لى تكرار الاشارة فى حديثى ومحاضراتى الفلسفية الدينيه الى آية الكرسى المعدودة من جواهر القرآن الشريف ، فان هذه الآية الكريمة فى نظرى مفتاح التصوف الاسلامى وباب الالوهية الحقه ، ولو أن الاسلام تقليديا معدود بمعزل عن التصوف . ولكن هذه الآية تملؤنى احساسا بوحدة الوجود ، واعتقاداً تاما بأن الاسلام لا يفصل بين الله والعالم كما تفعل بعض الاديان ، وقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام يتقشف ويتصوف معتزلا فى جبل حراء عابدا الله فى ملكوته

فعقيدة الالوهية فى ضوء الاسلام لاتخالف العلم السليم ولا الاحساس النفساني النقى ، وهي بعيده كل البعد عن الخوف أو الخرافه او الجهل لانها تقوم علي ركنين أولهما الاحساس الصوفى الفطرى: احساس الجزء بالكل ، وثانيهما وحدة الوجود التى تشع عليها آية الكرسى فتظهرها لنا بشكل وضوح . ومن الآيات القرآنيه التى ينبع منها التصوف قوله تعالي : « فأينما تولوا فثم وجه الله » « سورة البقرة آيه ١١٥ » وقوله : « واذا سألك عبادى عنى فاني قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعانى » « سورة البقرة اية ١٨٦ » وقوله : « الله نور السموات والارض » « سورة النور آية ٣٥ »

فهل لنا نحن المسلمين بعد ذلك اى حاجة بذلك النقاش البيزنطى بين المفكرين الغربيين الذين تجاهلوا الاعتبارين السالفين وحصروا تفكيرهم فى نواح بعينها ؟ ثم أليس فيما عرضه بعضهم من تفاسير مثاليه ونحوها مايندمج فى الركنين السالفى الذكر ؟

ان تأملاتي ودراساتي الطويلة تجعلنى اعتقد أنه لايمكن التخلى فى النفس البشرية عن عقيدة لالوهية ، وانما من الجائز تحويل هذه العقيدة وقتياً او تعويضها « كما اشار الى ذلك ألدوس هكسلى » تحت تأثير الحيرة او الضغط الاجتماعى او نحوه . ولعلي بهذا البيان قد اقنعت القارىء ان الايمان الآلهى لايتعارض بأى حال وتفهم قوانين الحياة واستلهامها لخير الانسان ، بل أرى ان الاسماء والصفات المنسوبة الي الله سبحانه وتعالى هي فى الواقع رموز الى العوامل المختلفه التى اطلقها فى هذا الوجود لتكييفه وتنظيمه بين هدم وبناء وتبديل وتحويل على قاعدة الاسباب والنتائج ، وكثير منها رموز لايجوز ان نسيء تفسيرها . وظاهرة « النبوة » ذاتها خاضعة للحقائق العلمية النفسية كما أوضح ذلك فيلسوف الاسلام الفارابي

ونحن اذ نبتهل الى الله سبحانه وتعالى وإذ نصلى يجب أن نعلم أن الله جل شأنه ليس بحاجة الى شيء من ذلك ، فان الزهو صفة آدمية وليس صفة ربانية ، وانما نحن المستفيدون من الابتهال والصلاة لان فى ذلك تقوية لمعنويتنا واشعارا لنفوسنا بالواجب علينا . وقد تعالي الله عن أن يبدل قوانين الوجود الدقيقة التى سنها لنظامه البديع إكراما لخاطر أحدنا إذ معنى ذلك اضطراب الوجود بل خرابه ، وانما نتيجة الابتهال والصلاة تقوية احتمالنا وتهذيب مشاعرنا وشحذ تفكيرنا لما فيه الخير والصلاح حسب نواميس الوجود لاخلافاً لها . وحتى مانسميه الحظ انما يتبع قانون الارجحية ، وكلما اتسع نطاق الكشف العلمى ازداد ايماننا بصيرة بمعاني الالوهية السامية وبقوانين الحياة ونظام

لوجود . كما أن الاشراق الصوفى و « لذة الانس بالله » ليس خلفهما سوى التأمل الكونى العميق وارهاف الاعصاب وتقوية الحدس ولايمكن ادراك الله سبحانه وتعالى الا بالحس الصوفى الذى يسنده العلم الفلسفى لا بالعلم ولا بالفلسفة وحدهما . وقد يساعد كل أولئك على قراءة الافكار وتقدير العواقب لا على مجرد التنبؤ بالمستقبل والكشف والالهام مهما كان التوغل فى التأله

كثيرا ماذكرت فى أحاديثى الدينية أن الاسلام يعتمد أساسيا على التقوى والعلم ، واذا كان اخواننا اليهود بالرغم من روحهم المحافظة لم يترددوا فى تفسير التوراة تفسيرا علميا ، فما أحرانا نحن بذلك وهذا كتابنا يوحى بالتفكير والتأمل فى كثير من آياته

وهذا القرآن الشريف فى جميع أجزائه يتمشى مع العلم الصحيح لمن أراد أن يفهمه على هذا الوجه من ذوى الالباب ، وان فهمه العامة غالبا فهما آخر بالنسبه لرموزه الدقيقة وذلك على قدر عقولهم . بل كذلك الكتاب المقدس قابل للتفسير العلمى الشامل وقد وفق الى ذلك علماء الغرب اللاهوتيون توفيقا عظيما ، فغير معقول أن يكون القرآن الشريف دونه صلاحية لهذا التفسير الذى يجب أن يشمل كل شىء من عرفان صفات الله تعالي الى جميع الشؤون الانسانية . والمعرفة الصحيحة تأتى عن طريق البحث العلمى والتذوق لفلسفة الدين لا عن طريق الاشراق وحده ولو كان صاحبه السهروردى . أقول هذا وأنا أعرف قدر التصوف كما أسلفت

ليس الاحساس بوجود الله دليلا على وجود الله كما يدعي الاستاذ برنجل باتيسون من ناحية المنطق ، كذلك ليس التدليل على أن لكل شىء صانعا ماينتهي بنا الى اثبات الخالق ، وان توهم ذلك كثيرون من المعلمين فى تآليفهم المدرسية المفسدة لاذهان التلاميذ إذ لابد لهذا المنطق الغريب من أن يؤدي الى سؤال كفرى عن الصانع نفسه ولاقيمة الآن لحجج أهل الظاهر الذين طالما ابتلى بهم وبجمودهم الحكماء والعلماء فى سالف العصور

ان صفات الله المكشوفة لنا ليست جميع صفاته تعالي بل لعلها لاتتعدى صفات العوامل الكونية الضابطة للوجود باعتبار هذا الوجود كائنا دوريا ، ولمظاهر الطبيعة جميعها وحقائقها متمشية مع تلك الصفات أو العوامل . والطريق العلمى الممهد لتعريف الالوهية هو الطريق السيكوجى لانه حقيقة واقعة فطرية ليست بأى حال نتيجة الوهم أو الجهل ، وأعنى به احساس الجزء بالكل واجتذابه اليه

الثورة الفرنسية

أسبابها ـ سلوكها ـ أغراضها

لقد مضى على الثورة الفرنسية نيف وأربعين ومئة سنة ومازالت ميدانا خصبا للمؤرخين ومادة واسعة للباحثين وأخرجت عنها مئات الكتب والابحاث . ذلك لان الثورة الفرنسية حادث عظيم في تاريخ البشرية تسبب من جرائها انهيار عروش الاستبداد وحد شوكة الملوك والاشراف وتعميم رسالة الثورة المبنية على الحرية والاخاء والمساواه . . . وما صاحب الثورة الفرنسية من تحالف الدول الرجعيه على فرنسا الناهضه وتضافرها علي خنق الثورة التي اقلقت رجال الاستبداد وما تسبب عن الثورة من قيام نابليون بونابرت وحروبه الشعواء وتكوينه امبراطورية شملت معظم أوربا وخضوع معظم ملوك اوربا له والحروب الطويلة التى اشتبك فيها مع أعدائه والصراع المنهك بينه وبين بريطانيا . ثم مانتج من انتصار مبادىء الحرية وانهزام الرجعية بعد أن حاولت القضاء على كابوسها المريع اعنى الحرية . والسياسة التى جرى عليها زعماء الاستبداد من القضاء علي الثورات بالتدخل فى شئون الدول وأمورها . ولكن الفصل الاخير بين الحرية والرجعية انتهى بسحق الثانية وانتصار الاولى فقامت الجمهوريات محل الملوكيات واضطر الحكام ان يمنحوا الشعوب الدستور وان يحترموا ارادة الامة وان يخدموها لا أن يخدموا مصالحهم الخاصة

كل ذلك نتج عن الثورة الفرنسية أعظم حوادث التاريخ بلامبالغة أو تهوين

وقبل الكلام على الثورة الفرنسية وما صاحبها من حوادث وأحداث يجب علينا أن نذكر كلمة مختصرة عن حالة فرنسا قبل الثورة والعوامل والظروف التى أدت الى الثورة

النظام القديم

يطلق على الحالة السياسية والاجتماعية لفرنسا قبل الثورة لفظ « النظام القديم » . ويمتاز المجتمع الفرنسى القديم بعدم المساواة بين السكان وعدم اعتراف الدولة بغير الدين الكاثوليكى دينا رسميا للدولة

١ — الملوكية : ابتدأت الملوكية الفرنسيه من القرن العاشر بنظام ديمقراطى لـكى تتمكن من حكم الاشراف حتى أصبح نظام الحـكم استبداديا وذلك من حكم فرنسوا الاول ثم فى عهد لويس الرابع عشر صاحب الجملة المشهورة « أنا الدولة والدولة أنا »

كانت الحـكومة مطلقه ليس للشعب رقابة عليها يديرها الملك بالاشتراك مع وزرائه . على أننا يجب أن لا نغالى فى تقدير سلطه الملك فقد كانت محدودة بالامتيازات المختلفة الـكثيرة الممنوحة لطبقات الشعب . زيادة على ذلك كان هناك نوع صغير من البرلمانات غير أن الملوكية وخاصة فى أواخر عهد لويس الخامس عشر أخذت فى الضعف وأصبح الملك تحت تأثير رجال الحاشية وجميلات النساء . وكانت نفقات الحاشية طائلة . وكانوا يتمتعون بحق سجن أعدائهم بواسطة أوراق على بياض يعطيها الملوك لمن نال الحظوة لديهم من الاشراف فيستطيع أولئك القبض على اعدائهم والقائهم فى غياهب السجون وخاصة سجن الباستيل وكانت تسمي تلك الاوراق Leltres des cachets

٢ — الامة : كانت الامة الفرنسية مقسمة الى ثلاث طبقات هي : —

١ — الاشراف ٢ — رجال الدين ٣ — الشعب

طبقة الاشراف : ويبلغ عددها حوالى ١٤٠ ألفا وقد تنازلوا للملك عن حقوقهم الاقطاعية فى القضاء ولم يبق لديهم من حقوقهم القديمة سوى فرض بعض الضرائب الصغيرة على المزارعين . وكان بعضهم يعيش فى الاقاليم فى قصورهم وقلاعهم أو فى بلاط الملك فى فرساى ولم يفرض عليهم من الواجبات سوى الخدمة العسكرية

وكان الاشراف معفون من ضريبة La Tailie وعدد لا يحصى من الضرائب الاخرى . وقد كان اعفاؤهم من الضرائب عبئا ثقيلا على المجتمع الفرنسى ذلك لانهم أصبحوا عالة على بقية الشعب بعد أن كانوا يخدمونه قديما خدمات جليلة من حماية المغيرين من قبائل البرابرة ومن غزوات العرب من الجنوب

وكان الاشراف ذوى كبرياء وعظمة يتفاخرون بالدم الازرق ويأنفون من مخالطة باقى الشعب الفرنسى حتى ولو كان من أعظم الاغنياء . فلا زواج ولا مصاهرة بينهم وبين الطبقات الاخرى يحدون فى ذلك عارا عظيما . وقصارى القول انهم كانوا فى عزلة عن بقية طبقات الشعب الفرنسى

طبقة رجال الدين : وكان عددهم حوالى ١٣٠ الفا وينقسمون الى قسمين : القسس والاساقفة والرهبان وقد كانوا معافين من دفع الضرائب وكان ايرادهم يتكون من دخل الـكنائس والمستشفيات

والمدارس . وكانوا يملكون أراضي واسعة من أيام الاقطاع أوقفت على الكنائس والاديرة . وزيادة على ذلك كان رجال الدين يفرضون على الشعب ضريبة اسمها La dime وكانت أعظم موارد دخلهم وكان لرجال الدين محاكم خاصة

طبقة الشعب : ويبلغ عددها ٢٥ مليونا وكانوا طبقات

١ — الطبقة المتوسطة وهي طبقة غنية متعلمة تقوم بالقضاء والادارة وانما حظر عليها الوظائف العليا في الجيش

٢ — تجار المدن والعمال

٣ — المزارعون ومعظمهم من الملاك . ولكنها لم تكن تتمتع باى مزية وتدفع الجزء العظيم من الضرائب وكانت في أواخر حكم لويس الرابع عشر على درجة كبيرة من الفقر والبؤس

القضاء

وكانت الرشوة متفشية بين القضاة والمحاكم متعددة ولم يكن التشريع واحدا كأيامنا هذه . فالقسم الشمالي من فرنسا يحاكم بالتقاليد الجرمانية والقسم الجنوبي كان يجري على أحكام القانون الروماني لقربه من ايطاليا مهده ولاستعمار الرومان قريبا هذه الانحاء . ففي كل مدينة وقرية واقليم كان التغاير ظاهرا بين القضاء . وكانت العقوبات صارمة وحشية وكان التعذيب أهم الوسائل لحمل المتهمين على الاعتراف

وأخذ الفرنسيون يشعرون بتلك المساويء وبالغبن الواقع عليهم فأخذوا ينادون بالاصلاح والحد من سلطة الملك والمساواة في الضرائب وتوحيد التشريع والمحاكم

على أن أحدا لم يدر في خلده أن هذه المناداة ستتحول في يوم من الايام الى ثورة عظيمة

امتاز حكم لويس الخامس عشر في القرن الثامن عشر بظهور طائفة خطيرة من الادباء والكتاب والفلاسفة عمل بعضهم على بذر بذور الثورة ويهمنا منهم أربعة وذلك لعظيم الاثر الخطير الذى نشأ عن افكارهم وتأثيرها في الثورة . اولئك الاربعة هم

١ — مونتسكيو ٢ — فولتير ٣ — جان جاك روسو ٤ — ديدرو

مونتسكيو

ولد مونتسكيو سنة ١٦٨٩ وكان نائبا في البرلمان عن مقاطعة جيون

وأهم مؤلفاته الخطابات الفارسية وأسباب عظمة الرومان وانحطاطهم وروح القوانين . ويمتاز أسلوبه بالبساطة والوضوح

وأهم كتب مونتسكيو هو روح القوانين فقد قسم الدول الي جمهورية وملوكية معتدلة وملوكيه استبدادية . وأهم ماعرف عنه هو نظريته فى فصل السلطات . ففى كل دولة راقية ثلاث سلطات السلطه التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية . نادى مونتسكيو بمبدأ الفصل بين الثلاث السلطات وجعل مبدأ الفصل مانعا من اساءة استعمال السلطة اذا ماتجمعت كلها فى يد واحدة

ومما يذكر عن مونتسكيو انه اقترح عقد معاهدة دولية لالغاء الرقيق . وقدتوفى سنة ١٧٥٥

فولتير

ولد فولتير سنة ١٦٩٤ وقد كان كاتبا عبقريا ترك لنا مؤلفات تاريخية منها عصر لويس الرابع عشر ولا هنريا . والف عدة درامات أهمها زائير وميروب واكثر من ١٢ الف خطاب وكان عدوا لدودا للكنيسة . قضى جل عمره فى محاربتها والسخرية منها وبالرغم من محاربه الكنيسة الكاثوليكية فانه كان شديد الايمان بالله ولقد قضي فولتير حياته وهو يهدم سلطان التعصب ويشنع على استبداد الحكومة وظلمها . وقضى فولتير أيامه الاخيرة فى قرية فرناى بجوار جنيف وتوفى سنة ١٧٧٨

جان جاك روسو

ولد جان جاك روسو سنة ١٧١٢ وأهم مؤلفاته اميل حيث ذكر آراء جديرة بالاحترام فى التربية والتعليم . وأما فخر مؤلفاته فالعقد الاجتماعى حيث أعلن فيه نظريته فى السيادة « يولد الفرد على اخلاق فاضلة وأن الهيئة الاجتماعية هي التى تفسده فهو لايحتاج فى اول الامر أى فى العهد الفطرى لسلطة عامة اذ هو فى حالة الطبيعة هادىء البال ولكن لما انتشرت المدنيه وظهرت الفروق الاجتماعية من فقر وغنى نشب التنابذ والتنافس ورأى الافراد أن لامخرج من حالة الفوضى سوى الاشتراك عن طريق القصد الاجتماعى فيتنازل الفرد عن حقوقه الشخصية للمجموع بشرط أن يحتفظ بحريته كما كانت من قبل فبذلك تحقق المساواة بين الجميع »

وقد تسلطت آراء روسو هذه على أفكار رجال الثورة الفرنسية بحيث خرج اعلان حقوق الانسان مصطبغا بها

وقبل أن نختم هذا الفصل يجب أن نذكر كلمة صغيرة ندافع بها عن الملوكية الفرنسية فمهما غالى المؤرخون فى بيان مساوىء الملوكية الفرنسية وعيوبها فيجب علينا أن نذكر المجهودات الهائلة التي قام بها ملوك فرنسا من القرن الثاني عشر الى أواخر أيام لويس الخامس عشر فى سبيل توحيد فرنسا بين حروب أوقدوا نيرانها ومصاهرات مع الامراء وزواج مع وريثات المقاطعات الفرنسية وبذلك أصبحت فرنسا مملكة موحدة كاملة ذات سيادة

لويس السادس عشر

فى سنة ١٧٧٤ توفى لويس الخامس عشر فتولى عرش فرنسا حفيده لويس السادش عشر فى العشرين من عمره وكان متزوجا اميرة نمساوية هي مارى انطوانيت بنت امبراطورة النمسا ماري تيريز سنة ١٧٧٠

وابتهجت فرنسا بالملك الشاب فقد كان لويس محبوبا لدى الشعب وكان عادلا طيب القلب نقى الصفات مسيحيا بمعنى الكلمة يميل الى الاصلاح غير ان الملكة والحاشية كانا اكبر عائق له فى الاصلاح . وكانت وزارته الاولى مكونة من رجال مختصين مشهورين امتازوا بالمثابرة على العمل والأمانة . فاختص ترجو بالمالية فأصدر عدة قوانين لحماية الزراعة وقضى على الاوبئة وأكثر من زراعة الحبوب وشجع الصناعه فالغى نقابات العمال التى كانت تمنع العمال من أن يصبحوا أرباب أعمال وأبطل السخرة ضريبة La corvee التى كانت عبئا ثقيلا وعديمة النفع . واعاد بعض الوزراء تكوين برلمان باريس ومنح الملك البروتستانت حرية العقيدة والعبادة وعزم على الغاء Leltre de Cachet الذى كان يسمح للملك بسجن رعاياه بدون محاكمة

ولكن هذه الاصلاحات الحكيمة سببت تذمر الحاشيه فاضطر ترجو الى الاستقالة مما أسف له الملك وقال « لا يوجد سوى المسيو ترجو وأنا لمحبة الشعب »

حرب الاستقلال الامريكية « ١٧٧٨ — ١٧٨٣ »

فى سنة ١٧٧٦ ارادت المستعمرات الانجليزية فى أمريكا منحها حق الموافقة على الضرائب فرفضت انجلترا . فعزمت المستعمرات على الاستقلال فأعدت مقاطعات امريكا وأعلنت الجمهورية تحت اسم الولايات المتحدة الامريكية وعين أحد كبار المزارعين جورج واشنجتون رئيسا للجمهورية وأرسل واشنجتون فرانكلين الى لويس السادس عشر طالبا منه معونة فرنسا فاذن الملك الى لافايت

وروكامبو أن يقودا جيشا من المتطوعين الفرنسيين لمساعدة الامريكيين وبعد ذلك تدخلت فرنسا فى الحرب مباشرة وانهزم الانجليز . وأخيرا أعلن استقلال امريكا واعترفت انجلترا سنة ١٧٨٣ باستقلال الولايات المتحدة بمقتضي معاهدة باريس . وعادت الجيوش الفرنسية الى بلادها تنشر مبادىء الحرية فزادت الرغبة فى الاصلاح وفتحت الاذهان لمبادىء الحرية

غير أن النفقات الطائلة التى انفقت فى الحملة الامريكية اضطرت لويس السادس عشر أن يستدعى المالى السويسرى نيكر . فعزم نيكر على سد العجز بالقروض وليس بالضرائب فاشتهر وأحبه الشعب ولكنه لما رأى خطر طريقة القروض عزم على ان ينهج منهج ترجو فعقد العزم على فرض ضريبة عادلة على جماهير الشعب لافرق بين شريف وفقير . غير أن الحاشيه قاومته أشد مقاومة فاضطر الى الاستقالة سنة ١٧٨١ تاركا وراءه عجزا طائلا ودينا باهظا

ورفض برلمان باريس تقرير الضرائب التى أقرها كالون وبريان خلفاء ترجو وصمم على اجتماع ودعوة جمعية طبقات الامه فأعيد نيكر ثانيه الى الوزارة وأستدعى جمعية طبقات الامة وبذلك بدأت الثورة الفرنسية بمسألة مالية ومما يدل على العجز الشديد فى الميزانية ان الايرادات السنوية كانت ١٦٠ مليون من الفرنكات والمصاريف السنويه نصف مليارفرنك

مجلس طبقات الامة

افتتح مجلس طبقات الامة فىفرساى فى ٥ مايو سنة ١٧٨٩ وعلىحسب العرف السارى انقسم النواب الى ثلاث طبقات : ـ

١ — رجال الدين ٢ — الاشراف ٣ — العامة

ويجتمع نواب كل طبقة فى مكان خاص

وقد قدم نواب الشعب من أول الامر عرائض بطلب الاصلاح تحتوى رغبات الشعب فى توحيد التشريع وحق الامة فى فرض الضرائب والرقابة على المصروفات والغاء ضريبة الرءوس وحرية الفكر والكتابة

وحصل نواب الشعب على صوتين بدون عناء فبذلك تساووا أمام الاشراف ورجال الدين مجتمعين ولكن التقاليد كانت تقضى بان كل طبقة تعتبر طبقة واحدة فبذلك يكون صوت العامة الثانى لاقيمة له . لذلك طلب نواب العامة الاقتراع بالاسماء . فرفض الاشراف ورجال الدين وصمم

نواب العامة على رأيهم قائلين انهم يمثلون ٩٦ ٪ من الامة وأعلنوا تكوين الجمعية الاهلية

تلقاء ذلك أمر الملك باقفال قاعة نواب العامة متعللا باصلاحات ضرورية فيها فتجمع نواب العامة فى فناء ملعب يوم فى ٢٠ يونيه سنة ١٧٨٩ وأقسموا أمام رئيسهم بايلى أن لا يتفرقوا قبل أن يضعوا دستورا لفرنسا. وفى اليوم التالى اجتمع معظم رجال الدين مع نواب الشعب وانضموا اليهم

وفى ٢٣ يونيه ذهب الملك الى قاعة المجلس وأعلن بطلان القرارات المتخذة من النواب واعتبرها غير مشروعة ولكنه وعد بالاصلاح فلن تفرض أى ضريبة الا برضاء المجلس وأنه لن يبذر فى ايرادات الدولة وعزم على اصلاح الادارة والقضاء واطلاق حرية الصحافة والطباعة وقال ان الحرية الشخصية ستحاط بضمانات عظيمة ثم أمر برفع الجلسة فتذمر النواب ورفضوا الخروج وصاح رئيس التشريفات مذكرا النواب بأمر الملك فصاح ميرابو فجأة « اننا هنا بارادة الشعب ولن نبرح أماكننا الا على أسنة الرماح »

دهش لويس السادس عشر من عناد النواب وسمح لهم بالبقاء ودعا الاشراف ورجال الدين الى الانضمام مع مجلس النواب فقال الرئيس بايلى « كملت الاسرة » واتخذ مجلس طبقات الامة اسم الجمعية الاهلية المؤسسة فى ٩ يولية سنة ١٧٨٩

سقوط الباستيل

وتنفست فرنسا الصعداء لعودة الهدوء ولكن الملك أقال نكر من الوزارة فتجمهر الغوغاء وذاع فى باريس أن الحرس الملوكى سوف يحتلها فانتهز الصحافى الفرنسى الشاب كاميل ديمولين هذه الفرصة وألهب بمقالاته النارية صدور الغوغاء فثاروا واستولوا على البنادق والمدافع الموجودة فى الانفاليد ثم هاجموا الباستيل فى ١٤ يوليه فسقط فى أيديهم ودكوه بعد أن قتلوا حراسه «والباستيل حصن أنشىء فى باريس فى ١٣٧ـ١٣٨٢ فى أيام شارل الخامس ثم استعمل سجنا للمسجونين السياسيين»

وأراد الملك أن يخمد الثورة فدخل باريس وذهب فورا الى الجمعية وقبل علم الثورة المثلث وألوانه ثلاثة الابيض رمزا لفرنسا والازرق والاحمر رمزا لباريس. ومن ذلك التاريخ أصبح العلم المثلث علم فرنسا. ووافق الملك على انشاء الحرس الاهلى الباريسى

ليلة ٤ أغسطس

أدى سقوط الباستيل واتحاد الشعب والجيش الى ثورات عنيفة فى الاقاليم فهاجم الغوغاء

مكاتب الحكومة وقصور الاشراف وطردوا جباة الضرائب . وتسلح الزراع ورجال الطبقة المتوسطة . ورأى فريق من الاشراف وعلى رأسهم كونت دارتو المستقبل الخطير المظلم فهاجروا من البلاد . وفى ليلة ٤ أغسطس اقترح الاشراف ورجال الدين التنازل عن جميع امتيازاتهم فابتهج الشعب

حوادث ٥ و ٦ أغسطس سنة ١٧٨٩

غير أن زعماء العامة وشباب الصحافة أمثال كاميل ديمولين ومارا أخذوا يحرضون الجماهير على الثورة . وحدث أن أصيبت باريس بمجاعة فى ٥ اكتوبر سببها نفاد الخبز فتجمع حوالى ٨٠٠٠ امرأة وسرن قاصدات فرساى مقر الاسرة المالكة وتبعهم بعض مئات من الرجال المسلحين وهاجم النساء القصر الملوكى واقتحمن أسواره وبالرغم من دفاع الحرس الملوكى والحرس الاهلي الباريسى بقيادة لافايت اقتحمت النساء ردهات القصر وذبحن من تصدى لهن من الحراس ودخلن على الملكة فى مخدعها . واضطر الملك وعائلته أن يرجع الى باريس وقد أحاطت النساء بالعربة الملكية هاتفات صارخات « لن نموت بعد اليوم من الجوع فعندنا الخباز والخبازة وصبى الخباز » يعين الملك والملكة وولى العهد

وانتقلت الجمعية الاهلية الى باريس فأصبحت تحت سيطرة العامة وتدخل الغوغاء فى أعمالها مما كان له أسوأ الاثر فى أعمالها

أعمال الجمعية الاهلية

وكان أهم أعمال الجمعية فى باريس اصدار الدستور المدنى لرجال الدين وقد عارضه الملك أشد معارضة وكان يقضى بانتخاب القسس والاساقفة بواسطة مجالس نيابية دون تعيين أو رجوع الى البابا . وطلب من الكهنة أن يقسموا علي احترام هذا الدستور . فوافق البعض ورفضت الاغلبية وكان هذا بدأ تاريخ اضطهاد رجال الدين ثم صادرت الجمعية أملاك الكنيسة وكانت مخصصة لمنفعة الكنائس والتعليم والاحسان والدين فلما مست حاجة الحكومة الى المال عمدت الى مصادرة أملاك الكنيسة فثار رجال الدين وأقفل كثير من الملاجيء والمدارس والمستشفيات

وفى أغسطس سنة ١٧٨٩ أعلنت الجمعية حقوق الانسان والموظفين وتتكون من حوالى عشرين مادة أقتطفت من آراء روسو ونحن نأتى هنا بجملها . فنص فيها على أن الانسان يولد حرا وانه ساوى غيره فى الحقوق وأن الفوارق الاجتماعية لا يمكن أن تقوم الا على أساس مصلحة الشعب

وان الامة مصدر السلطات وانه لايجوز اتهام شخص او القبض عليه او محاكمته الا فى الاحوال المنصوص عليها فى القانون وأطلقت حرية المعتقدات والفكر والدين والصحافة ونص على أن الملكية حق مقدس الخ

هرب الملك

فى تلك الاثناء تقرب الملك من ميرابو غير أن الحظ العاثر أبي الا ان يموت ميرابو فى ٢ ابريل سنة ١٧٩١ فعزم الملك على الفرار الى الخارج . ففى يوم ٢٠ يونيه ١٧٩١ خرج الملك مع أسرته سرا حتى وصلوا الى فارن وهناك اتضح أمرهم وقبض عليهم وأعيدت الاسرة الى باريس وسط مظاهر السخرية . فاضطرت الجمعية ان وقف الملك وعينت عليه حرسا خاصا فى التويلرى

وبعد ثلاثة أشهر أعيدت للملك حريته وقدمت الجمعيه له الدستور الجديد « وسمى فيما بعد بدستور سنة ١٧٩١ » فصدق عليه الملك . وقد نص الدستور على أنه لايجوز انتخاب أحد أعضاء الجمعية الاهلية عضوا فى المجلس الجديد مما أفقد البلاد حنكة مهرة رجال السياسة وجاءت الجمعية الجديدة بشباب ملتهب ثائر . ومنحت السلطة التشريعية للملك بالاشتراك مع الجمعية التشريعية . ومنح للملك حق المنع التوقيفي فله الحق أن يعارض قانونا لا يصدق عليه أربعة سنوات متتالية .

والغي الدستور تقسيم فرنسا الادارى القديم فقسمت فرنسا الى ٨٣ مقاطعه متساويه . وقسمت المقاطعة الي مراكز والمراكز الي بنادر والبنادر الى قرى . وفى المالية الغى الدستور النظم القديمة وجعل معظم الضرائب عقارية . وعدل نظام المحاكم والجيش فجعلت الخدمة العسكرية اجبارية .

وجعلت المحاكم أقساما فقسمت الى محاكم للصلح ومحاكم مدنية ومحاكم جنائية ومحاكم استئناف ومحكمة للنقض والابرام . وأدخل نظام المحلفين فى القضايا الجنائية وجعل مناصب القضاة بالانتخاب

الجمعية التشريعية

قدمنا فيما سبق أن دستور ١٧٩١ نص على أن الملك يحكم بالاشتراك مع الجمعية التشريعية . ووظيفة هذه الجمعيه عمل القوانين . وقد كان معظم أعضاء الجمعية موالين للملك وكان هؤلاء يريدون تطبيق النص الحرفى للدستور . وكان باقى أعضاء الجمعية ينتمون الي حزب الجيروند نسبة الي مقاطعة لاجيروند التى كان معظم زعماء حزب الجيروند نوابا عنها وهم جنسونيه وكويديه وبريسو . وكان ذلك الحزب يريد تضييق سلطات الملك

وكان اول أعمال الجمعية مصادرة املاك الاشراف ورجال الدين المهاجرين فاعترض لويس السادس عشر على هذه القوانين مستعملا حق المنع

ولكن الملك وافق على قرار الجمعية التشريعيه باعلان الحرب ضد النمسا التى انتهزت الحوادث لتجزئة فرنسا وابتدأت الحرب فى غير صالح فرنسا سنة ١٧٩٢

حوادث ٢٠ يونيه سنة ١٧٩٢

فانتهز اليعاقبه أعداء لويس السادس عشر « هم حزب ثورى سمى كذلك لان اجتماعاته كانت تعقد فى دير قديم للرهبان الدومنيكان وكان يطلق على هؤلاء فى فرنسا اسم اليعاقبة . وما زال هذا المكان موجودا فى باريس بالقرب من شارع سانت هونريه » وحرضوا غوغاء باريس على الملك . فاتهموه بالخيانة وهاجم الشعب التويلري واجبروا الملك على الموافقة على قوانين المهاجرة وكان ذلك فى ٢٠ يونيه سنة ١٧٩٢ . وقد أظهر لويس السادس عشر جرأة شديدة وثباتا أدهش الغوغاء

فى تلك الاثناء كانت الحرب مستعمرة وتحالفت بروسيا مع النمسا وهدد الاعداء الحدود ثم جاوزوها فاعلنت الجمعيه أن الدولة فى خطر ونادت بالتعبئة العامة فلبى الجميع شيوخا وشبابا نداء الوطن بحماسة وتدفقت جيوش المتطوعين من كل قرية فرنسية

حوادث ١٠ أغسطس

وأخذت الأمور تتعقد وعوامل الثورة تعمل فى سكون واستمر التحريض وعمل اليعاقبه على اسقاط الملك وفى ٢٥ يوليه أصدر دوق برنسويك قائد الجيوش البروسيه منشورا يهدد باريس بالدمار ان اصابت الملك بسوء . فتكونت حالا فى باريس لجنة الثورة وهاجم الغوغاء قصر التويلرى فى ١٠ أغسطس ودافع الحرس الملكى عن الملك دفاع الابطال وقتل معظمهم ولجأ الملك مع اسرته الى الجمعيه التشريعيه فوعدت الجمعيه الملك بالحماية ولكنها أوقفته . وتكون فى باريس مؤتمر أهلى كان أول أعماله سجن الملك وأسرته فى قصر التمبل . وكان دانتون بطل جميع هذه الحوادث وانتقل الحكم الى أيدى زعماء الرعاع . وأصبح زعيم حوادث ١٠ أغسطس دانتون وزيرا

للحقانية وجمع فى يديه جميع السلطات فقبض على الاشراف وامتلأت بهم السجون . وفى ٢ و ٣ سبتمبر هاجم مارا بعصابات مسلحة سجون باريس وذبح الاسرى وكلهم من الاشراف وكان أعظم القتلي الاميره لاميال صديقة الملك وقطع رأسها ووضعت على رمح وأهديت الي الملكة !

فى تلك الاثناء تقدم الاعداء فى أرض فرنسا وسقطت فردون مفتاح باريس فتجمع الفرنسيون فى فالمى وهاجمت الجيوش البروسية الجيوش الفرنسية فانتصر الجيش الفرنسى واضطر الاعداء الى التقهقر . وفى الوقت نفسه انتصرت الجيوش الفرنسية على الرين وفى سافوى ونيس وتقهقر الاعداء فى جميع الميادين

وانحلت الجمعية التشريعية وحل محلها المؤتمر

المؤتمر سنة ١٧٩٢ ـ ١٧٩٥

قرر المؤتمر فى أول جلسة له الغاء الملوكية « ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ » وأعلن الجمهورية فى ٢٢ سبتمبر . وكان فى المؤتمر ثلاثة أحزاب :

فى اليمين الجيروند يرغبون فى حكومة حازمة عادلة ووضع حد للمذابح . وفى الوسط حزب السهل وفى اليسار اليعاقبه أو الجبليين وزعماؤهم دانتون بطل حوادث ١٠ أغسطس ومنظمها ومارا زعيم مذابح سبتمبر وروبسبير . وكانوا على استعداد لارتكاب أحط الجرائم فى سبيل المحافظة على الثورة ويؤيدهم غوغاء باريس

اعدام لويس السادس عشر

أعلن اليعاقبة رغبتهم فى محاكمة لويس السادس عشر أمام المؤتمر فمثل أمامه ودافع عن نفسه كما دافع عنه محاميان دفعا عنه كل التهم التى وجهت اليه وأفلح اليعاقبة فى الحكم عليه بالاعدام وكانت الاغلبية ٥٣ صوتا

وأعدم لويس السادس عشر على المقصلة فى ٢١ يناير سنة ١٧٩٣ وقد مات ملكا ومسيحيا بعد أن سامح أعداءه

وابتدأ باعدام لويس السادس عشر عهد الارهاب وعين مارا وروبسبير ودانتون زعماء اللجنة

الامن العام وتجمعت فى أيديهم السلطة التنفيذية وأنشئت محكمة للثورة وكانت تقضى بالاعدام لأتفه الاسباب ولأقل التهم

وقد سبب موت لويس السادس عشر ثورة أهلية فى غرب فرنسا وفى فنديه وفى اقليم بريطانيا وسلمت طولون للانجليز ولكن رجال الثورة تمكنوا من اخماد الثورات بعنف وشدة

كما أن الدول تألبت على فرنسا وتحالفت للقضاء على الثورة . فكون وليم بت الوزير الانجليزى الكبير تحالفا جمع دول أوربا ماعدا دنمركا وسويسرا وتركيا ضد فرنسا بقيادة انجلترا . وهذا يخرج عن موضوع الثورة ولكننا نقول ان فرنسا تمكنت من هزيمة أعدائها والدخول فى ايطاليا وخرجت بروسيا واسبانيا من التحالف بمعاهدة بال وأعلنت هولندا الجمهورية وأصبحت حليفة لفرنسا

بين اليعاقبة والجيروند

حاول الجيروند وضع حد لأعمال اليعاقبة وعارضوا سياستهم فهاجم اليعاقبة الجيروند فى المؤتمر وسجنوهم فى ٢ يونيه ١٧٩٣ . ثم حوكموا وقضى عليهم بالاعدام ونفذ الحكم فى اكتوبر ١٧٩٣ وقامت شارلوت كورداى انتقاما من اليعاقبة فتمكنت من الدخول على مارا وكان يستحم فى منزله فطعنته طعنة نجلاء أماتته على الفور . وقبض عليها وأُعدمت . وأعدمت لجنة الثورة آلافا على المقصلة من الاشراف ورجال الدين وأفراد الطبقة المتوسطة رجالا ونساء وحتى الاطفال . وكان أول الصرعى الملكة مارى انطوانيت ومدام اليزابث أخت الملك وفيليب المساواة ابن عم الملك والكيمائي لافوازييه والشاعر اندريه شنييه

وثارت نانت فانتقم مجلس الثورة من أهلها باغراق شبانها فى نهر اللوار . كما ثارت ليون فخربها فوشيه وكولت بالمدافع وأعدم آلافا من أهلها . كما ثارت تولوز وغيرها من المدن فقضي على الثورات بعنف وقسوة . ودمرت الكنائس وبيعت أو خصصت لربة العقل ممثلة فى عاهرة

انقسام اليعاقبة

وأخيرا انقلبت القطة على أولادها وانقسم اليعاقبة الى ثلاثة شيع وعلى رأس كل شيعة روبسبير وهيبر ودانتون . فتمكن روبسبير من اعدام هيبر ودانتون بعد محاكمتهما أمام محكمة الثورة

وأصبح روبسبير شبحا مخيفا ألغى الديانة المسيحية واستبدل بها ديانة العقل وجعل نفسه كاهنا أعظم وعم الرعب فرنسا جميعها

وأخيرا اتحد أعداء روبسبير وتمكنوا فى ٢٧ يوليه ١٧٩٤ من مهاجمته فى الجمعية وتمكن أحد الجنود من جرحه . وفى اليوم الثانى أعدم على المقصلة مع ٢٢ من أنصاره وتنفست فرنسا الصعداء

حاول بقايا اليعاقبة مع غوغاء العامة من ارجاع عهد الثورة فقضى عليهم نابليون بونابرت وكان ضابطا صغيرا قضاء مبرما . وألغيت محكمة الثورة والقوانين الاستثنائية . وأقفل المؤتمر فى ٢٦ اكتوبر ١٧٩٥ وحلت محله حكومة الديركتوار وكان عصرها من أزهي عصور الحكم الفرنسى وبه أصبحت فرنسا من أعظم دول العالم

نتائج الثورة

يجدر بنا أن نذكر ماحققته الثورة من نتائج

أولا : عدلت الثورة من نظام المجتمع الفرنسى فمن الناحية السياسية ساوت بين جميع المواطنين فلا فرق بين غنى وفقير ولا فرق بين دين ودين وجعلت الاقتراع العام مبدأ أساسيا فى الدستور ومن الناحية الاقتصادية أصبح معظم الفلاحين ورجال الطبقة المتوسطة ملاكا للاراضى الزراعية التى اشتروها بعد مصادرة أملاك الاشراف ورجال الدين . ومن الوجهة التشريعية وحدت جهات التشريع . كما أنشأت حكومة الثورة كثيرا من المتاحف ومدارس الطب والهندسة والمراصد وأدخلت طريقة المعيار المترى وقررت التعليم الالزامي المجانى

كان مؤتمر الثورة قد أعلن فى يوم ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٣ رغبته فى ازالة كل علامة من علامات النظام القديم « الملوكية » وقرر الغاء نظام التقويم المسيحى الجريجورى واستبدل به تقويم الجمهورية . فألغى التقويم الجديد العصر المسيحى وعين يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ ابتداء عصر الحرية ونهاية السنة الاولى للجمهورية وقسمت السنة الجمهورية الى ١٢ شهرا يحتوى كل شهر ثلاثين يوما وسماها الشاعر « فابردا جلنتين » أسماء مختلفة :

فنديمير شهر الكروم . بريمير شهر الضباب . فريمير شهر البرد . نيفوس شهر الجليد . بليفوس شهر الامطار . فنتوس شهر العواصف . جرمينال ازدهار الحبوب . فلوريال شهر الزهور . بريليال

شهر المراعى . مسيدور شهر الحصاد . تريميرور شهر الحر . فركتدور شهر الفواكه

وأما الخمسة أيام الباقية (وستة فى السنوات الكبيسة) فقد خصصت للراحة . وقسم الشهر الى ثلاث عشرات سميت أيامها :

برميدى . ديورى . تريدى . كواريترى . كانتيري . سكستيدى . ستدي . اوكندى . نونيدى . وكادى

وألغيت الاعياد القديمة الدينية واستبدلت اعيادا مدنية . ولكن كان كل ذلك عبثا ولم يعش تقويم الثورة الا أربع عشرة سنة وفى أول يناير سنة ١٨٠٦ أعيد التقويم الجريجورى وألغى تقويم الجمهورية

ديمترى سلامه عبود



الميكروبات والامراض

بقلم الاستاذ رمسيس شحاتة

منذ قرن تقريبا استطاع باستير أن يثبت بالحجة الدامغة التى لا تقبل النقض ولا يأتيها الباطل بأى وسيلة من الوسائل أن الميكروبات أشياء حقيقية موجودة وانها فوق ذلك كائنات حية تتكاثر وتتوالد ولمظاهر نشاطها أوجه متعددة. ومن ذلك اليوم أصبحت الميكروبات هى المركز الذى ترتكز عليه مختلف الابحاث الطبية والمحور الذى تدور حوله وتتقيد به فى كل مالدينا من وسائل للتشخيص أو للعلاج. وازدهر علم الميكروبات ووصل إلي درجة من التقدم لم يعرفها من قبله أى علم من العلوم الطبية الأخرى

وظل الحال على هذا المنوال ما يقرب من القرن تقريبا ونحن لا نرى فى الامراض الا مظهرا من مظاهر نشاط الميكروبات ولا يمر بنا يوم الا ونكتشف للميكروبات عملاجديدا وتطورت نظرتنا الى الامراض بادخال فكرة الميكروبات. عليها تطوراً هائلا وتطورت أيضا بمرور الزمن الصورة الذهنية التى كوناها عن الميكروبات. فلم يعد الميكروسكوب هو المحك الاخير الذي لا بد لنا أن نلجأ اليه فى اكتشاف الميكروبات واثبات وجودها فقد أفلتت بعض هذه الميكروبات من رقابته واذا بالميكروسكوب بين ضحية وعشاها عاجز عن اسعافنا أو البت فى المشكلة بتاً حاسماً بعد أن كان المرجع الأخير والحجة الكبرى. وذلك لأن العلماء استطاعوا أن يثبتوا ان بين الميكروبات مالا سبيل الى رؤيته ولو بأقوى الميكروسكوبات. وأعظمها تكبيرا. وبادخال هذه الفكرة الجديدة وجد علماء الميكروبات سبيلا سهلا الى اسناد جميع الامراض تقريبا الى الميكروبات. فما من مرض فى رأيهم الا وله ميكروب خاص فان أمكن رؤية هذا الميكروب بواسطة المجهر كان ذلك هو الدليل القاطع والحجة الدامغة أما ان استعصى الامر واستحال على المجهر اسعافنا فلا بد من أن يكون الميكروب من ذلك النوع الجديد الذى لا يمكننا أن نراه

وعند ذلك ظهر جليا ان مجال البحث فى هذا الموضوع متسع أقصى اتساع وأن ميدان العمل فى هذا الباب لا تحده حدود اذ يكاد أن يكون على ماقدمنا حجر الزاوية فيما يمكن أن نحققه من

نجاح فى كل العلوم الطبية قاطبة . ولم يعدم هذا الرأى من مناصرين توفروا على دراسة الميكروبات والبحث فيها وازدهرت هذه الدراسة أيما ازدها وأينعت ثمارها بسرعة البرق . كما أن نتيجتها كانت أعجوبة القرن حقيقه . اذ من بين الميكروبات عدد هائل نكاد نعرف عنه الآن كل ما يمكن أن تصل اليه المعرفة البشرية مما دعا بعض العلماء الى القول انه لو استطاع الانسان يوما من الايام أن يخلق المادة الحية « البروتوبلازم الحى » لكان أول ما ينتجه هذا الخلق الجديد أحد الميكروبات المعروفة لنا دلالة على كثرة ما نعرفه عن هذه الميكروبات . ونحن لا نعرف تركيب هذه الميكروبات فحسب انما نعرف ذلك على وجه التدقيق أيضا كل وظائفها وخواصها ومظاهر نشاطها ولسنا نريد الآن التعرض لهذه الوظائف أو الخواص أو مظاهر النشاط جميعها فربما كان ذلك مستحيلا فى عجالة كهذه انما نريد أن نشير الى خاصية من بين هذه الخاصيات لا تبالغ اذا قلنا فى الواقع انها العمود الفقرى للنظرية الميكروبية للأمراض وهى ما نسميه النوعية الميكروبية

النوعية الميكروبية

نقصد بهذه العبارة الدلالة على الحقيقة الآتية : —

لكل مرض ميكروب يسببه وفى كل مرة يلاحظ هذا المرض لا بد من أن نجد فى جسم المريض الميكروب المناظر له . فالسل مثلا ناشىء عن ميكروب يسمى باسيل كوخ نسبه الي مكتشفه وليس من الممكن أن يكون هناك مريض بالسل وليس فى حسمه هذا الميكروب

هذه القاعدة واضحة جلية ولا أخال القارىء ألا متفق معي على انها استنتاج منطقى مباشر لما قدمنا

وللنوعية الميكروبية أنواع ثلاثة من الشواهد . وهذه هي قدرة الميكروب على الحياة والتوالد فى الجسم ثم ما يسببه الميكروب فى الجسم من مرض مع مايصحب هذا المرض أو ينشأ عنه من عوارض ثم ما يتسبب فى الجسم من اصابات موضعية معينة . ولنتأمل هذه الشواهد قليلا

أما من حيث قدرة دخول الميكروب وحياته فى قواعده فى الجسم فهذا دليل لنوعيته لان الميكروبات التى تستطيع المعيشة فى الجسم البشرى محدودة العدد فوق أن لكل فئة منها مكانا مختارا فى الجسم تستطيع الحياة فيه . وأغلب هذه الميكروبات لا يستطيع أن يعيش فى الجسم الا اذا وجد فى الجزء المناسب له . مثال ذلك ميكروب التيتانوس وهو ميكروب قوى شديد الاثر

والضرر بالجسم اذا اتصل بأنسجة الجهاز العصبي فى الجسم ولكنه اذا أصاب أى أنسجة أخري لا يستطيع أن يحيا فيها الا حياة خامدة . مما يوضح لنا جليا مقدار نوعية الميكروب ونوع القيود التى تتقيد بها

أما عن الشاهد الثانى وهو ما يصحب دخول الميكروب من مرض وما ينشأ من ذلك من عوارض ففى استطاعتنا أن نورد الكثير من الامثلة لايضاحه خذ مثلا الالتهاب الرئوى تجد ان مجموعة العوارض التى تلاحظ فيه تكاد تميز هذا المرض عن غيره تمييزا قاطعا يكاد يكون السند الوحيد فى أغلب الاحيان من معرفة المرض وتشخيصه . وفى الامراض المعدية أمثلة عديدة على ذلك مما دفع بعض علماء الميكروبات الى تقسيم الميكروبات الى طوائف تسبب كل منها ظهور عوارض معينة فى الجسم بحيث نستطيع بمجرد ملاحظة هذه العوارض الاستدلال على الميكروب المسبب لها

أما الشاهد الثالث الذى يظهر لنا شخصية الميكروب أو نوعيته بعبارة أدق فهو الاصابة العضوية التى يسببها الميكروب ونقصد بالاصابة العضوية مايسببه الميكروب من تغيير فى أنسجة الجسم أو مايكونه فيه من قرح أو مايشابهها . وأوضح مثل لذلك هو السل ففى استطاعتنا أن نستدل علي وجود الميكروب فى أى جزء من الجسم بمجرد مشاهدة أنسجة الجسم تحت المجهر وملاحظة ماجد فيها من أشكال وطرأ عليها من تغيير . فنحن نعرف أن السل يسمى احيانا بمرض الدرن وذلك لانه يسبب فى الجزء المصاب به ظهور أجسام لها بناء معين وتشبه الدرن ولو نظرت احدى هذه الدرنات تحت الميكروسكوب لاستطعت أن ترى لها بناء خاصا من السهل الاستدلال عليه فى الدرنات الاخرى مما يجعلك تؤكد انها ناشئة عن السل رغم أنك لاترى فيها أى أثر لميكروب السل نفسه ورغم أنك لاتعرف من العوارض التى تصحب المرض . ويقدم لنا السفلس « الزهرى » مثلا آخر باننا نستطيع أن نجزم بوجود الزهرى فى جسم ما بمجرد مشاهدة احدى القرح الناشئة عنه تحت المجهر دون أن نحتاج الى الكشف عن الميكروب المسبب له أو استطلاع العوارض التى يشكو منها المريض

وباجتماع هذه الشواهد الثلاث تأيدت النظرية الميكروبية للامراض ورسخ قدمها رسوخا بعيدا ووضح للعيان أن النوعية الميكروبية حقيقة لاسبيل الى الجدال فيها . فالميكروبات موجودة وليس من سبيل الى انكارها وهى التى تسبب الامراض مما أمكن اثباته بالدليل العملى القاطع فوق أن لكل منهما شخصية خاصة تظهر فى هيئة دخوله الى الجسم وطرق هذا الدخول فوق

ظهورها فيما تسببه الاصابة بالميكروب من عوارض خاصة تكفى فى بعض الاحيان للدلالة عليه دلالة قاطعة لاتقبل الشك. والى ماتقدم فهذه الشخصية تظهر بأقوى معانيها فيما يسببه الميكروب من الاصابات العضوية وقد بينا كيف تكفى وحدها للدلالة على الميكروب المسبب لها

لاشك أن النظرية الميكروبية التى قدمناها للقارىء مع الأدلة التى تؤيدها والتى جعلتنا نسلم بنوعية الميكروبات لوجاهتها وبساطتها وجمالها . ولقد تمكنت من العلوم الطبية وتغلغلت فيها الى حد بعيد بحيث أصبح مجرد الشك فيها مدعاة للدهشة بل السخرية ولكن اذا كان قد قدر لهذه النظرية أن تزهر الازهار الذى عرفته وأن تصل الى ما وصلت اليه من قوة ونفوذ فانه أصبح من الصعب جدا أن نضمن لها نفس هذا الازهار أو تلك السطوة الي أمد بعيد بل نقول ان فى أفق الابحاث الطبية الحديثة مايبشر باضمحلال زوالها وتقلص سلطانها

ان الشواهد التى قدمناها للتدليل على صحة النوعية الميكروبية ليست رغم مايكسوها من مسحة الصدق والوجاهة عين الحقيقة ففى الامكان أن نوجه اليها انتقادات عديدة لانحسب انها تقوى على صدها والصمد لها بعد . وسنستعرض فيما يلى هذه الانتقادات لنستخلص من الاتجاه الحديث للمسألة وما يمكن أن يؤدى اليه هذا الاتجاه من التقدم أو التحول فى وسائل العلاج أو التشخيص . فهذا هو فى الواقع لباب المسألة وغاية الغايات من العلوم الطبية قاطبة

أما الشاهد الاول على نوعية الميكروبات وهو قدرتها على الحياة فى الجسم والتوازن فيه ثم اختصاصها بطائفة معينة من الخلايا فأمر لايميز شخصية الميكروب ولايؤيد نوعيته وذلك لانه أمكن بالتجربة أن نستحدث أو نستنبت من أشد الميكروبات فتكا بالجسم البشرى ميكروبات لاتؤثر فيه الا أثرا قليلا ومن هذا نرى أن نوعية الميكروب التى كانت تندعم بقوة فتكه بالجنس البشرى على حدة وليس ببقية الاجناس الاخرى تنهار من الاساس . ولقد أمكن اثبات التحول المفاجىء لبعض الميكروبات التى لاتصيب الانسان عادة الى ميكروبات فاتكة بالنسبة له والعكس بالعكس مما يوضح لنا بأجلى بيان أن الشاهد الذى كنا نقدمه للتدليل على نوعية الميكروب ليس دليلا سليما انما تشوبه الشوائب . والى ماتقدم فان النوعية التى تظهرها بعض الميكروبات فى عدم اصابتها الا مجموعات من الخلايا ليست الا طلاء مزيفا لايتفق والحقيقة فى شيء ذلك أن الميكروب الواحد يستطيع أن يصيب اكثر من عضو من أعضائنا محققا فى كل حالة مرضا معينا وقد تتسع شقة الاختلاف بين هذه الامراض على نحو اتساع الاختلاف بين خراج جلدى بسيط ومرض الالتهاب الرئوى مثلا

ونحن نرى مما تقدم أن المرض لايرجع كله الى الميكروب المسبب له انما يرجع الى الجسم أيضا وهو يتشكل بالشكل الذى يسمح به هذا الاخير . وسنرى ذلك بوضوح أكثر فيما يلى

أما الشاهد الثانى على نوعية الميكروبات فهو كما ذكرنا ماتسببه من اعراض مرضية تختلف باختلاف الميكروبات . وهذا الشاهد وان بدا فى أول الامر حقيقة لاشك فيها لايلبث أن يفقد كل قوته وأن يتداعى متسقطا اذا تأملناه عن قرب

لاشك أن أعراض مرض الالتهاب الرئوى أعراض واضحة لاسبيل لنا الي انكارها أو مهاجمتها فهى فى الواقع المحك فى تشخيص هذا المرض ولكنه مما لاشك فيه أيضا أن هذا المرض يمكن أن يتسبب عن أنواع مختلفة من الميكروبات لا تجمعها صلة ولا قرابة . فكيف يمكن أن نوفق بين نوعية الميكروبات من حيث العوارض التى تسببها وبين أمر كهذا ؟ وليس هذا هو المرض الوحيد الذى نستطيع الرد به على مزاعم النوعية الميكروبية فهناك أمراض أخري كثيرة نذكر منها تسمم الدم مثلا وأغلب الحميات المنتشرة فى البلاد الحارة . كل هذه الحميات تشترك فى ارتفاع حرارتها وما تسبب عنها من طفح وغير ذلك من العوارض . ومفروض أن ميكروباتها مختلفة فهل فى ذلك مايؤيد النوعية الميكروبيه ؟

ثم مارأي القارىء فى حالة كالآتيه : تعرض ثلاثة للاصابة بالسل بوجودهم باستمرار فى وسط موبوء مع عدم توافر وسائل الوقاية واستمر هذا التلامس بالنسبة لهم معا المدة الكافية لتحقيق الاصابة بالسل فحقق الاول سلا رئويا من النوع البطىء وحقق الثانى سلا معويا وحقق الثالث سلا رئويا حادا لم يمهله الا أسابيع معدودة . أين هي النوعية الميكروبية فى حالة كهذه ؟

انه من المشاهد المألوفة فى الطب أن نرى زوال ميكروب وحلول ميكروب آخر محله مع بقاء العوارض نفسها مما لا يتفق وادعاء النوعية الميكروبية

أما الشاهد الثالث وكأنه أكبر الشواهد التى تؤيد النوعية الميكروبية فقد ظهر أنه ليس أسعد حظا من سابقيه . ان السل يحقق حقيقة الاصابة الدرنية المعروفة بدرنة كستر ولكنه يحقق فوق ذلك عددا هائلا من الاصابات المتباينة . وكذلك الزهرى . فاننا لو تأملنا الاصابات المختلفة التى يحققها لم نستطع التمييز بينها وكم هناك من الاصابات التى تكاد تنطبق عليها كل أوصاف اصابات السل ومع كل ليس للسل فيها أثر . والأدهي أننا نستطيع أن نحصل من ميكروب السل على مختلف الاصابات فى اصابة السرطان

وهل عرف الطب دليلا على نوعية الميكروبات من التحليل المعروف باسم تفاعل واسرمان

لتشخيص الزهرى وهو الآن محل أخذ ورد ومناقشة فقد تعطينا ميكروبات الملاريا وغيره من الميكروبات نتائج إيجابية

يخيل إلي أن القارىء قد ضاق ذرعا بنوعية الميكروبات ويخيل الي انه بدأ يتساءل كيف أمكن أن ننخدع بهذه المسألة طوال الفترة الماضية والحقيقة اننى لا أطمع فى دفعه الى هذا الحد وأحب أن نقف عند النتيجة الآتية : —

ان كان للميكروبات أثر واضح فى الامراض فان هذا الأثر لا يسمح بتأكيد نوعيتها فوق انه ليس كل شىء فى المرض فللجسم أكبر الأثر فى ذلك مما يدعونا الى القول ان المرض هو فى الواقع المعركة لما بين الجسم والميكروب من تناضل وتنازع »

الآن وقد وصلنا الى هذه النتيجة نريد أن نستعرض بعض المسائل المتعلقة بالمشكلة رجاء استخلاص نتيجة أوفى وأعم ورجاء ايضاح المسأله ايضاحا أكثر

تطور الميكروبات

وأولى هذه المسائل هي مسألة تطور الميكروبات ولعل القارىء يتساءل الآن معترضا وما عسى أن تكون علاقة تطور الميكروبات بنوعيتها وفى الحق اننا لا نستطيع الرد علي هذا الاعتراض الآن أكثر من أن نقول ان الكلام عن تطور الميكروبات ليس الا تمهيدا لاستعراض نظرية جديدة نعتقد انها تهيىء لنا فهما أعمق وأوسع لحقيقة الامراض

ونقصد بتطور الميكروبات ما اكتشفه الاستاذ رولان وزوجته من جامعة مونبيليه فيما يتعلق بشكل الميكروبات . فقد وجد هذان الباحثان أن لكل ميكروب دورة خاصة يتغير في أثنائها شكله تغيراً كليا من الشكل الاعتيادى . ولقد دفع ذلك بعض الباحثين الى دراسة الاشكال الممكنة لعدد معين من الميكروبات فوجد بالتجربه أننا نستطيع أن نغير ميكروب السل من العادى وهو أشبه شىء بعصيات صغيرة الى كرات أصغر فى الحجم تنشأ من تقطع احدى هذه العصيات وتقسمها الى أجزاء لا تلبث أن تتكور وغير ذلك من الأشكال الى أن تصل الي النوع الذى لا يرى بالميكروسكوب العادى والذى يمر فى مسام المرشح ويسمى فيروس Virus وفوق ذلك فقد أمكن أن نحصل من ميكروبات معينة على ميكروبات أخرى كميكروب التيفود من ميكروب السل مثلا وذلك بتعديل الوسط الذى تزرع فيه الميكروبات وتحريره . وهذا فى الواقع أمر طبيعى وان كان يبدو فى أول الأمر شاذا ويكفى أن نذكر القارىء بما يسمى فى علم الحياة بعملية

التجانس الذى تلجأ اليها الحيوانات اذا ماتغير الوسط المحيط بها وذلك للاحتفاظ بنوعها من الانقراض والى ذلك فقد أمكن ملاحظة تحول الميكروبات بعضها الى بعض لا من طريق التجانس بل من طريق التغير المباشر وهذه خطوة أخرى نحو ازالة الفوارق التى بين الميكروبات

والمهم فيما تقدم هو أن هذا التغير أو التطور المستمر فى شكل الميكروب يصحبه تغير فى فسيولوجيته أو مظاهر نشاطه وحياته ووظائف أعضائه . وهذا قانون من قوانين الطبيعة العام فاذا كنا نسلم بان تغير الوسط الخارجي يعقبه تغير فى شكل الكائن أمكننا أن نسلم بسهولة أن تغير شكل الكائن لا بد ان يعقبه تغير فى مظاهر نشاطه وخواصه الفسيولوجية العامة

ولما كان أثر الميكروب فى الامراض راجع الي مظاهر نشاطه وخواصه الفسيولوجية وكانت هذه مقيدة بشكله أمكننا ان نرى أهمية دورة الميكروبات ثم أهمية تحولها من شكل الي شكل وما قد يترتب من ذلك من النتائج

ونحن ندع الآن هذه الابحاث لنعالج فى عجالة مماثلة مسألة أخرى ولكننا نحب أن نلفت نظر القارىء الى أن الابحاث المتقدمة ليست من الابحاث الفردية الحديثة انما هي ابحاث اشترك فيها أكثر من باحث وان كنا لم نذكرها رجاء الاختصار وهذه الابحاث قد أصبحت الان فى حدود المأثور فى علم الميكروبات وهى على ذلك ليست مجرد بدع أو آراء شخصية

ميكروب السل

لعل أهم الاكتشافات التى قام بها العالم الالماني الجليل كوخ هو اكتشاف ميكروب السل ولهذا الميكروب مكان فذ فى عالم الميكروبات مما لفت أنظار الباحثين اليه . ومن غريب الامر اننا نعرف من هذا الميكروب الشيء الكثير على أننا لا نملك علاجا نوعيا للمرض الذى يسببه وهو السل . ونحن لا نقصد الآن الاحاطة بكل مايمكن معرفته عن هذا الميكروب فذلك أمر لاقبل لنا به فى عجالة كهذه . انما نريد أن نذكر طرفا من الحقائق المهمة التى سنعتمد عليها فى ما يلى من المقال

أول هذه الحقائق هو أن ميكروب السل ربما كان العامل المشترك الوحيد بين كل البالغين فى اضرار الجنس البشرى ونقصد بذلك انه لا يوجد على وجه التقريب من البالغين (أي الذين يقرب سنهم من العشرين) من لا يحمل فى داخله ميكروبات السل فأنا وأنت وكل البالغين من الناس ذكورا وأناسا نحمل في جزء أو أجزاء من جسمنا بعض ميكروبات السل الحية . ولست أقصد

بذلك ان الناس جميعا مرضى بداء السل فادعاء كهذا لا يخفى بطلانه على أحد . ولكنى أريد أن أقول ان الابحاث الطبية والتحاليل المختلفة التى أجريت على عدد عظيم من الناس أخذوا بطريق الصدفة لعمل احصاء علمى قد أيدت أن ٩٧ ٪ من البالغين من الناس يحملون فى أجسامهم كمية من ميكروبات السل يمكن التدليل على وجودها واثبات ذلك بطرق مختلفه

لاشك ان القارىء يود من الصميم أن أكون مخطئا فيما تقدم اعتقادا منه ان المسألة على شىء كثير من الخطورة والواقع غير ذلك فالفرق هائل بين احتواء الجسم على عدد يسير من ميكروبات السل لا تكفى لتحقيق الاصابة به وبين أن يكون الانسان مريضا بهذا المرض . ولعله يخفف قليلا من جزعه لو علم أن هذا الميكروب ليس موجودا فحسب فى أجسام كل البالغين بل منتشرا فوق ذلك فى الهواء وهو يدخل أجسامنا ليل نهار مع ماننتفسه من هواء وما يصحب هذا الهواء من تراب أو غبار

ومن العجيب أن نلاحظ أن هذا الميكروب اذا دخل فى الجسم تعذر خروجه منه فهذا فى الواقع أحد القوانين الحيوية المهمة فى الطبيعة مما دعا الكثيرين الى الاعتقاد بان وجوده شرط أساسى للحياة . لقد لاحظ الاطباء انه وان كان من السهل الميسور اخراج الميكروبات على اختلاف أنواعها واجلائها جلاء تاما نهائيا عن الجسم فان ميكروب السل ينفرد بقدرته الخارقة على التطفل والبقاء فى الجسم مهما كانت وسائل مقاومة هذا الاخير فكأنه سكسونى النزعة فى الاحتلال يبعث جذوره وينشب أظفاره فى جسم الفريسة بحيث يستحيل عليها التخلص منه . وليس لهذه العمليه قيمة ملحوظة أو أى تأثير فى حياتنا المرضية فما دام ميكروب السل منتشرا على النحو الذى قدمناه وما دمنا نستنشقه ليل نهار فان ضمان بقائه أمر محتوم حتى ولو كان كبقية الميكروبات من السهل اخراجه والتخلص منه ولكن المهم فيما تقدم هو أن نلاحظ أن الجسم يحوى باستمرار فى كل من حالة المرض أو الصحة مقدارا معينا من الميكروبات وهذه الميكروبات وان كانت تحيا فيه حياة خامدة بحيث لا تحقق الاصابة التى تحققها عادة عند ماتكون فى حالة النشاط العادية فانها لا تتأخر عن تحقيق ذلك اذا ضعف الجسم وقلت مقاومته أو حصل فيه أى تغيير ذى بال

نظرية جريئة

ونقصد بها نظرية انطون دى دبيه أحد أساتذة مدرسة مونبيليه الطبية وواحد من زعماء المدرسة الحيوية التى سبق الاشارة اليها وقد ذهبت هذه النظرية الى أن الاصل فى كل الامراض واحد وهو ماسماه دى دبيه « ميكروزيمات » أى الخميرة المرضية وهذه الخميرة المرضية موجودة

فى كل جسم بل هى حسب نظرية دى دبيه أحد مكوناته الاصلية

فالجسم يتكون عادة فى نظر دى دبيه من ميكروزيمات طبيعية هى وحدة الحياة وهذه الميكروزيمات الطبيعية تتحول فى حالة المرض الى ميكروزيمات مرضية أى خمائر مرضية ويلاحظ فى هذه النظرية الملاحظات الهامة الآتيه : —

«١» يحتوي كل جسم فى اعتبار نظرية دى دبيه على مصدر مرضه أو هو بعبارة أخرى يخلق هذا المرض

«٢» الأصل فى كل الامراض واحد وهو هذه الخميرة المرضية التى لا تختلف عن الوحدة الطبيعية فى الحياة الا من حيث عملها وايجادها المرض وهذا الرأى يتفق والنظرية الميكروبية فى اسناد الامراض الى كائنات حية أو عامل حى له نشاط معين وتختلف عنها فى أمرين أولهما توحيد هذا العامل وانكار نوعيته ثم اسناد مصدره الى الجسم نفسه

ونظرية انطون دي دبيه هذه نظرية جريئة ولكنها الآن تعد من مخلفات عصر امتاز بتعمقه فى الخيال وربما فى الابتعاد عن الحقائق الملموسه . وقد عفا الزمن عليها وقضت عليها أبحاث باستير قضاء ظن أنه نهائى الى أن تجددت الشكوك فى النوعيه الميكروبية وتوالت الانتقادات الموجهة ضدها . مما أدى الي وضعها من جديد موضع البحث والمناقشة ومما أدى الى تعديلها تعديلا جوهريا على النحو الذي بيناه فيما قبل وقد دفع ذلك بعض الباحثين الي تجديد النظر فى نظرية دى دبيه فقدمها من جديد الاستاذ باجس أستاذ الطب التجريبى بجامعة مونيليه كموضوع للدراسة والبحث وعالجها فى محاضرات متعددة موضحا علاقتها بالابحاث الحديثة فى الموضوع وسنرى طرفا من ذلك فيما يلى

النظرية الحديثة فى الامراض

بينا فيما تقدم أن النوعيه الميكروبية لم تعد قادرة على مقاومة ماوجه اليها من انتقادات أدت الى افلاتها الى نظريات الدرجة الثانية من حيث الاهمية والقيمة . وقد ظهر عندئذ أنه من الضرورى أن نبحث عن نظرية أخري للامراض لا تعتمد اعتماد النظرية السابقة على النوعيه الميكروبية ولقد ساعدت الابحاث التى ذكرناها فى الكلام عن تطور الميكروبات والحقائق التى فصلناها فى الكلام عن ميكروب السل الى توجيه الافكار توجيها خاصا يشترك فى كثير من مميزاته مع نظرية دى دبيه التى أشرنا اليها آنفا

فنحن نميل الآن الى الاعتقاد بان الدور الذى تلعبه الميكروبات فى الامراض ليس الا دورا ثانويا ونعتقد أن مصدرها الاول هو فى الواقع مايطرأ على الوسط الداخلى فى الجسم أوما نعبر عنه «بالتربة» من تغيير . فنحن نسلم بوجود ميكروب السل فى كل الاجسام ونرى أنه حسب تحول هذا الميكروب الى أى ميكروب آخر أمر ممكن على نحو ما بينت ذلك ابحاث الاستاذ رولان وزوجته وانه يكفى لذلك ألا يتغير الوسط الذى يعيش فيه هذا الميكروب وهذا التغيير يتم بتغيير تربة الجسم أو الوسط الداخلى به فوق انه يقلل من مناعة الجسم ضد الاصابة بالميكروب الناتج وسواء أكان التحول عن طريق التوافق أو عن طريق التغير فان النتيجة واحدة وهى خلق ميكروب جديد فوق تهيئة الجسم لاستقباله باقلال مقاومته الطبيعية ضده

هناك ابحاث أخرى تتعلق بعلم المناعة تؤيد ماقدمنا ولم يمنعنا عن ذكرها الا خشية الغموض والابهام ورغبة فى الاختصار والتبسيط

ونحن نستنتج مما تقدم نتيجة هامة لها خطرها وهي أن الجسم وما يطرأ عليه من تغيرات هو فى الواقع الاصل فى الامراض وانه لتحقيق هذه الامراض لايكفى أن توجد الميكروبات انما الوسط الذى يمكن أن تعيش فيه أيضا . وهذا فى الواقع يقلب النظرية المرضية الاولى رأسا على عقب وان كان الفرق بين النظريتين يبدو فى أول الامر ضئيلا . خصوصا اذا تأملنا مايتبع النظرية الجديدة من اضطراب فى تقسيم الامراض فواضح أن هذه الامراض يجب أن تقسم أولا من حيث علاقتها بميكروب السل ثم من حيث علاقتها بمقاومة الجسم

العبرة

العبرة مما تقدم هى أن الجسم وما ينتابه من تغيرات هما المصدر الاساسى للامراض فان كنا نريد أن نظل أصحاء فعلينا اذاً أن نعتنى أشد العناية بصحة أجسامنا وقوتها بالطرق الطبيعية وأن نتجنب بكل الوسائل الممكنة اضعافها أو الحط من قوتها وأن نحذر أشد الحذر من انهاك قوانا والضغط لأجسامنا واهمالها فذلك هو باب المرض . وعلينا أن نضع نصب أعيننا أن الأمل الوحيد فى فلاحنا ونجاتنا مما قد يصيبنا من الامراض ليس فى الدواء الذى نتعاطاه انما فى قوة أجسامنا وقدرتها على المقاومة

رمسيس شحاته

سيكولوجية المعاهدة

للاستاذ سلامه موسى كلمة تحليلية حكيمة قالها منذ بضع سنوات فى صدد المفاوضات هى ان المفاوضين قد فشلوا الى الآن في ايجاد حل للخلاف بيننا وبين الانجليز لانهم سموا هذا الخلاف « القضية المصرية » وساروا فى المفاوضات على هذا الاعتبار ، ولو جرت المفاوضة على « المسألة المصرية » لوجد الحل وحسم الخلاف

ولقد جرت المفاوضة الاخيرة حول « المسألة المصرية » لا « القضية المصرية » أى كانت مفاوضة عملية بعيدة عن الدعايات الحزبية وطنطنة المرافعات ، وساعد على ذلك ائتلاف الاحزاب في مصر واشتراكها جميعا فى المفاوضة والخطر الايطالى الذى نبه أذهان الانجليز والمصريين. ولهذا كللت المفاوضه بالنجاح

وعلى ضوء هذه النظرية يمكننا أن نفهم المعاهدة ونقدرها ونضعها في وضعها الصحيح . فالمفاوضون المصريون لم يأتوا لنا بالاستقلال التام ، ولكنهم لم يفرطوا فى شىء من حقوق البلاد . لقد حفظت المعاهدة لمصر كرامتها الوطنية كما القت بزمام أمورها بين يديها وفسحت الطريق امامها الى الاستقلال التام ، وهى فى الوقت نفسه قد طمأنت الانجليز من مخاوفهم وضمنت لهم كافة مصالحهم . هى معاهدة فى صالح الطرفين ، معاهدة لا يرفضها مصرى ألا وهو متعنت ولا يرفضها انجليزى ألا وهو متعنت

صلاح الدين كامل

الامتيازات الاجنبية

في عهد البطالسة

الامتيازات الأجنبية التى نأمل أن نتخلص منها قريبا — باذن الله — لم تكن أول امتيازات نالها الأجانب فى مصر . بل كان لطوائف منهم مركز خاص وامتيازات شتى فى مصر فى عهودها السابقة . وذلك نتيجة لموقعها الجغرافى وغناها المشهور وتعرضها لهجرات وغزوات أجنبية عدة . ولقد تمتع الأغريق والمقدونيون وأهل اسيا الصغرى بامتيازات مختلفة فى مصر بعد انتصار الاسكندر الاكبر على دولة الفرس ثم شاركهم فيها الرومان — واليهود إلى حد ما — عقب الفتح الرومانى وزوال سلطان البطالسة . ثم جاء العرب فقضوا على ما كان للروم من امتيازات فى مصر وأصبح الجند العربى يكونون طبقة ارستقراطية حاكمة لها السيادة على جميع المصريين ومن بقى معهم من الروم واليهود . ثم انتقلت هذه السيادة لأيدى الترك والشركس . وأخيرا نال الأوربيون امتيازات شتى فى مصر وغيرها من أقطار الشرق الادنى نتيجة لضغطهم المتواصل على الحكومة العثمانية الضعيفة . ولن يتسع وقتنا للحديث عن الامتيازات الأجنبية فى مصر فى كل عصورها هذه بل سنقصر الكلام على عهد البطالسة فحسب

« * »

ولم يكن المصريون القدماء يحبون الاجانب أو يميلون إلى الاختلاط بهم وقد شاهد هيرودوتس أن المصريين يحتقرون الاجانب ومنهم الاغريق ويترفعون عن معاشرتهم أو الاتصال بهم . ولكن لم تتمكن المعاقل التى أقامها الفراعنة على حدود بلادهم من صد الاجانب الزاحفين على مصر . واضطر المصريون أن يشركوا معهم فى السكنى على ضفاف النيل جماعات من سكان اسيا وجزر بحر ايجه وكذا من سكان شمال افريقيا والنوبة أيضا

والعوامل التى كانت تدفع هؤلاء الاقوام إلى مصر عوامل طبيعية بحتة مثل حدوث قلاقل جنسية فى آسيا فتضغط جماعات وسط اسيا على غربها وتقذف ببعض جماعات إلى مصر . أو أن يتكاثر عدد سكان اقليم من هذه الأقاليم القريبة من مصر وتضيق بهم خيرات بلادهم فيغزون أرض الفراعنة الخصبة . وهذا العامل الاخير هو الذي اتى بالاغريق إلى مصر . فان طبيعة بلاد اليونان الجبلية الفقيرة المحدودة الموارد تلزم بعض سكانها الذين يتزايد عددهم أن يهاجروا إلى الخارج . وشجع الاهالى على المخاطرة مهارتهم البحرية وكثرة الجزائر القريبة من شواطئهم وأدت

هـذه العوامل إلى انتشار العنصر الاغريقى على طول سواحل البحر الاسود والاناضول وايطاليـا والرفيير أو جزر البحر الابيض

وجاء الاغريق إلى مصر فى عهد الدولة الحديثة ، وقد رحب الفراعنة بهم لأنهم كانون فى ذلك الوقت فى أشـد الحاجـة إلى جنود مرتزقة لمحاربة الحيثيين ثم البابليين فالاشورين . فـكثر وفود الاغريق إلى مصر للعمل فى جيوشها أو تجارتها وصناعتها . ولما ظهرت دولة الفرس وهددت سلامة مصر وبلاد الاغريق زاد ارتباط هذين الشعبين وجمع بينهما العدو المشترك وأصبح لاغنى للمصريين عن حلفائهم الاغريق إذ بدونهم لايقدرون على صد غزوات الفرس . وتحت تأثير هذه الاحوال السياسية الجديدة أصبح للاغريق نفوذ كبير — لم يـكن لهم من قبل — فى الحـكومة المصرية . ونالوا امتيازات تجارية شتى أهمها انشاء مدينة نوكراتيس فى غرب الدلتـا وهى عبارة عن مستعمرة اغريقية بحتة من حيث سكانها وحكومتها ونظمها ولغتها وديانتهـا . ولم يـكن فى هـذ الامتيازات اعتداء كبير على حقوق المصريين إذ أنها كانت تطبق فى بقعة ضيقة محدودة جميع سكانها من الاغريق واتصالهم بالمصريين لايتعدى المبادلات التجارية . ويجب ألا ننسى أن هذه الامتيازات كانت نافعة للمصريين والاغريق على حد سواء إذ أنها مـكنت المصريين من المتاجرة مع الاغريق وغيرهم من شعوب البحر الابيض فزادت موارد الحـكومة المصرية . كما انها ساعدت ملك مصر على ايجاد جنود مرتزقة لمحاربة الفرس والدفاع عن استقلال البلاد . وقد ساعـد هؤلاء الأغريق المصريين فى ثوراتهم ضد الفرس

لم يتضرر المصريون من الاغريق بسبب هذه الامتيازات بل جاء الضرر من اتساع نطاق الامتيازات وخروجها عما وضعت له أى فى عهد البطالسة عند ما أصبح الاغريق حـكام البلاد . وذلك بعد انتصار الاسكندر على الفرس وفتحه مصر عام ٣٣٢ ق. م. ولقـد أظهر الاسـكندر احتراما عظيما نحو آلهة مصر وعطفا على المصريين . فترك أمر حكومتهم فى يد حكام منهم ولـكنه أقام حاكم مقدونيا ليشرف على هؤلاء الحـكام الوطنيين وبجانبه حامية من الجيش المقدونى

وغداة وفاة الاسكندر فى يونيو سنة ٣٢٣ ق. م. اجتمع قواده فى بابل ليقتسموا امبراطوريته العظيمـة . فـكانت مصر من نصيب بطليموس بن لاجوس الذى أسرع بالحضور إلى مقر ولايته ليحكمها باسم خلفاء الاسكندر

ولقد اختط بطليموس الأول لنفسه سياسة سار على نهجها كما اتبعها خلفاؤه من بعده فى حكمهم لمصر وترمى هذه السياسة إلى إنشاء مملـكة مستقلة قوية وغنية فى مصر يتوارث صولجانها البطالسة وتحقيق هذا يتطلب جيوشا وأساطيل قوية لصد هجمات من يحاول الاعتداء على استقلال مصر تحت ستار الاحتفاظ بوحدة امبراطورية الاسكندر . ولامتلاك الملحقات الطبيعية الضرورية للدفاع

عن مصر وأعني سوريا ويونان . وكذلك تتطلب أن تكون لمصر السيادة البحرية فى البحر الابيض وأن تخضع لها الجزر الواقعة فى طريق تجارتها البحرية . وكذلك لابد من استتباب الأمن فى داخل البلاد وتنظيم استثمار مواردها الطبيعية وتوافر رءوس الاموال اللازمة لنجاح هذا الاستقلال وهذه التجارة الخارجية الواسعة . حتى تتوافر لدي البطالسة الاموال التى تتطلبها نفقات الجيوش والاساطيل الباهظة

حقا إن مصر قد منحت البطالسة موقعا جغرافيا يتوسط العالم وتجارة واسعة وتربة خصبة وخيرات كثيرة وتاريخا قديما مجيدا . إلا أنها لم تمنحهم جيوشا من أبنائها تستطيع أن تقف أمام جيوش منافسى البطالسة أمثال سيليوكس أو انطيوجس وغيرهما من قواد الاسكندر . وكذلك لم يكن البطالسة ليأمنوا عواقب استخدام المصريين فى الجيش أو فى مناصب الحكم العليا وخاصة لأن المصريين كانوا يكرهون البطالسه ويعتبرونهم أجانب متعصبين

إذن فالبطالسة كانوا فى حاجة قصوى إلى الاغريق والمقدونيين لتكوين جيوشهم وتشييد اساطيلهم والاشراف على حكم البلاد واستغلال رءوس الاموال الاغريقيه فى استثمار موارد مصر الزراعيه والصناعيه

ولذا رأى البطالسة أن يجذبوا إلى مصر أكبر عدد من الاغريق والمقدونيين والاسيويين وذلك بمنحهم امتيازات مغرية فجعلوا اللغة الاغريقية لغة الحكومة وتقاليد البلاط وعاداته إغريقيه بحته وحاولوا التوفيق بين الديانة المصريه والديانة الاغريقيه . فاقاموا عبادة جديدة لثالوث مكون من آلهة مصرية واغريقية . أى أنهم أحلوا الحضارة الاغريقيه محل الحضارة الفرعونية القديمة . وذلك كى لايشعر الاغريق فى مصر بأنهم غرباء

وقضى البطالسة على ماكان للارستقراطية المصرية من امتيازات واقاموا أرستقراطية من المقدونيين والاغريق وأضفوا عليهم امتيازات شتى. فكان المقدونيون يكونون ارستقراطية الجيش والبلاط ولهم حق الموافقة على تتويج الملك . وكان ينتخب منهم ومن الاغريق كبار موظفى الحكومة والقضاة ورجال الدين وضباط الجيش والاسطول . وكانوا يعفون من السخرة ومن أداء بعض الضرائب . وكان اليهود يتمتعون بحرية العبادة وبدستور وقوانين خاصة بهم يقوم بتطبيقها عليهم رجال منهم ويعفون من السخرة وكذلك كانت حال الفرس والسوريين

أما ملايين المصريين فكانوا يعيشون كما عاش أجدادهم مل قبل وكما يعيش أحفادهم الآن يزرعون الأرض ويعملون فى الصناعات اليدوية ويحترمون الأجانب ويعيشون غرباء عن بلادهم لاحقوق لهم ولا امتيازات

وكان الاغريق يعيشون فى المدن الاغريقية مثل الاسكندرية وقرى الفيوم أو فى إحياء خاصة بهم فى المدن المصرية مثل منفيس وطيبه . وكانوا فى هذه أو تلك يتمتعون بنظم وتقاليد بلادهم

فلهم دساتير ومجالس نيابية ديمقراطية على نهج دساتير المدن الأغريقية الحرة . ويتثقفون بالآداب الاغريقية كـكتابات أفلاطون وغـيره ويتغنون بأناشيد هومر كما أنشئت لهم مسارح ونوادى رياضية ومعابد علمية على نهج الجمنازيا المعروفة فى بلاد الاغريق

كان البطالسة يعتبرون مصر ضيعة لهم بحق الفتح وحق الملك الالهى ولذا ادعوا ملـكية جميع أراضيها الزراعيه . وكانوا يوزعونها على الاغريق ليشرفوا على تسخير المصريين فى زرعها مقـابل أجور ضئيلة ويؤدوا للملك الضرائب المقررة عليها . ولقد اهتم الاغريق ببناء الجسور وشق الترع فزادت مساحـة الأراضى المزروعة كما أدخلوا الى مصر بعض زراعات جديدة من بلادهم كزراعة الـكروم والزيتون وأشجار الفاكهة . ولـكن المصريين لم يستفيدوا شيئا من ذلك اذ كان الخير كله عائدا على الاغريق . كـذلك اهتم البطالسة بالصناعة واحتكروا عـدة صناعات ونظموها تحت اشراف رجال من الاغريق وخاصـة صناعات الزيوت والمنسوجات الحريرية والـكتانية والصوفية والخزف والورق والمعادن والاحجار والخمور والصياغة والحلى والعطور . كـذلك اهتموا بالطرق التجارية واحتـكروا التجارة الخارجية ونظموها تحت اشراف رجال من الاغريق أيضا

وكان البطالسة يمنحون جنودهم اقطاعات فى الفيوم بدل الرواتب . فـكان اقطاع الجندى الاغريقى عشرة أضعاف اقطاع زميله المصري . اذ كان اقطاع الجندى الاغريقى يتراوح بين ٣٠ و ١٠٠ اروره (٢٧٥٦ م ٢) بينما كان اقطاع الجـندى المصرى يتراوح بين ٥ و ٧ ارورات . أما الضباط وكلهم من الاغريق فـكان يتراوح اقطاع الواحد منهم بين ١٥٤ و ٣٤٢ ارورة . وكان الجنود الاغريق يتسلحون بالاسلحة الحديثـة أما الجنود المصريون فـكانوا يتسلحون بالأسلحة العتيقة البالية الغير الصالحة للاستعمال . وكانوا يعتبرون كرديف للجنود الاغريق . وكانت مهمتهم مقصورة على خدمة الجنود الاغريق وحمل أمتعتهم ونقل معداتهم . وكـذلك كان المصريون يقومون بالتجذيف فى سفن الاسطول . غير أن الوثائق لم تذكر لنا اسم أى مصرى ترقى حتى صار ضابطا فى الجيش أو فى الاسطول . فهـذه الوظائف كانت وقفا على الاجانب الذين كان منهم أيضا جميع كبار الموظفين وحكام المديريات والمدن وضباط البوليس كما كانت فى أيديهم مرافق البلاد الاقتصادية فهم الذين يشرفون على المزارع والمصانع والتجارة الخارجية . وكانوا يعاملون المصريين الذين يعملون تحت ادارتهم معاملة قاسية . وتذكر لنا الوثائق أنه كان يـكفى أن يعتبر مدير مصنع ما أية ملاحظة أو اشارة صادرة من أحد عمال المصنع جارحة لـكرامته فيجر هذا العامل فى الشوارع ثم يشنق علانية دون أي عناء

وكان المصريون يحاكمون أمام قضاة من المصريين بمقتضى القوانين المصرية أما الاغريق فكانوا يحاكمون أمام محاكم اغريقية وتطبق عليهم قوانين بلادهم . كان هناك أيضا محاكم مختلطة للفصل فى

القضايا التي يكون الخصوم فيها من جنسيات مختلفة . وكان قضاة هذه المحاكم من المصريين والاغريق وتذكر لنا الوثائق أن القضاة الاغريق كانوا يميلون الى الاعتداء على حقوق القضاة المصريين وخاصة فيما يتعلق بلغة المحاكمة وكثرت المنازعات بين الفريقين حتى أصدر بطليموس السابع مرسوما قرر فيه أن تكون المحاكمة بنفس اللغة التي تقدم بها عريضة الدعوى

والخلاصة أن سكان مصر الذين كان يبلغ عددهم نحو ثمانية ملايين نسمة كانوا ينقسمون الى طبقتين منفصلتين عن بعضهما تمام الانفصال : طبقة عليا مكونة من الاغريق الذين كانوا حكام البلاد والذين كانوا يعتقدون أنهم أهل حضارة دونها الحضارات الأخرى . والذين كانوا يعيشون فى أوساط خاصة بهم ويحيون حياتهم التي اعتادوها فى بلادهم . وطبقة سفلى مكونة من المصريين الذين كانوا عبيداً للاجنبي والذين احتفظوا بعوائدهم وتقاليدهم وكانت كل طبقة تحتقر الأخرى وتكره الاختلاط بها أو التزاوج معها حتى أن بعض المدن الاغريقية وخاصة نوكراتيس حرمت زواج الاغريق بالمصريات

كان المصريون يشعرون بان كرامتهم سلبت وخيرات بلادهم نهبت وأنهم صاروا غرباء فى بيوتهم ولكنهم لم يجرأوا على الاحتجاج لخوفهم من بطش عدوهم وعدم ثقتهم بأنفسهم ولكنهم لم ينسوا مجدهم القديم . فصبروا على بلائهم ينتظرون فرصة مناسبة فيطردون الاغريق كما طرد أجدادهم الهكسوس من قبل . وقد جاءت هذه الفرصة فى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد اذ تمكن انطيوخس ملك بابل أن يهزم جيوش بطليموس الرابع عام ٢١٩ق.م أمام سلمنسيا . ثم استولى على معظم سوريا التي كانت من أملاك مصر وكان ملوك بابل يتطلعون الى امتلاكها من قبل ولكن حالت دون ذلك جيوش مصر . ولقد تملك الجزع رجال الحكومة فى الاسكندرية وخاصة عند ما بلغهم أن انطيوخس قد زحف على مصر ورأوا أن الظروف الحالية تضطرهم إلى تجنيد جيس من ٢٠ ألف مصرى وكذا بضع كتائب من الفرسان المصريين . وفى ١٧ يونيو عام ٢١٧ ق . م تقابل بطليموس الرابع بجيوشه المصرية مع جيوش انطيوخس عند رفح سفح الصحراء فانهزم انطيوخس هزيمة منكرة واسترد بطليموس سوريا أى أن المصريين انتصروا حيث انهزم الاغريق

فموقعة رفح هذه أعادت إلى المصريين ثقتهم بانفسهم وعلموا أن اليوم قد حان للتخلص من رق العبودية فاندلع لهيب الثورة فى مصر الوسطى والدلتا وامتد إلى الصعيد بزعامة هرمخيس وغيره ولم تضع الثورة أوزارها إلا عند ماخرب بطليموس العاشر فى عام ٨٨ ق . م . مدينة طيبة التي كانت دائما مهد الثورة ومعقل الثائرين

ولقد ضايقت هذه الثورات البطالسة أشد المضايقة لانها شغلتهم عن محاربة ملوك بابل الذين

تمكنوا فى عام ١٩٦ من الاستيلاء على جميع أملاك البطالسة فى سوريا وأسيا الصغرى ثم غزا أنطيوخس فى عام ١٦٨ مصر وحاصر الاسكندرية ولم يرجعه عن فتحها إلا تدخل روما إلى جانب بطليموس السادس

تحت ضغط هذه الثورات وهذه الأخطار الخارجية رأي البطالسة أن يختطوا لأنفسهم سياسة جديدة ، فيحسنون معاملة المصريين ويتقفونهم ويتحببون اليهم ويمنحونهم بعض الامتيازات التى يتمتع الاغريق بها . فصار الملك يتوج فى منفيس عاصمة الفراعنة طبق للتقاليد المصرية القديمة وزاد البطالسة فى أملاك ونفوذ رجال الدين المصريين وكفوا عن منح الاغريق امتيازات جديدة وتعاملوا بالنقود المصرية النحاسية وأحلوا التقويم المصرى محل التقويم المقدونى . وأحيوا طبقة المحاربين المصريين وزادوا فى مساحة اقطاعاتهم كما أنهم نقصوا مساحة اقطاعات الاغريق ولكن الي أن سقطت دولة البطالسة بقى الاغريق يتمتعون باقطاعات أكبر من اقطاعات المصريين . وقلدوا المصريين بعض المناصب الكبري فى الادارة والجيش والقصر كما أنهم منعوا القضاة الاغريق من الاعتداء على حقوق القضاة المصريين

والخلاصة أن البطالسة بعد موقعه رفح تقربوا إلى المصريين ومنحوهم بعض الامتيازات التى كانت للاغريق ولكنهم لم يساووهم بهم ولم تلغ امتيازات الاغريق كلها بل خففت نوعا ما . حتى لايتضرر المصريون منها

« * »

والآن يصح أن تقارن امتيازات الأجانب فى عهد البطالسة بامتيازاتهم الحالية :

فهما تتشابهان من حيث تاريخهما . فالامتيازات القديمة منحت رسميا عند محالفة المصريين للاغريق ضد الفرس والامتيازات الحالية منحت رسميا عقب محالفة السلطان سليمان لفرنسوا الأول ملك فرنسا عام ١٥٣٦ ضد النمسا

والامتيازات الاولى كانت فى أول الأمر تجارية بحتة وكذلك كانت الامتيازات الحالية فى أول الأمر . ولم يكن فيها أى اعتداء على حقوق رعايا السلطان إذ أن الاجانب كانوا يعيشون فى منازل مقبية فى الموانى وكانت تعرف بيوتهم هذه بالفنادق ولكن الضرر جاء فى الحالتين من التوسع فى هذه الامتيازات ونتيجة لزيادة قوة الشعوب صاحبة الامتيازات

وكذلك لم تلغ هذه الامتيازات فى كلتا الحالتين إلا تحت ضغط الثورات والاخطار الدولية الخارجية . وتختلف الامتيازات القديمة عن الامتيازات الحديثة فى تفاصيلها ونظمها وكذلك هناك وجه اختلاف قوى بين الاثنتين فالأولى لم تلغ بل خففت أما الامتيازات الحالية فستلغى جميعا

عادل

اوراق الخريف

لميخائيل نعيمه

تناثري تناثري يابهجة النظر
يامرقص الشمس ويا أرجوحة القمر
يا أرغن الليل ويا قيثارة السحر
يا رمز فكر حائر ورسم روح ثائر
يا ذكر مجد غابر قد عافك الشجر

تناثري . تناثرى

تعانقي وعانقي أشباح ما مضى
وزودي أنظارك من طلعة الفضا
هيهات أن هيهات أن يعود ما انقضى
وبعد أن تفارقي أتراب عهد سابق
سيرى بقلب خافق فى موكب الفضا

تعانقي . تعانقي

سيرى ولا تعاتبي لاينفع العتاب
ولاتلومى الغصن والر ياح والسحاب
فهي اذا خاطبتها لاتحسن الجواب
والدهر ذو العجائب وباعث النوائب
وخانق الرغائب لايفهم الخطاب

فامشي ولا تعاتبي

عودى الى حضن الثرى وجددى، العهود
وانسى جمالا قد ذوى ما كان لن يعود
كم أزهرت من قبلك وكم ذوت ورود
فلا تخافى ماجرى ولا تلومى القدرا
من قد أضاع جوهرا يلقاه فى اللحود

عودى الى حضن الثرى

الكتابة بالصور

حديث أذاعه الاستاذ اسماعيل شوقي مصحح « مطبعة مصر » الفنى فى مساء ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٣٦ . وهو الفصل الاول من كتابه « لمحة فى تاريخ الكتابة والطباعة »

لقد كانت الزراعة أول الأعمال المدنية العظمى التى ربطت الانسان بالأرض ، وجعلته يستقر بعد أن كان رحالة متنقلا ، إذ نتج عن ذلك الاستقرار أن رغب الناس عن التنقل وراء شوارد الرزق ، فنظموا الجهود وأنتجوا رزقا موفورا مضمونا فى أوقات محدودة . ولذا كانت وديان الأنهار مهبطاً للمدنيات الأولى ، وكان وادى النيل مشرقا لأول نور لاح فى التاريخ

ولما كان الماء أهم عوامل ذلك الانتاج المنظم ، فقد عنى المصريون بحفر الجداول التى تستمد المياه من النيل ، فتسير فى نواحى الوادى حاملة وفر الخير والبركة . وكان هناك زعماء يقدمون على حفر هذه الجداول ، ويتعهدونها حتى تظل صالحة ، ويحفرون منها الجديد الذي تطلبه الحاجة وكان هؤلاء الحكام يتقاضون ضرائب من الحبوب والكتان عن هذه المساحة التى كانوا يكفلون لها الماء . وكان معقولا أن يسجل الفلاح المصرى هذه الضرائب التى كان يعتبرها دينا فى عنقه ، يؤديه أو يناله شر الجزاء ، حتى يحصر ما دفع ، وحتى لا تأخذه الدفعة الثانية بغتة ، وحتى لا ينزل به عقاب حجز الماء عنه

والطريقة البدائية لتسجيل المعانى هى الرسم والتصوير ، وهى نفس ما يتبعه الأطفال لو أرادوا تسجيل معنى من المعانى ، ونفس ما اتبعه الانسان فى طفولته الذهنية . وهكذا بدأ المصرى القديم يخطط على جدران بيته علامات تدل على المكاييل والجرار التى تقاضاها الحاكم منه ، ومتى تقاضاها ، ومتى سيطالب بالدفعة الأخرى . وهذه الجرار أو المكاييل التى بدأ يرسمها ، وهذه الأهلة التى كان يعبر بها عن الشهور القمرية ، تعتبر نواة للكتابة بالصور . التى مارسها فيما بعد على صورة أرقى والتى لا يزال يمارسها الهنود الحمر فى أمريكا

ولم تكن تلك الصور تعبر عن ألفاظه بالذات ، ولكنها تعبر عن معان وللقارىء أن يعبر عنها بأى لفظ أراد . فاذا رأى خمس جرار مرسومة ومعها أربعة أهلة فله أن يقول : « دفعت خمسة

مكاييل وتحل الأخرى، بعد أربعة شهور » أو : « تقاضى منى الحاكم خمس جرار وموعد الأخرى بعد أربعة أهلة » إلى غير ذلك من الطرق المختلفة للتعبير عن هذا المعنى الواحد ، دون أن توحد الألفاظ التى تعبر عنه . فكلما أراد شخص أن يسجل شيئا لنفسه يرمز الرمز الذي يناسبه ، ثم بطول الممارسة وبتكرار تسجيل المعانى ليقرأها الآخرون صار هناك رموز متفق عليها تنطق نطقا واحداً ، أى انه صار للصورة قيمة لفظية أو صوتية ، أو قل إنها قد صارت تشبه العلامة من علامات النوتة الموسيقية ، أو الصورة الخاصة قد صارت قد تستدعى مخارج صوتية خاصة —حتى تقرأ . ومع أن هذه كانت خطوة عظيمة فى طريق تعلم الكتابة ، إلا أن نقصها انه يجب أن يكون هناك عدد من الرموز يساوى عدد ما فى اللغة المكتوبة من كلمات ، وهذه هى الطريقة التى يتبعها الصينيون حتى الآن

ولما لم تكن كل الأشياء سهلة التصوير وكان من المتعذر تسجيل بعض المعانى بالصور ،فقد عمدوا الى طريقة تذلل بعض هذه الصعوبة ، ذلك أن الكلمة ذات المعنى الذى يصعب تصويره ، وتتفق فى اللفظ مع كلمة أخرى يسهل تسجيل معناها بالتصوير — كانوا يضعون الثانية بدل الأولى ، وينطق القارىء اللفظ ويستوي سياق الكلام واطراده على أى المعنيين أراد الكاتب ، لكننا نرى ان مجال التسهيل من هذا السبيل لم يكن متسعا أيضا ، فليس كثير من المعانى متفقا فى اللفظ مع أشياء مادية يسهل تسجيل صورتها بالرسوم ، وهكذا لم يكن هذا اختصارا

وتلت ذلك خطوة أخرى ، وهى أن كثيرا من الالفاظ ذات المقطع الواحد ، أو المقاطع الاولى من ألفاظ مركبة من أكثر من مقطع واحد اتخذت رموزها لتسجيل مقاطع من الكلمة دون أن تحتاج الكلمة كلها لرمز ، فقلل ذلك عدد الرموز من عدة آلاف إلى بضع مئات ، إذ أن كلمات أية لغة تتكون من عدد من المقاطع أقل كثيرا من عدد الكلمات لان المقطع الواحد يشترك فى كثير من الكلمات ، وكانت هذه هى الطريقة التى ظل يتبعها الأشوريون والبابليون فى كتاباتهم المسمارية . وبالرغم من أن طريقة الرموز التى تمثل مقاطع صوتية كانت فتحا عظيما فانها كانت لا تزال أداة معقدة لتسجيل المعانى ، ذلك لان فى المقاطع مخارج صوتية مشتركة

الحروف الهجائية

أمعن المصريون فى تحليل المقاطع الصوتية إلى عناصر الصوت الاصلية التى يتكون منها ، وجعلوا لكل عنصر رمزاً ، فقلت الرموز وأصبحت مقصورة على مخارج حروف اللغة ، ولا تنيف هذه فى لغة من اللغات على الثلاثين بكثير . ورمزوا لكل مخرج من هذه المخارج أو عنصر من هذه

العناصر فى أول الامر بصورة شىء مادى يبدأ أول حروفه بهذا المخرج ، وأخذ الفينيقيون عنهم هذه الفكرة ، فكانوا يقرأون حروفهم الهجائية كما لو نقرأ نحن حروفنا فنقول : « أرنب ، بطه ، تمساح ، ثعبان ، جمل . . . » وهكذا صارت عندهم مجموعة من الرموز التى تمثل الاصوات التى تتكون منها لغتهم ، وأمكنهم بذلك أن يعبروا عن المعنويات التى لم يكن ممكنا أن يسجلوا ألفاظها ولما كانت العناصر الصوتية محدودة محصورة متعارف على صورتها وأن تكتب كل الكلمات سواء أكانت مادية أو معنوية ، وإلى هذا النوع من الكتابة أشار ابن الحاجب فى « الشافية » حيث قال : « الخط تصوير اللفظ بحروف هجائه ، أي بحروفه التى تركب منها »

وتعتبر قدرة المصري على تسجيل الاصوات هكذا أكبر فتح ذهنى وفق له البشر

كتابة قدماء المصريين

شرحنا ما قام به المصريون حتى اخترعوا الكتابة ، ولنتكلم الآن عن الادوار التى مرت بها الكتابة عندهم فى شىء من الوضوح

استعمل المصريون فى أول عهدهم الصور والرموز ذات الدلالة المعنوية وكان يفهم منها المعنى ويعبر عنه القارىء بأى لفظ أراده . ثم وحد اللفظ لكل رمز من الرموز فصارت للرموز قيمة صوتية . ثم رسم الرمز مرادا به لفظه ودون أن يكون لمعناه الاصلى صلة بمعناه الذى يقتضية سياق الكلام . ثم رمز لمقاطع صوتية بصور ورموز كانت تبلغ بضع مئات . ثم حللت المقاطع الى أربعة وعشرين حرفا كانت كافية لتسجيل لغة المصريين القدماء ، وكانت تمثل الحروف الصحيحة فقط ، إذ لم يكن المصريون يسجلون الحركات كما يفعل الاوربيون الآن . ولم يسجلوا حروف اللين كما نفعل فى العربية غير انهم جعلوا حروف اللين تلى المد المشبع فيما بعد . كما نفعل نحن الآن فى العربية تماما

وليس معنى ذلك التقسيم انه يمكن وضع حدود دقيقة لكل دور تفصله عن الدور الذي سبقه ولكن الواقع بأن هذه الادوار كانت متداخلة فى بعضها حتى إنهم وهم فى ذروة اكتشافهم العظيم ، حين استعمالهم الحروف الهجائية كانوا يرسمون معها صورا لها دلالات معنوية وليست لها قيمة لفظية

وقد كان المصريون يسجلون كتابتهم هذه على الحجر . فان الحفارين يعنون بجعل الصور محتفظة برونقها . غير انهم ابتكروا فيما بعد أداة أسهل تناولا وأكثر تلبية لما تتطلبه السرعة . فصنعوا صبغا أو مدادا بحل الصمغ النباتى فى الماء ثم خلط السناج الذى يعلو سطح الاوانى المعرضة

النار بذلك المحلول الكثيف . و بغمس قصبة مبرية فى ذلك الصبغ أمكنهم أن يكتبوا بسهولة . وكانوا يكتبون بهذه المادة على العظم والخشب وقطع الفخار ولكنهم اهتدوا فيما بعد لاستعمال البردى كمادة يكتبون عليها

وقد صيرت هذه المواد الكتابة حاجة من مستلزمات الحياة اليومية . فبعد أن كان الكهنة وحدهم هم أرباب الكتابة . وتنسب الكتابة إلى الآلهة . صارت عملا يوميا يحتاج اليه كثيرا و يقوم به كثيرون . وقد كان نتيجة ذلك أن الصور أصبحت ترسم فى غير العناية الاولى لما كان يستلزمه الطور الجديد من عجلة وسرعة . فتفرع عن الهيروغليفية « النقوش المقدسة » قلم دارج آخر عرف بالهيراطيقى اختصرت فيه الصور . ومعظم أوراق البردى بين أيدينا اليوم مكتوبة بهذا القلم . ثم أمعنوا فى السرعة نتيجة لما تطلبته الاعمال والمدنية من كثرة الكتابة وما يقتضيه ذلك من الاختصار والاختزال . حتى كان عندهم فى القرن الثامن قبل الميلاد قلم يسمى بالديموتيقى . اذ أن لفظ « ديمو » يقابل فى اليونانية معنى الشعب . وكانت هذه كتابة الشعب

الفينيقيون والآراميون ينشرون الكتابة

إن كانت أرض مصر ترحب بأبنائها وتغريهم بالاقامة فان طبيعة بلاد الفينيقيين هى التى جعلتهم قوم تنقل ورحلة . فقلة خيراتها جعلت أهلها لا يطيقون بها مكثاً ، ولما كانت سهلا ساحليا ضيقا يحصره من الجهات الأخرى جبال شامخة يكسو سفوحها غابات الأرز ، لم يفكروا إلا فى اتخاذ البحر متنفسا لضيقهم فصنعوا السفن وأجادوا صنعها ونزلوا إلى البحر . وكان البحر مما يليهم يرحب بهم ، لأنه لم يكن بالعميق الذى يخيف حديثى العهد بالملاحة ولم يكن شاقا إذ كان به كثير من الجزر مما يجعل الملاح المبتدىء يطمئن

نزل الفينيقيون إلى البحر المتوسط بين مدنيات عريقة فى القدم وأخرى كانت ناشئة فتية وثالثة كانت تختمر ، وتحتاج كل منها لعناصر من الاخرى . فتحتاج هذه لعناصر النشاط ، وتلك لتراث الاقدمين حتى تبعثه نشيطا فتيا ، والاخري لتلقيح ومد بأسباب الحياة . فتنقل الفينيقيون بين هذه الامم يتجرون بخيراتها ويقتبسون منها ما يحتاجون اليه ويعطون منه لتلك الامم المتطلعة الفتية

ولما كان الفينيقيون تجارا فقد كانوا أحوج من غيرهم للكتابة ، فأخذوا عن المصريين كتابتهم وحوروها إلى ما تقتضيه عجلة التاجر وضيق وقته ، فأعرضوا منذ القرن الثانى عشر قبل المسيح عن كتابة البابليين وألواحهم الطينية وفكرة تسجيل المقاطع وأخذوا يستوردون البردى من مصر ويكتبون عليه بالحبر والقلم

وأخذوا عن المصريين فكرة الحروف الهجائية التى تسجل عناصر الصوت ورمزوا لها باثنين وعشرين حرفا كانت تكفى لتسجيل لغتهم وسموها بأشياء تبدأ أسماؤها بهذه الحروف ، ورتبوها على تتابع معين ، فسهل استظهارها ، فكانوا يقولون . « ألف ، بيت ، جمل ، والت . . . » ويعنون « ثور فى بيت ، جمل ، باب » ، ولم يكن فى حروفهم ما يسجل الحركات أو حروف اللين

ونقل الفينيقيون فكرة هذه الحروف إلى أمم البحر الابيض جميعها ، وقد كان الاغريق المتقدمون حينما يتجمعون حول سفنهم يظنون الظنون بتلك العلامات السوداء التى كانوا يحدثونها بالرقاع الصفراء الباهتة ، ظنوها تعاويذ وسحراً ، لكنهم لم يلبثوا أن تعلموها ، فأخذوا يكتبون بها الكلمات الاغريقية ، وكان ذلك النواة الاولي لحضارة الاغريق التى ظهرت بعد ذلك وبهرت الانظار

وقد لاحظ الاغريق انه لم يكن فى الاحرف الفينيقية ما يمثل حروف اللين ولاحظوا أيضا انه كان فى لغة الفينيقيين مخارج لحروف غير موجودة فى لغتهم فاستعملوا صورها لتسجيل حروف اللين عندهم وبدأ الاغريق يسجلون بوا كير أنتاجهم الذهنى على أوانيهم وأوعيتهم ، ولم يلبثوا أن يحلوا آثارهم الادبية التى كانت الالسن لا تزال تتناقلها جيلا عن جيل ، وخلفوا لنا ذلك التراث الهائل الذى كان بعثه فى أوربا فى عصر النهضة بعثاً للدنيا من جديد

ونقل الفينيقيون إلى أوربا مع الحروف الهجائية الورق والحبر والقلم ، وعن الاغريق أخذها الرومان وأعطاها الرومان الشعوب الجرمانية فانتشرت وعمت حتى لم يحل دون انتشارها الا جمد الشمال — وهكذا علمت مصر الغرب كيف يكتب ومهما أطنبنا فلسنا بموفين هذه الهدية حقها من الاطراء ، فقد أجمع الثقات على أنه لم يكن ممكنا بدونها للشعوب التى تتكلم الآرية أن تحرز ما أحرزته من تقدم أو رقى أو فلاح ، اذ انهم حتى يوم أخذوها لقمة سائغة لم يكن عندهم أى أثر يعد نواة لفكرة الكتابة

وكان الآراميون فى مفترق طرق العالم المتمدين فى زمنهم . فجعلهم مركزهم هذا تجارا . فانفردوا بجوب الفيافى وجاست قوافلهم بين امم ذلك الحين تحمل أدوات الحضارة التى اكتسبوها من الفينيقيين والمصريين وهى الحروف الهجائية والبردي والحبر والقلم . فعمت آسيا الغربية جميعها وطغت على المسمارية وانتشرت مما يلى الفرات الى بلاد فارس وآسيا الوسطى حيث عبرت حدود الهند وبذلك — لو استثنينا الحروف الصينية — فانه يمكن نسبة كل الحروف الهجائية التى يستعملها العالم الآن الى الحروف التى ابتكرها آباؤنا منذ آلاف السنين

اسماعيل شوقى

مطبعة مصر

على هامش الحياة

لو عاد موسى ، ويوذا ، والمسيح ، ومحمد ، ورأوا . ماحل بمبادئهم من التحريف ، وماعلق بأقوالهم من أدران الهوان ، وما تراكم على جوهرها من ركام التعصب ، والامتهان ، لبكوا جزعا ولتبرأوا من هذه الأديان . ولآثروا أن يولدوا فى يوم واحد ليتفقوا على نشر رسالة واحدة . ولقضوا على الكثير من رؤساء الأديان بالحرق وبئس المصير

* * *

يطلب الرجل الشهرة ، والعلم ، والمال ، والسيادة . ويريد ان يتمم قلبه بالمرأة

أما المرأة فتطلب عن ذلك كله الرجل وحده . وللرجل تحيا ، ومن أجله تفضل كل شىء

* * *

ثلاث مواقف يتحطم فيها قلب صاحب الأحساس النبيل

ا — يوم يطلع على خيانة أخ أو صديق !

ب — عندما يسبب نكبة لانسان

ج — حينما يضطر لمسألة اللئام

* * *

عار علينا أن ندعى الرقى رالمدنية ، والاستقلال . ونحن نشاهد شيخاً واحدا تظهر على وجهه علامات البؤس ومذلة الفقر

* * *

آمالنا هى التى تولد لنا مرارة النفس وسوداء الحياة . ومطامعنا هى التى تذلنا وتستعبد نفوسنا . واليأس فيه السعادة ولكنه رمز الفناء

* * *

عند مايصبح الموظف شاكياً سوء حاله ، فاعلم انه انما يندب حريته التى أضاعها وقبض ثمنها نقوداً . فالحرية أثمن من الحياة ذاتها ! . . .

* * *

ألا يجب علينا أن نتأمل فى مذهب النشوء والارتقاء ونحن نشاهد بشراً يشبهون البق فى سماجتهم ، والكلاب فى تذبذبهم ، والقرود فى لؤمهم ؟ ! . . .

* * *

بعض الناس لولا نقودهم ، لأنفت الحياة من أن تضعهم فى عداد حميرها ! . . .

* * *

أخفقت البشرية فى حل مشاكلها لأنها أخضعت كل شىء لحيوانية السياسة !

* * *

فى الثقة جمال الحياة وان كانت أصل النكبات . واتهام الناس بلا بينة جريمة وان كان الشاعر يعده من حسن الفطن ! . . .

* * *

يحسب الكثيرون الحياة حلماً ، والحب خيالا ويكرهون الحياة حقيقة عارية ويهربون من الحب اذا أراد أن يربطهم بامرأة مهما تكن سامية ! . . .

* * *

تستطيع أن تنال عطف كل حماة بشرط أن تطعن شرف ابنتها ! . . .

* * *

اذا تساهلت المرأة بالنيل من شرف زوجها فاعلم أنها لاتتورع أن تبذل نفسها ! . . .

* * *

ويل للحياة العائلية اذا فقدت العطف والتضحية

* * *

فى الشيوعية لعنه الحياة ، وفى الدكتاتورية امتهانها ! . .

* * *

لبعض الرجال نفسية الوحش . اذا ابتسمت له المرأة عدها بغياً ، واذا أعرضت عنه عدها حيواناً وفى الحالين لايتورع عن أن يهدم سمعتها !

* * *

أصل الحب غريزة جنسية هذبتها الأجيال . وأصل الصداقة مصلحة اجتماعية صقلتها الأيام . وأصل الرحمة أنانية شخصية رقتها الأديان

* * *

اثنان أرثى لهما : رجل جاء قبل اوانه . ورجل جاء بعد أوانه ! . . .

* * *

حياة بلا دين ولا مبدأ الانتحار خير منها ! . . .

* * *

ما أشقانا ونحن نتردد بين حقيقة الفضيلة كما نفهمها ، وحقيقة الفضيلة كما يريد أن يمليها علينا الناس ولاسيما العامة ! . . .

* * *

تمر بكل انسان أزمة نفسية تدمر مثله العليا ان لم يكن سامى الخلق متين التربية !

* * *

لو قدر لامرأة أن تثق من جمالها ، ومن تأثيرها الدائم فى الرجال ، وكان لها الحق فى اختيار زوجها . لخرجت من الدنيا دون أن تجده ولآثرت أن يكون من ساكنى الجنة . أما اذا شكت فى جمالها فما أشد قناعتها . فانها تلقى نفسها فى أحضان أول طالب ولو كان أحمق من هبنقة ! . . .

* * *

اذا عجز الرجل عن ادراك المجد . أراده لابنه . واذا عجزت المرأة عن الحب أرادته لابنتها ! .

« عجلون . شرق الاردن » العزيزي

الشمس التي تموت

الفصل الاول من كتاب « الكون العجيب »

تأليف الاستاذ جيمس جينز

كلنا نعرف أن هناك نجوما لايتعدي حجم الواحد منها حجم الأرض ولكن أغلب البقية الباقية من هذه النجوم عظيمة الحجم بحيث قد يتسع الواحد منها لمئات الألوف من مثل حجم الأرض ومع ذلك يظل هناك فراغ زائد وفى الفضاء نجوم أكبر من ذلك بكثير فهنا وهناك نجد نجما هائلا من الكبر بحيث يتسع لملايين الملايين من أمثال حجم الأرض وليس للالوف منها فقط . ولا شك أن عدد كل النجوم التى فى كل الكون يقرب من عدد دقائق الرمل التى على كل شواطىء بحار العالم بأجمعها . من هذا نرى مقدار صغر مسكننا وشدة تفاهة مكاننا فى الفضاء مقارنا بمجموع المادة التى يحتويها الكون

ويهيم هذا القدر الهائل من النجوم فى الفضاء مجتمعا بعضه فى جماعات كرفقاء فى الطريق . على أن الغالبية من بينها تسبح فى الكون منفردة منعزلة وهى تسبح فى كون لايسمح لنا فضاؤه أن نتصور أن نجمين منهما يمكن أن يتقابلا : إن العدد الاكبر من هذه النجوم يسبح فى عزلة تامة ووحدة منقطعة كسفينة فريدة فى محيط قفر . ولو شبهنا النجوم بالسفن لكان متوسط بعد كل سفينة عن أقرب السفن لها أكثر من مليون ميل . ومن هنا نرى لماذا يندر أن تتقابل سفينتان فى عرض الطريق

ومع ذلك نعتقد أنه من منذ مليارين من السنين تقريبا حدث هذا الحادث النادر فتقابل نجم فى اثناء سيره الاعمى فى الفضاء بالشمس وكما أن الشمس والقمر يسببان باقترابهما وابتعادهما من الأرض أمواج المد والجزر على سطحها فكذلك لابد أن اقتراب هذا النجم من الشمس قد أوجد فى سطحها تجعدات تشبه حركات الأمواج على سطوح المياه ولكنها تختلف ولا شك اختلافا عظيما عن تلك التجعدات الضعيفة التى يسببها القمر فى سطوح مياه محيطاتنا . لابد أن موجة عنيفة



رمسيس شحاته

عبرت سطح الشمس عندئذ حتى أوجدت فى آخر الأمر جبلا شاهق العلو. أخذ يتعالى كلما اقترب منه سبب ذلك الانقلاب ألا وهو النجم وقبل أن يبدأ هذا النجم فى الابتعاد رويدا رويدا من الشمس كان مقدار جذبه لسطحها كافيا لأن ينصدع هذا الجبل الذى تكسر عندئذ إلى أجزاء تطايرت فى الفضاء كما يتطاير الرذاذ من الأمواج. ومن ذلك الحين وهذه الأجزاء تدور حول أبيها الأول وهو الشمس. هذه هى الكواكب السيارة كبيرها وصغيرها والتى تعد الأرض واحدة منها

إن الشمس وكذلك كل النجوم الأخرى التى نراها فى السماء فى درجة حرارة عالية بحيث لا يمكن أن تظهر عليها الحياة. ولا شك أن تلك الأجزاء المتطايرة من الشمس كانت كذلك فى وقت تطايرها ولكنها بردت شيئا فشيئا حتى أصبحت الآن ليس لها حرارة خاصة فى نفسها. إن كل ما فيها من الحرارة هو تقريبا ماتكسبه من أشعة الشمس. هذه بوادى القصة. أما مايلى منها فلا نعرف عنه شيئا فقد ظهرت الحياة على جزء من هذه الأجزاء فى أثناء بروده ولسنا نعرف كيف كان ذلك ولا متى كان ولا السبب فى ظهورها

ولقد بدأت الحياة فى أحياء بسيطة كان كل همها التوالد ثم الموت. ولكن من هذه البوادى انبعث تيار حى انتهى بعد أن مر فى حالات أخذت فى التعقد تدريجيا كأن أوجد مخلوقات ترتكز حياتها على عواطفها وأطماعها على أذواقها الفنية ودياناتها التى احتفظت فيها على أعلى أمانيها وأنبل مقاصدها

اننا لانستطيع أن نؤكد شيئا ولكنه من المحتمل أن تكون الأنسانية قد وصلت إلى الوجود على هذا النحو. اننا وقد هبطنا على هذا الجزء الصغير من حصاة رمل نحاول جهدنا أن نزيح الستار عن طبيعة الكون الذى يحيط بمسكننا فى الفضاء والزمن وعن الغرض والقصد منه

أول إحساس نحسه عندئذ هو شىء يشبه الهلع. إن الكون يرعبنا بهول مسافاته وبطول زمنه السرمدى الذى يجعل تاريخ البشرية كطرفة عين ثم يخيفنا بوحدتنا المطلقة وصغر مسكننا وعدم أهميته المادية بل تفاهته فى الفضاء. مسكننا الذى هو جزء من مليون من حصاة رمل بين رمال كل الشواطىء الموجودة فى العالم. ولكن الكون هنا أكثر لأنه يظهر لنا فوق كل هذا غير آبه أو مكترث لاي حياة كحياتنا. إن العاطفة والغاية والنجاح والدين والفن كل هذه تظهر غريبة بالنسبة له. وربما وجب علينا أن نقول انه لايحمل بين طياته أى حياة أخرى كحياتنا. إن الفضاء الخالى قارس البرودة فى أغلب أجزائه بدرجة تجعل كل حى فيه يتجمد. وعلى العكس من ذلك المادة المنتشرة فى الفضاء محرقة القيظ بحيث تستحيل عليها الحياة وفوق ذلك أنواع متباينة من الأشعة تخترق الفضاء وتنصب على مافيه من الاجرام الفلكية ومن بين هذه الأشعة كثير من الأشعة التى لاتلائم الحياة إن لم تكن قادرة على اهلاكها

لقد هبطنا فى عالم كهذا ونحن لا نعرف جيدا كيف كان ذلك فانه إن لم يكن بطريق الخطأ ربما كان على الأقل بطريق ما نستطيع أن نسميه عن حق وصدق بالمصادفة. إن استعمال هذه الكلمة

لايعنى أنه من الغريب أو المدهش أن الأرض كائنة وموجودة الآن إذ لابد أن يكون هناك المصادفات كهذه وإذا بقى العالم مدة طويلة فمن المحتمل أن تتحقق كل المصادفات الغريبة التى نستطيع أن نتصورها فى كل وقتها

أظن أنه هكسلى الذى قال على ما أعتقد أننا إذا تركنا ستة قرود تضرب دون أن تعى على آلات من آلات الكتابة مدة ملايين السنين فانها لابد ستكتب بمرور الزمن كل الكتب الموجود فى المتحف البريطانى وانا إذا تأملنا آخر صفحة كتبها أحد هذه القردة ووجدنا أن ضربه على الآلة قد أفضى بطريق المصادفة إلى كتابة إحدى مقطوعات شكسبير فانه يحق لنا أن نعتبر هذا الحادث كمصادفة تمرينية . ولكننا إذا راجعنا ملايين الصفحات التى كتبت خلال هذا العدد الوفير من ملايين السنين فاننا نستطيع أن نوطن النفس قبل البدء فى المراجعة على أننا سنجد مقطوعة من مقطوعات شكسبير مكتوبة فى إحدي هذه الصفحات وذلك بطريق المصادفة العمياء . والامر كذلك بالنسبة إلى الاجرام السماوية فمنها ملايين الملايين التى تهيم فى الفضاء ملايين ملايين السنين وهذه لابد أن تلقى كل أنواع الصدف الممكنة . وبهذه الصورة نري أنها لابد أن تعطى مع الزمن عددا معينا من المجموعات الشمسية . ولكن عدد هذه المجموعات كما يسهل فهمه جيدا لابد وأن يكون ضئيلا بالنسبة لعدد الأجرام نفسها

وبدورة المجاميع الشمسية نقطة هامه لأن الحياة كما نرى لايمكن أن توجد إلا على كواكب مثل الأرض . إذ يجب لظهورها شروط فيزيكية مناسبة أهمها أن تكون على درجة حرارة تسمح بان توجد فيها الأجسام على هيئة سوائل

إن النجوم نفسها مستثناه من ذلك . لأنها حارة جدا ونستطيع اعتبارها كنيران ملتهبة هائلة موزعة فى الفضاء تشع حرارة فى جو لا تزيد درجة حرارته على أربع درجات فوق الصفر المطلق أى — ٤٨٤ درجه برودة تقريبا حسب مقياس فهرنهيت بل أبرد من ذلك فى الفضاء الواسع الممتد بعد طريق المجره . فعلى بعد من هذه النيران المتقدة نجد ذلك البرد الهائل الذى لايمكن أن نتصوره إذ يتعدى مئات الدرجات من البرودة على حين أنه على مقربة منها نجد تلك الحرارة الهائلة التى تبلغ آلاف الدرجات والتى تنصهر عندها كل الأجسام الصلبة وتغلى فيها كل السوائل

إن الحياة لاتستطيع أن توجد وأن تبقى إلا داخل منطقة ضيقة معتدلة الحرارة تحوطها كل من هذه النيران وتبعد عنها مسافة معينة . وخارج هذه المناطق تموت الأحياء من البرد أما إذا تعدتها مقتربة من النيران فانها تحترق من الحرارة . إن تقديرا بسيطا لمجموع هذه المناطق يرينا انها لاتتعدى جزءاً من مايون مليار من الفضاء كله . إلى كل ذلك داخل هذه المناطق لابد أن تكون الحياة

نادرة جدا لأنه من المصادفات القليلة أن تقذف كل شمس كوكبا سيارا كما فعلت شمسنا إذ المحتمل جدا أن يكون لشمس واحدة من بين كل مائة الف شمس كوكبا يدور حولها فى هذه المنطقة المحدودة حيث الحياة ممكنة

لذلك يظهر مستحيلا أن يكون الكون قد صمم فى أول الأمر لأن يكون مهدا للحياة . لانه لو كان كذلك لحق لنا أن نتوقع تناسبا أكثر بين عظم الآلة وضخامتها ثم انتاجها . إن الحياة تظهر فى أول الأمر على الأقل كأنها ناتج ثانوى ليس له أى قيمة ونحن الاحياء نظهر كأننا قد حدنا عن الطريق الأساسى وضللنا السبيل

لسنا نعرف إذا كانت الشروط الفيزيكية المناسبة كافية فى حد ذاتها لانتاج الحياة أو لا. وهناك مدرسة معينة تدعى , أنه بمجرد برود الأرض تدريجيا . كان طبيعيا بل حتما أن تظهر الحياة عليها وأخرى تدعى أنه بعد أن أوجدت الصدمة الأولى الأرض لزمت مصادفة ثانية لظهورها الحياة . إن المكونات المادية الأولية للكائنات الحية هى ذرات كيماوية عادية : كربون كالذى نجده فى هباب الدخان وايدروجين وأوكسجين كالذين نجدهما فى الماده وازوت كالذى يكون الجزء الأكبر من الهواء الجوى . وهكذا . وكل هذه الذرات التى يتقيد وجود الحياة بوجودها وجب أن توجد على الأرض وقت نشوئها . كان من الممكن من وقت لآخر أن ترتب بطريق المصادفة مجموعة منها كما هو ترتيبها الآن فى الخلية الحية

فنى الواقع ليس من الصعب أن تترتب هذه الذرات على ذلك النحو بعد مرور مدة كافية كما انه من السهل أن تكتب القرود الستة بعد الزمن الكافى مقطوعة من مقطوعات شكسبير . ولكن هل تكون عندئذ هذه الذرات خلية حية ؟ أتكون الخلية الحية إذن عبارة عن مجموعة من الذرات فقط أم مجموعة من الذرات مضافا اليها الحياة . أو بعبارة أخرى هل يستطيع كيميائى ماهر أن يخلق الحياة مبتدئا من الذرات اللازمة لذلك كما يخلق الطفل آلة ما من صندوق العابه ثم يجعلها بعد ذلك تسير ؟ إننا نجهل الجواب حتى الآن ولكنه عندما يأتى سيخبرنا عما إذا كان هناك عوالم أخرى مأهولة كعالمنا أولا وسيكون له أكبر أثر فى تفسيرنا لمعنى الحياة ومن الممكن أن يحدث هذا الجواب فى الفكر البشرى قوة أقوى وأبعد مدي من الثورة التى أوجدتها مجاميع جاليلى الفلكية أو نظرية داروين الحيوية

إن ما نعرفه جيدا على كل حال هو أن المادة الحية تتكون من ذرات عادية وتمتاز الذرات التى يتكون الجزء الأكبر من المادة الحية منها بميلها إلى التجمع أو التجلط فى مجاميع أو فى جزيئات كبيرة الحجم بشكل واضح

ان أغلب الذرات ليس لها هذه الخاصة . فذرات الايدوجين والأكسوجين مثلا تستطيع أن تتحد فتكون جزيئات الايدروجين (يد ٢ أو يد ٣) أو جزيئات الأكسوجين أو الاوزون (٢١ أو ٣) أو الماء (١ ـ ٢) أو ماء الأكسوجين (١ ـ ٢ ـ ٢) ولكن ليس من بين هذه المركبات كلها مركب يحتوي أكثر من أربع ذرات واضافة الأزوت لا تغير فى الموقف كثيرا فمركبات الايدروجين والأكسوجين والازوت تحتوي نسبيا عددا قليلا من الذرات ولكن اضافة الكربون تغير الموقف كلية . فان ذرات الايدروجين والاكسوجين والازوت والكربون خصوصا تتحد لتكون جزيئات بها مئات بل آلاف بل عشرات الالوف من الذرات . والاجسام الحية تتكون رئيسيا من جزيئات كهذه . ومن مدة قرن تقريبا كان من المسلم به أنه لا بد من قوة حيوية لتكوين هذه الجزيئات الهائلة وكذلك كل الجزيئات الاخري التى تدخل فى تركيب الجسم الحى ولكن موهلر استطاع عندئذ أن يحضر البول (ك ا ايد ٢ ز ع) فى معمله وبواسطة الطرق الكيمائية العادية . والبول ناتج حيوانى صرف . بعد ذلك تحقق تحضير مواد أخرى تدخل فى تركيب الجسم الحى . ونحن نفسر الآن الظواهر التى كانوا يعزونها الى تلك « القوة الحيوية » الواحدة بعد الاخرى وذلك بواسطة الطرق العادية للفيزياء والكيمياء . ومع ان المسألة لا تزال بعيدة عن الحل فانه يظهر أن الذى يميز المادة الحية عن المادة الغير الحية ليس هو وجود « القوة الحيوية » انما وجود ذلك العنصر العادى البسيط وهو الكربون متحدا دائما بذرات أخرى ومكونا بذلك جزيئات كبيرة الحجم بشكل غريب

اذا كان الامر كذلك فالحياة ليست موجودة فى الكون الا لان ذرة الكربون لها بعض الخواص الغريبة . وأهمية الكربون من الوجهة الكيمائية تنحصر فى أنه يكون الحد الفاصل بين الفلزات واللافلزات . والكربون على هذا الاعتبار لا يرينا فى تكوين ذرته الفيزيكى ما نفسر قدرته الخاصة على ربط الذرات ببعضها . ولكن لو تأملنا قليلا نرى أن ذرة الكربون من ناحية أخرى ستكون من ستة الكترونات تدور حول نواة مركزية كستة كواكب سيارة تدور حول شمس فى الوسط لاتختلف من ذرات أقرب المواد اليه فى الترتيب الكيمائى وهى البور والازوت الا فى أن بها الكترون أكثر من الاول والكترون أقل من الثانى . ان هذا الفرق على ضآلته يجب أن يفسر عند آخر تحليل الفرق بين الحياة وغياب الحياة . ومما لا شك فيه ان السبب فى أن الذرة التى لها ستة الكترونات لها كل هذه الخواص العجيبة يرجع مصدره الى قانون أولى من قوانين الطبيعة لم تستطع الفيزياء الرياضية ازاحة الستار عنه بعد

إن الكيمياء تعطينا حالات أخرى مشابهة لهذه . فظاهرة المغناطيسية الدائمة تظهر بدرجة

واضحة فى الحديد وبدرجة أقل فى النيكل والكوبلت . وذرات هذه العناصر فيها على التوالى ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ الكترون . أما الخواص المغناطيسية هل الذرات الأخري مما يمكن اهماله بالنسبة لهذه . وليس هناك سبب ظاهر لذلك ان الفيزياء الرياضية لم توضح بعد هذه المسألة وهى ان المغناطيسية تعتمد وتتوقف على الخواص الغريبة التى للذرات التى بها ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ الكترونا وخصوصا الأولى من بينها . ويقدم لنا النشاط الضوئى مثالا ثالثا من الذرات التى لها من ٨٣ إلى ٩٣ الكترون . وهنا أيضا لم ينجل الأمر بعد

ان الشيء الوحيد الذي تستطيع أن تعلمنا اياه الكيمياء كما نرى هو انه يجب أن نضع الحياة والمغناطيسية النشاط الضوئى فى فصيلة واحدة . ان الكون مكون ومركب بحيث يسير حسب قوانين معينة . وحسب هذه القوانين نرى ان الذرات التى لها عدد من الالكترونات سواء كان ٦ أو من ٢٦ الى ٢٨ أو من ٨٣ الى ٩٣ لها خواص معينة تظهر لنا على التوالى فى الحياة أو المغناطيسية أو النشاط الضوئى . ولو كان هناك خالق قادر على كل شيء لا يقيده أي قيد لما كان مضطرا الى الاقتصار على القوانين التى يسير الكون الحالى . ولاستطاع تركيب كون يتفق وأي من مجاميع القوانين الأخرى الممكنة وهى متناهية العدد وفى هذه الحالة أى لو أن مجموعة أخرى من القوانين وقع عليها الاختيار لكان هناك ذرات أخرى خاصة لها خواص أخرى عجيبة مرتبطة بتركيبها ونحن لا نستطيع أن نقول أي خواص كانت تكون هذه الخواص ولكنه يظهر بعيد الاحتمال أن تكون المغناطيسية أو النشاط الضوئى أو الحياة من بينها . ان الكيمياء توحى الينا ان الحياة كالمغناطيسية والنشاط الضوئى وقد لا تكون موجودة كنتيجة عرضية لمجموعة القوانين الخاصة التى تسير الكون الحالى

صحيح ان كلمة عرضية عرضة للنقد والمناقشة لأنه لماذا لا يكون خالق الكون قد اختار هذه هذه المجموعة الخاصة من القوانين لأنها تمهد لظهور الحياة ؟ ولماذا لا تكون هذه هى الطريقة التى لجأ اليها الخالق لايجاد الحياة ؟ وما دمنا نعتبر الخالق كائنا كالبشر له عواطف ومصالح كالتى لنا فاننا لا نستطيع أن نرد على هذا الاعتراض الا بأن نقول : انه بمجرد قبولنا لغرض كهذا فليس هناك جديد يمكن أن تضيفه المناقشة إلى ما قد قبلناه ولكننا اذا أبعدنا عن عقولنا كل أثر لبشرية الخالق فانه لا يبقى لنا أي سبب أو داع لان نفرض ان القوانين الحالية قد اختيرت خصيصا لاظهار الحياة أو لانها تمهد لها . بل يصبح من المعقول جدا أو نفرض انها اختيرت مثلا لاظهار المغناطيسية أو النشاط الضوئى وذلك أكثر احتمالا خصوصا وان الفيزياء تلعب فى الطبيعة دورا أكبر بكثير ما تلعبه البيولوجية . واذا تأملنا المسألة من الوجهة الماديه البحتة نرى أن ندورة الحيلة وقلة قيمتها

وتفاهتها تهدم من الاساس الرأى القائل بأنها كانت محط عناية مهندس الكون الاعظم ان مثلا مألوفا قد يجعلنا نفهم الموقف فهما أحسن . وان بحارا عديم الخيال متعودا ربط العقد وعملها قد يفطن الى أنه من المستحيل أن يعبر المحيط لو استحال عليه ربط هذه العقد . وبما ان عقد حبل ليس ممكنا الا فى فضاء ثلاثى المقاييس فليس من الممكن تحقيق أى عقدة فى فضاء أحادى أو ثنائى أو رباعى أو خماسى أو مكون من أى عدد آخر من المقاييس . ومن هذا قد يستنتج صاحبنا البحار عديم التصور أن خالقا محسنا قد وضع البحار تحت حمايته الخاصة ورعايته الساهرة . وان هذا الخالق قد أراد ان يكون الفضاء ثلاثى المقاييس حتى يصبح من الممكن عقد العقد ومن ثم عبر المحيط أو فى كلمة واحدة قد أراد ان يكون الفضاء ثلاثى المقاييس حتى يمكن ان يكون هنا بحارون

وواضح ان لهذا المثل نفس قيمة التدليل الذى سقناه من قبل فالحياة فى مجموعها وكذلك عقد العقد لهما تقريبا نفس الاهمية اذ أن كلاهما ليس الا جزءا يمكن اهماله من النشاط الكلى فى الكون المادى

على هذا النحو اذا جئنا الى الوجود : (وذلك حسب فروض العلم الخيالية) فلشد ما تزداد دهشتنا عند ما ننتقل من مشكلة أصلنا الى مشكلة القصد والغاية فى وجودنا وكذلك اذا حاولنا ان أن نكشف ما يخبئه القدر لجنسنا

ان الحياة كما نعرفها لا يمكن أن توجد إلا اذا توافرت لها حالات مناسبة من الضوء والحرارة ونحن أنفسنا لسنا موجودين الى الآن الا لأن الارض تتسلم من الشمس الكمية المطلوبة بالضبط من الاشعاع . واذا اختل هذا التوازن إن نقصا وإن زيادة فان الحياة يجب أن تختفى عندئذ من على الارض . والمهم فى الأمر أن هذا التوازن من السهل جدا الاخلال به وقطعه

ان الانسان البدائى الذى عاش فى المنطقة المعتدلة من الكرة الأرضية لابد قد هلع لرؤية العهد الجليدى يهبط على مساكنه فكل عام كانت تصل الثلاجات فى الوادى الى نقطة أبعد مما وصلت اليه فى العام الذي قبله وفى كل شتاء كانت الشمس تظهر أقل قدرة على أن تمده بالحرارة التى تتطلبها الحياة وبالنسبة له كما هو الحال بالنسبة لنا كان الكون مطارداً ومعاديا للحياة . ونحن الذين نعيش الآن فى تلك المنطقة المعتدلة التى تحيط بالشمس والذين نحاول جهدنا لأن نخترق حجب المستقبل البعيد نرى أن خطر عصر جليدي من طبيعة أخرى يهددنا . فكما حكم على ناتال ، لو أنه كان واقفا فى حوض ماء لو زاد قليلا لكان كافيا لاغراقه وأن يموت عطشا كذلك مصير جنسنا المحزن وهو أن نحتمل أن نموت بردا مع أن الجزء الأكبر من المادة التى فى الكون ستظل محرقة بحيث

لاتستطيع الحياة ان تنشأ عليها . فالشمس وليس لها منابع خارجية للحرارة ستشع بالضرورة كمية أقل فأقل من أشعتها التى تولد الحياة وبذلك يجب أن تتناقص المنطقة المعتدلة حيث يمكن للحياة أن توجد مقتربة شيئا فشيئا حول الشمس وحتى يمكن أن تستمر الحياة يجب ان تقترب الارض رويدا من هذه الشمس التى تموت ولكن العلم يخبرنا أن قوانين الديناميكا بدلا من أن تقرب الارض من الشمس تبعدها عنها وتطاردها نحو الصقيع والظلمة الخارجية وعلى قدر مانستطيع أن نرى ستظل هذه القوانين تعمل حتى يقتل البرد الحياة على الارض الا اذا حصل اصطدام أو انقلاب سماوى ينهى الحياة بأسرع من ذلك . ان هذا المصير المحزن ليس محفوظا لأرضنا فقط فهناك شموس أخرى ستموت كشمسنا وعلى ذلك فالحياة التى يمكن أن تكون على كواكب سيارة أخرى ستلقى نفس النهاية المحزنة

ان الفيزياء تعلمنا نفس مايعلمنا الفلك . لأن المبدأ العام المعروف باسم القانون الثانى للديناميكا الحرارية يعلمنا مستقلا من كل الاعتبارات الفلكية أنه لايمكن أن يكون للكون الا نهاية واحدة وهى « الموت الحرارى » حين تصبح كل الطاقة التى فى الكون موزعة بالتساوى وحين تصبح كل المواد التى فى الكون فى درجة حرارة واحدة وهذه الدرجة ستكون واطئة جدا بحيث تصبح كل حياة مستحيلة وليس ذا أهمية أن نعرف بأى طريق سنصل الى هذه النتيجة النهائية فكل الطرق تؤدى الى روما ونهاية الرحلة لايمكن أن تكون غير الموت للجميع

أفى هذا كل القصد من الحياة وكل ماتعنيه ؟ ان نوجد كما لو كان ذلك اثر غلطة فى كون من الواضح أنه لم يرتب خصيصا للحياة بل تدل كل الظواهر على أنه غير عابىء بل معاد ومطارد لها . ثم ان نظل معلقين على قطعة من حبة رمل حتى يجلينا عنها صقيع الموت وأن نتبختر لحظة قصيرة على مسرحنا الصغير ونحن نعرف جيدا أن كل أمانينا موكولة الى فشل نهائى وأن كل ما عملناه يجب أن يهلك معنا تاركين الكون كما لو لم نوجد فيه أبدا

ان الفلك يضع السؤال ولكنى أعتقد أنه يجب أن نطلب الجواب من الفيزياء . لأن الفلك يستطيع أن يعلمنا الترتيب الحالى للكون ، هول الفضاء وفراغه ثم ضآلة المحل الذي نشغله فيه وهو يستطيع أن يقول لنا شيئا عن طبيعة التغيرات التى تحدث فيه على ممر الزمن ولكن يجب أن نتأمل فى طبائع الأشياء الاساسية قبل أن نستطيع أن نؤمل جوابا لسؤالنا . وهذا ليس فى حدود الفلك بل سنرى أن البحث يقودنا مباشرة الى قلب الفيزياء الحديثة

مصير النظم المدرسية الحاضرة

بعد تنفيذ المعاهدة

(نص المحاضرة التي ألقاها الدكتور آمير
بقطر بقاعة يورت التذكارية بالجامعة الامريكية
فى مساء يوم الثلاثاء ٢٤ نوفمبر)

(ا) علاقة التعليم بالمعاهدة

ليس من الغرابة فى شيء أن نتخذ هذا العنوان موضوعا لبحثنا فى هذه الليلة . ليس من الغرابة فى شيء أن يكون ثمة اتصال بين مسائل التعليم القومى وبين تنفيذ المعاهدة للأسباب الآتية :

أولا — لأنه بهذه المعاهدة مهما بلغ تشاؤم المتشائمين تلقاءها تجتاز البلاد المصرية حادثا خطيرا ومرحلة حاسمة فاصلة قلما نجد لها منذ أن غزا الفرس والاغريق مصر إلى يومنا هذا نظيرا . بهذه المعاهدة مهما بلغ تشاؤم المتشائمين أزاءها تسير مصر على عجل فى طريقها الجديد المرصوف بلغت نفقاته ما بلغت نحو الدولة ذات السيادة

وإذا ما تتبعنا حوادث التاريخ السياسى عند جميع الأمم البائدة منها والباقية لوجدنا ان مسألة التعليم القومى لم تكن منذ القدم (ولا تزال) إلا علاقة بين الدولة والفرد وقد بدت طلائع هذه العلاقة منذ أن أخذ كل من افلاطون وتلميذه أرسطو ان يبحثا فى معنى التربية وأن يقولا لنا فى عبارة صريحة مبتكرة « ان طبيعة التربية أو خصائصها يحددها نوع الدولة » وقد قال افلاطون أيضا « ان الشبيبة اذا استقام تعليمها القومى جرت مقادير الدولة فى أعنتها على أحسن منوال » وقال أرسطو « ان أكبر العوامل فى ثبات الدساتير وتوطيدها على دعامة راسخة البناء هو تكييف العلاقة بين طابع التربية وطابع الحكومة »

وعلى أساس هذا المبدأ الحكيم العهد شيدت أعرق النظم التعليمية فى أوربا . على أساس هذا المبدأ أقام فريدريك الكبير صرح التعليم فى بروسيا (ألمانيا) وعلى أساسه أقام نابليون بونابرت صرح التعليم فى فرنسا وعلى منواله نسج رجال الجمهورية الفرنسية بعد . وعلى أساسه أقام جورج واشنطن ومعاصروه صرح التعليم فى ولايات أمريكا المتحدة . بيد ان هؤلاء الزعماء وغيرهم من واضعى أسس الأنظمة التعليمية لم يتفقوا فى تفسير هذا المبدأ ولم يتمشوا معا فى تطبيق تفاصيله فبينما كان كل من فريدريك ونابليون ينادي بحق الدولة فى تشكيل رعيتها على نمط خاص ونموذج

معلوم كان واشنطن يقول ويلح فى القول « ان دوام الحكم الديموقراطى مقترن بحرية الرعية واستنارة أبنائها » وقد انشقت الدول الحديثة بعد الحرب العالمية العظمى إلى شقين ففى الناحية الواحدة نجد تلك الدول التى تدوس على حرية الأفراد لأن الفلسفة المشادة على أساسها أنظمة التعليم تضع الدولة فوق الفرد وأمثال هذه الدول الدكتاتورية التى تدين بمبدأ الكلية totalitareanism روسيا . ألمانيا . ايطاليا . دول البلقان . تركيا . اليابان . وفى الناحية الثانية نجد الدول الديموقراطية التى تبنى كيانها على ارادة الأفراد وأمثالها الدول الاسكندناوية (أسوج ونروج ودنمارکا) ثم هولندة وبلجيكا . فرنسا . بريطانيا العظمى وممتلكاتها وأمريكا

ثانيا — ان بوادر العمل إلى الاصلاح والهدم والتعمير بادية فى جميع الوزارات فوزارة الداخلية تجد فى مركز مصر الدولى الجديد ما يدعو إلى الضرب بأيد من حديد على أيدى الجناة وأرباب السوابق من القتلة واللصوص . ووزارة الصحة تتأهب لاصلاح القرية واشهار حرب عوان على الأمراض الطفيلية المستوطنة التى تفتك بالفلاح . ووزارة المواصلات تمد عدتها لشق الطرق ومد الشرايين فى جسم البلاد . ووزارة الحربية تضع الخطط للقيام باعباء التزاماتها الجسيمة القادمة . ووزارة الخارجية والحقانية تدرسان موقفهما أزاء مشروع الغاء المحاكم المختلطة . وهكذا نجد هذه الوزارات وغيرها قائمة على بكرة أبيها أو تحاول العمل تحقيقا لأمانى الوطن فهل يعقل ألا تتناول ضروب الاصلاح وزارة المعارف فيقف رجالها مكتوفى الأيدى ؟ حقيقة ان المعاهدة التى أبرمت بين البلدين لم تنص مثلا نصا صريحا على نقل ثكنات وزارة المعارف العمومية من القاهرة الى صحراء سينا أو منطقة الاسماعيلية كما نصت صراحة على نقل ثكنات الجيش البريطانى إذ لم يعد لهذا النص من حاجة وقد كان يلزم النص بحروف بارزة فيما إذا كان المستر دانلوب لا يزال فعلا متسلما زمام القيادة العليا فى شارع الفلكى كما كان متسلما اياها فى شارع الطرقة الغربى ؟ وكان المفاوض المصرى لايقبل بتاتا أن يوقع على وثيقة المعاهدة وأن تنال البلاد حريتها واستقلالها قبل أن ينتقل دانلوب لقشلاقه لمنطقة نائية وقد لا أكون مبالغا مطلقا إذا قلت انه فى هذه الحالة ، حالة وجود دانلوب كان المفاوض المصرى يضع يده فى يد الحزب الوطنى مستعينا بعصاه الغليظة ومناديا « لا مفاوضة إلا بعد جلاء دانلوب » دانلوب يا حضرات السادة الذى تولى القيادة العليا فى وزارة المعارف سنة ١٩٠٦ رحل عن هذه الديار سنة ١٩١٩ أى عقب التوقيع على معاهدة فرسايل ولو أن اسم دانلوب لم يرد ذكره فيها كما نعلم ولكن أيها السادة — والعبرة فى الاستدراك — ولكن دانلوب أيها السادة لا يزال شبحه كما فى درامة هملت لا يزال شبحه ماثلا أمام عيوننا يلازمنا فى حياتنا المدرسية أينما حللنا . لا يزال جاثما فى كرسى الادارة الحديدية المركزية لا يزال رابضا فى عرينه يزار عند كل محاولة للاصلاح ويزمجر لكل فكرة جديدة جريئة حتى تهز زمجرته القطر من الاسكندرية الى اسوان ابحثوا عنه فى سجلات الوزارة ابحثوا عنه وراء كرسى الوزير ابحثوا عنه فى غرفة الوكيل

ابحثوا عنه فى عربات الدرجة الاولى فى السكة الحديد يوصى مفتشى وزارة المعارف خيرا ابحثوا عنه فى غرفة الناظر يزوده بالتعليمات الواردة من اسكتلندة من طراز سنة ١٨٦٠ — ابحثوا عنه أمام السبورة مختبئا روحه الهيولانى فى ذرات الطباشير يملى على المعلم ارادته السنية ابحثوا عنه فى مراقبة الامتحانات الجديدة يحذرهم من عواقب التساهل ويأمرهم بالتمسك بطرق الامتحان التقليدية القديمة وعدم الأخذ بتاتا بأنظمة الامتحانات الجديدة التى يسمونها بالامتحانات الموضوعية (Obyective) وابحثوا عنه أخيرا — ذلك الشبح المخيف الذى ترتعب منه فرائص همملت — ابحثوا عنه أخيرا بين مقاعد الطلبة فى حجر الدراسة يقول لهم همسا فى آذانهم البريئة الساذجة بصوته الأجش المخيف « يا رجال المستقبل يا أبناء مصر وبناتها يا ثمرة النظام الحديدى احفظوا عن ظهر قلب دروسكم واسمعوا وأعوا وإذا سمعتم فلا تسألوا ولا تتناقشوا ولا تنتفعوا حتى فى الامتحان النهائى تنجحوا . وحسنوا خطوطكم ونظموا كراساتكم فى قماطركم فالبحر أمامكم والعدو ورائكم (أو بالعكس) وايا كم والتفكير فانه هم بالليل ومذلة بالنهار »

وسيبقى تلاميذ دانلوب متربعين فى كراسيهم الدولبية متشبعين بتلك المبادىء العتيقة اللابيداغوجية ما بقى الشبح وسنظل نحن كهملت ترتعد فرائصنا خوفا ما بقى تلاميذ دانلوب يتلقون منه الأوامر ويستلهمونه الوحى منزلا تنزيلا ويخرون سجدا أمام روحه الهيولائى ويتركون شبحه يطل عليهم من وراء الستار

أخشى أيها السادة أن أكون قد استرسلت فى الخيال حتى نأت عنا معالم الحقيقة . ان دانلوب الذى نقصده فى هذا الكلام هو فى الواقع شخصية خيالية كالعنقاء هو فكرة متجسمة تكاد تكون تاريخية أكثر منها واقعية . لقد ترك لنا دانلوب الرجل أساسا لسلسلة طويلة من السيئات متحكمة حلقاتها ولكنا نقول انصافا للتاريخ والحق انه ترك لنا أيضا سلسلة من الحسنات فدانلوب الرجل كما قلنا ولى ولكن دانلوب الفكرة دانلوب العنقاء لا تزال تتدخل فى جميع الشئون التعليمية وتتغلغل فى جسم الوزارة لحمها وعظمها ودمها ودانلوب الفكرة منشأوها عوامل شتى وأسباب لا مجال لذكرها وبينها بالطبع دانلوب الرجل وليس دانلوب الرجل هو كل دانلوب الفكرة لقد قعدنا عن تغير نظمنا الادارية والدراسية بعد ذهاب دانلوب الرجل كان هذه النظم جسر لا يعبر وكان بعضنا ينظر الى دانلوب الفكرة ويقول للآخر

أري العنقاء تكبر ان تصاد   فعاند من تطيق لها عناد

ثالثا — من النظريات التى أصبحت لدينا بدهيات لا تقبل جدلا ان الدولة المحتلة وان كانت قد عنيت بكثير من ضروب الاصلاح فى مرافق البلاد فانها قد أهملت الناحية التعليمية منه اهمالا معيبا ولنا من كبار المصريين والاجانب بل من الانجليز أنفسهم من يؤيد هذا القول وحسبي أن أشير هنا إلى سفر نفيس وضعه باللغة الفرنسية أخيرا البحاثة القدير الحاج أحمد شفيق باشا موضوعه

(مصر الحديثة) أنحى فيه باللائمة على انجلترا (أنظر صفحة ١٩٦) لأنها عمدت الى اضعاف المدارس العليا والحط من مستواها وعملت على شل حركة البعثات الاجنبيه من الطلبة المصريين وطعن الثقافة الفرنسية فى مصر طعنة نجلاء بالاكثار من اللغة الانجليزية على حساب الفرنسية

وحسبي كذلك أن أشير إلى سفر باللغة الانجليزية وضعه مستر سبندر أحد أعضاء لجنة ملنر موضوعه The Changing East (الشرق المتغير) جاء فيه فى صفحة ما ترجمته —

« وفى هذه المملكة — مصر — لم تتقدم التربية القومية إلا قليلا جدا فالمنشئات الصحية والطبية منحطة المستوى إلى درجة تدعو لشدة الاسف والعيشة المنزلية سيئة جدا حتى اذ ما اتخذنا لها مقياسا بلدان الشرق المجاورة لها . لشد ما دهشنى التباين العظيم بين عيشة الاغنياء المنظمة فى المدن وعيشة الفطرة القذرة التى يقع فيها الفلاحون فى القري . ان هذا البون الشاسع لا يعزى للفقر وحده لان الموازنة هنا ليست بين الثروة والعدم وحسب بل بين لونين من ألوان العيشة مختلفين أليس من العجب العجاب ان يظل هذان اللونان من العيش جنبا الى جنب فى بلد كمصر بكيفية لا مثيل لها فى الاقطار الشرقية الاخري لقد عمرنا وادي النيل بطوفان من أعمال هندسية عظيمة الشأن وانتشلنا البلاد من وهدة الافلاس المالى وأنقذنا شعبها من السخرة (Corvee) والكرباج وغيرهما من وسائل التعذيب الوحشية ولكن لم تغير طرق المعيشة فيها تغيرا يذكر ولم تدخل فيها من وسائل التربية والحضارة الغربية ما يليق بسمعة بريطانيا »

اذا حق لنا ان ننسب تأخرنا الثقافى والاجتماعى الى خضوعنا لدولة أخري واذا كان هذا العصر قد انقضى بتوقيع المعاهدة فاننا لن نستطيع أن نقتنع بهذه الحجة فى المستقبل ولن يستطيع أحمد شفيق باشا ان يعتذر عن سبب انحطاط مدارسنا ولن يستطيع مستر سبندر البريطانى أن يؤيدنا فى توجيه اللوم إلى دولة أخرى . واسمحوا لى أيها السادة أن أوجه عنايتكم « على الهامش » الي ملحوظة فرعية . ان هذا التباين العظيم بين عيشة وعيشة الذي يدهش مستر سبندر بوجوده يعزى معظمه الى نقص أساسى فى سياسة وزارة المعارف العامة حيال التعليم القومى تلك السياسة التى قلبت الهرم التعليمى رأسا على عقب فبالغت فى زخرفة القمة وبنائها من الذهب الخالص وتوغلت فى اهمال القاعدة حتى كادت تتداعى اركانها الرملية أي أنها بذرت فى التعليم الثانوى والعالى على حساب الاولى تبذيرا لا مثيل له فى بلدان العالم كما ابنا بارقام ناطقة فى محاضرة القيناها فى هذه القاعة منذ عامين موضوعها « الديموقراطيه والتعليم »

ان الامم التى تبسط يدها كل البسط فى تعليم طبقة خاصة من طبقات الامة وفئة قليلة ممتازة منها وتغل يدها الى عنقها فيما يتعلق بتربية السواد الاعظم من ابنائها تحفر بيدها هوة الدمار والفناء يدعو بعض الادباء الشبان الى الجنديه والجيش وينادى بالتدرب على الرماية وحمل السيوف

والبنادق تمثلا بموسولينى وهتلر . هذا قد يكون حسنا على شريطة أن نقوم بتعليم هذا الجيش تعليما أوليا على الاقل ونرفع النسبة المئوية بين المتعلمين الى درجة تقرب منها فى ايطاليا — ولا أقول فى المانيا — حتى لانضع السلطة فى أيد جاهلة فتتخذ من المدفع سلاحا نحارب به أنفسنا ونسعى الى حتفنا بظلفنا

٢ — اثر الاستقلال فى التعليم القومى

يتبين مما تقدم أن تنفيذ المعاهدة ودخول مصر فى عداد البلاد ذات السيادة يضاعفان المسئولية الملقاة على كواهلنا ازاء التعليم القومى أي أننا حكومة وشعبا مسئولون أمام الوطن والعالم المتمدين عن تربية أبنائنا وبناتنا تربية صحيحة — تلك التربية التى تتجاوز بكثير الحصول على الشهادات والدبلومات والدرجات العلمية

وتسألوننى ماهى التربية الصحيحة

الجواب لايتأتى بسطه فى هذه العجالة وفى هذا المقام وكتب التربية العلمية الحديثة مفعمة بالمواد وفى كثير من البلدان من انظمة التعليم ما يصح ان يتخذ نماذج ننسج على منوالها بعد تعديلها تعديلا يتفق والبيئة . المصرية والوزارة قد دعت من كبار الاختصاصيين الاجانب من بسط لنا مبادىء التربية الصحيحة وبين رجال الوزارة أنفسهم من ذوى الرصانة والحصانة والسداد والعلم من يركن اليه فى وضع الخطة التعليمية المنشودة بيد أن هذا لايمنعنا من تلخيص بعض المبادىء تى يبنبغى أن تكون رائدنا فى التربية

التربية الصحيحة التى توقظ القوى والمواهب الكامنة فى نفوس الافراد خصوصا فى سنى الطفولة والمراهقة هى التى تتفق والزمان والمكان وتتمشى مع الايام والعصور. هى التى تربى الجسم والعقل وتهذب العاطفة وهى التى تربى فى المتعلم الذوق السليم فيعجب بالجمال ويحب الجمال ويعجب بمكارم الأخلاق فيتصف بها و عجب بالحقيقة فيبحث عنها ويغار عليها. هى التى تجعل المدرسة مستقلة عن أحكام العادات والمعتقدات الاجتماعية البعيدة من الحقائق العلمية. هى التى تحترم شخصية المتعلم. هى التى لاتتقيد بحزب أو مذهب . هى التى لاتلقن التلاميذ تلقينها بل تدعوهم الى التفكير والمنافسة والحكم الصائب وتربى فيهم الابتكار والتمييز والاقدام

المدرسة الصحيحة تعلم الناشئة مبادىء الاديان على اختلاف أنواعها والمذاهب السياسية على تباين نزعاتها ولكنها لاتجعل لاى منها السيطرة عليها (الضمير عائد على المدرسة) أى انها تحرر الفكر من كل تأثير سياسى أو مذهبى حتى يسعى وراء الحقيقة بامانة علمية فى غير تحزب أو تعصب وهيهات القيام بنهضة خلقية قبل تحرير الذمم من قيود اجتماعية لاطائل تحتها وفك الاذهان من عقال العرف والتقليد متى اتضح فسادهما . المدرسة الصحيحة تسعى أن تدخل فى جميع أنظمتها دما

جديدا لاتخاذ دقة الملاحظة والتجريب العلمى أساسا للتفكير . وهى التى لاتكون فصول الدراسة فيها ثكنات للجنود أو أديرة للنساك بل هى التى تكون فيها الحياة كاملة والبيئة طبيعية تنشر فيها الأزاهر رائحتها الذكية وعبيقها المنعش للنفوس وتشرق فيها الشمس باشعتها الذهبية وتغرد الأطيار باصواتها العذبه الملائكية . تلك هى البيئة التى يجد فيها المربى جو الحرية فيمرح وتلاميذه ويعملون على أساس متين من المعانى لا الألفاظ والأعمال لا الأقوال و بناء صرح الاخلاق لاجواز الامتحانات والسلام

أين هذا النوع من المدارس من تلك التى لايتم فيها الطالب عمله على الوجه الأكمل حتى يكون قد درس حتى مل الدرس وانكب على النظريات حتى ضجر وعاقت نفسه النظريات والعليمات معا .

أين هذا النوع من المدارس من تلك التى يصبح فيها التلميذ الفقير « على الاخص فى نهاية العام » من قلة الغذاء وكثرة الحفظ والاستظهار وعقم الامتحانات النهائيه واهيا ناحلا خامل الذهن وقد ذهبت نضرته وانطفى سراج ذكائه أما البنت خصوصا فى بعض المدارس العالية والفصول الثانوية النهائية فلا يتبقى منها إلا الألواح ولا يتخلف من جسمها الدقيق إلا جلد على عظم

المدرسة الصحيحة تكون فيها اليد فى مقدمة الوسائل لتربية الملكات العقلية . وعلم النفس يقرل لنا علماؤه أن لاتوجد مشاهدة بغير حركة والحركة من أعمال اليد فى الغالب ولا غرابة إذا وجدنا المدارس الراقية الثانوية منها والابتدائية تعنى بالأعمال اليدوية والصناعية والزراعية

يقول الفيلسوف الألمانى نيتشه أن التربية نوعان عاملة وعاطلة فالعاطلة . هى التى تكون الصلة الوحيدة فيها بين المعلم والطالب هى الاذن وتقوم التربية فيها على عملية ذات طرفين ففى الطرف الاول نجد لسانا « كناية عن المعلم » يتكلم ويحاضر ويشرح وفى الطرف الثانى نجد أذنا « كناية عن الطالب » تسمع وأحيانا نجد يدا تتحرك على القرطاس لتدوين المذكرات . هذا النوع من التربية فاسد بالطبع لأن المعلم يكون فيه محطة إذاعة والطالب آلة لاسلكية لاقطة

التربية الصحيحة لاتعتبر الطالب وعاء يطلب ملؤه أو قطعة من العجين يطلب تشكيلها تشكيلا أو استطوانة من الشمع كاسطوانة « الفنوغراف » تنقش عليها المعارف والعلوم . كلا فان هذا الاعتبار يجعل التلميذ عاطلا لا عاملا قابلا لا فاعلا متأثرا لامؤثرا يهبط عليه الوحى يخلق الفن خلقا . هذه هى المدرسة التى وصفها الأستاذ الفرنسى المعروف فرييه فى كتابه هى المدرسة التى تعنى بالطالب قبل المعلم والمعلم قبل الناظر والناظر قبل المفتش والمفتش قبل المراقب والمراقب قبل وكيل الوزارة ووزيرها

ولى ذلك العصر الذى كان فيه أساس التربية الفلسفة العقلية كما كانوا يسمونها وهى تلك الفلسفة التى كانت تعنى بتدريب الذهن وتقويته بالمعارف والعلوم بغض النظر عن قيمتها العملية . ولى ذلك العصر وانقضى وحل محله عصر البداغوجيا — التربية الصحيحة — بعد مجىء كومنيوس وروسو

وبستلوزى وهربرت سبنسر ووليم جيمس واستانلى هول وجون ديوى ، هؤلاء جميعا يتفقون على أن الوظائف الذهنية ليست إلا وسائل الغرض منها الانتاج والنشاط . والنشاط هو ماتمليه علينا حاجاتنا كان علم النفس القديم يدفع المدرسة إلى تزويد الطلبة بأكثر كمية من المعرفة لأن المعرفة فى ذاتها كانت تعتبر قوة . بيد أن علم النفس الحديث يجعل المعارف خاضعه لحاجات الانسان خادمة لها لأن هذه المعارف ماهى إلا وسيلة نتوصل بها إلي غرض أو أغراض

تودى بنا هذه النقطة إلى الاشارة إلى الامتحانات العامه واعتمادها على الذاكرة أيها السادة خادمة للذكاء والتفكير وغير سابقة لهما ولانستطيع الانكار أن الذاكرة ملكة ثمينة وأن هناك من الحقائق العامه التى يجدر بكل منقف معرفتها لاتصالها بحياتنا اليومية فى القرن العشرين وأن التفكير لايمكن أن يتأتى بغير معلومات وحقائق أو كما قيل أننا لانستطيع أن نفكر فى فراغ . هذا كله لاينكر ولكن الامتحانات العامه كما نراها فى بلادنا اليوم تؤله الذاكرة وتوحد الأنظمة فتسيرنا على وتيرة واحدة وتجعل الأساتذة آلات مسخرة تتحرك مدفوعة بهذه الأنظمة فتهمل العاطفة والعقل وتقتل الاقدام والتأهب لخوض معارك الحياة

قال علماء النفس فى القرن الماضى أن الطاقة العقلية لها أربع وظائف وهى (ا) الذكاء (ب) الذاكرة (ج) والتخيل (د) وصواب الحكم أو التمييز . فالفهم من خصائص الذكاء والحفظ من خصائص الذاكرة وتداعى المعانى من خصائص التخيل والموازنة والمقارنة من خصائص التمييز

ولكن لعمرى أنى لنا تربية هذه الوظائف طالما كنا لانعنى بغير الذاكرة وطالما كنا عبيداً للمناهج عبيداً للحفظ عبيداً للامتحانات فانشأنا لها مراقبة خاصة تنوبها لقدرها . وهنا أحل حضراتكم إلى مادبجته يراعة محمد عوض ابراهيم بك وكيل الوزارة المساعد فى تقريره عن التعليم الثانوى حينما كان مراقبا لذلك التعليم وإلى تقرير أحمد الهلالى بك فى « التعليم الثانوي ، عيوبه وطرق إصلاحه » حينما كان وزيراً للمعارف وأخيراً إلى تقرير حسن فائق بك (صفحة ٣٣) مراقب التعليم الثانوى فى هذا العام

٣ — السياسة والتعليم القومي

ويظهر أن بعض العلل التى نشكو منها فى بلادنا مصابة بها بعض البلدان اللاتينية فقد ظهر فى غضون سنة ١٩٣٦ كتاب نفيس باللغة الفرنسية

ومؤلفه أستاذ كبير سابق فى جمهوريه بيرو من جمهوريات أميركا الجنوبية والآن ممثل سياسى لبلاده فى بروكسل عاصمة البلجيك . ويخيل إلى أن بعض ماجاء فى هذا الكتاب النفيس موجه الينا رأسا واسمحوا لى أيها السادة أن أترجم لكم بعض أقواله بحروفها

« ومما يؤسف له أن العواطف السياسية والأهواء الحزبية كثيراً ماتهمل الناحية العلمية فى البلاد فتقضى على الروح العلمية قضاء مبرما وتطفىء شعلة الذكاء فى الافراد العاملين وتهضم حقوق العلماء

حتى تأخذ نجومهم فى الأفول وتتجلى هذه الظاهرة على الاخص فى البلاد التى تضع على رأس وزارة المعارف فيها وزيرا من رجال السياسة يؤخذ عادة من طائفة رجال القانون الذين يجهلون مبادىء التربية جهلا تاما ولا يعنيهم من عملهم سوى إرضاء الدائرة الانتخابية التى اليها ينتمون ويعمد هؤلاء إلى وضع الثقة فى أيدى الموظفين من محسوبيهم من غير الفنيين الذين ينفذون إراداتهم ويهملون أولئك الذين درجوا فى أحضان مهنة التربية والتعليم فيهبط مستوى التعليم إلى درجة غير محدودة العاقبة إلى أن قال

« يظن رجال السياسة أنهم ذوو مقدرة على حل مشاكل التعليم بمناقشات قانونية لاتجدي نفعا فى حين أن هذا الحل يتطلب إلماما جديا بمبادىء التربية التى لا سبيل للوصول اليها إلا بالدرس والمرانة

« إن وضع المناهج واختيار أساليب التدريس لا تتطلب رجال السياسة بل رجال التعليم وأن رجال القانون السياسيين ليسوا من الكفاية فى فن التربية وليس لديهم من الحرية مايخول لهم العمل فى مصلحة المتعلمين »

وهنا شدد النبرة على مبدأ الأمانة والأخلاص فيما يختص بالقائمين بمهام الثقافة القومية فقال إن العمل باخلاص أمر وعر الملتمس منيع الدرك ولكن من المستحيل أن تصنع رجلا إذا لم تكن أنت رجلا »

وتعليقا على أقوال هذا المربى العظيم نقول — والحق أولى أن يقال — إن كل محاولة فى إصلاح أنظمة التعليم فى بلادنا قامت على أيدى وزيرين أو ثلاثة من رجال القانون والسياسة ولم تقم محاولات ما فى سبيل الاصلاح على أيدى غيرهم من رجال الوزارة الفنيين بيد أن الجواب على هذا (أولا) أننا إذا عددنا أسماء الوزراء السابين للمعارف فقلما نعثر على وزير من غير رجال القانون والسياسة (ثانيا) أن غيرهم من رجال الوزارة الفنيين لم يكونوا وزراء وإذاً فلم يكن لهم حول ولا سلطة على مد يد الاصلاح حتى لو كان ذلك فى مقدورهم

٤ — رجال التربية المصريين فى مئة سنة

فى سنة ١٨٣٦ أنشىء فى مصر مجلس المعارف العمومية أى أننا نستطيع أن نقول أن وزارة المعارف العمومية « رغم ماطرأ على اسمها من التغيرات » تبلغ من العمر قرنا كاملا

ولكن إذا حق لنا أن نفخر أننا أخرجنا للبلاد أطباء من الدرجة الأولى ومحامين وقضاة من الدرجة الأولى وأوشكنا أن نخرج أيضا مهندسين من الطبقة الأولى . إذا حق لنا ذلك فهل نستطيع ن نباهى باننا أخرجنا معلمين من الدرجة الأولى ومعاهد علمية (ابتدائية وثانوية) يصح أن تتخذ نموذجا للتربية الصحيحة فى خلال السنوات المئة الماضية أو ربع القرن الاخير ؟

اسمعوا أيها السادة مايقوله أحد رجال الوزارة أنفسهم . يقول محمد الحسينى مصطفى بك فى تقريره سابق ذكره صفحة ٥ ونقلا عن مستر مان الخبير الانجليزى

« انه لاتكاد توجد مدارس فى مصر تظهر فيها مبادىء التربية الحديثة مطبقة تطبيقا تاما فى تنظيمها المدرسى وطرق التدريس والادارة فيها أي أنه لاتكاد توجد مدارس يصح أن يتخذها مدرس التربية الخبير بفنه نموذجا لتدريب طلبته فيها . . . »

أنشأت الوزارة مدرسة من هذا النوع كان عمادها والعامل على انشائها معلم مال بطبيعته الى فنون التربية غير أن الوزارة أرادت مكافأته فعينته ناظرا وهذا هو الداء الذى يصيب النابغين فى مصر . لانكاد نجد جراحا نابغا حتى نختطفه من غرفة العمليات التى يؤدى فيها خدمات جليلة تخفيفا لويلات الانسانية حتى نضمه على رأس مصلحة ادارية يقضى يومه فى التوقيع على أوراق لانهاية لها ولانكاد نجد معلما ماهرا حتى ننقله الى عمل ادارى ينسى فى طاحونه الدائمة الدوران والله مهنته الراقية

هل أخرجنا أيها السادة طيلة هذا القرن معلما واحدا ومربيا بالمعنى السامى نستطيع أن نقول عنه انه قضى حياته فى خدمة مهنته والعمل على ترقيتها وابتكار الطرق والنظم التى يصح أن تتخذ نموذجا فى مصر والخارج أمثال السيدة مدام مونتسورى فى ايطاليا ودى روش فى فرنسا وبوفيه وكلاباريد فى سويسرا وديوى فى امريكا ودكرولى فى برلين ؟ أو هل عاش فينا ومات رجل أشرب هذه المهنة وعاش ومات مخلصا أمينا لها . اسمعوا أيها السادة ماتركه الدكتور دكرولى على مائدة كان يكتب عليها قبل وفاته ببضع دقائق وقد وجدت هذه العبارة على ورقة لم يجف مدادها وهى : —

« يحق لضعيف مثلى قضى ربع قرن فى خدمة هذه المهنة الشريفه فى هذه اللحظة التى أشعر فيها بدنو الأجل . يحق لى أن أمضى الى مقرى الأبدى الأخير بسلام فرحا مبتهجا مرتاح الضمير لأن جهودى لم تذهب عبثا منثورا وان هذا البناء الذي وضعت أساسه بيدي سلم الى من يستطيع القيام باتمامه خير قيام من أبناء وطنى المخلصين »

أيها السادة توالت الأيام وتوالت على وزارة المعارف فيها ضروب من أنواع النشاط شبيهة بعضها بالنوبات العصبية فمن الوزراء من كان نشاطه محصورا فى تكوين لجان لدرس حالة التعليم القومى وكتابة التقارير المسهبة احيانا ثم عقد جلسة مرة واحدة فتطفىء لهيب حماسته وتؤجل الجلسة تأجيلا نهائيا لا انعقاد بعده . ومن الوزراء من كان نشاطه محصورا فى نقل الموظفين والمعلمين بالجملة ، وهدم مابناه من المشاريع سابقه . ومنهم من كان نشاطه موجها الى السهر على العرف والعادة والدفاع عنها دفاع الأبطال فى قاعة الدراسة وساحة اللعب وغرفة المائدة وحجرة النظار والمدرسين وفيهم من كانت نوبته تدور حول التنقيب عن الكتب القديمة واحياء الرمم البالية المفيد منها وغير المفيد . ومنهم من حصر نشاطه فى المناداة لقومية تمتد من البحر الهندي شرقا والبحر الاطلنطى غربا . ومنهم بالطبع من تمدد على كرسى الوزارة والنوم ملء جفنيه

قد يقول قائل أيها السادة ان هذا الكلام ينطبق على جميع الوزارات . قد يكون هذا صوابا بيد أنه يجدر بنا أن نذكر أن وظيفة هذه الوزارة تمتاز عن سواها بان عملها أن يقوم بتثقيف الأمة وعليها أن تكون فى مقدمتها جميعا

٥ ـ كلمة ختامية

ماحملة البكالوريا يطرقون أبواب الوظائف خصوصا الحكومية منها ولايفكرون فى مزاولة الاعمال الحرة المستقلة وما حملة دبلوم الزراعة يتهافتون على وظائف وزارية ولايحاولون الاشتغال بالزراعة ، وماحملة دبلوم التجارة يؤثرون وظيفة كتابية متواضعة على القيام مستقلين بتجارة متواضعة ، وماحملة دبلوم الطب يؤثرون العمل فى ظل الحكومة وان أدى ذلك الى قتل الروح العلمى فيهم ونسيان مهنتهم على الكفاح فى سبيل الحياة احرارا عاملين

هذه أسئلة جارحة مؤلمة تلقى على الناشئة المصرية بغير انقطاع وتكال لهم بغير حساب تحمل بين عباراتها أشد معانى اللوم والتقريع بغير مبرر وتدل فى ظاهرها على حقائق مليئة منطقية ، وماهى فى الواقع إلا فقاقيع جوفاء وأقوال مضللة للسامع مجحفة بحقوق المسئول ماسة بعزته وكرامته

اى لعمري — أليست هذه الخطة التى رسمناها للطالب المصري المسكين منذ أن رأت عيناه حجرة الدراسة أليست هذه هى القبلة التى ولينا وجهه شطرها منذ نعومة أظفاره . أليست القالب الحديدى الذي حبسنا فيه قدمه الصغيرة وشددنا عليه فيه الخناق هو هو عين القالب الذى خصصناه لسائر اخوانه طولا وعرضا وشكلا وزيا وان اختلفت أقدامهم . أليس هذا النظام الموحد الحربى الدقيق الذى يسير على وتيرة واحدة هو الذي يمسك بأيدى هؤلاء الطلاب فيطرق بها تلك الابواب ألا يظل الطالب طيله الفترة المدرسية فى حركاته وسكناته فى مذكراته واستظهاره مقيداً بكتب ومذكرات وامتحانات دورية تقتل فيه ملكه التفكير وتطفىء فيه شعلة الابتكار وتذهب بما قد يكون فى طبيعته من شجاعة ومجازفة وإقدام ؟ ألا يعتمد فى نجاحه على مذكرات أستاذه حتى فى معظم المدارس العليا لأن النظام فى ذاته لايشجع على البحث العلمى والرجوع إلى عدة مؤلفات بدلا من كتاب مقرر واحد أو مذكرات محدودة مطبوعة الويل لمن لايستوعب ما فيها

أليس من شأن هذا أن يخرج آلات أتوماتكية لارءوسا مفكرة أمن الغريب أن يتحرك هذا الجيش كله فى طريق واحد نحو جهة واحدة وهدف واحد ؟ هل نوعنا المدارس تنويعا يجد من النشء ما يناسب الفروق الفردية فيهم ذكاء وكفاية ونزعات وميولا وعواطف ورغائب ؟ هل نظمنا البلاد تنظيما اجتماعيا يكفل لهذا الجيش العرمرم المدجج بالسلاح ان يعلم إلى أية موقعة حربية نسوقه ؟ فاذا كان الجواب سلبا أفلا يكون مثلنا مثل من

« القاه فى اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالمـاء »

فى الحياة والعمل

بقلم سلامه موسى

وجه آخر للحضارة

تسىء الينا شركات الأخبار الأجنبية أكبر الاساءة عندما تقتصر أخبارها على خطب الزعماء عن الحرب أو عندما تنقل الينا فظائع الثورة العسكرية أو الشيوعية فى اسبانيا أو عندما تحدثنا عن فظائع الفاشيين الايطاليين أو الشيوعيين الروس . وهي تسىء الينا لأنها تنقل الينا صورة ناقصة للحضارة الاوربية بل صورتها القبيحة صورة الامراض التى تنتابها من وقت لآخر وهى لا بد متخلصة منها يوما ما . ونحن بمداومة القراءة لهذه الاخبار نتوهم أن الحضارة الاوربية فى نزاع لا ينقطع تأكل نفسها وتبدد قواها وهى عن قريب زائلة

وهذا وهم عظيم ترجع التبعة فيه إلى هذه الشركات . ففى أوربا من التجديد فى الحضارة والثقافة ما سوف يسفر عن فوز عظيم للانسانية يشبه ذلك الفوز الذى تحقق لاوربا فى القرن الخامس عشر حين نفضت عن نفسها غبار القرون الوسطى واختطت طرقا جديدة للتفكير البكر الجرىء . ولا يمكن المنغمس فى الفلسفات الاوربية الامريكية الحديثة الا أن يشعر بأننا على وشك الاهتداء الى مرساة يرسو عليها الفكر البشرى ويجد منها مفتاح التجديد الاجتماعى والتضامن الدينى . ونحن الآن فى ظلام النظريات المتخبطة التى قامت على الاسس المزعزعة للعادات والعقائد الموروثة . وقد وصلنا الى مرحلة الحيرة والتخبط فلا بد من أن نصل بعدها الى اليقين والاستقرار

ولكن الشركات التلغرافية للاخبار لا تبالى هذا التجديد فى أوربا لانه خلو من القيمة الارجافية التى لسائر الاخبار . وهى تقصد الى الارجاف قبل كل شىء . فهى تنبئنا عن اصطدام قطارين أو عن اشاعة الزواج لاحد الامراء أو عن مقابلة وزيرين أو تنقل الينا خطبة أحد الفاشيين الايطاليين يخاطب فيها الجمهور بلغة العصر الحجرى . ولكنها لم تنقل الينا ان مطران يورك وهو موظف فى الدولة البريطانية دعا حكومته الى التخلى عن المستعمرات وتسليمها لعصبة الامم . ولم تنقل الينا ان الهيئات الرسمية وشبه الرسمية فى انجلترا وحدها قد بنت من المنازل الجديدة للعمال ما بلغت قيمته نحو ٢٠٠ مليون جنيه . وهى منازل تحوى ألوان الحضارة الحديثة تقريبا . وتفضل من هذه الوجهة بعض منازل الباشوات فى القاهرة . لان هناك فى هذه المنازل رفاهية ممتعة وهنا فى

فى منازل باشواتنا ترف سخيف . وهي لم تنقل الينا ان المدارس الابتدائية فى معظم أقطار أوربا الغربية توزع اللبن والغداء بالمجان للاطفال . ولم تنقل الينا ان رومانيا قد خفضت الديون عامة فى بعض الاحيان الى ٢٥ فى المائة من أصلها . ولم تذكر لنا ان هتلر يسير بقوة فى ناحيـة ترقية المادة الانسانية الالمانية بتعقيم العاجزين والناقصين فى الجسم أو العقل وهو ينظر خلال ذلك الى الشعب الالمانى بعد الف سنة

وهذه الشركات لم تنقل الينا خبر « فطور أوسلو »

وما هو فطور أوسلو عند الذين لا يعجبهم سوى تلك الاخبار الارجافية ؟

هو هذا : ان الامم الثلاث الاسكندناوية قد أخذت بنظام قد نشأ أولا فى أوسـلو عاصمة نروج ، وهو ان الطفل عند ما يصل الى المدرسة يكون أول شيء يبدأ به أن يتناول فطورا يحتوى ثلث لتر من اللبن وكسرة من الخبز الاسمر وقطعة من الجبن وقطعة أخرى من الزبدة وتفاحة أو برتقالة أو أى فاكهة أخرى

هذا الخبر ذابل بعيـد عن الارجاف وليس فيه جلجـلة موسولينى ، ولـكن لو اسـتطاع الايطاليون ان يعمموا هـذا الفطور فى بلادهم لاصـبحوا أمة متمدنة ولو ضـاعت منهم الحبشـة وطرابلس ، ونحن أيضا نستطيع أن نبدأ فى الحضارة لو أننا فـكرنا هـذا التفـكير بدلا من أن نفكر فى انشاء مجمع لغوى تنفق عليه أربعين الف جنيه لكى يؤلف لنا ألفاظا كريهة لا يستعملها أحد ، وكنا نـكون متمـدنين حقا لو أن هـذا المبلغ الضخم قد اشترينا به صابونا ووزعناه بين الفقراء لكى يغتسلوا أو لو أننا اشترينا به لبنا أعطيناه للاطفال المصريين المساكين فى السيدة زينب وبولاق

ان في أوربا فضائل غير شرقية خالية من الابهة لا تنقـل الينا شركات الاخبـار شيئا عنهـا ولـكننا فى أشد الحاجة لان نعرفها ونعمل بها أو على الاقل نفـكر فيها . وذلك لان هذه الاخبار تتصل باصلاح النفس واصلاح الجسم

ألمانيا تستغنى عن العالم

أعلن هتلر قبل اسابيع مشروع السنوات الاربع الذى يراد به أن تـكتفى ألمانيا نفسها فتستغنى عن المواد الخامة التى تشتريها من الاقطار الاجنبية وتصنعها من مواد أو محصولات المانية . ويبعثها على هذه الخطة انها لا تملك مستعمرات تستطيع أن تأخذ منها موادها الخامة ثم هى قليلة النقد لا يمكنها أن تؤدى الاثمان الباهظة التى تطلبها هذه المواد فى أسواق العالم

ويجرىء ألمانيا على أن تنشد هذا الاستغناء عن العالم انهـا نجحت في المـاضى فى كثير مما

نشدته . ففى السنين السابقه للحرب كانت ألمانيا تستورد سماد النترات من شيلى وتؤدي ثمنه بضعه ملايين من الجنيهات كل عام

فلما وقعت الحرب الكبرى وتعذر على ألمانيا استيراد المحصولات الاجنبية عمدت الى علومها التى أثمرت هذا السماد يخرجه علماؤها من الجو . وهى الآن مستغنية عن شيلى بل هي تصدر مقادير كبيرة من هذا السماد . ومصر تشترى منها مقدارا كبيرا منه كل عام . ويجرئها على هذه أيضا انها اخترعت قبل أكثر من اربعين سنة اصباغ الانيلين الكيماوية التى اغنتها عن صبغة النيل الهندى ، بل يجرئها على ذلك نجاحها في صنع الريون هذا القماش العجيب المصنوع من الخشب

وقد استطاعت ألمانيا على الرغم من نفقاتها الحربية العظيمة أن تنقص وارداتها الى نحو النصف فى السنوات الثلاث الماضية . وذلك لأنها عنيت بأن تكفى نفسها الى حد المستطاع من محصولاتها ومواردها الاولية . مثال ذلك أن ألمانيا كانت تستورد حبوبا زيتية بمقدار مليونى طن كل عام لانها تحتاج الى زيوتها لصناعاتها المختلفة . ولكن هتلر دعا المصانع الالمانية الى استعمال الحبوب الالمانية الزيتية وأدى لها عن كل طن ٢٥ جنيها حتى لاتتعرض للخسارة

وأقبل المزارعون الالمان على زراعة هذه الحبوب عند ماوثقوا من الربح كما انهم انتفعوا بها فى تسمين مواشيهم التى أصبحت تكفى ألمانيا لحما ولبنا وزبدة وجبنا وهذا مالا نستطيع أن نقوله نحن عن بلادنا الزراعية

ويستخرج الالمان ٤٢٠٫٠٠٠ طن من البترول من عيونهم التى اهتدوا اليها فى أرضهم . ولكنهم يصنعون أيضا البترول من الفحم . ولن يمضى وقت طويل حتى تستطيع ألمانيا أن تفاخر بانها ليست محتاجة الى استيراد البترول من الخارج . ثم هي أيضا تصنع الكئول من البنجر والبطاطس وغيرهما وتستعمله وقودا للاتومبيلات بدلا من البنزين أو معه

وقد استطاع العلماء الالمان أن يصنعوا كوتشوكا مركبا من الجير والفحم . وجميع الاطارات المستعملة فى العربات الموطرية بالجيش هي من هذا المركب الكيماوى العجيب . وجميع القراء يعرفون أن صناعة الريون قد ثبتت فى ألمانيا . وهم يربحون منها أرباحا عظيمة سواء فى الاسواق الداخلية أم فى الاسواق الخارجية . ولكن قل من يعرف أنهم اخترعوا صوفا صناعيا يسمونه « فيسترا » . وهي لفظة ستدخل لغات العالم كلها كما دخلتها لفظة ريون . وجميع جنود الجيش الالمانى يتخذون من هذا القماش شكتهم العسكرية

وللضيق الاقتصادى فوائده . فان السكر لم يستخرج من البنجر الا عند ماحاصر الاسطول

الانجليزي قوات نابليون قبل ١٣٠ سنة ومنع عن فرنسا واردات السكر المصنوعة من القصب . فان نابليون حمل العلماء الفرنسيين على البحث عن طرق أخرى لصنع السكر ونجح في ذلك . كما يحمل الآن هتلر علماء ألمانيا على صنع السماد والبترول والكئول والزيوت والكوتشوك والأقمشة من مواد ألمانية

وهذا اللبن المخيض الذي نطرحه بعد أن نأخذ الزبدة هو الآن تحت رقابة هتلر ورجاله ، فان هذا اللبن يجمد بمواد كيماوية وتصنع منه أدوات مختلفة مثل الامشاط وأيدي العصي وأكرات الابواب واطارات النظارات وغيرها ، وفي شتوتجارت مصانع تصنع الخشب من القش ، وفي غيرها يستخرج السكر — بمقادير قليلة الآن — من الخشب ، وفي ألمانيا الآن عالم من علمائها السحرة قد استطاع أن يستخرج السكر من الماء وان لم يستطيع بعد أن يجعل ما يستخرجه رخيصا يزاحم غيره من سكر البنجر أو القصب أو الخشب

الفاشية في أوربا

يسهل على الانسان أن يسمى الشيوعية أو الاشتراكية مذهبا سياسيا وذلك لان هذا المذهب قد دعا اليه دعاة منذ أكثر من خمسين أو ستين سنة وكانت له أحزاب تقوى وتضعف وتناضل وتنهزم أحيانا وتنتصر

ولكن الفاشية مذهب جديد لا يكاد الانسان يستطيع أن يحدد معانيه وأغراضه . وصحيح ان الفاشيين الايطاليين وكذلك الفاشيين الالمان قد قاموا بأعمال ايجابية مختلفة ولكنهم لا يشتركون في هذه الاعمال الايجابية بقدر اشتراكهم في العمل السلبي وهو مكافحة الشيوعية

وذلك ان الفاشية تدعو الى الرياضة البدنية والاعتماد على القومية والوطنية دون العالمية والايمان بالسيف واصلاح الارض الزراعية ورد الزراعة الى مقامها السابق ومنع الاضراب بين العمال وتثبيط النساء عن الاعمال الحرة . ولكن المتأمل لكل هذه الاشياء لا يستطيع أن يجد المحور الذي تدور عليها جميعا كما يجد محورا معينا واضحا في الاشتراكية مثلا

وعندنا ان الفاشية ليس لها من سبب للوجود غير مكافحة الشيوعية أي لولا قيام الشيوعية في روسيا والدعاية القوية التي تقوم بها في الاقطار الاوربية لما ظهرت الفاشية في ايطاليا ثم في ألمانيا ثم في غيرهما

وروسيا لا تبالي مساعدة حكومة الجبهة الشعبية في اسبانيا هذه الايام كما لا تبالي الدول الفاشية مساعدة الثائرين الذين ينوون تأسيس حكومة فاشية . وقد مضى على الثورة الاسبانية ثلاثة أشهر . ولا يمكن أن يقال ان الثائرين قد فازوا أو انهم ينتظر لهم الفوز الاخير حتى بعد نضال

يدوم بضعة أشهر أخرى . فان المألوف في الثورات أن ينتصر الثائرون بسرعة . وبديهي ان الحكومة لا تزال تحتفظ وتزداد ثباتا كلما ضاقت الرقعة التي تحميها من الثائرين . وفي القسم الذي لا يزال تحت سيطرة الحكومة أقاليم قطلونيه وهي قطر صناعي شديد التعصب للاشتراكية والاستقلال

ولكن اذا فرضنا ان الفاشية لن تحقق ما يشتهيه زعماؤها في اسبانيا فان الذي لا يشك فيه انها ستحقق في كثير من الاقطار الاوربية . بل هي قد حققت بالفعل. ونحن نعني هنا بلفظة الفاشية كل نظام حكومي يقصد منه مكافحة الشيوعية بصرف النظر عن برامجها الايجابية

وعلى هذا الفهم يمكن أن نقول ان الفاشية أو الديكتاتورية قد فازت في اليونان ويوغوسلافيا وبولندا وهي على وشك الانتصار في بولندا وبلغاريا

وقيام دولة شيوعية أو دولة فاشية هو بطبيعة الوجود فقط يدعو الى الحرب حتى ولو أرادت هذه الدولة السلم . وذلك لأن كل دولة شيوعية بطبيعة وجودها فقط خطر على جاراتها من الدول لانها تتحدى النظام القائم فيها وتفكك كيانها الاجتماعي . وكذلك الحال في الدولة الفاشية فانها بالغائها للنظام البرلماني لا يمكنها أن تطمئن الى قيام دولة ديمقراطية بجوارها لان في ذلك معنى التحدي لنظامها هي

وعلى هذا نقول ان أوربا تعيش على شفا البركان . فان الدول الديموقراطية والفاشية والشيوعية لا يمكنها أن تسكن مطمئنة بجوار بعضها البعض فلا بد من الحرب بينها اذ أن نظام كل منها هو في نفسه يتحدى نظام الدول المجاورة ويبعث القلاقل فيها . وهذا الذي يجري في اسبانيا سوف يجري قريبا في أوربا

الاقباط والادب العربي

تفكر وزارة المعارف هذه الايام في تنقيح جديد للمجمع اللغوي من حيث ضم بعض الاشخاص الجدد اليه واعادة النظر في نظامه . وأغلب الظن انها لا تفكر في ضم أحد من الاقباط . بل هي قد تفكر في ضم التونسيين والمراكشيين والعراقيين والسوريين اعتقاداً بأن بين هؤلاء من يدرسون اللغة والادب العربيين ولكنها لا تعتقد ان بين الاقباط من يجاريهم أو يتفوق عليهم فيهما . كأن هذا المليون من الاقباط في مصر لا يتكلم بالعربية أو يتعلمها وانما يرطن رطانة أجنبية يجب على الوزارة أن تقي المجمع منها

وهذه الوزارة نفسها تشترك لمدارسها في ٢٩ مجلة مختلفة ولكن ليس بين هذه المجلات واحدة يملكها ويكتبها قبطي . وهي هنا - كما في المجمع — تجري على مبدأ لا تتجاوزه هو الاعتقاد بأن الاقباط ليس بينهم كتاب أو أدباء

ونحن نرجو من وزارة المعارف أن تقلع عن هـذا الاعتقاد الذي يقوم على وهم قديم قد آن الاوان لتصحيحه . فان الادباء الـكتاب بين الاقباط لا يعدون بالعشرات بل بالمئات . وكرامة الطائفة القبطية تقتضى ألا ينسى أبناؤها فى مثل هذه الاعتبارات فان حرمان أدبائهم من المجمع أو رفض الوزارة الاشتراك فى مجلاتهم فضلا عما فيه من استهانة بالاشخاص البارزين هو فى ذاته اهانة للطائفة كلها بل اخراج لها يشبه التنحية عن الميدان الثقـافى ثم هو بعـد ذلك تثبيط لابنائهـا عن المضى فى الدرس والتثقف اذ هم عند ما يسـتقر فى أذهانهم أن جهودهم تنـكر عليهم يسقط فى أيديهم ويكفون عن السعى فى مضمار لا يعترف لهم فيه أصلا بالسبق ولو سبقوا

والشاب القبطى يختلف عن الشاب المسلم فى النزعة الادبية ، وهذا الاختلاف هو نقص وميزة لـكل منهما على الآخر . فان المسلم ينشـأ وفى ذهنه مركب سيكلوجى هو « مركب العرب » وهو لدرسه القرآن الشريف ينزع الى العناية بالادب العربى والمحسـنات اللفظية . وهذه له ميزة ولـكنها أيضا نقص . ذلك لانه ينفق من وقته كثيرا على شعراء العرب ومؤلفاتهم ويصرف جهده الهم وينسى ان أحسن ما يمكن أن يقال فى الادب العربى انه أدب القرون الوسطى : وهو بعيد كل البعد عن همومنا ومشاكلنا . أما الشاب القبطى فان ذهنه خال من هذا « المركب » وهو لذلك ينصرف فى حرية وجراءة الى الآداب الاوربية بل الى الثقافة العالمية . وهذه له ميزة ولـكنها أيضا نقص . إذ هو تنقصه الاناقة اللفظية التى تنغرس فى ذهن الشاب المسلم لدرسه القرآن الشريف واقباله علي آداب العرب . ولـكنه يمتاز بحرية النظر والتوسع الذهنى واقبـاله على آداب القرن العشرين وشعوره بأن الادب ليس حلية أو حلوى للزينة واللذة بل هم عظيم جليل من هموم الانسانية . وقد يكون فى هذا التحديد اعتساف ولـكنه اعتساف مفيد لايضاح الفروق

ومن مصلحة الامة أن يكون بها هذان اللونان من الادب . الواحد يربطنا بتراثنا العربى ومن الثقافة والآخر يبعثنا على التجديد المستمر . ولسنا نعنى ان هذه الحال ستبقى فى المستقبل كما كانت فى الماضى الى الآن . بل هذا التحديد هو كما قلنا معتسف الى حد ما . وظننا ان الاندغام قريب . فان الشاب القبطى سوف يتخلص من شعوره بأنه من أقليه غير مسلمة وسوف يقدم على الادب العربى القديم كما ان الشاب المسلم سوف يتخلص من « مركب العرب » ويقبل على آداب القرن العشرين . بل هو قد شرع فى ذلك بالفعل

ولـكن مقاطعة وزارة المعارف لادباء الاقباط تزيد شعورهم بأنهم أفراد الاقلية وهذا شعور سيء سواء للمسلمين أو للاقباط

FRONT

①